ديوان المتنبي

تحقيق

د. درويش الجويدي

2



ديوان المتنبي

تحقيق

د. درويش الجويدي

الجزء الثاني





شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: ٢٢١
تلفاكس: ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢٩٢٥٩ - ٧٢٩٢٦١ ٧ ٠٠٩٦١
صيدا - لبنان

٢٠١٤م - ١٤٣٥هـ

E. Mail alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com

ISBN 978 - 614 - 414 - 137 - 3


وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً

رويّ الكاف

الفرقد ابنك

قال لابن عبد الوهاب وقد جلس ابنه إلى جانب المصباح :

[البسيط]

أَمَا تَرَى مَا أَرَاهُ أَيُّهَا الـمَـلِكُ
كَأَنَّنَا فِي سَمَاءٍ مَا لَهَا حُبُكُ[(١)]

أَلْفَرْقَدُ ٱبْنُكَ وَالْمِصْبَاحُ صَاحِبُهُ
وَأَنْتَ بَدْرُ الدُّجَى وَالْمَجْلِسُ الْفَلَكُ[(٢)]

يا من لا شبيه له

يمدح عبد اللّه بن يحيى البحتري :

[البسيط]

بَكَيْتُ يَا رَبْعُ حَتَّى كِدْتُ أُبْكِيكَا
وَجُدْتُ بِي وَبِدَمْعِي فِي مَغَانِيكَا[(٣)]

---

(١) الحبك : طرائق النجوم في السماء . يسأل الشاعر ممدوحه عن إحساسه وما يراه ، فقد رأى الملك يسمو قدراً حتى تبوّأ السماء عرشاً له ، مع أنه لا طرائق له كما للسماء ؛ فالسماء كواكب ونجوم وحاشيته بشر لا يرتقون إلى النجوم .

(٢) الفرقد : أحد نجوم السماء . البدر : القمر . الدجى : ظلمة الليل . يشبه الشاعر ابن ممدوحه أنه فرقد إلى جانبه المصباح . ويشبه ممدوحه بالقمر في جماله وجلاله وضيائه وأنسه ، فإذا بوجهه قد انكشفت عنه ظلماء عتمة الليل ، فبدا مشعاً ، إنه محاط بكوكبة من الحاشية يزدان بهم مجلسه .

(٣) المغاني ، الواحد مغنى : المنازل المسكونة بأهلها . يبدأ الشاعر قصيدته المدحيَّة بالوقوف على الأطلال ، فيخاطب الربع حيث كانت حبيبته ، أما الآن فقد خلت تلك المغاني من ساكنيها ، فبدت قفراء لا حياة فيها ، ممَّا آلم الشاعر ، فإذا به يبكي متألماً لذكرى حبيبته .

فَعِمْ صَبَاحاً لَقَدْ هَيَّجْتَ لِي شَجَناً
وَٱرْدُدْ تَحِيَّتَنَا إِنَّا مُحَيُّوكَا[١]

بِأَيِّ حُكْمِ زَمَانٍ صِرْتَ مُتَّخِذاً
رِئْمَ الْفَلَا بَدَلاً مِنْ رِئْمِ أَهْلِيكَا[٢]

أَيَّامَ فِيكَ شُمُوسٌ مَا ٱنْبَعَثْنَ لَنَا
إِلَّا ٱبْتَعَثْنَ دَماً بِاللَّحْظِ مَسْفُوكَا[٣]

وَالْعَيْشُ أَخْضَرُ وَالأَطْلَالُ مُشْرِقَةٌ
كَأَنَّ نُورَ عُبَيْدِ ٱللَّهِ يَعْلُوكَا[٤]

نَجَا ٱمْرُؤٌ يَا ٱبْنَ يَحْيَى كُنْتَ بُغْيَتَهُ
وَخَابَ رَكْبُ رِكَابٍ لَمْ يَؤُمُّوكَا[٥]

---

(١) عم صباحاً: أي أنعم. يتمنّى الشاعر لتلك الديار أن تعيش بنعمة، فقد هيّج أشجانه وحرّك لواعج قلبه، فقد تذكر أيام عزّ تلك الديار التي كانت زاخمة تزخر بالحياة، وحبيبته تحيي فيه الأمل، ويطلب منه أن يردّ تحيّته ليُحسّ بالمشاركة الوجدانية بينهما.

(٢) و (٣) يسأل الشاعر تلك المغاني ما الذي جدّ وغيّر الأحوال، وما هي الظروف التي حملته على تبديل الصورة المعهودة لديه، لقد اعتاد أن يرى حبيبته غزالاً ظريف المظهر، أنيقاً، لطيفاً، لقد رحلت وتركت قلباً يتألم، فقد حلّ مكانها رئم حقيقي يرعى في جنبات الفلا المقفر. إنها أيام كانت العذارى فيها تبعث نشاطاً وحيوية؛ ضحكاً، لهواً، غناءً، أسراراً، مزاحاً، نظرات تودي بالعاشق إلى الهلاك، فيسفك دمه مع دموعه.

(٤) خضرة العيش: الغنى المتمثل بالكلأ والماء. يتخلّص الشاعر إلى مدح ممدوحه فينتقل من وصف جمال الحياة التي تسير على هيّنتها، والمقادير تجري بحسب أهواء ذلك المكان، فالماء والكلأ كثير، والحياة لا يُكدّرها مكدر؛ فالحياة كانت تبدو كأن نوراً مشرقاً لطيفاً يرعى ذلك المكان الذي يُشبه نور عبيد اللّه.

(٥) البغية: الطلب. خاب: خسر وفشل. الركب، الواحد راكب. الركاب: النياق. يؤموكا: يقصدوكا. يُخاطب الشاعر ممدوحه إنه مقصد خير وغنى، فمن قصدك فقد وقع على كنز ومن لم تكن بغيته خاب وخسر وعاد خالي الوفاض بلا درهم أو دينار.

أَحْيَيْتَ لِلشُّعَرَاءِ الشِّعْرَ فَامْتَدَحُوا
جَمِيعَ مَنْ مَدَحُوهُ بِالَّذِي فِيكَا[١]
وَعَلَّمُوا النَّاسَ مِنْكَ المَجْدَ وَٱقْتَدَرُوا
عَلَى دَقِيقِ المَعَانِي مِنْ مَعَانِيكَا[٢]
فَكُنْ كَمَا شِئْتَ يَا مَنْ لا شَبِيهَ لَهُ
وَكَيْفَ شِئْتَ فَمَا خَلْقٌ يُدَانِيكَا[٣]
شُكْرُ الْعُفَاةِ لِمَا أَوْلَيْتَ أَوْجَدَنِي
إِلَى نَدَاكَ طَرِيقَ الْعُرْفِ مَسْلُوكَا[٤]
وَعُظْمُ قَدْرِكَ فِي الآفَاقِ أَوْهَمَنِي
أَنِّي بِقِلَّةِ مَا أَثْنَيْتُ أَهْجُوكَا[٥]
كَفَى بِأَنَّكَ مِنْ قَحْطَانَ فِي شَرَفٍ
وَإِنْ فَخَرْتَ فَكُلٌّ مِنْ مَوَالِيكَا[٦]

---

(١) و (٢) لقد تمثل في الممدوح غايات مكارم الأخلاق؛ جود، أخلاق حميدة، حلم، شجاعة، صبر على المكاره، إيواه المستصرخين طالبي الحماية؛ إنها مثل استنشق الشعراء ريحها من أريج أخلاق الممدوح. فإذا بهم يصبّونها في قصائدهم يمدحون بها سواه من الممدوحين، فإذا بهم يتخذونها ديدنهم.

(٣) فيستقون من أخلاق الممدوح أخلاقهم، ويتخذونه القُدوة الصالحة فيقلّدونه حتى في أدقّ تفاصيل تلك المعاني المقتبسة من سلوكياته.

(٤) العفاة، الواحدة عافٍ: طالب المعروف. أوليت: أعطيت. الندى: الكرم. العُرف: المعروف من كلّ خير. يمدح الشاعر ممدوحه بالجود، لذا فذوو الحاجات يقصدونه آملين رفداً بمستوى كرم عبيد اللّه، وهذا ما دفع الشاعر إلى أن يتوجّه إليه آملاً أن يُرزق من عطائه المشهور من الناس، لذا سلك الشاعر الدرب المؤدية إلى رحابه، والرجاء يملأه.

(٥) و (٦) الآفاق، الواحد أفق: الأنحاء. في جعبة الشاعر من الشعر الكثير، ولكن التقصير في حق ممدوحه وارد لكثرة المعاني التي اجتمعت لدى عبيد اللّه بحيث جعلت الشاعر كأنه يهجوه رغم ما أولاه من صفات حميدة. وما يكفي الممدوح أنه قحطاني يتزعّم قبيلته؛ وهذا فخر بحدّ ذاته إلى القبيلة أن تحتمي به وتنضوي تحت لوائه، فكلّ القحطانيين عبيده يأمر فيُطاع، أمره نافذ نفاذ القضاء.

وَلَـوْ نَـقَـصْـتُ كَـمَـا قَـدْ زِدْتَ مِـنْ كَـرَم
عَـلَـى الْـوَرَى لَـرَأَوْنِـي مِـثْـلَ شَـانِـيـكَـا[١]
لَـبَّـيْ نَـدَاكَ لَـقَـدْ نَـادَى فَـأَسْـمَـعَـنِـي
يَـفْـدِيـكَ مِـنْ رَجُـلٍ صَـحْـبِـي وَأَفْـدِيـكَـا[٢]
مَـا زِلْـتَ تُـتْـبِـعُ مَـا تُـولِـي يَـداً بِـيَـدٍ
حَـتَّـى ظَـنَـنْـتُ حَـيَـاتِـي مِـنْ أيَـادِيـكَـا[٣]
فَـإِنْ تَـقُـلْ هَـا فَـعَـادَاتٌ عُـرِفْـتَ بِـهَـا
أَوْ لَا فَـإِنَّـكَ لا يَـسْـخُـو بِـهَـا فُـوكَـا[٤]

تحاسدت البلدان!

ورد كتاب من ابن رائق على بدر بإضافة الساحل إلى عمله، فقال أبو الطيب:
[الطويل]

تُـهَـنَّـا بِـصُـورٍ أمْ نُـهَـنِّـئُـهَـا بِـكَـا
وَقَـلَّ الَّـذِي صُـورٌ وَأَنْـتَ لَـهُ لَـكَـا[٥]

---

(١) الورى: الناس. الشاني: العدوّ الكاره، يُقدم الشاعر اعتذاره، ففي حال تقصيره في المدح، فكأنه يهجو ممدوحه، وهذا ما يحمل على اتّهامه بأنه يكرهه ناسياً كرمه الفيّاض.

(٢) لبّي، بلفظ المثنى يرد التكثير به، إنها تلبية نداء الواجب، فواجب الشعر أن يشيد بكرم ممدوحه، فالناس يتغنّوْن بكرمه، فلا بدّ من إعطائه حقه في هذا المال، والشاعر يدعو له أن يفديه هو وأصحابه بأنفسهم لدفع البلاء عنه.

(٣) تُولي: تُعطي. اليد: كناية عن النعمة. يُخاطب الشاعر ممدوحه؛ إنه لا ينقطع رفده، يتوالى بانتظام ولا ينحسر، فينقده عطاءه نقداً، ولذا فقد ظنّ أن حياته هبة منحه إيّاها بنفسه.

(٤) يسخو: يتكرّم. ها: بمعنى خذ. لقد اعتاد الممدوح على قول خذ بالإيجاب فلم يكن من طبعه البخل، لذا فلم يتفوّه بكلمة لا، فليست هذه الكلمة من مفرداته المألوفة، فلا يسخو لسانه بها.

(٥) صور: بلد ساحلي من بلاد الشام. يُخاطب الشاعر ممدوحه ويبارك له الولاية الجديدة، ويسأل الشاعر ممدوحه عن المستفيد بهذا الشرف، هل المدينة وأهلها =

وَمَا صَغَّرَ الْأُرْدُونُ وَالسَّاحِلُ الَّذي
حُبِيتَ بِهِ إِلّا إِلى جَنْبِ قَدْرِكَا[١]
تَحَاسَدَتِ الْبُلْدَانُ حَتَّى لَوَ انَّهَا
نُفُوسٌ لَسَارَ الشَّرْقُ والْغَرْبُ نَحْوَكَا[٢]
وَأَصْبَحَ مِصْرٌ لا تَكُونُ أَمِيرَهُ
وَلَوْ أَنَّهُ ذُو مُقْلَةٍ وَفَمٍ بَكَى[٣]

أرجوك وأخشاك

وسقاه بدر ولم يكن له رغبة في الشراب فقال:

[السريع]

لَمْ تَرَ مَنْ نَادَمْتُ إِلَّاكَا
لا لِسِوَى وُدِّكَ لِي ذَاكَا[٤]
وَلَا لِحُبِّيهَا وَلٰكِنَّنِي
أَمْسَيْتُ أرْجُوكَ وَأخْشَاكَا[٥]

= يهنأون بتولية بدر القوامة عليها ورعايتها أم بدر يهنأ، وهو من يستحقّ أكثر من ذلك لما يتمتّع به من طاقات وقدرات.

(١) الأردن: بلد من بلاد الشام. حبيت: أعطيت. إنها ولاية صغيرة بالنسبة لما يتمتّع به بدر من مزايا وصفات، ولكن الأردن والسَّاحل عظيما القدر بذاتهما، لكثرة خيراتهما.

(٢) لقد تملّك الحسد تلك البلدان؛ فكلّ منها يودّ لو يستأثر بالممدوح دون سواه لما يعلمون ما عليه من كرم وشجاعة وخبرة في إدارة شؤون البلاد، فالشرق والغرب يهفو أهلهما ليكون الممدوح والياً عليه دون سواه.

(٣) المصر: البلد العظيم. المقلة: العين. ولتبيان أهميَّة الممدوح وشهرته، فلو أن أي بلد لم يلِ أمره بدر ولم يسعد بولايته، فلو كان له عين وفم لبكى ولولول حزناً ولوعة على فوات تلك الفرصة.

(٤) و (٥) يُخاطب الشاعر بدراً منوّهاً بحبّه وودّه لممدوحه، إنه لم يُنادم أحداً من ممدوحيه ويُشاركه الشراب إلّا بدراً دون سواه، لا لشيء إلّا لأنه يُحبّه ولا يريد إسخاطه وإزعاجه، وهو في الأصل لا يُحبّ شرب الخمرة لأنها تذهب بعقل صاحبها، وهو =

الصدق من شيم الكرام

وكان بدر قد تاب من الشراب مرة بعد أخرى ثم رآه أبو الطيب يشرب فقال ارتجالاً :

[الكامل]

يَــا أيُّــهَــا الــمَــلِــكُ الَّــذِي نُــدَمَــاؤُهُ
شُــرَكَــاؤُهُ فــي مِــلْــكِــهِ لا مُــلْــكِــهِ[١]

فــي كــلِّ يَــوْمٍ بَــيْــنَــنَــا دَمُ كَــرْمَــةٍ
لَــكَ تَــوْبَــةٌ مِــنْ تَــوْبَــةٍ مِــنْ سَــفْــكِــهِ[٢]

وَالــصِّــدْقُ مِــنْ شِــيَــمِ الْــكِــرَامِ فَــنَــبِّــنَــا
أمِــنَ الــشَّــرَابِ تَــتُــوبُ أمْ مِــنْ تَــرْكِــهِ[٣]

الدار تسير إليك

وقال في محمد بن طغج وهو عند طاهر العلوي :

[الخفيف]

قَــدْ بَــلَــغْــتَ الَّــذِي أَرَدْتَ مِــنَ الْــبِــرْ
رِ وَمِــنْ حَــقِّ ذَا الــشَّــرِيــفِ عَــلَــيْــكَــا[٤]

وَإذَا لَــمْ تَــسِــرْ إلَــى الــدَّارِ فــي وَقْــ
ــتِــكَ ذَا خِــفْــتُ أنْ تَــسِــيــرَ إلَــيْــكَــا[٥]

= لا يرغب أن يفقد عقله، وفي الحقّ إنه يودّه مخلصاً ويرجو له الخير فضلاً عن أنه يخاف منه وعليه.

(١) يُخاطب الشاعر بدراً، إنه ملك يُشارك ندماءه في أمواله، فهو يُنفقها عليهم بلا حساب، وهم لا يجرؤون في مشاركته ملكه، إنهم يعرفون حدودهم فلا يتعدّونها إلى ما دونها.

(٢) يُخاطب الشاعر ممدوحه مداعباً وعاتباً، لقد عزم على ترك شرب الخمرة، ولكنه يعود إلى ما نهى نفسه عنه وعزم على ذلك، فهل معنى ذلك أنه يتوب عن سفك دماء الخمرة أم يتوب عن التوبة؟

(٣) يُقرّر الشاعر أن الصدق علامة كرام النفوس، وهو يودّ معرفة طبيعة التوبة، فهل سيتوب عن الشرب أم عن تركه؟

(٤) و (٥) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٥. يُخاطب الشاعر ممدوحه =

أسأت وأحسنت

ودخل على أبي العشائر وعنده رجل ينشده شعراً في بركة في داره فقال:

[المتقارب]

لَــئِــنْ كــانَ أحْــسَــنَ فــي وَصْــفِــهَــا
لَـقَـدْ تَـرَكَ الْـحُـسْـنَ فـي الْـوصْـفِ لَـكْ[١]

لأنَّــكَ بَـــحْـــرٌ وَإنَّ الْـــبِـــحَـــارَ
لَــتَــأنَــفُ مِــنْ مَــدْحِ هَــذِي الْــبِــرَكْ[٢]

كَــأنَّــكَ سَــيْــفُــكَ لا مَــا مَــلَــكْــ
ــتَ يَــبْــقَــى لَــدَيْــكَ وَلَا مَــا مَــلَــكْ[٣]

فَــأكْــثَــرُ مِــنْ جَــرْيِــهَــا مَــا وَهَــبْــتَ
وَأكْــثَــرُ مِــنْ مَــائِــهَــا مَــا سَــفَــكْ[٤]

أسَــأْتَ وَأحْــسَــنْــتَ عَــنْ قُــدْرَةٍ
وَدُرْتَ عَــلَــى الــنَّــاسِ دَوْرَ الْــفَــلَــكْ[٥]

= حاثًا إياه على مغادرة المكان، وقد سكر فأخذ منه السكر كل مأخذه، قائلاً له: لقد حصلت على التكريم اللائق بك وعليك أن تغادر إلى بيتك، فإن لم تفعل، فسيأتي إليك بيتك شوقاً إليك وحبًّا.

(١) و (٢) يُخاطب الشاعر ممدوحه بأن الشاعر الذي بين يديه قد أجاد وأحسن وصف البركة في صحن دار الأمير، ولكنه لم يأتِ على مدح الأمير بما يستحقّه من مدح، فلم يصفه ويتغنَّ بأوصافه، إنه بحر كريم ومن طبيعة البحار أنها لا تتنازل لتتساوى بالبرك مهما عظمت، فإنها تبقى بركاً لا تزيد ولا تنقص.

(٣) و (٤) يصف الشاعر أبا العشائر بأنه كريم يُنفق ما لديه من مال، وهو بطل شجاع، فسيفه يملك أيضاً فإذا به يسفك دماء الأعداء. ثم يُقارن الشاعر ما في البركة من ماء بما يتمتّع به ممدوحه؛ فكرمه يسيل دافقاً أكثر ممَّا يرفد البركة من ماء، وكذلك فسيفه يهرق دماء أكثر من ماء تلك البركة، فتكون غلبة التفوّق للممدوح على البركة.

(٥) يُخاطب الشاعر ممدوحه على أنه مصدر الخير كلّه لأصحابه وأحبابه، وهو مصدر الشرّ كله لأعدائه فيعمّهم ضرره، فكأنه نجم سعد على أصحابه وكأنه فلك نحس على أعدائه.

البلاد والعالمون لك

وزاد سيف الدولة في وصفه فقال:

[البسيط]

رُبَّ نَجِيعٍ بِسَيْفِ الدَّوْلَةِ ٱنْسَفَكَا
وَرُبَّ قَافِيَةٍ غَاظَتْ بِهِ مَلِكَا(١)

مَنْ يَعْرِفِ الشَّمْسَ لَا يُنْكِرْ مَطَالِعَهَا
أَوْ يُبْصِرِ الْخَيْلَ لَا يَسْتَكْرِمِ الرَّمَكَا(٢)

تَسُرُّ بِالْمَالِ بَعْضَ الْمَالِ تَمْلِكُهُ
إِنَّ الْبِلَادَ وإِنَّ الْعَالَمِينَ لَكَا(٣)

شعر ملك

وقال وقد استحسنت هذه القصيدة:

[الرمل]

إِنَّ هٰذَا الشِّعْرَ فِي الشِّعْرِ مَلَكْ
سَارَ فَهْوَ الشَّمْسُ والدُّنْيَا فَلَكْ(٤)

---

(١) النجيع: الدم. انسفك: أهدر وانسكب. ينوّه الشاعر بكثرة ضحاياه من الأعداء الذين سفك دماءهم لشجاعته وقوته، ولا ينسى الشاعر نفسه فقصائده لما فيها من فخر وإشادة ببطولة سيف الدولة تحمل أعداءه وحسّاده على الغيظ والحنق والحسد من الشاعر لإجادته والتغنّي ببطولة تتجسّد بسيف الدولة.

(٢) الرمك، الواحدة رمكة: البرذونة تتخذ للنسل. الشمس عالية تتخذ السماء لها موطناً، فالبشر كلهم لا يُنكرون فضلها عليهم، إنها جزء هامّ من تكوين حياتهم المادية والمعنوية. والخيل أكرم حيوان على العرب لأنهم يستخدمونها في حروبهم وجميع أحوالهم لذا فلا يقدّرون ما دونها من البراذين، إن استعملوها حصروا استعمالهم لها بحمل الأثقال، وهم بذلك يُهينونها.

(٣) يمدح الشاعر سيف الدولة بأنه سبب مسرّة الناس؛ فهو ينفق المال عليهم ليعود إليه بطاعة البشر وحبّهم وإخلاصهم؛ إنهم بمثابة أتباعٍ له؛ فكلّ العالمين يدينون له بالولاء.

(٤) يفخر الشاعر بشعره، فهو بمثابة ملك أمام شعر غيره من معاصريه الذي هو بمثابة =

عَـــدَلَ الـــرَّحْـــمٰـــنُ فِـيـــهِ بَـيْـنَـنَـــا
فَـقَـضَـى بِـالـلَّـفْـظِ لِـي وَالْـحَـمْـدِ لَـكْ(١)

فَـــإِذَا مَـــرَّ بِـــأُذْنَـــيْ حَـــاسِـــدٍ
صَـارَ مِـمَّـــنْ كَـانَ حَـيًّـا فَـهَـلَـكْ(٢)

وأني شئت يا طرقي

قال عند وداعه لعضد الدولة في أول شعبان سنة أربع وخمسين وثلاث مئة (٩٦٤م) وهي آخر شعر قاله:

[الوافر]

فِـــدًى لَـــكَ مَـــنْ يُـقَـصِّـرُ عَـــنْ مَـدَاكَـــا
فَـــلَا مَـــلِـــكٌ إِذَنْ إِلَّا فَـــدَاكَـــا(٣)

وَلَـــوْ قُـــلْـــنَـــا فِـدًى لَـكَ مَـــنْ يُـسَـــاوِي
دَعَـــوْنَـــا بَـــالْـــبَـــقَـــاءِ لِـمَـــنْ قَـــلَاكَـــا(٤)

وَآمَـــنَّـــا فِـــدَاءَكَ كُـــلَّ نَـــفْـــسٍ
وإنْ كَـــانَـــتْ لِـــمَـــمْـــلَـــكَـــةٍ مِـــلَاكَـــا(٥)

= العامة أمام الملك، ولقد انتشر في الكون كالشمس التي تسطع على سائر الكون، فإذا بها تلفّ سائر الكون وكأنه فلك يستمدّ من الشمس قوّته، كذلك فالشعراء يستمدّون من شعره ما ينتحلونه لأنفسهم.

(١) و (٢) يُخاطب الشاعر سيف الدولة منوّهاً بشراكتهما في هذا الشعر، فالشاعر يحوك معانيه من أسلاك صفات ممدوحه فيُلبسها معانيه، وتلك إرادة الرحمن أن جمع بين الشاعر وممدوحه، فكان اكتمال عناصر الجمال والكمال فيهما معاً. لذا فلو أن حاسداً سمع هذا الضرب من المديح انتفخت أوداجه ودبت فيه عقارب الحسد، سواء أكان ملكاً تمنّى لو يكون المدح له أم كان شاعراً فتمنّى أن يكون القول له، فذكر المحامد يبعث على المحاسد؛ وذلك شأن الضعفاء من البشر.

(٣) يُخاطب الشاعر ممدوحه، وقد رفع قدره على سائر الملوك؛ فمن واجب المقصر عن مجال عضد الدولة أن يفديه بروحه، وعليه فعلى الملوك جميعاً أن يُضحّوا بأنفسهم دفاعاً عن ممدوحه ليبقى حيًّا معافى.

(٤) و (٥) قلاك: أبغضك. يُردف الشاعر أن دعاءه له بالبقاء في سماء مجده دون سواه، =

وَمَــنْ يَــظُــنُّ نَــثْــرَ الْــحَــبِّ جُــوداً
وَيَــنْــصِــبُ تَــحْــتَ مَــا نَــثَــرَ الــشِّــبَــاكَــا[(١)]

وَمَــنْ بَــلَــغَ الــتُّــرَابَ بِــهِ كَــرَاهُ
وَإِنْ بَــلَــغَــتْ بِــهِ الْــحَــالُ الــسُّــكَــاكَــا[(٢)]

فَــلَــوْ كَــانَــتْ قُــلُــوبُــهُــمُ صَــدِيــقــاً
لَــقَــدْ كَــانَــتْ خَــلَائِــقُــهُــمْ عِــدَاكَــا[(٣)]

لأَنَّــكَ مُــبْــغِــضٌ حَــسَــبــاً نَــحِــيــفــاً
إِذَا أَبْــصَــرْتَ دُنْــيَــاهُ ضِــنَــاكَــا[(٤)]

= لأنه لو دعا بالبقاء لمن يُساويه من الملوك لدعا باستمرار حياته، وهذا لا يرغب فيه الشاعر ولا يُريده، وإذا جعل الشاعر ممدوحه في هذه المرتبة الرفيعة عن سائر الملوك فهو يرفعه عن سائر البشر كذلك. وعليه فالبشر جميعاً يفدونه بأنفسهم، حتى الملك العظيم فيهم، فإنه يفديه بما يقوم عليه ملكه ليبقى حيًّا فضلاً عن نفسه.

(١) يُردف الشاعر حديثه عن طِباع الملوك؛ إنهم كمن ينثر الحبّ ويُعتقد أن عمله دلالة على الكرم ولكن الحقيقة أنه يُخفي شركه ليصطاد به؛ إن الشاعر يُعرّض بالملوك لأنهم يتصدّوْن للشعراء ليمدحوهم ويرموا لهم الفُتات، وهم يتلقّوْن المديح الذي يُشيد بمآثر كاذبة لا يستحقونها، والمشكلة في الشعراء أنفسهم، وهذا ما فعله المتنبي نفسه، فقد كان يلهث وراء ممدوحيه، فكلهم عنده تتمثّل فيهم نفس المواصفات التي يذكرها في شعره.

(٢) الكرى: النعاس. السكاك: الهواء الذي بين السماء والأرض. يروى «الحضيض» بدلاً من «التراب»... ويُردف الشاعر منوّهاً بتفضيل ممدوحه على من سواه من الملوك، ممّن ملك المال والجاه والسؤدد وتطاول حتى بلغ السماء، فهو فداء الممدوح؛ فقد غفل ملصقاً رأسه في التراب.

(٣) و (٤) الخلائق: الأخلاق. يُثير الشاعر ممدوحه على سائر الملوك، إنهم يبدون له المودَّة، ويحملون في نفوسهم ضغينة وحقداً دفيناً، ذلك أن أخلاقهم خلاف أخلاق ممدوحه، فهو كريم الأخلاق. ذو حسب لذا فهو يكره ما دونه من يفتقد إلى عناصر التفوّق والعظمة، ومع ذلك ينتفخ كثرة ثراء، ومع ذلك فهو حريص شديد البخل، موهن الهمة، يتكالب على الحياة أكثر فأكثر ليكتسب الحمد ومدح الناس.

أَرُوحُ وَقَـدْ خَـتَـمْـتَ عَـلَـى فُـؤَادِي
بِـحُـبِّـكَ أَنْ يَـحِـلَّ بِـهِ سِـوَاكَـا؟(١)
وَقَـدْ حَـمَّـلْـتَـنِـي شُـكْـراً طَـوِيـلاً
ثَـقِـيـلاً لَا أُطِـيـقُ بِـهِ حَـرَاكَـا(٢)
أُحَـاذِرُ أَنْ يَـشُـقَّ عَـلَـى الْـمَـطَـايَـا
فَـلَا تَـمْـشِـي بِـنَـا إِلَّا سِـوَاكَـا(٣)
لَـعَـلَّ ٱلـلَّـهَ يَـجْـعَـلُـهُ رَحِـيـلاً
يُـعِـيـنُ عَـلَـى الْإِقَـامَـةِ فِـي ذَرَاكَـا(٤)
فَـلَـوْ أَنِّـي اسْـتَـطَـعْـتُ خَـفَـضْـتُ طَـرْفِـي
فَـلَـمْ أُبْـصِـرْ بِـهِ حَـتَّـى أَرَاكَـا(٥)

---

(١) و (٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٦. يُخاطب الشاعر ممدوحه أنه لن يترك ممدوحه وقد ملك شغاف قلبه حبًّا، بحيث لم يُبق لسواه مكاناً لأنه استحوذ على كلّ مشاعره لكثرة ما أولاه من النعم التي أفقدته كلّ حركة، فثقُلت حركته، لذا فلا بدّ للشاعر من أن يردّ له الجميل فضلاً عن جزيل شكره له.

(٣) و (٤) يشقّ: يصعب. المطايا: الدواب، السواك: السير البطيء بسبب الإعياء. لقد عانى الشاعر من الترحال، بحيث لا يقرّ له قرار من أمير إلى ملك، من نجاح إلى فشل، وقد أحسّ أن الزمان يمضي به سريعاً، وهو يودّ الاستقرار في مكان لا إزعاج فيه، وقد يكون قد وجد في كنف ممدوحه سلواه بعد رحيل طويل؛ فقد غمره بعطاياه بحيث لا تستطيع مطاياه حمله. ويبدو أنها تبطئ السير كأنها تود البقاء في كنف الممدوح، وهو يمهّد بالعودة إليه ريثما يأتي بأهله سائلاً المولى عزّ وجلّ أن يكون الرحيل سريعاً لتكون عودة سريعة كذلك، حيث يستقرّ نهائياً في ديار ممدوحه.

(٥) يروى «ولو» بدلاً من «فلو». الطرْف، بسكون الراء: النظر. ولشدّة رغبة الشاعر بالعودة مسرعاً إلى كنف ممدوحه يودّ لو أغمض عينيه حتى لا يرى أحداً سوى ممدوحه، وفي هذه الحالة يَفتَح عينيه لينعم بمرآه ويسرّ بلقياه. من الواضح أن الشاعر يعمل على تطمين ممدوحه بأنه لن يترك حماه.

وَكَيْفَ الصَّبْرُ عَنْكَ وَقَدْ كَفَانِي
نَدَاكَ الْمُسْتَفِيضُ وَمَا كَفَاكَا؟ (١)
أَتَتْرُكُنِي وَعَيْنُ الشَّمْسِ نَعْلِي
فَتَقْطَعَ مَشْيَتِي فِيهَا الشِّرَاكَا؟ (٢)
أَرَى أَسَفِي وَمَا سِرْنَا شَدِيداً
فَكَيْفَ إِذَا غَدَا السَّيْرُ ابْتِرَاكَا؟ (٣)
وَهٰذَا الشَّوْقُ قَبْلَ الْبَيْنِ سَيْفٌ
فَهَا أَنَا مَا ضُرِبْتُ وَقَدْ أَحَاكَا (٤)
إِذَا التَّوْدِيعُ أَعْرَضَ قَالَ قَلْبِي
عَلَيْكَ الصَّمْتُ لا صَاحَبْتَ فَاكَا (٥)
وَلَوْلَا أَنَّ أَكْثَرَ مَا تَمَنّى
مُعَاوَدَةٌ لَقُلْتُ وَلَا مُنَاكَا (٦)

---

(١) الندى: الكرم. المستفيض: الغامر الكثير. يُؤكّد الشاعر على أنه لن يتوانى حتى يعود إليه سريعاً، فقد أكثر له العطاء، وهو يودّ أن يزيده، رغم أن الشاعر لم يطلب مزيداً، لذا فلن يتأخّر حتى يعود مسرعاً، فصبره لا يتّسع مداه كثيراً.

(٢) الشّراك: سير النعل. يسأل الشاعر ممدوحه مستنكراً أنه لن يتركه وقد بلغ به أعلى السماكين، بل إنه انتعل عين الشمس بحيث جعله يتيه على من سواه من الشعراء وسائر البشر، وهو لا يبغي أن يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، وكأنه هوى من عرش علاه، فإذا بقدميه تخسران نعليهما وقد تقطّعت شراكهما، فمشى حافياً.

(٣) الابتراك: سرعة السير. يُبدي الشاعر أسفه لممدوحه أنه يتركه مضطراً، وحتى اللحظة لم يفعل، فلو غادر مملكته وجدّ به السير لكان أسفه عظيماً وحسرته كبيرة.

(٤) البين: الفراق. أحاك: أثر. يعبّر الشاعر عن أسفه لفراق ممدوحه. فالفراق أليم، وقد أثر فيه وكأن سيفاً أصابه وترك في نفسه جراحاً أليمة، وهو لم يزل في حضرة ممدوحه، ولم يُغادر ديوانه، فكيف لو تمّ الفراق؟

(٥) و (٦) أعرض الشيء: بان. عليك: اسم فعل أمر بمعنى الزم. يُخبر الشاعر ممدوحه ما كان بينه وبين قلبه، فقلبه أجمع على حبّ ممدوحه، لذا فقد طلب منه أن يسكت عن المديح، وألّا يتصدّر المحافل ويمدح سواه، وقد تمنّى عليه أن يرجع إليه في =

إذَا ٱسْتَشْفَيْتَ مِنْ دَاءٍ بِدَاءٍ
فَأَقْتَلُ مَا أَعَلَّكَ مَا شَفَاكَا[١]

فَأَسْتُرُ مِنْكَ نَجْوَانَا وَأُخْفِي
هُمُوماً قَدْ أَطَلْتُ لَهَا الْعِرَاكَا[٢]

إذَا عَاصَيْتُهَا كَانَتْ شِدَاداً
وَإِنْ طَاوَعْتُهَا كَانَتْ رِكَاكَا[٣]

وَكَمْ دُونَ الثَّوِيَّةِ مِنْ حَزِينٍ
يَقُولُ لَهُ قُدُومِي ذَا بِذَاكَا[٤]

وَمِنْ عَذْبِ الرُّضَابِ إذَا أَنَخْنَا
يُقَبِّلُ رَحْلَ تُرْوَكَ وَالْوِرَاكَا[٥]

= حال رحيله، وقد وافق الشاعر قلبه في ما فكّر فيه على أن يُسارع في العودة بعد رحيله ليُتمّ ما عزم عليه.

(١) استشفيت: طلبت الشفاء. الداء: المرض. أعلك: جعلك عليلاً. إنه نزاع بين رغبتين: إحداهما شوق إلى الأهل والوطن، الأحباب وذكريات حلوة محبّبة على القلب وأهل يُشاركون الشاعر إحساسه ومشاعره، والأخرى حبّ الشاعر لممدوحه الذي وجد فيه سلواه بعد رحلة الفشل والمغامرة، ووجد عنده ما افتقده لدى الآخرين.

(٢) يُخاطب الشاعر ممدوحه متمنياً عليه أن يستر حوارهما، فقد كشف ما يُعانيه من آلام مغلّفة بالكبرياء، ونفس جريحة تعرّت أمام من اعتقد الشاعر أنها ضنّينة بكشف حالة ضعف ألمت بها.

(٣) الركاك، الواحد ركيك: ضعاف. ثمّة صراع داخلي يُؤرجح الشاعر بين داعي الرحيل المدفوع بالشوق والحنين إلى مرابع الطفولة، وبين البقاء إلى جانب الممدوح؛ فالسهل في هذه الحالة يبدو صعباً، والصعب يبدو سهلاً.

(٤) ورد البيت في: الخصائص لابن جني: ٢: ١٧٤. الثوية: أحد أمكنة الكوفة. إنه حبّ المرء لمراتع الصبا، فالثوية موئل الأحباب؛ والكل مشوق إلى لقاء الغائب بعد غياب طويل، والعناق لغة الشوق وباعث السرور في القلوب، فسرعان ما ينسى البشر أوقات الهجر والبعد لحرارة اللّقاء المختلط بدموع الفرح والابتسامات النابعة من قلوب حرّكتها مفاجأة العودة.

(٥) الرضاب: الريق، أنخنا: حططنا الرحال. تروك: اسم ناقة وهبها له عضد الدولة. =

يُـحَــرِّمُ أَنْ يَـمَــسَّ الـطِّـيـبَ بَـعْـدِي
وَقَـدْ عَـبِـقَ الْـعَـبِـيـرُ بِـهِ وَصَـاكَـا[١]
وَيَـمْـنَـعُ ثَـغْـرَهُ مِـنْ كُـلِّ صَـبٍّ
وَيَـمْـنَـحُـهُ الْـبَـشَـامَـةَ وَالْأَرَاكَـا[٢]
يُـحَـدِّثُ مُـقْـلَـتَـيْـهِ الـنَّـوْمُ عَـنِّـي
فَـلَـيْـتَ الـنَّـوْمَ حَـدَّثَ عَـنْ نَـدَاكَـا[٣]
وَأَنَّ الـبُـخْـتَ لَا يُـعْـرِقْـنَ إِلَّا
وَقَـدْ أَنْـضَـى الْـعُـذَافِـرَةَ الـلِّـكَـاكَـا[٤]
وَمَـا أَرْضَـى لِـمُـقْـلَـتِـهِ بِـحُـلْـمٍ
إِذَا ٱنْـتَـبَـهَـتْ تَـوَهَّـمَـهُ ٱبْـتِـشَـاكَـا[٥]

= الوراك: النمرقة، الوسادة الصغيرة، والطنفسة التي فوق الرحل. فثمّة من ينتظر قدوم الشاعر على أحرّ من الجمر؛ فإذا ما لمح الناقة قد أقبلت تحمل الشاعر ارتمى عليها يُقبل رحلها ووراكها لحظة بركها على الأرض.

(١) و (٢) صاك: ألصق. ومن شدة الشوق والحنين يُحرّم المستقبل للشاعر أن يتطيّب لشدّة حزنه على فراقه، ولقد كان قد لصق به العبير لحظة الفراق فلم يعد يُقبل أحداً سوى الشاعر لصدق عشرته له، ولعفّته، ومع ذلك فإنه يحرص على نظافة أسنانه، لذا فهو يستاك بالبشام والأراك؛ وهما من أفضل أنواع السواك.

(٣) الندى: الكرم. لا يزال الشاعر يصف حالة من تركه؛ إنه دائم النجوى فيحدّث نفسه عن الشاعر ليل نهار، ولطالما تمنّى أن يرى طيف الشاعر في منامه، وهمومه محصورة بالشاعر دون شيء آخر، لذا يتمنّى الشاعر لو أن هذا المشوق حدّثته نفسه عمّا وجد الشاعر عند ممدوحه من الكرامة وحسن الضيافة لعذره وغفر له تأخّره.

(٤) البخت: الجمال الخراسانية، الإبل السمينة. يُعرقن: يأتين من العراق. أنضى: أهزل. العذافرة: الناقة القوية. اللكاك: الناقة المكثرة اللحم. ويتمنّى الشاعر على أحلام من في بلاد العراق، بخاصة من كان في الكوفة لو أنه علم خلال رؤيته ما قدّم الممدوح للشاعر من العطايا التي أهزلت مطاياه السمينة كثرة الأحمال التي حصل عليها من ممدوحه.

(٥) ابتشاك: كذب. يصرّح الشاعر أنه لا يرضى لمن حلم به إلّا أن يصدق حدسه ويرى في أحلامه ما آتيه به حقيقة لا كذباً لكثرته حتى لَيظنّ أن ذلك محض خيال.

وَلَا إِلَّا بِـأَنْ يُـصْـغِـي وَأَحْـكِـي
فَـلَـيْـتَـهُ لَا يُـتَـيِّـمُـهُ هَـوَاكَـا[١]
وَكَـمْ طَـرِبِ الـمَـسَـامِـعِ لَـيْـسَ يَـدْرِي
أَيَـعْـجَـبُ مِـنْ ثَـنَـائِـي أَمْ عُـلَاكَـا[٢]
وَذَاكَ الـنَّـشْـرُ عِـرْضُـكَ كَـانَ مِـسْـكـاً
وَذَاكَ الـشِّـعْـرُ فِـهْـرِي وَالْـمَـدَاكَـا[٣]
فَـلَا تَـحْـمَـدْهُـمَـا وَٱحْـمَـدْ هُـمَـامـاً
إِذَا لَـمْ يُـسْـمِ حَـامِـدُهُ عَـنَـاكَـا[٤]

---

(١) يُصغي: يستمع. يتيّمه: يستعبده. يُخبر الشاعر ممدوحه أنه لن يألو جهداً يُحدّث عنه من سوف يلتقيه من أحبابه وأصحابه وعن كرم أخلاقه وحسن وفادته، فضلاً عن كرمه الفيّاض، ممّا يحمل هؤلاء على الإعجاب به وحبّه، لأن حبّه يتملك القلوب ويستعبدها لإحسانه.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٦. الثناء: المدح. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه ثمّة من سوف يستمع إلى شعره في ممدوحه فيثير فيه إعجاباً عظيماً لشعر الشاعر فضلاً عن صفات الممدوح التي تشدّه إليه لما توحيه من مُثُل عُليا تتمثل فيه، وهو في الواقع لا يدري ما الذي يُثيره في نفسه شعر الشاعر أم شخص الممدوح؟

(٣) النشر: العرف الطيب. العرض: ما يمدح به المرء أو يذمّ. الفهر: الحجر يدق به الطيب ليصبح ناعماً. المداك: الصلاية التي يسحق بها. ينوّه الشاعر بتضافر عنصرين يجعلان لشعره لوناً خاصاً ورائحة فوّاحة؛ لقد عمل الشاعر على نشر عرف الممدوح الطيب؛ فقد كان بمنزلة المسك الفوّاح، وكان للشاعر العمل على تحويل تلك المادة المتجسّدة بالممدوح إلى عجينة بعد تهيئتها، فقد استعمل المداك وأحسن تصنيعها؛ فكان فوح عطر لهذا الثناء العبق.

(٤) الهمام: الملك العظيم. عناك: قصدك. يُردف الشاعر موضحاً لممدوحه فكرته بأن هذا المزيج العجيب من الفهر والمداك اللّذين حوّلا صفاتك إلى أغنية يتغنّى بها الشاعر، وحتى في حال لم يسمِّ الممدوح باسمه، فإنه معلوم أنه لا يُوجد سواه يحمل صفات ملك عظيم همام، وتلك المواصفات لا تنطبق إلّا على ممدوحه المقصود في هذه القصيدة.

أَغَــرَّ لَــهُ شَــمَــائِــلُ مِــنْ أَبِــيــهِ
غَــداً يَــلْــقَــى بَــنُــوكَ بِــهَــا أَبَــاكَــا[١]

وَفِــي الأَحْــبَــابِ مُــخْــتَــصٌّ بِــوَجْــدٍ
وَآخَــرُ يَــدَّعِــي مَــعَــهُ ٱشْــتِــرَاكَــا[٢]

إِذَا ٱشْــتَــبَــهَــتْ دُمُــوعٌ فِــي خُــدُودٍ
تَــبَــيَّــنَ مَــنْ بَــكَــى مِــمَّــنْ تَــبَــاكَــى[٣]

أَذَمَّــتْ مَــكْــرُمَــاتُ أَبِــي شُــجَــاعٍ
لِــعَــيْــنِــي مِــنْ نَــوَايَ عَــلَــى أُولَاكَــا[٤]

فَــزُلْ يَــا بُــعْــدُ عَــنْ أَيْــدِي رِكَــابٍ
لَــهَــا وَقْــعُ ٱلْأَسِــنَّــةِ فِــي حَــشَــاكَــا[٥]

---

(١) أغرّ: شريف. شمائل: صفات. يمدح الشاعر أسرة الممدوح، بدأ بممدوحه؛ فقد ورث الممدوح عن أبيه شرفاً لا يُضاهيه شرف، وتجسّدت به أخلاق أبيه جليَّة، كلّها محامد يفخر بها صاحبها، والممدوح صلة الوصل بين أبنائه وأبيه، لذا فهو سيُورثها أبناءه، وبذلك تستمرّ حياة مليئة بالفخار والسؤدد والعزّة.

(٢) و (٣) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٦. الوجد: شدّة الحبّ. اشتبهت: تشابهت. تباكى: تكلّف البكاء. يُقسم البشر قسمين؛ فمنهم من أخلص الودّ وصحّت صداقته، وتلك الفئة نادرة الوجود رغم وجودها، ومنهم من يدّعي الإخلاص والحبّ طالما أنه يرتبط بمصلحة مع من وجد عنده مطلبه؛ وهؤلاء كثيرون في كلّ زمان ومكان. والشاعر يصنّف نفسه ضمن المجموعة الأولى، إنه صادق الودّ لممدوحه، ثم يُردف فالبكاء كمادة لا يختلف بين البشر اللهم إلّا بنوعيته، فثمّة من يبكي بلوعة صادقة فراق أحبته، ومنهم مخاتل مخادع يصطنع البكاء وهو قادر عليه في كل وقت؛ فالفئة الأولى قليلة والفئة الأخرى كثيرة العدد في كلّ المجتمعات في كلّ زمان ومكان.

(٤) و (٥) أذمّ: استحصل له على الذمة والعهد. النوى: البعد. أولاك: لغة في أولئك، يروى «ثواي» بدلاً من «نواي». إنها مشكلة اعتراف بجميل؛ فقد قيّدت فضائل أبي شجاع الشاعر، وبذلك استحصل على وصايته، فهو في حماه وذمته، ولا يستطيع مخلوق أن يخفر له ذمّة، لذا فهو يُؤثر البقاء إلى جانبه دون الحرص على مغادرة دياره إلى موطنه وأهله. لذا فهو يخاطب البعد طالباً منه ألّا يُلحّ عليه بالذهاب ويتنحّى عن أيدي مطاياه، فالبعد كأسنة الرماح يقتل ويُدمي القلوب.

وَأَنَّى شِئْتِ يَا طُرُقِي فَكُونِي
أَذَاةً أَوْ نَجَاةً أَوْ هَلَاكَا[1]

فَلَوْ سِرْنَا وفي تِشْرِينَ خَمْسٌ
رَأَوْنِي قَبْلَ أَنْ يَرَوُا السِّمَاكَا[2]

يُشَرِّدُ يُمْنُ فَنَّاخُسْرَ عَنِّي
قَنَا الأَعْدَاءِ وَالطَّعْنَ الدِّرَاكَا[3]

وَأَلْبَسُ مِنْ رِضَاهُ فِي طَرِيقِي
سِلَاحاً يَذْعَرُ الأَبْطَالَ شَاكَا[4]

وَمَنْ أَعْتَاضُ عَنْكَ إِذَا ٱفْتَرَقْنَا
وَكُلُّ النَّاسِ زُورٌ مَا خَلَاكَا[5]

---

(١) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٦. يروى «أيًا» بدلاً من «أنّى». إنها روح تشاؤمية دفع الملل والضجر من حياة التشرّد ـ الشاعر إلى النطق بما تحمله المقادير لروح لم تعرف القرار يوماً، فالترحال ديدن صاحبها منذ أن وعى على الحياة، وهاهو يجد ملاذاً آمناً، ولكنه يرحل عنه مرغماً لدواع كثيرة؛ منها ما هو عائلي، ومنها ما هو قدري، فأنطقته الحكمة الإلهية بما سيؤول إليه أمره، فإذا به يُخاطب طريقه بأن تكون أذاة أو هلاكاً فجمع مصيبتين في مواجهة نجاة واحدة.

(٢) تشرين من أسماء الأشهر الشمسية، وهما اثنان: تشرين الأول وتشرين الثاني. السماك: كوكب نيّر، يقيس الشاعر المدى الزمني الذي يمكنه قطعه ليصل إلى موطنه الكوفة حيث يلتقي بأهله وأحبّته.

(٣) و (٤) يشرّد: يُنفّر، ويبعد. يمن: سعد. فناخَسْرو: اسم عضد الدولة. الطعن الدراك: المتتالي. ثمَّة ما يُصاحب الشاعر طوال عودته إلى موطنه كرم فناخسرو وطالع سعد الشاعر مع ممدوحه سيبعد عنه رماح الأعداء وطعنهم المتتالي، لأن هؤلاء يعلمون يقيناً حسن حماية الممدوح للشاعر؛ إنه بذمته وحمايته، وهذا كافٍ في هذه الحالة. وقد ارتدى رضى مانعاً تتكسّر عليه كلّ محاولات الأبطال النيل من الشاعر مهما جمعوا من سلاح.

(٥) اعتاض: استبدل. الزور: البهتان. يُنوّه الشاعر بإخلاصه للممدوح فلن يستبدله بسواه مهما علت منزلته، وقد تحقّق من أن كلّ من مدحهم طوال حياته زور وبهتان، فالفراق آني، فلا بدّ من عودة.

وَمَـا أَنَـا غَـيْـرُ سَـهْـمٍ فِـي هَـوَاءٍ
يَـعُـودُ وَلَـمْ يَـجِـدْ فِـيـهِ ٱمْـتِـسَـاكَـا[١]

حَـيِـيٌّ مِـنْ إِلٰـهِـي أَنْ يَـرَانِـي
وَقَـدْ فَـارَقْـتُ دَارَكَ وَٱصْـطَـفَـاكَـا[٢]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٦. إنه وعد بعود سريع، فهو في رحلته كسهم لا يُفلح أحد بإمساكه لسرعة انطلاقه فلن تخطفه يد مهما حاولت.

(٢) يُعلن الشاعرَ عن اعتذاره أنه يترك ممدوحه مرغماً، ولهذا فالحياء يلفّه بمسحة من اللّه تعالت قدرته، إنه قد اصطفى الممدوح ليكون سبب إرزاق العباد، مخافة أن يراه قد فارقه وزهد فيه؛ وذلك مدعاة كفران بالنعمة ومسببها وفاعلها.

رويّ اللام

الوفرة الحسنة

وقال في صباه وقد قيل له وهو في المكتب: ما أحسن هذه الوفرة:

[السريع]

لَا تَحْسُنُ الْوَفْرَةُ حَتَّى تُرَى
مَنْشُورَةَ الضَّفْرَيْنِ يَوْمَ الْقِتَالْ[١]

عَلَى فَتًى مُعْتَقِلٍ صَعْدَةً
يَعُلُّهَا مِنْ كُلِّ وافِي السِّبَالْ[٢]

ما أحد فوقي ولا أحد مثلي

وقال في صباه:

[الطويل]

مُحِبِّي قِيَامِي مَا لِذَالِكُمُ النَّصْلِ
بَرِيئاً مِنَ ٱلْجَرْحَى سَلِيماً مِنَ الْقَتْلِ[٣]

أرَى مِنْ فِرِنْدِي قِطْعَةً فِي فِرِنْدِهِ
وَجَوْدَةُ ضَرْبِ ٱلْهَامِ فِي جَوْدَةِ الصَّقْلِ[٤]

---

(١) الوفرة: الشعر المجتمع على الرأس. الضفْر: الذوائب المشدودة من الشعر. ردّ الشاعر أن نشر الذوائب المنتشرة للشعر دلالة على الشجاعة لإرهاب العدوّ.

(٢) اعتقل الرمح: شرّعه في وجه العدوّ. الصعدة: الرمح القصير. يُعلّها: يسقيها الدم مرّة بعد مرّة. السِّبال: الشوارب. تُستحسن الضفائر لمن يحمل الرمح ويشرعها في وجوه الأعداء ذوي الشوارب ويجعلها ترتوي من دمائهم مرّة بعد مرّة.

(٣) النصل: السيف. يخاطب الشاعر من ينصحه بالبقاء وترك الأسفار بأنه كيف يمكث في مكانه ولم يجرح بسيفه أعداءه؟

(٤) فرندي: مقبض سيفه المرصّع. الهام، مفردها هامة: الرؤوس. يُعلّل الشاعر مسلكه =

وَخُضْـرَةُ ثَـوْبِ الْـعَيْشِ فِـي الْـخُضْـرَةِ الـتَّـي
أَرَتْـكَ ٱحْـمِـرَارَ الـمَـوْتِ فِـي مَـدْرَجِ الـنَّـمْـلِ (١)

أَمِـطْ عَـنْـكَ تَـشْـبِـيـهِـي بِـمَـا وَكَـأَنَّـهُ
فَـمَـا أَحَـدٌ فَـوْقِـي وَلَا أَحَـدٌ مِـثْـلِـي (٢)

وَذَرْنِـي وَإِيَّـاهُ وَطِـرْفِـي وَذَابِـلِـي
نَـكُـنْ وَاحِـداً يَـلْـقَـى الْـوَرَى وَٱنْـظُـرَنْ فِـعْـلِـي (٣)

إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

وقال في صباه يمدح سعيد بن عبد الله بن الحسن الكلابي المنْبجي:

[البسيط]

أَحْـيَـا وَأَيْـسَـرُ مَـا قَـاسَـيْـتُ مَـا قَـتَـلَا
وَالْـبَـيْـنُ جَـارَ عَـلَـى ضَـعْـفِـي وَمَـا عَـدَلَا (٤)

= هذا بأن همّته العالية شيء من مقبض السيف، وهما يشتركان مضاءً وحِدّة، فالقوّة لديه ناتجة عن شدّة ضربه كالسيف الصقيل الشديد المضاء.

(١) خضرة ثوب العيش: الصحة ورغادة العيش. ويقصد بالخضرة الثانية: خضرة السيف. مدرج النمل: مدبّه الشديد الخفاء. يرى الشاعر أن الغنى ورفاهية العيش لا يحصلان إلّا بالشجاعة واستعمال السلاح بحذر شديد لكسب الصولة.

(٢) أمِط: أزل، اكشف. عنجهيّة وتكبّر من صفات المتنبي، فإنه يرى أنه لا يُشبهه أحد من البشر، وهو فوق الجميع، لما لديه من صفات تؤهّله لتبوّء المراتب العالية الرفيعة.

(٣) ذرني: اتركني. الطرف: الفرس. الذابل: الرمح. الورى: البشر. يُردف الشاعر قوله طالباً ممن يُثبّط عزيمته أن يتركه وشأنه، ومعه سيفه وفرسه ورمحه؛ وذلك اكتمال عناصر الشكل الفروسي لدى الفارس الحقّ، عندئذٍ يرى البشر أفعاله على حقيقتها في حال صدقه وصدق عزيمته، وإلّا فسوف ينكشف زيف ادّعائه وكذبه.

(٤) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري: ١: ٢٣٠. مغني اللبيب لابن هشام وشرح شواهده، للسيوطي: ١٥. البين: الفراق والهجر. يستغرب الشاعر أنه لا يزال على قيد الحياة، رغم معاناته الشديدة؛ فأقلّها قاتل وفراق الأحبَّة زاد آلامه فلم يعدل وقد جار عليه.

وَٱلْـوَجْـدُ يَـقْـوَى كَـمَـا تَـقْـوَى الـنَّـوَى أبَـداً
وَالـصَّـبْـرُ يَـنْـحَـلُ فِـي جِـسْـمِـي كَـمَـا نَـحِـلَا[١]

لَـوْلَا مُـفَـارَقَـةُ ٱلْأَحْـبَـابِ مَـا وَجَـدَتْ
لَـهَـا الـمَـنَـايَـا إِلَـى أرْوَاحِـنَـا سُـبُـلَا[٢]

بِـمَـا بِـجَـفْـنَـيْـكِ مِـنْ سِـحْـرٍ صِـلِـي دَنِـفـاً
يَـهْـوَى ٱلْـحَـيَـاةَ وَأَمَّـا إِنْ صَـدَدْتِ فَـلَا[٣]

إِلَّا يَـشِـبْ فَـلَـقَـدْ شَـابَـتْ لَـهُ كَـبِـدٌ
شَـيْـبـاً إِذَا خَـضَّـبَـتْـهُ سَـلْـوَةٌ نَـصَـلَا[٤]

يَـجِـنُّ شَـوْقـاً فَـلَـوْلَا أَنَّ رَائِـحَـةً
تَـزُورُهُ فِـي رِيَـاحِ الـشَّـرْقِ مَـا عَـقَـلَا[٥]

---

(١) الوجد: شدّة الشوق. النوى: البعد والهجر، إن حزن الشاعر يزداد باطّراد مع مرور الزمن، وجسمه يدبّ فيه النحول لفقده القدرة على الصبر والثبات.

(٢) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١:٢٣١، مغني اللبيب لابن هشام وشرح شواهده، للسيوطي: ٢٢٢، معاهد التنصيص، للعباسي ٢:١٢٨. المنايا، الواحدة منيَّة: الموت. يرى الشاعر أن من أسباب موت البشر فراق الأحبَّة، فلولا ذلك ما وجد الموت لدى البشر طريقاً.

(٣) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١:٢٣٣. الدنف: من أتعبته شدّة المرض. يُخاطب الشاعر حبيبته أن تصل من أحبّها، وقد أقسم عليها بسحر جفنيها؛ فحبّه وتعلّقه في الحياة بوصالها، وإن لم تفعل فليس للحياة طعم، ففي عينها سحر جذّاب يُخضع الرجال ويستحوذ على قلوبهم.

(٤) خضبته: صبغته بالحِنَّاء. نصل الخضاب: ذهب صباغه. السلو: رضى الحبيب عن حبيبه. يصف الشاعر ما يُعانيه، وهو لا يزال في ميعة الصبا، ورغم ذلك فقد شاب كبده، ورغم محاولة إخفاء ذلك الشيب فسرعان ما يتبخّر الخضاب ويسود الشيب كبده.

(٥) يروى «يُجنّ» بدلاً من «يجنّ». والجنون ينزل بساحة ذلك المدنف لشدّة شوقه لحبيبته، ولولا أن الرياح تحمل إليه رائحة حبيبته لذهب عقله وضاع رشده، وهذا ما يُخفّف بلواه.

هَـا فـٱنْـظُـرِي أَوْ فَـظُـنِّـي بِـي تَـرَيْ حُـرَقـاً
مَـنْ لَـمْ يَـذُقْ طَـرَفـاً مِـنْـهَـا فَـقَـدْ وَأَلَا(١)
عَـلَّ ٱلْأَمِـيـرَ يَـرَى ذُلِّـي فَـيَـشْـفَـعَ لِـي
إِلَـى الَّـتـي تَـرَكَـتْـنِـي فـي ٱلْـهَـوَى مَـثَـلَا(٢)
أَيْـقَـنْـتُ أَنَّ سَـعِـيـداً طَـالِـبٌ بِـدَمِـي
لَـمَّـا بَـصُـرْتُ بِـهِ بِـالـرُّمْـحِ مُـعْـتَـقِـلَا(٣)
وَأَنَّـنِـي غَـيْـرُ مُـحْـصٍ فَـضْـلَ وَالِـدِهِ
وَنَـائِـلٌ دُونَ نَـيْـلِـي وَصْـفَـهُ زُحَـلَا(٤)
قَـيْـلٌ بِـمَـنْـبِـجَ مَـثْـوَاهُ وَنَـائِـلُـهُ
فِـي ٱلْأُفْـقِ يَـسْـأَلُ عَـمَّـنْ غَـيْـرَهُ سَـأَلَا(٥)

---

(١) ها: حرف تنبيه. وأل: نجا. يُخاطب الشاعر حبيبته طالباً منها أن تنظر إليه وتفكّر بما هو عليه من حالة وبما سيؤول إليه حاله، ففي قلبه جوًى من حبّها قد يقضي عليه؛ ومن حسن حظّ من لم يُبتل بالحبّ راحة باله.

(٢) ومن حسن التخلّص والانتقال من مطلع غزلي إلى المدح أن أدخل الشاعر ممدوحه ليكون واسطة خير بين الشاعر ومحبوبته التي جعلت منه مثلاً يُضرب على معاناة المحبين.

(٣) اعتقل الرمح: جعله بين ركابه وساقه. نظر الشاعر إلى ممدوحه وقد لبس سلاحه واعتقل رمحه، فأيقن أنه لا بدّ آخذ بثأره من تلك التي أودت بحياته من أجل حبّه لها.

(٤) يروى «فضل نائله» بدلاً من «فضل والده». النائل: العطاء. زُحل: كوكب سيّار. أحصى: عدّ. وكذلك أن يقين الشاعر بأن الممدوح سوف يمنحه عطاءً كثيراً، ولكثرته فإنه لن يستطيع إحصاءه وقد يدرك الوصول إلى زُحل ذلك النجم البعيد قبل الانتهاء من عدّ نواله.

(٥) القيل: الملك، أو من كان رئيساً دون الملك. منبج: إحدى مدن بلاد الشام. المثوى: المنزل. الأفق: القطر والناحية. يذكر الشاعر غُرّة ملك ممدوحه؛ فهو يسكن منبجاً، ولكن صيته طار في الآفاق فإذا بطالبي رفده يتوافدون عليه ليحصلوا على ما يُحبّون ولم يقصدوا غيره.

يَـلُـوحُ بَـدْرُ الـدُّجَـى فِـي صَـحْـنِ غُـرَّتِـهِ
وَيَـحْـمِـلُ الْـمَـوْتُ فِـي ٱلْـهَـيْـجَـاءِ إِنْ حَـمَـلَا[١]
تُـرَابُـهُ فِـي كِـلَابٍ كُـحْـلُ أَعْـيُـنِـهَـا
وَسَـيْـفُـهُ فِـي جَـنَـابٍ يَـسْـبِـقُ الْـعَـذَلَا[٢]
لِـنُـورِهِ فِـي سَـمَـاءِ الْـفَـخْـرِ مُـخْـتَـرَقٌ
لَـوْ صَـاعَـدَ الْـفِـكْـرُ فِـيـهِ الـدَّهْـرَ مَـا نَـزَلَا[٣]
هُـوَ ٱلأَمِـيـرُ الَّـذِي بَـادَتْ تَـمِـيـمُ بِـهِ
قِـدْماً وَسَـاقَ إِلَـيْـهَـا حَـيْـنُـهَـا ٱلْأَجَـلَا[٤]
لَـمَّـا رَأَوْهُ وَخَـيْـلُ الـنَّـصْـرِ مُـقْـبِـلَـةٌ
وَالْـحَـرْبُ غَـيْـرُ عَـوَانٍ أَسْـلَـمُـوا ٱلْـحِـلَـلَا[٥]
وَضَـاقَـتِ ٱلْأَرْضُ حَـتَّـى كَـانَ هَـارِبُـهُـمْ
إِذَا رَأَى غَـيْـرَ شَـيْءٍ ظَـنَّـهُ رَجُـلَا[٦]

---

(١) الغرّة: الجبهة. الهيجاء: الحرب. يمدح الشاعر ممدوحه بجمال الخِلقة، فهو بدر يُبدّد ظلمة الليل، وهو شجاع يؤيّده الموت في حملته على أعدائه، فيصولان عليهم فيقتلانهم.

(٢) ينتمي الممدوح إلى قبيلة؛ أبناؤها يتحلّون بالتراب الذي يمشي عليه فخراً به وحبًّا له، وأما جناب فقبيلة عدوّة وقد سلّط عليها سيفه، وهو لا يعتذر عن قتل أميرهم.

(٣) المخترق: المعبر، ويقصد بذلك أن الممدوح يقدر على اختراق حاجب المكان فيصعد في سماء العظمة ويخلد، لذا فإنه يسبق الفكر وهو نور شاع ذكر كرمه ورجاحة عقله يفيء إليه الناس يلتمسون رِفده ورجاحة عقله.

(٤) بادت: فنيت. قدماً: منذ القدم. الحين: الأجل، لقد أفنى الممدوح قبيلة تميم، فلم يعد يقوم لهم ذكر، لقد نزل بهم الأجل قبل ميعاده.

(٥) و (٦) الحرب العوان: الحرب المستمرّة تتوالى فيها الغارات بين عدوّين. يروى «لما رأته» بدلاً من «لما رأوه». ومن شدّة خوف بني تميم رحلوا تاركين ديارهم لما رأوا طلائع خيله تقصدهم، نجاةً بأنفسهم، ولشدّة خوفهم فهم يتطلّعون إلى الوراء مخافة اللحاق بهم، وأي شيء يراه أحدهم يظنّ أنه رجل يلاحقه.

فَـبَـعْـدَهُ وَإِلَـى ذَا الْـيَـوْمِ لَـوْ رَكَـضَـتْ
بِـالْـخَـيْـلِ فِي لَـهَـواتِ الـطِّـفْـلِ مَـا سَـعَـلَا[١]
فَـقَـدْ تَـرَكْـتَ ٱلْأُلَـى لَاقَـيْـتُـهُـمْ جَـزَراً
وَقَـدْ قَـتَـلْـتَ ٱلْأُلَـى لَـمْ تَـلْـقَـهُـمْ وَجَـلَا[٢]
كَـمْ مَـهْـمَـهٍ قَـذَفٍ قَـلْـبُ الـدَّلِـيـلِ بِـهِ
قَـلْـبُ ٱلْـمُـحِـبِّ قَـضَـانـي بَـعْـدَمَـا مَـطَـلَا[٣]
عَـقَـدْتُ بِـالـنَّـجْـمِ طَـرْفِـي فِـي مَـفَـاوِزِهِ
وَحُـرَّ وَجْـهِـي بِـحَـرِّ الـشَّـمْـسِ إِذْ أَفَـلَا[٤]
أَوْطَـأْتُ صُـمَّ حَـصَـاهَـا خُـفَّ يَـعْـمَـلَـةٍ
تَـغَـشْـمَـرَتْ بِـي إِلَـيْـكَ الـسَّـهْـلَ وَٱلْـجَـبَـلَا[٥]

---

(١) اللهوات، مفردها لهاة: لحمة في الحلق عند أصل اللسان. يُتابع الشاعر تصوير خوف بني تميم من ممدوحه؛ فالخيول تعدو مسرعة بفرسانها، ومن شدّة خوفهم لا يجسر الطفل الصغير أن يُحدث صوتاً، فكيف بالكبار منهم؟ وهم أصحاب عقول ويستطيعون الدفاع عن أنفسهم ويقول صاحب الوساطة، صفحة ٩٧: «فهو كما تراه سخافة وضعف، ولو تصفّحت شعره لوجدت فيه أضعاف ما ذكره من هذه الإشارة».

(٢) الجزر: ما يُلقى من لحوم إلى السباع. الوجل: شدّة الخوف. يصف الشاعر ممدوحه بأنه يُفني بسيفه أعداءه فيتركهم جزر السباع، أما الأحياء منهم فيموتون أيضاً من شدّة بطشه.

(٣) المهمه: الفلاة القفراء. القذف: المترامية الأطراف. يفخر الشاعر بشجاعته؛ فهو يُواجه الأخطار في طرق وعرة المسالك، ثابت الجنان لا يعرف للخوف معنى، وفي نفسه شوق للمثول أمام ممدوحه كمن أحبّ لقاء حبيبه.

(٤) المفاوز، الواحدة مفازة: الفلوات المترامية الأطراف، الطرْف، بسكون الراء: النظر. حرّ الوجه: ما يبدو منه. أفل: غاب. يستهدي الشاعر بالنجم في رحلته إلى ممدوحه ليلاً، وفي النهار يُواجه الشمس قاطعاً المسافات الشاسعة حتى وصل إلى بُغيته.

(٥) يروى «أنكحت» بدلاً من «أوطأت». الصمّ: القساة الشداد. اليعملة: الناقة العظيمة. تغشمرت: أسرعت على غير هدًى، رحلة المخاطر الصعبة، حمّل ناقته المشاق وقطعت المسافات فراحت تدكّ الحصى بأخفافها، وسالت في السهول واخترقت الجبال بقوّة حتى نزلت بساحة الممدوح.

لَوْ كُنْتَ حَشْوَ قَمِيصِي فَوْقَ نُمْرُقِهَا
سَمِعْتَ لِلْجِنِّ فِي غِيطَانِهَا زَجَلَا[١]
حَتَّى وَصَلْتُ بِنَفْسٍ مَاتَ أَكْثَرُهَا
وَلَيْتَنِي عِشْتُ مِنْهَا بِالَّذِي فَضَلَا[٢]
أَرْجُو نَدَاكَ وَلا أَخْشَى ٱلْمِطَالَ بِهِ
يَا مَنْ إِذَا وَهَبَ الدُّنْيَا فَقَدْ بَخِلَا[٣]

العباد في رجل

وقال في صباه ارتجالاً وقد أهدى له عبيد اللّه بن خلكان من خراسان هدية فيها سمك من سكر ولوز في عسل:

[المنسرح]

قَدْ شَغَلَ النَّاسَ كَثْرَةُ ٱلْأَمَلِ
وَأَنْتَ بِالْمَكْرُمَاتِ فِي شُغُلِ[٤]
تَمَثَّلُوا حَاتِماً وَلَوْ عَقَلُوا
لَكُنْتَ فِي ٱلْجُودِ غَايَةَ الْمَثَلِ[٥]

---

(١) حشو قميصي: في مكاني. النمرق: الوسادة يتكئ عليها المسافر. الغيطان، الواحد غائط: المطمئن من الأرض، الزجل: الجلبة والضجّة. يُخاطب الشاعر ممدوحه مصوّراً ما بذله من مجهود حتى مَثُلَ بين يديه، فقد قطع المفاوز القفراء، وموسيقى الجنّ المرعبة تصكّ الآذان.

(٢) أخيراً وصل الشاعر إلى ديار الممدوح، وهو على آخر رمق، فقد تلف نصفه، وما بقي منه فهو يتمنّى أن يحيا به ليقضيَ حقّ الممدوح من الكرامة.

(٣) الندى: العطاء. المِطال: التسوّف. يُعلن الشاعر عن سبب مثوله بين يدي ممدوحه؛ إنه يطلب العطاء، وممدوحه غني كريم، فلو أعطاه الشيء الكثير فقد بخل.

(٤) و (٥) يعيش الناس، وفي نفوسهم آمال عِراض يحلمون بتحقيقها دون السعي في سبيلها لتكون حقيقة وواقعاً سوى اللجوء إليك، والممدوح دائم السعي وراء تحقيق أمانيه وأحلامه العِراض. وهؤلاء اتّخذوا حاتماً الطائيّ نموذجاً أعلى للكرم، ولو نظروا نظرة العقلاء لتمثّلوا بك لعظيم كرمك وكثرة جودك.

أَهْــلاً وَسَــهْــلاً بِــمــا بَــعَــثْــتَ بِــهِ
إيــهــاً أَبَــا قَــاسِــمٍ وَبــالــرُّسُــلِ(١)
هَــدِيَّــةٌ مَــا رَأَيْــتُ مُــهْــدِيَــهَــا
إلَّا رَأَيْــتُ الْــعِــبَــادَ فِــي رَجُــلِ(٢)
أَقَــلُّ مَــا فِــي أَقَــلِّــهَــا سَــمَــكٌ
يَــسْــبَــحُ فِــي بِــرْكَــةٍ مِــنَ الْــعَــسَــلِ(٣)
كَــيْــفَ أُكَــافِــي عَــلَــى أَجَــلِّ يَــدٍ
مَــنْ لَا يَــرَى أَنَّــهَــا يَــدٌ قِــبَــلِــي(٤)

بر خفيف ثقيل

وقال لصديق له في صباه:

[الكامل]

أَحْــبَــبْــتُ بِــرَّكَ إذْ أَرَدْتَ رَحِــيــلَا
فَــوَجَــدْتُ أَكْــثَــرَ مَــا وَجَــدْتُ قَــلِــيــلَا(٥)
وَعَــلِــمْــتُ أَنَّــكَ فــي الــمَــكَــارِمِ رَاغِــبٌ
صَــبٌّ إلَــيْــهَــا بُــكْــرَةً وَأصِــيــلَا(٦)

---

(١) و (٢) رحّب الشاعر برسول الممدوح مسروراً بهديته، وقد غمره كرمه وإحسانه، وهو من جمع في ذاته فضائل الناس جميعاً فكان كاملاً في كلّ شيء.

(٣) يروى «يلعب» بدلاً من «يسبح». قصد بالبركة: الوعاء الذي يحتوي العسل: إنها هديَّة عظيمة أقلّ ما اشتملت عليه السمك.

(٤) اليد: كناية عن الكرم. يودّ الشاعر أن يردّ على هذه المكرمة التي لا يعدها مُسديها ذات قيمة بمدحه والثناء عليه.

(٥) أحبّ الشاعر أن يُكرم صديقه، وقد أزمع على الرحيل، ولم يجد لديه ما يفيه حقّه من التكريم لعظيم قدره.

(٦) الصبّ: المشتاق. البكرة: الغداة. الأصيل: زمن ما قبل الغروب. يُخاطب الشاعر صديقه بأنه يعلم رغبته بتكريمه صباح مساء.

فَـجَـعَـلْـتُ مَـا تُـهْـدِي إلَـيَّ هَـدِيَّـةً
مِـنِّـي إلَـيْـكَ وَظَـرْفَـهَـا الـتَّـأْمِـيـلَا[(١)]
بِـرٌّ يَـخِـفُّ عَـلَـى يَـدَيْـكَ قَـبُـولُـهُ،
وَيَـكُـونُ مَـحْـمِـلُـهُ عَـلَـيَّ ثَـقِـيـلَا[(٢)]

وما زلت طوداً

وقال في صباه:

[الطويل]

قِـفَـا تَـرَيَـا وَدْقِـي فَـهَـاتَـا الْـمَـخَـايِـلُ
وَلَا تَـخْـشَـيَـا خُـلْـفـاً لِـمَـا أَنَـا قَـائِـلُ[(٣)]
رَمَـانِـي خِـسَـاسُ الـنَّـاسِ مِـنْ صَـائِـبِ ٱسْـتِـهِ
وَآخَـرُ قُـطْـنٌ مِـنْ يَـدَيْـهِ ٱلْـجَـنَـادِلُ[(٤)]
وَمِـنْ جَـاهِـلٍ بِـي وَهْـوَ يَـجْـهَـلُ جَـهْـلَـهُ
وَيَـجْـهَـلُ عِـلْـمِـي أَنَّـهُ بِـيَ جَـاهِـلُ[(٥)]

---

(١) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢: ٢١٣. يطلب الشاعر من صاحبه أن يستمهله ليقدّم له هديّة قيّمة؛ وهو يعتبر ذلك منه بمثابة هدية في حال قبول التماسه.

(٢) وفي حال قبول صديقه ذلك، فإن الشاعر يعتبر عمله ذلك برًّا، وهو في الحقيقة ثقيل محمله على عاتقي الشاعر.

(٣) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ٢١٥. الودق: المطر. المخايل، الواحد مخيلة: السحب الخليقة بالمطر. الخُلْف: الإخلاف بالوعد. يطلب الشاعر من صاحبيه أن يقفا ليريا حقيقة أمره من أنه سيُحقّق ما يعدهما به من أنه سيلتزم تحقيق وعده بقتل أعدائه، فلن يُخلفه أبداً.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٠. خساس الناس: أراذلهم. الصائب بمعنى المصيب. الاست: مخرج بني آدم. الجنادل، الواحد جندل: الصخور العظام. يقول الشاعر: إن أراذل الناس وشرارهم رموْه بما يُصيب صائب است الواحد منهم من منكر القول والفعل، وبعضهم رماه بما يُشبه القطن، لا يُؤثر بالشاعر.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٢. ينعى الشاعر على خصم له =

وَيَـجْـهَـلُ أَنِّـي مَـالِـكَ ٱلْأَرْض مُـعْـسِـرٌ
وَأنِّـي عَـلَـى ظَـهْـرِ الـسِّـمَـاكَـيْـنِ رَاجِـلُ(١)

تُـحَـقِّـرُ عِـنْـدِي هِـمْـتِـي كُـلَّ مَـطْـلَـبٍ
وَيَـقْـصُـرُ فِـي عَـيْـنِـي الـمَـدَى الـمُـتَـطَـاوِلُ(٢)

وَمَـا زِلْـتُ طَـوْداً لَا تَـزُولُ مَـنَـاكِـبِـي
إلَـى أنْ بَـدَتْ لِـلـضَّـيْـمِ فِـيَّ زَلَازِلُ(٣)

فَـقَـلْـقَـلْـتُ بِـالْـهَـمِّ الَّـذِي قَـلْـقَـلَ ٱلْـحَـشَـا
قَـلَاقِـلَ عِـيـسٍ كُـلُّـهُـنَّ قَـلَاقِـلُ(٤)

إذَا الـلَّـيْـلُ وَارَانَـا أَرَتْـنَـا خِـفَـافُـهَـا
بِـقَـدْحِ ٱلْـحَـصَـى مَـا لَا تُـرِيـنَـا الـمَـشَـاعِـلُ(٥)

= جاهل بطبيعته وقُدراته الفذّة، لذا فهو تتواتر عليه جهالات لا حصر لها ذلك أن الشاعر يعلم ما وصل إليه ذلك الجاهل من جهل.

(١) السماكين: السماوات. يُتابع الشاعر أن ذلك الجاهل لا يعرف مقدار غنى الشاعر؛ إنه يملك الأرض، وذلك في حال فقره، وهمّته تدعوه لإدراك السماء بما فيها من وجود، وذلك لعلوّ طموحه وبعد مداه.

(٢) مغالاة الشاعر جعلته يحتقر كلّ مطلب، حتى مسافات إدراك أمانيه تتقلّص فتبدو في متناول يديه.

(٣) الطود الشامخ: الجبل العظيم. المناكب: الأكتاف. الضيم: الظلم. ويُتابع الشاعر وصف حالته، فهو شامخ راسخ الأركان كأنه جبل لا تهزّه الزعازع إلّا في حال ظلم ينزل بساحته، فإنه بركان يتفجّر صاعقاً من داخل ذلك الجبل ليدمّر كلّ شيء في وجهه.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٣. قلقل: حرّك بقوّة. الحشا: ما اضطمت عليه الضلوع. القلاقل، الواحدة قلقل. العيس: الإبل السريعة. الشاعر دائم الترحال إذا ألمّت به المكاره وحطّ الظلم بساحته رحل مستعيناً بناقة سريعة أنفةً وحفاظاً على كرامته من أن تُجرح.

(٥) وارانا: سترنا. الخفاف، الواحد خفّ. القدح: الشرر. والليل ساتر فثمّة أشباح تبدو كظلال باهتة، سرعان ما تنكشف عن بشر يتحرّكون بموكب تحملهم نياق سريعة تضرب بخفافها الحصى فيتطاير الشرر مضيئاً الأرجاء.

كَـأَنِّـي مِـنَ الْـوَجْـنَـاءِ فـي ظَـهْـرِ مَـوْجَـةٍ
رَمَـتْ بِـي بِـحَـاراً مَـا لَـهُـنَّ سَـوَاحِـلُ (١)
يُـخَـيَّـلُ لِـي أَنَّ الْـبِـلَادَ مَـسَـامِـعِـي،
وَأَنِّـي فِـيـهَـا مَـا تَـقُـولُ الْـعَـوَاذِلُ (٢)
وَمَـنْ يَـبْـغِ مَـا أَبْـغِي مِـنَ الـمَـجْـدِ وَالْعُـلَى
تَـسَـاوَ الـمَـحَـايِـي عِـنْـدَهُ وَالـمَـقَـاتِـلُ (٣)
أَلَا لَـيْـسَـتِ ٱلْـحَـاجَـاتُ إِلَّا نُـفُـوسَـكُـمْ
وَلَـيْـسَ لَـنَـا إِلَّا الـسُّـيُـوفَ وَسَـائِـلُ (٤)
فَـمَـا وَرَدَتْ رُوحَ ٱمْـرِئٍ رُوحُـهُ لَـهُ
وَلَا دَرَتْ عَـنْ بَـاخِـلٍ وَهْـوَ بَـاخِـلُ (٥)
غَـثَـاثَـةُ عَـيْـشِـي أَنْ تَـغِـثَّ كَـرَامَـتِـي
وَلَـيْـسَ بِـغَـثٍّ أَنْ تَـغِـثَّ الـمَـآكِـلُ (٦)

---

(١) الوجناء: الناقة العظيمة. تصوّر الشاعر مطيّته كأنها مركب يمخر عباب بحر هائج متلاطم الأمواج بسرعة فائقة، والمدى بعيد، والقرار بعيد المنال.

(٢) العواذل، الواحد عاذل: اللائمون. يُصوّر الشاعر أنه في متاهة فلا يهتدي إلى الاستقرار؛ فالأمكنة تلفظه، وذلك مصداق لأقوال اللائمين أنه لن يعرف طعم الراحة في دنياه.

(٣) يبغ: يودّ. إنه درب طويل تحفّه المخاطر، ومن أحبّ إدراك أمانيه، فلا بدّ له من ملاقاة الصعاب، عندئذٍ تتساوى سُبل الموت والحياة، فلا تفتر همم هؤلاء القوم.

(٤) الوسائل، الواحدة وسيلة: الطرق. الشاعر يعشق إراقة الدماء، فهو لن يتوانى في ضرب الرقاب مستعيناً بالصارم البتّار.

(٥) تلك السيوف تُحبّ انتزاع أرواح أصحابها، والمرء بطبيعته يُحبّ الحياة ويبخل بنفسه على الموت، فإذا وردت تلك السيوف فلا بدّ من أن تصدر وقد انتزعت أفضل ما لدى المرء ألا وهي حياته.

(٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٣. الغثاثة: الهزال. كرامة الشاعر فوق كلّ اعتبار، فهو يرفض الذلّ مهما كان شكله ومهما تنوّعت مصادره، فالأكل لديه شيء عابر فيه قيام الحياة ليس إلّا.

حلم الفتى في غير موضعه جهل

يمدح شجاع بن محمد الطائي المنبجي :

[الطويل]

عَـزِيـزُ أَسًـى مَـنْ دَاؤُهُ ٱلْـحَـدَقُ الـنُّـجْـلُ
عَـيَـاءٌ بِـهِ مَـاتَ الـمُـحِـبُّـونَ مِـنْ قَـبْـلُ[١]

فَـمَـنْ شَـاءَ فَـلْـيَـنْـظُـرْ إِلَـيَّ فَـمَـنْـظَـرِي
نَـذِيـرٌ إِلَـى مَـنْ ظَـنَّ أَنَّ ٱلْـهَـوَى سَـهْـلُ[٢]

وَمَـا هِـيَ إِلَّا لَـحْـظَـةٌ بَـعْـدَ لَـحْـظَـةٍ
إِذَا نَـزَلَـتْ فـي قَـلْـبِـهِ رَحَـلَ الْـعَـقْـلُ[٣]

جَـرَى حُـبُّـهَـا مَـجْـرى دَمِـي فـي مَـفَـاصِـلِـي
فَـأَصْـبَـحَ لِـي عَـنْ كُـلِّ شُـغْـلٍ بِـهَـا شُـغْـلُ[٤]

سَـبَـتْـنـي بِـدَلٍّ ذَاتُ حُـسْـنٍ يَـزِيـنُـهـا
تَـكَـحُّـلُ عَـيْـنَـيْـهَـا وَلَـيْـسَ لَـهَـا كُـحْـلُ[٥]

كَـأَنَّ لِـحَـاظَ الـعَـيْـنِ فِـي فَـتْـكِـهِ بِـنَـا
رَقِـيـبٌ تَـعَـدَّى أَوْ عَـدُوٌّ لَـهُ دَخْـلُ[٦]

---

(١) و (٢) عزيز : نادر الوجود . الأسى : الشفاء والعلاج ، الحدق النجل : العينان الواسعتان . العياء : المرض الصعب الشفاء وقد أعيا الأطباء . يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي ، مفاده أن من ابتلي بعشق من كانت حدقتاها واسعتين فتّاكتين ، فإنه قد فُدح بمرض عُضال لا شِفاء منه ولا دواء له ناجع ، ومآله إلى موت محتّم شأنه في ذلك شأن المحبين قبله ؛ وهو مثال حيّ على صدق مدعاه ، لذا فمن أحبّ الوقوع بتجربته ، فعليه قبل كلّ شيء ليتعظ ويتأكّد أن الهوى ليس سهلاً ، بل هو نذير شؤم وعذاب .

(٣) إنها رحلة لحظة فيها تتبادل النظرات انفعالاتها ، فإذا بمن قُدّر عليه أن يقع فريسة العذاب ، فإذا بعقله قد شرد بعيداً عنه ؛ فمشاعره قد صودرت وقلبه قد قيّد بقيد لا فِكاك منه .

(٤) الدم عنصر الحياة البشرية ، وإذا ما خالط الحبّ الدم ، فقد شملت حركته كلّ أعضاء الكائن الحيّ ، فلا يتركّز بمكان واحد ، إنه في القلب والعينين والدماغ وو . . . وهذا يعني أنه لا خلاص منه إلّا بالموت كالمرض العُضال لا شِفاء منه .

(٥) و (٦) يقول الواحدي : إن البيتين التاليين منحولان وليسا من أصل القصيدة . سبتني : =

وَمِـنْ جَـسَـدِي لَـمْ يَـتْـرُكِ الـسُّـقْـمُ شَـعْـرَةً
فَـمَـا فَـوْقَـهَـا إلَّا وَفِـيـهَـا لَـهُ فِـعْـلُ (١)
إذا عَـــذَلُـــوا فِـيـــهَـــا أَجَـبْـتُ بِـأَنَّـةٍ
حُـبَـيِّـبَـتـي قَـلْـبـي فُـؤَادي هَـيَـا جُـمْـلُ (٢)
كَـأَنَّ رَقِـيـبـاً مِـنْـكِ سَـدَّ مَـسَـامِـعِـي
عَنِ الْعَذْلِ حَتَّى لَيْسَ يَدْخُلُهَا الْعَذْلُ (٣)
كَـأَنَّ سُـهَـادَ ٱلـلَّـيْـلِ يَـعْـشَـقُ مُـقْـلَـتِـي،
فَـبَـيْـنَـهُـمَـا فـي كـلِّ هَـجْـرٍ لَـنَـا وَصْـلُ (٤)
أُحِـبُّ الَّـتِـي فـي الْـبَـدْرِ مِـنْـهَـا مَـشَـابِـهٌ،
وَأَشْـكُـو إلـى مَـنْ لا يُـصَـابُ لَـهُ شَـكْـلُ (٥)
إلَـى وَاحِـدِ الـدُّنْـيَـا إلَـى ٱبْـنِ مُـحَـمَّـدٍ
شُـجَـاعَ الَّـذي لِـلَّـهِ ثُـمَّ لَـهُ الْـفَـضْـلُ (٦)

= أسرتني. الدلّ: الدلال والغنج. اللحاظ: مؤخر العينين. الدخل: الريبة. إنها ذات تأثير بحيث استولت على مشاعر الشاعر، فهي مغناج، دلالها أخّاذ، وجمالها ساحر، فإذا ما نظر إليها العاشق وجد عينيها قد تكحّلتا خِلقة، وهي لم تصطنع كُحلاً، وهذا ما جعلهما تفتكان به دون رحمة، ودون حوائل وموانع؛ فالرقباء والأعداء لم يحولوا بين الشاعر وسحر عينيها.

(١) السقم: المرض. ومن شدّة تأثير هذا الحبّ أنه ألمّ به المرض فغزا سائر جسمه، فبدت علائمه عليه ولم يترك جارحة فيه إلّا غزاها.

(٢) عذلوا: لاموا. أنّة: صوت خافت يصدر عن ألم. يُعلن الشاعر عن شدّة تعلّقه بمعشوقته، رغم لوم اللائمين، وردّه عليهم جميعاً أنين نابع من القلب، وهو مع ذلك لا يستصرخها، ولسان حاله يقول: هي قلبي فلا أفارقها ولا أهتمّ لمقولة عاذل.

(٣) مسامع: أذنيّ. يُخاطب الشاعر محبوبته معاتباً؛ فسبب عدم سماعه لوم العذال كأنها أقامت على أذنيه رقيباً يحول بينه وبين لائميه فلا يسمع مقولتهم التحريضية عن عدم الانسياق وراءها.

(٤) السهاد: الأرق وعدم النوم. يعشق: يُحبّ. الهجر: البعد، ومن معاناة الشاعر أنه لا يعرف للنوم طعماً؛ فهو يقضي ليله ساهراً أرقاً ممّا يُوحي بأن عشقاً يربط بين عينيه وسهاد الليل، ولا يحدث هذا إلّا نتيجة الهجر ولوعة الفراق بينه وبين حبيبته.

(٥) و (٦) مشابه: مثيل. يُصاب: يُوجد. الفضل: الجود. يتخلّص الشاعر من الغزل إلى =

إِلَـى الـثَّـمَـرِ الْـحُـلْـوِ الَّـذِي طَـيِّـىءٌ لَـهُ
فُـرُوعٌ وَقَـحْـطَـانُ بْـنُ هُـودٍ لَـهُ أَصْـلُ (١)

إِلَـى سَـيِّـدٍ لَـوْ بَـشَّـرَ ٱلـلَّـهُ أُمَّـةً
بِـغَـيْـرِ نَـبِـيٍّ بَـشَّـرَتْـنَـا بِـهِ الـرُّسْـلُ (٢)

إِلَـى الْـقَـابِـضِ الْأَرْوَاحِ وَالـضَّـيْـغَـمِ الَّـذِي
تُـحَـدِّثُ عَـنْ وَقْـفَـاتِـهِ ٱلْـخَـيْـلُ وَالـرَّجْـلُ (٣)

إِلَـى رَبِّ مَـالٍ كُـلَّـمَـا شَـتَّ شَـمْـلُـهُ
تَـجَـمَّـعَ فـي تَـشَـتُّـتِـهِ لِـلْـعُـلَـى شَـمْـلُ (٤)

هُـمَـامٌ إذا مَـا فَـارَقَ الْـغِـمْـدَ سَـيْـفُـهُ
وَعَـايَـنْـتَـهُ لَـمْ تَـدْرِ أَيُّـهُـمَـا الـنَّـصْـلُ (٥)

= الممدوح؛ فحبّه كرّسه لمن لا شبيه لها في النساء، إنها البدر جمالاً ونوراً وأنساً وارتفاعاً، فهي تسمو على سائر بنات جنسها ولذا فهو يشكوها لمن لا يُعثر على شبيهه في الرجال؛ إنه واحد الدنيا في صفاته، إنه ابن محمد شجاع وريث حسب ونسب، فباستطاعته مساعدة الشاعر وأفضاله علّه أن يُدرك حبيبته.

(١) طيّئ: قبيلة الممدوح. قحطان بن هود: أبو قبائل اليمن. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه ينتسب إلى عرب اليمن، فهو ثمرة الخير من شجرة مباركة، تبدأ بقحطان بن هود وتنتهي بطيّئ، ذلك الغصن الندي، والممدوح ثمرته اليانعة الحلوة.

(٢) ومن مغالاة الشاعر أن رفع ممدوحه ليكون سيد الناس، حتى لو كان رسول سيأتي الأمة بعد النبيّ ﷺ لطلب اللّه تعالى إلى رسله أن يُبشّروا بممدوحه آخر الزمان.

(٣) الضيغم: من أسماء الأسد. يُنوّه الشاعر بقوّة وشجاعة ممدوحه، إنه قابض الأرواح وأسد قوي ذو مهابة تتناقل الألسن أخبار شجاعته، فالفرسان يُشيدون بجولاته وصولاته في ميادين القتال، والفرسان يشهدون له بإنجازاته البطولية، حتى الرجالة يشهدون له بإنجازاته البطولية العظيمة.

(٤) شتّ: فرّق. الشمل: الاجتماع. يمدح الشاعر ممدوحه بالكرم؛ إنه غنيّ يودّ اكتساب المعالي لذا سرعان ما يُوزّعه على أصحابه وأحبائه، وهو في ذلك يبغي أن يُجمع الكلّ على الإشادة بمعاليه وفضائله.

(٥) الهمام: الملك العالي الهمّة. الغمد: جفن السيف. ينوّه الشاعر بصفات ممدوحه؛ إنه يأخذ الأمور بجدّ، فلا يتوانى لعلوّ همّته، وفي حال عزم على القتال، فهو يجرّد =

رَأَيْتُ ٱبْنَ أُمِّ المَوْتِ لَوْ أَنَّ بَأْسَهُ
فَشَا بَيْنَ أَهْلِ ٱلْأَرْضِ لَانْقَطَعَ النَّسْلُ(١)

عَلَى سَابِحٍ مَوْجُ المَنَايَا بِنَحْرِهِ
غَدَاةَ كَأَنَّ النَّبْلَ فِي صَدْرِهِ وَبْلُ(٢)

وَكَمْ عَيْنِ قِرْنٍ حَدَّقَتْ لِنِزَالِهِ
فَلَمْ تُغْضِ إِلَّا وَالسِّنَانُ لَهَا كُحْلُ(٣)

إِذَا قِيلَ رِفْقاً قَالَ لِلْحِلْمِ مَوْضِعٌ
وَحِلْمُ الفَتَى فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ جَهْلُ(٤)

وَلَوْلَا تَوَلِّي نَفْسِهِ حَمْلَ حِلْمِهِ
عَنِ ٱلْأَرْضِ لَانْهَدَّتْ وَنَاءَ بِهَا ٱلْحِمْلُ(٥)

= سيفه، فإذا بنا أمام سيفين لمضائهما وسرعة صولة الممدوح فلا يدري المرء أيهما السيف الحقيقي.

(١) ابن أم الموت: أي أخ الموت. البأس: الشدّة. فشا: انتشر. النسل: التوالد. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه يقتل أعداءه بلا رحمة فيُفنيهم، والخوف أن يشمل غضبه سائر أهل الأرض فينقطع النسل، فلا يبقى مخلوق على وجه الأرض وهذا من مغالاة الشاعر.

(٢) السابح: الفرس الذي يعدو كأنه يسبح. المنايا، الواحدة منيّة: الموت. النحر: الرقبة. الوبل: المطر. يطوف الممدوح في ساحة الميدان على ضحاياه ممتطياً جواداً رشيق الحركة، فينشر الموت في أرجاء المعمعة، وهو يتلقّى النبال بنحره وصدره فتنهمر عليه انهمار السيل الجارف.

(٣) القِرْن: الكفوء في الميدان. حدّقت: دقّقت النظر بإمعان. النزال: الحرب. لم تغض: لم تغْمض. ومما يدلّ على قوّة الممدوح في ساحة المعركة، فلو أن كفوءاً دقّق النظر تحدياً أو إعجاباً لكان الممدوح أسرع استجابةً، فإذا به يوجّه إليه رمحاً يُكحّل به عينه فلا يعود يُبصر شيئاً.

(٤) إنها حياة أو موت في ساحة المعركة، وقد يُطلب من الممدوح أن يرفق بالأبطال، فيردّ على من طلب منه ذلك: إنها المعركة ولا رحمة أو رفق، لأن أي تهاون يُودي بصاحبه إلى التهلكة، والحلم موضعه في السلم، وهذا يدلّ على علوّ شأن المرء في هذه الحالة.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٠. يروى "فلولا" بدلاً من "ولولا". =

تَبَاعَدَتِ الآمَالُ عَنْ كُلِّ مَقْصِدٍ
وَضَاقَ بِهَا إِلَّا إِلَى بَابِهِ السُّبْلُ (١)

وَنَادَى النَّدَى بِالنَّائِمِينَ عَنِ السُّرَى
فَأَسْمَعَهُمْ هُبُّوا فَقَدْ هَلَكَ الْبُخْلُ (٢)

وَحَالَتْ عَطَايَا كَفِّهِ دُونَ وَعْدِهِ
فَلَيْسَ لَهُ إِنْجَازُ وَعْدٍ وَلَا مَطْلُ (٣)

فَأَقْرَبُ مِنْ تَحْدِيدِهَا رَدُّ فَائِتٍ
وَأَيْسَرُ مِنْ إِحْصَائِهَا الْقَطْرُ وَالرَّمْلُ (٤)

وَمَا تَنْقِمُ ٱلْأَيَّامُ مِمَّنْ وُجُوهُهَا
لِأَخْمَصِهِ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ نَعْلُ (٥)

= ناء: ثقل. انهدت: اندكت وتحطّمت. ولبعد همَّته، فقد آلى على نفسه أن ينهض بحلمه بنفسه ليدلّ على قدرة عظيمة لديه في حالة السلم وإلّا لكانت الأرض انهارت ولم تستطع القيام بحمل عظيم، فإذا به يتطوّع عنها ليقوم بعمل عظيم كهذا.

(١) يروى «بابك» بدلاً من «بابه». لقد ضاقت بالبشر السبل، لكثرة آمالهم ومتطلباتهم، فناء بها كثيرون، ولكن باب الممدوح قام بتلبية مطالب الناس لقدرته على ذلك، فضلاً عن إمكانياته المالية والمعنوية.

(٢) الندى: الكرم. السُّرى: السير ليلاً لطلب الرزق. هلك: مات. إنه الصيت الحسن؛ كرم لا حدود له، فإذا بالندى يستحثّ الكُسالى على الطلب أن انهضوا واقصدوا الممدوح سيراً في الليل، فقد أمات البخل لأنه عدوّ ذميم، فمن طبيعة الممدوح أن يقتل أعداءه.

(٣) حالت: اعترضت، منعت. المطل: التسويف. ومن حسن أخلاق الممدوح أنه يُسارع بالعطاء بحيث لا يترك مجالاً لأحد ليطلب رفده، وهذا أراح المحتاجين من ذلّ السؤال، وهو لا ينجز وعداً، لأنه أصلاً لا يعدو يُماطل، فانتفت الحاجة بانتفاء أسبابها.

(٤) إحصائها: عدّها. يُردف الشاعر حديثه عن عظم كرم ممدوحه، فإحصاء مجالات عطائه وذكر أصحابها لا يُعدّ ولا يُحصى لكثرته، فمن المحتمل أن تُحصى الرمال والأمطار ولكن من المستحيل أن تحدّد قيمها. وذلك من مغالاة الشاعر كعادته في الحديث عن كرم ممدوحيه.

(٥) الأخمص: باطن القدم. ومن مغالاة الشاعر أن الأيام مغيظة بأفعال ممدوحه، فقد =

وَمَـــا عَـــزَّهُ فِـــيـــهَـــا مُـــرَادٌ أَرَادَهُ
وَإِنْ عَـــزَّ إِلَّا أَنْ يَـــكُـــونَ لَـــهُ مِـــثْـــلُ[١]

كَـفَـى ثُـعَـلاً فَـخْـراً بِـأَنَّـكَ مِـنْـهُـمُ
وَدَهْـرٌ لِأَنْ أَمْـسَـيْـتَ مِـنْ أَهْـلِـهِ أَهْـلُ[٢]

وَوَيْـلٌ لِـنَـفْـسٍ حَـاوَلَـتْ مِـنْـكَ غِـرَّةً
وَطُـوبَـى لِـعَـيْـنٍ سَـاعَـةً مِـنْـكَ لا تَـخْـلُـو[٣]

فَـمَـا بِـفَـقِـيـرٍ شَـامَ بَـرْقَـكَ فَـاقَـةٌ
وَلَا فِـي بِـلَادٍ أَنْـتَ صَـيِّـبُـهَـا مَـحْـلُ[٤]

= غلبها لذا نقمت عليه، فقد أذلّها وأخضعها لإرادته فإذا بوجوهها ديست بأرجله حتى باتت كالنعل ينتعلها لخضوعها له.

(١) عزّه: تفوّق وتغلّب. يُفضل الشاعر ممدوحه على سائر البشر، فباستطاعته أن يجد ما يريده فلا يعترضه شيء ولا يصعب، فهو الغالب المنتصر دائماً، ولكن شاءت الأقدار ألّا يجد شبيهاً له بين البشر.

(٢) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١:٢٠١، مغني اللبيب وشرح شواهده، للسيوطي: ١٠٧. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه مفخرة قبيلة ثعل التي ينتمي إليها، حتى الدهر يفخر أن الممدوح نجمه الذي يفخر به لإطلاله على البشرية في ذلك الوقت.

(٣) الغِرَّة: الغفلة. طوبى: حسن. الويل: العذاب. يتمنّى الشاعر سوء العذاب لمن يبغي الإيقاع بممدوحه بالحيلة والغدر والغفلة، وفي المقابل فإنه يتمنّى الخير والحياة السعيدة لمن يُحبّ رؤية ممدوحه سعيداً ينعم برغد الحياة وطيبها.

(٤) شام: نظر إلى الممدوح آملاً أن ينال منه خيراً. البرق: الضوء ينبعث من بين الغيوم. الفاقة: الحاجة. الصيّب: المطر الغزير. المحل: الجفاف وانقطاع المطر. يُخاطب الشاعر ممدوحه مثنياً على كرمه؛ فما من فقير إلّا ونفسه مفعمة بالآمال الكبار بأن يحصل على ما يبغيه من مساعدة مالية، بحيث يعمّ سائر البلاد الخير من يديه، فينتفي الجفاف من حياة الناس، ويعيشون برغد العيش.

إنما الناس حيث أنت

يمدح عبد الرحمن بن المبارك الأنطاكي:

[الخفيف]

صِلَةُ الْهَجْرِ لِي وَهَجْرُ الْوِصَالِ
نَكَسَانِي فِي السُّقْمِ نُكْسَ الْهِلَالِ (١)

فَغَدَا الْجِسْمُ نَاقِصاً، وَالَّذِي يَنْـ
ـقُصُ مِنْهُ يَزِيدُ فِي بَلْبَالِي (٢)

قِفْ عَلَى الدِّمْنَتَيْنِ بِالدَّوِّ مِنْ رَيَّـ
ـا كَخَالٍ فِي وَجْنَةٍ جَنْبَ خَالِ (٣)

بِطُلُولٍ كَأَنَّهُنَّ نُجُومٌ
فِي عِرَاصٍ كَأَنَّهُنَّ لَيَالِي (٤)

---

(١) يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بالغزل. نكس المريض: عادت إليه حاله المرضية بعدما تماثل إلى الشفاء. إنه هجر متواصل، فحبيبة الشاعر لا يتوقّف هجرها له ممّا أرجع إليه الحالة النفسية الأليمة، وقد كاد يشفى، فثمَّة موعد قريب سيتحقّق، ولكنه تبخّر فإذا بتلك الحالة من المطر، تماماً كرحلة الهلال بين الضياء والظلمة.

(٢) البلبال: انشغال الفكر بالهموم والأحزان. ثمَّة علاقة بين جسم الشاعر وبين الهموم والأحزان، فبقدر ما يُصيبه من هزال وضعف تتضاعف هموم لا حصر لها ويشتدّ بلبال الشاعر وموج الهموم والأحزان تغرقه في بحرها.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٤. الدمنة: ما تقادم عهده من آثار الديار. الدوّ: الصحراء. ريّا: اسم حبيبة الشاعر. الخال: الشامة في الوجه. يُخاطب الشاعر صاحبه طالباً منه أن يقف على تلك الآثار، فالديار خلت من ساكنيها، ولم تعد ريّا تحيي المكان في تلك الصحراء بضحكها وحسن لفتاتها. إن ما بقي من آثار كأنها خال يزيّن وجهاً جميلاً محبّباً.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٥. الطلول، الواحد طلل: ما يبقى من آثار الديار بعد رحيل ساكنيها. العراص، الواحدة عرصة: فناء الدار. يُتابع الشاعر رسم تلك الديار، فما يبدو منها كأنه نجوم تُضيء ظلمة ليل دامس، إنها موحشة في عراص خاليات لا أنيس فيها، يلفّها السكون برداء من السكينة والحزن.

وَنُؤِيٍّ كَأَنَّهُنَّ عَلَيْهِـ
ـنَّ خِدَامٌ خُرْسٌ بِسُوقٍ خِدَالِ(١)
لَا تَلُمْنِي فَإِنَّنِي أَعْشَقُ الْعُشَّـ
ـاقِ فِيهَا يَا أَعْذَلَ الْعُذَّالِ(٢)
مَا تُرِيدُ النَّوَى مِنَ ٱلْحَيَّةِ الذَّوَّا
قِ حَرَّ الْفَلَا، وَبَرْدَ الظِّلَالِ(٣)
فَهْوَ أَمْضَى فِي الرَّوْعِ مِنْ مَلَكِ الْمَوْ
تِ، وَأَسْرَى فِي ظُلْمَةٍ مِنْ خَيَالِ(٤)
وَلِحَتْفٍ فِي الْعِزِّ يَدْنُو مُحِبٌّ،
وَلِعُمْرٍ يَطُولُ فِي الذُّلِّ قَالِ(٥)

---

(١) النؤي: حفر تحفر حول الخيمة لمنع تسرّب المياه إلى داخلها. خِدام، الواحد خدمة: الخلخال. خُرس: لا صوت لها. السوق، الواحد ساق. الخدال: السمينة. يُتابع الشاعر رسم تلك الديار. لقد استرعت النؤي نظر الشاعر، فراح يتتبّعها، فإذا بها خدود محفورة لا تزال رسومها تبدو للعيان وكأنها خلخال استدار حول ساق رجل امرأة مكتنزة فلا يسمع لها صوت.

(٢) يُخاطب الشاعر اللائم ألّا يُكثر عليه اللوم، إنه عاشق متيّم، بل إنه أكثرهم عشقاً لمحبوبته، وأنت من طبعك العذل واللوم يا أكبر عذول.

(٣) النوى: البعد. يقصد الشاعر بالحيّة نفسه. يفخر الشاعر بقوّة جلده وصبره وهو يُعاني في سبيل تحصيل عيشه الكثير؛ فالترحال وعدم الاستقرار في مكان محدّد، جعله يتمرّس ويقوى على مقارعة التشرّد والانتقال من مكان إلى آخر، فلا الحرّ الشديد يُؤثر فيه ولا البرد القارس يفلّ من عزيمته.

(٤) أمضى: أقوى نفاذاً. الروع: شدّة الخوف. أسرى، على وزن أفعل من السرى: السير ليلاً. يُقارن الشاعر بينه وبين ملك الموت، الذي يتوكّل بقبض أرواح، ولما كان أمضى كان أسرع وأقوى وأفعل من ملك الموت الذي لا يتعامل مع الوجود الإنساني مكانياً وزمانياً، بل إنه يتخطّى عوامل الزمان والمكان؛ فالشاعر أقتل من ملك الموت، لأنه شجاع لا يرهب الموت، بل إنه من صنّاع الموت.

(٥) الحتف: الموت. يدنو: يقرب. قالٍ: كاره. يُعلن الشاعر عن عشقه للموت إذا كان =

نَـحْـنُ رَكْـبٌ مِـلْـجِـنٍّ فـي زِيِّ نَـاسٍ
فَـوْقَ طَـيْـرٍ لـهَـا شُـخُـوصُ الْـجِـمَـالِ (١)

مِـنْ بَـنَـاتِ الْـجَـدِيـلِ تَـمْـشِـي بِـنَـا فـي الْـ
ـبِـيـدِ مَـشْـيَ الأيَّـامِ فـي الآجَـالِ (٢)

كُـلُّ هَـوْجَـاءَ لِـلـدَّيَـامِـيـمِ فِـيـهَـا
أَثَـرُ الـنَّـارِ فـي سَـلِـيـطِ الـذُّبَـالِ (٣)

عَـامِـدَاتٍ لِـلْـبَـدْرِ وَالْـبَـحْـرِ وَالـضِّـرْ
غَـامَـةِ ٱبْـنِ الـمُـبَـارَكِ الـمِـفْـضَـالِ (٤)

= عزيز النفس، وهو يكره العيش في ظلّ الذلّ والمهانة؛ فالحياة كرامة الأحرار في عالم يسوده الظلم والكراهية والاستعباد.

(١) الركب، الواحد راكب. ملجن، أدغم من بالجنّ، والإدغام كثير عنده. الزي: اللباس. يُتابع الشاعر واصفاً شجاعته مع صحبه، إنهم جنّ في شجاعتهم ومواجهتهم للأخطار، وإن يكونوا يتلبّسون أشكال البشر، وهم يتّخذون نياقاً تطير في مجاهل الصحراء بسرعة عظيمة.

(٢) و (٣) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٥. الجديل: فحل كريم كان العرب ينسبون إليه الإبل. البيد، الواحدة بيداء: الصحاري. الآجال، الواحد أجل: الأعمار. الهوجاء من النياق: السريعة النشيطة. ديامِيم، الواحدة ديمة: المفازة لا ماء فيها. السليط: الزيت. الذبال، الواحدة ذبالة: الفتيلة. يتابع الشاعر وصف النياق التي يتَّخذها وصحبه؛ إنها من بنات جديل ذلك الفحل الكريم الذي ترك أجيالاً عظيمة من النياق، وهي تمتاز بسرعتها تقطع الآماد كالأيام تقطع آجال البشر فتوصلهم إلى نهاية رحلة الحياة، وتلك النياق لمداومتها قطع الصحاري الظمأى إلى المياه أضناها السير وأهزلها وألهبتها الصحراء بقيظها، فكأنها فتيلة ذبال تلفظ أنفاسها الأخيرة.

(٤) يتخلّص الشاعر من حديثه عن النياق التي استعان بها وسيلة للوصول إلى ممدوحه. عامدات: قاصدات. البدر: القمر. الضرغامة: من أسماء الأسد. المفضال: الكريم الجواد. تلك النياق وسيلة الشاعر ليمثل بين يدي ممدوحه؛ إنه جميل الطلعة، يؤنس النفس ويسرّ العين، كريم كرم البحر الذي لا يُحدّ كرمه، يُعطي ولا يسأل ولا يمنن، أسد ذو مهابة، شجاع بطل تذلّ له سائر الأبطال؛ إنه ابن مبارك كريم، أفضاله عميمة.

مَـنْ يَـزُرْهُ يَـزُرْ سُـلَـيْـمَـانَ فـي الـمُـلْــ
ـكِ جَـلاَلاً وَيُـوسُـفـاً فـي الْـجَـمَـالِ[١]

وَرَبِـيـعـاً يُـضَـاحِـكُ الْـغَـيْـثُ فِـيـهِ
زَهَـرَ الـشُّـكْـرِ مِـنْ رِيَـاضِ الـمَـعَـالِـي[٢]

نَـفَـحَـتْـنَـا مِـنْـهُ الـصَّـبَـا بِـنَـسِـيـم
رَدَّ رُوحـاً فـي مَـيِّـتِ الآمَـالِ[٣]

هَـمُّ عَـبْـدِ الـرَّحْـمٰـنِ نَـفْـعُ الـمَـوَالِـي
وَبَـوَارُ الأعْـدَاءِ وَالأمْـوَالِ[٤]

أَكْـبَـرُ الْـعَـيْـبِ عِـنْـدَهُ الْـبُـخْـلُ وَالـطَّـعْــ
ـنُ عَـلَـيْـهِ الـتَّـشْـبِـيـهُ بِـالـرِّئْـبَـالِ[٥]

---

(١) ورد البيت في الخصائص، لابن جني ١ : ٣٠٢، دلائل الإعجاز، للجرجاني : ٢٧٣. يجمع الشاعر في ممدوحه مواصفات الكمال الإنساني ممثّلة بسليمان عليه السلام النبي الملك؛ فملكه شمل عالم البشر والحيوان والجنّ، فقد امتلك عناصر القوّة كاملة على وجه الأرض، فضلاً عن جمال خلقة يوسف عليه السلام وحكمته وعلمه.

(٢) يُتابع الشاعر مدح ممدوحه، إنه ربيع دائم النضرة والجمال واللطف والأنس، وهو يتفاعل مع الغيث، يتمثّل فيه الكرم بأجمل صوره وأكثرها بهاءً ولقد أجمل صورة اكتملت فيها صور تامة في مجالات العظمة والسؤدد.

(٣) نفحت الصبا: هبّت. الصبا: ريح لطيفة شرقية. يُردف الشاعر متمّماً حديثه؛ فقد تناقلت الرياح اللطيفة أخبار كرم الممدوح بحيث أحيت في نفسه آمالاً ميتة، علّه يحصل على ما يلطّف قيظ حاجته إلى المال.

(٤) لقد تقاسمت عبد الرحمن هموم؛ منها ما يهبّ على الموالي سعادة وغنًى وراحة بال لجوده وكرمه، ومنها ما يهبّ ناراً وموتاً وهلاكاً ودماراً على الأعداء لشجاعته وقوّته.

(٥) الرئبال: من أسماء الأسد. يصوّر الشاعر ما يكره الممدوح من العيوب؛ فأرذلها البخل؛ إنه عدوّه اللدود، فلا يتآلف معه ولا يرضاه لنفسه، وكذلك لا يقبل أن يُشبّه بالأسد، فمهما يكن شجاعاً وقوياً، فهو حيوان دوني، فالممدوح أقوى وأشجع من الأسد وأكثر مهابة وحكمة.

وَالْـجِـرَاحَـاتُ عِـنْـدَهُ نِـعَـمَـاتٌ
سُـبِـقَـتْ قَـبْـلَ سَـيْـبِـهِ بِـسُـؤَالِ[١]

ذَا الـسِّـرَاجُ الـمُـنِـيـرُ هٰـذَا الـنَّـقِـيُّ الْـ
ـجَـيْـبِ هٰـذَا بَـقِـيَّـةُ الأَبْـدَالِ[٢]

فَـخُـذَا مَـاءَ رِجْـلِـهِ وَٱنْـضَـحَـا فِـي الْـ
ـمُـدْنِ تَـأْمَـنْ بَـوَائِـقَ الـزِّلْـزَالِ[٣]

وَٱمْـسَـحَـا ثَـوْبَـهُ الْـبَـقِـيـرَ عَـلَـى دَا
ئِـكُـمَـا تُـشْـفَـيَـا مِـنَ الإِعْـلَالِ[٤]

مَـالِـئـاً مِـنْ نَـوَالِـهِ الـشَّـرْقَ وَالْـغَـرْ
بَ وَمِـنْ خَـوْفِـهِ قُـلُـوبَ الـرِّجَـالِ[٥]

---

(١) السيب: العطاء. يروى «نغمات» بالغين بدلاً من «نعمات» بالعين. إن من طبيعة الممدوح المبادرة بالعطاء، وهذا ما يدخل على قلبه السرور، وإذا سأله سائل عطاءً، فهذا يُؤلمه لأنه غفل عن صاحب حاجة وسمع تضرّعاً ورأى انكساراً ممَّا يزيد ألمه ويُشعره بالتقصير.

(٢) تتوالى الصفات المحبَّبة لدى الممدوحين يصبّها الشاعر صبًّا على ممدوحه؛ إنه سراج مشعّ يُضيء عتمة وظلمة الحياة، فيه يهتدي الضائعون إلى سبل الحياة، ونور يأنس إليه كلّ محتاج، إنه خالٍ من العيوب التي تدنّس الوجود الإنساني، بقية الأبدال الذين حلّوا محل النبي ﷺ للقيام بدعوته وهداية البشر، فضلاً عن إقامة شرع اللّٰه عزّ وجلّ في أرضه.

(٣) نضح: رشّ. بوائق، الواحدة بائقة: دواهي. يُخاطب الشاعر صاحبيه طالباً منهما أن يقوما برشّ وضوء رجله في المدن تجنّباً من الزلازل التي تدمر مدن الخطاة، فيتطهرا به، لطهر الممدوح وصلاحه.

(٤) البقير: قميص بلا كمين من ملابس النسوة. الإعلال: المرض. ويتابع مخاطباً صاحبيه أن يستعينا بثوبه تبرّكاً به فيشفيان من ما ألمّ بهما من الأمراض.

(٥) إن الممدوح مصدر سعادة أهل الشرق والغرب يبذر جوده فيهما بلا حساب فينعم البشر برفده من الموالي والأصحاب، أما الأعداء فأمرهم مختلف موت وخراب ودمار وخوف يملأ قلوبهم منه.

قَـابِـضـاً كَـفَّـهُ الْـيَـمِـيـنَ عَـلَـى الـدُّنــ
ـيَـا، وَلَـوْ شَـاءَ حَـازَهَـا بـالـشِّـمَـالِ[(١)]

نَـفْـسُـهُ جَـيْـشُـهُ وَتَـدْبِـيـرُهُ الـنَّـصْــ
ـرُ، وَأَلْـحَـاظُـهُ الـظُّـبَـى وَالْـعَـوَالِـي[(٢)]

وَلَـهُ فـي جَـمَـاجِـم الـمَـالِ ضَـرْبٌ
وَقْـعُـهُ فـي جَـمَـاجِـمِ الأبْـطَـالِ[(٣)]

فَـهُـمُ لاتِّـقَـائِـهِ الـدَّهْـرَ فـي يَـوْ
م نِـزَالٍ وَلَـيْـسَ يَـوْمَ نِـزَالِ[(٤)]

رَجُـلٌ طِـيـنُـهُ مِـنَ الْـعَـنْـبَـرِ الْـوَرْ
دِ وَطِـيـنُ الْـعِـبَـادِ مِـنْ صَـلْـصَـالِ[(٥)]

فَـبَـقِـيَّـاتُ طِـيـنِـهِ لَاقَـتِ الْـمَـا
ءَ فَـصَـارَتْ عُـذُوبَـةً فـي الـزُّلَالِ[(٦)]

---

(١) ومن مزايا الممدوح القناعة على غناه وزهده ما في أيدي الآخرين ولو شاء لما أبقى لمخلوق شيئاً فحاز الوجود بأكمله.

(٢) الظبى، الواحدة ظبة: حدّ السيف. العوالي: الرماح. إنه قوام جيشه، فبالممدوح تقوم الحروب وتقعد، وهو موفّق دائماً، فالنصر حليفه؛ إنه مهيب فنظراته الجادّة بمثابة سيوف ورماح في لحظة غضبه.

(٣) و (٤) الجماجم، الواحدة جمجمة: الرؤوس، يمدح الشاعر ممدوحه بعظم جوده، إنه يُتلف سائر ماله، ولكنه في المقابل يستطيع الاستعاضة عنه بإتلاف أرواح أعدائه، فيقطع رؤوسهم ويستحوذ على أموالهم. لذا فهم يدفعونه عنهم باسترضائه لخوفهم المتجذّر في أعماقهم من فورة غضبه في سائر الأوقات صوناً لأنفسهم وأموالهم وبلادهم.

(٥) و (٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٨. العنبر الورد: الطيب ذو اللون الأحمر. الصلصال: الطين الذي يصنع منه الفخار. البشر صنفان؛ أولهم الممدوح، إنه من كتلة جُبلت طيباً عطراً أحمر اللون وردي السمات والشكل، وثانيهما سائر الناس فقد جبلوا من مادة حقيرة قوامها الصلصال الجاف الجامد، الصنفان مختلفان قيمة ومادة حتى إن ما بقي من مادته مازج الماء فاستحال عذباً ذلالاً فُراتاً، فيه قوام الحياة لسائر البشر.

وَبَـقَـايَـا وَقَـارِهِ عَـافَـتِ الـنَّـا
سَ فَـصَـارَتْ رَكَـانَـةً فـي الْـجِـبَـالِ[1]

لَـسْـتُ مِـمَّـنْ يَـغُـرُّهُ حُـبُّـكَ الـسِّـلْـ
ـمَ وَأَنْ لا تَـرَى شُـهُـودَ الْـقِـتَـالِ[2]

ذَاكَ شَـيْءٌ كَـفَـاكَـهُ عَـيْـشُ شَـانِـيـ
ـكَ ذَلِـيـلاً وَقِـلَّـةُ الأَشْـكَـالِ[3]

وَاغْـتِـفَـارٌ لَـوْ غَـيَّـرَ الـسُّـخْـطُ مِـنْـهُ
جُـعِـلَـتْ هَـامُـهُـمْ نِـعَـالَ الـنِّـعَـالِ[4]

لِـجِـيَـادٍ يَـدْخُـلْـنَ فـي الْـحَـرْبِ أَعْـرَا
ءً وَيَـخْـرُجْـنَ مِـنْ دَمٍ فـي جِـلَالِ[5]

---

(١) الوقار: التعقل والرزانة. عافت: كرهت. الركانة: الاستقرار والثبات. ولو أن الممدوح طرح على البشر من ملكاته لكانوا شبيهاً به، ولكنه صبّ على الجبال من وقاره وحلمه ورزانة عقله فكان ثباتها واستقرارها، حيث كره أن يُشاركه بها أحد من البشر.

(٢) و (٣) غرّ: خدع. الشانئ: المبغض، الكاره. يمدح الشاعر ممدوحه بحبّه للسلم، إنه منظر خادع ألّا يرى في ساحات القتال والذي جنّبه الدخول في حروب متواصلة سببه جبن أعدائه ومبغضيه أنهم ألفوا حياة الذلّ واستكانوا خوفاً من بطشه؛ وهم على علم أنهم ليسوا أكفاء له، وهو بدوره ينظر إليهم نظرة دونيّة فلا يستحقّون أن ينزل إلى مستواهم.

(٤) السخط: الغضب. الهام، الواحدة هامة: الرؤوس. يُوضح الشاعر أيضاً الأسباب التي تحول دون فتك الممدوح بأعدائه أنه لا يغضب، فلو سخط عليهم لجعل رؤوسهم تُداس بحوافر خيوله فتُصبح بمثابة نعال لحوافر تلك الخيول، وذلك من مغالاة الشاعر.

(٥) الجياد، الواحد جواد: الخيول. الأعراء، الواحد عرى: الجواد الذي لا يسرج عليه. الجلال، الواحد جلّ: ما يوضع على متن الدابة. يُتابع الشاعر وصف حالة الجياد المغيرة، يُورد للممدوح فرسانه يمتطون تلك الجياد الخالية من أعرائها ثم يستردها وقد تجلّلت بدماء الأعداء التي جفّت.

وَاسْـتَـعَـارَ الْـحَـدِيـدُ لَـوْنـاً وَأَلْـقَـى
لَـوْنَـهُ فـي ذَوَائِـبِ الأطْـفَـالِ[١]

أَنْـتَ طَـوْراً أَمَـرُّ مِـنْ نَـاقِـعِ الـسُّـ
ـمِّ وَطَـوْراً أَحْـلَـى مِـنَ الـسَّـلْـسَـالِ[٢]

إِنَّـمَـا الـنَّـاسُ حَـيْـثُ أَنْـتَ وَمَـا الـنَّـا
سُ بِـنَـاسٍ فِـي مَـوْضِـعٍ مِـنْـكَ خَـالِ[٣]

الملك للّه العزيز

دخل عليه يوماً فقال له: وددنا يا أبا الطيب لو كنت اليوم معنا، فقد ركبنا ومعنا كلب لابن ملك فطردنا به ظبياً ولم يكن لنا صقر فاستحسنت صيده. فقال: أنا قليل الرغبة في مثل هذا. فقال أبو علي: إنما اشتهيت أن تراه فتستحسنه فتقول فيه شيئاً من الشعر. قال: أنا أفعل، أفتحب أن يكون الآن؟ قال: أيمكن مثل هذا؟ قال: نعم. وقد حكمتك في الوزن والقافية. قال: لا بل الأمر فيهما إليك. فأخذ أبو الطيب درجاً وأخذ أبو علي درجاً آخر يكتب فيه كتاباً فقطع عليه أبو الطيب الكتاب وقال:

[الرجز]

وَمَـنْـزِلٍ لَـيْـسَ لَـنَـا بِـمَـنْـزِلِ
وَلَا لِـغَـيْـرِ الْـغَـادِيَـاتِ الْـهُـطَّـلِ[٤]

---

(١) الذوائب، الواحدة ذؤابة: الخصلة من الشعر. يصف الشاعر السيوف البيضاء وقد غطّتها الدماء التي جفّت، فإذا بالسواد يُكلّلها، وقد تخلّى عن لونه للأطفال فإذا بهم يشيبون رغم صغر أعمارهم.

(٢) طوراً: تارة. السمّ الناقع: القاتل. السلسال: الماء العذب. يُخاطب الشاعر ممدوحه، بأنه طوراً سمّ زعاف قاتل لأعدائه، وتلك إحدى حالتيه، والثانية أنه تارة أخرى عذب حلو كماء صافية تنساب في الحلق فتنعش الروح والبدن.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٨. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه سرّ حياة الخلق، فيه تقوم حياتهم وتصلب أعوادهم وتتأمّن أقواتهم، فلو خلا مكانه منه لما كان للناس وجود.

(٤) الواو: واو ربّ، الغاديات. السحائب المنتشرة صباحاً. الهطل، الواحدة هاطلة: المفعمة بالماء الكثير. شرع الشاعر يرسم الموقع الذي تدور فيه الأحداث؛ إنه نعم المنزل يندر وجوده، لجمال طبيعته، وهو منزل لا نسكن فيه، ولكنه مسكن سحب تفترش سماءه ملئ بالأمطار التي تصبحه مع انبلاج الفجر.

نَــدِي الْــخُــزَامَــى أَذْفَــرِ الْــقَــرَنْــفُــلِ
مُــحَــلَّــلٍ مِــلْــوَحْــشِ لَــمْ يُــحَــلَّــلِ (١)
عَــنَّ لَــنَــا فِــيــهِ مُــرَاعِــي مُــغْــزِلِ
مُــحَــيَّــنُ الــنَّــفْــسِ بَــعِــيــدُ الــمَــوْئِــلِ (٢)
أَغْــنَــاهُ حُــسْــنُ الْــجِــيــدِ عَــنْ لُــبْــسِ الْــحُــلِــي
وَعَــادَةُ الْــعُــرْيِ عَــنِ الــتَّــفَــضُّــلِ (٣)
كَــأَنَّــهُ مُــضَــمَّــخٌ بِــصَــنْــدَلِ
مُــعْــتَــرِضــاً بِــمِــثْــلِ قَــرْنِ الأَيِّــلِ (٤)
يَــحُــولُ بَــيْــنَ الْــكَــلْــبِ وَالــتَّــأَمُّــلِ
فَــحَــلَّ كَــلَّابِــي وِثَــاقَ الأَحْــبُــلِ (٥)

---

(١) النّدي: الرطب بالندى. الخزامى والقرنفل: من النباتات الطيبة الرائحة. الأذفر: الطيّب الرائحة. ملوحش: أدغم من بالوحش. المحلّل: الذي ينزل فيه. إنه مكان تزيّنه الزهور بشتّى الألوان فينتشر طيبها يُغازل الأنوف، فضلاً عن العيون، وقد انعزل فيه كوكبة من الوحوش ترعى أرجاءه وقد خلا من ساكنيه من البشر.

(٢) عنّ: بدا. المراعي: الذي يرعى مع غيره. المُغزل: الغزالة المطفلة. المُحيّن: الهلاك. الموئل: الملجأ، العيون ترقب المكان، وفجأة تبدو غزالة وإلى جانبها غزال شبّ برعاية أمه، فتيّ قويّ؛ إنه الحين، رغم أنه يصعب اصطياده، ولكنه اختير ليكون صيداً يستحقّ المغامرة.

(٣) الجيد: العنق. الحُليّ: أدوات الزينة من ذهب أو فضة. التفضّل: لباس أي شيء من الأردية في البيت. شرع الشاعر يرسم ذلك الغزال؛ جيده جميل جبله اللّه تعالى عليه، فلم يتزيّن شأن النسوة باتّخاذهن الحليّ من ذهب أو فضة، وكذلك فإنه لم يكتس ساتراً يستره بل إنه اكتفى بلباس إلهي كساه بنعمة الجمال.

(٤) مضمّخ: مشرّب جسده. الصندل: ضرب من العطور. الأيل: الذكر من الأوعال. ومن صفات ذلك الغزال، فقد اتّخذ لون الصندل جلداً له، وقد تصدّى معلناً عن قوته بإبراز قرنه الطويل.

(٥) ورد عجز البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٨. يحول: يعترض. الكلّاب: القائم على تدبير الكلاب. الوثاق: الرباط. الأحبل، الواحد حبل. يصف =

عَـــنْ أَشْـــدَقٍ مُـــسَـــوْجَـــرٍ مُـــسَـــلْـــسَـــلِ

أَقَـــبَّ سَـــاطٍ شَـــرِسٍ شَـــمَـــرْدَلِ[١]

مِـــنْـــهَـــا إِذَا يُـــثْـــغَ لَـــهُ لا يَـــغْـــزَلِ

مُـــؤَجَّـــدِ الْـــفِـــقْـــرَةِ رِخْـــوِ الْـــمَـــفْـــصِـــلِ[٢]

لَـــهُ إِذَا أَدْبَـــرَ لَـــحْـــظُ الْـــمُـــقْـــبِـــلِ

كَـــأَنَّـــمَـــا يَـــنْـــظُـــرُ مِـــنْ سَـــجَـــنْـــجَـــلِ[٣]

يَـــعْـــدُو إِذَا أَحْـــزَنَ عَـــدْوَ الْـــمُـــسْـــهِـــلِ

إِذَا تَـــلَا جَـــاءَ الْـــمَـــدَى وَقَـــدْ تُـــلِـــي[٤]

= الشاعر حيوية الغزال؛ إنه سريع بحيث لا يُمكن الكلب من ملاحقة حركاته، ممَّا جعل الكلاّب يفكّ سراح كلبه ليلاحقه.

(١) ورد الشطر الأول في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٨. الأشدق: الواسع الشدق. المسوجر: المعلق عنقه بالساجور وهو عبارة عن طوق فيه مسامير. المسلسل: الذي في عنقه سلسلة حديدية. الأقبّ: الضامر. الساطي: الذي يسطو على الصيد فيختطفه خطفاً، الشرس: السيئ الطباع. الشمردل: الفتي السريع. جمع الشاعر مواصفات الكلب الذي يُستعمل في مطاردة الطرائد لاصطيادها.

(٢) ورد عجز البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٨. يثغ: يصدر صوتاً شبيهاً بصوت النعجة. يغزل: فتور يُصيب الكلب في حال وصوله لطريدته التي تثغي فينصرف عنها. المؤجد: الموثق القوي. الفقرة، والجمع فقار الظهر التي تمسك عظام الصلب وهي خرزاته، يصف الشاعر الكلب بأنه يُقدم على الإمساك بطريدته ولا يُداخله خوف البتة لقوّة جسده وتماسكه.

(٣) ورد صدر البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٨. أدبر: تقهقر إلى الخلف. السجنجل: المرآة. يصف الشاعر سرعة حركة الكلب ونشاطه وتيقّظه، فهو في رجوعه إلى الوراء أمكنه أن يرى ما هو أمامه وما هو خلفه كأنه يرى في مرآة أمامه.

(٤) ورد صدر البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٨. يعدو: يجري مسرعاً. أحزن: سلك في الحزن وهو الوعر. أسهل: جرى في السهل. المدى: الغاية. يصف الشاعر شدّة وصلابة ذلك الكلب، فجريه في الوعر والسهل سواء لا يُتعبه ذلك، وهو في حال ملاحقة غيره من الكلاب يفوتها ويصبح متلوًّا بعدما كان تالياً.

يُقْعِي جُلُوسَ الْبَدَوِيِّ الْمُصْطَلِي

بِأَرْبَعٍ مَجْدُولَةٍ لَمْ تُجْدَلِ[1]

فُتْلِ الأَيَادِي رَبِذَاتِ الأَرْجُلِ

آثَارُهَا أَمْثَالُهَا فِي الْجَنْدَلِ[2]

يَكَادُ فِي الْوَثْبِ مِنَ التَّفَتُّلِ

يَجْمَعُ بَيْنَ مَتْنِهِ وَالْكَلْكَلِ[3]

وَبَيْنَ أَعْلاَهُ وَبَيْنَ الأَسْفَلِ

شَبِيهُ وَسْمِيِّ الْحِضَارِ بِالْوَلِي[4]

كَأَنَّهُ مُضَبَّرٌ مِنْ جَرْوَلِ

مُوَثَّقٌ عَلَى رِمَاحٍ ذُبَّلِ[5]

---

(١) و (٢) وردت الأبيات الثلاثة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٨. يُقعي: يجلس على أليته. المصطلي: المتدفئ. المجدولة: المشدودة المفتولة. يصف الشاعر كيفية جلوس ذلك الكلب، إنه يجلس على أليته كأنه يطلب الدفء ويستند على قائمتيه الأماميتين، وقد بعد ما بينهما، ورجلاه الربذتان الخفيفتان السريعتان، فإذا ما وطئتا صخراً تركتا آثارهما عليه رغم قساوته وصلابته، وهذا يدلّ بالطبع على قوّته العظيمة.

(٣) الوثب: القفز. التفتل: الالتفاف على الذات. المتن: جانب الظهر. الكلكل: الصدر. يمتاز ذلك الكلب بالقوّة وسرعة الحركة ورشاقتها، فإذا ما انفتل على طريدته يجتمع بعضه على بعض وينكمش صدره وظهره في نفس الحركة.

(٤) ورد صدر البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٨. الوسميّ: أول المطر. الولي: ما يليه. الحضار: شدّة العدو، يتابع الشاعر وصف حركة عدو الكلب؛ فإنه لا تفتر همَّته أبداً، فانطلاقه العظيم لا يتخلّف مهما امتدّ العدو وطال أمده، كالوسمي والولي من الأمطار.

(٥) المضبّر: الشديد الإحكام عظماً ولحماً. الجرول: الحجر. الرماح الذبل: اللينة. لقد اجتمعت لديه قوّة البنية، فكأنه خلق من صخر لصلابته، مع ليونة قوائمه في حركاتها ممّا يجعل حركته رشيقة.

ذي ذَنَبٍ أَجْرَدَ غَيْرَ أَعْزَلِ
يَخُطُّ فِي الأرْضِ حِسَابَ الْجُمَّلِ [١]
كَأَنَّهُ مِنْ جِسْمِهِ بِمَعْزِلِ
لَوْ كَانَ يُبْلِي السَّوْطَ تَحْرِيكٌ بَلِي [٢]
نَيْلُ الْمُنَى وَحُكْمُ نَفْسِ الْمُرْسِلِ
وَعُقْلَةُ الظَّبْيِ وَحَتْفُ التَّتْفُلِ [٣]
فَانْبَرَيَا فَذَّيْنِ تَحْتَ الْقَسْطَلِ
قَدْ ضَمِنَ الآخَرُ قَتْلَ ٱلْأَوَّلِ [٤]
فِي هَبْوَةٍ كِلاهُمَا لَمْ يَذْهَلِ
لا يَأْتَلِي فِي تَرْكِ أَنْ لَا يَأْتَلِي [٥]
مُقْتَحِماً عَلَى الْمَكَانِ ٱلْأَهْوَلِ
يَخَالُ طُولَ الْبَحْرِ عَرْضَ الْجَدْوَلِ [٦]

---

(١) الأجرد: شعره قليل. الأعزل: ذنبه مائل بإرادته لا خلقة، حساب الجمل: حساب بالأحرف بحيث يصطلح على كل حرف بقيمة عددية. يصف الشاعر الكلب باستقامة ذنبه الأجرد، وقد يميل بإرادته، وقد يلامس الأرض فيترك عليها آثاراً شبيهة بأحرف حساب الجمل.

(٢) يصف الشاعر كثرة حركة ذنب الكلب حتى يبدو بأنه زائد عن جسمه، ولا يُؤثر فيه ذلك تماماً كسوط يجلد فيه فلا تبليه كثرة تحريكه.

(٣) العُقلة: الرباط. الحتف: الموت. التتفل: ولد الثعلب. يصف الشاعر الكلب على أنه منية صاحبه فلا يخذله في الصيد بحيث إنه إذا أمسك بظبي لا يُفلح الظبي بالفرار منه، وإذا لاحق التتفل كان هلاكه بيديه.

(٤) انبريا: ظهرا. فذين: كلاهما. القسطل: الغبار. يصف الشاعر مطاردة الكلب للظبي، هاهما يبدوان، فيتقدم الظبي الكلب، وهما يعدوان بسرعة عظيمة، والغبار يتصاعد معلناً عن قوّة انطلاقهما، والكلب لا يني يُلاحق ضحيته.

(٥) و (٦) الهبوة: الغبرة. يأتلي: يقصّر. الذهول: الغفلة. يُتابع الشاعر وصف المطاردة بين الكلب والغزال. لقد دخلا معمعة من الغبار، ولم يُقصّرا في عدوهما أو يغفل كل منهما عن دوره، فالكلب ماضٍ لا يعوقه عائق مهما كان، إنه يجتاز الجدول يفصل بينهما، ويندفع مواجهاً الأخطار والأهوال لا يثنيه عن هدفه شيء مهما عظم، فإذا بالبحر يتقلّص حتى يبدو جدولاً فيغوص فيه.

حـتَّـى إِذَا قِـيـلَ لَـهُ نِـلْـتَ ٱفْـعَـلِ
إِفْـتَـرَّ عَـنْ مَـذْرُوبَـةٍ كَـالأَبْـصُـلِ (١)
لَا تَـعْـرِفُ الْـعَـهْـدَ بِـصَـقْـلِ الـصَّـيْـقَـلِ
مُـرَكَّـبَـاتٍ فِـي الْـعَـذَابِ الْـمُـنْـزَلِ (٢)
كَـأَنَّـهَـا مِـنْ سُـرْعَـةٍ فِـي الـشَّـمْـأَلِ
كَـأَنَّـهَـا مِـنْ ثِـقَـلٍ فِـي يَـذْبُـلِ (٣)
كَـأَنَّـهَـا مِـنْ سَـعَـةٍ فِـي هَـوْجَـلِ
كَـأَنَّـهُ مِـنْ عِـلْـمِـهِ بِـالْـمَـقْـتَـلِ (٤)
عَـلَّـمَ بُـقْـرَاطَ فِـصَـادَ الأَكْـحَـلِ
فَـحَـالَ مَـا لِـلْـقَـفْـزِ لِـلـتَّـجَـدُّلِ (٥)
وَصَـارَ مَـا فِـي جِـلْـدِهِ فِـي الـمِـرْجَـلِ
فَـلَـمْ يَـضِـرْنَـا مَـعْـهُ فَـقْـدُ الأَجْـدَلِ (٦)
إِذَا بَـقِـيـتَ سَـالِـمـاً أَبَـا عَـلِـي
فَـٱلْـمُـلْـكُ لِـلَّـهِ الْـعَـزِيـزِ ثُـمَّ لِـي (٧)

---

(١) و (٢) افترّ: كشف وكشّر. المذروبة: الأنياب المحدّدة. الأنصال، الواحدة نصل. يصف الشاعر كيفية قبض الكلب على الغزال، لقد كشّر عن أنيابه المحددة كأنها نصل محدد خلقة؛ إنها بمثابة عذاب نزل بضحيته لا نجاة منه.

(٣) يذبل: أحد جبال الحجاز. لا يزال الشاعر يتابع الحركة العنيفة التي يقوم بها أمام ضحيته، فلسرعة حركته بدت أنيابه كريح الشمال العنيف السريع، فإذا بوقوع صاعقة كأن جبلاً حطّ على الضحيَّة.

(٤) و (٥) الهوجل: الفلاة. المقتل: المكان الأضعف المؤدّي إلى الموت. الأكحل: عرق في الذراع يُفصد به. يصف الشاعر فكي الكلب، فأنيابه بمثابة هوّة في صحراء مترامية الأطراف، وقد اختار أضعف مقاتل الغزال فأنشب فيها أنيابه، فاستسلم المسكين لقضائه؛ إنه على علم بالتشريح فكان أسبق من بُقراط ذلك الطبيب اليوناني العالم بعلم التشريح فتعلم منه.

(٦) و (٧) الأجدل: الصقر. المرجل: القدر والوعاء من نحاس. سرعان ما وضع الظبي في قدر نحاسي، ولم يضر الكلب صاحبه، فقد نجح بالقيام بدوره، وأغنى الممدوح =

تصلح لمثلك الدول

وقال فيه وقد فصده الطبيب فغاص المبضع فوق حقه فأضر به ذلك:

[المنسرح]

أبْـعَــدُ نَــأْيِ الــمَـلِـيـحَـةِ الْـبَـخَـلُ
فــي الـبُـعْـدِ مَـا لَا تُـكَـلَّـفُ ٱلْإِبِـلُ [(١)]

مَــلُــولَــةٌ مَــا يَــدُومُ لَــيْــسَ لَــهَــا
مِــنْ مَــلَــلٍ دَائِــمٍ بِــهَــا مَــلَــلُ [(٢)]

كَــأَنَّــمَــا قَــدُّهَــا إِذَا ٱنْــفَــتَــلَــتْ
سَــكْـرَانُ مِــنْ خَـمْـرِ طَـرْفِـهَـا ثَـمِـلُ [(٣)]

بِــي حَــرُّ شَــوْقٍ إِلَــى تَــرَشُّــفِــهَــا
يَـنْـفَـصِـلُ الـصَّـبْـرُ حِـيـنَ يَـتَّـصِـلُ [(٤)]

= عن الاستعانة بصقر يحلّ محله. ثم يخاطب الشاعر ممدوحه قائلاً له: إذا حييت وبقيت سالماً سدت بك الناس جميعاً، فيكون لي الملك بعد الله عزّ وجلّ بك.

(١) أبعد: من صيغ المبالغة. النأي: البعد. تكلف: يطلب منها. ثمّة بعد مكاني وبعد معنوي. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بالغزل. لقد أوغلت حبيبة الشاعر في البعد، إنه بعد معنوي سببه البخل، ولذا فلا يُمكن أن يُطلب من الإبل القيام برحلة لا نهاية لها، فالأمر لا يتعلّق بالمكان ولكن يتعلّق بالمحال؛ فالهجر لا تحدّه المسافات.

(٢) يتحدّث الشاعر عن طبيعة محبوبته، إنها ملولة، دائمة الملل، تملّ كلّ شيء إلّا أنها لا تملّ مللها، فهي تلازمه، وقد اعتادت عليه، فثمّة ودّ بينهما.

(٣) القدّ: القامة. انفتلت: ماست بمشيها. الطرْف، بسكون الراء: النظر. الثمل: السكران. يصف الشاعر محبوبته بطول القامة وانتصابها، فهي تتثنّى وتميس بجسدها إذا مشت، كأنها سكرى إذا نظرت وتملّت بالنظر إلى جسدها معجبة، تتيه بما وهبها خالقها من جمال.

(٤) رشف: مصّ. إن الشاعر في حالة تجاذب بين أمرين، فالشوق حارّ لو أنه استطاع تقبيلها ومص ريقها، ولكن الأمر لو حصل اتصال بينهما لعدم الصبر وفارقه إذا رجع الشوق مجدّداً.

الثَّغْرُ وَالنَّحْرُ وَالْمُخَلْخَلُ وَالْـ
ـمِعْصَمُ دَائِي وَالْفَاحِمُ الرَّجِلُ(١)

وَمَهْمَهٍ جُبْتُهُ عَلَى قَدَمِي
تَعْجِزُ عَنْهُ الْعَرَامِسُ الذُّلُلُ(٢)

بِصَارِمِي مُرْتَدٍ بِمَخْبُرَتِي
مُجْتَزِىءٌ، بِالظَّلَامِ مُشْتَمِلُ(٣)

إِذَا صَدِيقٌ نَكِرْتُ جَانِبَهُ
لَمْ تُعْيِنِي فِي فِرَاقِهِ الْحِيَلُ(٤)

فِي سَعَةِ الْخَافِقَيْنِ مُضْطَرَبٌ،
وَفِي بِلَادٍ مِنْ أُخْتِهَا بَدَلُ(٥)

---

(١) الثغر: مقدّم الأسنان من الفم. النحر: أعلى الصدر والرقبة. المخلخل: موضع الخلخال من الساق. المعصم: موضع السوار من اليد. الفاحم: الشعر الأسود. الرّجِل: الشعر بين الجعد والسبط. ما يلفت نظر الشاعر في حبيبته، فمها العذب، فإذا ابتسمت افترّ عن أسنان لؤلؤية، ورقبة يزيّنها شعر أسود فاحم يغطي صدرها، وساقاها يُزينهما خلخالان بديعان، ومعصمان يحليهما أساور من ذهب وفضة.

(٢) و (٣) المهمه: الفلاة. جبته: قطعته. العرامس، الواحدة عرمس: الصلاب من النوق الشداد. الذلل الواحدة ذلول: التي روّضت بالسير. ينتقل الشاعر دون رابط بين جزءي القصيدة ودون تمهيد إلى رحلته إلى الممدوح. لطالما قطع مفازة موحشة منتعلاً قدميه، يجدّ في سيره حيث يصعب على النياق الشديدة المعتادة على مواصلة السير في تلك البقاع، وهو يتسلّح بسيفه البتّار وعلمه بتلك الدروب الخطرة، وعتمة الليل تستره.

(٤) نكر: استغرب. تعيني: تتعبني. يُعبّر الشاعر عن شعوره بالغربة والوحشة، فمن السهل أن يتنكر له من يدّعي صادق الودّ له، لذا فالشاعر يسهل عليه أن يجد علّة فراقه غير آسف على صحبة يُعشعش فيها زغل وخداع.

(٥) الخافقين: المشرق والمغرب. المضطرب: حيث لا استقرار. في جوّ كهذا حيث لا إخلاص ولا صدق مشاعر سهُل على الشاعر أن يجد البديل؛ فأرض اللّه تعالى واسعة، يستطيع المرء أن يخترقها من مشرقها إلى مغربها، وبالعكس حتى يجد المكان الذي يألفه ويستريح له.

وَفـي ٱعْـتِـمَـارِ ٱلأمِـيـرِ بَـدْرِ بْـنِ عَـمَّـا
رٍ عَـنِ الـشُّـغْـلِ بِـٱلْـوَرَى شُـغُـلُ(١)
أَصْـبَـحَ مَـالٌ كَـمَـالِـهِ لِـذَوِي الْـ
حَـاجَـةِ لَا يُـبْـتَـدَى وَلَا يُـسَـلُ(٢)
هَـانَ عَـلَـى قَـلْـبِـهِ الـزَّمَـانُ فَـمَـا
يَـبِـيـنُ فِـيـهِ غَـمٌّ وَلَا جَـذَلُ(٣)
يَـكَـادُ مِـنْ طَـاعَـةِ الْـحِـمَـامِ لَـهُ
يَـقْـتُـلُ مَـنْ مَـا دَنَـا لَـهُ أَجَـلُ(٤)
يَـكَـادُ مِـنْ صِـحَّـةِ الْـعَـزِيـمَـةِ مَـا
يَـفْـعَـلُ قَـبْـلَ الْـفِـعَـالِ يَـنْـفَـعِـلُ(٥)
تُـعْـرَفُ فـي عَـيْـنِـهِ حَـقَـائِـقُـهُ
كَـأَنَّـهُ بِـالـذَّكَـاءِ مُـكْـتَـحِـلُ(٦)

---

(١) الاعتمار: الزيارة. الورى: البشر. يروى «اعتماد» بدلاً من «اعتمار». لقد وجد الشاعر وُجهته، إنه بدر بن عمَّار، هو أمله ورجاؤه دون سائر البشر.

(٢) يسل، بتخفيف الهمز من يسأل. إنها خاصيّة امتاز بها بدر بن عمَّار، لقد أباح ماله للصادر والوارد، يدخل المحتاج بلا استئذان فيأخذ حاجته وينصرف، فلا يحول دون ذلك حائل، وهو بدوره لا يبادر بعطاء ولا يُسأل عطاءً، كأن ما بيده لا يملكه، بل هو موكل بردّه إلى أصحابه الحقيقيين.

(٣) الجذل: الفرح. يمدح الشاعر ممدوحه بعدم الاكتراث بما يحصل في هذا الوجود، لقد فكّر في أمور هذا الكون فخرج بمحصّلة، مفادها أن كلّ ما في الوجود لا يستحقّ حزناً، فحتى لو حدث ما يُفرح المرء لم يبطره الفرح بحيث تستجيش في نفسه عاطفة الكبرياء والتحدّي.

(٤) الحِمام، بكسر الحاء: الموت. الأجل: الحين. يصف الشاعر قوّة بدر؛ إنه قادر على الفتك بأيّ إنسان أراد قتله، حتى إنّ القدر يساعده على ذلك ولو لم يحنْ أجله، فيكون من الهالكين، وإن يكن ذلك خلاف المقدور.

(٥) ومن مغالاة الشاعر أن ممدوحه قوي العزيمة، فإذا عزم على أمر حصل قبل مبادرته فكان ما أراد واقعاً، وسبب ذلك أن بدراً دائم التفكير في ما يودّ فعله.

(٦) يصف الشاعر ممدوحه بحدّة الذكاء وعظم النبوغ، فعيناه تشعان بوميض يُنبئ عن =

أُشْـفِـقُ عِـنْـدَ ٱتِّـقَـادِ فِـكْـرَتِـهِ
عَـلَـيْـهِ مِـنْـهَـا أَخَـافُ يَـشْـتَـعِـلُ[(١)]

أَغَـرُّ أَعْـدَاؤُهُ إذَا سَـلِـمُـوا
بِـالْـهَـرَبِ ٱسْـتَـكْـبَـرُوا الـذي فَـعَـلُـوا[(٢)]

يُـقْـبِـلُـهُـمْ وَجْـهَ كُـلِّ سَـابِـحَـةٍ
أَرْبَـعُـهَـا قَـبْـلَ طَـرْفِـهَـا تَـصِـلُ[(٣)]

جَـرْدَاءَ مِـلْءِ ٱلْـحِـزَامِ مُـجْـفَـرَةٍ
تَـكُـونُ مِـثْـلَـيْ عَـسِـيـبِـهَـا ٱلْـخُـصَـلُ[(٤)]

إنْ أَدْبَـرَتْ قُـلْـتَ لَا تَـلِـيـلَ لَـهَـا
أَوْ أَقْـبَـلَـتْ قُـلْـتَ مَـا لَـهَـا كَـفَـلُ[(٥)]

= صاحبهما؛ إنه يتصرّف بوعي ينمّ عن نضوع وتعقل فكأن عينيه قد كحّلتا بكحل المعرفة للكون بأسره.

(١) أشفق: أخاف. اتّقاد: اشتعال. يداخل الشاعر شعور الخوف وشدّة الحذر من أن إمعان بدر بالتفكير بكثرة أن يعود عليه ذلك بالوبال فيحترق نهار فكرته لشدّة اتّقادها وذكاء حدّتها.

(٢) وردت الأبيات الأربعة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٩. الأغرّ: السيد الكريم الشريف. يمدح الشاعر بدراً بأنه سيد كريم شريف. وفي المقابل الأعداء الذين يفرّون من المعركة معه، وفي نجاحهم في هربهم، فإنهم يعتبرون ذلك نصراً لهم، فقد أوتوا الشجاعة للقيام بعمل كهذا، ولكنهم لن يسلموا لو ثبتوا في محاربتهم له.

(٣) يُقبلهم الأمر: يجعله قبالتهم. السابحة: الفرس تسبح في عدوها. أربعها: قوائمها الأربع. يُتابع الشاعر فكرته، فالممدوح يواجه الفارّين بخيل تسبح في عدوها، بحيث تسبق قوائمها الأربع أنظارها؛ وذلك من مبالغات مستحيلة.

(٤) الجرداء: القليلة الشعر. المجفرة: الواسعة الجنبين. العسيب: عظم الذنب. الخصل، الواحدة خصلة من الشعر. يتابع الشاعر وصف السابحة، إنها تملأ الحزام لسعة جنبيها وضخامة بطنها، وهي تمتاز بجمال ذنبها الكثّ الشعر الطويل.

(٥) أدبرت: تقهقرت. التليل: العنق. الكفل: الردف. يصف الشاعر جمال الفرس وضخامتها، ففي حال إدبارها بدا كفلها فمنع من رؤية عنقها لضخامته، وإذا أقبلت منع عنقها من رؤية كفلها لعلوّه وإشرافه.

وَالـطَّـعْـنُ شَـزْرٌ وَٱلْأَرْضُ وَاجِـفَـةٌ
كَـأَنَّـمَـا فِـي فُـؤَادِهَـا وَهَـلُ [(١)]

قَـدْ صَـبَـغَـتْ خَـدَّهَـا الـدِّمَـاءُ كَـمَـا
يَـصْـبُـغُ خَـدَّ ٱلْـخَـرِيـدَةِ الْـخَـجَـلُ [(٢)]

وَالْـخَـيْـلُ تَـبْـكِـي جُـلُـودُهَـا عَـرَقـاً
بِـأَدْمُـعٍ مَـا تَـسُـحُّـهَـا مُـقَـلُ [(٣)]

سَـارَ وَلَا قَـفْـرَ مِـنْ مَـوَاكِـبِـهِ
كَـأَنَّـمَـا كُـلُّ سَـبْـسَـبٍ جَـبَـلُ [(٤)]

يَـمْـنَـعُـهَـا أَنْ يُـصِـيـبَـهَـا مَـطَـرٌ
شِـدَّةُ مَـا قَـدْ تَـضَـايَـقَ الْأَسَـلُ [(٥)]

---

(١) الشزر من الطعن: ما كان عن يمين وشمال. واجفة: مضطربة. الوهل: الفزع. يصف الشاعر اشتداد الوطيس؛ فالطعن يقع في نحور القوم في كلّ ناحية يميناً وشمالاً، فإذا بالأرض تمور من تحت أرجلهم، وقد دبّ في أنحائها خوف عظيم، فإذا بها تضطرب لشدّة القتال.

(٢) الخريد: الفتاة الحييّة. يُتابع الشاعر وصف ما حلّ بالأرض، إنها تغطّت بالدماء، فصبغتها بلون أحمر تماماً كما ينشر الحياء على فتاة حييّة رداءه الأحمر لسبب يدعو إلى ذلك.

(٣) السح: الانصباب. المقل، الواحدة مقلة، إنها شحمة العين التي تجمع البياض والسواد. يتابع الشاعر وصف طرف من المعركة الدائرة؛ فالخيول في حراك عنيف لا يستكين، وقد كساها العرق بردائه كأنه دموع تبكي حمأة المعركة وما ينتج عنها من ضحايا وقعوا صرعى على صعيد المكان.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٩. سارٍ: اسم فاعل من سرى: سار في الليل. القفر: الأرض الموحشة. المواكب، الواحد موكب: الجيش. السبسب: الفلاة المترامية الأطراف. يصف الشاعر كثرة جيوش الممدوح، فقد سدّت الآفاق وملأت القفر والسهل، فبدت كجبل عظيم لكثرة الأبطال بعُددها وعددها.

(٥) الأسل، الواحدة أسلة: الرماح. يُتابع الشاعر وصف المشهد، إنها ملحمة، والمدى متضايق بين الفرسان بحيث لو أمطرت السماء لما نفذت المياه إلى الأرض لشدّة التحام الرماح وازدحام الأبطال.

يَـا بَـدْرُ يَـا بَـحْـرُ يَـا غَـمَـامَـةُ يَـا
لَـيْـثَ الـشَّـرَى يَـا حِـمَـامُ يَـا رَجُـلُ(١)

إنّ الْـبَـنَـانَ الَّـذِي تُـقَـلِّـبُـهُ
عِـنْـدَكَ فِـي كُـلِّ مَـوْضِـعٍ مَـثَـلُ(٢)

إنَّـكَ مِـنْ مَـعْـشَـرٍ إذَا وَهَـبُـوا
مَـا دُونَ أَعْـمَـارِهِـمْ فَـقَـدْ بَـخِـلُـوا(٣)

قُـلُـوبُـهُـمْ فِـي مَـضَـاءِ مَـا ٱمْـتَـشَـقُـوا
قَـامَـاتُـهُـمْ فِـي تَـمَـامِ مَـا ٱعْـتَـقَـلُـوا(٤)

أَنْـتَ نَـقِـيـضُ ٱسْـمِـهِ إذَا ٱخْـتَـلَـفَـتْ
قَـوَاضِـبُ ٱلْـهِـنْـدِ وَالْـقَـنَـا الـذُّبُـلُ(٥)

أَنْـتَ لَـعَـمْـرِي ٱلْـبَـدْرُ الـمُـنِـيـرُ وَلَـكِـنَّـ
ـكَ فِـي حَـوْمَـةِ الْـوَغَـى زُحَـلُ(٦)

---

(١) الليث: من أسماء الأسد. الشرى: موضع تكثر فيه الأسود في بلاد الشام. الغمامة: السحابة المليئة بالماء. الحِمام، بكسر الحاء: الموت. تتوالى الصفات المحبّبة للممدوحين؛ فبدر جميل الطلعة، كريم جواد، سحاب يجود بماله بكثرة فلا يبخل بمال، أسد تتمثل فيه القوّة والمهابة والسلطان والسؤدد، فضلاً عن كفاية الملك، موت للأعداء فيكفي أن يُذكر اسمه حتى يدبّ في نفوسهم رعب مميت، رجل مكتمل الرجولة بأجلى صورها؛ وهذا يعني أنه إنسان مكتمل يحتاجه كل عصر ومصر.

(٢) يمدح الشاعر ممدوحه ببعد صيته في الآفاق، فيده بيضاء تنثر الخير في كل مكان؛ فجوده مضرب الأمثال وعلى كلّ لسان.

(٣) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٨٧، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٩. معشر: أناس. يمدح الشاعر آل ممدوحه؛ فهم أناس كرماء طبعاً وتطبّعاً، فهم لا يبخلون بشيء، فكلّ شيء مباح يُعطونه بحبّ، فما يملكونه نهب لذوي الحاجات، وهم لم يهبوا أعمارهم.

(٤) امتشق السيف: جرّده من غمده. اعتقل الرمح: وضعه بين ساقته وركابه. ويُتابع الشاعر حديثه عن شجاعة القوم؛ لهم قلوب قدّت من الصخر مضاءً وقوّة كما مضاء سيوفهم، وهم طوال القامات كرماحهم.

(٥) و (٦) قواضب الهند: السيوف البتَّارة المصنوعة في الهند. القنا الذبل: الرماح =

كَـتِـيـبَـةٌ لَـسْـتَ رَبَّـهَـا نَـفَـلٌ
وَبَـلْـدَةٌ لَـسْـتَ حَـلْـيَـهَـا عُـطُـلُ[١]

قُـصِـدْتَ مِـنْ شَـرْقِـهـا وَمَـغْـرِبِـهَـا
حـتّـى ٱشْـتَـكَـتْـكَ الـرِّكَـابُ وَالـسُّـبُـلُ[٢]

لَـمْ تُـبْـقِ إلّا قَـلِـيـلَ عَـافِـيَـةٍ
قَـدْ وَفَـدَتْ تـجـتَـدِيـكَـهَـا الْـعِـلَـلُ[٣]

عُـذْرُ الـمَـلُـومَـيْـنِ فِـيـكَ أَنَّـهُـمَـا
آسٍ جَـبَـانٌ وَمِـبْـضَـعٌ بَـطَـلُ[٤]

مَـدَدْتَ فـي رَاحَـةِ الـطَّـبِـيـبِ يَـداً
فَـمَـا دَرَى كَـيْـفَ يُـقْـطَـعُ الأمَـلُ[٥]

= الدقاق. وحومة الوغى: ساحة الحرب. زحل: من كواكب النحس. يُخاطب الشاعر ممدوحه؛ إنه بين حالين، فإذا اشتجرت سيوف الهند القاطعة والتقت الرماح الدقيقة، فقد تخلّى الممدوح عن اسمه واتخذ صفة زحل ذلك النجم الذي يرمز إلى النحوس، وفي الحال الآخر فاسمه بدر يُوحي بالسعادة والأنس والضياء والحنان في حالة السلم.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٩. الكتيبة: القطعة من الجيش. النفل: الغنيمة. الحلي: الزينة. عطل: التي تفتقد إلى الحلي. يردف الشاعر مبيّناً مكانة ممدوحه؛ فما من كتيبة لا يقودها، فهي غَنيمة سهلة للأعداء، وكذلك بلدة لا يُوجد فيها، فهي تفتقد إلى الزينة، وهي عطل تفتقد إلى رونقها.

(٢) الركاب: الإبل. ينوّه الشاعر بعظم جود ممدوحه؛ إنه مقصد أهل الأرض، مشرقها ومغربها، يقصدونه لينالوا رفده وعطاياه ويتشرّفوا برؤيته، ولذا كانت شكاة من الإبل التي تأتي وتروح على الطرق المؤدية إليه والتي بدورها ضاقت بسالكيها لكثرة ما وطئت وذللت بحوافر الخيول وأخفاف الإبل.

(٣) يُخاطب الشاعر ممدوحه؛ فقد وهب كلّ شيء ولم يبق له إلّا صحة عليلة، فإذا بالوفود تتوالى طالبة منه تستوهبه علله.

(٤) و (٥) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٩. الآسي: الطبيب. المبضع: آلة الفصد. الملومين: الطبيب والمبضع. يُطلعنا الشاعر على حدث قد وقع لممدوحه، لقد كان الطبيب جباناً، فارتعدت يده لشدّة رهبته من بدر، وكان المبضع =

إنْ يَكُنِ الْبَضْعُ ضَرَّ بَاطِنَهَا
فَرُبَّمَا ضَرَّ ظَهْرَهَا الْقُبَلُ (١)

يَشُقُّ في عِرْقِهَا الْفِصَادُ وَلَا
يَشُقُّ في عِرْقِ جُودِهَا الْعَذَلُ (٢)

خَامَرَهُ إذَا مَدَدْتَهَا جَزَعٌ
كَأَنَّهُ مِنْ حَذَاقَةٍ عَجِلُ (٣)

جَازَ حُدُودَ ٱجْتِهَادِهِ فَأَتَى
غَيْرَ ٱجْتِهَادٍ لِأُمِّهِ الْهَبَلُ (٤)

أَبْلَغُ مَا يُطْلَبُ النَّجَاحُ بِهِ الـ
ـطَّبْعُ وَعِنْدَ التَّعَمُّقِ الزَّلَلُ (٥)

= بطلاً فتمادى في شجاعته ممَّا آذى الممدوح وسبب له مرضاً؛ إنهما الجانيان الملومان.

(١) البضع: الفصد. القبل، الواحدة قبلة. ويُتابع الشاعر حديثه عن أذاة ممدوحه، فقد أضرّ بطن يده المبضّع وجراءته وجماهير الوافدين الذين راحوا يُقبلون ظاهر يده ممَّا آلمه ذلك.

(٢) الفصاد: البضع. العذل: اللوم. يُعقب الشاعر أن الفصاد قد أثر في يده فآلمها، بينما لم يؤثر لوم اللائمين على جوده في يده فبقيت على عادتها تجود ولا تهتمّ لعذل أحد.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٩. خامر: داخل. الجزع: الخوف وقلة الصبر. الحذاقة: المهارة. عاد الشاعر إلى وصف ما حدث، لقد داخل الطبيب خوف أمام مشهد عظيم، إنه يفصد الأمير، وهذا حدث بحدّ ذاته، لذا أراد أن يُبرهن عن حذقه ومهارته، فاستعجل الأمر، وكان أن وقع في المحظور لشدّة انفعالاته.

(٤) جاز: تخطّى. الهبل: الثكل. يُتابع الشاعر حديثه معلّلاً أسباب خطأ الطبيب، لقد تخطّى حدّ الاجتهاد المطلوب، ممَّا أوقعه في الخطأ، فكان مقصّراً في عمله، لذا دعا عليه أن تفقده أمه وتبكي عليه.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٩. التعمق: بلوغ عمق الشيء. يورد الشاعر حكمة، مفادها أن النجاح مقرون بما يفعله المرء بما تقتضيه المصلحة، فيعمل على سجيّته، والتكلّف في بعض الأحيان والمغالاة في الأمور قد يُوقع في الأخطاء، وقد تكون قاتلة.

إِرْثِ لَهَا إِنَّهَا بِمَا مَلَكَتْ
وَبِالَّذِي قَدْ أَسَلْتَ تَنْهَمِلُ (١)
مِثْلُكَ يَا بَدْرُ لَا يَكُونُ وَلَا
تَصْلُحُ إِلَّا لِمِثْلِكَ الدُّوَلُ (٢)

ومن يك ذا فم مر مريض

يمدحه أيضاً:

[الوافر]

بَقَائِي شَاءَ لَيْسَ هُمُ ٱرْتِحَالَا
وَحُسْنَ الصَّبْرِ زَمُّوا لَا ٱلْجِمَالَا (٣)
تَوَلَّوْا بَغْتَةً فَكَأَنَّ بَيْناً
تَهَيَّبَنِي فَفَاجَأَنِي ٱغْتِيَالَا (٤)
فَكَانَ مَسِيرُ عِيسِهِمِ ذَمِيلاً
وَسَيْرُ الدَّمْعِ إِثْرَهُمُ ٱنْهِمَالَا (٥)

---

(١) ارث لها: رق. تنهمل: تنهمر. يُخاطب الشاعر الطبيب منبهاً، فعليه أن يتريث في عمله بيد ممدوحه، إنها يد معطاء تهب ما ملكته فالعناية بها واجب، لأنها منهل يسيل كرماً لمن هم بحاجة للعطاء وقت الشدائد.

(٢) يُخاطب الشاعر بدراً منوّهاً بقيمته العظيمة، إنه جدير بالملك، والدول لا تقوم إلّا على كتفيه، فهو كريم، وعطاؤه يشمل الناس جميعاً.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٦. زمّ: تقدّم في السير. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بالغزل. لم يعد الشاعر قادراً على البقاء في مكانه، فقد رحل القوم يحملون معهم حبيبته، لذا فما استطاع صبراً، وهاهو يهمّ بالرحيل؛ فصبره يستحثّه على الرحيل بدوره.

(٤) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ١٨٨. تولّوا: رحلوا، أدبروا. بغتة: فجأة. البين: الفراق. تهيبني: هابني. كان لرحيلهم المفاجئ أثره، ولم يكن يتوقّع حصوله بسرعة، فكأنه اغتاله فجأة وبدون سابق إنذار.

(٥) العيس: الكرام من الإبل. الذميل: السير الهين. الانهمال: الانسكاب. يروى «عيرهم» بدلاً من «عيسهم». يصف الشاعر انطلاق القوم؛ فالعير تسير الهوينى، ونظره يُلاحقهم ودموعه تُلاحقهم تنسكب على وجنتيه.

كَأَنَّ الْعِيسَ كَانَتْ فَوْقَ جَفْنِي
مُنَاخَاةٍ فَلَمَّا ثُرْنَ سَالَا[١]

وَحَجَّبَتِ النَّوَى الظَّبْيَاتِ عَنِّي
فَسَاعَدَتِ الْبَرَاقِعَ وَالْحِجَالَا[٢]

لَبِسْنَ الْوَشْيَ لَا مُتَجَمِّلَاتٍ
وَلٰكِنْ كَيْ يَصُنَّ بِهِ الْجَمَالَا[٣]

وَضَفَّرْنَ الْغَدَائِرَ لَا لِحُسْنٍ
وَلٰكِنْ خِفْنَ فِي الشَّعَرِ الضَّلَالَا[٤]

بِجِسْمِي مَنْ بَرَتْهُ فَلَوْ أَصَارَتْ
وِشَاحِي ثَقْبَ لُؤْلُؤَةٍ لَجَالَا[٥]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٩. أناخ البعير: حمله على البروك. ثرن: نهضن للمسير. يُتابع الشاعر وصف حاله ودموعه تنهمل على خدّيه، فثمّة علاقة بين العيس وجفني الشاعر، فطالما كانت تُلازم الأرض كان توقّع وانتظار، ولكن حالما بدأت بالإقلاع والنهوض والاستعداد للمسير، فإذا بدموعه تنهمر على خديه.

(٢) حجب: ستر وحال دون الرؤية. النوى: البعد. البراقع، الواحد برقع: غطاء الوجه به الحجال، الواحدة حجلة: الخدور. يصف الشاعر استمرار عدم رؤيته لنسوة كأنهن ظبيات حسان، يمتزن بالرّقة والجمال والأناقة واللطف؛ فقد حال البعد دون رؤيتهن وهنّ مرتحلات، وكنّ في ما مضى لا يبدين للشاعر لأنهن كنّ يعتصمن في خدورهن، وإذا خرجن من مخادعهن يخرجن متبرقعات فلا يُبدين زينتهن ووجوهن.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٠. الوشي من الثياب: المنقوش. يصنّ: يحفظن. يذكر الشاعر أن هؤلاء النسوة كنّ جميلات من أسر عريقات غنيات، فلباسهن الوشي المطرّز بالنقوش الجميلة، والغاية من ذلك صيانة جمالهن من أن تنتهبه العيون، إما من حسد أو عشق.

(٤) ضفرن: فتلن ذوائبهن. الغدائر، الواحدة غديرة: الخصل من الشعر. يصف الشاعر عناية هؤلاء النسوة بشعورهن، لقد جعلنها ذوائب مجدولات، فلو تركن شعورهن على سجيّتها لانسدلت وحجبت عنهن الرؤية لاستطالتها، رغم أنها تزيدهن جمالاً، وحتى في هذه الحالة، فضفائرهن تزيدهن جمالاً.

(٥) برته: أنحلته. الوشاح: شيء ينسج من أديم عريضاً يرصّع بالجواهر وتشدّه المرأة بين =

وَلَــوْلَا أَنّــنِــي فــي غَــيْــرِ نَــوْم
لَــكُــنْــتُ أَظُــنُّــنِــي مِــنِّــي خَــيَــالَا[١]

بَــدَتْ قَــمَــراً وَمَــالَــتْ خُــوطَ بَــانٍ
وَفَــاحَــتْ عَــنْــبَــراً وَرَنَــتْ غَــزَالَا[٢]

وَجَــارَتْ فِــي الْــحُــكُــومَــةِ ثُــمَّ أَبْــدَتْ
لَــنَــا مِــنْ حُــسْــنِ قَــامَــتِــهَــا ٱعْــتِــدَالَا[٣]

كَــأَنَّ الْــحُــزْنَ مَــشْــغُــوفٌ بِــقَــلْــبِــي
فَــسَــاعَــةَ هَــجْــرِهَــا يَــجِــدُ الْــوِصَــالَا[٤]

كَــذَا الــدُّنْــيَــا عَــلَــى مَــنْ كَــانَ قَــبْــلِــي
صُــرُوفٌ لَــمْ يُــدِمْــنَ عَــلَــيْــهِ حَــالَا[٥]

أَشَــدُّ الْــغَــمِّ عِــنْــدِي فِــي سُــرُورٍ
تَــيَــقَّــنَ عَــنْــهُ صَــاحِــبُــهُ ٱنْــتِــقَــالَا[٦]

= عاتقها وكشحها. يُعلن الشاعر أنه على استعداد ليفدي حبيبته بجسمه الذي أضناه حبّها، حتى في حال أنها جعلت من وشاحها ثقب لؤلؤة لجال جسمه فيه لشدّة نحوله.

(١) يُعلن الشاعر عن شكّه أنه خيال آدمي، وما يجعله يُفكر بذلك أنه يقظ ولم يكن يحلم في منامه أنه شبه خيال لما ألمّ به من هزال.

(٢) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٢٣٤، ٣٤٥، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٠. الخوط: الغصن الناعم. البان: ضرب من الشجر سبط القوام. رنت: نظرت. يصف الشاعر حبيبته؛ إنها قمر منير يُؤنس في وحشة الليل، رقيق حنون، وفي مشيتها تثنٍّ ورقّة فكأنها قضيب بانٍ استطال بتناغم وإبداع، ويتضوّع أريج عنبر ينتشر في الآفاق يُؤذن بطلعتها، وفي نظراتها رقة الغزال وجمال العينين ووداعتهما.

(٣) جار: مال. الجور: الظلم. يتحدّث الشاعر عن خلقها، إنها ظالمة لعاشقيها لا تهتمّ لما يُعانون، وفي نفس الوقت تمتشق طولاً سوياً لا جور فيه.

(٤) شغاف القلب: غلافه، يصف الشاعر معاناته، إنه دائم العشق لمحبوبته، فقلبه معلّق بها، فالحزن قد لامس شغاف قلبه، وفي حال هجرها يزداد تعلقاً بها ويُواصل معاناته.

(٥) و (٦) الصروف: تبدل الزمن وأحداثه. يُبدي الشاعر نظرة، فيها عتب على الدنيا، إنها =

أَلِفْتُ تَرَحُّلِي وَجَعَلْتُ أَرْضِي
قُتُودِي وَالْغُرَيْرِيَّ الْجُلَالَا[١]

فَمَا حَاوَلْتُ فِي أَرْضٍ مُقَاماً
وَلَا أَزْمَعْتُ عَنْ أَرْضٍ زَوَالَا[٢]

عَلَى قَلَقٍ كَأَنَّ الرِّيحَ تَحْتِي
أُوَجِّهُهَا جَنُوباً أَوْ شَمَالَا[٣]

إِلَى الْبَدْرِ بْنِ عَمَّارِ الَّذِي لَمْ
يَكُنْ فِي غُرَّةِ الشَّهْرِ ٱلْهِلَالَا[٤]

وَلَمْ يَعْظُمْ لِنَقْصٍ كَانَ فِيهِ
وَلَمْ يَزَلِ ٱلْأَمِيرَ وَلَنْ يَزَالَا[٥]

بِلَا مِثْلٍ وَإِنْ أَبْصَرْتَ فِيهِ
لِكُلِّ مُغَيَّبٍ حَسَنٍ مِثَالَا[٦]

= تُمارس لعبتها مع البشر منذ القديم لا تغيّر فنون الكيد للبشر، ولا تدوم على حال؛ فالسرور سرعان ما يتحوّل إلى حزن وألم، والمرء يعتبر أن التبدّل في تيار اللعبة التي لا تنتهي قد يحمل معه أسوأ ممّا جاءت به قبلاً.

(١) و (٢) ألف: اعتاد. القتود، الواحد قتد: خشب الرحل. الغريري من الجمال: ينسب إلى غرير، فحل مشهور في العهد الجاهلي تنسب إليه الجمال. الجلال: العظيم. يُمهّد الشاعر للانتقال من الغزل إلى المدح؛ إنه اعتاد على المغامرات والأخطار؛ فالارتحال الدائم ديدنه؛ فأرضه رحاله، يمتطي فحلاً غريرياً عظيماً، ولا يعرف للاستقرار طعماً، فلو حاول البقاء لحملته روحه إلى مكان آخر، لذا فسرعان ما يُغادر وتنبو به الأرض كأنها لا تُحبّ له راحة ودعة، أو كأنه يُفتش عمّن يجد في كنفه ما يبحث عنه.

(٣) و (٤) القلق: عدم الاستقرار. إنها حالة تشرّد دائم، فهو يركب الرياح تحطّ به حيثما تريد، فتارة تميل به إلى الجنوب ومرة تميل به إلى الشمال، وهو كأنه ريشة في مهبّ الريح، فرغم إرادته تلعب به الأقدار، ولكنه كان على موعد مع السعادة، فالأقدار ساقته إلى البدر، الذي يُنير الأفق فيمزّق ظلمة حياته، إنه ابن عمّار، سليل المجد والكرم، إنه هلال ولكنه لم يكن في مطلع الشهر القمري.

(٥) و (٦) إنه في الأصل عظيم، فلم يكن مستحدث العظمة، وإلّا لتكبّر وفجر، ولذا فإنه =

حُـــسَـــامٌ لأبْـــنِ رَائِـــقٍ الْـــمُـــرَجَّـــى
حُـــسَـــامِ الْـــمُـــتَّـــقِـــي أَيَّـــامَ صَـــالاَ[١]

سِـــنَـــانٌ فـــي قَـــنَـــاةِ بَـــنِـــي مَـــعَـــدٍّ
بَـــنِـــي أَسَـــدٍ إِذَا دَعَـــوُا الـــنِّـــزَالاَ[٢]

أعَـــزُّ مُـــغَـــالِـــبٍ كَـــفَّـــا وَسَـــيْـــفَـــاً
وَمَـــقْـــدِرَةً وَمَـــحْـــمِـــيَـــةً وَآلاَ[٣]

وَأشْـــرَفُ فَـــاخِـــرٍ نَـــفْـــسـاً وَقَـــوْمـاً
وَأكْـــرَمُ مُـــنْـــتَـــمٍ عَـــمَّـــا وَخَـــالاَ[٤]

يَـــكُـــونُ أخَـــفُّ إثْـــنَـــاءٍ عَـــلَـــيْـــهِ
عَـــلَـــى الـــدُّنْـــيَـــا وَأَهْـــلِـــيـــهَـــا مُـــحَـــالاَ[٥]

وَيَـــبْـــقَـــى ضِـــعْـــفُ مَـــا قَـــدْ قِـــيـــلَ فِـــيـــهِ
إِذَا لَـــمْ يَـــتَّـــرِكْ أَحَـــدٌ مَـــقَـــالاَ[٦]

= أمير وسيبقى كذلك، فلن يزال، وهو لا شبيه له، ولقد جمع اللّه عزّ وجلّ فيه كلّ صفات البشر الحسنة والمحبّبة؛ شجاعة وكرماً وأصالة نسب وسؤدداً ونباهة.

(١) الحسام: السيف القاطع. المتقي: من خلفاء بني العباس في بغداد. صال: جال. يصف الشاعر بدراً بأنه يد أبي بكر بن رائق الطويلة التي استعان بها على الإيقاع ببني البريدي فنكّل بهم، وابن رائق يد الخليفة المتقي العباس في نواحي بلاد الشام الذي كان يصول ويجول باسم خليفته في تلك النواحي.

(٢) و (٣) السنان: حربة الرمح. القناة: الرمح. النزال: القتال. العزّ: الغلبة. الآل: الأهل، يعزو الشاعر بدراً إلى بني قومه، مادحاً لهم، إنه مفخرة عزّهم به تُحارب بنو أسد من معدّ، فهو بطلهم وقائدهم في معاركهم ضدّ أعدائهم، إنه مؤيّد بالنصر والغلبة، وهو سيفهم به يُحاربون، ومقدرتهم في حروبهم تتمركز في وجوده، ومن مزاياه حماية الجار والأهل في منعة تحت لوائه ورئاسته.

(٤) منتم: منتسب. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه شريف وقد حاز شرف النسب من أعمامه وأخواله، فالكلّ ماجد، نفسه أبية، كريم، فلا عجب أن يرث من جانبيه مزاياهم وفضائلهم، في الشرف والكرم والشجاعة والنبل والجود والحزم و. . .

(٥) و (٦) الإثناء: المدح. يحصر الشاعر الثناء ببدر دون سواه من البشر، وإن وُجدت =

فَيَا ٱبْنَ الطَّاعِنِينَ بِكُلِّ لَدْنٍ
مَوَاضِعَ يَشْتَكِي الْبَطَلُ السُّعَالاَ[(١)]

وَيَا ٱبْنَ الضَّارِبِينَ بِكُلِّ عَضْبٍ
مِنَ الْعَرَبِ ٱلأَسَافِلَ وَالْقِلاَلاَ[(٢)]

أَرَى الْمُتَشَاعِرِينَ غَرُوا بِذَمِّي
وَمَنْ ذَا يَحْمَدُ الدَّاءَ الْعُضَالاَ[(٣)]

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ
يَجِدْ مُرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلاَلاَ[(٤)]

= صفة حميدة واحدة في إنسان ما فلا بدّ أن تكون فيه أكثر ضياءً وإشراقاً، فهو يستحقّ المدح فقط دون غيره؛ فمحال أن تجتمع كلّ الفضائل في سواه فلا شبيه به، ولذا فقد يُقصّر المادحون بمدحه ولا يُعطونه حقّه، فمهما بالغوا في وصفه، فلن يصلوا إلى نصف ما لديه من صفات، فقد يخفى عليهم الكثير منها.

(١) و (٢) اللدن من الرماح: الليّن. المواضع، يقصد بها صدور الأعداء. العضب: السيف البتّار. القلال، الواحدة قلّة: أعلى كلّ شيء ويقصد بذلك الأشراف. يُخاطب الشاعر ممدوحه ناسباً إياه إلى آباء عظام أقوياء في الحروب، فهم مهرة أقوياء يطعنون صدور أعدائهم برماحهم اللدنة الليّنة في صدورهم حيث يتألّمون وتخرج أرواحهم مع سعالهم، وهم يستعملون سيوفهم التي تقطع الأعمار، وهم في قتالهم لا يُفرّقون بين اللئام والأشراف، فالكلّ طعم لسيوفهم العربية.

(٣) المتشاعرون: الذين يدعون أنهم شعراء وليسوا كذلك. غروا: أولعوا. الداء العضال: المرض لا شفاء منه. لطالما تألم المتنبي من حاسديه وخصومه، معظمهم يدّعي أنه شاعر ولا يستطيع اللحاق به، هم أقرب إلى المتشاعرين منهم إلى الشعراء. لذا راح هؤلاء يُشنّعون عليه، فالحسد مرض يبدأ بصاحبه فيقتله، ولا يُمكنهم أن يحمدوه لأنه بزّهم وحرمهم من أرزاقهم فكان قِبلة الممدوحين يتهافتون عليه وأصحّ ما في ديوانه تتعدّد الأسماء والأماكن.

(٤) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ١٣٤. الماء الزلال: العذب النمير الصافي. يُردف الشاعر ناعياً على حاسديه من المتشاعرين قصورهم وجهلهم بجمال الشعر وروعته، بأنهم مرضى حسداً وأفقاً، وقد اعتادوا على التشنيع فأفواههم مرضى لوّثتها مرارة الجهل، لذا فإنهم لا يُحسنون تذوّق الشعر الصافي تماماً كمن أراد أن يشرب ماءً عذباً، فإذا به يُحسّ فيه مرارة تأخذ بحلقه حتى ليكاد يختنق.

وَقَـالُـوا هَـلْ يُـبَـلِّـغُـكَ الـثُّـرَيَّـا
فَـقُـلْـتُ نَـعَـمْ إذَا شِـئْـتُ ٱسْـتِـفَـالَا[١]

هُـوَ الْـمُـفْـنِـي الْـمَـذَاكِـي وَٱلْأَعَـادِي
وَبِـيـضَ ٱلْـهِـنْـدِ وَالـسُّـمْـرَ الـطِّـوَالَا[٢]

وَقَـائِـدُهَـا مُـسَـوَّمَـةً خِـفَـافـاً
عَـلَـى حَـيٍّ تُـصَـبِّـحُـهُ ثِـقَـالَا[٣]

جَـوَائِـلَ بِـٱلْـقُـنِـيِّ مُـثَـقَّـفَـاتٍ
كَـأَنَّ عَـلَـى عَـوَامِـلِـهَـا الـذُّبَـالَا[٤]

إذَا وَطِـئَـتْ بِـأَيْـدِيـهـا صُـخُـوراً
يَـفِـئْـنَ لِـوَطْءِ أَرْجُـلِـهَـا رِمَـالَا[٥]

---

(١) ينقل الشاعر حواره مع أمثال هؤلاء، وبسخرية مبطّنة بالحسد يسأل هؤلاء إذا كان الممدوح يرفع من شأن المتنبي حتى يجعله فوق تلك المجموعة من النجوم البعيدة التي تُنير السماء، فأجاب بنعم، ولو أراد الشاعر أن يرفعه ممدوحه إلى ما فوق ذلك لفعل بتقريبه وتفضيله عمّن سواه.

(٢) و (٣) المذاكي: الخيل المسنّة. بيض الهند: السيوف المصنوعة في الهند. السمر: الرماح. المسومة: المعلّمة، عاد الشاعر إلى ممدوحه رادًّا على المتشاعرين؛ إنه ممدوحه يُضني خيوله في الحروب التي لا تتوقف فهو دائم الغارات على أعدائه يقتل فيهم واضعاً سيوفه في رقابهم ورماحه في صدورهم، وهو يقود العسكر الجرار، ولشجاعته يستعمل علامة تميّزه عن سائر عسكره حتى يقصده الأبطال طامعين في النيل منه؛ إنه قائد يمتطي فرساً سريعة رشيقة الحركة في صولته على أحياء الأعداء يُصبحهم بغارة نتيجتها قاسية عليهم، فيمعن فيهم تقتيلاً وسبياً.

(٤) و (٥) الجوائل، الواحدة جائلة، المترددات. القنيّ: الرماح. مثقّفات: مقومات بالثقاف. العوامل: ما يلي الأسنة من الرماح. الذبال، الواحدة ذبالة: الفتيلة في السراج. يفئن: يرجعن، يعدن. يُتابع الشاعر وصف الخيول التي يتقدّمها الممدوح، إنها تجول في أرجاء المكان تتّجه إلى حيث يُريد فرسانها، وهم يُشرعون رماحهم وقد ثقفت لتكون أكثر فاعلية في صدور ضحاياها، وهي تبدو مشعّة في حلكة الليل كمصباح ذبالته تشتعل فتضيء المكان، ولشدّة حركة تلك الخيول فإذا داست صخوراً حوّلتها إلى رمالٍ ناعمة لقوّتها وسرعة حركتها.

جَــوَابُ مُـسَــائِـلِــي أَلَــهُ نَـظِـيـرٌ
وَلا لَـــكَ فـــي سُــؤَالِـــكَ لَا أَلَا لَا[١]
لَــقَــدْ أَمِــنَــتْ بِــكَ ٱلْإِعْــدَامَ نَــفْــسٌ
تَــعُـــدُّ رَجَـــاءَهَـــا إِيَّـــاكَ مَـــالَا[٢]
وَقَـدْ وَجِـلَـتْ قُـلُـوبٌ مِـنْـكَ حَتَّـى
غَـدَتْ أَوْجَـالُـهَـا فِـيـهَـا وِجَـالَا[٣]
سُــرُورُكَ أَنْ تَــسُــرَّ الــنَّــاسَ طُــرًّا
تُـعَـلِّـمُـهُـمْ عَـلَـيْـكَ بِـهِ الـدَّلَالَا[٤]
إِذَا سَــأَلُــوا شَــكَــرْتَــهُــمُ عَــلَــيْــهِ
وَإِنْ سَـكَـتُـوا سَـأَلْـتَـهُـمُ الـسُّـؤَالا[٥]
وَأَسْــعَــدُ مَــنْ رَأَيْــنَــا مُـسْـتَـمِـيـحٌ
يُـنِـيـلُ الْـمُـسْـتَـمَـاحَ بِـأَنْ يَـنَـالَا[٦]

---

(١) وما يدلّ على عظم مكانة ممدوحه، أنه سأله هل لهذا الممدوح شبيه، فكان جواب الشاعر، لا ليس له نظير، فالممدوح معروف تناقلت الألسن الأحاديث عن فضائله وتسامع بها الكثيرون، ثم أردف الشاعر ناعياً على السائل جهله لعدم معرفته بممدوحه بأنه أيضاً لا مثيل له لجهله وغبائه.

(٢) الإعدام: الحاجة والفقر. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه محطّ آمال كلّ محتاج يُعاني من الفقر وسوء الحال؛ فإذا أمل منه خيراً ملأه الأمل بأنه سيرفده الممدوح ما أمل به.

(٣) وجلت: خافت. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه مثار خوف أعدائه. فإذا بالرعب يغزو قلوبهم وعقولهم، فيتضاعف الخوف ويتكاثر كأنه مرض معدٍ ينتشر انتشار الهشيم.

(٤) و (٥) فلسفة العداء تولّد شعوراً لدى الكرماء فيفرحون لأنهم أسعدوا قلوباً ملأها الحزن ومزّق فرحها الفقر، وهذا ما يجعل الطامعين يدلّون على أمثال هؤلاء فيُسمعونهم عتبهم ويغمزون من قناة تقصيرهم، فهمّ ألّا يبقى محتاج في إمارته، وإلّا فالحزن أرّق منامه. ومن طبع الممدوح أنه يُبادر إلى شكر السائلين لأنهم لفتوا انتباهه إلى ما هم فيه من ضيق فيُسارع إلى إسعافهم ويشكر لهم سؤالهم، وفي حال سكت أمثال هؤلاء سارع الممدوح إلى سؤالهم ليسألوه ما هم بحاجة إليه فيعود له فرح العطاء من جديد.

(٦) المستميح: طالب العطاء، يُنيل: يُعطي. إنه جميل أن يشعر المرء بلذّة العطاء، لأن =

يُـفَـارِقُ سَـهْـمُـكَ الـرَّجُـلَ الْـمُـلاَقَـى
فِـرَاقَ الْـقَـوْسِ مَـا لاَقَـى الـرِّجَـالاَ[(١)]

فَـمَـا تَـقِـفُ الـسِّـهَـامُ عَـلَـى قَـرَارٍ
كَـأَنَّ الـرِّيـشَ يَـطَّـلِـبُ الـنِّـصَـالاَ[(٢)]

سَـبَـقْـتَ الـسَّـابِـقِـيـنَ فَـمَـا تُـجَـارَى
وَجَـاوَزْتَ الْـعُـلُـوَّ فَـمَـا تُـعَـالَـى[(٣)]

وَأُقْـسِـمُ لَـوْ صَـلَـحْـتَ يَـمِـيـنَ شَـيْءٍ
لَـمَـا صَـلَـحَ الْـعِـبَـادُ لَـهُ شِـمَـالاَ[(٤)]

أُقَـلِّـبُ مِـنْـكَ طَـرْفِـي فِـي سَـمَـاءٍ
وَإِنْ طَـلَـعَـتْ كَـوَاكِـبُـهَـا خِـصَـالاَ[(٥)]

وَأَعْـجَـبُ مِـنْـكَ كَـيْـفَ قَـدَرْتَ تَـنْـشَـا
وَقَـدْ أُعْـطِـيـتَ فِـي الـمَـهْـدِ الْـكَـمَـالاَ[(٦)]

= في ذلك طاعةً للّه تعالى، وشكراً على ما رزق من لدنه فجعل الأغنياء كنز الفقراء، ولقاء ذلك ينال الغني تقرّباً من خالقه سبحانه وتعالى.

(١) و (٢) رجع الشاعر إلى الحديث عن قوّة ممدوحه. فإذا رمى بقوسه رجلاً دخلت النبلة من جانب وخرجت من جانب آخر لقوّة زند مطلق النبلة، وهذا شأنه مع سائر الرجال في حال استعماله قوسه. والسهام التي يُطلقها تمرّ مرّ السحاب بسرعة البرق، فلا تقف متخلّفة عن مسيرها، بل إنها في مباراة بين ريشها الذي يُحاول أن يُدركها بل يحاول أن يسبق نصلها. وذلك من مغالاة الشاعر.

(٣) وردت الأبيات الثلاثة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٩ـ ١٣٠. تجارى: تسابق. جاوزت: تخطّيت. يُخاطب الشاعر ممدوحه منوّهاً بتفوّقه على من سبقه زمانياً، فما حقّقه في كلّ الميادين لم يستطع هؤلاء اللحاق به، ولقد بلغ الممدوح عنان السماء فبلغ أمجاداً لا يستطيع أحد أن يُمسك بعنان السماء كما فعل الممدوح.

(٤) يُقسم الشاعر مفضلاً ممدوحه أنه لو كان يمين شيء وحيداً دون سواه ما أفلح الناس جميعاً ليكونوا شمال ذلك الشيء.

(٥) و (٦) الطرْف، بسكون الراء: النظر. يُعبّر الشاعر عن دهشته، فهو يُقلّب نظره في كلّ =

ورد إذا ورد البحيرة شارباً

خرج بدر بن عمار إلى أسد فهرب الأسد منه، وكان قد خرج قبله إلى أسد آخر فهاجه عن بقرة افترسها بعد أن شبع وثقل فوثب إلى كفل فرسه فأعجله عن استلال سيفه فضربه بالسوط ودار به الجيش، فقال أبو الطيب:

[الكامل]

فِـي الْـخَـدِّ أَنْ عَـزَمَ الْـخَـلِـيـطُ رَحِـيـلاَ
مَـطَـرٌ تَـزِيـدُ بِـهِ الْـخُـدُودُ مُـحُـولاَ(١)

يَـا نَـظْـرَةً نَـفَـتِ الـرُّقَـادَ وَغَـادَرَتْ
فِـي حَـدِّ قَـلْـبِـي مَـا حَـيِـيتُ فُـلُـولاَ(٢)

كَـانَـتْ مِـنَ الْـكَـحْـلاَءِ سُـؤْلِـي إِنَّـمَـا
أَجَـلِـي تَـمَـثَّـلَ فِـي فُـؤَادِي سُـولاَ(٣)

= مكان، فإذا بممدوحه يمتطي السماء ومن حوله نجومها تستمدّ نورها من خصاله، كرماً، شجاعة، نبلاً، نسباً رفيعاً، خلقاً... وهذا ما جعل الشاعر يستغرب كيف أن الممدوح وقد ولد خالياً من كلّ عيب، كامل الأوصاف، ومع ذلك فقد ازداد كمالاً مع مرور الأيام وتجربة أنضجته.

(١) يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي. الخليط: الجماعة المخالطون، ويقصد بذلك حبيبته. محولاً: جدباً. يُعبّر الشاعر عن حزنه لرحيل أحبّته ومعهم واحدة جعلته يبكي، فإذا بدموعه تُحيل خدّيه صحراء غزتهما التجاعيد وتصلبتا فبدتا كأنهما أرض بور محلت، فليس فيهما رواء ونضرة.

(٢) الرقاد: النوم. الفلول: الأثلام. إنها نظرة فعلت الأفاعيل في الشاعر، فقد أعدمته هناءة النوم، فإذا بالسهر والأرق ينوبان عن الرقاد، وإذا بقلبه وقد بدت فيه جراحات لا تندمل طوال عمره.

(٣) وردت الأبيات الثلاثة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٠. الكحلاء: السوداء الجفنين. السؤل: ما يتمنّاه المرء. الأجل: الحين. الفؤاد: القلب. لقد كان الشاعر يتمنّى لو أن ذات العينين الكسلتين الجميلتين رمت بنظرة وداع، وهذا ما كان يتمنّاه ويسعى ليراه، ولو فعلت لغزا قلبه فرح وملأه بنفحة أمل، ولكن للأسف، فقد رحلت دون التفاتة وكلمة وداع.

أَجِــدُ الْــجَــفَــاءَ عَــلَــى سِــوَاكِ مُــرُوءَةً
وَالــصَّــبْــرَ إِلَّا فِــي نَــوَاكِ جَــمِــيــلَا[١]

وَأَرَى تَــدَلُّــلَــكِ الْــكَــثِــيــرَ مُــحَــبَّــبــاً
وَأَرَى قَــلِــيــلَ تَــدَلُّــلٍ مَــمْــلُــولَا[٢]

حَــدَقُ الْــحِــسَــانِ مِــنَ الْــغَــوَانِــي هِــجْــنَ لِــي
يَــوْمَ الْــفِــرَاقِ صَــبَــابَــةً وَغَــلِــيــلَا[٣]

حَــدَقٌ يُــذِمُّ مِــنَ الْــقَــوَاتِــلِ غَــيْــرَهَــا
بَــدْرُ بْــنُ عَــمَّــارِ بْــنِ إِسْــمَــاعِــيــلَا[٤]

---

(١) الجفاء: البعد والإعراض. النوى: البعد، يخاطب الشاعر حبيبته أنه لن يرقّ قلبه لسواها، لذا فمن المروءة أن يُعرض عن النسوة إلّا حبيبته التي تركته ولم تهتمّ لما يُعاني من الهجر، وهو يصبر على كلّ شيء سوى البعد عنها، لأنها استحوذت على قلبه معها، فتركته بلا قلب.

(٢) التدلّل: إظهار السكينة والوقار. يجد الشاعر لذّة في تدلّل محبوبته، فهي تبدي وقاراً وسكينة، ممّا يجعله يتمسّك بها أكثر ويتمادى بحبه لها، وقد يرى محاولة بسيطة من غيرها، فلا يجد فيها إلّا فظاظة وشناعة مملولة.
ـأورد صاحب الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٠ بيتاً لم يرد في الديوان، وهو التالي:
تَشْكُو رَوَادِفَكِ الْمَطِيَّةُ فَوقَهَا ... شَكْوَى الَّتِي وَجَدَتْ هَوَاكِ دَخِيلَا
وورد بيت آخر وراء البيت السابق لم يرد في الديوان، وهو التالي:
وَيُعِيرُنِي جَذْبُ الزِّمَامِ لِقَلْبِهَا ... فَمَهَا إِلَيْكِ كَطَالِبٍ تَقْبِيلَا

(٣) الحدق، الواحدة حدقة: سائر سواد العين. الحسان، الواحدة حسناء: الجميلة. الغواني، الواحدة غانية، التي اغتنت بجمالها عن التزيّن أو التي اغتنت بزوجها. الصبابة: شدّة العشق. الغليل: حرارة العطش. يتحدّث الشاعر عن أثر لحظة الفراق، فقد أثارت عيون الجميلات الحسناوات الغواني في قلبه لاعج الحبّ وضرام الشوق؛ وهذا ما آلمه وزاد حزنه.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٢. يُذِمّ: يُجير ويعطي الذمام. يتخلّص الشاعر من الغزل إلى المدح، فيُتابع حديثه عن تلك الأحداق القاتلة التي تفتك بعشّاقها دون رحمة، والشاعر بحاجة إلى من يدخل في ذمّته فيحول دون قتل ذوات الأحداق الجميلة القاتلة، إنه بدر بن عمّار بن إسماعيل، ومع ذلك فإنه قد لا يوفّق في مسعاه.

الْـفَـارِجُ الْـكُـرَبَ الْـعِـظَـامَ بِـمِـثْـلِـهَـا
وَالـتَّـارِكُ الـمَـلِـكَ الْـعَـزِيـزَ ذَلِـيـلَا(١)

مَـحِـكٌ إِذَا مَـطَـلَ الْـغَـرِيـمُ بِـدَيْـنِـهِ
جَـعَـلَ الْـحُـسَـامَ بِـمَـا أَرَادَ كَـفِـيـلَا(٢)

نَـطِـقٌ إِذَا حَـطَّ الْـكَـلَامُ لِـثَـامَـهُ
أَعْـطَـى بِـمَـنْـطِـقِـهِ الْـقُـلُـوبَ عُـقُـولَا(٣)

أَعْـدَى الـزَّمَـانَ سَـخَـاؤُهُ فَـسَـخَـا بِـهِ
وَلَـقَـدْ يَـكُـونُ بِـهِ الـزَّمَـانُ بَـخِـيـلَا(٤)

وَكَـأَنَّ بَـرْقـاً فِـي مُـتُـونِ غَـمَـامَـةٍ
هِـنْـدِيُّـهُ فِـي كَـفِّـهِ مَـسْـلُـولَا(٥)

وَمَـحَـلُّ قَـائِـمِـهِ يَـسِـيـلُ مَـوَاهِـبـاً
لَـوْ كُـنَّ سَـيْـلاً مَـا وَجَـدْنَ مَـسِـيـلَا(٦)

---

(١) يمدح الشاعر بدراً بأنه يكشف غموم أصحابه وأحبائه، فيزيل عنهم بؤسهم وفقرهم بما لديه من أموال، وهو يتصدّى للملوك الأقوياء فيذلّهم ويستخلص أموالهم ليردّها على أصحابه ومواليه فيعتزّون به وبها فتنساح عنهم الكرب العظام.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٠. المحك: اللجوج. المطل: التسويف بإعادة إلى صاحبه. يصف الشاعر ممدوحه بأنه لا يتوانى عن استعمال سيفه إذا لم يسترجع دينه من غريمه الذي لجأ إلى التسويف والمماطلة؛ وهنا تبدو طبيعة بدر على حقيقتها، إنه لا يتنازل عن حقّه بل يطالب به بإلحاح وبكلّ الوسائل.

(٣) النطق: المفوّه البليغ. يمدح الشاعر ممدوحه بحسن المنطق وإجادة القول فيُثير العقول والقلوب لما يُعطي من الحكم البليغة والآراء الصائبة عندما يكشف اللثام عن فمه، فيمتلك قلوب السامعين وعقولهم فيأخذون بآرائه الحكيمة.

(٤) ورد البيت في: معاهد التنصيص، للعباسي ٢: ١٢٧، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٠. السخاء: الجود والكرم. ومن مغالاة الشاعر أن الزمان انتقلت إليه العدوى التي اشتهر بها الممدوح، وهي الكرم والجود، فكان أن جاد بالممدوح ولو لم يفعل لكان بخيلاً جداً، ولما كان جود في الكون أصلاً.

(٥) و (٦) المتون، الواحد متن: الظهر. الغمامة: السحابة. الهندي: السيف المصنوع في =

رَقَّتْ مَضَارِبُهُ فَهُنَّ كَأَنَّمَا
يُبْدِينَ مِنْ عِشْقِ الرِّقَابِ نُحولا(١)
أَمُعَفِّرَ اللَّيْثِ الْهِزَبْرِ بِسَوْطِهِ
لِمَنِ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ المَصْقُولا(٢)
وَقَعَتْ عَلَى الْأُرْدُنِّ مِنْهُ بَلِيَّةٌ
نُضِدَتْ بِهَا هَامُ الرِّفَاقِ تُلولا(٣)
وَرْدٌ إذَا وَرَدَ الْبُحَيْرَةَ شَارِباً
وَرَدَ الْفُرَاتَ زَئِيرُهُ وَالنِّيلا(٤)

= الهند. يصف الشاعر استعمال ممدوحه للسيف وقد جرّده من غمده، فإذا بالبرق يلوح منه وضاءً لامعاً كأنه يُمزّق غمامة فيُنير الكون بإشعاعه، فتسيل منه المواهب بغزارة على كثرتها، ولو كانت ماءً لما وجدت فسحة في الأرض تنسكب فيها لكثرتها.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٦. المضارب، الواحد مضرب: حدّ السيف. يبدين: يظهرن. يُتابع الشاعر وصف سيف ممدوحه، فحدّه رقيق ناحل، إنه عاشق يعشق الرقاب فيقطعها بلا هوادة، ولدوام عشرته لها دبّ فيه النحول، فعشقه لها لا يُقاوم.

(٢) عفّره: مرّغه في التراب. الهزبر: من أسماء الأسد، وهو القويّ الضخم. ادّخر: خبّأ واختزن. يُخاطب الشاعر ممدوحه، وقد شهد الحدث الذي ينمّ عن شجاعته وقوّته. هاهو الأسد طريح الأرض وقد تمرّغ في التراب لا حول له ولا قوَّة، وما سلاح الممدوح في تلك المعركة الضارية؟ إنه مجرّد سوط يُدرب به الحيوان عادة، فإذا به سلاح قاتل، ولكن أين الصارم البتّار، ولمن اختزنه الممدوح؟ لا شكّ أنه اختزنه لأمر جلل.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٠. نضدت: ركمت بعضها فوق بعض. البلية: الكارثة، المصيبة. الهام، الواحدة هامة: الرؤوس. ما الذي استوجب قتل ذلك الأسد؟ إنه قاتل فقد قطع الطريق على أهل الأردن، وتهاوت ضحاياه حتى جعل من رؤوسهم تلالاً، فاستوجب الانتقام منه لأفاعيله الشنيعة.

(٤) الورد: الأسد الأحمر. البحيرة: بحيرة طبرية. يصف الشاعر عوامل الرعب التي تتمثل في ذلك الأسد، منها زئيره الذي يتردد صداه، فيبدأ من بحيرة طبريا ويمتد صداه عبر الهواء إلى بلاد العراق ومصر.

مُـتَـخَـضِّـبٌ بِـدَمِ الْـفَـوارِسِ لَابِـسٌ
فِـي غِـيـلِـهِ مِـنْ لِـبْـدَتَـيْـهِ غِـيـلَا(١)

مَـا قُـوبِـلَـتْ عَـيْـنَـاهُ إلَّا ظُـنَّـتَـا
تَـحْـتَ الـدُّجَـى نَـارَ الْـفَـرِيـقِ حُـلـولَا(٢)

فِـي وَحْـدَةِ الـرُّهْـبَـانِ إلَّا أَنَّـهُ
لَا يَـعْـرِفُ الـتَّـحْـرِيـمَ وَالـتَّـحْـلِـيـلَا(٣)

يَـطَـأُ الـثَّـرَى مُـتَـرَفِّـقـاً مِـنْ تِـيـهِـهِ؛
فَـكَـأَنَّـهُ آسٍ يَـجُـسُّ عَـلِـيـلَا(٤)

وَيَـرُدُّ عُـفْـرَتَـهُ إلَـى يَـافُـوخِـهِ
حَـتَّـى تَـصِـيـرَ لِـرَأْسِـهِ إكْـلِـيـلَا(٥)

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٠. متخضّب: ملوّث. الغيل: الأجمة الكثيفة الأشجار. لبدة الأسد: شعره المجتمع على كتفه. ليس هذا الأسد كسائر الأسود، فقد واجه فرساناً كثيرين فكانوا من ضحاياه، وقد صبغته دماؤهم، فإذا مشى بدا رأسه كبيراً تزيّنه لبدة عظيمة، فضلاً عمّا تُثيره من المهابة والجزع لدى رؤيته.

(٢) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢: ٣٢٧، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٠. الفريق: الجماعة. الدجى: ظلمة الليل. حلولاً: نازلين. يُتابع الشاعر وصف الأسد، فعيناه تثيران رعباً في النفوس، وهما في الليل بمثابة نار تستعرّ، وقد تخدعان الجماعة منها السارين فيتهافتون إلى حيث الشهب يتصاعد وتكون هلكتهم.

(٣) يتابع الشاعر واصفاً سلوك الأسد؛ إنه منعزل في غيله لا يُشاركه أسد آخر، ورغم وحدته شأن الرهبان المتعبّدين فإنه لا يعرف لا حلالاً ولا حراماً.

(٤) وردت الأبيات الاثنا عشر المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٠ـ ١٣١. الثرى: التراب. التيه: الزهو والاعتزاز بالنفس. الآسي: الطبيب. يروى «البرى» بدلاً من «الثرى». وهما بمعنى واحد، يصف الشاعر مشية الأسد، فوطؤه الأرض بلطف، لأنه لا يخاف شيئاً، واثق من شجاعته وجبروته، وهو في هذه الحالة كأنه طبيب يجسّ رأس مريضه برقّة كي لا يُزعجه.

(٥) العفرة: الشعر المجتمع في قفاه. اليافوخ: ملتقى عظم مقدم الرأس. الإكليل: التاج. يُتابع الشاعر وصف الأسد، إنه يردّ عفرته إلى هامته، فإذا بها تتحوّل إكليلاً، كأنه ملك، وذلك في حال غضبه واستعداده للمجابهة.

وَتَـظُـنُّـهُ مِـمَّـا يُـزَمْـجِـرُ نَـفْـسُـهُ
عَـنْـهَـا لِـشِـدَّةِ غَـيْـظِـهِ مَـشْـغُـولَا[١]
قَـصَـرَتْ مَـخَـافَـتُـهُ ٱلْـخُـطَـى فَـكَـأَنَّـمَـا
رَكِـبَ الْـكَـمِـيُّ جَـوَادَهُ مَـشْـكُـولَا[٢]
أَلْـقَـى فَـرِيـسَـتَـهُ وَبَـرْبَـرَ دُونَـهَـا،
وَقَـرُبْـتَ قُـرْبـاً خَـالَـهُ تَـطْـفِـيـلَا[٣]
فَـتَـشَـابَـهُ الْـخُـلُـقَـانِ فـي إِقْـدَامِـهِ،
وَتَـخَـالَـفَـا فـي بَـذْلِـكَ الـمَـأْكُـولَا[٤]
أَسَـدٌ يَـرَى عُـضْـوَيْـهِ فِـيـكَ كِـلَـيْـهِـمَـا
مَـتْـنـاً أَزَلَّ وَسَـاعِـداً مَـفْـتُـولَا[٥]

---

(١) زمجر: ردد زئيره. يُتابع الشاعر وصف حالة الأسد في حال غضبه، إنه يردّد زئيره، فإذا ما سمع صوته ازداد زئيراً معبّراً عن غضبه وحنقه، وهو لا يلهيه سوى التعبير عن شدّة غيظه لإثارة الرعب في النفوس.

(٢) الخطى، الواحدة خطوة: المسافة بين القدمين. الكمي: البطل المدجج بالسلاح. المشكول: المقيد بالشكال. يصف الشاعر الأثر النفسي لكلّ من يتصدّى للأسد في حال المواجهة بينهما، فالبطل المدجج بالسلاح يمتطي جواداً، فإذا ما وقعت العيون على العيون تجمّدت حركة الفرس فلا يتقدّم ولا يتحرّك فكان كمن ربط بالأرض لشدّة خوفه، وهذا بلا ريب ينعكس على الفارس تشلّ حركته ويُصاب بالهلع، فيقع ضحية جرأته.

(٣) و (٤) الفريسة: الطريدة. البربرة: الزمجرة. خال: ظنّ. التطفيل: المشارك في الطعام دون دعوة. وصف الشاعر الطريقة التي تم الإيقاع بالأسد بواسطتها، فقد دفع الممدوح ببقرة ليهيج بها الأسد، الذي افترس فريسته، وفجأة رأى أمامه عملاقاً يتحدّاه، فإذا به يزمجر علّه يُخيف المتطفل ويبعده عن وليمته. إن هذا الموقف ينم عن طبيعتين متضادتين، فالحيوان تتمثل فيه طبيعة الشره والبخل، والممدوح تتمثل فيه طبيعة الكرم والجود، فضلاً عن أنهما تتمثل فيهما الشجاعة والقوّة.

(٥) المتن: الصلب والظهر. الساعد: العضد. الأزل: الأرسح. يُخاطب الشاعر ممدوحه أن الأسد يرى مشاركة ومشابهة معه؛ في القوّة والشجاعة، ذلك أنّ صلبه متين ممسوح، وعضده مفتول تماماً كالممدوح سواء بسواء.

فِـي سَـرْجِ ظَـامِـئَـةِ الْـفُـصُـوصِ طِـمِـرَّةٍ
يَـأْبَـى تَـفَـرُّدُهَـا لَـهَـا الـتَّـمْـثِـيـلَا(١)

نَـيَّـالَـةِ الـطَّـلِـبَـاتِ لَـوْلَا أَنَّـهَـا
تُـعْـطِـي مَـكَـانَ لِـجَـامِـهَـا مَـا نِـيـلَا(٢)

تَـنْـدَى سَـوَالِـفُـهَـا إِذَا ٱسْـتَـحْـضَـرْتَـهَـا
وَيُـظَـنُّ عَـقْـدُ عِـنَـانِـهَـا مَـحْـلُـولَا(٣)

مَـا زَالَ يَـجْـمَـعُ نَـفْـسَـهُ فِـي زَوْرِهِ
حَـتَّـى حَـسِـبْـتَ الْـعَـرْضَ مِـنْـهُ الـطُّـولَا(٤)

وَيَـدُقُّ بِـالـصَّـدْرِ ٱلْـحِـجَـارَ كَـأَنَّـهُ
يَـبْـغِـي إِلَـى مَـا فِـي الْـحَـضِـيـضِ سَـبِـيـلَا(٥)

وَكَـأَنَّـهُ غَـرَّتْـهُ عَـيْـنٌ فَـادَّنَـى
لَا يُـبْـصِـرُ ٱلْـخَـطْـبَ ٱلْـجَـلِـيـلَ جَـلِـيـلَا(٦)

---

(١) ظامئة الفصوص: دقيقة المفاصل. الطمرة: الوثابة. يصف الشاعر فرس ممدوحه، لقد دنا الممدوح من الأسد وهو يمتطي فرساً متخذاً سرجها مقعداً مريحاً له، لا يشبهها من بني جنسها أحد، إنها دقيقة المفاصل، مشدودة الأعضاء، ثابتة الخطى لا يعرف الخوف سبيلاً إلى قلبها.

(٢) نيّالة: تصيب المطلوب. الطلبات، الواحدة طلبة: الحاجة. يصف الشاعر تلك الفرس، من صفاتها السرعة الفائقة بحيث تدرك ما تلحقه وتسبقه، إنها طويلة العنق، مشرفة الرأس، وما يسهّل الإمساك بها لجام قوي، ولو لا ذلك لما استطاع فارسها السيطرة عليها.

(٣) السوالف، الواحد سالف: صفحة العنق. استحضر: حمل على الركض. العنان: سير اللجام. يُتابع الشاعر وصف تلك الفرس؛ إنها تعدو مسرعة حتى يعرق عنقها وما حوله، وهي مطواع لفارسها لا تجاذبه، وإذا رفعت رأسها بالعنان استرخى وطال، إنه طويل على طول عنقها، فيبدو كأنه مفكوك.

(٤) و (٥) الزور: وسط الصدر. يدق: يكسر. الحضيض: أسفل الأرض. رجع الشاعر إلى وصف الأسد، إنه يتهيأ للوثوب، فإذا به ينكمش على نفسه جامعاً قواه في صدره حتى أصبح عَرضه على قدر طوله، وهو لا يني يضرب بصدره الأرض فيحطّم الأحجار لعظم غيظه وكأنه يبغي الولوج إلى أعماقها.

(٦) ادّنى: اقترب. الخطب: الحدث العظيم. إنها مواجهة حقيقية، كلّ من الخصمين =

أَنَــفُ الْــكَــرِيــمِ مِــنَ ٱلــدَّنِــيَّــةِ تَــارِكٌ
فــي عَــيْــنِــهِ الْــعَــدَدَ الْــكَــثِــيــرَ قَــلِــيــلَا(١)

وَالْــعَــارُ مَــضَّــاضٌ وَلَــيْــسَ بِــخَــائِــفٍ
مِــنْ حَــتْــفِــهِ مَــنْ خَــافَ مِــمّــا قِــيــلَا(٢)

سَــبَــقَ الْــتِــقَــاءَكَــهُ بِــوَثْــبَــةِ هَــاجِــمٍ
لَــوْ لَــمْ تُــصَــادِمْــهُ لَــجَــازَكَ مِــيــلَا(٣)

خَــذَلَــتْــهُ قُــوَّتُــهُ وَقَــدْ كَــافَــحْــتَــهُ
فَــاسْــتَــنْــصَــرَ الــتَّــسْــلِــيــمَ وَالــتَّــجْــدِيــلَا(٤)

قَــبَــضَــتْ مَــنِــيَّــتُــهُ يَــدَيْــهِ وَعُــنْــقَــهُ
فَــكَــأَنَّــمَــا صَــادَفْــتَــهُ مَــغْــلُــولَا(٥)

= ينظر إلى الآخر نظرة تحدٍّ، نظر الأسد نظرة دونية إلى خصمه وداخله شيء من غرور، وقد هوّنت نفسه عليه ما هو مقدم عليه، فاعتبر الأمر سهلاً.

(١) و (٢) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣١. الأنفة: الكبرياء. المضاض: ألم الوجع. الحتف: الهلاك. إنها مواجهة ضارية بين الإنسان والحيوان، فالأسد لن يتراجع أو يفرّ لأن ذلك يجرح من كبريائه، وهو يأنف أن يُوصف بالجبن، فإذا به يستصغر الصعب ويهوّن على نفسه الأمر، فإذا بالكثرة تبدو قلّة بنظره، إنه لا يقبل على نفسه مذلّة، والموت واحد فلا منجاة منه، والممدوح كان أمام نفس الامتحان، ولا بدّ له من النصر، وإلّا فالأقاويل سوف تنسج روايات لا حصر لها.

(٣) و (٤) إنه صدام عنيف، فقد وثب الأسد وثبة جبّار يُريد أن يُنهي جولة الصراع بأسرع ما يُمكن، فإذا بالفارس يتصدّى للأسد، ولو أفلح في وثبته لترك الفارس وفرسه في خبر كان، وتجاوزه مسافة ميل لعظم وثبته، فكانت وثبة وبال عليه، فخذلته قوّته، وحاول أن يستجمع ما بقي من قوّته ويستنصر لها، فإذا به ينطرح أرضاً معلناً استسلامه لمن هو أقوى منه، وقد ظنّ أن النصر يتمّ له بهذه الوسيلة.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣١. قبض: أمسك. مغلولاً: مقيّداً. المنيّة: الموت. إنها ساعة النهاية، لقد شُلّت حركة الأسد، فإذا بالموت ينشب أظفاره في ضحيّته، كلّ من يديه وعنقه قد قيّد قيد الموت، ممّا سهّل قتله على يدي الممدوح ولم يبد مقاومة تُذكر. يتساءل المرء أين شجاعة الممدوح وقوّته في وصف كهذا؟

سَــمِـعَ ٱبْــنُ عَـمَّــتِـهِ بِــهِ وَبِــحَــالِــهِ
فَـنَـجَـا يُـهَـرْوِل مِـنْـكَ أَمـسِ مَـهُـولَا[١]

وَأَمَــرُّ مِــمّـــا فــرّ مِــنــه فِــرارُهُ،
وَكَـقَـتْـلِـهِ أَنْ لَا يَـمُـوتَ قَـتِـيـلَا[٢]

تَـلَـفُ الّــذِي ٱتَّــخَــذَ الْـجَـرَاءَةَ خُـلَّـةً
وَعَـظَ الَّــذِي ٱتَّـخَـذَ الْـفِـرَارَ خَـلِـيـلَا[٣]

لَـوْ كَـانَ عِـلْـمُـكَ بِـالإلٰـهِ مُـقَـسَّـماً
فـي الـنَّـاسِ مَـا بَـعَـثَ الإلٰـهُ رَسُـولَا[٤]

لَـوْ كَـانَ لَـفْـظُـكَ فِـيـهِـم مَـا أَنْـزَلَ الْــ
قُــرْآنَ وَالــتَّــوْرَاةَ وَالإنْــجِــيــلَا[٥]

لَـوْ كَـانَ مَـا تُـعْـطِـيـهِـم مِـنْ قَـبْـلِ أَنْ
تُـعْـطِـيـهِـمِ لَـمْ يَـعْـرِفُـوا الـتّـأْمِـيـلَا[٦]

---

(١) و (٢) الهرولة: ضرب من الركض فيه اضطراب. مهولاً: شديد الرعب. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأن خبر مصرع ذلك الأسد جعل الرعب يضطرّ ابن عمّه إلى الفرار مؤثراً السلامة، وبذلك نجا من موت محقّق ولم يلتق الممدوح في جولة صراع، ومع ذلك فإحساسه بأنه فرّ من قدره يقتله كمداً، فالفرار يُولّد في النفس إحساساً بالذلّ؛ فالشجاع يرفض على نفسه الفرار من الموت، فالنجاة في هذه الحالة كالموت تماماً.

(٣) التلف: الهلاك. الخلَّة: الصحبة والصداقة. يُخاطب الشاعر ممدوحه منوّهاً بعمله العظيم، فكان من نتائجه، أن قتل من اختار الشجاعة خليلاً فتلف، ووعظ من فرّ من موت محتّم، فكان درساً له فاستسلم للموادعة.

(٤) يُخاطب الشاعر ممدوحه منوّهاً بتقاه وورعه، فمعرفته بخالقه سبحانه وتعالى عظيمة جامعة، ولو أن الناس جميعاً على علمه وورعه ما أرسل اللّه تعالى رسولاً. إنها مغالاة وشطط في المدح.

(٥) ويُردف الشاعر قوله منوّهاً بعلم ممدوحه، فلو أن علم ممدوحه انتشر بين البشر ما كان القرآن والتوراة والإنجيل، ممَّا يدل على هديه وعظم معرفته في العلم اللدني.

(٦) التأميل: الرجاء. يُتابع الشاعر حديثه عن كرم ممدوحه، فلو أنه أمدّ الناس بالعطاء =

فَلَقَدْ عُرِفْتَ، وَمَا عُرِفْتَ حَقِيقَةً،
وَلَقَدْ جُهِلْتَ، وَمَا جُهِلْتَ خُمُولَا(١)
نَطَقَتْ بِسُؤْدُدِكَ الْحَمَامُ تَغَنِّياً،
وَبِمَا تُجَشِّمُهَا الْجِيَادُ صَهِيلَا(٢)
مَا كُلُّ مَنْ طَلَبَ الْمَعَالِيَ نَافِذاً
فِيهَا وَلَا كُلُّ الرِّجَالِ فُحُولا(٣)

أنت النهاية في الكمال

نظر إلى جانبه ثياباً مطوية فسأل عنها فقيل: هي خلع الولاية، وكان أبو الطيب عند وصولها عليلاً فقال:

[الوافر]

أَرَى حُلَلاً مُطَوَّاةً حِسَاناً
عَدَانِي أَنْ أَرَاكَ بِهَا ٱعْتِلَالِي(٤)

= لتعطلت قواهم واستغنَوْا عن طلب المعاش لتوفره في أيديهم ولما عرفوا الرجاء بأن الممدوح سيمدّهم بعطائه.

(١) الخمول: الكسل وقلّة نباهة المرء. لقد علم الناس بسخاء الممدوح وجوده، ولكنهم لم يعرفوه حقيقة المعرفة، وفي هذه الحالة فهم يجهلون حقيقة وسرّ عظمته، وجهلهم للممدوح لم ينتج عن خموله بل عن تقصير منهم وعدم فهمه.

(٢) السؤدد: العظمة والسيادة. تجشم الأمر: تكلّفه بمشقّة. يُردف الشاعر كلامه موضحاً سرّ عظمة ممدوحه، فقد تغنّى الحمام بمدحه وتجاوبت أصداء عظمته في غنائها، وكذلك قد أعلنت الخيول عن انتصاراته وأعماله بأعدائه المشهورة.

(٣) نافذاً: متفوّقاً ماضياً في تحقيق ما يصبو إليه. يُنهي الشاعر قصيدته بحكمة أن الفلاح والنجاح له رجاله، والممدوح واحد من هؤلاء إنه يمضي في تحقيق ما تهفو إليه نفسه من رفعة وسؤدد وأمجاد، وفي المقابل فالكثير من البشر لا يبلغون أمانيهم لضعف في إراداتهم، وهم ليسوا من الفحول الأشداء الأقوياء.

(٤) عداني: منعني. اعتلالي: مرضي. يُبدي الشاعر سروره بأنه رأى خُلعة الولاية ولقد حال دون رؤية ممدوحه يتحلّى بها أنه كان مريضاً، فقد كانت مطوية، وكان في خلده أن يراه يختال فيها فرحاً مسروراً.

وَهَـبْـكَ طَـوَيْـتَـهَـا وَخَـرَجْـتَ عَـنـهَـا
أَتَـطْـوِي مَـا عَـلَـيْـكَ مِـنَ الْـجَـمَـالِ (١)

لَـقَـدْ ظَـلَّـتْ أَوَاخِـرُهَـا الأَعَـالِـي
مَـعَ الأُولَـى بِـجِـسْـمِـكَ فـي قِـتَـالِ (٢)

تُـلاحِـظُـكَ الْـعُـيُـونُ وَأَنْـتَ فـيـهَـا
كَـأَنَّ عَـلَـيْـكَ أَفْـئِـدَةَ الـرِّجَـالِ (٣)

مَـتَـى أَحْـصَـيْـتُ فَـضْـلَـكَ فـي كَـلامٍ؛
فَـقَـدْ أَحْـصَـيْـتُ حَـبَّـاتِ الـرِّمَـالِ (٤)

وَإنَّ بِـهَـا، وَإنَّ بِـهِ لَـنَـقْـصـاً
وَأَنْـتَ لَـهَـا الـنِّـهَـايَـةُ فـي الْـكَـمَـالِ (٥)

---

(١) هبك: افترض أنك. ولنفرض أنك لم ترتد الخلعة، ورغم أنها زينة، فإنها لن تزيد عليك جمالاً، لأنك جميل بطلعتك وحميد أخلاقك وفضائلك.

(٢) إنه صراع التفاضل، صحيح أن تلك الخلعة جميلة إلّا أنها جمال خارجي، في حال أنها غطت جسدك، فقد قام صراع بين الداخل والخارج، لذا حسد وتقاتل؛ فقد نالت الخلعة فضلاً وتكرمة وذلك لأنها لامست جسداً عظيماً صاحبه، فاكتسبت بذلك جلالاً وعظمة وفخراً.

(٣) الكلّ يُحيط الأمير بنظرات الإعجاب والحبّ والفرح بسبب ما آل إليه أمره من المجد، وفي تكريم الأمير يرى هؤلاء تكريماً لأنفسهم، لذا فكأنهم هم من تولى المسؤولية، فلا عجب أن يُسرّوا ويفرحوا لذلك.

(٤) أحصى: عدّد. إن الممدوح مجمع الفضائل التي لا تحصى، ولو استطاع الشاعر إحصاءها لأمكنه أن يحصي حبات الرمال، وذلك محال لأن المعنوي لا يُعدّ أصلاً كما لا يُعدّ الرمل وما شابهه.

(٥) يُقرّر الشاعر حقيقة أن الخلعة لا تزيد ممدوحه بهاءً وكذلك أن المدح لا يُضيف إليه جديداً، ذلك أن الكمال في نهايته قد اجتمع لديه.

متى أقوم بالشكر

وقال في بدر أيضاً:

[الكامل]

عَــذَلَــتْ مُــنَــادَمَــةُ الأمِــيــرِ عَــوَاذِلِــي
فــي شُــرْبِــهَــا وَكَــفَــتْ جَــوَابَ الــسَّــائِــلِ[١]

مَــطَــرَتْ سَــحَــابُ يَــدَيْــكَ رِيَّ جَــوَانِــحِــي
وَحَــمَــلْــتُ شُــكْــرَكَ وَاصْــطِــنَــاعُــكَ حَــامِــلِــي[٢]

فَــمَــتَــى أَقُــومُ بِــشُــكْــرِ مَــا أَوْلَــيْــتَــنِــي
وَالْــقَــوْلُ فِــيــكَ عُــلُــوُّ قَــدْرِ الْــقَــائِــلِ[٣]

يزول الدهر قبل زواله

فقال بدر: بل من تركه. فقال أبو الطيب:

[الكامل]

بَــدْرٌ فَــتًــى لَــوْ كَــانَ مِــنْ سُــؤَّالِــهِ
يَــوْمــاً تَــوَفَّــرَ حَــظُّــهُ مِــنْ مَــالِــهِ[٤]

---

(١) عذل: لام. المنادمة: المشاركة في شرب الخمرة والحديث. كفت: أغنت. ثمّة من يلوم الشاعر على شربه الخمرة مع الأمير، فيردّ بأن ذلك يعود إلى حسد اللائم؛ فمنادمة الأمير شرف بحدّ ذاته لا يناله إلّا قلّة ممن يأنس إليهم الأمير ويصدّق ولاءهم له، ويرى الشاعر أن البقاء على هذه الحالة خير يردّ على كلّ لائم.

(٢) الجوانح: الأضلاع في جانبي القصب الصدري لابن آدم. اصطناع: تقريب المحبّ بالإحسان إليه. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه أفاد من جود كرمه وسحاب يديه الشيء الكثير حتى ارتوت روحه وجسده من فضله، فوجب عليه الشكر والاعتراف بفضله الذي حمله فجعله في مكانة عالية.

(٣) أوليتني: منحتني. يسأل الشاعر ممدوحه عن زمن شكره على كثرة العطاء الذي ناله من الأمير، ويُقرّ بأن مدح الأمير يرفع من قدره لأن الممدوح ذو فضل، وهو عالي القدر بذاته، فلا يزيده المدح فضلاً ورفعة.

(٤) يمدح الشاعر بدراً، إنه فتًى اكتملت لديه عناصر الفتوّة؛ الشباب، القوَّة، السؤدد، الشجاعة، الكرم، أصالة النسب، ميله إلى اللهو إذا توفّرت له أسبابه، لذا فهو يشرب =

تَــتَــحَــيّــرُ الأفْــعَــالُ فــي أَفْــعَــالِــهِ،
وَيَــقِــلُّ مَــا يَــأْتِــيــهِ فــي إقْــبَــالِــهِ(١)

قَــمَــراً نَــرَى وَسَــحَــابَــتَــيْــنِ بِــمَــوْضِــعٍ
مِــنْ وَجْــهِــهِ وَيَــمِــيــنِــهِ وَشِــمَــالِــهِ(٢)

سَــفَــكَ الــدِّمَــاءَ بِــجُــودِهِ لا بَــأْسِــهِ
كَــرَمــاً لأنَّ الــطَّــيْــرَ بَــعْــضُ عِــيَــالِــهِ(٣)

إنْ يُــفْــنِ مَــا يَــحْــوِي فَــقَــدْ أَبْــقَــى بِــهِ
ذِكْــراً يَــزُولُ الــدَّهْــرُ قَــبْــلَ زَوَالــهِ(٤)

أبت بالحاجة مقضية

وسأله أبو الطيب حاجة فقضاها له فنهض وقال: [السريع]

قَــدْ أُبْــتُ بِــالْــحَــاجَــةِ مَــقْــضِــيَّــةً
وَعِــفْــتُ فــي الْــجَــلْــسَــةِ تَــطْــوِيــلَــهَــا(٥)

= الخمرة، ولو سُئِلَ لأعطى سواه من ماله أكثر ممَّا يعود عليه من نفعه، ولو أنه سأل نفسه لكان نفعه نفسه أكبر وأكثر.

(١) إن الممدوح مثار اندهاش الناس، فهم في حيرة ممَّا يفعله لكثرة ما يفعل من خير وقلّة من يفعلون، ولو علموا أن ما يفعله بإمكانه أن يفعل أكثر منه بكثير لما كان لعجبهم حدّ ممَّا يفعل.

(٢) يمدح الشاعر ممدوحه؛ إنه قمر ينشر الأنس في ظلمة الحياة والضياء في عتمة جَوْر الطبيعة والإنسان لأخيه الإنسان، لذا فيداه تسحّان الخير بوفرة لأوليائه وأصحابه، كما تنشران الموت والدمار والخسف لأعدائه.

(٣) سفك: سفح. الجود: الكرم. البأس: الشدّة. العيال: هم من يقوم المرء بأودهم وطعامهم. إنه يقتل أعداءه ليجعل جُثثهم طعماً لجوارح الطير التي اعتادت على أعماله البطولية، ولها حقّ عليه أن يُعيلها باستمرار ليؤمن لها الحياة من جثث قتلاه.

(٤) يُقرّر الشاعر حقيقة مفادها أنه قد يفتقر الممدوح ويفنى ماله، ولكنّ ذكرى الممدوح لن تفنى لأنه يمثل نموذجاً حيًا، والأيام تمرّ ورغم ذلك من كتب ذكره في ذاكرة الوجود فلن تنساه البشرية رغم تبدّل الأحوال ومرور الأيام.

(٥) آب: رجع. عاف: كره. يُنوّه الشاعر بأنه قد حصل على ما يُريد من الأمير، فرجع =

أنـــتَ الـــذِي طُـــولُ بَـــقَـــاءٍ لَـــهُ
خَـيْـرٌ لِـنَـفْـسِـي مِـنْ بَـقَـائِـي لَـهَـا(١)

وإذا أتتك مذمتي من ناقص

يمدح القاضي أبا الفضل أحمد بن عبد اللّه بن الحسين الأنطاكي:

[الكامل]

لَـكِ يَـا مَـنَـازِلُ فـي الْـقُـلُـوبِ مَـنَـازِلُ
أَقْـفَـرْتِ أَنـتِ وَهُـنَّ مِـنْـكِ أَوَاهِـلُ(٢)

يَـعْـلَـمْـنَ ذَاكَ وَمَـا عَـلِـمْـتِ وَإِنَّـمَـا
أَوْلاكُـمَـا يُـبْـكَـى عَـلَـيْـهِ الْـعَـاقِـلُ(٣)

وَأَنَـا الَّـذِي اجْـتَـلَـبَ الْـمَـنِـيَّـةَ طَـرْفُـهُ
فَـمَـنِ الْـمُـطَـالَـبُ وَالْـقَـتِـيـلُ الْـقَـاتِـلُ(٤)

= راضياً، ولم يكن مكوثه في قصر الأمير طويلاً، فقد لبّى طلبه دون تردّد وبأسرع ما يمكن، وكان يتوقّع أن يطول انتظاره، وهو يكره ذلك.

(١) يُخاطب الشاعر ممدوحه بأن مكوثه إلى جانبه خير له وأحبّ إلى نفسه من استمرار بقائه لحصوله على ما أراد من قضاء حاجته.

(٢) يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي. يُخاطب الشاعر الديار لقد خلت من ساكنيها، فارتحلوا وتركوها قفراء يُخيّم عليها الكآبة والحزن، وقد حلّت في القلوب، لأنها في الأصل مساكن الأحبَّة، فالقلوب مفعمة بالذكريات الحلوة، وفي إحدى زواياها ركن خاصّ بحبيبته لا تنفكّ متربّعة على عرشه.

(٣) يروى «ببكى» بالباء بدلاً من «يبكى» بالياء. يُردف الشاعر أن الديار لا تدري ما حلّ بها ولذا فإنها لا تبكي، بينما يعلم قلب الشاعر ما ألمّ وحلّ فيه، وهو الأوجب بالبكاء، رثاءً لحاله لمعاناته ألم الفراق.

(٤) اجتلب: أتى بالشيء. المنية: الموت. الطرْف، بسكون الراء: النظر. ينعى الشاعر على نفسه ما جرّته عليها، فقد أوقع نفسه في المعاطب من أجل نظرة أودت به إلى سوء العاقبة، ويسأل عن صاحب الجريرة ليطالب بدم المقتول، وهو من فعل بنفسه ما فعل.

تَــخْــلُــو الــدِّيَــارُ مِــنَ الــظِّــبَــاءِ وَعِــنْــدَهُ
مِــنْ كُــلِّ تَــابِــعَــةٍ خَــيَــالٌ خَــاذِلُ[١]

الــلَّاءِ أَفْــتَــكُــهَــا الْــجَــبَــانُ بِــمُــهْــجَــتِــي
وَأَحَــبُّــهَــا قُــرْبــاً إِلَــيَّ الْــبَــاخِــلُ[٢]

الــرَّامِــيَــاتُ لَــنَــا وَهُــنَّ نَــوَافِــرٌ
وَالْــخَــاتِــلَاتُ لَــنَــا وَهُــنَّ غَــوَافِــلُ[٣]

كَــافَــأْنَــنَــا عَــنْ شِــبْــهِــهِــنَّ مِــنَ الْــمَــهَــا
فَــلَــهُــنَّ فِــي غَــيْــرِ الــتُّــرَابِ حَــبَــائِــلُ[٤]

مِــنْ طَــاعِــنِــي ثُــغَــرِ الــرِّجَــالِ جَــآذِرٌ
وَمِــنَ الــرِّمَــاحِ دَمَــالِــجٌ وَخَــلَاخِــلُ[٥]

---

(١) تخلو: تفرغ. الظباء، يقصد بهن النسوة. الخاذل من الظباء: الظبي الصغير الذي يتخلف عن القطيع ليرعى وحيداً. أوحشت تلك المرابع من ساكنيها، فلا نساء فيها أمثال الظباء جمالاً ورقّة وأناقة ولطفاً، ولكن قلب الشاعر تملأه ذكريات تتمثّل بفتاة في ريعان الصبا، فخيالاتها لا تزال تراود مخيّلته، وقد تخلّفت عن سربها فلم ترحل عن قلبه.

(٢) اللّاء: اللواتي. أفتكها: الأكثر فتكاً: أي قتلاً. الجبان: النافر من الرجال. يتابع الشاعر حديثه عن تلك التي شغلت عليه عقله وحواسه؛ إنها أكثر فتكاً من سائر النسوة، وأشدّهن حياءً تنفر من الرجال، لذا فهي بخيلة بالوصل، وهذا ما يشدّه إليها ويدفعه إلى التعلّق بها.

(٣) يتحدّث الشاعر عن دور النساء في حياة الرجال؛ إنهن يرمين شباكهن بلحاظ فاتكات فاتنات ساحرات، فيصطدن قلوب الرجال. سواء أردن أو لم يردن، وفي نفس الوقت هن ينفرن من عشّاقهن فيزدن في قلوبهم وهج الحبّ وضرامه، وهن لم يقصدن ذلك؛ وتلك هي مصيبة الرجال في الجميلات منهن.

(٤) المها: البقرات الوحشية. الحبائل. الواحدة حبالة: الشرك. إنها مبادلة ضيزى، فرغم الشبه بين النسوة والبقر الوحشي ذوات العيون الجميلة الواسعة السوداء، فقد تخلّت النسوة عن ما يُشبههن ليكنّ صيداً سهلاً للرجال الذين نشروا شباكهم للإيقاع بالبقرات الوحشية واصطيادها في غير التراب.

(٥) الثغر، الواحدة ثغرة: نقرة النحر. الجآذر، الواحد جؤذر: ولد البقرة الوحشية. =

وَلِـذَا ٱسْـمُ أغْـطِـيَـةِ الْـعُـيُـونِ جُـفُـونُـهَـا
مِـنْ أَنَّـهَـا عَـمَـلَ الـسُّـيُـوفِ عَـوَامِـلُ (١)

كَـمْ وَقْـفَـةٍ سَـجَـرَتْـكَ شَـوْقـاً بَـعْـدَمَـا
غَـرِيَ الـرَّقِـيـبُ بِـنَـا وَلَـجَّ الْـعَـاذِلُ (٢)

دونَ الـتَّـعَـانُـقِ نَـاحِـلَـيْـنِ كَـشَـكْـلَـتَـيْ
نَـصْـبٍ أَدَقَّـهُـمَـا وَضَـمَّ الـشَّـاكِـلُ (٣)

إنْـعَـمْ وَلَـذَّ فَـلِـلأُمُـورِ أَوَاخِـرٌ
أَبَـداً إِذَا كَـانَـتْ لَـهُـنَّ أَوَائِـلُ (٤)

= الدماليج، الواحد دملج: من الحلي يوضع في عضد المرأة. الخلاخل، الواحد خلخال: حلي تتجمّل به النسوة في أرجلهن. يذكر الشاعر مصدر سحر النسوة، فطعنهن إغراء العيون السوداء الجميلة المتّسعة؛ إنها رماح قاتلة تماماً كما يفعل الرجال بقتل بعضهم بعضاً. وسلاحهن فضلاً عن عيونهن حليهن في أيديهن وأرجلهن يزيدهن إغراءً وجمالاً.

(١) ورد البيت في: دلائل الإعجاز: ٦٦، أسرار البلاغة، للجرجاني: ١٦٢، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٩. يرى الشاعر أن أغطية العيون سمّيت جفوناً لأنها تخبّئ أحداقاً قاتلات تفعل فعل السيوف التي تقتل عندما تجرّد من أغمادها وتعمل عملها.

(٢) سجرتك: ملأتك. غرى: أولع. لجّ: تمادى في الحجاج. يروى «شجرتك» بدلاً من «سجرتك»، أي حبستك عن الكلام. يُخاطب الشاعر نفسه في نجوى الذات، لقد كانت وقفات مع ذكرى الحبيب طويلة تثير في نفسه لوعة الشوق والحنين إلى حبيبته، فالرقيب يحول دون لقاء والعاذل دائم اللوم، يُكثر من مماحكاته وحواراته علّه ينجح ويردّ الشاعر إلى عقله ليقطع علاقته بحبيبته، إنه حبّ مكتوب له الفشل.

(٣) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ٢٣٠، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٦. يتابع الشاعر حديثه عن لقاء تمّ بينه وبين حبيبته كشكلتي نصب، فقد وقف مقابل حبيبته، وكلاهما أضناه الشوق، ومع ذلك لم يكن عناق، فثمّة رقيب يرى ويُحصي الحركات والهمسات واللفتات، وعاذل يلوم ولا يشعر بما يشعران به من شدّة الصبابة والحبّ.

(٤) وبمسحة حزن مغلّف باللامبالاة، يُخاطب الشاعر نفسه لتنتهز فرصة الشباب ولتعبّ من متعه؛ فالحياة مهما امتدّت فهي قصيرة، وكلّ ما له بداية له نهاية، فلا بدّ منها.

مَـا دُمْـتَ مِـنْ أرَبِ الْـحِـسَـانِ فَـإنَّـمَـا
رَوْقُ الـشَّـبَـابِ عَـلَـيْـكَ ظِـلٌّ زَائِـلُ[١]

لِـلَّـهْـوِ آوِنَـةٌ تَـمُـرُّ كَـأَنَّـهَـا
قُـبَـلٌ يُـزَوَّدُهَـا حَـبِـيـبٌ رَاحِـلُ[٢]

جَـمَـحَ الـزَّمَـانُ فَـمَـا لَـذِيـذٌ خَـالِـصٌ
مِـمَّـا يَـشُـوبُ وَلَا سُـرُورٌ كَـامِـلُ[٣]

حَـتَّـى أبُـو الْـفَـضْـلِ بْـنُ عَـبْـدِ ٱلـلَّـهِ رُؤْ
يَـتُـهُ الْـمُـنَـى وَهْـيَ الْـمَـقَـامُ الْـهَـائِـلُ[٤]

مَـمْـطُـورَةٌ طُـرُقِـي إلَـيْـهَـا دُونَـهَـا
مِـنْ جـودِهِ فِـي كُـلِّ فَـجٍّ وَابِـلُ[٥]

---

(١) الأرب: الحاجة. روق الشباب: أفضله وأوله. ويُردف الشاعر متمّماً ما ألمح إليه أنه طالما يتمتّع بشبابه، وهي المرحلة الأعزّ على قلوب البشر، وطالما أن الحسان من النسوة يسعين وراءه فلا بدّ من انتهاز تلك الفرصة المؤاتية؛ فالشباب ظلّ سرعان ما ينزاح، فإذا بالمرء تحت سماء تسطع شمس خريف العمر تحرق كلّ منابت العمر.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٦. الآونة: اللحظة. القُبل، الواحدة قُبلة. يُردف الشاعر موضحاً فكرته بأن اللهو ساعاته معدودة تمرّ سِراعاً كأن المرء يقبّل حبيباً مودّعاً على وشك الرحيل؛ وكلّ شيء عزيز على قلب المرء يمضي كغمزة عين فيترك في النفس ذكريات حلوة وأسًى في الوقت نفسه لفواته، والحقيقة لا يدرك ما كان فيه حتى يفتقده فيتألّم لفقده. ولكن بعد فوات الأوان.

(٣) و (٤) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٢ ـ ١٥٣. جمح: خرج عن طوعه وغلب صاحبه. يشوب: يمازج ويُخالط. الهائل: العظيم. يمهّد الشاعر للانتقال من الغزل إلى المدح. إنها الحياة تسوق الزمان بعنف كما يحلو لها، لذا فلا شيء يدوم كما أنه لا يخلو من تكدر فلا يأتي خالصاً من كلّ شائبة، حتى السرور لا يخلو من منغّصات تُفقد المرء الإحساس بجماله، وفجأة يُطلّ في أفق حياة الشاعر أبو الفضل بن عبد اللّه، فرؤيته طالع خير؛ إنه ذو مقام هائل عظيم.

(٥) الفجّ: الطريق الواسع بين جبلين، الوابل: الماطر بغزارة. يُعلن الشاعر عن حقيقة علاقته بممدوحه، فقد واتاه خيره من عطاء قبل رؤيته والمثول بين يديه، فقد كانت طرقه إليه قد فاضت بمطر عطاياه الخيّرة، فإذا بجوده قد ملأ كلّ فجّ.

مَـحْـجُـوبَـةٌ بِـسُـرَادِقٍ مِـنْ هَـيْـبَـةٍ
تَـثْـنِـي الْأَزِمَّـةَ وَالْـمَـطِـيُّ ذَوَامِـلُ (١)

لِـلـشَّـمْـسِ فِـيـهِ وَلِـلـرِّيَـاحِ وَلِـلـسَّـحَـا
بِ وَلِـلـبِـحَـارِ وَلِـلأُسُـودِ شَـمَـائِـلُ (٢)

وَلَـدَيْـهِ مِـلْـعِـقْـيَـانِ وَالْأَدَبِ الْـمُـفَـا
دِ وَمِـلْـحَـيَـاةِ وَمِـلْـمَـمَـاتِ مَـنَـاهِـلُ (٣)

لَـوْ لَـمْ يَـهَـبْ لَـجَـبَ الْـوُفُـودِ حَـوَالَـهُ
لَـسَـرَى إِلَـيْـهِ قَـطَـا الْـفَـلَاةِ الـنَّـاهِـلُ (٤)

يَـدْرِي بِـمَـا بِـكَ قَـبْـلَ تُـظْـهِـرُهُ لَـهُ
مِـنْ ذِهْـنِـهِ وَيُـجِـيـبُ قَـبْـلَ تُـسَـائِـلُ (٥)

---

(١) محجوبة: محمية. السرادق: الخيمة. الأزمة، الواحد زمام: مقود الدابة. ذوامل: مسرعات، يصف الشاعر ما على ممدوحه من مهابة تحمل المرء على التردّد في حال مثوله بين يديه، فإذا ببصره يرتد حائراً إليه، حتى ما يُحسّ من المطايا المسرعات، ففي حال مفاجأتها به لارتدّت متقهقرة إلى الوراء خشية هيبته.

(٢) الشمائل، الواحدة شميلة: الأخلاق والمزايا. يرصف الشاعر الفضائل المحبّبة للممدوحين، إنه يُشارك الشمس دفأها وإشراقها وعطاءها والرياح والسحاب فيض جودهما، فهما تأتيان بالخير العميم فيشمل البشر والحيوان والنبات والبحار الرزق الواسع العظيم، والأسود شجاعتها وقوّتها ومهابتها وسؤددها.

(٣) العقيان: الذهب. المناهل، الواحد منهل: موارد المياه. يذكر الشاعر أن الوفود تأتي إلى ممدوحه تسترفد كلّ خير عميم من ذهب وما سواه ممّا ينفع الناس، وهو يُغدق العطاء لأوليائه وأصحابه ويُمدّهم بحبّه أيضاً، بينما هو يُورد أعداءه موارد التهلكة لقوّته وشجاعته.

(٤) اللجب: الجلبة. الوفود: الآتون يطلبون عطاءً. سرى: مشى في الليل. القطا: ضرب من الطير رماديّ اللون من أنواع الحمائم. الفلاة: المفازة. الناهل: الوارد على الماء. يُنوّه الشاعر بكرم ممدوحه الذي يجعل الوفود تأتيه تترى من كلّ مكان لتنعم بخيره، ليلاً ونهاراً، ومنها أسراب القطا العطشى تتوجّه إليه علّها تنعم بما يشفي غليلها، ولكن ما يمنعها كثرة الوفود، ممّا يحول دونها ودون الماء فلا تسري إليه في الليل.

(٥) يصف الشاعر ممدوحه بسرعة الخاطر، إنه لمّاح يقرأ حاجة من يأتي إليه من عينيه =

وَتَـرَاهُ مُـعْـتَـرِضـاً لَـهَـا وَمُـوَلِّـيـاً
أَحْـدَاقُـنَـا وَتَـحَـارُ حِـيـنَ يُـقَـابِـلُ[(١)]

كَـلِـمَـاتُـهُ قُـضُـبٌ وَهُـنَّ فَـوَاصِـلُ
كُـلُّ الـضَّـرَائِـبِ تَـحْـتَـهُـنَّ مَـفَـاصِـلُ[(٢)]

هَـزَمَـتْ مَـكَـارِمُـهُ الْـمَـكَـارِمَ كُـلَّـهَـا
حَـتَّـى كَـأَنَّ الْـمَـكْـرُمَـاتِ قَـنَـابِـلُ[(٣)]

وَقَـتَـلْـنَ دَفْـراً وَالـدُّهَـيْـمَ فَـمَـا تُـرَى
أُمُّ الـدُّهَـيْـمِ وَأُمُّ دَفْـرٍ ثَـاكِـلُ[(٤)]

عَـلَّامَـةُ الْـعُـلَـمَـاءِ وَالـلُّـجُّ الَّـذِي
لَا يَـنْـتَـهِـي وَلِـكُـلِّ لُـجٍّ سَـاحِـلُ[(٥)]

= فيُبادر إلى مساعدته، كما أنه يطّلع بفراسته عمّا يُمكن أن يُسأل عنه، فيُسارع إلى الإجابة.

(١) يصف الشاعر ممدوحه بقوّة شخصه وهيبته التي تجبر من أراد النظر والتمتّع بمرآة أن يحوّل نظره عنه مخافة ألّا يستطيع إدامة النظر إليه إلّا في حالة تحويلة نظره.

(٢) القضب، الواحد: قضيب: السيف. فواصل، الواحد فاصل: قاطع. الضرائب، الواحد ضريبة: المضروف بالسيف. المفاصل، الواحد مفصل: ملتقى العظمين، يمدح الشاعر ممدوحه بأنه أوتي جوامع الكلام وفصل الخطاب، فإذا ما تصدّى للكلام كان كلامه مختصراً واضحة معانيه ودلالاته أدّت الغاية منها دون زيادة أو نقصان، ولذا فقد كان بليغاً في سائر حالاته في السرور والغضب.

(٣) القنابل، الواحدة قنبلة: جماعة من الخيول ما بين الثلاثين إلى الأربعين يروى «قبائل» بدلاً من «قنابل» يمدح الشاعر ممدوحه بأنه متفوّق في كلّ ما تصدّى له من الفضائل، ففي ميدان المكارم فاقت مكارمه سائر مكارم الخلق أجمعين، حتى لقد بدت في هذه الحالة كأنها جيوش تترى متتابعة يستعرضها مسروراً بإنجازاتها أمام غيره، ولذا فجيشه يرفع لواء النصر في كلّ معاركه.

(٤) أم الدّهيم: المصيبة. الدفر: الخبث. الهابل: الثاكل الفاقدة لولدها. يمدح الشاعر ممدوحه بكرمه، فقد عمل على مساعدة الخلق للخلاص من المصائب والويلات التي تنزل في ديارهم فقضى على أسبابها، فإذا بدفر وأمّ الدهيم يبكيان قتلاهما، وقد ثكلتا بهم.

(٥) اللجّ: الماء الغامر. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه اجتمع لديه من العلم ما لم يجتمع =

لَـوْ طَـابَ مَـوْلِـدُ كُـلِّ حَـيٍّ مِـثْـلَـهُ
وَلَـدَ الـنِّـسَـاءُ وَمَـا لَـهُـنَّ قَـوَابِـلُ[١]
لَـوْ بَـانَ بِـالْـكَـرَمِ الْـجَـنِـيـنُ بَـيَـانُـهُ
لَـدَرَتْ بِـهِ ذَكَـرٌ أَمْ أُنْـثَـى الْـحَـامِـلُ[٢]
لِـيَـزِدْ بَـنُـو الْـحَـسَـنِ الـشِّـرَافُ تَـوَاضُـعـاً
هَـيْـهَـاتَ تُـكْـتَـمُ فِـي الـظَّـلَامِ مَـشَـاعِـلُ[٣]
جَـفَـخَـتْ وَهُـمْ لَا يَـجْـفَـخُـونَ بِـهَـا بِـهِـمْ
شِـيَـمٌ عَـلَـى الْـحَـسَـبِ الأَغَـرِّ دَلَائِـلُ[٤]

= لغيره؛ فإليه يرجع العلماء في ما أشكل فهمه عليهم، كما أنه عميق الغور في جوده فلا يحدّه حدّ ولا يستطيع أن يغوص إلى أعماقه حتى أمهر الغواصين؛ فغناه وكرمه لا يُقاسان بمن في الكون من البشر.

(١) القوابل، الواحدة قابلة: التي تساعد المرأة الحامل على الولادة. يذكر الشاعر أن الممدوح ولد مطهراً مطيّباً، فلو أن القابلات أشرفن على استيلاد أولادهن على مثيله لما كانت الحوامل بحاجة إلى مساعدة القابلات.

(٢) الجنين: الولد في بطن أمه. درت: علمت. ومن مغالاة الشاعر أنه ولد كريماً مكرّماً، ولو علمت الأمهات حالة مولده، لكان باستطاعتهن أن يُميّزن بين الأنثى والذكر قبل ولادتهن؛ وهذا لم يكن ولن يكون.

(٣) المشاعل، الواحد مشعل: هو ما يضاء ليلاً ليهتدي السائرون في طريقهم. هيهات: اسم فعل ماضٍ بمعنى بعد. يطلب الشاعر من بني الحسن التواضع، فهم شرفاء يرتبطون بشجرة ذكية زاكية؛ فالتكبّر لا يزيدهم شرفاً، شأنهم في ذلك شأن مشعل يتبيّن نوره في سواد الليل الحالك فيبدو أكثر ضياءً وتوهجاً كلّما اشتدّت الظلمة.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٩. جفخت: تكبّرت. الشيم، الواحدة شيمة: الأخلاق الحسنة. الحسب: النسب الكريم. الأغر: السيد النبيل. يمدح الشاعر آل بيت الممدوح، إنهم من شجرة كريمة الأصل، ومن طبيعته العامّة إذا اغتنت فخرت بمالها على ذوي الأحساب والأصول الرفيعة، وهؤلاء لا يتكبّرون لماضيهم المجيد وأحسابهم الشامخة، فهم بعداء عن حالة كهذه، والممدوح سيد كريم عظيم.

مُتَشَابِهُو هو وَرَعِ النُّفُوسِ كَبِيرُهُمْ
وَصَغِيرُهُمْ عَفُّ الْإِزَارِ حُلَاحِلُ[(١)]

يَا افْخَرْ فَإِنَّ النَّاسَ فِيكَ ثَلَاثَةٌ
مُسْتَعْظِمٌ أَوْ حَاسِدٌ أَوْ جَاهِلُ[(٢)]

وَلَقَدْ عَلَوْتَ فَمَا تُبَالِي بَعْدَمَا
عَرَفُوا: أَيَحْمَدُ أَمْ يَذُمُّ الْقَائِلُ؟[(٣)]

أُثْنِي عَلَيْكَ وَلَوْ تَشَاءُ لَقُلْتَ لِي
قَصَّرْتَ فَالإِمْسَاكُ عَنِّيَ نَائِلُ[(٤)]

لَا تَجْسُرُ الْفُصَحَاءُ تُنْشِدُ هٰهُنَا
بَيْتاً وَلٰكِنِّي الْهِزَبْرُ الْبَاسِلُ[(٥)]

مَا نَالَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ كُلُّهُمْ
شِعْرِي وَلَا سَمِعَتْ بِسِحْرِي بَابِلُ[(٦)]

---

(١) الورع: التقوى. عفّ الإزار: كناية عن طهارته وبعده عن الفحشاء. الحلاحل: السيد العظيم. يُردف الشاعر مادحاً آل بيت ممدوحه، إنهم من بيت ربّى أبناءه على الورع والتقوى، وهم لا يُفحشون قولاً وعملاً، يتساوى في ذلك كبيرهم وصغيرهم، وهو يمتاز بأنه من السادات العظام.

(٢) يطلب الشاعر من ممدوحه أن يفخر بما عنده من مزايا وأخلاق رفيعة ويسمو على سواه، فمعظم هؤلاء من الناس، إما أن يرفع الممدوح فوق ما هو عليه إلى حدّ التقديس، وإما حاسد يودّ لو يكون على ما عليه من سؤدد، وهذا يتمنّى زوال النعم عن الممدوح، وإما جاهل فلا يُمكنه تقدير ما عليه الممدوح من فضائل وسمات.

(٣) يُخاطب الشاعر ممدوحه طالباً منه ألّا يهتمّ لأقوال الناس، سواء أمدح أم تنقّصه القائلون؛ فالحمد لا يزيده لأنه فوق ما يقولون والذمّ لا ينزله عن مكانته التي يتبوّأها، فهو أعظم من أن تناله منقصة.

(٤) أثنى: مدح. النائل: العطاء. يُخاطب الشاعر ممدوحه، فقد مدحه وبذل أقصى ما يُمكنه من مدح، ومع ذلك فهو يعتذر بأنه قد يكون مقصّراً بمدحه، لذا فإنه يقبل منه أن يمسك عن لومه، وهذا يكفيه، فهو أفضل العطاء لديه.

(٥) و (٦) الهزبر: من أسماء الأسد، الباسل: الشديد. يفخر الشاعر بشاعريته، فلا يوجد =

وَإِذَا أَتَـتْـكَ مَـذَمَّـتِـي مِـنْ نَـاقِـصٍ
فَـهْـيَ الـشَّـهَـادَةُ لِـي بِـأَنِّـي كَـامِـلُ[(١)]

مَـنْ لِـي بِـفَـهْـمِ أُهَـيْـلِ عَـصْـرٍ يَـدَّعِـي
أَنْ يَـحْـسُـبَ الْـهِـنْـدِيَّ فِـيـهِـمْ بَـاقِـلُ[(٢)]

وَأَمَـا وَحَـقِّـكَ وَهْـوَ غَـايَـةُ مُـقْـسِـمِ
لَـلْـحَـقُّ أَنْـتَ وَمَـا سِـوَاكَ الْـبَـاطِـلُ[(٣)]

الـطِّـيـبُ أَنْـتَ إِذَا أَصَـابَـكَ طِـيـبُـهُ
وَالْـمَـاءُ أَنْـتَ إِذَا اغْـتَـسَـلْـتَ الْـغَـاسِـلُ[(٤)]

= من يجرؤ على مدح الممدوح؛ إنه ذو هيبة تربك من يقف أمامه لينشده شعراً فضلاً عن علمه بجيده من رديئه، والشاعر يُنشد الجيد منه، إنه أسد يزمجر فيخيف الضعفاء من الشعراء، وهو شديد في موهبته، حتى إن الجاهليين كلّهم من الشعراء لم يصلوا إلى ما وصل إليه، والحقيقة أن ما وصل إلى المتنبي من تجربة ما سبقه من الشعر ساعده على الاستعانة بأقوالهم حتى برع في الشعر؛ حتى أن بابل موطن السحر لم تسمع بسحره.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٧. يردّ الشاعر على خصومه بأن ذكر نقائص الشاعر دلالة على أنه كامل، وفي ذلك كلام أنه لا يُوجد مخلوق تام إلّا رسول اللّه محمد بن عبد اللّه ﷺ، وما بقي من البشر إلّا وفيه ما فيه.

(٢) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢ : ٢٠٦. إنها نظرة استعلاء وتكبّر من قبل المتنبي فقد جعل أبناء عصره جهلة، وهو القرن الرابع الهجري حيث اكتملت عناصر الحضارة العربية ونضج الشعر، وهو أحد هؤلاء الكبار في الشعر العربي؛ فأهل هذا العصر جهلة برأيه ولاحتقاره لهم يقول أهيل، ويتمثّل بباقل، وقد أخطأ، وما من امرئ إلاّ يخطئ. ألم يخطئ هو بهجائه حتى وصل إلى الإفحاش وسفّ؟!

(٣) يقسم الشاعر بأن ممدوحه يمثل الحقّ في عالم فسدت فيه المقاييس وفسد أهله، أما ما سواه فهو الباطل من كذب وظلم وتعدٍّ، والباطل مهزوم دائماً من قبل الحقّ مهما طال به الزمن.

(٤) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٦٦. الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٩. يُخاطب الشاعر ممدوحه، منوّهاً بعبير فوحه، إنه طيب من نبع طيب، وكذلك فالماء الزلال الفرات الذي يسوغ في الحلق من غسول ممدوحه، لأنه يتطهّر حالما يلامس جسده في أي جارحة من جوارحه.

مَـا دَارَ فـي الْـحَـنَـكِ الـلِّـسَـانُ وَقَـلَّـبَـتْ
قَـلَـمـاً بِـأَحْـسَـنَ مِـنْ ثَـنَـاكَ أَنَـامِـلُ (١)

نسل من ليس له نسل

وقال يهجو قوماً توعّدوه:

[الطويل]

أَمَـاتَـكُـمُ مِـنْ قَـبْـلِ مَـوْتِـكُـمُ الْـجَـهْـلُ
وَجَـرَّكُـمُ مِـنْ خِـفَّـةٍ بِـكُـمُ الـنَّـمْـلُ (٢)

وُلَـيْـدَ أُبَـيِّ الـطَّـيِّـبِ الْـكَـلْـبِ مَـا لَـكُـمْ
فَـطِـنْـتُـمْ إِلَـى الـدَّعْـوَى وَمَـا لَـكُـمُ عَـقْـلُ (٣)

وَلَـوْ ضَـرَبَـتْـكُـمْ مَـنْـجَـنِـيـقِـي وَأَصْـلُـكُـمْ
قَـوِيٌّ لَـهَـدَّتْـكُـمْ فَـكَـيْـفَ وَلَا أَصْـلُ؟! (٤)

وَلَـوْ كُـنْـتُـمُ مِـمَّـنْ يُـدَبِّـرُ أَمْـرَهُ
لَـمَـا كُـنْـتُـمُ نَـسْـلَ الَّـذِي مَـا لَـهُ نَـسْـلُ (٥)

---

(١) الثناء: المدح. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه أفضل البشر، فما قيل من شعر فيه فهو دون مزاياه فمواصفاته حميدة، وكذلك لم يكتب أحد عنه مهما كتب فإنه لن يعطيَه حقّه من الثناء، لأنه فوق ما يُكتب عنه.

(٢) يُخاطب الشاعر قوماً هاجياً لهم؛ إنهم جهلاء، وبجهلهم لجهلهم ماتوا، فهم أحياء جسدياً أموات عقلياً، ومن خفّة عقولهم فبإمكان النمل جرهم، فمن لا عقل له أحمق لا وزن له في عالم الأحياء.

(٣) وليد: تصغير للتحقير. يُخاطب هؤلاء القوم إنهم ينتسبون لأبي الكلب، هم صغار لا قيمة لهم، وهم ينتسبون إلى من لا قيمة له، كلب في حال التنكير لا حول له ولا قوّة، إنها دعوى لا معنى لها، ولو كنتم تمتلكون من العقول ذرّات لما انتسبتم إلى من لا يدعو إلى الفخر به، وقد فاتتكم الفطنة والرزانة.

(٤) المنجنيق: آلة حربية تستعمل لدكّ الحصون ترمى بواسطتها حجارة تُوجّه إلى القلاع والحصون. يُخاطب الشاعر هؤلاء القوم بأنهم لا أصل لهم، ولو كانوا ذوات أصل لوجّه إليهم شعر هجاء حطّم ما يحتمون به من أصل، فكيف وهم لا أصل لهم؟ إنهم خاسرون على كلّ حال.

(٥) يردف الشاعر هجاءه وأن القوم ينتسبون إلى من لا نسل له، فلم ينجب حتى لو كان =

أكرم الناس فعالاً

وجعل الأمير يضرب بكمه ويقول سوقاً إلى أبي الطيب فقال:

[البسيط]

يَــا أَكْــرَمَ الــنَّــاسِ فِــي الْــفَــعَــالِ
وَأَفْــصَــحَ الــنَّــاسِ فِــي الْــمَــقَــالِ(١)

إنْ قُــلْــتَ فِــي ذَا الْــبَــخُــورِ سَــوْقــاً
فَــهَــكَــذَا قُــلْــتَ فِــي الــنَّــوَالِ(٢)

ذليل من قبل الهجاء

بلغه وهو بدمشق أن إسحاق بن كيغلغ يتوعده في بلاد الروم، فقال:

[الطويل]

أَتَــانِــي كَــلَامُ الْــجَــاهِــلِ ٱبْــنِ كَــيَــغْــلَــغِ
يَــجُــوبُ حُــزُونــاً بَــيْــنَــنَــا وَسُــهُــولَا(٣)

وَلَــوْ لَــمْ يَــكُــنْ بَــيْــنَ ٱبْــنِ صَــفْــرَاءَ حَــائِــلٌ
وَبَــيْــنِــي سِــوَى رُمْــحِــي لَــكَــانَ طَــوِيــلَا(٤)

= من الشرفاء فإنهم بانتسابهم هذا كاذبون، وشرف من ينتسبون إليه لا يزيدهم شرفاً، فهو مشكوك بانتسابه إلى من انتسب إليه؛ وبذلك فإن الشاعر يعرّي الفريقين من فضائلهما.

(١) و (٢) يُخاطب الشاعر ممدوحه، إنه أكرم الناس، وأفعاله تدلّ على ذلك، إنه جواد، شجاع، أصيل النسب، فضلاً عن فصاحة ميّزته عن سائر الناس، وكلمة سوقاً تنمّ عن عادة يتّبعها الممدوح لأنه يقولها دائماً، وذلك في حال دوام عطائه وجوده.

(٣) يجوب: يجول. الحزن: الغليظ من الأرض. إنه التحدّي بين الشاعر وبين إسحاق بن كيغلغ، وهما متباعدان، فسلاح الشاعر في هذه الحالة الهجاء، فابن كيغلغ أحمق غبيّ، يصبّ الشاعر جام غضبه عليه رغم ما يفصل بينهما من أبعاد وآماد.

(٤) صفراء: اسم أم إسحاق. ينسب الشاعر ابن كيغلغ إلى الجبن، يفصل بينهما مسافات شاسعة، وحتى لو كان أمام الشاعر وبينهما مقدار رمح، فإنه لا يجرؤ على مواجهته لجبنه وخِسّة نفسه.

وَإِسْحَاقُ مَأْمُونٌ عَلَى مَنْ أَهَانَهُ
وَلٰكِنْ تَسَلَّى بِالْبُكَاءِ قَلِيلَا[١]

وَلَيْسَ جَمِيلاً عِرْضُهُ فَيَصُونَهُ
وَلَيْسَ جَمِيلاً أَنْ يَكُونَ جَمِيلَا[٢]

وَيَكْذِبُ مَا أَذْلَلْتُهُ بِهِجَائِهِ
لَقَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِ الْهِجَاءِ ذَلِيلَا[٣]

لا يحمد السيفُ كلَّ من حمله

وقال يمدح أبا العشائر:

[المنسرح]

لَا تَحْسَبُوا رَبْعَكُمْ وَلَا طَلَلَهْ
أَوَّلَ حَيٍّ فِرَاقُكُمْ قَتَلَهْ[٤]

قَدْ تَلِفَتْ قَبْلَهُ النُّفُوسُ بِكُمْ
وَأَكْثَرَتْ فِي هَوَاكُمُ الْعَذَلَهْ[٥]

---

(١) ولشدّة رعبه، فإنه في حال وُجهت إليه إهانة ينطوي على نفسه ويبكي لعجزه عن المجابهة وردّ الإهانة إلى صاحبها، وصاحبها آمن ألّا يُصيبه مكروه من جانب ابن كيغلغ.

(٢) يتعرّض الشاعر إلى عرض ابن كيغلغ، فهو يفتقد إلى ما يعتقد أنه جميل فيصان ويعمل صاحبه على الدفاع عنه، إنه مهدود الأركان كلّ من استطاع أن يسطو عليه أفلح في مسعاه وبقي عرضه يرسف في وهدة الوحل.

(٣) ينسب الشاعر إلى مهجوه الكذب، فما وجهه إليه لا يُعتبر في نظره كذباً، فهو لم يُذلّه، ذلك أنه أصلاً ذليل حقير لا ينفع لشيء ولا قيمة لمدعاه بأن الشاعر قد عمل على إذلاله وتحقيره.

(٤) و (٥) يبدأ الشاعر قصيدته المدحيّة بمطلع غزلي. الربع: المنزل. الطلل: ما بقي من آثار الديار. تلفت: هلكت. العذلة، الواحد عذول: اللائمون. يُخاطب الشاعر الأحبَّة أنهم ليسوا أول من أمات تلك الديار برحيلهم عنها، إنها حياة الصحراء؛ فقد فرضت على ساكنيها لقسوتها وجبروتها أن يرحلوا عنها طلباً للحياة والاستمرار، ولم تكن الديار وحيدة بما فعلت فقد هلك كثيرون من العشاق بسبب فراق الأحبة لتلك الديار، واللوم يصبّه العاذلون للعاشقين محذّرين من الوقوع صرعى ضحية الأحباب.

خَــلَا وَفِــيــهِ أَهْــلٌ وَأَوْحَــشَــنَــا
وَفِــيــهِ صِــرْمٌ مُــرَوِّحٌ إِبِــلَــهْ[١]
لَــوْ سَــارَ ذَاكَ الْــحَــبِــيــبُ عَــنْ فَــلَــكٍ
مَــا رَضِــيَ الــشَّــمْــسَ بُــرْجُــهُ بَــدَلَــهْ[٢]
أُحِــبُّــهُ وَالْــهَــوَى وَأَدْؤُرَهُ
وَكُــلُّ حُــبٍّ صَــبَــابَــةٌ وَوَلَــهْ[٣]
يَــنْــصُــرُهَــا الْــغَــيْــثُ وَهْــيَ ظَــامِــئَــةٌ
إِلَــى سِــوَاهُ وَسُــحْــبُــهَــا هَــطِــلَــهْ[٤]
وَا حَــرَبَــا مِــنْــكِ يَــا جَــدَايَــتَــهَــا
مُــقِــيــمَــةً فَــاعْــلَــمِــي وَمُــرْتَــحِــلَــهْ[٥]

---

(١) الصرم: الفئة من البيوت بساكنيها وما فيها. المروح: مأوى الإبل. لقد خلت الديار من أحبّة الشاعر رغم ما فيها من بشر حلّوا مكان أحبته، فالديار موحشة كئيبة، فارقتها بهجتها فانعدمت فرحتها، وساكنو تلك الديار يتحرّكون، وإبلهم في مراحها تنعم بالراحة.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٩. رغم أن الشمس سرّ الحياة فلولاها ما استمرّ الوجود ولهلك سكّان الأرض أجمعون، فإن حبيبة الشاعر لو تخلّت عن سكنى فلك من الأفلاك لما رضيت للشمس أن تحلّ محلّها لأنها أجمل من الشمس ومحاسنها تفوق ما تتمتّع به.

(٣) الأدؤر، الواحد دار. الصبابة: رقّة العشق. الوله: ضياع العقل. يعلن الشاعر صراحة عن حبّ من أحبّ بل ويحبّ أيضاً تلك الديار التي يزيّنها بطلّة طلعته البهية؛ ذلك أن الحبّ شوق وحنين حتى يبلغ الأمر بالمحب أن يتيه في الآفاق ضائع الرشد والعقل.

(٤) الهطل: المطر المدرار. يصف الشاعر حال تلك الديار وقد خلت من حبيبته؛ فرغم فيض الأمطار التي تهطل عليها فلا تزال ظمأى لعشقها راحلة عنها.

(٥) وا حرباه: تعبير عن الأسف والحزن. الجداية: ولد الظبية. يأسف الشاعر على الحالة التي وصل إليها، ففي حال الظبية الأنيقة اللطيفة الوديعة الجميلة بقيت، فبقاؤه لا يجدي نفعاً لصدودها وتمنّعها، فلا لقاء ولا ود، وهي في بعدها عن تلك الديار فالأمر سيان؛ إنها مشكلة الشاعر في كلّ حال.

لَـوْ خُـلِـطَ الـمِـسْـكُ وَالْـعَـبِـيرُ بِـهَـا
وَلَـسْـتِ فِـيـهَـا لَـخِـلْـتُـهَـا تَـفِـلَـهْ[١]

أَنَـا ٱبْـنُ مَـنْ بَـعْـضُـهُ يَـفُـوقُ أَبَـا الْـ
بَـاحِـثِ وَالـنَّـجْـلُ بَـعْـضُ مَـنْ نَـجَـلَـهْ[٢]

وَإِنَّـمَـا يَـذْكُـرُ الْـجُـدُودَ لَـهُـمْ
مَـنْ نَـفَـرُوهُ وَأَنْـفَـذُوا حِـيَـلَـهْ[٣]

فَـخْـراً لِـعَـضْـبٍ أَرُوحُ مُـشْـتَـمِـلَـهْ
وَسَـمْـهَـرِيٍّ أَرُوحُ مُـعْـتَـقِـلَـهْ[٤]

وَلْـيَـفْـخَـرِ الْـفَـخْـرُ إِذْ غَـدَوْتُ بِـهِ
مُـرْتَـدِيـاً خَـيْـرَهُ وَمُـنْـتَـعِـلَـهْ[٥]

---

(١) خلط: مزج. العبير: أخلاط من العطر. التفلة: ذات ريح نتن. تحلو الديار بساكنيها، فإذا خلت من الأحبَّة استحالت إلى أرض موبوءة حتى ولو خالطها العبير وساح في أرجائها، ففي نظر المحبّ تبدو قفراء منتنة.

(٢) و (٣) مشكلة الانتساب في العصر العباسي كانت من أسباب التفاضل في السلَّم الاجتماعي، فالكثيرون من فرس وعجم وغيرهم ينتسبون إلى أعراق شريفة من قومهم أو من العرب، ولا شكّ أن المتنبي عانى من تلك المشكلة في مجتمع يبني علاقات البشر على هذا الأساس. إنه يفخر على من يبحث عن أصله، فوالد المتنبي فوق من يُفتش في تاريخ أسرة الشاعر، وبالتالي فالمتنبي فوق ذلك الباحث، لأن الولد سرّ أبيه. وهو يرى أن التفاضل، فضلاً تفوّق الآباء، وهذا مدعاة للفخر، إلّا أن الفخر الصحيح أن يعلو المرء بنفسه ويفخر بمنجزاته وعلوّ شأنه، فيزيد رصيداً على رصيد أجداده.

(٤) العضب: السيف البتّار. اشتمله: جعله تحت ثوبه. معتقله: واضعه بين ساقه وركابه. السمهري: الرمح. قلب الشاعر المقاييس، فالفخر للعضب أن يشتمل عليه الشاعر، فالشاعر ليس كأحد من البشر إنه المتنبي وكذلك بالنسبة للرمح فمن حسن حظه أن يستعين به الشاعر، وهذا أعلى مكانة بين جنس الرماح.

(٥) يروى «حبره» بدلاً من «خيره» أي زينته وجماله، إنه فخر المتعالي، وعليه فيجب أن يفتخر الفخر بأن الشاعر ارتداه زيًّا له، ومن حسن حظه أن رضي الشاعر أن ينتعله حذاءً له.

أَنَـــا الَّــذِي بَــيَّــنَ الإِلٰــهُ بِــهِ الـــ
أَقْــدَارَ وَالْــمَــرْءُ حَــيْــثُــمَــا جَــعَــلَــهْ(١)
جَــوْهَــرَةٌ يَــفْــرَحُ الْــكِــرَامُ بِــهَــا
وَغُــصَّــةٌ لَا تُــسِــيــغُــهَــا الــسَّــفِــلَــهْ(٢)
إِنَّ الْــكِــذَّابَ الَّــذِي أُكَــادُ بِــهِ
أَهْــوَنُ عِــنْــدِي مِــنَ الَّــذِي نَــقَــلَــهْ(٣)
فَــلَا مُــبَــالٍ وَلَا مُــدَاجٍ وَلَا
وَانٍ وَلَا عَــاجِــزٌ وَلَا تُــكَــلَــهْ(٤)
وَدَارِعٍ سِــفْــتُــهُ فَــخَــرَّ لَــقًــى
فِــي الْــمُــلْــتَــقَــى وَالْــعَــجَــاجِ وَالْــعَــجَــلَــهْ(٥)

---

(١) يفخر الشاعر أنه منحة الإله للممدوحين الذين يكتشفهم ويُسبغ عليهم من الفضائل ما يستحقُّون فيرفع من قيمهم، كما أنه يضع من قيم أناس بخلاء وضعتهم الحياة في غير مواضعهم فأساؤوا إلى تلك المواضع. نوّه الشاعر بما فضله اللّه عزّ وجلّ على كثير من البشر، وتلك حقيقة لا تُنكر.

(٢) الغصّة: ما يعلق في حلق المرء من طعام يؤذيه أو سواه. تسيغها: تبتلعها. السفلة: الرعاع من العامة. يُتابع الشاعر حديثه عن نفسه، إنه جوهرة نادرة يُعلقها الزمان حيث تُزيّن المحظوظين من الممدوحين فيفرحون بالعثور عليها من بين ركام هائل من مدّعي الكلمة، وهو في نفس الوقت شجى في حلوق السفلة اللئام من الحساد الذين حاولوا الحطّ من قيمته ليستسيغوه، فإذا به يخنقهم ولم يستطيعوا ابتلاعه.

(٣) و (٤) يعرّض الشاعر بناقل حديث كاذب، فلن يكيد له بذلك ولن يُنقص من شأنه ولن يحطّ من قيمته، وناقل الأكاذيب لا يُساوي شيئاً في نظر الشاعر، فهو لا يهتم ولا يُبالي بما نقل إلى أبي العشائر من كذب زائف، ولن يُساير على حسابه مهما تكن النتائج، وهو ليس بضعيف بل هو قويّ يستطيع أن يردّ كيد الكائدين إلى نحورهم، وهو بالتالي ليس اتّكالياً، بل إنه يقوم بعمل ما يجب أن يقوم به.

(٥) الدارع: الذي يرتدي درعاً. ساف: ضرب بالسيف. اللقى: المطروح أرضاً. العجاج: الغبار. العجلة: التسرّع. ومن دواعي فخر الشاعر أنه بطل، فقد أودى بحياة بطل يتحصّن بدرع ارتداه، فأدى به إلى الردى بسيفه متعفراً بالتراب والغبار يتصاعد في السماء في معركة طاحنة، ولقد أسرع إلى حتفه، فلقي ما سعى إليه برجليه.

وَسَـامِـعٍ رُعْـتُـهُ بِـقَـافِـيَـةٍ
يَـحَـارُ فِـيـهَـا الْـمُـنَـقِّـحُ الْـقُـوَلَـهْ[(١)]

وَرُبَّـمَـا أُشْـهِـدُ الـطَّـعَـامَ مَـعِـي
مَـنْ لَا يُـسَـاوِي ٱلْـخُـبْـزَ الَّـذِي أَكَـلَـهْ[(٢)]

وَيُـظْـهِـرُ ٱلْـجَـهْـلَ بِـي وَأَعْـرِفُـهُ
وَالـدُّرُّ دُرٌّ بِـرَغْـمِ مَـنْ جَـهِـلَـهْ[(٣)]

مُـسْـتَـحْـيِـياً مِـنْ أَبِـي الْـعَـشَـائِـرِ أَنْ
أَسْـحَـبَ فِـي غَـيْـرِ أَرْضِـهِ حُـلَـلَـهْ[(٤)]

أَسْـحَـبُـهَـا عِـنْـدَهُ لَـدَى مَـلِـكٍ
ثِـيَـابُـهُ مِـنْ جَـلِـيـسِـهِ وَجِـلَـهْ[(٥)]

وَبِـيـضُ غِـلْـمَـانِـهِ كَـنَـائِـلِـهِ
أَوَّلُ مَـحْـمُـولِ سَـيْـبِـهِ الْـحَـمَـلَـهْ[(٦)]

---

(١) رعته: أعجبته. المنقح: المصحح الذي يميّز بين الصحيح والرديء من القول. القولة: من يجيد الكلام. يفخر الشاعر بموهبته الشعرية، فهو يُفاجئ الكثيرين من المتفوّقين في عالم الكلمة؛ فثمّة سامع أدهشه ما يسمعه من جميل شعر المتنبي فأبهته بقصائده، فتكون سبب حيرة العالم بفنون الكلام المطّلع على جميل القول وفصيحه.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٥. يروى «يشهد» بدلاً من «أشهد». يُندد الشاعر بمن وشى به، وينوّه بتواضعه وكرمه، ومن الجائز أن يُشارك المأكل من لا يساوي الخبز الذي يأكل، لأن الخبز أكثر قيمة في نظره من آكله.

(٣) يُردف الشاعر أن هذا الحاسد يتغافل ويتجاهل الشاعر والشاعر على علم بما يُخفي هذا المرء من كراهية، ولكن الأمر بالدّر والدّرّ يتلألأ ضياءً وإشراقاً، إنه الشاعر مشهور معروف من سائر الناس.

(٤) و (٥) الحلل: الأثواب. وجلة: خائفة. يُخاطب الشاعر أبا العشائر بأنه يستحي أن يلبس خلع ممدوحه في بلاد غير بلده، فتكريم الممدوح أن يرى على الشاعر ما تفضّل به عليه، وهويته بما يرتدي أمام من يشعر بالوجل والخوف، فحتى الأردية الممنوحة تشعر كذلك بالوجل من مانحها.

(٦) النائل: الهبة. السيب: العطاء. ولمعرفة مدى جود أبي العشائر يطلعنا الشاعر على =

مَـــا لِـــيَ لا أَمْـــدَحُ ٱلْـــحُـــسَـــيْـــنَ وَلا
أَبْـــذُلُ مِـــثْـــلَ الْـــوُدِّ الّـــذِي بَـــذَلَـــهُ(١)

أَأَخْـــفَـــتِ الْـــعَـــيْـــنُ عِـــنْـــدَهُ خَـــبَـــراً
أَمْ بَـــلَـــغَ الْـــكَـــيْـــذُبَـــانُ مَـــا أَمَـــلَـــهْ(٢)

أَمْ لَـــيْـــسَ ضَـــرَّابَ كـــلِّ جُـــمْـــجُـــمَـــةٍ
مَـــنْـــخُـــوَّةٍ سَـــاعَـــةَ الْـــوَغَـــى زَعِـــلَـــهْ(٣)

وَصَـــاحِـــبَ الْـــجُـــودِ مَـــا يُـــفَـــارِقُـــهُ
لَـــوْ كَـــانَ لِـــلْـــجُـــودِ مَـــنْـــطِـــقٌ عَـــذَلَـــهْ(٤)

وَرَاكِـــبَ ٱلْـــهَـــوْلِ لا يُـــفَـــتِّـــرُهُ
لَـــوْ كَـــانَ لِـــلْـــهَـــوْلِ مَـــحْـــزِمٌ هَـــزَلَـــهْ(٥)

= أن ممدوحه يهب الغلمان البيض ويحملهم الهبات إلى بيوت من يهديهم عطاياه.

(١) يُقدّم الشاعر اعتذاره، مقرًّا بالتقصير، لذا فسيمدح الحسين وسيبذل له من الحبّ ما يستحقّه، لأنه لم يُقصّر نحوه، فقد قدّم له الكثير من فضله.

(٢) الكيذبان: الكذاب. العين: الرقيب. الشاعر في حيرة من أمره، فهو لا يعرف الدخول إلى عقل الأمير وسيلة سوى المنطق السليم، فثمّة من ينقل له الأكاذيب ويخترعها، والردّ على ذلك بالتأكيد على إخلاص الودّ والاستمرار بمدح الأمير، وبذلك يتمّ تكذيب الكاذب.

(٣) منخوّة: ذات نخوة. الوغى: الحرب. زعلة: نشيطة. يُحيل الشاعر الممدوح ليبطش بأمثال هؤلاء، وهو الذي يضرب بسيفه رؤوس الأعداء المتجبّرين، فبإمكانه أن يقطع دابر كل متكبّر في ميدان المعركة.

(٤) عذل: لام. يمدح الشاعر الممدوح بأنه صاحب الجود، والصاحب ملازم لصاحبه، والجود بدوره ساكت على أفعاله في تبذير أمواله، فلو قدر على التصريح والنطق بما يرى للامه على ذلك.

(٥) الهول: العظيم من الأمور الجسام. يفتّره: يحدّ من عزيمته. فيتراخى المحزّم: ما يشدّ الحزام من جسم الدابة. يمدح الشاعر ممدوحه بالأخذ بالحزم، إنه شجاع يركب الأهوال ولا يتعب من ممارسة الحروب، حتى إن الهول لكثرة ركوبه لو كان له حزام لأضنته الحروب ودبّ به الهزال، فحياة الممدوح تسير على وتيرة واحدة.

وَفَــارِسَ الأَحْــمَــرِ الــمُــكَــلَّــلَ فــي
طَــيِّــىءٍ الــمُــشْــرَعَ الْــقَــنَــا قِــبَــلَــهْ(١)

لَــمَّــا رَأَتْ وَجْــهَــهُ خُــيُــولُــهُــمُ
أَقْــسَــمَ بِــالــلَّــهِ لا رَأَتْ كَــفَــلَــهْ(٢)

فَــأَكْــبَــرُوا فِــعْــلَــهُ وَأَصْــغَــرَهُ
أَكْــبَــرُ مِــنْ فِــعْــلِــهِ الَّــذِي فَــعَــلَــهْ(٣)

الْــقَــاطِــعُ الْــوَاصِــلُ الْــكَــمِــيــلُ فَــلَا
بَــعْــضُ جَــمِــيــلٍ عَــنْ بَــعْــضِــهِ شَــغَــلَــهْ(٤)

فَــوَاهِــبٌ وَالــرِّمَــاحُ تَــشْــجُــرُهُ،
وَطَــاعِــنٌ وَالْــهِــبَــاتُ مُــتَّــصِــلَــهْ(٥)

---

(١) و (٢) الأحمر: جواد الممدوح في وقعة أنطاكية. المكلّل: الجاد في مسعاه. شرّع القنا: وجّه الرمح. قبله: نحوه. يصف الشاعر ما فعله أبو العشائر في معركة أنطاكية، فقد كان يصول ويجول على فرسه الأحمر المنطلق بقوّة في الميدان، وقد شرّع رمحه نحو عدوّه، يُنذر بالموت المحتم، وهاهم أولاء أمامه، فإذا بالفرس ينحدر نحوهم، وقد أقسم الممدوح أنه لن يعود عنهم إلّا وهم رقود قتلى معفّرون بالتراب.

(٣) ثمّة موقف أمام ما يقوم به الممدوح، فالأعداء يستغربون ما يقوم به الممدوح، إنه في نظرهم عظيم كبير، بينما هو يراه صغيراً تافهاً فباستطاعته أن يفعل الأفاعيل ويُعطي من نفسه أكثر بكثير مما يرون.

(٤) يروى «القائل» بدلاً من «القاطع» كما يروى «القاتل». يمدح الشاعر ممدوحه بصفات محبّبة لدى الممدوحين، إنه لا يتردّد بأمر من الأمور، فيقطع بها عندما يتطلّب ذلك ويصل في حال وجوب ذلك، ولقد اجتمعت له الفضائل كلها، وهو يمضي بفعل العظائم من الأمور، فإذا ما انتهى من أحدها بادر إلى خير منها وأفلح في ذلك.

(٥) وردت الأبيات الثلاثة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٣٨. تشجره: تخالطه. الهبات، الواحدة هبة: العطايا. ما يشغل بال الممدوح الجود فلا ينقطع حتى في حال اشتعال الحروب ومصادمته للأقران وهم يُوجّهون رماحهم إلى صدره، والقتال والاستعداد له حتى وهو يُوزّع هباته على مستحقيها.

وَكُلَّمَا أمَّنَ الْبِلَادَ سَرَى
وَكُلَّمَا خِيفَ مَنْزِلٌ نَزَلَهْ[(١)]

وَكُلَّمَا جَاهَرَ الْعَدُوَّ ضُحًى
أمْكَنَ حَتَّى كَأنَّهُ خَتَلَهْ[(٢)]

يَحْتَقِرُ الْبِيضَ وَاللِّدَانَ إذَا
سَنَّ عَلَيْهِ الدِّلَاصَ أوْ نَثَلَهْ[(٣)]

قَدْ هَذَّبَتْ فَهْمَهُ الْفَقَاهَةُ لِي
وَهَذَّبَتْ شِعْرِيَ الْفَصَاحَةُ لَهْ[(٤)]

فَصِرْتُ كَالسَّيْفِ حَامِداً يَدَهُ
لَا يَحْمَدُ السَّيْفُ كُلَّ مَنْ حَمَلَهْ[(٥)]

---

(١) يروى «آمن» بدلاً من «أمّن». يمدح الشاعر ممدوحه بأنه مصدر أمن لرعاياه، فحيثما نزل استتبّ الأمن وعاش السُّكان في ظله برعايته وحمايته، وهو يستعدّ لغزو الأعداء يسري إليهم ليلاً فيُفاجئهم، كما أنه لا يتوانى على النزول في مواطن المخافة فيجعل فيها الأمن يستقرّ بوجوده.

(٢) ختل: خدع. يتحدث الشاعر عن سلوك ممدوحه في مواجهة عدوّه؛ فهو يحاربهم دون مواربة أو خديعة، جهاراً وعلانية، ومع ذلك فيبدو كأنه يُخادعهم فيأخذهم وكأنهم في غفلة، فأمكنوه من أنفسهم، وكان الظفر بهم له.

(٣) البيض: السيوف. اللدان: الرماح اللينة. سنّ: صب واكتسى. الدلاص: الدرع اللينة. نثل: ألقى عن. يروى «شنّ» بالشين بدلاً من «سن» بالسين. ولثقة الممدوح بشجاعته، فإنه يحتقر السيوف والدروع اللدنة، سواء ارتدى درعه أم ألقاها عنه، فالأمر عنده سواء في حال محاربته عدوّه.

(٤) الفقاهة: الفهم والعلم والذكاء. هذّب: صقل. إنها عملية تكامل بين الممدوح وشاعره؛ فكلّ منهما يُتمّم الآخر؛ فقد أوتي أبو العشائر فهماً وذوقاً وعلماً، كان من نتيجة ذلك أن قدّر شاعره حقّ قدره فأمكنه أن يفهم شعره، وكان ذلك سبباً يُساعده على صقل شعره وتهذيبه لما اتّصف به الممدوح من حسن الشمائل والخصال الحميدة.

(٥) أدّى تآلف الشاعر مع ممدوحه إلى عدم الاستغناء عنه لحاجة كلّ منهما للآخر، إنه =

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا

وقال يمدح سيف الدولة عند رحيله من أنطاكية وقد كثر المطر:

[الوافر]

رُوَيْــدَكَ أَيُّــهَـا الـمَـلِـكُ الْـجَـلِـيـلُ
تَــأَنَّ وَعُــدَّهُ مِــمَّــا تُــنِـيــلُ(١)

وَجُــودَكَ بِــالْـمُـقَـامِ وَلَــوْ قَـلِـيـلاً
فَـمَـا فِـي مَـا تَـجُـودُ بِـهِ قَـلِـيـلُ(٢)

لِأَكْــبُــتَ حَــاسِــداً وَأَرَى عَــدُوًّا
كَــأَنَّــهُــمَــا وَدَاعُــكَ وَالــرَّحِــيــلُ(٣)

وَيَــهْــدَأُ ذَا الــسَّـحَـابُ فَـقَـدْ شَـكَـكْـنَـا
أَتَــغْــلِــبُ أَمْ حَــيَــاهُ لَــكُــمْ قَــبِــيــلُ(٤)

وَكُــنْــتُ أَعِــيــبُ عَــذْلاً فــي سَــمَــاحٍ
فَــهَــا أَنَــا فــي الــسَّــمَــاحِ لَــهُ عَــذُولُ(٥)

= بمثابة السيف الذي يُقاتل به فيحمد اليد التي تحمله، والسيف بطبيعة الحال لا يحمد إلّا من يستحقّ الحمد، لذا فلا يحمد من يتظاهر بأنه بطل وإن حمله.

(١) و (٢) رويدك: تمهّل وتأنّ. تُنيل: تُعطي. يخاطب الشاعر سيف الدولة متوسّلاً منه أن يتمهّلَ، وألّا يُسارع في الرحيل، فذلك منه بمثابة هبة قيّمة ولو كانت الإقامة لفترة وجيزة؛ إنه طلب لا يُكلّف الممدوح شيئاً ولا يُثنيه عن طموحه وأعماله العظيمة التي تُؤثر عنه، ومع ذلك فهو عظيم في نظر الشاعر.

(٣) الكبت: الإفحام. أرى: أصيب رئته. ثمّة سبب وجيه جعل الشاعر يطلب من ممدوحه التريّث والبقاء ليكبت أعداءه وحسداه ويُسكتهم ويُغيظهم ويكوي أكبادهم، فكلّ من الأعداء والحساد والرحيل والوداع بغيض على النفس، كريه على القلوب.

(٤) تغلب: قبيلة الممدوح. الحيا: المطر. القبيل: العشيرة. يُلحّ الشاعر على ممدوحه بالبقاء حتى ينقطع المطر وينقشع الغيم حياءً من كرم الممدوح الذي ينهمر غزيراً، ويحتار الشاعر في تعليل ظاهرة الكثرة، أهي تتمثل بالسحاب المتراكم ومائه الغزير الكثير أم هي تتمثل بكثرة أفراد عشيرة الممدوح التغلبية؟

(٥) العذل: اللوم. السماح: الكرم، موقفان متناقضان، في البدء كان الشاعر يلوم من =

وَمَــا أَخْـشَـى نُـبُـوَّكَ عَـنْ طَـرِيـقٍ
وَسَـيْـفُ الـدَّوْلَـةِ الْـمَـاضِـي الـصَّـقِـيـلُ(١)

وَكُــلُّ شَـوَاةِ غِـطْـرِيـفٍ تَـمَـنَّـى
لِـسَـيْـرِكَ أَنَّ مَـفْـرِقَـهَـا الـسَّـبِـيـلُ(٢)

ومِـثْـلِ الْـعَـمْـقِ مَـمْـلُـوءٍ دِمَـاءً
جَـرَتْ بِـكَ فِـي مَـجَـارِيـهِ الْـخُـيُـولُ(٣)

إِذَا ٱعْـتَـادَ الْـفَـتَـى خَـوْضَ الْـمَـنَـايَـا
فَـأَهْـوَنُ مَـا يَـمُـرُّ بِـهِ الْـوُحُـولُ(٤)

وَمَـنْ أَمَـرَ الْـحُـصُـونَ فَـمَـا عَـصَـتْـهُ
أَطَـاعَـتْـهُ الْـحُـزُونَـةُ وَالـسُّـهُـولُ(٥)

= يعذل على عظم كرم سيف الدولة، ولكن استمرار دفق عطائه جعل الشاعر يلوم ممدوحه على الإسراف في العطاء.

(١) النبو: الكلال. يعبّر عن حقيقة مشاعره مقدّراً ممدوحه؛ إنه على يقين أن سيف الدولة لا يحول دون رحيله مطر غزير، وهو سيف يقطع بمضاء دون تردّد وبلا فتور أو كلال، ولكن الأمر يتعلّق بالحبّ الذي يربطه به.

(٢) الشواة: جلدة الرأس، الغطريف: سيد القوم وشريفهم. المفرق: وسط الرأس. ومن مغالاة الشاعر أن السادة الشرفاء يتمنّون أن يجعلوا مفارق رؤوسهم موطئاً لقدمي الممدوح وطريقاً لسيره؛ وذلك يعدّونه تشريفاً لهم، وهم لا يجدون في ذلك غضاضة.

(٣) العمق: الغور من الأرض. لا يُراود الشاعر شكّ بأن سيف الدولة لا يمنعه شيء عن الرحيل، فقد يُوجد من الأمكنة ما هو عميق الغور، وقد كثرت قتلى الأعداء وغطّت دماؤهم الأرض، ومع ذلك فقد عبر الممدوح فوق جثثهم، لذا فإنه لا يخاف عليه من قطع طريق والمطر ينهمر بغزارة.

(٤) يُردف الشاعر معقباً على كلامه أنه اعتاد على خوض الحروب، حيث تكثر جثث القتلى، فمن السهل عليه أن يمرّ بأراض موحلة.

(٥) الحزونة، الواحدة حزن: ما غلظ من الأرض وصعب. يُردف الشاعر معقباً على كلامه مادحاً سيف الدولة، فقد تصدّى لحصون الأعداء ففتحها ودخل عنوة ورغمة ولم تعصه، ولقد عبر ما صعب من الأرض، سواء أكانت سهلاً أم جبلاً فلم تتمرّد عليه بل هي أطاعت صاغرة.

أَتَـخْـفِـرُ كُـلَّ مَـنْ رَمَـتِ الـلَّـيَـالِـي
وَتُـنْـشِـرُ كُـلَّ مَـنْ دَفَـنَ الْـخُـمُـولُ (١)

وَنَـدْعُـوكَ الْـحُـسَـامَ وَهَـلْ حُـسَـامٌ
يَـعِـيـشُ بِـهِ مِـنَ الـمَـوْتِ الْـقَـتِـيـلُ (٢)

وَمَـا لِـلـسَّـيْـفِ إلّا الْـقَـطْـعَ فِـعْـلٌ
وَأَنْـتَ الـقَـاطِـعُ الـبَـرُّ الْـوَصُـولُ (٣)

وَأَنْـتَ الْـفَـارِسُ الْـقَـوَّالُ صَـبْـراً
وَقَـدْ فَـنِـيَ الـتَّـكَـلُّـمُ وَالـصَّـهِـيـلُ (٤)

يَـحِـيـدُ الـرُّمْـحُ عَـنْـكَ وَفِـيـهِ قَـصْـدٌ
وَيَـقْـصُـرُ أَنْ يَـنَـالَ وَفِـيـهِ طُـولُ (٥)

---

(١) تخفر: تجير وتحمي. تنشر: تبعث من جديد حيًا. الخمول: سقوط الذكر. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه يُقيل عثرة من نُكب، وجارت عليه الأيام بلياليها المظلمة، فأخذ بيده وأنار طريقه بإنعامه، وبأنه يبعث من دفن في مقبرة الخمول فأعانه مادًا إليه لينهض ويُساعده حتى يرى النور من جديد وينبه ويعلو ذكره بين البشر.

(٢) و (٣) الحسام: السيف البتّار. البرّ: المحسن. الوصول: الذي يصل الناس فيمدهم بالعطاء والمساعدة. يُخاطب الشاعر ممدوحه، إنه يدعى الحسام، واسمه يُرعب الأبدان والنفوس، ولكن الأمر بالنسبة إليه أنه حسام يقطع دابر الفقر من أربابه بجوده وإحسانه فيردّ إليهم اعتبار إنسانيتهم. وحقاً إن السيف أداة قطع، ولكنه سيف ذو حدّين، فحدّ يقطع قلوب الأعداء بصولته ويُودي بهم إلى الهلكة، وحدّ يصل الأحبّة والأصدقاء برفده وحمايته وتكريمهم بما يقدّم لهم من حماية وعطاء.

(٤) ويُردف الشاعر مادحاً سيف الدولة بالجلد والصبر في ساعات الضيق والحرج؛ فإذا ما اشتدّ أُوار المعركة، والموقف عصيب ثبت ورسخ رسوخ الجبال الشامخة وراح يُثير في صحبه روح الصبر، والكلّ صامت قد تملكه إحساس الخوف، فالرجل منهم واجم فهو لا يستطيع النطق، والفرس نسي الصهيل أيضاً.

(٥) ويُردف الشاعر مادحاً سيف الدولة بالمهابة، لذا فرماح الأبطال تتحاماه لهيبته وقوّة فتكه، ورغم محاولاتهم الإيقاع به ولكن محاولاتهم تبوء بالفشل، فرغم طول الرمح فإنه يتقاصر حالما يُوجّه إلى الأمير.

فَـلَـوْ قَـدَرَ الـسِّـنَـانُ عَـلَـى لِـسَـانٍ
لَـقَـالَ لَـكَ الـسِّـنَـانُ كَـمَـا أَقُـولُ[(١)]
وَلَـوْ جَـازَ الْـخُـلُـودُ خَـلَـدْتَ فَـرْداً
وَلٰـكِـنْ لَـيْـسَ لِـلـدُّنْـيَـا خَـلِـيـلُ[(٢)]

يدفّن بعضنا بعضاً

يرثي والدة سيف الدولة ويعزيه بها في سنة سبع وثلاثين وثلاث مئة (٩٤٨م) :

[الوافر]

نُـعِـدُّ الْـمَـشْـرَفِـيَّـةَ وَالْـعَـوَالِـي
وَتَـقْـتُـلُـنَـا الْـمَـنُـونُ بِـلَا قِـتَـالِ[(٣)]
وَنَـرْتَـبِـطُ الـسَّـوَابِـقَ مُـقْـرَبَـاتٍ
وَمَـا يُـنْـجِـيـنَ مِـنْ خَـبَـبِ الـلَّـيَـالِـي[(٤)]

---

(١) ورد البيت في : الخصائص، لابن جني : ١ : ٢٤. السنان : الرمح . يُردف الشاعر متمًّا فكرته من أن السنان يعجز عن النطق والتصريح بما يُحسّ لو كان لديه إحساس لنطق وصرّح بما يُصرّح به الشاعر في مدحه وثنائه .

(٢) يخاطب الشاعر سيف الدولة ، وفي نفسه حسرة ، فالخلود على وجه الأرض ليس من طبيعة البشر ، ورغم ما يمتاز به من مزايا أخلاقية وجود وعلم للأسف فإن الموت سيخيفه ، وذلك من طبع الدنيا فلا يسلم من غدرها أحد .

(٣) المشرفية ، السيوف . العوالي : الرماح . المنون : الموت . يعمل الإنسان كلّ ما بوسعه ليحمي نفسه من الموت فيستعين بأدوات الموت لدفعه عنه ؛ سيوف ورماح يدفع بواسطتها أعداءه من بشر وحيوان ، ولكن الموت يتسرّب إلى نفوس البشر بهدوء فيخترمهم واحداً تلو الآخر بلا قتال .

(٤) السوابق : الخيول . المقربات : المعدّة للاستعمال وقت الحاجة . الخبب : ضرب من عدو الخيول ، وليتلافى المرء غدرات الموت يأخذ بالأسباب ، إنه يأخذ حذره ، فإذا به يربط الخيول إذا فاجأه عدوّ ليمتطيها بسرعة ويردّ الكيد عنه إلى نحر عدوه ، وتمرّ الأيام سراعاً كأنها خيول في سباق دائم ، وإذا ما صادفت بطريقها ضحيّتها أودت بها إلى الهلكة ، عندئذٍ لا منجاة .

وَمَــنْ لَــمْ يَــعْـشَــقِ الــدُّنْــيَــا قَــدِيــمــاً
وَلٰــكِــنْ لَا سَــبِــيــلَ إِلَــى الْــوِصَــالِ(١)

نَــصِــيــبُــكَ فِــي حَــيَــاتِــكَ مِــنْ حَــبِــيــبٍ
نَــصِــيــبُــكَ فِــي مَــنَــامِــكَ مِــنْ خَــيَــالِ(٢)

رَمَــانِــي الــدَّهْــرُ بِــالْأَرْزَاءِ حَــتَّــى
فُــؤَادِي فِــي غِــشَــاءٍ مِــنْ نِــبَــالِ(٣)

فَــصِــرْتُ إِذَا أَصَــابَــتْــنِــي سِــهَــامٌ
تَــكَــسَّــرَتِ الــنِّــصَــالُ عَــلَــى الــنِّــصَــالِ(٤)

وَهَــانَ فَــمَــا أُبَــالِــي بِــالــرَّزَايَــا
لأَنِّــي مَــا ٱنْــتَــفَــعْــتُ بِــأَنْ أُبَــالِــي(٥)

---

(١) وردت الأبيات العشرة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٤. يُتابع الشاعر وفي نفسه حسرة أن الدنيا حلوة غرّارة، فكلّ من ورد عليها عشقها حتى العبادة، ومن لم يفعل ذلك فليس من أبنائها، وديدنها منذ كانت وحتى قيام الساعة لا تُغيّر مسلكها مع بني البشر، فلا يدوم لها وصال فغدرها أهم مصادر استمرارها، فلا تدوم على ودّ وتتداول أسراب البشر سراعاً إلى أقدارهم.

(٢) ومن غريب الأمور أن كلّ ما يُحبّه المرء سريع الاختفاء، فلا دوام لما هو جميل، فسرعان ما يفتقد الحبيب حبيبه كأنه في منام، فإذا صحا منه التفت ليجد حبيبه قد اختطفه الموت من بين يديه، والحياة كأنها حلم سرعان ما تتبدّد خيوطه من أيدي البشر ويصحو الإنسان فيدركه الموت مع خيوط الفجر الأولى؛ إنها الصحوة الأخيرة.

(٣) الأرزاء، الواحد رزء: المصائب والويلات. الغشاء: الغطاء. إنه صدق التجربة، يكشف الشاعر عن معاناة حقيقية توالت أحداثها في شريط حياته، لقد كانت هدفاً تتوالى عليها المصائب والويلات، فنبالها تُصيب قلباً مزّقته طوارق الأيام والأحداث، فإذا بذلك الغشاء الرقيق قد مزّقته نبال لا تُعرف مصادرها، وكلّها تمكّنت منه وأصابت مقتله.

(٤) و (٥) النصال، الواحدة نصلة: الحديدة في رأس السهم. يُتابع الشاعر تصوير المأساة التي يقع الإنسان ضحيتها، وملء قلبه حسرة ولوعة؛ تتوالى المصائب، فإذا بالسهام توجّه إليه من كلّ جانب وصوب قاصدة قلباً مفعماً بالآلام والأحزان، ولم يعد هناك =

وَهٰــــذَا أَوَّلُ الـــنَّـــاعِـــيـــنَ طُـــرًّا
لأَوَّلِ مَـــيْـــتَـــةٍ فِـــي ذَا الْـــجَـــلَالِ(١)

كَـأَنَّ الـمَـوْتَ لَـمْ يَـفْـجَـعْ بِـنَـفْـسٍ
وَلَـمْ يَـخْـطُـرْ لِـمَـخْـلُـوقٍ بِـبَـالِ(٢)

صَـلَاةُ ٱلـلَّـهِ خَـالِـقِـنَـا حَـنُـوطٌ
عَـلَـى ٱلْـوَجْـهِ الْـمُـكَـفَّـنِ بِـالْـجَـمَـالِ(٣)

عَـلَـى الـمَـدْفُـونِ قَـبْـلَ الـتُّـرْبِ صَـوْنـاً
وَقَـبْـلَ الـلَّـحْـدِ فـي كَـرَمِ ٱلْـخِـلَالِ(٤)

فَـإِنَّ لَـهُ بِـبَـطْـنِ الأَرْضِ شَـخْـصـاً
جَـدِيـداً ذِكْـرُنَـاهُ وَهْـوَ بَـالِ(٥)

= من مكان لم تصبه بمقتل، ومع ذلك فإن النبال تتدافع بقوة فإذا بها لا تجد مكاناً سوى ما سبقها من سهام فتتكسر السهام على بعضها، والعادة تُميت الإحساس بالتجدّد لدى المرء فلا يهتمّ بما قد يحصل له في ما بعد، فإذا به يقع فريسة اللامبالاة، وينتهي به الأمر إلى الاستسلام.

(١) طرًّا: جميعاً. يروي الشاعر نبأ موت والدة سيف الدولة، فقد حمله ناعٍ إلى أنطاكية حيث كان يمكث. إنه موت أفضل نساء زمانها وأجلهن ولم يحدث لامرأة ماتت أفضل منها.

(٢) إنه موقف استغراب، فتصديق الخبر لا يحتمل تكذيباً، ومع ذلك فالناس في حالة اندهاش كأنهم لا يعتقدون بأن كبار أقوامهم لا يموتون ويروحون يرجمون بالغيب ويُقلّبون الأمور على وجوهها وكأن الموت لم يخترم أحداً قبلها.

(٣) الحنوط: خليط من الطيوب يُحلى ويُضمّخ بها الميت بعد غسله. يتمنّى الشاعر للفقيدة المغفرة والرحمة ويدعو لها بالقبول الحسن لدى بارئها، هاهي قد هيّئت بعد غسلها وقد ضمخت وحلّيت بالطيوب، فإذا بوجه جميل مشرق بالضياء، وفي ذلك استبشار بأن الفقيدة من أهل الجنان.

(٤) اللحد: الشقّ في جانب القبر. الخلال: الصفات. يُنوّه الشاعر بمزايا الفقيدة، فقد كانت من المصونات العفيفات تمتاز بكرم الأخلاق وجميل الصفات، فكيف يُمكن أن تُدفن كلّ تلك الفضائل في التراب؟ وهل يُعقل أن يكون ذلك؟

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٤. إنه منطق الأحداث فإذا دفن =

أَطَـابَ الـنَّـفْـسَ أَنَّـكِ مُـتِّ مَـوْتـاً
تَـمَـنَّـتْـهُ الْـبَـوَاقِـي وَالْـخَـوَالِـي (١)

وَزُلْـتِ وَلَـمْ تَـرَيْ يَـوْمـاً كَـرِيـهـاً
يُـسَـرُّ الـرُّوحُ فِـيـهِ بِـالـزَّوَالِ (٢)

رِوَاقُ الْـعِـزِّ حَـوْلَـكِ مُـسْـبَـطِـرٌّ
وَمُـلْـكُ عَـلِـيٍّ ٱبْـنِـكِ فِـي كَـمَـالِ (٣)

سَـقَـى مَـثْـوَاكِ غَـادٍ فِـي الْـغَـوَادِي
نَـظِـيـرُ نَـوَالِ كَـفِّـكِ فِـي الـنَّـوَالِ (٤)

لِـسَـاحِـيـهِ عَـلَـى الأجْـدَاثِ حَـفْـشٌ
كَـأَيْـدِي ٱلْـخَـيْـلِ أَبْـصَـرَتِ الـمَـخَـالِـي (٥)

= المرء في مثواه الأخير، فقد دخل في عالم الفناء، ولا يبقى منه سوى ذكراه، فإن كان صالحاً أو ترك شيئاً ما كولد أو علم أو عمل صالح يُذكر بذكر ما ترك، وبذلك تتجدّد ذكراه في قلوب بني جلدته.

ـ ثمَّة بيت ورد بعد هذا البيت لم يرد في الديوان، وهو التالي:

وَمَـا أَحَـدٌ يُـخَـلَّـدُ فـي الـبَـرَايَـا بَـلِ الـدُّنْـيـا تـؤولُ إلـى زوالِ

(١) و (٢) الخوالي: الماضية. يُخاطب الشاعر الفقيدة، فما يدخل العزاء إلى القلوب أنها ماتت مصونة عفيفة، فلم يحدث لمن مضى من النسوة ومن بقيت منهن تودّ لو ماتت ميتتها في عزّ وقد حازت خيري الدنيا والآخرة؛ فقد عاشت حياة هانئة لم يُعكّر صفوها كدر بحيث تتمنّى الموت لتتخلص من المآسي التي تتعرّض لها، فلو كان ذلك لكان الموت راحة لها.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٤. المسبطر: الممتد. يروى «مستظل» و«مستطيل» بدلاً من «مسبطر». يردف الشاعر أن الفقيدة قد شهدت ما كان عليه ملك ابنها من عزّ وازدهار نعمت به، ثم ماتت وهو ينعم بسلطان مبين زاهر ممتد. إنها ميتة يتمنّاها كلّ إنسان.

(٤) المثوى: المنزل، وهو يقصد بذلك قبرها. الغادي: السحاب المفعم بالمطر في الغداة. النوال: العطاء. يدعو الشاعر للفقيدة بالرحمة والسقيا بماء الغادي من السحب الجمّة لقاء ما كانت تنثره من فيض كرمها على المحتاجين.

(٥) الساحية: التي تقشر الأرض لشدّة انصبابها. الأجداث: القبور. الحفش: شدّة =

أُسَـــائِـــلُ عَـــنْـــكِ بَـــعْـــدَكِ كُـــلَّ مَـــجْـــدٍ،
وَمَـــا عَـــهْـــدِي بِـــمَـــجْـــدٍ عَـــنْـــكِ خَـــالِ[(١)]
يَـــمُـــرُّ بِـــقَـــبْـــرِكِ الْـــعَـــافِـــي فَـــيَـــبْـــكِـــي،
وَيَـــشْـــغَـــلُـــهُ الْـــبُـــكَـــاءُ عَـــنِ الـــسُّـــؤَالِ[(٢)]
وَمَـــا أَهْـــدَاكِ لِـــلْـــجَـــدْوَى عَـــلَـــيْـــهِ
لَـــوَ انَّـــكِ تَـــقْـــدِرِيـــنَ عَـــلَـــى فَـــعَـــالِ[(٣)]
بِـــعَـــيْـــشِـــكِ هَـــلْ سَـــلَـــوْتِ فَـــإِنَّ قَـــلْـــبِـــي،
وَإِنْ جَـــانَـــبْـــتُ أَرْضَـــكِ غَـــيْـــرُ سَـــالِ[(٤)]

= الوقع. المخالي، الواحدة مخلاة: مخيط من الخيش كالكيس يُوضع فيه تبن تأكله البهائم ويُعلّق في رقبة البهيمة. يصوّر مدى عنف انهمار المياه وهطولها بحيث تقشر القبور كأيدي الخيول الجائعة إذا شاهدت المخالي المليئة شعيراً دبّ فيها النشاط وراحت تحفر الأرض بقوائمها الأمامية لفرحها بما حصلت عليه.

(١) خالٍ: فارغ. يُخاطب الشاعر الفقيدة مشيداً ومتحدثاً عن أمجادها التي حقّقتها في حياتها أين هي الآن؟ ومن استطاع أن يُعبّئ الفراغ الذي تركته؟ إنه يرى أن تلك الأمجاد ضائعة تبحث عن صاحبتها بين النّسوة، ولكن للأسف لم يجد من يملأ الفراغ الذي تركته.

(٢) العافي: الفقير المحتاج. العافون كثر، والحاجة مذلّة، وهم دائمو البحث عمّن يسدّ خلتهم، لذا فهم يمرّون بقبر الفقيدة، فإذا بعبراتهم تخنقهم فلا يستطيعون الكلام ولا يسألونها كعهدهم بها يوم كانت حيّة ترفدهم بعطاياها.

(٣) الجدوى: الإنعام. الفعال: فعل الخير. يُنوّه الشاعر بكرم المتوفاة، إنها تُسارع إلى فعل الخيرات فتوفّر على العافين ذلّ السؤال فتُرفدهم بما يحتاجون من مال إذا كان باستطاعتها، ولكن الموت حال دون ذلك.

(٤) يُقسم الشاعر بحياة المتوفاة سائلاً إيّاها هل سلت عن حبّها العطاء، ذلك أن قلبه، رغم بعدها، غير سالٍ عن جودها، ولذا فالحزن يملأ قلبه لفراقها وهو يذكرها رغم الفاصل المكاني بينهما ويندبها وإن جانب أرضها.

نَـزَلْـتِ عَـلَـى الْـكَـرَاهَـةِ فـي مَـكَـانٍ
بَـعُـدْتِ عَـنِ الـنُّـعَـامَـى وَالـشَّـمَـالِ [١]
تُـحَـجَّـبُ عَـنْـكِ رَائِـحَـةُ الْـخُـزَامَـى،
وَتُـمْـنَـعُ مِـنْـكِ أَنْـدَاءُ الـطِّـلَالِ [٢]
بِـدَارٍ كُـلُّ سَـاكِـنِـهَـا غَـرِيـبٌ
طَـوِيـلُ الـهَـجْـرِ مُـنْـبَـتُّ ٱلْـحِـبَـالِ [٣]
حَـصَـانٌ مِـثْـلُ مَـاءِ الـمُـزْنِ فـيـهِ
كَـتُـومُ الـسِّـرِّ صَـادِقَـةُ الـمَـقَـالِ [٤]
يُـعَـلِّـلُـهَـا نِـطَـاسِـيُّ الـشَّـكَـايَـا،
وَوَاحِـدُهَـا نِـطَـاسِـيُّ الـمَـعَـالِـي [٥]

---

(١) و (٢) النعامى: ريح الجنوب. الشمال: الريح تهب من ناحية القطب. يُخاطب الشاعر المتوفاة، فقد حلّت رغماً عنها في مكان قد انقطعت عنه رياح الجنوب اللطيفة ورياح الشمال العاتية، وهما من عناصر الحياة الضرورية، فبهما ينتشر ريح الخزامى العطر، وبهما تحمل الأمطار حيث الرياض النضرة والطبيعة الخلّابة الجميلة، كلّ ذلك ما عاد له وجود فالمكان غير المكان والزمان غير الزمان.

(٣) يقصد بالدار: القبر. منبتّ: منقطع. يقصد بالحبال: العلاقة والشمل. القبور ديار غربة يتجاور فيها أناس لا يربطهم رابطة دم أو رابطة وطن أو رابطة دين؛ إنهم غرباء قد ينطقون بألف لغة ولغة جمعتهم الأقدار والموت طواهم في التراب؛ فعلاقاتهم مع الأحياء قد انبترت وهجرهم طويل يطول ببقاء الحياة على وجه الأرض.

(٤) الحصان: العفيفة من النسوة. المزن: السحاب المفعم بالمياه. يمدح الشاعر المتوفاة، فقد احتضن المكان امرأة عفيفة صالحة ليست بفاحشة قولاً ومسلكاً، لقد كانت طاهرة طهارة ماء السماء بنقائه وطهارته فلم تدنّسه مفاسد الأرض وطينها الموبوء بالكدر، ومن طبعها كتمان أسرار الآخرين، وبذا يأمنونها فضلاً عن أنها تصدق القول.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٤. يُعلّلها: يُعالجها. النطاسي: الطبيب الماهر. الشكايا، الواحدة شكوى: الأمراض. يقصد بواحدها ولدها سيف الدولة. يذكر الشاعر الواقع الذي كانت عليه المتوفاة، فثمّة طبيب ماهر في صنعته =

إِذَا وَصَفُوا لَهُ دَاءً بِثَغْرٍ
سَقَاهُ أَسِنَّةَ الأَسَلِ الطِّوَالِ(١)

وَلَيْسَتْ كَالإِنَاثِ وَلَا اللَّوَاتِي
تُعَدُّ لَهَا القُبُورُ مِنَ الْحِجَالِ(٢)

وَلَا مَنْ فِي جَنَازَتِهَا تِجَارٌ
يَكُونُ وَدَاعُهَا نَفْضَ النِّعَالِ(٣)

مَشَى الْأُمَرَاءُ حَوْلَيْهَا حُفَاةً
كَأَنَّ الْمَرْوَ مِنْ زِفِّ الرِّئَالِ(٤)

= يعتني بها ويقوم على علاجها، وفي المقابل هناك طبيب من نوع آخر، إنه طبيب المعالي الخبير بأدواء المعالي فيعمل على إزالتها بحنكة ودراية حتى تبقى معاليه سليمة من كل نقص وعيب.

(١) الداء: المرض. الثغر: موطن المخافة من الحدود الفاصلة بين بلاد المسلمين وأعدائهم. الأسنة: الواحد سنان: الرماح. الأسل: الرماح. يمدح الشاعر سيف الدولة بحسن السياسية، ففي حال نزل بثغر من ثغور المسلمين الروم يعملون فيه خراباً سارع الأمير إلى حسم الداء بالدواء المناسب، من سلاح وجند وخيل وسواها، فكان للرماح دور في الشفاء السريع.

(٢) و (٣) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٤. الحجال، الواحدة حجلة: مخدع المرأة تحيطه الستائر. الجنازة: النعش يوضع فيه الميت: التابوت. التجار، الواحد تاجر. يضع الشاعر المتوفاة في مكانها اللآئق بها، إنها ليست كسائر النساء، تحجبهن الستور وينعزلن عن الحياة، وتكون القبور آخر ما يسترهن، ولم تكن من العامة والسوقة، فيتّبع جنازتها وحالما تدفن إحداهن، يرجع المشاركون في جنازتها وينفضون أحذيتهم ممّا علق بنعالهم من غبار. لا بل إنها ملكة ووالدة ملك، فلا بدّ من أن تكون جنازتها تليق بمقام الملوك.

(٤) المرو: أحجار بيضاء دقيقة برّاقة. زفّ: صغار الريش. الرئال، الواحد رأل: ولد النعام. يصف الشاعر الموكب الحزين، والكلّ من الأمراء حافٍ يمشون على حجارة فلا يُحسون بألم لشدّة حزنهم كأنهم يطأون ريش النعام، وبالطبع يتقدّمهم ابنها الأمير، إنها جنازة ملوك.

وَأَبْــرَزَتِ الْــخُــدُورُ مُــخَــبَّــآتٍ
يَـضَـعْـنَ الـنِّـقْـسَ أَمْـكِـنَـةَ الْـغَـوَالِـي[١]
أَتَــتْــهُــنَّ الــمُــصِــيــبَــةُ غَــافِـلَاتٍ
فَـدَمْـعُ الْـحُـزْنِ فِـي دَمْـعِ الـدَّلَالِ[٢]
وَلَـوْ كَـانَ الـنِّـسَـاءُ كَـمَـنْ فَـقَـدْنَـا
لَـفُـضِّـلَـتِ الـنِّـسَـاءُ عَـلَـى الـرِّجَـالِ[٣]
وَمَـا الـتَّـأْنِـيـثُ لاسْـمِ الـشَّـمْـسِ عَـيْـبٌ
وَلَا الـتَّـذْكِـيـرُ فَـخْـرٌ لِـلْـهِـلَالِ[٤]
وَأَفْـجَـعُ مَـنْ فَـقَـدْنَـا مَـنْ وَجَـدْنَـا
قُـبَـيْـلَ الْـفَـقْـدِ مَـفْـقُـودَ الـمِـثَـالِ[٥]

---

(١) الخدور، الواحد خدر: المخادع. النقس: المداد. الغوالي: الطيوب. ولإتمام المشهد الحزين، فقد تخلّت النسوة من آل بيت المتوفاة عن خدورهن وتسترهن في مخادعهن، كاشفات عن رؤوسهن، وقد استبدلن المداد الأسود على وجوههن بدلاً من الطيوب التي تعوّدن على التطيّب بها. لشدّة حزنهن لموت عزيزة عليهن.

(٢) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٥. يروى «المصائب» بدلاً من «المصيبة» لقد كان موت الفقيدة مفاجئاً، لقد كان النسوة يبكين دلالاً على سبيل التسلية والضحك، فكان الموت. فاختلط بكاء الحزن ببكاء الدلال.

(٣) ينوّه الشاعر بمكانة المتوفاة الرفيعة، فلو أن كثيرات من النسوة على مكانتها لفضلت النسوة على الرجال، لأنهم أقدر على اجتراح المعجزات والتوق في مجال الفضائل رغم كثرتها.

(٤) ورد البيت في: أسرار البلاغة للجرجاني: ١٥٩. يُردف الشاعر معقباً على ما سبق فالشمس اسم وإن كان من أسماء الإناث فليس عيباً فلا يُنقص من فضلها على حياة سائر الكائنات الحيَّة، كالبشر والحيوان والنبات، وكذلك فالقمر من أسماء التذكير، فليس مدعاة لفخر وإن كان مذكراً، فإسهامه في حياة الكون زهيد بل إنه يستمد نوره من الشمس، وهي صاحبة فضل عليه.

(٥) يمدح الشاعر سيف الدولة بأنه لا مثيل له في بقائه على الحياة، ولقد آلمته المصيبة فقد فَقَدَ أمًّا لا مثيل لها في عالم الأمهات، وهذا ما يزيد في حزنه ويزيده إحساساً بالفاجعة التي ألمّت به.

يُـدَفِّـنُ بَـعْـضُـنَـا بَـعْـضـاً وَتَـمْـشِـي
أَوَاخِـرُنَـا عَـلَـى هَـامِ الأَوَالِـي(١)

وَكَـمْ عَـيْـنٍ مُـقَـبَّـلَـةِ الـنَّـوَاحِـي
كَـحِـيـلٌ بِـالْـجَـنَـادِلِ وَالـرِّمَـالِ(٢)

وَمُـغْـضٍ كَـانَ لا يُـغْـضِـي لِـخَـطْـبٍ،
وَبَـالٍ كَـانَ يُـفْـكِـرُ فـي الـهُـزَالِ(٣)

أَسَـيْـفَ الـدَّوْلَـةِ ٱسْـتَـنْـجِـدْ بِـصَـبْـرٍ
وَكَـيْـفَ بِـمِـثْـلِ صَـبْـرِكَ لِـلْـجِـبَـالِ(٤)

فَـأَنْـتَ تُـعَـلِّـمُ الـنَّـاسَ الـتَّـعَـزِّي
وَخَـوْضَ الـمَـوْتِ فـي الْـحَـرْبِ الـسِّـجَالِ(٥)

---

(١) و (٢) الهام، الواحدة هامة: الرؤوس. الأوالي: الماضين. إنها الحياة عارية للعيان، ولا يمكن إلّا أن تكون كذلك، فالأموات يمرّون ويعبر المرء الحياة، منذ كان الإنسان على وجه الأرض، ويُدفن وتُهال عليه أتربة بأيدي الأحياء، ويرجع هؤلاء من إيداعه موطنه الأخير وكأنهم لم يفعلوا شيئاً، ولذا لم يتّعظوا ممّا حصل. وثمّة عيون تفتحت على الحياة فبهرتها نعمتها وجمالها وتكحّلت بمرأى الوجود، فإذا بها تتكحّل بالتراب وحال دونها ودون أشعة شمس الحياة بلاطات لحد صلبة.

(٣) مغضٍ: مقارب بين جفنيه. الخطب: الأمر الجلل. الهزال: النحول. يُردف الشاعر أن كثيرين قد عاشوا لا يهتمون بالموت فلا ترف لهم عين، وهم آنئذٍ لا يكترثون بالمصائب تتوالى لقوّتهم على تخطّي المحن، هم الآن تحت التراب، وكان أحدهم إذا أحسّ أقل إحساس بمرض سارع إلى معالجته مخافة الموت، معتقداً أي هزال يعتريه يودي به إلى القبر.

(٤) يُخاطب الشاعر سيف الدولة طالباً منه الثبات على الصبر أمام تلك الفاجعة، ومعلوم عنه أنه جلد صبور حتى إن الجبال تستلهم منه الصبر وتتمنّى أن تكون على شاكلة صبره.

(٥) الحرب السجال: هي الحرب التي يتبادل فريقاها النصر والهزيمة. يُردف الشاعر مقوياً من عزيمة الأمير كي يتخطى المحنة، إنه مثال الصبور، وقد خاض حروباً عديدة كان في بعضها النصر حليفه وفي بعضها يتخلّى عنه وفي الحالين كان يتحلّى بصبر عجيب، فالأحرى به الآن أن يعتصم بصبره وقد كان يحضّ جنده والآخرين على الصبر، فهو أولى بصبره من غيره.

وَحَالاتُ الزَّمَانِ عَلَيْكَ شَتَّى
وَحَالُكَ وَاحِدٌ فِي كُلِّ حَالِ[١]

فَلَا غِيضَتْ بِحَارُكَ يا جَمُوماً
عَلَى عَلَلِ الْغَرَائِبِ وَالدِّخَالِ[٢]

رَأَيْتُكَ فِي الَّذِينَ أَرَى مُلوكاً
كَأَنَّكَ مُسْتَقِيمٌ فِي مُحَالِ[٣]

فَإِنْ تَفُقِ الأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ
فَإِنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ[٤]

---

(١) شتّى، الواحد شتيت: متفرّقة. يردف الشاعر معقباً بأن الأمير ذاق من الأيام ما هو حلو ومرّ وكان مثال الصلابة في الملمات العظام، يمتاز بالصبر والتعقّل وحسن التصرّف فتمضي الأزمات، ويبقى على حاله وإن تحوّل الزمان عنه مرّة فقد كان معه مرات.

(٢) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢: ٣٨٤. غيضت البحار: نضبت وجفّت. الجموم: الماء الذي يزداد مع الوقت. العلل: الشرب مرة بعد مرة. الغرائب من الإبل: الغريبة التي تتردّد على مياه ليست لأصحابها. الدخال: دخول بعير بين بعيرين ليزداد ريًّا. يدعو الشاعر لممدوحه لاستمرار عزّه وغناه، ولتزداد بحاره غنًى وإن كثر العفاة والسائلون وهم يعبّون من بحار كرمه، متمنياً عليه أن يلتزم بصبره.

(٣) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ١٥٩، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٩. المحال: المعوجّ. يخاطب الشاعر ممدوحه أنه يرى فيه استقامة وصلاحاً بين من يعتقد الشاعر أنهم ملوك وقد حادوا عن جادة الصواب، إنه أصلحهم على الإطلاق وأفضلهم.

(٤) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ٢٣٥، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٩. الأنام: البشر. يُخاطب الشاعر ممدوحه، إنه أفضل البشر طرًّا، وهذا لا يُضيره أن يكون من البشر تماماً كالمسك فهو أفضل ما في دم الغزال وما يبقى منه لا يساوي شيئاً بالنسبة للمسك.

وليس بأول ذي همة

يمدحه ويذكر استنقاذه أبا وائل تغلب بن داود بن حمدان العدوي من أسر الخارجي سنة سبع وثلاثين وثلاث مئة (٩٤٨م):

[المتقارب]

إِلَامَ طَمَاعِيَةُ الْعَاذِلِ، وَلَا رَأْيَ فِي الْحُبِّ لِلْعَاقِلِ[(١)]

يُرَادُ مِنَ الْقَلْبِ نِسْيَانُكُمْ وَتَأْبَى الطِّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ[(٢)]

وَإِنِّي لَأَعْشَقُ مِنْ عِشْقِكُمْ نُحُولِي وَكُلَّ امْرِئٍ نَاحِلِ[(٣)]

وَلَوْ زُلْتُمُ ثُمَّ لَمْ أَبْكِكُمْ بَكَيْتُ عَلَى حُبِّيَ الزَّائِلِ[(٤)]

---

(١) وردت الأبيات الثمانية المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤١. العاذل: اللائم. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي. لا ينفع لوم العاذل مهما تكن دوافعه مع عاقل رشيد، لأن الحبّ ساقه إليه بخيوط حريرية ليّنة قويّة لا يستطيع منها فِكاكاً، وفي هذه الحالة ما عاد للرشاد مكان؛ فالإرادة مقيّدة، والعقل يكاد يكون مشلولاً وشرك الحبّ قد شدّد قبضته.

(٢) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٢٤. يُردف الشاعر أن اللائم لا يزال يمارس ضغوطاً قويّة علىّ الشاعر يستجيب فيرتدع القلب عن التعلق بالمحبوب وينسى الحبّ وعذابه، ولكن الأمر لا يتعلّق بالإرادة لأن طباع الحبّ تجبر على الانقياد والاستجابة السريعة توجب الانصياع لأوامره.

(٣) يُعقّب الشاعر أنه عاشق لأيّ شيء لنحوله؛ فالحبّ مارس لعبته معه فسلبه النوم وأورثه القلق والسهر، فإذا به يضوى، وبدأ النحول يغزو جسده، فهو إذا وجد امرأ ناحلاً أحبّه لأنه يُعاني ما يعانيه من الحب.

(٤) زلتم: رحلتم. يُخاطب الشاعر حبيبته، قد لا يبكي في حال رحيلها، ولكن سيبكي لفراق حبّه لها، وقد وجد فيه لذّة العذاب وطعم الألم، فهو يُحبّ من الحبّ الذي يسمو بالإنسان فيُرقّق شعوره ويصقل أحاسيسه.

أَيُـــنْــكِــــرُ خَـــدِّي دُمُـــوعِـــي وَقَـــدْ
جَـــرَتْ مِـــنْـــهُ فـــي مَـــسْــلَــكٍ سَـــابِـــلِ (١)

أَأَوَّلُ دَمْــــعٍ جَــــرَى فَــــوْقَـــــهُ،
وَأَوَّلُ حُـــــزْنٍ عَـــــلَـــــى رَاحِـــــلِ (٢)

وَهَــبْــتُ الــسُّــلُــوَّ لِــمَــنْ لامَــنِــي،
وَبِــتُّ مِــنَ الــشَّــوْقِ فــي شَــاغِــلِ (٣)

كــأَنَّ الْــجُــفُــونَ عَــلَــى مُــقْــلَــتِــي
ثِــيَــابٌ شُــقِــقْــنَ عَــلَــى ثَــاكِــلِ (٤)

وَلَــوْ كُــنْــتُ فــي أَسْــرِ غَــيْــرِ ٱلْــهَــوَى
ضَــمِــنْــتُ ضَــمَــانَ أَبِــي وَائِــلِ (٥)

فَــدَى نَــفْــسَــهُ بِــضَــمَــانِ الــنُّــضَــارِ
وَأَعْــطَــى صُــدُورَ الْــقَــنَــا الــذَّابِــلِ (٦)

---

(١) و (٢) المسلك السابل: الطريق الدائم السلوك. يُعقِّب الشاعر أنه دائم البكاء، والبكاء لا يستكين، فلا لخدّه أن يُنكر بكاءه، فدموعه قد عرفت مجاريها لدوامها على البكاء، وقد حفرت سُبُلاً ذُلُلاً فيه تسلكها باستمرار، فليس بكاؤه هذا أول بكاء، بل قد مارس لعبة البكاء من زمن، إنه عاشق بالفطرة قديم بالتجربة، وباستمرار ينتهي أمره مع الحبّ بهجرة الحبيب فيصاحبه البكاء المزمن.

(٣) لقد تخلّى الشاعر عن النسيان طوعاً للّائم ليُريح باله، أما الشاعر فقد أعلن تمسّكه بحبّه وشوقه ولن يتخلّى عن انشغاله به ولو دام الأمر على حاله من بكاء وعذاب.

(٤) الثاكل من النساء: التي فقدت ولدها. يصف الشاعر حالته إثر مغادرة حبيبته، فقد تركته ساهراً قلقاً يُصاحب عينيه بكاء دائم كثاكلة فقدت فلذة كبدها فأسلمها ذلك إلى بكاء أليم وقرّح جفنيها فبدتا كثياب شققن حزناً.

(٥) يتخلّص الشاعر من الغزل لمدح سيف الدولة. أسر الهوى ذو سلاسل حريرية متينة من العسير الفكاك منها بشتّى الوسائل، فحتى الحيلة لا تنجح فيه كما ضمن أبو وائل ابن عم سيف الدولة الفداء، إذ ضمن لمن أسره مالاً حتى فكّ أسره.

(٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٣. النضار: الذهب. القنا الذابل: الرمح اللينة. يُتابع الشاعر ذكر الحدث، فقد ضمن أبو وائل أن يفكّ أسره بالذهب، =

وَمَنَّاهُمُ الْخَيْلَ مَجْنُوبَةً
فَجِئْنَ بِكُلِّ فَتًى بَاسِلِ (١)
كَأَنَّ خَلَاصَ أَبِي وَائِلِ
مُعَاوَدَةُ الْقَمَرِ الآفِلِ (٢)
دَعَا فَسَمِعْتَ وَكَمْ سَاكِتٍ
عَلَى الْبُعْدِ عِنْدَكَ كَالْقَائِلِ (٣)
فَلَبَّيْتَهُ بِكَ فِي جَحْفَلِ
لَهُ ضَامِنٍ وَبِهِ كَافِلِ (٤)
خَرَجْنَ مِنَ النَّقْعِ فِي عَارِضٍ
وَمِنْ عَرَقِ الرَّكْضِ فِي وَابِلِ (٥)

= فإذا بسيف الدولة يأتيه بجيشه ويستنقذ ابن عمّه ويقتل الخارجي ومن معه برماح ذابلة.

(١) و (٢) مناهم: حملهم على التمنّي. المجنوبة من الخيول: التي لا تركب بها تُهيّأ لوقت الحاجة. الباسل: البطل الشجاع. يُتابع الشاعر وصف الحدث الذي انتهى بتحرير أبي وائل، فقد وعدهم ومناهم بحصولهم على جياد تُساق إليهم لقاء فدائه، فإذا بها تحمل إليهم فرساناً لقتالهم، فإذا به يعود إليهم حرًّا طليقاً من أسر الظلمة إلى الحرية، كقمر قد أفل، فإذا به وقد بهر بنور طلعته أنظار محبّيه.

(٣) يُخاطب الشاعر سيف الدولة بأن ابن عمّه دعاه لاستنقاذه من بين أيدي الخارجي فلبّى الدّعاء دون تردّد أو فتور، فحتى لو لم يدعه لكان الأمير يعمل على فكّ أسره بدافع القرابة ومسؤولية الراعي على رعيته؛ إنه كرم الأخلاق وصدق المسؤولية التي يضطلع بها الأمير.

(٤) الجحفل: الجيش العظيم. إنها إجابة عملية وليست كلاماً ووعداً. فكان جيش عظيم وعلى رأسه أمير بطل ضماناً عملياً لاستنقاذ الأسير وتحريره وإعادته إلى دياره وأهله.

(٥) النقع: الغبار. العارض: السحاب الماطر. الوابل: المطر الدافق. يبدو أن الخيل قد قصدت الخارجي في يوم شديد الحرارة، فقد تعالى الغبار في السماء، ولاشتدادها في سرعتها قد كساها العرق فكأنه مطر دافق.

فَلَمَّا نَشِفْنَ لَقِينَ السِّيَاطَ
بِمِثْلِ صَفَا الْبَلَدِ الْمَاحِلِ (١)
شَفَنَّ لِخَمْسٍ إِلَى مَنْ طَلَبْنَ
قُبَيْلَ الشُّفُونِ إِلَى نَازِلِ (٢)
فَدَانَتْ مَرَافِقُهُنَّ الثَّرَى
عَلَى ثِقَةٍ بِالدَّمِ الْغَاسِلِ (٣)
وَمَا بَيْنَ كَاذَتَيِ الْمُسْتَغِيرِ
كَمَا بَيْنَ كَاذَتَيِ الْبَائِلِ (٤)
فَلُقِّينَ كُلَّ رُدَيْنِيَّةٍ
وَمَصْبُوحَةٍ لَبَنَ الشَّائِلِ (٥)

---

(١) السياط: المقارع. الماحل: الذي دبّ فيه الجفاف. الصفا: الصخر الرقيق الصلب. يُتابع الشاعر وصف ما آل إليه أمر تلك الجياد، وحالما جفّت من العرق الذي كان يُغطي أجسادها كانت السياط التي كانت تتلقّاها فتمطرها بوابل من الضربات يلهبها نشاطاً رغم ما ألم بها من إرهاق، فتقع على جلودها كأنها مَنزل بصخر البلد الذي دبّ فيه الجفاف.

(٢) شفن: نظرن. يصف الشاعر رحلة الخيول، فقد كان اهتمامها باستنجاد أبي وائل، لذا فقد كانت عيونها على من في الأسر فلم تنتظر من فرسانها إراحتها طوال ليالٍ خمس؛ حتى أدرك القوم الخاطفين وأعملوا فيهم رماحهم وسيوفهم.

(٣) دانت: قاربت. الثرى: التراب. يروى «البرى» بدلاً من «الثرى» وهما بمعنى واحد. يُتابع الشاعر وصف تلك الجياد التي ساخت قوائمها في التراب إلى مرافقها يقيناً منها أنها سوف تُزيل الثرى عنها حالما تنهمر دماء الخاطفين تسفكها سيوف فرسانها.

(٤) الكاذة: لحم الفخذ. المستغير: الذي يطلب الغارة. البائل: الذي يُفسح ما بين فخذيه ليبول. يُتابع الشاعر وصف تلك الخيول متابعاً فكرة عدم توقف الخيول عن عدوها، وقد كانت تفتح ما بين قوامها لتسمح للعرق كي يسيل دون أذيتها كأنها تبول.

(٥) الرماح الردينية، تنسب إلى امرأة تسمى ردينة كانت تقوّم الرماح. المصبوحة من الخيل: التي تسقى لبناً كلّ صباح. الشائل من النياق: التي قلّ لبنها. يصوّر الشاعر ما حدث بين جيش سيف الدولة والخاطفين، فقد كانوا على استعداد لردّ أية غارة =

وَجَـــيْـــشَ إمَــامٍ عَــلَــى نَــاقَــةٍ
صَـحِـيـحِ الإمَـامَـةِ فـي الْـبَـاطِـلِ (١)
فَــأَقْــبَــلْــنَ يَــنْــحَــزْنَ قُــدَّامَــهُ
نَــوَافِــرَ كَــالــنَّــحْــلِ وَالْــعَــاسِــلِ (٢)
فَــلَــمَّــا بَــدَوْتَ لِأَصْــحَــابِــهِ
رَأَتْ أُسْــدُهَــا آكِــلَ الآكِــلِ (٣)
بِــضَــرْبٍ يَــعُــمُّــهُــمُ جَــائِــرٍ
لَــهُ فِــيــهِــم قِــسْــمَــةُ الْــعَــادِلِ (٤)
وَطَــعْــنٍ يُــجَــمِّــعُ شُــذَّانَــهُــمْ
كَــمَــا ٱجْــتَــمَــعَــتْ دِرَّةُ الْــحَــافِــلِ (٥)
إذا مَــا نَــظَــرْتَ إلَــى فَــارِسٍ
تَــحَــيَّــرَ عَــنْ مَــذْهَــبِ الــرَّاجِــلِ (٦)

= وعدوان، فإذا بهم يُشرّعون رماحهم الردينية يستقبلون بها جيش الأمير، وهم على ظهور الخيول الكريمة التي تسقى لبن النياق الشائلة مع الفجر.

(١) يُتابع الشاعر حديثه عن جيش الخوارج، إنهم كجماعة بايعت أحدهم بالإمامة، وهو بحدّ زعمهم إمام حقاً، بينما هو إمام بالباطل في نظر الشاعر.

(٢) و (٣) ينحزن: يملن مجتمعات. العاسل: جاني العسل. يصف الشاعر حالة الإرباك التي كان عليها جيش الخارجي في مقابلة غير متكافئة مع جيش منظم تحت قائد مجرّب خبير في الحروب، فإذا بهم يفرّون من بين أيدي المغير كأنهم نحل فاجأهم عاسل يود إخراجهم من قفيرهم ليستولي على ما فيه. وكان لا بدّ من استبسال تلك الجماعة، فالأبطال منهم والشجعان لم ينفروا بل قاتلوا قتالاً شرساً كأسود ضارية، وفي اعتقادهم أنهم لا ينهزمون، فإذا بهم يقعون ضحية بطل الأبطال فكان أن افترسهم، ولم يبق عليهم.

(٤) يُردف الشاعر حديثه عمّا آلى أمر هؤلاء على أيدي سيف الدولة، فقد شدّد القصاص عليهم، وكان الضرب عنيفاً لا رحمة فيه يتمثّل فيه الجور، فإذا به يعمهم بعدل، لأنهم فئة خارجة على شرع اللّه تعالى.

(٥) و (٦) الشذّان: المتفرقون. الدرّة: اللبن. الحافل: الممتلئة الضرع. يُردف الشاعر أن =

فَـظَـلَّ يُـخَـضِّـبُ مِـنْـهَـا الـلِّـحَـى
فَـتًـى لَا يُـعِـيـدُ عَـلَـى الـنَّـاصِـلِ[١]
وَلَا يَـسْـتَـغِـيـثُ إِلَـى نَـاصِـرٍ
وَلَا يَـتَـضَـعْـضَـعُ مِـنْ خَـاذِلِ[٢]
وَلَا يَـزَعُ الـطِّـرْفَ عَـنْ مُـقْـدَمٍ
وَلَا يَـرْجِـعُ الـطَّـرْفَ عَـنْ هَـائِـلِ[٣]
إِذَا طَـلَـبَ الـتَّـبْـلَ لَـمْ يَـشْـأَهُ
وَإِنْ كَـانَ دَيْـنـاً عَـلَـى مَـاطِـلِ[٤]

= ما ألمّ بهم من هزيمة شنعاء؛ فقد جمعت بينهم البلية بطعن وحّدهم في ظلال الموت كما يجتمع اللبن في ضرع مليء باللبن، فهم على ضيقهم ازدادوا ضيقاً على ضيق، فما استطاعوا فكاكاً ولا هرباً. فالفارس منهم في حيرة من أمره، فباستطاعته الفرار، ولكن ارتباكه أفقده القدرة على الحركة والتفكير، فهو في حال كهذا ليس بأفضل من راجل يحاول حماية نفسه بشتّى الوسائل.

(١) و(٢) الناصل: الذي زال خضابه. يصف الشاعر سيف الدولة بالفتى البطل الشجاع الذي يُمارس معهم ما اعتاد عليه، فقد كانت ضربة واحدة من ضرباته كافية لكي تزيل الحناء عن لحى هؤلاء فلا يعيدها لتكون القاضية، وهو في ذلك لا يستعين بسواه ولا يستنصر غيره إلى جانبه، وهو لقوّته ثابت الجأش لا تهزّه الأحداث مهما تكن، فلا يعرف قلبه معنى الخوف ولا يهتم لأمر من يعمل على خذلانه، لهمته العظيمة وإرادته القوية.

(٣) يزع: يمنع. الطِّرف، بكسر الطاء: الجواد الكريم. الطَّرف، بفتح الطاء: النظر. الهائل من الأمور: العظيم. يصف الشاعر إقدام سيف الدولة في الحروب، إنه لا يرهب أحداً، ودائماً يتقدّم بفرسه الكريمة فلا يحول دون تقدّمه حائل، فالخوف مات في قلبه الجريء، وهو لا يلتفت لشيء، فنظره يلاحق هدفه الذي يضعه أمام عينيه في المعركة.

(٤) التبل: الثأر. يشأه: يسبقه، يصف الشاعر صلابة وعزيمة ممدوحه إنه ليس من طبعه ترك ثأره، فمهما طال الزمن لا بدّ له من إدراكه ولو كان دينه عند مماطل مسواف فلا بدّ من تحصيله آخر الأمر.

خُـــذُوا مَـــا أَتَـــاكُـــمْ بِـــهِ وَٱعْـــذِرُوا
فَـــإِنَّ الْـــغَـــنِـــيـــمَـــةَ فِـــي الْـــعَـــاجِـــلِ (١)
وَإِنْ كَـــانَ أَعْـــجَـــبَـــكُـــمْ عَـــامُـــكُـــمْ
فَـــعُـــودُوا إِلَـــى حِـــمْـــصَ فِـــي الْـــقَـــابِـــلِ (٢)
فَـــإِنَّ الْـــحُـــسَـــامَ الْـــخَـــضِـــيـــبَ الَّـــذِي
قُـــتِـــلْـــتُـــمْ بِـــهِ فِـــي يَـــدِ الْـــقَـــاتِـــلِ (٣)
يَـــجُـــودُ بِـــمِـــثْـــلِ الَّـــذِي رُمْـــتُـــمُ
فَـــلَـــمْ تُـــدْرِكُـــوهُ عَـــلَـــى الـــسَّـــائِـــلِ (٤)
أَمَـــامَ الْـــكَـــتِـــيـــبَـــةِ تُـــزْهَـــى بِـــهِ
مَـــكَـــانَ الـــسِّـــنَـــانِ مِـــنَ الْـــعَـــامِـــلِ (٥)

---

(١) و (٢) يُخاطب الشاعر هؤلاء القوم ساخراً وقد باؤوا بالهزيمة، فعليهم أن يعذروه في ما حصل لهم لقبولهم بضمان الفداء فقد حصلوا عليه هزيمة منكرة، وهذا معجّل، أما ما تأخر فلن يكون له حساب ولن يحصل. وبدافع التحدّي وبسخرية جارحة، إن أراد الكرّة في حمص فعليهم شهود الوقعة فيها في العام التالي، وهم يعرفون النتيجة مسبقاً.

(٣) الحسام: السيف البتّار. الخضيب: المخضّب بالدماء. يُردف الشاعر كلامه معقباً أن السيف الذي تلوّث بدماء القوم لا يزال على حاله في يد من استعمله لقتالهم، وهو على استعداد للقاء القوم في المرة القادمة إن أرادوا المغامرة وسيلقون منه ما وجدوا في المرة الأولى.

(٤) يجود: يتكرّم. السائل: طالب المعروف. يمدح الشاعر ممدوحه، إنه جواد كريم لا يخيّب سائلاً، فلو كان سؤال القوم من وجهة مسالمة لأدركوا بُغيتهم، ولكنه كان عن طريق فكان أن جاد عليهم بالهزيمة النكراء.

(٥) الكتيبة: الفرقة من الجيش. تزهى: تفتخر. العامل: ما يلي سنان الرمح. يمدح الشاعر ممدوحه بالقوّة والشجاعة، فجيشه يفخر به، لأنه دائم التقدم في المعارك، إنه بمثابة السنان في صدر الرمح، فبه يطعنون أعداءهم وبه ينتصرون. إنه ضرورة لا غنى عنه بينهم.

وَإِنِّـــي لَأَعْـــجَـــبُ مِـــنْ آمِـــلٍ
قِـتَــالاً بِـكُـــمْ عَــلَــى بَــازِلِ(١)
أَقَــالَ لَـــهُ ٱلـــلَّـــهُ لَا تَــلْــقَـهُـمْ
بِـمَــاضٍ عَــلَــى فَـرَسٍ حَــائِــلِ(٢)
إِذَا مَـــا ضَـــرَبْـــتَ بِـــهِ هَــامَــةً
بَــرَاهَــا وَغَــنَّــاكَ فِــي الْـكَــاهِــلِ(٣)
وَلَـــيْـــسَ بِـــأَوَّلِ ذِي هِـــمَّـــةٍ
دَعَــتْــهُ لِـمَــا لَـيْـسَ بِـالـنَّـائِـلِ(٤)
يُـــشَـــمِّـــرُ لِـــلُّـــجِّ عَـــنْ سَـاقِـــهِ
وَيَــغْــمُــرُهُ الـمَــوْجُ فِـي الـسَّـاحِـلِ(٥)

---

(١) البازل من الإبل: الذي نبت نابه في السنة التاسعة. يسخر الشاعر من الخارجي الذي ربط النصر بتحريك كمه وركوبه ناقة، إنه بلا شكّ غبي، فالنصر له أسبابه، والأمر لا يتعلّق بالترهات.

(٢) الماضي: السيف القاطع. الحائل من الأفراس: التي لم تحمل. يُردف الشاعر ساخراً من الخارجي، وكان قد ادّعى النبوّة، هل اللّه عزّ وجلّ أمره أن يُقاتل سيف الدولة على تلك الحالة من الترّهات، وألّا يستعين بسيف ماضٍ وألّا يمتطي فرساً حائلة.

(٣) الهامة: الرأس. براها: قطعها. الكاهل: أعلى الكتف. يُتابع الشاعر سخريته، أن اللّه تعالى طلب من الخارجي ألّا يلقى جيش سيف الدولة بسيف يبتر الرؤوس، وتصل ضربته إلى رأس يشقّه بعزم حتى يصل إلى كتف صاحبه فيُسمع صوته من قطعه، كأنه يُغني.

(٤) يُتابع الشاعر سخريته، أن ذلك الخارجي دعته همته، بل وهمه تولّي الخلافة والملك، إنه مطلب عسير المنال لا يقدر على تحقيقه أمثاله من الأغبياء.

(٥) اللجّ: اليمّ المتلاطم. يُتابع الشاعر سخريته، بأن ذلك الخارجي أراد أن ينهض إلى الأمر العظيم وليس لديه ما يُعينه على تحقيق ما يريد من ملك وخلافة، وقد تصدّى له فئة من المسلمين بقيادة سيف الدولة فآلى أمره إلى فساد وهلاك؛ وهو في ذلك كأنه يرمي بنفسه في لجّة موجها متلاطم يغرق فيها المهرة من السبّاحين، فكيف بمن يجهل العوم في شاطئ البحر؟

أَمَـا لِـلْـخِـلَافَـةِ مِـنْ مُـشْـفِـقٍ
عَـلَـى سَـيْـفِ دَوْلَـتِـهَـا الْـفَـاصِـلِ [١]
يَـقُـدُّ عِـدَاهَـا بِـلَا ضَـارِبٍ
وَيَـسْـرِي إِلَـيْـهِـمْ بِـلَا حَـامِـلِ
تَـرَكْـتَ جَـمَـاجِـمَـهُـمْ فِـي الـنَّـقَـا
وَمَـا يَـتَـحَـصَّـلْـنَ لِـلـنَّـاخِـلِ [٢]
فَـأَنْـبَـتَّ مِـنْـهُـمْ رَبِـيـعَ الـسِّـبَـاعِ
فَـأَثْـنَـتْ بِـإِحْـسَـانِـكَ الـشَّـامِـلِ [٣]
وَعُـدْتَ إِلَـى حَـلَـبٍ ظَـافِـراً
كَـعَـوْدِ الْـحُـلِـيِّ إِلَـى الْـعَـاطِـلِ [٤]
وَمِـثْـلُ الَّـذِي دُسْـتَـهُ حَـافِـيـاً
يُـؤَثِّـرُ فِـي قَـدَمِ الـنَّـاعِـلِ [٥]

---

(١) المشفق: الخائف. الفاصل: القاطع، يروى «الفاضل» بدلاً من «الفاصل». يُنوّه الشاعر بقيمة سيف الدولة العظيمة وشدّة حاجة الخلافة إلى مجهوداته، ومع ذلك يسأل طالباً حمايته لئلّا يحصل له مكروه فتكون الخلافة بلا حام يدفع عنها الأطماع المحيطة بها من كل مكان، فالأعداء كثر، فيكفي أن يسمع الأعداء ببقائه حتى يُثير فيهم الرعب فيرتدعوا عن بغيهم وأطماعهم.

(٢) النقا: الكثيب من الرمال. يُخاطب الشاعر سيف الدولة بأن جيشه قد قضى على هذه الفئة، فإذا بالرؤوس قد غطّت الأرض، فلم تستطع خيوله إلّا أن تدوس تلك الرؤوس بقوائمها فتطحنها بعنف، فلو أن ناخلاً أراد أن ينخل التراب عن فتات تلك الرؤوس لما استطاع.

(٣) و (٤) ورد البيت في: دلائل الإعجاز للجرجاني: ٣٨٦. يُخاطب الشاعر سيف الدولة مثنياً على ما قام به من عمل عظيم، فقد ترك جثث القوم تغطّي الأرض، فكان للسباع دور متمّ لما قام به، فإذا بها تلتهم لحومهم وتمزّقها إرباً، إنه ربيعها، فقد أنبت لها ما هي بحاجة إليه، ولسان حالها يلهج بحمد إحسانه الشامل. وكانت عودة النصر إلى عاصمة إمارته، ظافراً، فكانت الفرحة تغمر الرعية بسلامته، وكأنها فتاة عذراء ارتدّت إليها حليها بعد أن كانت عاطلة، لا حليّ لها.

(٥) الناعل: المنتعل، لابس النعل. يضرب الشاعر مثلاً أن سيف الدولة لم يكن مستعداً =

وَكَـــمْ لَـــكَ مِـــنْ خَـبَـــرٍ شَـــائِـــعٍ
لَـــهُ شِـيَـــةُ الأبْـــلَـــقِ الْـــجَـــائِـــلِ [(١)]

وَيَـــوْمٍ شَـــرَابُ بَـــنِـيـــهِ الـــرَّدَى
بَـغِـيـضُ الْـحُـضُـورِ إِلَـى الْـوَاغِـلِ [(٢)]

تَـفُـكُّ الْـعُـنَـاةَ وَتُـغْـنِـي الْـعُـفَـاةَ
وَتَـغْـفِـرُ لِـلْـمُـذْنِـبِ الْـجَـاهِـلِ [(٣)]

فَـهَـنَّـأَكَ الـنَّـصْـرَ مُـعْـطِـيـكَـهُ
وَأَرْضَـاهُ سَـعْـيُـكَ فِـي الآجِـلِ [(٤)]

فَـذِي الـدَّارُ أَخْـوَنُ مِـنْ مُـومِـسٍ
وَأَخْـدَعُ مِـنْ كِـفَّـةِ الْـحَـابِـلِ [(٥)]

= للقتال، ولم يتهيّأ له، إنه بمثابة الحافي، والأمر بحاجة إلى الاستعداد الكامل، ومع ذلك فقد داس الخارجي برجل القوّة.

(١) الشية: بقعة لونها يُخالف سائر لون الجلد. الأبلق: ما اختلط الأبيض والأسود فيه من الألوان. الجائل: الذي يجول بين صفين. ينوّه الشاعر بما لقي هذا الانتصار من صدًى في البلاد؛ فالكلّ يتذاكرون ويتحدّثون بإعجاب عن هذا النصر المبين، إنه بمثابة بقعة في جلد جواد يجول بين سرب من الخيول، وما يُميّزه من سواه تلك الشية.

(٢) الردى: الموت. الواغل: الذي يدخل على الشرب بلا دعوة. يُنوّه الشاعر بأعمال سيف الدولة الحربية التي انتصر فيها، فليس هذا اليوم فريداً في كفاح الأمير، ولكنه أحدها، وكأنه بمثابة واغلٍ بين جماعة كثيرة حشر نفسه ليكون مصدر اعتزازها وفخرها القائم بها.

(٣) العناة: الواحد عانٍ: الأسير. العفاة، الواحد عافٍ: الفقراء، المحتاجين. يمدح الشاعر سيف الدولة، إنه رحيم بالأسرى فيفكّ قيودهم ويعيد لهم كرامتهم وحرّيّتهم. ويُعين الفقراء المحتاجين فيبذل لهم المال ويُغنيهم عن السؤال فيُوفّر لهم كرامتهم ويعينهم على الاعتزاز بأنفسهم، ومن طبيعته الحلم والصفح الجميل فيغفر لمن أساء إليه خطيئته، ويتغاضى عنها.

(٤) الآجل: المتأخر. يدعو الشاعر لممدوحه أن ينعم بما حقّقه من نصر، فقد يسّره له ربّه وأعانه عليه، وعمله مقبول من خالقه، وسوف يرضى عنه في آجل عمره.

(٥) المومس من النساء: الفاجرة. الكفّة: الشرك. الحابل: الصائد. يرى الشاعر أن =

تَـفَـانَـى الـرِّجَـالُ عَـلَـى حُـبِّـهَـا
وَمَـا يَـحْـصُـلُـونَ عَـلَـى طَـائِـلِ(١)

أعلى الممالك

قال عند مسيره لنصرة أخيه ناصر الدولة لما قصده معز الدولة بن الحسين الديلمي إلى الموصل، سنة سبع وثلاثين وثلاث مئة (٩٤٨م):

[البسيط]

أَعْـلَـى الـمَـمَـالِـكِ مَـا يُـبْـنَـى عَـلَـى الأَسَـلِ
وَالـطَّـعْـنُ عِـنْـدَ مُـحِـبِّـيـهِـنَّ كَـالْـقُـبَـلِ(٢)

وَمَـا تَـقِـرُّ سُـيُـوفٌ فِـي مَـمَـالِـكِـهَـا
حَـتَّـى تُـقَـلْـقَـلَ دَهْـراً قَـبْـلُ فِـي الْـقُـلَـلِ(٣)

مِـثْـلُ الأَمِـيـرِ بَـغَـى أَمْـراً فَـقَـرَّبَـهُ
طُـولُ الـرِّمَـاحِ وأَيْـدِي الْـخَـيْـلِ وَالإِبِـلِ(٤)

= الدنيا غادرة بأهلها لا يدوم لها ودّ كمومس لا تخلص لمخلوق، تتلوّن بألوان شتّى، فمكرها أشدّ من شبكة صياد، فلا يُفلت من شركها من سكن إليها واطمأنّ.

(١) الطائل: ما يستطيع المرء تحقيقه. إنها طبيعة البشر لتعمر الدنيا، فكلّهم يجهدون في سبيل استرضائها، فحبّها ملك عليهم قلوبهم وعقولهم، ويتفانى الخلق فيها، وتكون النتيجة الأليمة حفنة تراب تُرضي غرورهم، فلا يحصلون على طائل، فهم يرحلون تاركين كلّ شيء ليبقى طعماً لغيرهم، وهكذا تمرّ الحياة.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٩. الأسل، الواحدة أسلة: الرماح. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع ملحميّ يتوافق مع موضوع المدح. لا تُشاد الممالك إلّا بالقوّة والقدرة، وترتفع أركانها بالرماح، لذا فعلى من يتصدّى لعمل كهذا أن يتعرّض للطعن والمجاهدة، إنها قبل يلذّ طعمها لمن يبغي تحقيقها.

(٣) تقلقل: تتحرك بعنف. القلل، الواحدة قلّة: أعلى الرأس. يذكر الشاعر حال استقرار الممالك؛ ينتج استقرارها بالدفاع عنها بالسيوف تقطع دابر الفتن وتقضي على الأعداء. وسبب ذلك أن الديلميّ قد انصرف عن الموصل لما وجد أن سيف الدولة أراد منازلته، فرحل بسلام دون إراقة الدماء.

(٤) بغى: أراد وطلب. يُخاطب الشاعر الأمير أن ما يطلبه يُحقّقه بإرادته الصلبة وعزيمته القوية، وما يجعله سريع التحقيق السلاح من رماح وخيل وإبل وجند.

وَعَـزْمَـةٌ بَـعَـثَـتْـهَـا هِـمَّـةٌ زُحَـلٌ
مِنْ تَحْتِهَا بِمَكَانِ التُّرْبِ مِنْ زُحَلِ (١)

عَلَى الْفُرَاتِ أَعَاصِيرٌ وَفِي حَلَبٍ
تَوَحُّشٌ لِمُلَقَّى النَّصْرِ مُقْتَبَلِ (٢)

تَتْلُو أَسِنَّتُهُ الْكُتْبَ الّتِي نَفَذَتْ
وَيَجْعَلُ الْخَيْلَ أَبْدَالاً مِنَ الرُّسُلِ (٣)

يَلْقَى الْمُلُوكَ فَلَا يَلْقَى سِوَى جَزَرٍ
ومَا أَعَدُّوا فَلَا يَلْقَى سِوَى نَفَلِ (٤)

صَانَ الْخَلِيفَةُ بِالأَبْطَالِ مُهْجَتَهُ
صِيَانَةَ الذَّكَرِ الْهِنْدِيِّ بِالْخِلَلِ (٥)

---

(١) ورد البيت في: الخصائص، لابن جني ٢ : ١٧١. يُردف الشاعر معقباً حديثه أن تحقيق ذلك مبعثه همّة عالية تفوق كلّ احتمال، حتى تصل إلى المستحيل فيجعله قابل الوقوع، لقد تخطّت تلك الهمة زحل ذلك النجم الذي يتربّع عرش السماء؛ إنها في أسمى مكان.

(٢) الأعاصير، الواحد إعصار: ريح عنيفة تنتقل بشكل لولبيّ يتصاعد في السماء، فتدمّر كلّ ما يُواجهها. التوحّش: الشعور بالوحشة. ثَمّة نُذُر بحرب تبدو طلائعها على نهر الفرات، حيث يعسكر ناصر الدولة، وفي حلب شوق واشتياق لمرأى سيف الدولة، فقد أوحشت منه حلب عاصمته.

(٣) تتلو: تتبع. أسنّته: رماحه. نفذت: بلغت. يمدح الشاعر ممدوحه بشجاعة عظيمة لذلك فإنه يُرسل كتبه ليُنذر من أراد إنذاره، فإذا فعلت الكتب فعلها، وارتدع المعتدون، وإن لم يكن ذلك كان الجيش بسلاحه، رماحه وسيوفه وعلى رأسه الأمير رحالة القوّة، فكان ذلك خير الكتب.

(٤) الجزر: الذبح طعام السباع. النفل: الغنيمة. يتحدّث الشاعر عن علاقة سيف الدولة بالملوك المعادين له، فلقاؤه لهم يحمل لهم موتاً فهو يتركهم جزر السباع ينهشون لحومهم، وما معهم من عتاد وأموال يتركها سلباً لجنده.

(٥) الذكر الهندي: السيف المصنوع في الهند. الخلل: أغشية الأغماد، يذكر الشاعر شدّة اهتمامه بسيف الدولة؛ فقد عرف الخليفة بالأمير سيفاً لا بدّ من صيانته والمحافظة عليه، فأوفد إليه الخيرة من الجند المتمرّسين بفنون القتال يحفظونه ويصونونه ويُساعدونه في حروبه لحماية الخلافة من الانهيار.

الْفَاعِلُ الْفِعْلَ لَمْ يُفْعَلْ لِشِدَّتِهِ
وَالْقَائِلُ الْقَوْلَ لَمْ يُتْرَكْ وَلَمْ يُقَلِ (١)

وَالْبَاعِثُ الْجَيْشَ قَدْ غَالَتْ عَجَاجَتُهُ
ضَوْءَ النَّهَارِ فَصَارَ الظُّهْرُ كَالطَّفَلِ (٢)

أَلْجَوُّ أَضْيَقُ مَا لاقَاهُ سَاطِعُهَا
وَمُقْلَةُ الشَّمْسِ فِيهِ أَحْيَرُ الْمُقَلِ (٣)

يَنَالُ أَبْعَدَ مِنْهَا وَهْيَ نَاظِرَةٌ
فَمَا تُقَابِلُهُ إِلَّا عَلَى وَجَلِ (٤)

قَدْ عَرَّضَ السَّيْفَ دُونَ النَّازِلَاتِ بِهِ
وَظَاهَرَ الْحَزْمَ بَيْنَ النَّفْسِ وَالْغِيَلِ (٥)

---

(١) يمدح الشاعر سيف الدولة بمزايا عديدة؛ منها أن فعله لا تُشبهه أعمال غيره من الأمير، ممَّا يُميّزه عنهم بأعماله العظيمة المبتكرة، كما أنه فصيح اللسان ينطق بالحكمة، فمنه يستقي الفصحاء فصحتهم، ومنه يتعلّم الخطباء بلاغتهم.

(٢) و (٣) غال: أهلك، العجاجة: الغبار. الطفل: الأصيل عند الغروب. ينوّه الشاعر بقوّة الأمير العسكرية، فجيشه كثير العدد والعُدد، وإذا أرسله في بعث ملأ الأرض، فإذا بالغبار يتصاعد في كبد السماء، فإذا بشمس الظهيرة تغيب، فيبدو النهار على وشك الغروب مصبوغاً بصفرة الموت الآذن بالأفول، وقد ضاقت الأنفاس؛ شمس حارقة ساطعة، فعينها حائرة بين ليل ونهار.

(٤) الوجل: الخوف، ومن مغالاة الشاعر أن الشمس خائفة يُرعبها جيشه العظيم الذي غطّ الأرض، فإذا بالغبار يتصاعد، ممَّا أثار لديها خوفاً من أن يقصدها الأمير بأذًى لبعد همته، فإذا أراد شيئاً كان في حال إرادته.

(٥) عرضه: جعله معترضاً. النازلات: الويلات. ظاهر: لبس ثوباً فوق آخر. الغيل، الواحدة غيلة: القتل غدراً. يمدح الشاعر ممدوحه بالحرص الشديد والحزم، فقد استعان بسيفه لحسم كل المصائب والويلات التي تعترضه في حياته فلا تنزل بساحته، ممَّا يجعله في حماية من الوقوع في الهلاك، وقد لبس الحزم فوق الدرع التي تحميه من مفاجآت الغدر؛ إنه أسلوب ناجح ناجع في المحافظة على الحياة لدى السلاطين.

وَوَكَّلَ الظَّنَّ بِالأسْرَارِ فَانْكَشَفَتْ
لَهُ ضَمَائِرُ أهْلِ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ (١)

هُوَ الشُّجَاعُ يَعُدُّ البُخْلَ مِنْ جُبُنٍ
وَهْوَ الْجَوَادُ يَعُدُّ الْجُبْنَ مِنْ بَخَلِ (٢)

يَعُودُ مِنْ كُلِّ فَتْحٍ غَيْرَ مُفْتَخِرٍ
وَقَدْ أَغَذَّ إلَيْهِ غَيْرَ مُحْتَفِلِ (٣)

وَلَا يُجِيرُ عَلَيْهِ الدَّهْرُ بُغْيَتَهُ
وَلَا تُحَصِّنُ دِرْعٌ مُهْجَةَ الْبَطَلِ (٤)

إذَا خَلَعْتُ عَلَى عِرْضٍ لَهُ حُلَلاً
وَجَدْتُهَا مِنْهُ فِي أَبْهى مِنَ الْحُلَلِ (٥)

---

(١) يمدح الشاعر ممدوحه بسوء الظنّ بالناس، فهو يُمارس حرصاً شديداً، وهو ذو فراسة ومعرفة بأحوال حاشيته وملوك عصره، يعرف ما يُضمرون له من حبّ أو كراهة.

(٢) يعدّد الشاعر من مزايا لممدوحه أنه شجاع يسخو في الحرب بنفسه لأنه يعتبر الجبن بخلاً، فالمرء لا بدّ ميّت، ولكنه يموت مرّة واحدة فقط، والجبان يموت في كلّ يوم مئة مرّة. وأنه جواد كريم والكرم محبب إلى النفوس المفطورة على حبّ الخير، والبخل جبن يدفع البخيل إلى الإمساك مخافة الفقر الذي يتحسّب له في كلّ وقت.

(٣) أغذّ في سيره: أسرع. احتفل في الأمر: اهتمّ به. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه كثير الفتوحات، يُسرع إلى الانتصارات، ويعود منها لا يفتخر بانتصاراته الحربية المتتالية، ولا يهتم بهذا الأمر لأنه اعتاد النصر، فلا يُفاجأ به ولا يستغربه، ومن اعتاد على شيء أصبح عادياً بالنسبة إليه.

(٤) أجار عليه: منعه من بُغيته. يحصّن: يحمي. مهجة: روح. ينوّه الشاعر بأن حظّ ممدوحه مؤاتٍ يستجيب لإرادته، فإذا أراد شيئاً توفّرت له أسباب نجاحه فالدهر إلى جانبه لتحقيق ما أراد، وإذا طلب أحداً من عدوه فلا يحول مانع دون طلبته، فلا يعصمه مخلوق من الموت إن أراد موته ولو تدرّع بدرع يحميه أو حصن يلجأ إليه، فلا بدّ من هلاكه.

(٥) يروى «جعلت» بدلاً من «خلعت». رغم اعتزاز الشاعر بمدحه، فإن مدحه لسيف الدولة يجعل شعره في أبهى صوره لأنه يستمدّ منه بهاءه ورونقه. ولو فعل ذلك مع غيره لكان شعره يُزيّن من مدحه لأنه فوق من مدح.

بِـذِي الْـغَـبَـاوَةِ مِـنْ إِنْـشَـادِهَـا ضَـرَرٌ
كَـمَـا تُـضِـرُّ رِيَـاحُ الْـوَرْدِ بِـالْـجُـعَـلِ[١]
لَـقَـدْ رَأَتْ كُـلُّ عَـيْـنٍ مِـنْـكَ مَـالِـئَـهَـا
وَجَـرَّدَتْ خَـيْـرَ سَـيْـفٍ خِـيـرَةُ الـدُّوَلِ[٢]
فَـمَـا تُـكَـشِّـفُـكَ الْأَعْـدَاءُ مِـنْ مَـلَـلٍ
مِـنَ الْـحُـرُوبِ وَلَا الْآرَاءُ عَـنْ زَلَـلِ[٣]
وَكَـمْ رِجَـالٍ بِـلَا أَرْضٍ لِـكَـثْـرَتِـهِـمْ
تَـرَكْـتَ جَـمْـعَـهُـمْ أَرْضاً بِـلَا رَجُـلِ[٤]
مَـا زَالَ طِـرْفُـكَ يَـجْـرِي فِـي دِمَـائِـهِـم
حَـتَّـى مَـشَـى بِـكَ مَـشْـيَ الـشَّـارِبِ الـثَّـمِـلِ[٥]

---

(١) يفخر الشاعر بموهبته الشعرية، يرى نفسه فوق غيره من الشعراء، وهذا حقّ، فمن الغباء أن يُنشد غيره شعره لأنه سيتكشف له تقصيره، ممَّا يُثير فيه حسداً وغيرة تُلحق به ضرراً عظيماً، وتكون النتيجة عليه وبالاً، فيعمل على الكيد للمتنبي بشتّى الصور.

(٢) يروى «جرّبت» بدلاً من «جرّدت». يمدح الشاعر الأمير بأنه رجل بمعنى الكلمة، يُثير في عيون الناس إعجاباً ومهابة واحتراماً، وهو فضلاً عن ذلك خير سيف يعمل على حماية الدولة، إنها خير الدول في عصرها.

(٣) كشفه عن شيء: أجبره على إظهاره. يُنوّه الشاعر بشدّة حبّ الأمير خوض المعارك، رغم كثرتها، فإنه لم يملّ ذلك، فالأمر بالنسبة إليه عادة لا يتخلّى عنها مهما كانت الظروف. كما أنه يمتاز بآرائه الصائبة فلا يُعرف عنه زلل أو خطأ لأن ذلك عن معرفة بأسرار الوجود ومعرفة أحوال البشر.

(٤) يمدح الشاعر ممدوحه بقوّة بطش؛ جيوش كثيرة قد جمعت للقضاء عليه، ملأت الأرض بعددها، فإذا بهم طعم سيفه فأفناهم، وخلت الأرض منهم، فبقيت تنعاهم، ولا رجل عليها يحميها من غضبه.

(٥) الطرف: الجواد الكريم. الثامل: السكران. يُقاتل الأمير وهو يمتطي طِرفاً جميلاً كريم الأصل يصول على جماجم الأعداء ويغوص في دمائهم، ومن شدّة فرحه واعتزازه بفارسه فإنه يمشي مشية الاعتزاز بفارسه كأنه ثمل من شدّة ما شرب من الخمرة وانتشى.

يَـا مَـنْ يَـسِـيـرُ وَحُـكْـمُ الـنَّـاظِـرَيْـنِ لَـهُ
فِي مَا يَرَاهُ وَحُكْمُ الْقَلْبِ فِي الْجِذَلِ[١]

إنَّ الـسَّـعَـادَةَ فِـي مَـا أَنْـتَ فَـاعِـلُـهُ
وُفِّـقْـتَ مُـرْتَـحِـلاً أَوْ غَـيْـرَ مُـرْتَـحِـلِ[٢]

أَجْرِ الْجِيَادَ عَلَى مَا كُنْتَ مُجْرِيهَا
وَخُذْ بِنَفْسِكَ فِي أَخْلَاقِكَ الأُوَلِ[٣]

يَـنْـظُـرْنَ مِـنْ مُـقَـلٍ أَدْمَـى أَحِـجَّـتَـهَـا
قَـرْعُ الْـفَـوَارِسِ بِـالْـعَـسَّـالَـةِ الـذُّبُـلِ[٤]

فَـلَا هَـجَـمْـتَ بِـهَـا إلَّا عَـلَـى ظَـفَـرٍ
وَلَا وَصَـلْـتَ بِـهَـا إلَّا عَـلَـى أَمَـلِ[٥]

---

(١) الناظران: العينان. الجذل: السرور. يصف الشاعر ممدوحه برهافة الذوق الراقي، وذلك من علامات التحضّر العالي في عالم المدنية، فإذا راق لعينيه شيء عمل على الحصول عليه بشتّى الوسائل ولا يحول دونه حائل، أو يقف في وجهه مانع، فضلاً عن دواعي المسرّة التي يستجيب لها قلبه ممَّا ينفي عنه التزمّت البغيض.

(٢) و (٣) يدعو الشاعر لممدوحه بالتوفيق الدائم في سائر أعماله، سواء أكان في رحلات القتال أم لم يترك حلب موطنه، ودواعي التوفيق تستوجب الاستمرار على ما اعتاد عليه الأمير، لذا يدعوه الشاعر إلى عدم التخلّي عن عادته محاربة الأعداء في كلّ وقت ومكان.

(٤) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١ :٢٤٨. الأحِجَّة، الواحد حجاج: عظم فوق العين. العسالة: الرماح اللينة. الذبل، الواحد ذبل: اليابس. يتحدّث الشاعر عن خيول الأمير، إنها تنظر بعيون قد أدمى حجاجها قرع الفوارس برماحهم مقادمها، ففرسانها لا يفرّون من المعركة بل إنهم يُواجهون أعداءهم، ولذا تدمى عيونها.

(٥) يخاطب الشاعر داعياً له بدوام الخير بأن تلك الخيول في صولتها يكون النصر والظفر، إنها عونه على تحقيق كلّ خير، فيها يُحقق آماله وأحلامه.

الموت ضرب من القتل

يرثي أبا الهيجاء عبد الله ابن سيف الدولة بحلب وقد توفي بميافارقين في صفر سنة ثمان وثلاثين وثلاث مئة (٩٤٩م):

[الطويل]

بِنَا مِنْكَ فَوْقَ الرَّمْلِ مَا بِكَ في الرَّمْلِ
وَهٰذَا الَّذِي يُضْنِي كَذَاكَ الذي يُبْلِي (١)

كَأَنَّكَ أَبْصَرْتَ الَّذِي بِي وَخِفْتَهُ
إذَا عِشْتَ فَاخْتَرْتَ الحِمَامَ عَلَى الثُّكْلِ (٢)

تَرَكْتَ خُدُودَ الْغَانِيَاتِ وَفَوْقَهَا
دُمُوعٌ تُذِيبُ الْحُسْنَ في الأَعْيُنِ النُّجْلِ (٣)

تَبُلُّ الثَّرَى سُوداً مِنَ الْمِسْكِ وَحْدَهُ
وَقَدْ قَطَرَتْ حُمْراً عَلَى الشَّعَرِ الْجَثْلِ (٤)

---

(١) يبدأ الشاعر قصيدته الرثائية مخاطباً المتوفّى معبّراً عن حزنه وشدّة ألمه لقد طوته المنيّة فذوي في باطن الأرض، وهو في عالم الموت، ومعاناة الموت فوق الأرض أصعب لمصاحبته الحزن والألم والذكرى فيُبلي الأجساد ويُسقمها ويُميت الأرواح ويسلبها طعم لذّة الحياة.

(٢) الحِمام، بسكر الحاء: الموت. الثكل: ألم فقد الأمّ أولادها. يعزو الشاعر سبب موت المتوفى لأنه علم شدّة حبّ الشاعر له وتعلّقه به، فخاف أن يتألّم لفقده ويُبتلى بمثل حبّه له لو بقي على قيد الحياة، لذا اختار الموت ليُخفّف عن نفسه ألم الفراق.

(٣) الغانيات، الواحدة غانية: التي غنيت بجمالها عن استعمالها أدوات التجميل، أو التي استغنت بزوجِها. الأعين النجل: الواسعة الجميلة. في العادة أن موت الشباب من كلا الجنسين يُدمي القلوب ويُؤلمها، والأمر يتعلّق بأمير شاب، فمن الطبيعي أن تبكيه الغانيات الجميلات أسفاً على شبابه الغضّ فإذا بأعينهن قد فارقها الحسن لكثرة بكائهن، فإذا به يذوب في أعينهن ممّا يُفقدهن النضرة والجمال.

(٤) الثرى: التراب. الجثل: الكثّ. يُردف الشاعر حديثه عن شدّة تأثر الغانيات لموت الأمير، فإذا بدموعهن تبلّ التراب لشدّة تأثرهن بالفاجعة، وقد صبغت بالسواد لون الحزن، إنه لون المسك، والمسك طيب الرؤوس التي تركت بلا تسريح وتدلّت شعورهن الكثّة على الخدود، فصبغتها بالسواد الحزين ممّا أفقدهن شيئاً من حسنهن وجمالهن.

فَـإنْ تَـكُ فِـي قَـبْـرٍ فَـإنَّـكَ فـي الْـحَـشَـا
وَإنْ تَـكُ طِـفْـلاً فَـالْأَسَـى لَـيْـسَ بِـالـطِّـفْـلِ (١)

وَمِـثْـلُـكَ لَا يُـبْـكَـى عَـلَـى قَـدْرِ سِـنِّـهِ
ولٰـكِـنْ عَـلَـى قَـدْرِ الـمَـخِـيـلَـةِ وَالأَصْـلِ (٢)

أَلَـسْـتَ مِـنَ الْـقَـوْمِ الْأُلَـى مِـنْ رِمَـاحِـهِـمْ
نَـدَاهُـمْ وَمِـنْ قَـتْـلَاهُـمُ مُـهْـجَـةُ الـبُـخْـلِ (٣)

بِـمَـوْلُـودِهِـمْ صَـمْـتُ الـلِّـسَـانِ كَـغَـيْـرِهِ
وَلَـكِـنَّ فـي أَعْـطَـافِـهِ مَـنْـطِـقَ الْـفَـضْـلِ (٤)

تُـسَـلِّـيـهِـمِ عَـلْـيَـاؤُهُـمْ عَـنْ مُـصَـابِـهِـمْ
وَيَـشْـغَـلُـهُـمْ كَـسْـبُ الـثـنَـاءِ عَـنِ الـشُّـغْـلِ (٥)

أَقَـلُّ بَـلَاءٍ بِـالـرَّزَايَـا مِـنَ الْـقَـنَـا
وَأَقْـدَمُ بَـيْـنَ الْـجَـحْـفَـلَـيْـنِ مِـنَ الـنَّـبْـلِ (٦)

---

(١) الأسى: الحزن. يُخاطب الشاعر الفقيد، لقد ضمّه القبر وترك القلوب مفعمة بذكراه الطيبة، فضلاً عن أسىً لاعج، وإن يكن طفلاً فالحزن في القلوب كبير عظيم ليس بالطفل.

(٢) المخيلة: ما يُؤمل بالمرء من خير وفراسة، يُخاطب الشاعر الفقيد؛ إنهم يبكون عليه، رغم صغر سنه، أصل المنبت العظيم ويُؤمل به من خير، إنه أمل ورجاء بمستقبل زاهر، فقد يكون في يوم ما ملكاً عظيماً.

(٣) يُخاطب الشاعر المرثي سائلاً ومقرّراً أنه ينتسب إلى قوم كرام أجواد يستعينون برماحهم لقتل البخل بجودهم، فإذا بهم يطعنون صميم البخل بتلك الرماح.

(٤) الأعطاف، الواحد عطف: الجانب. إن المتوفى وليد لم يُحسن النطق بعد، كغيره من أترابه، ولكنه مع ذلك فليس كسائر الأطفال؛ يُؤمل منه أن يكون كأهله فاضلاً كريماً؛ فالفضل في أعطافه يُنبئ بما سيكون عليه ويُتوسّم في مخايله كلّ خير.

(٥) المصائب: الفاجعة الأليمة. يمدح الشاعر آل بيت الفقيد بأنهم ينتمون إلى أنساب شريفة رفيعة، وهذا ما يحملهم على نسيان مصابهم الأليم، فثمّة ما يُلهيهم عن مصابهم تطلّعهم إلى كسب الثناء والمعالي، إنهم لا ينال منهم الجزع على طفل صغير، وإن حزنوا، وذلك من طبائع البشر الذين يتّسمون برقّة المشاعر وصدقها.

(٦) البلاء: المصيبة. الرزايا، الواحدة رزية: المصائب والويلات. القنا: الرماح. =

عَـزَاءَكَ سَـيْـفَ الـدَّوْلَـةِ الـمُـقْـتَـدَى بِـهِ
فَـإِنَّـكَ نَـصْـلٌ وَالـشَّـدَائِـدُ لِـلـنَّـصْـلِ[١]

مُـقِـيـمٌ مِـنَ الْـهَـيْـجَـاءِ فِـي كُـلِّ مَـنْـزِلٍ
كَـأَنَّـكَ مِـنْ كُـلِّ الـصَّـوارِمِ فـي أَهْـلِ[٢]

وَلَـمْ أَرَ أَعْـصَـى مِـنْـكَ لِـلْـحُـزْنِ عَـبْـرَةً
وَأَثْـبَـتَ عَـقْـلاً وَالْـقُـلُـوبُ بِـلَا عَـقْـلِ[٣]

تَـخُـونُ الـمَـنَـايـا عَـهْـدَهُ فِـي سَـلِـيـلِـهِ
وَتَـنْـصُـرُهُ بَـيْـنَ الْـفَـوَارِسِ وَالـرَّجْـلِ[٤]

= الجحفل: الجيش العظيم، يمدح الشاعر آل الفقيد بالصبر والجلد أمام المحن، فسرعان ما يتخطّوْن حالة الحزن، لذا فهم لا يُعطون لهذه القضية أكثر ممّا تستحقّ من اهتمام، ومن طبيعتهم الإقدام كرماح لا ترتدّ إلى الوراء بل إنها تشرّع إلى صدور الأعداء حالما يلتقي القوم بأعدائهم، فهم لا ينقصون على أعقابهم كنبل لا يرتدّ إلى الوراء، بل باستمرار وجهتهم إلى الأمام.

(١) و(٢) النصل: حديدة السيف. الهيجاء: من أسماء الحرب. الصوارم، الواحد صارم: السيف البتّار. يُخاطب الشاعر سيف الدولة متوسّلاً إليه أن يتعزّى بما حصل عزاء الملوك، فسائر الناس يقتدون بملوكهم، ويتعلّمون منهم أسلوب حياتهم، وكونه سيفاً متمرّساً بالحروب فلا يهتمّ بالموت ولا ينحني أمام طوارق الأزمات بل يصمد صمود الأقوياء الذين يُقارعون الحديد في ميادين القتال في كلّ وقت وكلّ مكان، ونشأ بينه وبين السيوف ودّ وألفة وعادة، حتى لكأنهما أهل.

(٣) العَبرة، بفتح العين: الدمعة. يُثير الشاعر في نفس ممدوحه قوّة الصبر على ما ألمّ به، إنه لم ير أثبت منه في حالات الحزن والفواجع، وهو عصيّ الدمع لا ينحني أمام المحن، إنه يُعمل عقله في كلّ الأمور ولا يتصرّف بقلبه، لأن من خبر الحروب والحروب إخوة العقول لا القلوب الرقيقة الشديدة الإحساس.

(٤) المنايا، الواحدة منيّة: الموت. السليل: الأولاد. إن شأن الموت عجيب مع رجل لطالما مارس لعبة الموت، فالموت إلى جانبه ينصره على أعدائه الأقوياء الفرسان والرجالة من المقاتلة فيجعلهم طعم الموت، والموت في نفس الوقت خائن يختطف ولده فلا يُراعي له حرمة ولا يهتمّ لوالد يفقد ولده أمل مستقبله وعونه.

وَيَبْقَى عَلَى مَرِّ الْحَوَادِثِ صَبْرُهُ
وَيَبْدُو كَمَا يَبْدُو والْفِرِنْدُ عَلَى الصَّقْلِ (١)
وَمَنْ كَانَ ذَا نَفْسٍ كَنَفْسِكَ حُرَّةٍ
فَفِيهِ لَهَا مُغْنٍ وَفِيهَا لَهُ مُسْلِ (٢)
وَمَا الْمَوْتُ إلَّا سَارِقٌ دَقَّ شَخْصُهُ
يَصُولُ بِلَا كَفٍّ وَيَسْعَى بِلَا رِجْلِ (٣)
يَرُدُّ أَبُو الشِّبْلِ ٱلْخَمِيسَ عَنِ ٱبْنِهِ
وَيُسْلِمُهُ عِنْدَ الْوِلَادَةِ لِلنَّمْلِ (٤)
بِنَفْسِي وَلِيدٌ عَادَ مِنَ بَعْدِ حَمْلِهِ
إلَى بَطْنِ أُمٍّ لا تُطَرِّقُ بِٱلْحَمْلِ (٥)

---

(١) الفرند: جوهر السيف. يمدح الشاعر في ممدوحه صبره العجيب أمام الشدائد والحوادث الجسام، فيبقى صامداً ويظهر عنصر الملوك والأبطال على حقيقته تماماً كما يُجلى السيف ويصقل فيبدو فرنده وقد اختفى الصدأ الذي يظهر على حقيقته.

(٢) يُردف الشاعر مبدياً رأيه بأن ممدوحه ذو نفس عزيزة كريمة، وهذا يكفيه ليتماسك أمام المحن والشدائد، مما يحمله على السلوى، والبشر لا بدّ لهم من شرب هذا الكأس راغمين، وتلك من مصائب الدهر، وعليه يتوجّب أن يقبل بفقد أحبائه راضياً محتسباً.

(٣) دقّ شخصه: شفّ ورقّ. يُعطي الشاعر رأيه بالموت، إنه شخص لا يتمثّل بشكل من الأشخاص، بل إنه فكرة، فلو كان شخصاً لسهلت مواجهته وأمكن القضاء عليه ولكنه سارق من نوع آخر، يمتاز بشفافية ورقّة بحيث لا يُرى، فأيديه تسلب الحياة من البشر، وإن كانت بلا كفّ وسعيه لا يكون برجل.

(٤) الشبل: ولد الأسد. الخميس: الجيش المؤلف من خمس فرق. يأتي الشاعر بمثال مفاده أن الأسد يُقاتل بشراسة عن شبله يحميه من غائلة الطامعين بهلاكه، ولكنه، للأسف، لا يستطيع حمايته من أضعف المخلوقات وأحقرها؛ فإنّ النمل يغزو الشبل الصغير ويتلبّسه فيُودي به إلى التهلكة، أورد الشاعر لممدوحه المثل كي يتعزّى بأقوى الحيوانات، فرغم قوتها تبقى عاجزة وقاصرة عن مواجهة الأقدار، تماماً كالأمير، إنه يقود الجيوش ويُودي بها إلى الموت، ومع ذلك فقد ضعف أمام الموت، فأسلم صغيره إليه مرغماً، ولم يستطع محاربته.

(٥) طرقت المرأة: عسرت ولادتها. يُعلن الشاعر استعداده لأن يُضحي بنفسه لو كان =

بَـدَا وَلَـهُ وَعْـدُ الـسَّـحَـابَـةِ بِـالـرِّوَى
وَصَـدَّ وَفِـيـنَـا غُـلَّـةُ الْـبَـلَـدِ الْـمَـحْـلِ [١]

وَقَـدْ مَـدَّتِ ٱلْـخَـيْـلُ الْـعِـتَـاقُ عُـيُـونَـهَـا
إِلَـى وَقْـتِ تَـبْـدِيـلِ الـرِّكَـابِ مِـنَ الـنَّـعْـلِ [٢]

وَرِيـعَ لَـهُ جَـيْـشُ الْـعَـدُوِّ وَمَـا مَـشَـى
وَجَاشَتْ لَهُ الْحَرْبُ الضَّرُوسُ وَمَا تَغْلِي [٣]

أَيَـفْـطِـمُـهُ الـتَّـوْرَابُ قَـبْـلَ فِـطَـامِـهِ
وَيَـأْكُـلُـهُ قَـبْـلَ الْـبُـلُـوغِ إِلَـى ٱلْأَكْـلِ [٤]

= الأمر بيديه لدفع الموت عن الصغير، ولكن الأمر أن الطفل قد استأثرت به أم لا تتخلّى عن من تحتضنه، فلا تُعيده إلى عالم الأحياء، لصعوبة عسر الولادة عندها.

(١) الرِّوى، بكسر الراء: الإشباع. الغلّة: العطش. المحل: المجدب والقاحل. عاد الشاعر إلى الحديث عن الوليد، فقد كان مولده بشرى سارّة تعد بموسم خير ورواء كأن في الأفق سحابة تعلن عن مستقبل زاهر، وبلا ومضات تنذر بالرحيل المفاجئ رحل تاركاً غُصة في النفوس وإحساساً بالعطش كأن في القلوب عطشاً شبيهاً بأرض تخطتها سحب تنذر برياح ورعود.

(٢) الخيل العتاق: كرائمها. الركاب: حيث يضع الفارس رجليه من السرج، إنه رحيل سريع حمل معه من كانت الخيول العتاق تُهيّأ ليعتليَ متونها في حال بلغ سنًّا يُعينه على امتطائها، وقد بذل نعليه بنعال الرجال.

(٣) ريع: أخيف. جاشت: هاجت وفارت. الضروس: التي لا هوادة فيها فهي تعضّ أصحابها. لقد كان مولد الطفل إيذاناً بحروب، فإذا بالأعداء يحسبون له ألف حساب، وقد دبّ الخوف في نفوسهم حتى كأن الحرب الضروس قد قامت فعلاً، ولم يضرب الطفل بسيف حتى لم يُتح له حمله، فكيف لو عاش؟

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٦. التوراب: لغة في التراب. الفطام: الحؤول دون الصبيّ والرضاع. يستنكر الشاعر كيف أن التراب استأثر به وفطمه، ولم يبلغ مرحلة الفطام من قبل أمه، ولم يكتف التراب بحرمانه من حقّه بالرضاع، فإذا به يلتهم جسده قبل أن يستعين بالأكل لينمو فالتراب نهم لا يكتفي بالقليل ولا حتى بالكثير.

وَقَـبْـلَ يَـرَى مِـنْ جُـودِهِ مَـا رَأَيْـتَـهُ
وَيَـسْـمَـعُ فِـيـهِ مَـا سَـمِـعْـتَ مِـنَ الْـعَـذْلِ(١)

وَيَـلْـقَـى كَـمَـا تَـلْـقَـى مِـنَ الـسِّـلْـمِ وَالْـوَغَـى،
وَيُـمْـسِـي كَـمَـا تُـمْـسِـي مَـلِـيـكـاً بِـلَا مِـثْـلِ(٢)

تُـوَلِّـيـهِ أَوْسَـاطَ الْـبِـلَادِ رِمَـاحُـهُ،
وَتَـمْـنَـعُـهُ أَطْـرَافُـهُـنَّ مِـنَ الْـعَـزْلِ(٣)

أَنَـبْـكِـي لِـمَـوْتَـانَـا عَـلَـى غَـيْـرِ رَغْـبَـةٍ
تَـفُـوتُ مِـنَ الـدُّنْـيَـا وَلَا مَـوْهِـبٍ جَـزْلِ(٤)

إِذَا مَـا تَـأَمَّـلْـتَ الـزَّمَـانَ وَصَـرْفَـهُ
تَـيَـقَّـنْـتَ أَنَّ الـمَـوْتَ ضَـرْبٌ مِـنَ الْـقَـتْـلِ(٥)

---

(١) و (٢) العذل: اللوم. يُخاطب الشاعر سيف الدولة، لقد رحل الصغير، وكان يُؤمل منه أن يكون كريماً، فلم ير أحد جوده، وقد أمل الناس منه خيراً كثيراً آملين أن يعلو نجمه فيُتْخمهم بفيض كرمه حتى يُلام من قبل العذّل، ويردّ عليهم بمزيد من البذخ والإنفاق رغماً عنهم، وحتى يقوم بالدور الذي يقوم بأعبائه أبوه، فبيديه السلم والحرب، يُوقد نارها إن أراد ويُطفئ لهيبها إن رغب، ويرث ملك أبيه فيكون فريداً لا شبيه له بين سائر الملوك.

(٣) يذكر الشاعر التي على أساسها يلي الملك باقتدار، يقود الجيوش ويُخضع البلاد لإرادته فيذعنون له راغمين بقوّة السلاح، فرماحه تذلّ أوساط البلاد، ولا يستطيع أحد عزله عمّا ملك، فتثبيت ملكه يكون بعزمه لا بالواسطة من غيره، فيعزله متى شاء ويُعيده متى أراد.

(٤) يروى «نُبكّي» بدلاً من «أنبكي»، الموهب: العطية. الجزل: الكثير، يسأل الشاعر ما بال البشر يبكون موتاهم؛ فالبكاء لا يُعيد ما سُلب، فالكلّ رحل وقد حصل على ما يستحقه في هذا الوجود، إنها نظرة تشاؤميّة، فالمرء يترك كلّ شيء ويعود إلى التراب لا يحمل شيئاً ممّا حصله في هذا الوجود، فالجاه متروك والفقر متروك، وكلّ شيء يفوته الإنسان ويرجع كما ولدته أمه سوى ما يُغطّي جسده إلّا عمله الصالح، فهو زاده.

(٥) يُخاطب الشاعر ممدوحه وسائر البشر أن تقلّبات الزمان وصروفه والخطّ البيانيّ لحياة =

وَمَــا الــدَّهْــرُ أَهْــلٌ أنْ تُــؤَمَّــلَ عِــنْــدَهُ
حَـيَـاةٌ، وَأَنْ يُـشْـتَـاقَ فِـيـهِ إِلَـى الـنَّـسْـلِ(١)

يا من يريد حياته لرجاله

وقال يمدح سيف الدولة:

[الكامل]

لَا ٱلْــحُــلْــمُ جَــادَ بِــهِ وَلَا بِــمِــثَــالِــهِ
لَــوْلَا ٱدِّكَــارُ وَدَاعِــهِ وَزِيَــالِــهِ(٢)
إِنَّ الــمُــعِــيــدَ لَــنَــا الــمَــنَــامُ خَــيَــالَــهُ
كَــانَــتْ إِعَــادَتُــهُ خَــيَــالَ خَــيَــالِــهِ(٣)

= سائر واحد ينتهي بفاجعة الموت؛ فالموت طريقة من طرق القتل التي تُودي بأبناء البشرية إلى حتوفهم، لذا فلا سبيل للبقاء في هذا الوجود، ومن حقّ الإنسان أن يترك أثراً يُذكر به، وهذا شأن العظماء منهم الذين تركوا للبشرية ما يُذكّرها بهم.

- ورد بعد هذا البيت أبيات ثلاثة لم ترد في الديوان، وهي التالية:

هَـلِ الـوَلَـدُ الـمَـحْـبُـوبُ إلَّا تَـعِـلَّـةٌ   وَهَلْ خَلْوَةُ الحسناءِ إلّا أذَى البَعْلِ؟
وَقَدْ ذُقْتُ حَلْوَاء البنينَ عَلَى الصِّبَا،   فَلَا تَحْسَبَنِّي قُلْتُ مَا قُلْتُ عَنْ جَهْلِ
وَمَا تَسَعُ الأَزْمانُ عِلْمِي بِأمْرِهَا،   وَلَا تُحْسِنُ الأَيَّامُ تَكْتُبُ مَا أُمْلِي

(١) يُخاطب الشاعر ممدوحه بخلاصة تجربته أن على المرء ألّا يركن إلى الحياة، فالدهر خوّان لا يُمكن اتّخاذه صديقاً وفيًّا، إنه لا يعين المرء على تحقيق ما يصبو إليه بل على العكس يحول دون ذلك إمعاناً في كيده، كما أن المرء عليه ألّا يحزن لموت أولاده، لأنهم قد يكونون بعده فتفجعهم الحياة بأنفسهم إن لم تفجع آباءهم بهم.

(٢) يبدأ الشاعر قصيدته المدحيَّة بمطلع غزلي. الحلم: النوم. المثال: الصورة. المزايلة: المفارقة. يتحدّث الشاعر عن صدود وهجر حبيبته، إنه ممتنع، فلا يزوره في ليل نجواه وقد غرق الكون في سُبات عميق، والشاعر يغفو علّه يرى طيف الحبيب، فالبخل حجب عنه حتى الخيال، فحتى صورته في وهم مخيّلته تكاد تكون مبهمة، ولولا التّذكّر لامحت الصورة تماماً من ذاكرته، فساعة الوداع لا تزال تُراود خياله، ومفارقته لا زالت ذكراه في الخيال.

(٣) أخيراً أفلح الشاعر أن يستحضر صورة محبوبته، ولكنها صورة منسوخة لا عن الأصل، بل إنها منسوخة عن مخيّلة باهتة الألوان ممسوخة الصورة ليوم الوداع إنها =

بِـتْـنَـا يُـنَـاوِلُـنَـا الـمُـدَامَ بِـكَـفِّـهِ
مَـنْ لَـيْـسَ يَـخْـطُـرُ أَنْ نَـرَاهُ بِـبَـالِـهِ (١)
نَـجْـنِـي الْـكَـوَاكِـبَ مِـنْ قَـلَائِـدِ جِـيـدِهِ
وَنَـنَـالُ عَـيْـنَ الـشَّـمْـسِ مِـنْ خَـلْـخَـالِـهِ (٢)
بِـنْـتُـمْ عَـنِ الْـعَـيْـنِ الْـقَـرِيـحَـةِ فِـيـكُـمُ،
وَسَـكَـنْـتُـمُ طَـيَّ الْـفُـؤَادِ الْـوَالِـهِ (٣)
فَـدَنَـوْتُـمُ وَدُنُـوُّكُـمْ مِـنْ عِـنْـدِهِ،
وَسَـمَـحْـتُـمُ، وَسَـمَـاحُـكُـمْ مِـنْ مَـالِـهِ (٤)
إِنِّـي لَأُبْـغِـضُ طَـيْـفَ مَـنْ أَحْـبَـبْـتُـهُ
إِذْ كَـانَ يَـهْـجُـرُنَـا زَمَـانَ وِصَـالِـهِ (٥)

= صورة الصورة. يستشف من ذلك أن الشاعر لا تزال بقيَّة حبّ في أركان قلبه لمن أحبّ، ولذا فإنه يسعى دائماً لاستحضار صورة حبيبته.

(١) فإذا ما حضرت الصورة راح يُحرّكها كما يحلو له، إنها تسقيه خمرة معتّقة بيدها، ولو كان الأمر حقيقة لما تنازلت وفعلت ما رآه في منامه، إنها بعيدة، فحتى لو كانت قريبة فلن تقوم بعمل كهذا، وإن تصوّر أن ذلك قابل التحقيق.

(٢) جنى: قطف. يصف الشاعر ما تصوّره يقوم به، إنها تتزين بالحليّ، فقد زين جيدها عقد ثمين، تتلألأ حبّات اللؤلؤ ممّا جعله يجتني منها قُبلات تطبع أنوارها على شفتيه، ولا يكتفي بذلك بل إنه يتناول ضياءً مشعاً كأنه ينبعث من خلخالها الذي ينشر ضياءه في المكان فيبدو كعين الشمس إشراقاً ودفئاً.

(٣) بان: رحل. القريحة: المجرّحة لكثرة بكائها. الواله: العاشق الولهان من شدّة الحب، فلا يعرف ماذا يفعل، يُخاطب الشاعر حبيبته على بعدها، فقد رحلت وأبقت عينيه باكيتين دامعتين، فآلمهما ذلك فتقرّحتا، ورغم بعدها، فقد احتلّت قلباً والهاً كان فارغاً من الهموم والأحزان، فإذا بها تجد ركناً هادئاً فتحتلّه رخيّة البال مطمئنة.

(٤) دنا: قرب. استحضر القلب حبيبته، وهذا يُسعد الشاعر، والأمر لم يكن منوطاً بإرادة الحبيبة، بل كان ذلك بإرادة التذكّر من الشاعر، وقد سمحت بما حصل، ولكن الأمر لم يتعلق بالمحبوبة؛ إنه الشاعر الذي استحصل على السماح بإرادته، لذا فلا مِنّة منها ولا جود؛ دون شكّ إنها بخيلة.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٩. الطيف: الخيال. يُعلن الشاعر =

مِـثْـلُ الـصَّـبَـابَـةِ وَالْـكَـآبَـةِ والأسَـى
فَـارَقْـتُـهُ فَـحَـدَثْـنَ مِـنْ تَـرْحَـالِـهِ(١)
وَقَـدِ ٱسْـتَـقَـدْتُ مِـنَ الـهَـوَى وَأَذَقْـتُـهُ
مِـنْ عِـفَّـتِـي مَـا ذُقْـتُ مِـنْ بَـلْـبَـالِـهِ(٢)
وَلَـقَـدْ ذَخَـرْتُ لِـكُـلِّ أَرْضٍ سَـاعَـةً
تَـسْـتَـجْـفِـلُ الـضِّـرْغَـامَ عَـنْ أَشْـبَـالِـهِ(٣)
تَـلْـقَـى الْـوُجُـوهُ بِـهَـا الْـوُجُـوهَ وَبَـيْـنَـهَـا
ضَـرْبٌ يَـجُـولُ الـمَـوْتُ فـي أَجْـوَالِـهِ(٤)
وَلَـقَـدْ خَـبَـأْتُ مِـنَ الْـكَـلَامِ سُـلَافَـهُ
وَسَـقَـيْـتُ مَـنْ نَـادَمْـتُ مِـنْ جِـرْيَـالِـهِ(٥)

= عن كرهه طيف حبيبته، والطيف في العادة يزور المحبّ في حال بعد الحبيب عن محبه، لأن الصورة والحقيقة لا يجتمعان، فإذا ذهب أحدهما حلّ الآخر بديلاً، ولما كان الطيف دائم الحضور، كان الأصل دائم الهجر والبعد، والشاعر يتمنّى لقاء الحبيب، فإن كان الطيف فهو أفضل من لا شيء في نظر الشاعر.

(١) الصبابة: شدّة الشوق ورقته. الكآبة: الحزن والأسى. يذكر الشاعر أنه فارق محبوبته وحلّ محلها في نفسه ميل وحبّ شديد ورقيق، يرافقه كآبة وحزن وأسىً، وتركت له خيالاً لا حياة فيه ولا رواء.

(٢) استقدت: اقتصصت وثأرت. البلبال: انشغال البال بالهموم والأحزان. يذكر الشاعر الطريقة التي ساعدته على الخلاص من ربقة هذا الحبّ من جانب واحد، فلما حضر الطيف كان جزاؤه انتقاماً حريراً الطيفاً ولكنه ينمّ عن عفّة صاحبه وترفّعه عن الوقوع في الفاحشة، وبخاصة أنه ذاق منه الأمرين، فقد شغل باله زمناً أرّقته فيه الهموم وملأت قلبه الأحزان.

(٣) تستجفل: تدعوه ليسرع في الهرب. الضرغام: من أسماء الأسد. أشبال الأسد: صغاره. يُعلن الشاعر عمّا عزم عليه ليتخلص من طيف حبيبته، لقد خصّص لكلّ مكان يودّ غزوه ساعة من الزمن، يجعل فيها الأسد القوي الشجاع يفرّ من أمامه تاركاً أشباله، لا يهتمّ إلّا بنفسه مؤثراً السلامة بينما أشباله يُواجهون بطش الشاعر وجبروته.

(٤) الأجوال، الواحد جول: النواحي: حيث يلتقي الأبطال بالأبطال ويتطاحنون ويحول الموت بينهم في تخطف الأرواح، ويشمل العراك مختلف نواحي ميدان المعركة.

(٥) السلافة: أجود أنواع الخمر. الجريال: الأحمر من الخمرة وهو دون السلافة. يُنوّه =

وَإذَا تَعَثَّرَتِ الْجِيَادُ بِسَهْلِهِ
بَرَّزْتُ غَيْرَ مُعَثَّرٍ بِجِبَالِهِ (١)
وَحَكَمْتُ فِي الْبَلَدِ الْعَرَاءِ بِنَاعِجٍ
مُعْتَادِهِ مُجْتَابِهِ مُغْتَالِهِ (٢)
يَمْشِي كَمَا عَدَتِ المَطِيُّ وَرَاءَهُ،
وَيَزِيدُ وَقْتَ جَمَامِهَا وَكَلَالِهِ (٣)
وَتُرَاعُ غَيْرَ مُعَقَّلَاتٍ حَوْلَهُ
فَيَفُوتُهَا مُتَجَفِّلاً بِعِقَالِهِ (٤)

= الشاعر بأنه أبقى خير شعره وهو بمنزلة السلافة من الخمرة إلى سيف الدولة، وما كان قبل ذلك فهو بمثابة الجريال من الخمرة وهو دون السلافة جودة وروعة، فقد وزّعه بين ممدوحيه السابقين.

(١) الجياد: الخيول الكريمة. برزت: سبقت. ينوّه الشاعر بما يُميّزه عن سواه من الشعراء. فإذا بالكبار منهم المجيدين بما سهل جميل اللفظ تفوّق عليهم بما يصعب عليهم واعتلى جبالاً عالية لا يستطيعون تسلّقها، فأتى بالصعب الممتنع.

(٢) العراء من الأراضي: الخالية الواسعة. الناعج: الأبيض الكريم من الإبل. المجتاب: المتجوّل في الأرض. المغتال: المهلك. ينوّه الشاعر بقدرته على تحمل مشاق الأسفار، إنه يستعين بناعج يجول عليها مجاهل الأرض المهلكة حيث يضيع من لا يعرف أنحاءها، ولكثرة تجواله أصبح على معرفة واسعة في الصحراء يخترقها ويتنقل من مكان إلى آخر بسهولة عجيبة.

(٣) عدت: ركضت. المطيّ: الإبل. الجمام: الراحة، الكلال: الإعياء، التعب الشديد. يُشيد الشاعر بناعجه الذي يُرافقه في ترحاله؛ إنه يسبق سائر النياق وهو ماشٍ وهي تركض، فإذا بها خلفه، وإن أراد أن يسبقها وهي مستريحة وهو في حال تعبه فاقها وسبقها، هذا في حال إرهاقه، فلو كان مستريحاً لاختلف الأمر، فإذا به في المقدّمة دائماً، ممّا يدلّ على حسن اختيار الشاعر ومعرفته بأنواع حيوان الصحراء المفضّل.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٠. تراع: يُداخلها فزع. معقلات: مربوطات بإحكام بالعقال أي الحبل. المتجفّل: المسرع. يُردف الشاعر حديثه عن ناعجه، إنه يسبق دائماً سائر الجمال التي نفرت لسبب ما وهي غير مربوطة وهو مربوط بعقاله، يسبقها بأشواط عديدة.

فَـغَـدَا الـنَّـجَـاحُ وَرَاحَ فِـي أَخْـفَـافِـهِ،
وَغَـدَا الـمِـرَاحُ وَرَاحَ فِـي إرْقَـالِـهِ[١]

وَشَـرِكْـتُ دَوْلَـةَ هَـاشِـم فِـي سَـيْـفِـهَـا
وَشَـقَـقْـتُ خِـيسَ الـمُـلْـكِ عَـنْ رِئْـبَـالِـهِ[٢]

عَـنْ ذَا الَّـذِي حُـرِمَ الـلُّـيُـوثُ كَـمَـالَـهُ
يُـنْـسِـي الْـفَـرِيـسَـةَ خَـوْفَـهُ بِـجَـمَـالِـهِ[٣]

وَتَـوَاضَـعُ الأُمَـرَاءُ حَـوْلَ سَـرِيـرِهِ،
وَتُـرِي الـمَـحَـبَّـةَ وَهْـيَ مِـنْ آكَـالِـهِ[٤]

وَيُـمِـيـتُ قَـبْـلَ قِـتَـالِـهِ وَيَـبَـشُّ قَـبْـ
لَ نَـوَالِـهِ وَيُـنِـيـلُ قَـبْـلَ سُـؤَالِـهِ[٥]

إنَّ الـرِّيَـاحَ إذَا عَـمَـدْنَ لِـنَـاظِـرٍ
أَغْـنَـاهُ مُـقْـبِـلُـهَـا عَـنِ اسْـتِـعْـجَـالِـهِ[٦]

---

(١) الأخفاف، الواحد خفّ: بمثابة الحافر للفرس. المراح: النشاط. الإرقال: الإسراع. يعزو الشاعر سرّ نجاحه بناعجه، بواسطته يُقابل ممدوحيه، ونجاحه بسرعته، يتمثل نشاطه في إرقاله وشدّة عدوه، وبذلك ينجح في مسعاه في كلّ أمور حياته.

(٢) الخيس: أجمة الأسد وبيته. الرئبال: من أسماء الأسد. يفخر الشاعر أنه قد شارك دولة الخلافة بسيفها، وقد اقتحم عرين الأسد فحباه من حبّه وجعله سيفه أيضاً يحتمي به، وقد حالفه الحظّ أن التقاه، فكان غناه منه وهو يأتمر بأمره، إنه الحاكم يحكم دولته برأيه.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٦. الليوث: الأسود. يمدح الشاعر سيف الدولة بجمال طلعته، فإذا بطش بعدوّه شغله بجماله وهو يتأمّله مشدوهاً ببهاء طلعته، وقد نسي خوفه، وحرج موقفه، وهنا الفضل لا يعود إلى قوّته وشجاعته بقدر ما يعود إلى جماله؛ فجماله خادع على هذه الحالة، وهو إذا ما شارك الأسود بقوّتها، كانت الأسود مرعبة في حال فتكها بضحاياها، فتبدو في منتهى البشاعة.

(٤) تواضع: ذلّ واستسلم. الآكال: الأرزاق. يصف الشاعر الحالة التي عليها الأمير، فالأمراء نسَوْا أنفتهم وكبرياءهم، فإذا بهم يلتفّون حوله بحبّ لا يخلو من تواضع وذلّة فاستسلموا لإرادته وبايعوه بالزعامة عليهم، فمحبتهم رزقه منهم، وثمة إجماع من قبل الرعية على ذلك الحبّ الكبير.

(٥) و (٦) النوال: العطاء، يبشّ: يبتسم. يمدح الشاعر ممدوحه بشجاعته وقوّته، فقبل =

أَعْطَى وَمَنَّ عَلَى المُلُوكِ بِعَفْوِهِ
حَتَّى تَسَاوَى النَّاسُ فِي إفْضَالِهِ[(١)]

وَإذَا غَنُوا بِعَطَائِهِ عَنْ هَزِّهِ،
وَالَى فَأَغْنَى أَنْ يَقُولُوا وَالِهِ[(٢)]

وَكَأنَّمَا جَدْوَاهُ مِنْ إكْثَارِهِ
حَسَدٌ لِسَائِلِهِ عَلَى إقْلَالِهِ[(٣)]

غَرَبَ النُّجُومُ فَغُرْنَ دُونَ هُمُومِهِ،
وَطَلَعْنَ حِينَ طَلَعْنَ دُونَ مَنَالِهِ[(٤)]

= مبارزة عدوّه المرتعب وجلاً وخوفاً يقضي عليه نفسياً، فإذا به ميّت، إنه ودود لطيف، فإذا منح أحدهم عطاءً زيّنت وجهه ابتسامة تنمّ عن سعادته وفرحه بالعطاء، ومن طبعه أنه يُسارع في العطاء قبل سؤال من يسأله، ممّا يدلّ على أصالة الكرم فيه وحبه لمساعدة كلّ محتاج، بحيث يسبق الرياح التي يُؤمل فيها الخير، وفجأة وبلا استعجال يُحقّق رجاء من أمل فيه الخير؛ إنها أريحية الكرم التي جُبل عليها الممدوح، فأصبحت من أهم صفاته.

(١) يُردف الشاعر منوّهاً بنوع آخر من كرم أخلاق ممدوحه، فقد شمل كل محتاج بعطائه حتى أغناه عن السؤال، أما شأنه مع الملوك فالأمر مختلف، فقد ملك قلوبهم وعقولهم لأنه قد عفا عنهم بعدما أسر منهم، وغفر لبعضهم هفواته، فكان العفو من جانبه، وبذا شمل كرم أخلاقه سائر الناس، السوقة والملوك على السواء.

(٢) هزّه: إثارة أريحيّته للعطاء. والى: تابع وألحق. يُردف الشاعر حديثه عن عطاء الممدوح، لا يكفيه ما قدّمه من نوال فأغنى به كلّ محتاج، بل إنه يُمدّهم ويُوالي عطاءه لهم حتى يُوفّر عليهم ذلّ السؤال مرة أخرى.

(٣) الجدوى: العطاء. الإقلال: الحاجة والفقر والبؤس. يمدح الشاعر ممدوحه بالإفراط في العطاء حتى يبدو كأنه يحسد الفقراء على فقرهم ليكون فقيراً. إنه منطق بعيد عن الواقع، وكان عليه أن يذكر أن كرم ممدوحه يُثير فيه الاعتزاز والفرح بغناه، وبأنه صلة وصل بين الرزاق الكريم سبحانه وبين سائر الرعية.

(٤) غرن: غربن. الهموم، الواحد هم: العزيمة والإرادة، ومن مغالاة الشاعر أن ممدوحه ذو عزيمة وهمّة جبارة بحيث تتخطى قدرات الطبيعة التي تنتظم الكون بإرادة خالقها سبحانه؛ فالنجوم تغرب دون مدى الممدوح وتُشرق أيضاً دون مداه، ممّا =

وَٱلـلَّـهُ يُـسْـعِـدُ كُـلَّ يَـوْمٍ جَـدَّهُ،
وَيَـزِيـدُ مِـنْ أَعْـدَائِـهِ فـي آلِـهِ[(١)]

لَـوْ لَـمْ تَـكُـنْ تَـجْـرِي عَـلَـى أَسْـيَـافِـهِ
مُـهَـجَـاتُـهُـمْ لَـجَـرَتْ عَـلَـى إِقْـبَـالِـهِ[(٢)]

لَـمْ يَـتْـرُكُـوا أَثَـراً عَـلَـيْـهِ مِـنَ الْـوَغَـى
إِلَّا دِمَـاءَهُـمُ عَـلَـى سِـرْبَـالِـهِ[(٣)]

فَـلِـمِـثْـلِـهِ جَـمَـعَ الْـعَـرَمْـرَمُ نَـفْـسَـهُ،
وَبِـمِـثْـلِـهِ انْـفَـصَـمَـتْ عُـرَى أَقْـتَـالِـهِ[(٤)]

يَـا أَيُّـهَـا الْـقَـمَـرُ الْـمُـبَـاهِـي وَجْـهَـهُ
لا تُـكْـذَبَـنَّ فَـلَـسْـتَ مِـنْ أَشْـكَـالِـهِ[(٥)]

= يُوحي بأنه بطل فوق الطبيعة بمسعاه وأهدافه التي جعلته يتبوّأ هذه المكانة الرفيعة.

(١) الجَدّ، بفتح الجيم الحظ. آله: أقرباؤه وأهل بيته. يدعو الشاعر لممدوحه بحسن التوفيق من ربّ العالمين سبحانه وأن يُسعده سائر الأيام بحيث يجعل أعداءه حلفاء له في كلّ مسعًى يكونون إلى جانبه، يُقوّيه ولاؤهم له إلى جانب أقربائه وآل بيته.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٠. مهجاتهم: أرواحهم، يُنوّه الشاعر دائماً بحسن حظّ ممدوحه، فمتى قتل أعداءه على يديه يكون بإقبال حظه، فإذا بسيفه يفعل فعله في حدود ضيّقة، فيكون حظّه يتمّ سعيه، وهذا يعني أن بطولة ممدوحه ليست مطلقة كما يصوّرها في أمكنة متعدّدة، ويُستشمّ شيء من الحسد يُخفيه الشاعر، ولسان حاله يقول: لِمَ لا أكون أنا في موضعه؟!

(٣) الوغى: الحرب. السربال: الثوب. يصف الشاعر خروج ممدوحه من المعركة ظافراً، وقد تخلّص من أعدائه الذين تركوا ما يذكرونه بهم، إنها دماؤهم وقد زيّنت أثوابه بزينة النصر.

(٤) العرمرم: الجيش العظيم. العرى، يقصد بها القوى. الأقتال: الأعداء. انفصمت: انقطعت. يُنوّه الشاعر بقوّة سيف الدولة العظيمة، فإذا بالجيوش تجتمع متحالفة في جيش عرمرم، وهو من فلّ وحدة الجيش هذا فكان في معظمه غنيمة سهلة لسيوفه التي مزّقت قوّاته المقاتلة وألحقت بها هزيمة شنعاء.

(٥) المباهي: المفاخر. يُخاطب الشاعر القمر الجميل الوجه، ألّا يغترّ بضيائه وعليائه وبهائه وأُنسه ورقته، وألّا يسمع من يُثير فيه هذا الإحساس فثمّة من يفوقه في كلّ ما يمتاز به، إنه سيف الدولة.

وَإِذَا طَـمَـا الْـبَـحْـرُ الْـمُـحِـيـطُ فَـقُـلْ لَـهُ
دَعْ ذَا فَـإِنَّـكَ عَـاجِـزٌ عَـنْ حَـالِـهِ(١)

وَهَـبَ الَّـذِي وَرِثَ الْـجُـدُودَ وَمَـا رَأَى
أَفْـعَـالَـهُـمْ لابْـنٍ بِـلَا أَفْـعَـالِـهِ(٢)

حَـتَّـى إِذَا فَـنِـيَ الـتُّـرَاثُ سِـوَى الْـعُـلَـى
قَـصَـدَ الْـعُـدَاةَ مِـنَ الْـقَـنَـا بِـطِـوَالِـهِ(٣)

وَبِـأَرْعَـنٍ لَـبِـسَ الْـعَـجَـاجَ إِلَـيْـهِـمِ
فَـوْقَ الْـحَـدِيـدِ وَجَـرَّ مِـنْ أَذْيَـالِـهِ(٤)

فَـكَـأَنَّـمَـا قَـذِيَ الـنَّـهَـارُ بِـنَـقْـعِـهِ
أَوْ غَـضَّ عَـنْـهُ الـطَّـرْفَ مِـنْ إِجْـلَالِـهِ(٥)

---

(١) طما البحر: زخر بمائه وهاج، البحر المحيط: المترامي الأقطار. يطلب الشاعر من القمر أن يُحذّر البحر المحيط الهائج ألّا يغترّ بقوّته وبكرمه، فثمّة من يفوقه في كلّ ما يمتاز به، فيغرقه في بحره فلا يعود له وجود، لعجزه عن مجاراته.

(٢) يُنوّه الشاعر بأفعال ممدوحه، فقد ورث عن أجداده مالاً وثراءً، وشرفاً، فأنفق ما ورثه من مال وغنًى، وزاد عليه ما حصّله بنفسه فكان نصيبه الإنفاق في وجوه الخير بحيث لا يبقى محتاج، وأما الشرف فقد توّجه بأعمال أصبحت مفخرة بحدّ ذاتها تُضاف إلى ما ورثه من شرفٍ أثيل يبقى مع الدهور.

(٣) و (٤) التراث: الموروث من أموال. الطوال: القنا الطوال. يذكر الشاعر الطريقة التي استعاض بها عمّا أنفق الأمير ما ورثه من أموال، ولم يُبذر بأمجاده فقد احتفظ بها، فإذا به يشنّ الغارات على أعدائه وبذلك استعاد ما أنفقه منهم، مستعيناً بجيشه العظيم الأرعن لكثرة جنده، وقد اكتسى الغبار الذي يُثيره في زحفه وقتاله، فغطّى ما عليه من دروع حديدية، وقد ألحق خلفه بقاياه من الجند في مؤخّرته.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٠. قذي: ما أصاب عينه من غبار. النقع: الغبار. غضّ الطرف: كسر النظر. يصف الشاعر عظم جيش سيف الدولة، فالغبار يرتفع في كبد السماء ممّا حجب نور الشمس فكأنها قد خجلت من جلالة الأمير أو من كثرة جيشه، فإذا بها تغضّ الطرف حيرى بأمر هذا الجيش وقائده.

الْـجَـيْـشُ جَـيْـشُـكَ غَـيْـرَ أَنَّـكَ جَـيْـشُـهُ
فِـي قَـلْـبِـهِ وَيَـمِـيـنِـهِ وَشِـمَـالِـهِ[١]
تَـرِدُ الـطِّـعَـانَ الْـمُـرَّ عَـنْ فُـرْسَـانِـهِ
وَتُـنَـازِلُ الأَبْـطَـالَ عَـنْ أَبْـطَـالِـهِ[٢]
كُـلٌّ يُـرِيـدُ رِجَـالَـهُ لِـحَـيَـاتِـهِ
يَـا مَـنْ يُـرِيـدُ حَـيَـاتَـهُ لِـرِجَـالِـهِ[٣]
دُونَ الْـحَـلاوَةِ فِـي الـزَّمَـانِ مَـرَارَةٌ
لَا تُـخْـتَـطَـى إِلَّا عَـلَـى أَهْـوَالِـهِ[٤]
فَـلِـذَاكَ جَـاوَزَهَـا عَـلِـيٌّ وَحْـدَهُ
وَسَـعَـى بِـمُـنْـصُـلِـهِ إِلَـى آمَـالِـهِ[٥]

---

(١) و (٢) ثمّة تداخل وتلازم بين سيف الدولة وجيشه؛ فالجيش جيشه، فبه تكمن قوّته ويبدو جبروته، وسيف الدولة جيش جيشه بروحه وطموحه وعقلية القائد الحربي العظيم، وحيثما تطلّع المرء وجد تدبير قائده في قلب الجيش وشماله ويمينه، فبدا حسن تنظيمه أحسن تنظيم، والقائد رأس، إنه يُقاتل عن كلّ فرد فيه، فإذا به يتلقّى فرسان أعدائه ليحمي فرسانه؛ إنه الدرع الصلب الذي يحتمي به جيشه، وهو يُبادر إلى مقارعة الأبطال من أعدائه ليحمي أبطاله ويكفيهم بنفسه لثقته بقوّته.

(٣) من طبيعة الأمور أن الملوك والسلاطين والرؤساء يتَّخذون جيوشاً لحماية أنفسهم فيُدافعون عنهم ويستميتون للحفاظ عليهم، بينما الأمر يختلف مع سيف الدولة إنه يفدي جيشه بنفسه، لذا فإنه يُريد الحفاظ على أرواحهم، وبذلك تتجلّى عظمة القائد وثقته بقوّته وشجاعته.

(٤) يُبدي الشاعر رأيه أن حلاوة الحياة لا تكون إلّا بمواجهة الصعاب ودخول أهوال المغامرة حتى آخرها، فحلوها لا يكون إلّا بعد مذاق مرارتها، وهنا فقد ينعم المرء بلذّة حياته.

(٥) المنصل: السيف. يُنهي الشاعر قصيدته منوّهاً بما بذله سيف الدولة حتى كان النصر حليفه، فإذا بمرارة الحياة يتحوّل طعمها إلى حلاوة، ولقد تجاوز علي الامتحان الصعب مستعيناً بسيفه فحقّق آماله في حياته.

إذا سار

وتوسط سيف الدولة في الطريق جبلاً بطريق آمد فقال:

[المتقارب]

يُــــؤَمِّــــمُ ذَا الـــسَّــيْــــفُ آمَـــالَـــهُ
وَلا يَــفْــعَــلُ الـــسَّــيْــفُ أَفْــعَــالَـــهُ[١]

إِذَا سَـــارَ فَـــي مَـــهْـــمَـــهٍ عَـــمَّـــهُ
وَإِنْ سَـــارَ فَـــي جَـــبَـــلٍ طَـــالَـــهُ[٢]

وَأَنْـــتَ بِـــمَـــا نُـــلْـــتَـــنَـــا مَـــالِـــكٌ
يُـــثَـــمِّـــرُ مِـــنْ مَـــالِـــهِ مَـــالَـــهُ[٣]

كَـــأَنَّـــكَ مَـــا بَـــيْـــنَـــنَـــا ضَـــيْـــغَـــمٌ
يُـــرَشِّـــحُ لِـــلْـــفَـــرْسِ أَشْـــبَـــالَـــهُ[٤]

---

(١) يؤمّم: يقصد. يُشيد الشاعر بسيف الدولة وبأعماله العظيمة، إنه يتصدّى لأعدائه بجيشه تحت قيادته فيُحقّق النصر بإرادته وعزيمته، والسيف المادي لا إرادة له ولا يُحقّق شيئاً بذاته بل بحامله إن كان جديراً بحمله.

(٢) المهمه: المفازة المخيفة البعيدة. طاله: غلبه بالطول فكان أعلى منه. يُنوّه الشاعر بهمّة سيف الدولة، فإنه في حال سار بجيشه ملأ السهول والقفار لكثرة عدده، وإن قصد الجبل علاه بقوّته فأشرف على الكون من عليائه وبات كلّ شيء صغيراً حقيراً أمام همّته العالية.

(٣) نال: أعطى. ثمّر ماله: أحسن القيام على تنميته. يُخاطب الشاعر سيف الدولة بأن ما ناله منه كثير، وقد أحسن تثميره فازداد باكتسابه من أحسن إليهم فكانوا له عوناً.

(٤) الضيغم: من أسماء الأسد. رشحه لأمر ما: هيأه. الفرس: الافتراس. الشبل: ولد الأسد. يُنوّه الشاعر بما فعله سيف الدولة في مواليه وأصحابه فاتخذوه قدوة، فقد تمرّس بمقارعة الأهوال ولقاء الأبطال من دون أصحابه، فكان القدوة بما يضربه لهم من أمثال الإيثار، إنه يحامي عن أشباله كأسد، فإذا به يدرّبهم على الإيثار وفنون القتال.

من فرح النفس ما يقتل

ضربت لسيف الدولة خيمة عظيمة فهبت ريح شديدة فسقطت فقال:

[المتقارب]

أَيَقْدَحُ فِي الْخَيْمَةِ الْعُذَّلُ
وَتَشْمَلُ مَنْ دَهْرَهَا يَشْمَلُ؟[١]

وَتَعْلُو الَّذِي زُحَلٌ تَحْتَهُ
مُحَالٌ لَعَمْرُكَ مَا تُسْأَلُ[٢]

فَلِمْ لَا تُلُومُ الَّذِي لَامَهَا
وَمَا فَصُّ خَاتَمِهِ يَذْبُلُ[٣]

تَضِيقُ بِشَخْصِكَ أَرْجَاؤُهَا
وَيَرْكُضُ فِي الْوَاحِدِ الْجَحْفَلُ[٤]

---

(١) أيقدح: أيذمّ ويعيب. العذّل، الواحد عذول: اللائمون. يشمل: يُحيط. يروى «أينفع» بدلاً من «أيقدح». يبدأ الشاعر قصيدته المدحية مستنكراً أقاويل اللائمين وهم ينعون على الخيمة سقوطها، وقد عصفت بها رياح عاتية، وكان في داخلها سيف الدولة، فإذا بالشاعر يجد سبباً وجيهاً حملها على السقوط، ففي داخلها من تشمل معارفه الدهر؛ إنها المهابة والخشية ممّن تشتمل عليه.

(٢) زحل: اسم نجم. يستغرب الشاعر أن الخيمة تعلو من هو أسمى وأعلى في المقام وأشد ذكاءً وشجاعة وقوّة من زحل ذلك النجم الذي يتربّع عرش السماء، ذلك مستحيل أن يحصل.

(٣) يذبل: جبل في جزيرة العرب. يستغرب موقف الخيمة السلبي من أنها لم تلم من لامها على ما حصل لها؛ إنها المهابة والخشية لاشتمالها على عظيم، وكان بإمكانها أن تُمثل مثلاً صعب التحقيق، فمن غير المنطقي أن يكون فص خاتمه جبلاً عظيماً، فالأوجب ألّا تشمل الخيمة الأمير، ولم يحصل ذلك، وهذا طبيعي.

(٤) الأرجاء: الجهات والنواحي. الجحفل: الجيش اللّجب العرمرم. يُخاطب الشاعر ممدوحه أن الخيمة كانت من الاتساع بمكان عظيم، بحيث تشتمل على جيش عظيم العدد، ولكنها الرهبة والهيبة حملتها على ما كان منها، ولقد خرّت خاشعة إجلالاً وتعظيماً.

وَتَقْصُرُ مَا كُنْتَ فِي جَوْفِهَا
وَتُرْكَزُ فِيهَا الْقَنَا الذُّبَّلُ (١)

وَكَيْفَ تَقُومُ عَلَى رَاحَةٍ
كَأَنَّ الْبِحَارَ لَهَا أُنْمُلُ (٢)

فَلَيْتَ وَقَارَكَ فَرَّقْتَهُ
وَحَمَّلْتَ أَرْضَكَ مَا تَحْمِلُ (٣)

فَصَارَ الْأَنَامُ بِهِ سَادَةً
وَسُدْتَهُمُ بِالَّذِي يَفْضُلُ (٤)

رَأَتْ لَوْنَ نُورِكَ فِي لَوْنِهَا
كَلَوْنِ الْغَزَالَةِ لَا يُغْسَلُ (٥)

وَأَنَّ لَهَا شَرَفاً بَاذِخاً
وَأَنَّ الْخِيَامَ بِهَا تَخْجَلُ (٦)

---

(١) القنا الذبّل: الرماح اللينة لطولها. يُردف الشاعر حديثه أن تلك الخيمة مرتفعة بحيث تركّز فيها الرماح الطويلة، ومع ذلك كان منها ما كان فلم تقدر على الصمود، والأمير في داخلها، وقلبها ملأته المهابة من عالٍ في سماء المجد، فتهاوت خشية وإجلالاً لشخصه العظيم.

(٢) الراحة: راحة اليد. الأنامل، الواحدة أنملة: أطراف الأصابع. يستغرب الشاعر أن تبقى الخيمة صامدة ولا تنهار، إنها تشتمل على بحر من الجود، فيداه تنثر الخير على العافين والموالي والأصحاب. فكأن البحار لها أنامل تُرفدها وتُساعدها ليعمّ عطاؤها كلّ مكان.

(٣) و (٤) يُخاطب الشاعر ممدوحه متمنياً عليه أن يُوزّع وقاره وهيبته بين الناس وسائر الكون، ممّا يسمح للخيمة الحصول على حصتها فتتماسك وتثبت في مكانها فلا تنهار على من فيها، كما أن البشر يُعينهم ذلك فيتسيّدون الناس، ورغم ذلك فسوف يبقى من الوقار والهيبة الشيء الكثير يُؤهّله ليكون سيد الناس جميعاً.

(٥) الغزالة: الشمس لحظة شروقها. يُخاطب الشاعر ممدوحه، منوّهاً بنور طلعته البهية، فقد رأت الخيمة نور وجهه مشرقاً وضّاءً فاستمدّت منه ما جعل لون لباسها أبيض كلون الغزالة في أوّل إشراقها.

(٦) الشرف الباذخ: العالي. لقد تاهت وزهت الخيمة على سائر بني جنسها إذ اشتملت =

فَــلَا تُــنْــكِــرَنَّ لَــهَــا صَــرْعَــةً
فَــمِــنْ فَــرَحِ الــنَّــفْــسِ مَــا يَــقْــتُــلُ [١]
وَلَــوْ بُــلِّــغَ الــنَّــاسُ مَــا بُــلِّــغَــتْ
لَــخَــانَــتْــهُــمُ حَــوْلَــكَ الأَرْجُــلُ [٢]
وَلَــمَّــا أَمَــرْتَ بِــتَــطْــنِــيــبِــهَــا
أُشِــيــعَ بِــأَنَّــكَ لَا تَــرْحَــلُ [٣]
فَــمَــا ٱعْــتَــمَــدَ الــلَّــهُ تَــقْــوِيــضَــهَــا
وَلَــكِــنْ أَشَــارَ بِــمَــا تَــفْــعَــلُ [٤]
وَعَــرَّفَ أَنَّــكَ مِــنْ هَــمِّــهِ
وَأَنَّــكَ فِــي نَــصْــرِهِ تَــرْفُــلُ [٥]

= على الممدوح، فكان لها الشرف السنيّ، ممَّا أخجل أخواتها بما نالها من المكانة السامية.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧١. أنكر: استغرب. يُخاطب الشاعر ممدوحه طالباً منه أن ما حصل أمر طبيعيّ، لذا ألّا يستغرب ما حصل: إنه ناتج عن حبّ دفين تُحسّ به الخيمة نحو الأمير، لذا فقد انهارت لروعة المفاجأة فإذا بفرحها يبلغ أقصى مداه، فكان طبيعياً أن تُصرع.

(٢) يُردف الشاعر حديثه لو أن هذه الحالة قد وقعت للناس بأن فاجأهم الممدوح بزيارة لما استطاعت أرجلهم أن تحملهم لهول المفاجأة ولقوّة شخصية الممدوح وهيبته، لذا فالأمر طبيعي أن تخون الخيمة أطنابها وأعمدتها فتنهار خائرة.

(٣) و (٤) ورد البيت التالي في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧١. يروى «وما» بدلاً من «فما». التطنيب: شدّ الأطناب. التقويض: الهدم. يسرد الشاعر كيف حصل من الأمر ما حصل، فقد أمر الأمير بإقامة معسكره فنُصبت الخيمة، ولكن انتشرت إشاعة مفادها أن الأمير ينوي البقاء والتوقّف عن الغزو، فكانت إرادة اللّه سبحانه وتعالى بأن يُتابع الأمير مسلسل بطولاته العسكرية ويقضي على أعداء اللّه عزّ وجلّ وأعدائه، فكان أن أوحى للخيمة أن اسقطي فسقطت لأمر قدّره اللّه سبحانه وتعالى.

(٥) همّه: عنايته. ترفل: تنعم وتتبختر، كان القصد الإلهيّ ممَّا حدث للممدوح أن اللّه تعالى يُحبّ للأمير العزّة والفخر، فعزّه وفخره بمقاتلة أعداء الخالق سبحانه وتعالى، ولقد أعانه بنصره وعنايته الربانية ليتمّ على يديه نصر اللّه تعالى دينه وأمته؛ فكان أن انهارت الخيمة لبشارة على ما سيحدث للأمير بإرادة خالقه سبحانه وتعالى.

فَمَا الْعَانِدُونَ وَمَا أَثَّلُوا
وَمَا الْحَاسِدُونَ وَمَا قَوَّلُوا(١)

هُمُ يَطْلُبُونَ فَمَنْ أَدْرَكُوا
وَهُمْ يَكْذِبُونَ فَمَنْ يَقْبَلُ(٢)

وَهُمْ يَتَمَنَّوْنَ مَا يَشْتَهُونَ
وَمِنْ دُونِهِ جَدُّكَ الْمُقْبِلُ(٣)

وَمَلْمُومَةٌ زَرَدٌ ثَوْبُهَا
وَلٰكِنَّهُ بِالْقَنَا مُخْمَلُ(٤)

يُفَاجِىءُ جَيْشاً بِهَا حَيْنُهُ
وَيُنْذِرُ جَيْشاً بِهَا الْقَسْطَلُ(٥)

---

(١) و (٢) العاندون: الجائرون عن الحقّ مع علمهم به. أثلوا: أصّلوا. يروى «أقلوا» بدلاً من «أثّلوا». لقد كان لحادث سقوط الخيمة مجال للأقاويل، فإذا بأعداء الأمير وحاسديه يتقوّلون الأقاويل ويختلقون الأكاذيب ليُستشفّ منها باب تشاؤم يحمل الأمير على التشاؤم والخوف من طالع سوء؛ إنهم يُخفون ما بأنفسهم من خبث النوايا والحسد المبطّن بالكراهية فيطلبون للأمير الخسران والهزيمة، ولن يحصلوا على ما يُريدون، وأقاويلهم وتلفيقهم تضيع هباءً لعدم تصديق الناس بما يزعمون؛ وعليه فلن يُؤمن أحد بصدقهم في ما لو صدقوا فكيف وهم كاذبون؟

(٣) الجَدّ، بفتح الجيم الحظ. موقفان متعارضان: موقف الحاسدين والحاقدين، إنهم يتمنّون الخسران المبين والهزائم الشنعاء للأمير، وحظّه الموفّق الميمون يكيد لهم في نحرهم ويُرفده بحسن مقاديره فيردّ سعيهم ومكرهم في نحورهم.

(٤) و (٥) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٠. الملمومة: الفرقة من الجيش المجتمعة. الزرد: حلق الدروع المصنوعة من الحديد. القنا: الرماح. الحين: الهلاك. القسطل: الغبار في المعركة. يرى الشاعر أن الردّ على أمثال هؤلاء يكون عملاً عسكرياً سريعاً لإسكاتهم وتكذيب مدعاهم، فثمّة ملمومة يقودها الأمير، وقد استعدّت استعداداً كاملاً فارتدى أفرادها دروعاً حديدية وتسلحوا بالرماح المخملية، يُفاجئون جيوش أعدائهم، فيزرعون الموت في صفوفهم ليلاً وفي الجبال، وينحدرون إلى السهول مع الفجر فيُثيرون الغبار ويتعالى ضجيجهم فيرتعب آخرون في حال رؤيتهم غباراً يتصاعد من بعيد منذراً بالويل والثبور.

جَـعَـلْـتُـكَ فِـي الْـقَـلْـبِ لِـي عُـدَّةً
لأَنَّـكَ فِـي الْـيَـدِ لَا تُـجْـعَـلُ (١)
لَـقَـدْ رَفَـعَ الـلَّـهُ مِـنْ دَوْلَـةٍ
لَـهَـا مِـنْـكَ يَـا سَـيْـفَـهَـا مُـنْـصُـلُ (٢)
فَـإِنْ طُـبِـعَـتْ قَـبْـلَـكَ الـمُـرْهَـفَـاتُ
فَـإِنَّـكَ مِـنْ قَـبْـلِـهَـا الْـمِـقْـصَـلُ (٣)
وَإِنْ جَـادَ قَـبْـلَـكَ قَـوْمٌ مَـضَـوْا
فَـإِنَّـكَ فِـي الْـكَـرَمِ الْأَوَّلُ (٤)
وَكَـيْـفَ تُـقَـصِّـرُ عَـنْ غَـايَـةٍ
وَأُمُّـكَ مِـنْ لَـيْـثِـهَـا مُـشْـبِـلُ؟ (٥)

---

(١) و (٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٣. يروى «بالقلب» بدلاً من «في القلب»، ويروى «باليد» بدلاً من «في اليد». يُخاطب الشاعر ممدوحه، فقد أعَدّه في الملمات والشدائد ذُخراً معيناً، فقد آمن به قلبه، فاحتل فيه مكانة عالية لا يُزاحمه فيها أحد، ومن إجلاله لممدوحه دلّ على أنه لا يُجعل باليد، لأن ما يُجعل باليد مادي محتقر، والأمير رمز وفكرة تستقرّ في القلوب لحاجة الأمة إليها أفراداً وجماعات، فكان للدولة العباسية المنصل والسيف الحامي لكيانها يدفع عنها كيد الأعداء ويكسر شوكتهم ويقطع دابرهم.

(٣) و (٤) طبع: صُنع، المرهفات، الواحد مرهف: السيف الرقيق الحدّ. المقصل: القاطع. يُخاطب الشاعر ممدوحه، لقد كانت صناعة السيوف قديمة قدم عداء البشر لبعضهم البعض، ولكن الأمير يختلف عن سائر السيوف بأنه إرادة فاعلة، لذا فهو أكثر السيوف أثراً في المعارك فعلى يديه تتقرّر مصائر وبه تقوم جيوش وتقعد، وبلا ريب فقد كان لكرام القدماء من الأمة الدور العظيم في تثبيت أركان الدولة، فقد قامت على تضحياتهم وبطولاتهم، ولكن الزمان تبدّل وتغيّر، فندرت البطولات وقلّ أمثال الأجداد ثم كانت الأمة على موعد مع الأمير، فإذا به يزيد على الماضين في الكرامة والأمجاد، وهذا ما يجعله ضرورة للدولة.

(٥) الليث: من أسماء الأسد، لبوة مشبل: لديها أشبال صغار. الشبل: ولد الأسد. يمدح الشاعر والد سيف الدولة ووالدته؛ لقد اقتدى بأبيه فالشبل أسد بطبيعة الحال، =

وَقَــدْ وَلَــدَتْــكَ فَــقَــالَ الْــوَرَى
أَلَــمْ تَــكُــنِ الــشَّــمْــسُ لَا تُــنْــجَــلُ[(١)]

فَــتَــبًّــا لِــدِيــنِ عَــبِــيــدِ الــنُّــجُــوم
وَمَــنْ يَــدَّعِــي أَنَّــهَــا تَــعْــقِــلُ[(٢)]

وَقَــدْ عَــرَفَــتْــكَ فَــمَــا بَــالُــهَــا
تَــرَاكَ تَــرَاهَــا وَلَا تَــنْــزِلُ[(٣)]

وَلَــوْ بِــتُّــمَــا عِــنْــدَ قَــدْرَيْــكُــمَــا
لَــبِــتَّ وَأَعْــلَاكُــمَــا الأَسْــفَــلُ[(٤)]

أَنَــلْــتَ عِــبَــادَكَ مَــا أَمَّــلُــوا
أَنَــالَــكَ رَبُّــكَ مَــا تَــأْمُــلُ[(٥)]

= واللبوة لا تلد إلّا أسداً، إنه كريم الوالدين، ولذا فلن يُقصّر بإدراك المعالي كرامة، شجاعة، كرماً وجوداً، أصالة نسب، رفعة، نبلاً.

(١) الورى: البشر. ينوّه الشاعر بمنزلة الأمير الرفيعة، لقد ولدته امرأة كسائر النساء، والفرق بين الولادات، فمعظمهنّ ولدن أولاداً ليكونوا على هامش الحياة، أما هذه المرأة العظيمة، فقد ولدت شمساً تنشر ظلّها وضياءها على الكون عطاءً وكرامة وشجاعة ونبلاً، وهي شمس أبدية دائمة الإشراق.

(٢) و (٣) التبّ: الخسران المبين. يدعو الشاعر على أهل الشرك من عبدة النجوم الذين يُؤمنون بها أنها تسيّر الكون فيعبدونها من دون اللّه عزّ وجلّ فبشراهم بالهلاك والخسران المبين في الدنيا والآخرة، ودون شكّ فإنها تفتقد إلى العقل والتمييز، وتلك مشكلة من يعبدها، ولو كانت تعقل لكانت عرفت الأمير ونزلت إلى الأرض لتكون عوناً وعضداً، لذا فإن المدد الربّانيّ خير مدد.

(٤) يُفضل الشاعر ممدوحه على النجوم، فكلّ منها على قدر يشغله، فإذا بالنجوم وهي تحتلّ السماء، فالأولى بها أن تستقرّ في الأرض ويحتلّ الأمير مكانها لعلوّ قدره ورِفعة مكانته.

(٥) يُخاطب الشاعر الأمير ويدعو له؛ فقد غمر جوده عبيده وأبناء إمارته بالكثير من كرمه ولطفه وحبّه لهم، ويتمنّى الشاعر للأمير أن يُجازيه ربّه خير جزاء يأمله ويرجوه يوم لا يُرجى سواه.

أنا الغريق فما خوفي من البلل

يمدحه لما رضي عنه:

[البسيط]

أَجَابَ دَمْعِي وَمَا الدَّاعِي سِوَى طَلَلِ
دَعَا فَلَبَّاهُ قَبْلَ الرَّكْبِ وَالإِبِلِ (١)

ظَلِلْتُ بَيْنَ أُصَيْحَابِي أُكَفْكِفُهُ
وَظَلَّ يَسْفَحُ بَيْنَ العُذْرِ وَالْعَذَلِ (٢)

أَشْكُو النَّوَى وَلَهُمْ مِنْ عَبْرَتِي عَجَبٌ
كَذَاكَ كُنْتُ وَمَا أَشْكُو سِوَى الْكَلَلِ (٣)

وَمَا صَبَابَةُ مُشْتَاقٍ عَلَى أَمَلٍ
مِنَ اللِّقَاءِ كَمُشْتَاقٍ بِلَا أَمَلِ (٤)

---

(١) و (٢) يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي. الطلل: بقايا آثار الديار وقد رحل عنها ساكنوها. الركب: الظاعنون والراحلون. الطلل رباط وجدانيّ بين الأرض والبشر، إنها الحياة بقساوتها في عالم الصحراء، حيث القحط والجفاف، فيضطر القاطنون إلى ترك الديار والأحباب، وتمرّ الأيام فإذا بالشاعر يمرّ بما تبقّى من آثار تلك الديار حيث كانت حبيبته تملأ حياته فإذا بمعالم المكان قد تغيّرت ملامحها وتبدلت صورتها عمّا ألفه في ما مضى، فإذا بالدموع تتسابق فتنحدر على خديه، وقد سبق رفاق الدرب، حتى الإبل قد حنّت لذكريات مضت في ذلك المكان. إنها استجابة التقت فيها الأحاسيس بالمكان، فالدموع يحاول منعها يكفكفها، ورغماً عنه تتابع رحلتها على خديه، وأصحابه ينظرون إليه والدهشة قد علت وجوههم، فمنهم عاذر وقد عرف السبب، ومنهم لائم رغم معرفة، إنه الماضي ولن يعود وعلى المرء النسيان والقبول بالأمر الواقع، ولا يزال الدمع ينسدل دون توقّف.

(٣) النوى: البعد والهجر. العَبرة، بفتح العين: الدمعة. الكلل، الواحدة، كَلّة: ضرب من الستور الرقيقة. يردّ الشاعر على اللائمين أن بكاءه لم يكن وليد الظرف الحالي، والبعد قد فرّق بينه وبين حبيبته، ولكن الأمر وثيق الصلة بالماضي يوم كان يجاور حبيبته، يومها لم يكن يفصل بينهما سوى ستور رقيقة يختفي خلفها شبه خيال، ولكنه ينبئ عن شخصه، إنه من يُواصل بكاءه الآن، ولطالما بكى هجرها وقطيعتها.

(٤) الصبابة: رقة الحبّ وشعوره. يُعلّل الشاعر سبب الحالة التي هو عليها، فالمحبّ =

مَـتَـى تَـزُرْ قَـوْمَ مَـنْ تَـهْـوَى زِيَـارَتَـهَـا
لَا يُـتْـحِـفُـوكَ بِـغَـيْـرِ الْـبِـيـضِ وَالْأَسَـلِ[1]

وَالْـهَـجْـرُ أَقْـتَـلُ لِـي مِـمَّـا أُرَاقِـبُـهُ
أَنَـا الـغَـرِيـقُ فَـمَـا خَـوْفِـي مِـنَ الْـبَـلَـلِ[2]

مَـا بَـالُ كُـلِّ فُـؤَادٍ فِـي عَـشِـيـرَتِـهَـا
بِـهِ الَّـذِي بِـي وَمَـا بِـي غَـيْـرُ مُـنْـتَـقِـلِ[3]

مُـطَـاعَـةُ الـلَّـحْـظِ فِـي الْأَلْـحَـاظِ مَـالِـكَـةٌ
لِـمُـقْـلَـتَـيْـهَـا عَـظِـيـمُ الْـمُـلْـكِ فِـي الْـمُـقَـلِ[4]

تَـشَـبَّـهُ الْـخَـفِـرَاتُ الْآنِـسَـاتُ بِـهَـا
فِـي مَـشْـيِـهَـا فَـيَـنَـلْـنَ الْـحُـسْـنَ بِـالْـحِـيَـلِ[5]

= الذي يأمل لقاء حبيبته يستروح اللقاء ويأمله في كلّ وقت، مطمئن إليه، وعلى يقين من حدوثه، أمّا من هجرته حبيبته إلى مكان ما في أرض اللّه الواسعة، فأمله ضعيف جدًّا، وقد يكون معدوماً.

(١) و (٢) الإتحاف: الإطراف بالهدايا. البيض: السيوف. الأسل، الواحدة أسلة: الرماح. يذكر الشاعر السبب من عدم قدرته على الاجتماع بحبيبته أن وراءها قوماً يحملون الشرّ بأيديهم، سيوفاً ورماحاً أسوأ ما يمكن أن يتحف امرؤ عدوًّا، وذلك سبب وجيه ليخاف الشاعر على نفسه من التلف، وأولى له أن يبكي علّه يسرّي عن نفسه في حالة كهذه؛ إنه بين أمرين أهونهما عسير خطير، فما يتوقّعه من أهلها كأسه علقم، إنه الموت المحقّق، وما يُلاقيه من هجرها أقتل له من سلاحهم، فموته بالهجر جعله لا يُبالي بسلاح أقربائها، فالأمر سيان، فكان أن توصّل إلى نتيجة مفادها أن من عرق في الماء لا يخشى البلل.

(٣) يستفهم الشاعر متعجباً أن قلبه لا يزال متعلقاً بها، إنه يُعاني من حبّ عظيم وميل نحوها، والمشكلة الكبرى أن معظم شباب قومها يُعانون من حبهم لها، وهذا يعني أن جميعهم خصوم وأعداء للشاعر، وعليه فلا يُستغرب موقف عشيرتها من الشاعر.

(٤) يصف الشاعر شدّة تأثير حبيبته، إنها آسرة بحيث تحمل من نظرت إليه على الإذعان لها، فنظرها جذبه نحوها بقوّة السحر لديها، إنها ملكة عظيمة التأثير في النفوس، فالكلّ يتمنى نظرة ملؤها الحبّ، بحيث إنها تستعبد ضحايا كيفما يحلو لها.

(٥) الخفرات: الحييات. الآنسات، الواحدة آنسة: ذات اللطف من النسوة والرقيقة =

قَــدْ ذُقْــتُ شِــدَّةَ أَيَّــامِــي وَلَــذَّتَــهَــا
فَـمَـا حَـصَـلْـتُ عَـلَـى صَـابٍ وَلَا عَـسَـلِ (١)
وَقَــدْ أَرَانِــي الــشَّــبَــابُ الــرُّوحَ فِــي بَــدَنــي
وَقَـدْ أَرَانـي الْـمَـشِـيـبُ الـرُّوحَ فِـي بَـدَلـي (٢)
وَقَــدْ طَــرَقْــتُ فَــتَــاةَ الْــحَــيِّ مُــرْتَــدِيــاً
بِــصَــاحِــبٍ غَــيْــرِ عِــزْهَــاةٍ وَلَا غَــزِلِ (٣)
فَــبَــاتَ بَــيْــنَ تَــرَاقِــيــنَــا نُــدَفِّــعُــهُ
وَلَــيْــسَ يَــعْــلَــمُ بِــالــشَّــكْــوَى وَلَا الْــقُــبَــلِ (٤)

= منهن. من طبيعة البشر جميعاً، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً أن يتشبهوا بمن يعتبرونه المثال الأعلى، وهذا ما حمل الآنسات الجميلات الرقيقات من النسوة على تقليد حبيبته في كلّ ما يميّزها عنهن في المشي والدلال والغنج واللباس والحديث، علّ الواحدة منهن أن تستميل من يُعجبها فيُبادلها حبًّا بحبّ، مستعملة كلّ الحيل في مسعاها.

(١) الصاب: ضرب من شجر مرّ. يعطي الشاعر رأيه في الحياة لقد مرّت سريعة لقد عاش يتذوّق طعم الحياة بشكليها وطعميها الحلو والمرّ فلم يستطعم بهما، ولم يحصّل منهما شيئاً لسرعة ما مرّ به، والحياة قصيرة مهما طال بالمرء العمر.

(٢) البدل، يقصد به الولد. يعطي الشاعر رأيه بطوري حياته، في البدء، كان الشباب يملأه حيوية وقوّة يعتمد على نفسه في كلّ ما يودّ القيام به، وقد توالت الأيام، إنه قد اشتعل رأسه شيباً، وفقد من حيويته الشيء، ومع مرور الزمان فقد احتاج إلى من يقوم له بأعمال كثيرة، وقد حلّ محله من هو أقدر على ذلك منه، والأبناء هم أفضل البدائل القادرون على ذلك.

(٣) و (٤) قصد الشاعر بالصاحب سيفه. العزهاة: العازف عن النساء. الغزل: من يأنس بالحديث مع النسوة. التراقي، الواحدة ترقوة: العظام العالية من الصدر. يصف الشاعر لقاءه بمن أحبّ، فقد أقبل للقائها في الليل، وهو يتّشح بسيفه الذي لا يعي من أمور علاقات الرجال بالنساء وليس له رغبة بالنساء عامة، وكان اللقاء، ولكن كان السيف حائلاً بين الشاعر وحبيبته، وهو عديم الإحساس بما كان يدور بين الحبيبين فكانت شكوى ممّا يُلاقيه كلّ منهما وعِتاب وقُبل، ولم ينس الشاعر خوفه وحذره، فقد بقي السيف حائلاً بينهما، وهو على استعداد لكلّ طارئ أو حادث مفاجئ.

ثُمَّ ٱغْتَدَى وَبِهِ مِنْ رَدْعِهَا أَثَرٌ
عَلَى ذُؤابَتِهِ وَٱلْجَفْنِ وَالْخِلَلِ[١]
لَا أَكْسِبُ الذِّكْرَ إلَّا مِنْ مَضَارِبِهِ
أوْ مِنْ سِنَانٍ أَصَمِّ الْكَعْبِ مُعْتَدِلِ[٢]
جَادَ الأَمِيرُ بِهِ لِي فِي مَوَاهِبِهِ
فَزَانَهَا وَكَسَانِي الدِّرْعَ فِي الْحُلَلِ[٣]
وَمِنْ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ مَعْرِفَتِي
بِحَمْلِهِ مَنْ كَعَبْدِ اللَّهِ أَوْ كَعَلِي[٤]
مُعْطِي الْكَوَاعِبِ وَالْجُرْدِ السَّلَاهِبِ وَالْـ
ـبِيضِ الْقَوَاضِبِ وَالعَسَّالَةِ الذُّبُلِ[٥]

---

(١) الردع: التضمّخ بالطيب. ذؤابة السيف: حمائله. الجفن: الغمد. الخلل، الواحدة خِلّة، بكسر الخاء: ما يُغطي به الغمد من الجلد المحلّى بالذهب. يروى «درعها» بدلاً من «ردعها»، والدرع: الثوب. لقد كان عناقهما عناقاً لصيقاً بحيث أمكن السيف أن يحصل على نصيبه من اللقاء بأن علِق عليه من طيب حبيبة الشاعر الشيء الكثير فشمل ذؤابته وجفنه وخلاله.

(٢) المضارب، الواحد مضرب: حدّ السيف. السنان: نصل الرمح. الأصمّ: الصلب. الكعب: العقدة بين أنبوبين. يرى الشاعر أن الصيت الحسن لا يُحصّله المرء إلّا بالقدرة على استعمال السلاح، وفنون القتال تتمحور بالمسايفة والمطاعنة بالرماح، وعلى أساسها تُقاس فروسيّة البطل وشجاعته وقوّته.

(٣) جاد: تكرّم. المواهب: العطايا. كسا: ألبس. يُنوّه الشاعر بكرم سيف الدولة، فقد منحه زينة الرجال، سيفاً مدعاة فخر حامله، إنه أفضل ما يُهدى، وقد ألبسه درعاً يحمي به جسده من طعن أعدائه في المعارك.

(٤) يُقرّ الشاعر بحقيقة تعلّمه فنون القتال، فقد ساعده الأمير على إتقان استعمال السيف في القتال، فكان السيف زينته التي يعتزّ بها، ويُتابع الشاعر مفضلاً الأمير ووالده على سائر الناس، فلا يُشبههما أحد من الناس.

(٥) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١ :٢٤٨. الكواعب، الواحدة كاعب: الفتاة التي نهد ثدياها. الجرد: الخيل القصار الشعر. السلاهب: الخيول الطويلة. البيض: السيوف. العسالة الذبل: الرماح الطويلة اللدنة، يمدح الشاعر سيف الدولة، إنه كريم =

ضَـاقَ الـزَّمَـانُ وَوَجْـهُ الأَرْضِ عَـنْ مَـلِـكٍ
مِـلْءِ الـزَّمَـانِ وَمِـلْءِ الـسَّـهْـلِ وَالْـجَـبَـلِ[١]
فَـنَـحْـنُ فِـي جَـذَلٍ وَالـرُّومُ فِـي وَجَـلٍ
وَالْـبَـرُّ فِي شُـغُـلٍ وَالْـبَـحْـرُ فِـي خَـجَـلِ[٢]
مِـنْ تَـغْـلِـبَ الْـغَـالِـبِـيـنَ الـنَّـاسَ مَـنْـصِـبُـهُ
وَمِـنْ عَـدِيٍّ أَعَـادِي الْـجُـبْـنِ وَالْـبَـخَـلِ[٣]
وَالْـمَـدْحُ لابْـنِ أَبِـي الْـهَـيْـجَـاءِ تُـنْـجِـدُهُ
بِـالْـجَـاهِـلِـيَّـةِ عَـيْـنُ الْـعِـيِّ وَالْـخَـطَـلِ[٤]

= بحيث يجود بالناهدات من الجواري والخيول العتيقة الطويلة القصار الشعور والسيوف والرماح الطويلة اللدنة.

(١) يمدح الشاعر سيف الدولة بعظمته وبعد همّته، حتى ضاق به الزمان لأنه لا يستطيع تنفيذ رغباته وتحقيق كلّ آماله وتلبية تطلّعاته، إنه ملك يستوعب الزمان بما يحمله من طموح أن يمهره بطابعه البطولي في عالم الأمجاد، حتى المكان ضاق أيضاً بفتوحاته، فمعاركه تتوالى في كل مكان، في السفح والجبل، فجيوشه ضاقت الأرض بها وبانتصاراته.

(٢) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١ :٢٤٨. الجذل: السرور والفرح. الوجل: الخوف والرعب. قسم الشاعر الوجود السياسي والديني قسمين؛ فالمسلمون شريحو الصدور، تملأ قلوبهم الفرحة بانتصارات الأمير، وفي المقابل الروم يملأ قلوبهم رعب لا ينقطع مدده، فباستمرار يُوالي الأمير غزواته على بلادهم فيمعن فيهم تقتيلاً، وفي بلادهم تخريباً فجيشه قد اكتسح البرّ فضاق عنه السهل والجبل، والبحر في حسرة وغيرة لكرمه وفيض جوده الذي يشمل كل مواطنيه ومحبيه.

(٣) تغلب: قبيلة سيف الدولة. منصب: أصل. عديّ: عشيرة الأمير. يمدح الشاعر الأصول التي ينتمي إليها الشاعر، إنه تغلبي، ولتغلب تاريخ حافل بالأمجاد في العهد الجاهلي وفي الإسلام، وهو من عشيرة بني عديّ فيهم البطولة والشجاعة، إنهم أعداء الجبن والتخاذل والبخل، فالكرم متأصل فيهم طبعاً وتطبّعاً.

(٤) أبو الهيجاء: كنية والد سيف الدولة. تُنجده: تُمدّه وتُعينه. العيّ: العجز في النطق. الخطل: الفساد في القول. ينعى الشاعر على أبي العباس النامي الذي ذكر للأمير أمجاد تغلب في الجاهلية، بأن ذلك عين الخطل.

لَـيْـتَ الْـمَـدَائِـحَ تَـسْـتَـوْفِـي مَـنَـاقِـبَـهُ
فَـمَـا كُـلَـيْـبٌ وَأَهْـلُ الأَعْـصُـرِ الأُوَلِ (١)

خُـذْ مَـا تَـرَاهُ وَدَعْ شَـيْـئـاً سَـمِـعْـتَ بِـهِ
فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ (٢)

وَقَـدْ وَجَـدْتَ مَـجَـالَ الْـقَـوْلِ ذَا سَـعَـةٍ
فَـإِنْ وَجَـدْتَ لِـسَـانـاً قَـائِـلاً فَـقُـلِ (٣)

إِنَّ الْـهُـمَـامَ الَّـذِي فَـخْـرُ الأَنَـامِ بِـهِ
خَـيْـرُ الـسُّـيُـوفِ بِـكَـفَّـيْ خَـيْـرَةِ الـدُّوَلِ (٤)

تُـمْـسِـي الأَمَـانِـيُّ صَـرْعَـى دُونَ مَـبْـلَـغِـهِ
فَـمَـا يَـقُـولُ لِـشَـيْءٍ لَـيْـتَ ذَلِـكَ لِـي (٥)

---

(١) يُفضل الشاعر ممدوحه، لقد كان أهلاً للمدح دون سواه، فكلّ ما قيل من قصائد مدحية لا تفيه حقّه لأنه فوق المدح، والمدح أصلاً يستوحي مكارمه وفضائله، لذا فكليب الجاهلي وسواه من أجداد الشاعر الجاهليين لم يكونوا بمستوى الأمير في كلّ شيء، فأين هم منه ومن إنجازاته؟

(٢) و (٣) ورد البيتان التاليان في: الخصائص، لابن جني: ٢ : ١٧١. يُخاطب الشاعر أبا العباس النامي مشككاً بذكائه وبملكته الشعرية، طالباً منه أن يتعامل مع ما يراه من فضائل سيف الدولة وجلائل أعماله، لأنها حيَّة معاشة معلومة من القاصي والداني؛ إنها سرّ عظمة الأمير، إنه شمس أشرقت على الكون دفئاً وكرماً وشجاعة وحسن خلق وجمال وجه به نور معاليه العالية، وعلى الأريب ألّا يُحاول رؤية زحل ذلك النجم البعيد وأمامه شمس قريبة المأخذ والمنال، لذا فالأولى له أن يصف ما يرى ويمدح من يرى، ففي التغني ببطولاته غنًى عن ذكر أجداده، فإن كان الشاعر أريباً فلن يعدم الوسيلة الناجعة.

(٤) الهمام: العالي الهمة. الأنام: البشر. يمدح الشاعر سيف الدولة، إنه ذو همة عالية تهون أمامه المصاعب؛ فكلّ الناس يفخرون به، إنه سيف حامٍ يحمي دولة الخلافة التي تُسلّطه لتبطش بأعدائها في الداخل والخارج.

(٥) الأمانيّ، الواحدة أمنيَّة: ما يرغب المرء في تحقيقه. صرعى: مقتولة. يعني التمني افتقاد المرء لما يرغب فيه، والأمير يُحقّق كلّ شيء فلا يحول شيء دون ما يزيد لقدرته على تحقيق أمنيّته، ولذلك انتفى التمنّي من مصطلحاته التي يُردّدها لبعد همّته وطول يده.

أُنْظُرْ إِذَا ٱجْتَمَعَ السَّيْفَانِ فِي رَهَجٍ
إِلَى اخْتِلَافِهِمَا فِي الْخَلْقِ وَالْعَمَلِ(١)
هٰذَا الْمُعَدُّ لِرَيْبِ الدَّهْرِ مُنْصَلِتاً
أَعَدَّ هٰذَا لِرَأْسِ الْفَارِسِ الْبَطَلِ(٢)
فَالْعُرْبُ مِنْهُ مَعَ الْكُدْرِيِّ طَائِرَةٌ
وَالرُّومُ طَائِرَةٌ مِنْهُ مَعَ الْحَجَلِ(٣)
وَمَا الْفِرَارُ إِلَى الأَجْبَالِ مِنْ أَسَدٍ
تَمْشِي النَّعَامُ بِهِ فِي مَعْقِلِ الْوَعِلِ(٤)
جَازَ الدُّرُوبَ إِلَى مَا خَلْفَ خَرْشَنَةٍ
وَزَالَ عَنْهَا وَذَاكَ الرَّوْعُ لَمْ يَزُلِ(٥)

---

(١) و (٢) يقصد الشاعر بالسيفين، سيف الدولة الإنسان من لحم ودم، والسيف الحديدي الجامد الذي لا يُحسّ وتنعدم فيه الإرادة. الرهج: الغبار. ريب الدهر: مصائبه ونوائبه. منصلتاً: مجرّداً إنه لقاء بين ركني البطولة، فإذا كانت الحرب وتعالت الأغبرة في المعركة كان لسيف الدولة القيادة والتصميم والإرادة والقوة التي بواسطتها يعمل السيف الحديدي، فلا قيمة للسيف إن لم يستعمله بطل يضرب المصائب والويلات فيقصم ظهرها في الأزمات فيقضي على المحن في مهدها دون تردّد.

(٣) الكدري: ضرب من طيور القطا، والقطا ضرب من الحمام رمادي الريش. يستوطن الصحاري. الحجل: ضرب من الطيور يستوطن الجبال. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه مثار رعب أعدائه؛ فالأعراب البدو يُوغلون في الصحاري والفلوات شأن القطا، والروم يختفون خوفاً منه في الجبال الوعرة يحتمون بها شأن الحجال.

(٤) و (٥) الوعل: تيس الجبل. الدروب، الواحد درب: الطرق الضيقة الوعرة. خرشنة: من بلاد الروم. الروع: الخوف، يروى «من ملك» بدلاً من «من أسد». يصف الشاعر قدرة سيف الدولة وجيشه على ملاحقة الروم في جبالهم، يتلفّت القوم وراءهم وقلوبهم مليئة رعباً ويكاد الفزع يقضي عليهم فتقع أعينهم على أسد يُلاحقهم بجيشه وقد امتطى جنده جياداً عربية كأنها نعام يكاد يطير لسرعته، إلى أين الفرار، ويُتابع الأمير المطاردة لقد وصل خرشنة مخترقاً دروباً وعرة ضيقة تحيط بها الجبال من كل مكان، ورغم عودة الأمير إلى عاصمة ملكه فلا يزال الروم يأكل أكبادهم الرعب الشديد من معاودة الأمير الكرّة عليهم.

فَكُلَّمَا حَلَمَتْ عَذْرَاءُ عِنْدَهُمُ
فَإِنَّمَا حَلَمَتْ بِالسَّبْيِ وَالْجَمَلِ (١)

إنْ كُنْتَ تَرْضَى بِأَنْ يُعْطُوا الْجِزَى بَذَلُوا
مِنْهَا رِضَاكَ وَمَنْ لِلْعُورِ بِالْحَوَلِ (٢)

نَادَيْتُ مَجْدَكَ فِي شِعْرِي وَقَدْ صَدَرَا
يَا غَيْرَ مُنْتَحَلٍ فِي غَيْرِ مُنْتَحَلِ (٣)

بِالشَّرْقِ وَالْغَرْبِ أَقْوَامٌ نُحِبُّهُمُ
فَطَالِعَاهُمْ وَكُونَا أَبْلَغَ الرُّسُلِ (٤)

وَعَرِّفَاهُمْ بِأَنِّي فِي مَكَارِمِهِ
أُقَلِّبُ الطَّرفَ بَيْنَ الْخَيْلِ وَالْخَوَلِ (٥)

---

(١) من الطبيعي أن يحلم المرء بما يُحبّ فيُحسّ بالراحة النفسية، ولكن الأمر خلاف ذلك عند نساء الروم، العذارى منهم والنساء، فالواحدة تحلم بأن عربياً يحرمها حرّيتها وقد عجز عن حمايتها رومي، ففقد حميّته وكرامته، فإذا به يتخلّى عنها مؤثراً نفسه، لذا يفرّ تاركاً من وقعت في الأسر لمصيرها المحتوم، والجمل حينئذٍ رفيق جديد قد يكون فيه بقيَّة من كرامة افتقدتها في بني قومها.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧١. الجزى، الواحدة جزية: مال يدفعه الذميّ لقاء حمايته. يُخاطب الشاعر الأمير منوّهاً بقدرته على اتّخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب؛ فبإمكانه أن يحصل منهم على الجزية، إنها سبيل لغنى المسلمين ومحافظة الروم على أرواحهم، ويمثل الشاعر ذلك بمثال يُوافق أماني الروم، فالحول أفضل من العور بالنسبة للإنسان، وهكذا يتقبّل القوم الجزية رغماً عنهم ورغم كراهتهم لها.

(٣) و (٤) المنتحل: المدعي بما لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة، يُنوّه الشاعر بتلازم وترابط شخصيته كشاعر بشخصية سيف الدولة كوجود حيّ يجسّد مثلاً حيَّة، إنه يترجم ما يجده في ممدوحه شعراً لا ادّعاء فيه لصدق مقالته حيث لا انتحال لحقائق غير موجودة فيه، إنها حقائق تناقلها أهل المشرق والمغرب بإعجاب وحبّ لكلا طرفيها، الشاعر برسمها كواقع، وسيف الدولة كشاعر جسدها في شخصه.

(٥) الخول: الخدم. يعترف الشاعر بفضائل الأمير عليه، ويُعلن الأمر صراحة، إنه يعيش في نعيم وطمأنينة، وقد غمره بنعمه وتقريبه منه فكان شاعره دون منازع، فحيثما قلّب =

يَا أَيُّهَا الْمُحْسِنُ الْمَشْكُورُ مِنْ جِهَتِي،
وَالشُّكْرُ مِنْ قِبَلِ الإِحْسَانِ لَا قِبَلِي (١)

مَا كَانَ نَوْمِيَ إِلَّا فَوْقَ مَعْرِفَتِي
بِأَنَّ رَأْيَكَ لَا يُؤْتَى مِنَ الزَّلَلِ (٢)

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِعِ احْمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ
زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ (٣)

لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ؛
فَرُبَّمَا صَحَّتِ الأَجْسَامُ بِالْعِلَلِ (٤)

= نظره شاهد خيلاً مسوّمة وخدم بيته يُحسنون صنعاً في كلّ ما يُريد ويأتمرون بأمره.

(١) يُخاطب الشاعر ممدوحه رادًّا على أفضاله، فالممدوح محسن كريم فوجب له الشكر، فإحسانه هو الذي أدى إليه الشكر لا الشاعر، لأن الإحسان شكر بحدّ ذاته للمحسن، وكأن الشاعر يتبرّأ من ذلك فلا منّة له عليه.

(٢) الزلل: الخطأ. ثمّة سبب جعل الأمير ينكمش عن الشاعر حتى بادره بأنه يركن إلى حسن علمه وثاقب رأيه، حمله على النوم والطمأنينة؛ إنه على علم يقيني بأن الأمير لا يتسرّع بأخذ قرارات ليست صائبة، ولعلمه بحصافته وحسن تصرّفه فلا يُخطئ.

(٣) أقل: أعن وخذ بيد الشاعر حتى يخرج من عثرته. أنل: اعط. أقطع: اجعل إقطاع أرض لي. احمل: اجعل ركوبة لي. علّ: ارفع من مكانتي عندك. سلّ: سرِّ عليّ. أعد: أرجع لي ثقتي بحسن رأيك في. هشّ: ابتسم دلالة الرضى عني. تفضل: أنعم وتكرّم. أدنِ: قرّب. سُرّ: أدخل السرور على قلبي. صلْ: تكرّم عليّ بصلاتك. تتوالى أفعال الأمر حاملة معها الرجاء والتمني، فكانت الإجابة من قبل الأمير بالإيجاب.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧١. التقصير حالة من حالات الضعف، وقد يكون التقصير غير متعمّد، فحتى في هذه الحالة فالاعتذار يحمل على الغفران. يخاطب الشاعر الأمير آملاً أن يكون عتبه عليه باباً لعودته عمّا بدر منه من تقصير بحقّ الأمير، وأن تكون عقباه عقبى خير عليه، فلا يرجع إلى ما سلف من تقصير من ناحيته، فربما تكون هذه الحالة المرضية دواءً شافياً ناجعاً من أمراض أخرى أشدّ ضرراً منها.

وَمَـا سَـمِـعْـتُ، وَلَا غَـيْـرِي بِـمُـقْـتَـدِرٍ
أَذَبَّ مِـنْـكَ لِـزُورِ الْـقَـوْلِ عَـنْ رَجُـلِ (١)

لأنَّ حِـلْـمَـكَ حِـلْـمٌ لَا تَـكَـلَّـفُـهُ
لَيْسَ التَّكَحُّلُ في الْعَيْنَيْنِ كَالْكَحَلِ (٢)

وَمَـا ثَـنَـاكَ كَـلَامُ الـنَّـاسِ عَـنْ كَـرَمٍ
وَمَـنْ يَـسُـدُّ طَـرِيـقَ الْـعَـارِضِ الـهَـطِـلِ (٣)

أَنْـتَ الْـجَـوَادُ بِـلَا مَـنٍّ وَلَا كَـدَرٍ
وَلَا مِـطَـالٍ وَلَا وَعْـدٍ وَلَا مَـذَلِ (٤)

أَنْـتَ الـشُّـجَـاعُ إذَا مَـا لَـمْ يَـطَـأْ فَـرَسٌ
غَـيْـرَ الـسَّـنَـوَّرِ وَالأشْـلَاءِ وَالْـقُـلَـلِ (٥)

---

(١) أذبّ: أكثر دفاعاً. يُردف الشاعر أنه لم يسمع وكذلك أناس آخرون غيره أنك لست قادراً على ردع وإكبات قائل الزور، وأنت أعظم الناس وأولاهم بأن تفعل ذلك.

(٢) الكحل: سواد في أجفان العين خلقة، والتكحل تصنّع ذلك. يحاول الشاعر تهدئة الأمير وتطييب خاطره، مستثيراً فيه ملكة الحلم، إنه حليم طبعاً متأصّلاً فيه، وهو لا يتكلّفه، فلا يُصغي لواش وحاسد، فهؤلاء ألسنة سوء يعملون على إفساد العلائق بين المتحابّين والأصدقاء. ثم يأتي الشاعر بمثل أن ثمّة من جُبل متكحّل العينين وبين من يصطنع ذلك.

(٣) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٨٨. ثناك: أرجعك. العارض: السحاب. الهطل: الغزير المطر. يُثير الشاعر في ممدوحه إحساس كرم الأخلاق لديه، فوشايات الناس وكذبهم لن يُثنيه عن طبعه الكريم، فذلك مستحيل، تماماً كمن يمنع سحباً تحمل أمطاراً غزيرة من الهطول.

(٤) الجواد: الكريم. المنّ: تذكير وترديد المعطي ما أعطاه لسواه. المطال: التسويف. المذل: التبرّم والتأفّف. يمدح الشاعر الأمير بأنه كريم معطاء، ومن صفاته أنه لا يُذكّر بنعمه على مستحقيها، كما أنه يُسارع دون إبطاء أو مماطلة إلى إيفاء ما يتوجّب عليه نحو أوليائه دون تردّد أو تأخير، ولذا فإنه لا يعد بل يُسارع إلى إسعاف المحتاج دون تبرّم أو تأفّف.

(٥) السنوّر: ضرب من الدروع الجلدية. الأشلاء، الواحد شلو: الأعضاء. القلل، الواحدة قلّة: أعلى الرأس. يُخاطب الشاعر الأمير منوّهاً بشجاعته التي تتّضح معالمها =

وَرَدَّ بَعْضُ الْقَنَا بَعْضاً مُقَارَعَةً
كَأَنَّها مِنْ نُفُوسِ الْقَوْمِ في جَدَلِ[(١)]
لَا زِلْتَ تَضْرِبُ مَنْ عَادَاكَ عَنْ عُرُضٍ
بِعَاجِلِ النَّصْرِ في مُسْتَأْخِرِ الأجَلِ[(٢)]

سألت الله فيك

وقال وقد سئل بيتاً يتضمن أكثر ما يمكن من الحروف:

[الطويل]

عِشِ ابْقَ اسْمُ سُدْ قُدْ جُدْ مُرِ انْهَ رِفِ اسْرِ نَلْ
غِظِ ارْمِ صِبِ احْمِ اغْزُ اسْبِ رُعْ زَعْ دِلِ اثْنِ نَلْ[(٣)]

= في نهاية المعركة ويخرج منها منتصراً، فالأشلاء تغطي الأرض، وجثث القتلى تزرع الميدان، والرؤوس حيثما التفت الأمير، ولا بدّ له من أن يخرج من الساحة وهو يمتطي فرسه، فإذا به يدوس ويعثر بما يُصادفه منها فيطأها بحوافره.

(١) مقارعة: مضاربة. الجدل: شدّة الخصومة. يُردف الشاعر مشيداً بتلك الشجاعة، حيث يتبادل الأبطال الكفاح الرهيب، ويسقط منهم من يسقط وكأنهم في جدال عقيم لا يُودي بأصحابه إلّا إلى الموت، فالكلّ يبذل ما لديه من حجج تكشف عن مدى بطولته وشجاعته وقوّته.

(٢) عن عرض: كيفما حصل. يدعو الشاعر لممدوحه بدوام النصر على أعدائه فيُنزل بهم الهزائم كيفما قدر على ذلك، وبأسرع ما يُمكن كما أنه يتمنّى له دوام العمر سالماً معافًى.

(٣) عش: يتمنّى الشاعر للأمير العيش الرغيد. ابق: يتمنّى له البقاء والحياة والديمومة. سد: يتمنّى له السيادة الدائمة. قد: يطلب منه الاستمرار في قيادة الجيوش. جد: تكرّم. مر: الأمر والنهي في من يحكم وبما يحكم. انه: النهي من صفات الحاكم القادر. رِ من الورى: يطلب الشاعر من الأمير أن يكيد أعداءه في أجوافهم وقلوبهم. فِ: من الوفاء أي فِ لأوليائك بالإحسان إليهم. اسر: امشِ إلى أعدائك ليلاً. نل: احصل على ما تريد وتحبّ من ملاذ الدنيا وأمجادها. غظ: أنزل في حسادك وأعدائك ما تُؤلمهم به. ارم: أنزل بمن يكرهك كيدك. صب: وجّه سهام غضبك إلى أعدائك في مقاتلهم. احم: صن إمارتك من الطامعين والحاقدين والأعداء. اغز: أدم الغزو في نحور أعدائك. اسب: أأسر أعداءك. رع: أخف أعداءك. زع: =

وَهَـذَا دُعَـاءٌ لَـوْ سَـكَـتُّ كُـفِـيْـتَـهُ
لأَنّـي سَـأَلْـتُ الـلَّـهَ فِـيْـكَ وَقَـدْ فَـعَـلْ[١]

وصفت لنا سلاحاً

ودخل عليه ليلاً وهو يصف سلاحاً كان بين يديه فرفع فقال :

[الوافر]

وَصَـفْـتَ لَـنَـا وَلَـمْ نَـرَهُ سِـلَاحـاً
كَـأَنَّـكَ وَاصِـفٌ وَقْـتَ الـنِّـزَالِ[٢]

وَأَنَّ الْـبَـيْـضَ صُـفَّ عَـلَـى دُرُوعٍ
فَـشَـوَّقَ مَـنْ رَآهُ إِلَـى الْـقِـتَـالِ[٣]

فَـلَـوْ أَطْـفَـأْتَ نَـارَكَ تَـا لَـدَيْـهِ
قَـرَأْتَ الْـخَـطَّ فِـي سُـودِ الـلَّـيَـالِـي[٤]

= اردُد أعداءك بمهاجمتهم على الدوام. د: أدّ ديات من هم تحت سلطتك من الرعايا والجند الذين يُستشهدون في حروبك. .ل: تولّ أمصاراً وبلاداً وأضفها إلى ولايتك، فقدرتك تؤهّلك لذلك. اثن: ردّ الكيد بما توفّر لك إلى نحور أعدائك. نل: أعطِ من كرمك من يقصدك آملاً بك خيراً.

(١) يُخاطب الشاعر الأمير أن ما أورده دعاء يخرج من أعماق قلبه، وقد حقّقه اللّه عزّ وجل فيه قبل الدعاء، فقد سأله ذلك وقد فعله فأغناه عن الدعاء.

(٢) يُخاطب الشاعر الأمير بأن وصفه للسلاح الذي كان بين يديه، وقد رُفع من المكان كأنه يصف معركة حقيقيّة يحتشد فيها كلّ سائر أنواع السلاح المستعمل فيها، ممّا يدلّ على معايشة دائمة من قبل الأمير للحروب والسلاح.

(٣) البيض، الواحدة بيضة: المغفر من حديد يحمي به المقاتل رأسه. يُردف الشاعر منوّهاً بمهارة الأمير، فقد وصف البيض والدروع بطريقة حمّست السامعين وشوّقتهم للقتال.

(٤) يروى «فلو» بدلاً من «ولو». تا: أي هذه. يُنوّه الشاعر بضياء تلك الأسلحة، فإشعاعها يسمح للمرء القراءة في ظلمة الليل ولا يكون بحاجة إلى القناديل أو المشاعل أو الشموع.

وَلَوْ لَحَظَ الدُّمُسْتُقُ جَانِبَيْهِ
لَقَلَّبَ رَأْيَهُ حَالاً لِحَالِ[١]
إِنِ ٱسْتَحْسَنْتَ وَهْوَ عَلَى بِسَاطٍ
فَأَحْسَنُ مَا يَكُونُ عَلَى الرِّجَالِ[٢]

كل شيء فيه طيب

وحضر مجلس سيف الدولة وبين يديه أترج وطلع وهو يمتحن الفرسان وعنده ابن حبيش شيخ المصيصة فقال له: لا تتوهم هذا للشرب، فقال أبو الطيب:

[الوافر]

شَدِيدُ الْبُعْدِ مِنْ شُرْبِ الشَّمُولِ
تُرُنْجُ الْهِنْدِ أَوْ طَلْعُ النَّخِيلِ[٣]
وَلَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ طِيبٌ
لَدَيْكَ مِنَ الدَّقِيقِ إِلَى الْجَلِيلِ[٤]

---

(١) الدمستق: قائد الروم. يأتي الشاعر على ذكر عدوّ الأمير اللدود، قائد الروم، فلو أنه رأى ذلك السلاح لفكّر ألف مرّة بعداوته لسيف الدولة وقلّب الأمور من سائر وجوهها، وقرّ رأيه بمهادنة الأمير، وربما مصالحته ومسالمته.

(٢) يُخاطب الشاعر الأمير بأن استحسانه لهذا السلاح وهو على بساط يفترش الأرض، فأحسن من ذلك استعماله في القتال ضدّ الأعداء؛ إنه يستثيره للغزو والقتال، وبذلك يكون السلاح زينة حقيقية للرجال.

- ورد بيت لم يرد في الديوان ينهي به المتنبي قصيدته، وهو التالي:

وَإِنَّ بِهَا، وَإِنَّ بِهِ لَنَقْصاً، وأَنْتَ لَهَا النِّهَايَةُ فِي الكَمَالِ

(٣) الشمول: من أسماء الخمرة. الترنج: لغة الأترج: ضرب من الثمر من أنواع الليمون يسمّى بالكبّاد عندنا. الطلع: نور النخلة ما دام في الكافور. ينفي الشاعر أن الأترج والطلع ممّا يتعاطى الشرب الخمرة عليهما، وإن كان بعضهم يفعل ذلك.

(٤) دقّ: صغُر. جلّ: عظُم. يُردف الشاعر متمماً اعتراضه أن الأترج طيب والطلع كذلك؛ لذا فكلّ ما يُقدّم في مجلس الأمير طيب صغُر أم كبُر؛ فالطيّب لا يأتي إلّا بالطيب.

وَمَيْدَانُ الْفَصَاحَةِ وَالْقَوَافِي
وَمُمْتَحَنُ الْفَوَارِسِ وَالْخُيُولِ(١)

أيحتاج النهار إلى دليل؟

فلم يتبين معنى البيت الأول لقوم فقال:

[الوافر]

أَتَيْتُ بِمَنْطِقِ الْعَرَبِ الأَصِيلِ،
وَكَانَ بِقَدْرِ مَا عَايَنْتُ قِيلِي(٢)

فَعَارَضَهُ كَلامٌ كَانَ مِنْهُ
بِمَنْزِلَةِ النِّسَاءِ مِنَ الْبُعُولِ(٣)

وَهَذا الدُّرُّ مَأْمُونُ التَّشَظِّي،
وَأَنْتَ السَّيْفُ مَأْمُونُ الْفُلُولِ(٤)

---

(١) يرى الشاعر أن بلاط الأمير يحلو فيه إنشاد الشعر وسماعه حيث يتبارى الشعراء أمام سيف الدولة وكذلك الفرسان الأبطال يتسابقون ويبرّز فيهم البطل فيستحقّ المتفوّق من الشعراء والفرسان الجوائز السنية.

(٢) القيل: القول. يردّ الشاعر على المعترض بأن ما أنشده فصيح عربي يُفهم دون كثير إعمال رأي، ولقد رأى رأيه في ما شاهد من أترج وطلع بأنه لا يَشرب عليه الخمرة، بل إنه قصد أن الأجدر بالحضور مقاتلة الأعداء ومجالدتهم، وذلك أولى وأجدر بالرجال من تعاطي الخمور.

(٣) البعول، الواحد بعل: الأزواج. ينتقد الشاعر المعترض بأن منزلته تنحطّ عن منزلة الرجل، فإنه بمثابة المرأة؛ لأنها من طبيعتها المسالمة والموادعة، ومن طبيعة الرجال المجابهة والنضال دفاعاً عن كرامة الأمة.

(٤) التشظي: التكسّر. الفلول، الواحد فلّ: الأثلام التي تُصيب السلاح لكثرة الاستعمال. يفخر الشاعر بنظمه، إنه الدرّ، والفرق بين شعره والدرّ أن الدرّ قابل للتشظي والتكسّر والتفرّق بينما شعر المتنبي متماسك الوحدة والمشاعر والأهداف، فلا يمكن فصل أجزائه عن بعضها، ثم يلتفت الشاعر إلى سيف الدولة مادحاً؛ إنه سيف عصيّ على الأعداء، فلا يستطيعون إضعافه، إنه سيف مأمون الفلول.

وَلَـيْـسَ يَـصِـحُّ فِـي الأَفْـهَـامِ شَـيْءٌ
إِذَا احْـتَـاجَ الـنَّـهَـارُ إِلَـى دَلِـيـلِ (١)

زرت العداة بآجالها

ودخل عليه في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين وثلاث مئة (٩٥٢م) وقد جلس لرسول ملك الروم وهو قد ورد يلتمس الفداء وركب الغلمان بالتجافيف وأحضروا لبؤة مقتولة ومعها ثلاثة أشبال أحياء وألقوها بين يديه فقال أبو الطيب ارتجالاً:

[المتقارب]

لَـقِـيـتَ الْـعُـفَـاةَ بِـآمَـالِـهَـا،
وَزُرْتَ الْـعُـدَاةَ بِـآجَـالِـهَـا (٢)

وَأَقْـبَـلَـتِ الـرُّومُ تَـمْـشِـي إِلَـيْـ
ـكَ بَـيْـنَ الـلُّـيُـوثِ وَأَشْـبَـالِـهَـا (٣)

إِذَا رَأَتِ الأُسْـدَ مَـسْـبِـيَّـةً
فَـأَيْـنَ تَـفِـرُّ بِـأَطْـفَـالِـهَـا (٤)

---

(١) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٧٦. يروى «الأذهان» بدلاً من «الأفهام». يأتي الشاعر بمثال تبياناً على رأيه مفاده أن من لا يفهم لا يمكنه ذلك رغم تكرار المحاولات لإفهامه، فما هو بيّن بيّن بذاته تماماً كالنهار بشمسه ونوره فلا يُنكر ذلك منكر.

(٢) العفاة، الواحد عافٍ: طالب الإحسان. العداة، الواحد عادٍ: الأعداء. يُخاطب الشاعر الأمير منوّهاً بمزاياه، إنه يستجيب للمحتاجين فيُقدم لهم العون المادي من مال وما يحتاجون من عون معنوي كالحماية وما شابه ذلك، وأنه دائم الزيارة لأعدائه بجيوشه يغزوهم وينزل بهم الهزائم فيُمعن بهم تقتيلاً ويُقرّبهم إلى قبورهم.

(٣) و (٤) الليوث، الواحد ليث: من أسماء الأسود. الأشبال، الواحد شبل: أولاد الأسد، يصف الشاعر المشهد، فقد استقبل الوفد الرومي بما يُثير في قلوبهم الرعب إذ شاهدوا أسداً مقتولاً وأشباله الأربعة أحياء، وبلا شكّ سوف ينقلون ما يُشاهدون إلى ملكهم ويُفكّرون بما آل إليه أمر الأسد وصغاره.

خيرهم أكثرهم فضائل

وجرى ذكر ما بين العرب والأكراد من الفضل فقال سيف الدولة: ما تقول في هذا يا أبا الطيب؟ فقال:

[الرجز]

إِنْ كُنْتَ عَنْ خَيْرِ الأَنَامِ سَائِلَا
فَخَيْرُهُمْ أَكْثَرُهُمْ فَضَائِلَا (١)

مَنْ كُنْتَ مِنْهُمْ يَا هُمَامَ وَائِلَا
أَلطَّاعِنِينَ فِي الوَغَى أَوَائِلَا (٢)

وَالعَاذِلِينَ فِي النَّدَى العَوَاذِلَا
قَدْ فَضَلُوا بِفَضْلِكَ القَبَائِلَا (٣)

كل عزيز للأمير ذليل

وقال يمدح سيف الدولة أيضاً:

[الطويل]

لَيَالِيَّ بَعْدَ الظَّاعِنِينَ شُكُولُ
طِوَالٌ وَلَيْلُ العَاشِقِينَ طَوِيلُ (٤)

---

(١) و (٢) الأنام: الناس، البشر. يُجيب الشاعر الأمير أن خير البشر هم من يتّصفون بكثرة فضائلهم، وتلك الفضائل تتمحور حول الشجاعة والكرم وعلوّ الأنساب، إنهم العرب والأمير منهم إنه الملك الهمام الشهم ذو الهمَّة العالية، وهم الطاعنون أعداءهم في الحروب من بني وائل عشيرة سيف الدولة.

(٣) العاذلين، الواحد عاذل: اللائمين. الندى: الجود والكرم. العواذل: اللائمات. قبيلة الشاعر تلوم اللائمين بالردّ العمليّ عليهم، إنهم يلومونهم بالجود، فإذا بهم يُسبغون عطاياهم بلا حساب، وبكرم عظيم ويلومونهم بكثرة غزوهم لأعدائهم فلا يهتمون لذلك بل يردّون عليهم بزيادة غزواتهم، ولقد وصلوا إلى أعلى مكانة بفضل الأمير فكانوا خير قبيلة بين سائر قبائل العرب يرأسها خير أمير.

(٤) الظاعنين، الواحد ظاعن: مرتحل. شكول، الواحد شكل: مثيل. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي. تختلف نظرة البشر لليل باختلاف ميولهم ورغباتهم، فمنهم من يراه راحة بالٍ وجسد، ومنهم من يراه عذاباً وألماً إذا كان مريضاً، ومنهم =

يُـبـِـنَّ لِـيَ الْـبَـدْرَ الَّــذِي لا أُرِيــدُهُ،
وَيُـخْـفِـيـنَ بَـدْراً مَـا إِلَـيْـهِ سَـبِـيـلُ[١]

وَمَـا عِـشْـتُ مِـنْ بَـعْـدِ الأحِـبَّـةِ سَـلْـوَةً
وَلَـكِـنَّـنِـي لِـلـنَّـائِـبَـاتِ حَـمُـولُ[٢]

وَإِنَّ رَحِـيـلاً وَاحِـداً حَـالَ بَـيْـنَـنَـا،
وَفِـي الـمَـوْتِ مِـنْ بَـعْـدِ الـرَّحِـيـلِ رَحِـيـلُ[٣]

إذَا كَـانَ شَـمُّ الـرَّوْحِ أَدْنَـى إِلَـيْـكُـمُ
فَـلَا بَـرِحَـتْـنِـي رَوْضَـةٌ وَقَـبُـولُ[٤]

= من يراه يمضي سريعاً إذا كان إلى جانب المحبوب، أما بالنسبة للشاعر فيراه مع الراحلين يمضي على وتيرة واحدة لأن ما يشغل بالهم واحد في مبتدئه ومنتهاه، أما الشاعر فيراه طويلاً مملاً، إنه عاشق ولهان، رحلت حبيبته مع الظاعنين وتركته ينظر من بعيد يتألم مستسلماً لإرادة من بيده الأمر.

(١) الشاعر ساهر أرق، أرّقه الشوق ينظر إلى القمر بدراً جميلاً، فلا يجده كذلك لذا فإنه لا يريده؛ فالليالي أخفت بدراً جميلاً يهواه الشاعر بظلمتها وبمسافات شاسعة تفصلها عنه.

(٢) وردت الأبيات التسعة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤١ـ ١٤٢. سلوة: نسياناً. النائبات، الواحدة نائبة: المصائب والويلات. حمول: صبور يحتمل المكاره. إن الشاعر لم ينس أحبّته فلا زال الحبّ والشوق إليهم يُثير فيه لاعج الحبّ، ولقد اعتاد على معايشة المصائب تتوالى عليه فيتحمّلها في سبيل الحبّ محتسباً.

(٣) يذكر الشاعر أن سوء ما وصل إليه من نفسية سببه رحيل من أحبّ، وهو بلا شكّ أهون عليه من فراق أبديّ، وقد يُسبّب له الموت إن لم يكن ثمّة لقاء من جديد.

(٤) الروح: نسيم الرياح الشرقية. برح: فارق. القبول: ريح الصبا الرقيق الناعم. الروضة: الحديقة ذات الأشجار والرياحين. يُخاطب الشاعر حبيبته أن الرياح المنبعثة من قبلها تحيي فيه ذكريات حلوة يتنسّمها مع النسيم الرقيق، فيُحسّ بتقارب وجداني يربطه بحبيبته وبماضيه العذب الحنون، وهو يتمنّى لو يدوم له هذا الإحساس، إنه روضة مشاعره حيث ينعم بظلّ ظليلٍ رغد فيعيده إلى ماضٍ حالم حنون جميل.

وَمَـا شَـرَقِـي بِـالْـمَـاءِ إِلَّا تَـذَكُّـراً
لِـمَـاءٍ بِـهِ أَهْـلُ الْـحَـبِـيـبِ نُـزُولُ[١]
يُـحَـرِّمُـهُ لَـمْـعُ الأَسِـنَّـةِ فَـوْقَـهُ
فَـلَـيْـسَ لِـظَـمـآنٍ إِلَـيْـهِ وُصُـولُ[٢]
أَمَـا فـي الـنُّـجـوم الـسَّـائِـرَاتِ وَغَـيْـرِهَـا
لِـعَـيْـنِـي عَـلَـى ضَـوْءِ الـصَّـبَـاحِ دَلِـيـلُ؟[٣]
أَلَـمْ يَـرَ هَـذَا الـلَّـيْـلُ عَـيْـنَـيْـكِ رُؤْيَـتِـي
فَـتَـظْـهَـرَ فِـيـه رِقَّـةٌ وَنُـحُـولُ[٤]
لَـقِـيـتُ بِـدَرْبِ الـقُـلَّـةِ الْـفَـجْـرَ لَـقْـيَـةً
شَـفَـتْ كَـبِـدِي وَالـلَّـيْـلُ فِـيـهِ قَـتِـيـلُ[٥]

---

(١) الشرق: الغصص. الماء سرّ الحياة ودفقها، ولكن الشاعر يجد غصصاً إذا شربه يجد صعوبة ببلعه، ذلك أن الماء الذي نزل عليه القوم تتذوّقه حبيبته عذباً زلالاً، وهو بدوره يودّ لو يستقي منه ليحُسّ بإحساسها ويقرب منها.

(٢) ثمّة مانع يمنع الشاعر من الوصول إلى حبيبته، إنها تُصان بحماة أقوياء يحولون دونهما، فرماحهم مشرّعة، فلا يستطيع ظمآن أن يروي عطشه من ماء يحلو طعمه ومذاقه، لذا فعليه أن يبقى ظمآن دائماً؛ فلا سبيل للقاء، وذلك محال.

(٣) يتمنّى الشاعر زوال الليل، لينعم بتباشير فجر جديد، فليله طويل مملٌّ ونجومه لم تُساعده على اكتشاف معالم طريقه وخلاصه من ليل مظلم، رغم وجود النجوم الباهتة يسأل الشاعر وقد طال ليله عن نهار يبسم عن أمل مشرق جميل.

(٤) يسأل الشاعر ألم يحن لليل أن يرى عيني حبيبته بنفس المنظار والعينين اللتين تزيّنان وجهه؟ فيحلّ ما حلّ به من هيام وحبّ لفتاة آية في الجمال والكمال، فإذا ما حصل ذلك أدّى إلى نحوله وبالتالي إلى رحيله وزواله.

(٥) درب القُلّة: موضع وراء الفرات. يروى «كمدي» بدلاً من «كبدي»: وكمدي حزني. لقد كان لقاء مفرح حين وصل الشاعر إلى درب القلة، فإذا بالليل وقد بدأ يلفظ أنفاسه وتباشير فجر جديد يلوح من بعيد بشفق أحمر كأنه قتيل في النزع الأخير، وهذا ما أراح الشاعر وشفى كبده من غيظه وغضبه ممّا جناه الليل عليه.

وَيَـومـاً كَـأَنَّ ٱلْـحُـسْـنَ فِـيـهِ عَـلَامَـةٌ
بَـعَـثْـتِ بِـهَـا وَالـشَّـمْـسُ مِـنْـكِ رَسُـولُ (١)
وَمَـا قَـبْـلَ سَـيْـفِ الـدَّوْلَـةِ اثَّـارَ عَـاشِـقٌ
وَلَا طُـلِـبَـتْ عِـنْـدَ الـظَّـلَامِ ذُحُـولُ (٢)
وَلٰـكِـنَّـهُ يَـأْتِـي بِـكُـلِّ غَـرِيـبَـةٍ
تَـرُوقُ عَـلَـى اسْـتِـغْـرَابِـهَـا وَتَـهُـولُ (٣)
رَمَـى الـدَّرْبَ بِـالْـجُـرْدِ ٱلْـجِـيَـادِ إِلَـى الْـعِـدَى
وَمَـا عَـلِـمُـوا أَنَّ الـسِّـهَـامَ خُـيُـولُ (٤)
شَـوَائِـلَ تَـشْـوَالَ ٱلْـعَـقَـارِبِ بِـٱلْـقَـنَـا
لَـهَـا مَـرَحٌ مِـنْ تَـحْـتِـهِ وَصَـهِـيـلُ (٥)

---

(١) يُتابع الشاعر حديثه عن ذلك اليوم وما يُوحيه إليه من بُشرى بسعادة قادمة، بعد ليل حطّ على صدره ثقله بهموم لا حصر لها؛ إنها شمس حنان ودفء في فجر تباشيره تُوحي بالتفاؤل وتفتّح أمل جديد بعثت به محبوبة الشاعر رسول محبّة بشمس وادعة لطيفة.

(٢) اثار: أدرك ثأره. الذحول، الواحد ذحل: الثأر. يتابع الشاعر حديثه، فلقد تمكّن الشاعر من الانتقام من ذلك الليل الطويل لنفسه منه بانتصار سيف الدولة على أعدائه، فثأر وهنا البشرى بتحول وجهة حياة الشاعر إلى مسار جديد سعيد، وبذلك استراح الشاعر وشفي من آلامه التي أتى الليل الطويل بها، ولم يكن ذلك حاصلاً في ما مضى بأن ينتقم امرؤ من الليل.

(٣) الغريبة: الأمر العجب. تروق: تعجب. تهول: ترعب. يمدح الشاعر سيف الدولة؛ ففي كلّ يوم يأتي بالعجيب من الأمور العظام من خوارق العادات المثيرة للدهشة ممّا لا يخطر على بال، فإذا بالناس يستعظمونها استعظاماً لها ولصاحبها فتقع المهابة له في قلوبهم.

(٤) الدرب: الطريق المؤدّي إلى بلاد الروم. الجرد، الواحدة جرداء: الخيول القصيرة شعر الجلد. يتحدّث الشاعر منوّهاً بجرأة سيف الدولة، فقد تسلّط على بلاد الروم، فاقتحم دروبهم بجياد عربية جرداء كأنها سهام لسرعتها، والمفاجأة أن هؤلاء لم يدروا أن الخيول سهام تمرق مسرعة كالبرق.

(٥) شوائل: ترفع أذنابها كالعقارب. القنا: الرماح. المرح: شدّة النشاط بعد اللعب.

وَمَا هِيَ إلَّا خَطْرَةٌ عَرَضَتْ لَهُ
بِحَرَّانَ لَبَّتْهَا قَناً وَنُصُولُ (١)

هُمَامٌ إذَا مَا هَمَّ أَمْضَى هُمُومَهُ
بِأَرْعَنَ وَطْءُ المَوْتِ فِيهِ ثَقِيلُ (٢)

وَخَيْلٍ بَرَاهَا الرَّكْضُ في كُلِّ بَلْدَةٍ
إذَا عَرَّسَتْ فِيهَا فَلَيْسَ تَقِيلُ (٣)

فَلَمَّا تَجَلَّى مِنْ دَلُوكٍ وَصَنْجَةٍ
عَلَتْ كُلَّ طَوْدٍ رَايَةٌ وَرَعِيلُ (٤)

= يصف الشاعر انطلاق تلك الجياد بسرعة عظيمة بفرسانها الذين يرفعون رماحهم استعداداً لبدء المعركة كأنهم أذناب عقارب مرفوعة تتهيّأ للانقضاض على فرائسها.

(١) الخطرة: السانحة تطرأ على بال صاحبها بسرعة. حرّان: اسم بلد. لبّتها: أجابتها. النصول، الواحد نصل: السيوف. يُطلعنا الشاعر على أريحيّة ممدوحه، فبدون سابق إنذار طرأت سانحة على باله بسرعة؛ أن يقوم بغزوة خاطفة سريعة، وبدون أدنى تردّد تأهب الجند بسلاحهم، الرماح والسيوف، وكان النصر عظيماً.

(٢) الهمام: الملك العظيم. همّ بالأمر: عزم على تنفيذه. أمضى: شرع بتنفيذه. الأرعن: الجيش العظيم. يصف الشاعر الأمير، إنه ملك عظيم مهاب جليل، يُسارع إلى تنفيذ ما يخطر بباله حالما يرى رأيه به، فإذا به يتقدّم جيشه الأرعن الكثير العدد بحيث يُغطّي الأرض؛ ففي كل خطوة يخطوها يزرع الموت في صفوف أعدائه بعنف وقوّة، فيكسر شوكتهم رغم محاولاتهم للقضاء عليه.

(٣) براها: أضناها وهزلها. التعريس: نزول الركب آخر الليل للراحة. تقيل: تنزل عند الظهيرة للاستراحة ونوم القيلولة. يصف الشاعر سرعة زحف ذلك الجيش، فالخيول قد أهزلها استمرار العدو والركض المتواصل، فهي لا تعرف للراحة طعماً، فإذا دخلت مدينة من مدن العدو لا تنزل بها لتستجمّ وتستريح، بل إنها تنتقل إلى بلد آخر لتصبح مع الفجر في مدينة أخرى، وهكذا حال الجيش على الدوام.

(٤) تجلّى: بدا. دلوك: موضع وراء الفرات. صنجة: نهر بين ديار بكر وديار مضر. الطود: الجبل المرتفع. الرعيل: القطعة من الخيول. يصف الشاعر انتشار جيش سيف الدولة وقد انقسم قسمين؛ وذلك بعدما خرج من دلوك وصنجة، فإذا بالفرسان قد انتشروا في الجبال، فبدت راياتهم على سمت السماء معانقة النجوم.

عَـلَـى طُـرُقٍ فِـيـهَـا عَـلَـى الـطُّـرْقِ رِفْـعَـةٌ
وَفِـي ذِكْـرِهَـا عِـنْـدَ ٱلْأَنِـيـسِ خُـمُـولُ (١)
فَـمَـا شَـعَـرُوا حَـتَّـى رَأَوْهَـا مُـغِـيـرَةً
قِـبَـاحـاً وَأَمَّـا خَـلْـقُـهَـا فَـجَـمِـيـلُ (٢)
سَـحَـائِـبُ يُـمْـطِـرْنَ الْـحَـدِيـدَ عَـلَـيْـهِـم
فَـكُـلُّ مَـكَـانٍ بِـالـسُّـيُـوفِ غَـسِـيـلُ (٣)
وَأَمْـسَـى الـسَّـبَـايَـا يَـنْـتَـحِـبْـنَ بِـعِـرْقَـةٍ
كَـأَنَّ جُـيُـوبَ الـثَّـاكِـلَاتِ ذُيُـولُ (٤)
وَعَـادَتْ فَـظَـنُّـوهَـا بِـمَـوْزَارَ قُـفَّـلاً
وَلَـيْـسَ لَـهَـا إلَّا الـدُّخُـولَ قُـفُـولُ (٥)
فَـخَـاضَـتْ نَـجِـيـعَ الْـقَـوْمِ خَـوْضـاً كَـأَنَّـهُ
بِـكُـلِّ نَـجِـيـعٍ لَـمْ تَـخُـضْـهُ كَـفِـيـلُ (٦)

---

(١) الخمول: زوال الذكر. يصف الشاعر ارتياد جيش سيف الدولة لجبال الروم الشامخة التي لم يسبق أحد إلى ارتيادها من قبل؛ طرق وعرة دونها حوائل وموانع، والركب دائم الزحف بعناد رغم الصعوبات.

(٢) فجأة وبدون سابق إنذار إذا بتلك الجياد تنزل بالروم الموت والدمار، وكان في خلدهم أن تلك الجبال مانعتهم من سيوف المسلمين، فإذا بها تبدو قبيحة في نظرهم لما شاهدوا منها قتلاً وفتكاً، وهي في الحقيقة جميلة الخلق.

(٣) سحائب: الواحدة سحابة؛ غيوم تسحّ مطراً. يصف الشاعر الجيش وما أنزله بالروم، إنها سحب تتدافع تنذر بموت محقّق، فإذا بغيوم تنشر الرعب فنوناً ألوانها دماء تنهمر، وسيوف تبرق وأصوات ترعد رعد الموت، تتهاوى الجثث وتسيل دماؤها فتغسل الأرض بهم ومنهم.

(٤) عرقة: بلد ببلاد الشام. الانتحاب: البكاء المصحوب بعويل. الجيوب، الواحد جيب: ما انفتح من القميص على النحر. الثاكلات، الواحدة ثكلى: المرأة التي فقدت أحد أقربائها. يصف الشاعر الحالة المحزنة التي كانت السبايا عليها، وقد جيء بهن إلى عرقة، فإذا بهن يُثرن الشفقة؛ يبكين قتلاهن وينتحبن وقد تمزّقت أثوابهن فبدت عليهن كأذيال كاشفة عن أجسادهن.

(٥) و (٦) موزار: من حصون الروم. القفول: العودة. ومن مزايا سيف الدولة مهارته =

تُسَايِرُهَا النِّيرَانُ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ
بِهِ الْقَوْمُ صَرْعَى وَالدِّيَارُ طُلُولُ[(١)]
وَكَرَّتْ فَمَرَّتْ فِي دِمَاءِ مَلَطْيَةٍ
مَلَطْيَةُ أُمٌّ لِلْبَنِينَ ثَكُولُ[(٢)]
وَأَضْعَفْنَ مَا كُلِّفْنَهُ مِنْ قُبَاقِبٍ
فَأَضْحَى كَأَنَّ الْمَاءَ فِيهِ عَلِيلُ[(٣)]
وَرُعْنَ بِنَا قَلْبَ الْفُرَاتِ كَأَنَّمَا
تَخِرُّ عَلَيْهِ بِالرِّجَالِ سُيُولُ[(٤)]

= العسكرية، بحيث خدعهم في محاولة التفاف حيث عرّج الجيش على موزار، فظَنَّ الروم أنه يودّ العودة إلى بلاده، فإذا به يحيط بذلك الحصن، ويقع الحصن بيديه، فإذا بالدماء تبدو بحراً متلاطماً، فكانت الكارثة عليهم عظيمة لا تُحتمل حتى ظنّ القوم أنه لم يكن قبلها ما حصل مثلها ولن يكون بعدها مثيلها، ومن هنا كان الرأي أن ما حصل للروم لا يصعب على سيف الدولة فعل مثله أو ما هو أسوأ منه في بلاد الروم لاقتناعهم بكفاءته العسكرية وبطولة جنوده.

(١) يروى «مسلك» بدلاً من «منزل». صرعى، الواحد صريع: قتلى. الطلول، الواحد طلل: بقايا آثار الديار. يصف الشاعر أفعال جيش الأمير؛ إنهم بعدما يقتلون من صادفوا في طريقهم يدمّرون تلك الديار ويحرقونها، فإذا بالنيران ترسم مسار الجيش حيثما حلّوا، ونظرة عجلى على ذلك المكان تبدو الألوان قد تمازجت، لون أسود ودماء حمراء وخراب ودمار، إنها فاجعة صحا عليها الروم فآلمتهم فظاعتها وشناعتها.

(٢) ملطية: من مدن الروم الكبيرة. الثكول، الواحدة ثكلى: المرأة التي فقدت أحد أقربائها. يرسم الشاعر خطّ مسير الدمار الذي شمل بلاد الروم. الجيش يُتابع زحفه، كان على ملطية أن تدفع ثمناً غالياً، دماءً ودماراً، فإذا بدماء سكانها تسيل حتى خاض الجيش في ساحاتها، إنها أمّ تلك البقاع وعاصمتها، فإذا بنسائها ينتحبن مولولات وقد فجعن بأحبابهن، أولادهن، أزواجهن، أخوتهن.

(٣) قباقب: اسم نهر. العليل: المريض. يُتابع الشاعر حديثه عن إنجازات سيف الدولة العسكرية. لقد عبر فرسان الأمير ذلك النهر، قُباقب الذي يسري عنيفاً في تلك الناحية، فإذا به لكثرة الخيل التي أُجبرت على الخوض فيه يكاد يتوقّف جريانه، فيبدو كعليل يلفظ أنفاسه.

(٤) وردت الأبيات الثلاثة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٢. راع:

يُـطَـارِدُ فِـيـهِ مَـوْجَـهُ كَـلُّ سَـابِـحٍ
سَـوَاءٌ عَـلَـيْـهِ غَـمْـرَةٌ وَمَـسِـيـلُ[١]
تَـرَاهُ كَـأَنَّ الـمَـاءَ مَـرَّ بِـجِـسْـمِـهِ،
وَأَقْـبَـلَ رَأْسٌ وَحْـدَهُ وَتَـلِـيـلُ[٢]
وَفِـي بَـطْـنِ هِـنْـرِيطٍ وَسِـمْـنِـينَ لِـلـظُّـبَـى،
وَصُـمِّ الـقَـنَـا مِـمَّـنْ أَبَـدْنَ بَـدِيـلُ[٣]
طَـلَـعْـنَ عَـلَـيْـهِـمْ طَـلْـعَـةً يَـعْـرِفُـونَـهَـا
لَـهَـا غُـرَرٌ مَـا تَـنْـقَـضِـي وَحُـجُـولُ[٤]

= أفزع، أخاف. تخرّ: تقع. سيول: متدافعة، منهمرة. يذكر الشاعر عودة الجيش إلى موطنه منتصراً، فقد تخطّى الفرسان نهر الفرات، وما عاد قلبه ينبض بالحياة، فإذا بالرعب يستولي عليه لكثرة ما خاض فيه من جند يتدافعون مسرعين، فإذا بقلبه يكاد يتوقّف نبض الحياة فيه.

(١) السابح: الجواد الذي يمدّ يديه في عدوه كأنه يسبح. الغمرة: الماء الطامي. سيل: مجرى الماء. يصف الشاعر عبور تلك الجياد في النهر، فالأمواج تتدافع بعنف والمياه الغامرة تنفجر متسارعة والخيل تُلاحقها سابحة، كأنها في مباراة سباق عبر مجرى النهر، فلا تهتمّ بما يحصل لها لاعتيادها على الخوض في غمار كهذا.

(٢) التليل: العنق. يُتمّ الشاعر رسم صورة الجياد، وهي تخوض غمار الموج، فلا يبدو منها سوى الرقبة والرأس والفرسان الذين يمتطون تلك الخيول، وتيّار النهر يُحاول أن يُحيدها عن مسارها، ولكنه لم يُفلح في ذلك.

(٣) هِنْريط وسمنين: موضعان في بلاد الروم. الظبى، الواحدة ظبة: حدّ السيف. صمّ القنا: الرماح الصلبة. أباد: أفنى. يذكر الشاعر أن جيوش سيف الدولة قد اعتادت على مهاجمة هِنْريط وسمنين باستمرار، ولطالما عاودت الكرّة المرّة تلو المرّة، فأفنت من كان فيهما، وكانوا طعماً لرماح وسيوف جيش الأمير، ومع ذلك فقد كان الروم يسكنونهما، وقد يكونان من تخوم بلاد الروم كخطّ دفاعيّ عن مملكتهم.

(٤) الغرر، الواحدة غُرّة: بياض في وجه الفرس. الحجول: بياض يكون في قوائم الجياد، يصف الشاعر تكرار مهاجمة هذه الأمكنة من قبل جند الأمير، فقد فاجأت القوم بغتة، ورغم ذلك فإن الروم يعرفون تلك الخيول بصفاتها وفرسانها معرفة حقيقية، إنها محجّلة ذات غرر بيضاء تعتزّ بأصالتها العربية.

تَـمَـلُّ الْـحُـصُـونُ الـشُّـمُّ طُـولَ نِـزَالِـنَـا،
فَـتُـلْـقِـي إِلَـيْـنَـا أَهْـلَـهَـا وَتَـزُولُ(١)
وَبِـتْـنَ بِـحِـصْـنِ الـرَّانِ رَزْحَـى مِـنَ الْـوَجَـى
وَكُـلُّ عَـزِيـزٍ لِـلأَمِـيـرِ ذَلِـيـلُ(٢)
وَفِـي كُـلِّ نَـفْـسٍ مَـا خَـلاَهُ مَـلاَلَـةٌ،
وَفِـي كُـلِّ سَـيْـفٍ مَـا خَـلاَهُ فُـلُـولُ(٣)
وَدُونَ سُـمَـيْـسَـاطَ الـمَـطَـامِـيـرُ وَالـمَـلَا،
وَأَوْدِيَـةٌ مَـجْـهُـولَـةٌ وَهُـجُـولُ(٤)

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٢. الشمّ: المرتفعة. ولكثرة ما قاست حصون الروم المزروعة في تلك الجبال كأنها معلّقة بين السماء والأرض فلم تستعص على جند الأمير، وهم يتسلّقونها باستمرار حتى ملّت الصمود في مجابهة فرسان يمتازون بممارسة المشاق وفنون القتال، فإذا بها ترمي بأفلاذها طعماً للمغيرين وتلفظ أنفاسها على أيديهم.

(٢) حصن الران: أحد حصون الروم. رزحى: منهارة لشدّة تعبها. الوجى: الحفى. يُتابع الشاعر رحلته مع تلك الخيول وهي تتسلّق تلك الجبال الشاهقة، لقد دخلت حصن الران، وقد أنهكها التعب بإلحاح الأمير على متابعة الغزو وذلّلها لطاعته رغم عزّتها وقوّتها، وقد حفيت حوافرها لصلابة صخور تلك الجبال.

(٣) الفلول: الثلوم. يمدح الشاعر سيف الدولة؛ إنه من طينة مميّزة نادرة الوجود، فقد ملّ الجند متابعة الغزو والقتال، وهم يرغبون بأخذ قسط من الراحة ليستردّوا أنفاسهم ويتابعوا القتال في ما بعد، بينما كان الأمير يستنهضهم لمتابعة المهام الصعبة، إنه لا يزال يتمتّع بنشاطه وقدرته على متابعة القتال، فهو سيف قاطع لم يُفلَّ خلاف غيره من جنده.

(٤) سميساط: من بلاد الروم على شاطئ الفرات. المطامير، الواحدة مطمورة: حفائر غائرة في الأرض تستعمل مخبأ للطعام والشارب. الملا، الواحدة ملاة: المفازة ذات حرّ وسراب. الهجول، الواحد هجل: الأرض المطمئنة. يتّخذ الروم الاحتياطات اللازمة في حال مهاجمة أعدائهم لهم، فقد اتّخذوا مطامير حفروها في الأرض يختزنون فيها الطعام والشراب وفي بعض الأحيان السلاح، دون سميساط ذات الموقع الاستراتيجيّ على نهر الفرات، تحيطها أودية ومجاهل وأدغال، ممّا يزيدها مناعة وقوّة.

لَبِسْنَ الدُّجَى فِيهَا إِلَى أَرْضِ مَرْعَشٍ
وَلِلرُّومِ خَطْبٌ فِي الْبِلَادِ جَلِيلُ(١)

فَلَمَّا رَأَوْهُ وَحْدَهُ قَبْلَ جَيْشِهِ
دَرَوْا أَنَّ كُلَّ الْعَالَمِينَ فُضُولُ(٢)

وَأَنَّ رِمَاحَ الْخَطِّ عَنْهُ قَصِيرَةٌ،
وَأَنَّ حَدِيدَ الْهِنْدِ عَنْهُ كَلِيلُ(٣)

فَأَوْرَدَهُمْ صَدْرَ الْحِصَانِ وَسَيْفَهُ
فَتًى بَأْسُهُ مِثْلُ الْعَطَاءِ جَزِيلُ(٤)

---

(١) الدجى: العتمة. مرعش: بلد من بلاد المسلمين قرب أنطاكية. الخطب: الأمر الجلل. لا فرق بين ليل أو نهار، فالجيش دائم الاستعداد لما يطرأ من الخطوب. انحدر الجيش في الأودية يقصد أرض مرعش ليلاً، فإذا به فيها والليل لا يزال يلبس رداءه الأسود، ولقد علم سيف بما كان الروم يفعلون بالمسلمين في مرعش من اعتداءات ويعيثون فساداً. لذا تبادر المسلمون للدفاع عن المدينة وساكنيها فكان النصيب الأكبر لسيف الدولة، فراح يفتك بالروم قتلاً وتنكيلاً، فعادوا يجرّون خلفهم هزيمة منكرة.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٢. يروى «ولما» بدلاً من «فلما». دروا: علموا. فضول: زوائد. الروم يعملون فساداً في الأرض، وفجأة غبار يتصاعد من بعيد، يتبيّن القوم فارساً مسربلاً بالحديد، تقع العيون على العيون، إنه سيف الدولة بمفرده، طليعة جيش آتٍ لا محالة، فأدرك القوم أنه بمثابة جيش بما تحمل الكلمة من معنًى ودلالة، لقد جعل الأمير إلى المسارعة والمخاطرة بنفسه شعوره بمعنى المسؤولية فضلاً عن شعوره الديني، فحماية المسلمين واجب على كلّ فرد، وبخاصة على ذوي الأمر في الأمة.

(٣) الخطّ: الرمح المنسوب إلى الخط موضع في اليمامة يصنع هذا النوع من الرماح. حديد الهند: السيف الهندي. عليل: الذي يعجز عن القطع، يُتابع الشاعر حديثه عن سيف الدولة وشجاعته، فالرماح الخطيّة، رغم طولها تبقى عاجزة وقاصرة عن أن تصل إليه، وكذلك فالسيوف الهندية عاجزة عن مجالدته لأنها كليلة.

(٤) أوردهم: استقبلهم وجعلهم مورداً يشرب من دمائهم. البأس: القوّة والشجاعة. جزيل: كثير، يمدح الشاعر سيف الدولة، إنه فتًى كامل الفتوة، شجاعة، كرماً، =

جَـوَادٌ عَـلَـى الْـعِـلَّاتِ بِـالْـمَـالِ كُـلِّـهِ
وَلَـكِـنَّـهُ بِـالـدَّارِعِـيـنَ بَـخِـيـلُ[(١)]

فَـوَدَّعَ قَـتْـلَاهُـمْ وَشَـيَّـعَ فَـلَّـهُـمْ
بِـضَـرْبٍ حُـزُونُ الْـبَـيْـضِ فِـيـهِ سُـهُـولُ[(٢)]

عَـلَـى قَـلْـبِ قُـسْـطَـنْـطِـيـنَ مِـنْـهُ تَـعَـجُّـبٌ،
وَإِنْ كَـانَ فِـي سَـاقَـيْـهِ مِـنْـهُ كُـبُـولُ[(٣)]

لَـعَـلَّـكَ يَـوْمـاً يَـا دُمُـسْـتُـقُ عَـائِـدٌ
فَـكَـمْ هَـارِبٍ مِـمَّـا إِلَـيْـهِ يَـؤُولُ[(٤)]

نَـجَـوْتَ بِـإِحْـدَى مُـهْـجَـتَـيْـكَ جَـرِيـحَـةً
وَخَـلَّـفْـتَ إِحْـدَى مُـهْـجَـتَـيْـكَ تَـسِـيـلُ[(٥)]

= أصالة نسب، كرم أخلاق، حالما وصل إلى الميدان لم يسترح، بل إنه انحدر إلى المعركة مستقبلاً الأعداء بفرسه وسيفه يعمل فيهم قتلاً، فأوردهم مهلكة، فضلاً عن أنه كريم جزيل العطاء لرعيته وصحبه.

(١) على العلات: على كلّ حال. الدارع: الذي يرتدي درعه. يمدح الشاعر سيف الدولة بالجود، فلا يبخل مهما كان الأمر فينفق ماله كلّه في وجوه الخير، وهو في نفس الوقت بخيل على أعدائه فلا يهبهم حياتهم، بل إنه يسلبهم حياتهم.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٢. شيّع: رافق. الفلّ: الهاربين. الحزون: ما غلظ من الأرض. البيض، الواحدة بيضة: الخوذ لباس الرأس. يصف الشاعر سلوك ممدوحه وطريقة قتاله أعداءه، إنه يترك قتلاه مضرّجين بدمائهم، وقد عانقوا الأرض ويتبع الفارّين فيُلحقهم بإخوانهم بضرب يقطع هاماتهم فيخرط سيفه خوذهم حتى يصل إلى أجسادهم، فتتساوى رؤوسهم بأجسادهم.

(٣) قسطنطين: ابن الدمستق. الكبول، الواحد كبل: القيد الضخم. يصف الشاعر ما كان عليه قسطنطين بن الدمستق، فرغم قيده أدهشه إكرام سيف الدولة له، رغم أنه عدوّ لدود جاء محارباً ووجب قتله؛ إنه الخلق الإسلامي؛ فالرحمة واجبة والحلم من طبع النفوس الكبيرة.

(٤) و (٥) يُخاطب الشاعر الدمستق آملاً أن يرجع إلى بلاد المسلمين ويقع أسيراً أو قتيلاً، وهو يُندّد بجبنه، وقد ترك ابنه يقع أسيراً بين أيدي المسلمين، وكثير من الجبناء الفارّين من قضائهم، ولكنّ قضاءهم أوقعهم في شرّ أعمالهم، فقد فرّ يحمل عاره في =

أَتُسْلِمُ لِلْخَطِّيَّةِ ٱبْنَكَ هَارِباً،
وَيَسْكُنَ فِي الدُّنْيَا إِلَيْكَ خَلِيلُ[(١)]

بِوَجْهِكَ مَا أَنْسَاكَهُ مِنْ مُرِشَّةٍ
نَصِيرُكَ مِنْهَا رَنَّةٌ وَعَوِيلُ[(٢)]

أَغَرَّكُمُ طُولُ الْجُيُوشِ وَعَرْضُهَا
عَلِيٌّ شَرُوبٌ لِلْجُيُوشِ أَكُولُ[(٣)]

إِذَا لَمْ تَكُنْ لِلَّيْثِ إِلَّا فَرِيسَةً
غَذَاهُ وَلَمْ يَنْفَعْكَ أَنَّكَ فِيلُ[(٤)]

= وجهه جرح بسيف الأمير، وترك مهجته، ابنه متخلّياً عن واجب الأبوّة نحو من يجب عليه حمايته والدفاع، وذلك أسوأ ما يفعله أب تجاه ولده. وكلما نظر في المرآة رأى أثراً لن يُمحى ممّا يزيده حسرة وكرهاً لمسببي ذلك الجرح.

(١) أسلمه: أودى به إلى الهلكة. الخطيّة: الرماح. يُنكر الشاعر على الدمستق موقفه الجبان من ابنه، فقد خذله وتخلّى عنه فأسلمه إلى عدوّه مؤثراً نفسه عليه، ويُندد به بأنه لا يُعتبر مصدر ثقة واحترام حتى من أقربائه، وبخاصة من زوجته التي تتألم لأسر ابنها، فكيف يُمكن أن تُواجه زوجها وقد تخلّى عن واجبه؟!

(٢) المرشَّة: الطعنة ترشّ دماً. الرنة: الصياح. العويل: البكاء المصحوب بصوت عالٍ. يُتابع الشاعر سخريته من الدمستق أن وجهه رسمت عليه السيوف ما جعله يغفل عن ابنه، إنها طعنة فجّرت دماء وجهه، فجعلته يُعول كطفل وينتحب خوفاً وجُبناً، فلا نصير له سوى ذلك، ومن ضعف عن حماية نفسه فليس بمقدوره أن يحمي غيره، ممّا جعله يتخلّى عن ابنه في حمأة المعركة.

(٣) و (٤) وردت الأبيات الثلاثة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٧. يُخاطب الشاعر الروم ساخراً من كثرة جيوشهم المنتشرة في طول بلادهم وعرضها، فثمّة من يشرب من دمائهم ويأكلهم، إنه سيف الدولة مهلك الأعداء، يُبيدهم ويفنيهم، وهم صيد سهل لأسد ينشب فيهم أظفاره فيمعن فيهم فتكاً، فالفيل إذا تمكّن منه الأسد فلا تنفعه ضخامته، وتكون عبئاً عليه فلا يستطيع حراكاً إذا تمكّن من ظهره فلا منجاة له، ذلك حال سيف الدولة مع كثرتهم التي تزيد من شرهه ونهمه، فبهزائمهم يشتدّ ساعده ويقوى في محاربتهم.

إِذَا الطَّعْنُ لَمْ تُدْخِلْكَ فِيهِ شَجَاعَةٌ
هِيَ الطَّعْنُ لَمْ يُدْخِلْكَ فيهِ عَذُولُ (١)

فَإِنْ تَكُنِ الأَيَّامُ أَبْصَرْنَ صَوْلَهُ
فَقَدْ عَلَّمَ الأَيَّامَ كَيْفَ تَصُولُ (٢)

فَدَتْكَ مُلُوكٌ لَمْ تُسَمَّ مَوَاضِياً،
فَإِنَّكَ مَاضِي الشَّفْرَتَيْنِ صَقِيلُ (٣)

إِذَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ سَيْفاً لِدَوْلَةٍ
فَفِي النَّاسِ بُوقَاتٌ لَهَا وَطُبُولُ (٤)

أَنَا السَّابِقُ الْهَادِي إِلَى مَا أَقُولُهُ
إِذِ الْقَوْلُ قَبْلَ الْقَائِلِينَ مَقُولُ (٥)

---

(١) و (٢) يُخاطب الشاعر الدمستق رابطاً بين الشجاعة والطعن، فلكي يكون الطعن ناجعاً ناجحاً فلا بدّ له من قلب قُدّ من صوان شجاعة وصلابة وتصميماً، فالجبن لا يأتي بنصر والخوف في حامل السلاح وبال عليه، ففيه وبجيوش الروم، يكمن عذابه وهلاكه. وهو يُذكره بما فعله به سيف الدولة، فقد علم الزمان فنون القتال وكيف تكون الصولة والوثبة والغلبة.

(٣) مواضياً: سيوفاً قاطعة. شفرة السيف: حدّه. يُخاطب الشاعر الأمير مشيداً ببطولته، فالملوك أسماء وألقاب فارغة من مضمون معانيها، فهم يحاولون التشبّه به، ولكن هيهات فثمّة بين الواقع والتشبه بون شاسع، فالممدوح سيف ماضٍ في إرادته وبطولته وشجاعته وكرمه، فعلى حديه تسيل المكرمات، بطولة لا تُقهر وكرم لا يُنكر.

(٤) ورد البيت في: المحتسب، لابن جني ١: ٢٩٥/٢: ١٥٣، المقرّب، لابن عصفور: ١١، همع الهوامع، جمع الجوامع، للسيوطي ١: ٢٣، الدرر اللوامع ١: ٦، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٧. البوقات، الواحد بوق: المزمار. يُندّد الشاعر بالملوك، إنهم أبواق فارغة تصوّت وتزمّر وتطبّل ويختبئون وراء خوفهم مستعينين بالجنود تحميهم وينتفخون بذلك نفخة كاذبة، وقد يتسمّون بالسيوف، ولكن التسمية تكون عبئاً ثقيلاً عليهم، فلا ينتفعون بها، بينما الممدوح يلقّب بسيف الدولة وهو جدير بلقبه يتمثّله حقيقة وواقعاً، تتجلّى فيه البطولة بأجلى صورها ومعانيها.

(٥) يفخر الشاعر بأنه سبّاق في التغنّي ببطولة سيف الدولة فيأتي بكلّ جديد، فبينما غيره =

وَمَا لِكَلَامِ النَّاسِ فِي مَا يُرِيبُنِي
أُصُولٌ وَلَا لِلْقَائِلِيهِ أُصُولُ[١]

أُعَادَى عَلَى ما يُوجِبُ الْحُبَّ لِلْفَتَى
وأَهْدَأُ وَالأفْكَارُ فِيَّ تَجُولُ[٢]

سِوَى وَجَعِ الْحُسَّادِ دَاوِ فَإِنَّهُ
إِذَا حَلَّ في قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحُولُ[٣]

وَلَا تَطْمَعَنْ مِنْ حَاسِدٍ في مَوَدَّةٍ
وَإِنْ كُنْتَ تُبْدِيهَا لَهُ وَتُنِيلُ[٤]

وَإِنَّا لَنَلْقَى الْحَادِثَاتِ بِأَنْفُسٍ
كَثِيرُ الرَّزَايَا عِنْدَهُنَّ قَلِيلُ[٥]

= من الشعراء يكرّر ما حفظه أو سمعه من شعر تكسّبيّ. والحقّ أن المتنبي لم يخرج عن المألوف في الشعر التكسبيّ.

(١) و (٢) أرابه: حمله على الشكّ والريبة. يُدافع الشاعر عن نفسه مدَّعياً أن سائر الشعراء يتّهمونه بالكذب في أقواله وعواطفه، إنهم حاسدون لمكانته التي احتلها في قلب سيف الدولة، فليس لهم نسب يُفاخرون به وينتسبون إليه، وإنهم يحملون في نفوسهم عداء وكراهية للشاعر لأنه فاقهم في المنزلة وتقدّم عليهم في صناعة الشعر، وكان الأوجب أن يُنادوا به أميراً عليهم لسبقه في هذا المضمار، وسباق الجميع محاولة إرضاء الأمير والتعصب لبعضهم على بعض، ويبدو عدم اهتمامه بأمثال هؤلاء ولكن عقله الباطنيّ دائم الاشتغال بهم، وإن ادّعى المتنبي عدم اهتمامه لكان عليه ألّا يذكرهم أساساً. فغاية الشاعر أن يستثير ممدوحه ويحول بينه وبين غيره ممّن يمدحونه، وسعاياتهم للإيقاع لا تريم. فلا يتوقّفون عن بحث أخطائه والتشهير به.

(٣) يُعطي الشاعر رأيه بالحسد وأصحابه؛ إنه داء عياء قاتل إذا اقتحم قلباً لا يزول منه إلّا بموت صاحبه، وحسد هؤلاء محاولة انتزاع ما يمتاز به المتنبي عن سواه منهم.

(٤) المودة: الصحبة والصداقة. تبديها: تظهرها. تنيل: تعطي. يُخاطب الشاعر من ابتلي بالحسد من قبل الآخرين، فعليه أن يسمح لنفسه بمهادنة أمثال هؤلاء بإظهار المحبّة لهم أو بشرائها منهم، فإنهم لا يرغبون ببديل عن حسدهم مهما يكن الثمن باهظاً.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٢. الحادثات: النوائب =

يَــهُــونُ عَـلَـيْـنَــا أنْ تُـصَــابَ جُـسُــومُـنَــا
وَتَــسْــلَــمَ أعْــرَاضٌ لَــنَــا وَعُــقُــولُ(١)

فَـتِـيـهـاً وَفَـخْـراً تَـغْـلِـبَ ابْـنَـةَ وَائِـلٍ،
فَـأَنْـتِ لِـخَـيْـرِ الْـفَـاخِـرِيـنَ قَـبِـيـلُ(٢)

يَــغُــمُّ عَــلِــيًّــا أنْ يَــمُــوتَ عَــدُوُّهُ
إذَا لَــمْ تَــغُــلْــهُ بِــالأسِــنَّــةِ غُــولُ(٣)

شَـرِيـكُ الـمَـنَـايَـا وَالـنُّـفُـوسُ غَـنِـيـمَـةٌ،
فَـكُـلُّ مَـمَـاتٍ لَـمْ يُـمِـتْـهُ غُـلُـولُ(٤)

فَـإنْ تَـكُـنِ الـدَّوْلَاتُ قِـسْـمـاً فَـإِنَّـهَـا
لِـمَــنْ وَرَدَ الــمَــوْتَ الــزُّؤَامَ تَــدُولُ(٥)

= والمصائب. الرزايا، الواحدة رزيئة: المصائب، الحادثات. يتكلم الشاعر بنا الجماعة، إنه من قوم اعتادوا على تحمّل المشاق والتصدّي للأحداث الجسام والانتصار عليها، فمهما بدت كبيرة فالإرادة والصبر يجعلها تتلاشى وتصغر، وقد تختفي مع الزمن.

(١) يصل الشاعر إلى قناعة مفادها أن أجسام البشر مرمى صالح للمصائب التي تتوالى باستمرار، ولكن لا بدّ من أن تُصان وتُحفظ أعراضهم وعقولهم فلا تدنّسها الصغائر ولا الأحقاد لتبقى سليمة من الأذى.

(٢) يُخاطب الشاعر سيف الدولة منوّهاً بما وصل إليه الأمير إنه مجال فخر تغلب ابنة وائل، وفخرها منه ابتدأ فحقّ لها أن تفخر بخير الناس طرًّا.

(٣) يغمّ: يحزن. تغله: تميته غائلة مفاجئة. الغول: المهلك. إن ما يُحزن علياً سيف الدولة أن يموت عدوّه ميتة طبيعية، لأنه على يقين إذا ما التقيا في ساحة النضال كان مهلك العدوّ على يديه، وبذلك يستحقّ العدوّ الثناء أنه مات ميتة الأبطال لأن قاتله بطل الأبطال ومضنيهم.

(٤) وردت الأبيات الثلاثة الأخيرة في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٢. المنايا، الواحدة منية: الموت. الغلول: السرقة من مغانم الحرب. يصف الشاعر ممدوحه بأنه شريك الموت، والشراكة تقتضي القسمة العادلة في المغنم، لذا فقد يخون الموت الأمير لأنه انتهب حياة لم تهلك على أيدي الأمير، فكانت سرقة خيانة وغلول.

(٥) يروى «باشر» بدلاً من «ورد». الدولات، الواحدة دُولة بضم الدال: التبادل في =

لِـمَـنْ هَـوَّنَ الـدُّنْـيَـا عَـلَـى الـنَّـفْـسِ سَـاعَـةً
وَلِـلْـبِـيـضِ فِـي هَـامِ الْـكُـمَـاةِ صَـلِـيـلُ(١)

دروع لملك الروم

قال يمدحه بعد دخول رسول الروم عليه:

[الطويل]

دُرُوعٌ لِـمَـلْـكِ الـرُّومِ هٰـذِي الـرَّسَـائِـلُ
يَـرُدُّ بِـهَـا عَـنْ نَـفْـسِـهِ وَيُـشَـاغِـلُ(٢)

هِـيَ الـزَّرَدُ الـضَّـافِـي عَـلَـيْـهِ وَلَـفْـظُـهَـا
عَـلَـيْـكَ ثَـنَـاءٌ سَـابِـغٌ وَفَـضَـائِـلُ(٣)

وَأَنَّـى ٱهْـتَـدَى هٰـذَا الـرَّسُـولُ بِـأَرْضِـهِ
وَمَا سَكَنَتْ مُذْ سِرْتَ فِيهَا الْقَسَاطِلُ؟(٤)

= الأموال والحروب والانتصارات. الموت الزؤام: الموت السريع. يذكر الشاعر أن الفائز بالغنائم هو من شارك في الحروب فاستحقّ القسمة، لأنه عرّض نفسه إلى الهلاك فورد الموت الزؤام بقلب قوي صلب بلا خوف ولا وجل.

(١) البيض: السيوف. الهام، الواحدة هامة: الرؤوس. الكماة: الأبطال المدججون بالسلاح. يرى الشاعر أن النصر والعزّة لا يستجيبان لضعاف النفوس الذين يُفضلون الجبن على الشجاعة، فهؤلاء لا يستحقّون شيئاً في الوجود وإنما من يستحقّ ذلك هم الأبطال الحقيقيون الذين يعرّضون أنفسهم للموت ومجالدة الأبطال فيبطشون بهم ويهلكونهم وصليل السلاح يصمّ الآذان.

(٢) و (٣) يُخاطب الشاعر سيف الدولة منبهاً بأن تلك الرسائل التي حبكت بتزلّف ملك الروم ما هي في الحقيقة إلّا دروع خادعة، يحتمي وراء كلمات الودّ والملاطفة من جبروت الأمير، إنها محاولة كسب الوقت ليشغله عن مهاجمة بلاده. إنها درع محكم الزرد حبكت خيوطها بعناية بحيث تخدع الأمير وتحمله على المهادنة وعدم الاعتداء على بلدين صديقين، وقد حشيت بمديح يصدق في وصف الأمير، ويُستشفّ منها خضوع ومسكنة واستسلام لشروط من يسعى إلى سلام مزيّف ينمّ عن خوف كاتبها وميله إلى الموادعة والمسالمة.

(٤) وردت الأبيات الثلاثة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٤. القساطل، الواحد قسطل: الغبار المتصاعد في أرض المعركة. يبدي الشاعر استغرابه كيف =

وَمِـنْ أيِّ مَـاءٍ كَـانَ يَـسْـقِـي جِـيَـادَهُ
وَلَـمْ تَـصْـفُ مِنْ مَزْجِ الـدِّمَاءِ الـمَنَاهِلُ؟[١]
أَتَـاكَ يَـكَـادُ الـرَّأْسُ يَـجْـحَـدُ عُـنْـقَـهُ
وَتَـنْـقَـدُّ تَـحْـتَ الـذِّرْعِ مِـنْـهُ الـمَـفَـاصِـلُ[٢]
يُـقَـوِّمُ تَـقْـوِيـمُ الـسِّـمَـاطَـيْـنِ مَـشْـيَـهُ
إلَـيْـكَ إذَا مَـا عَـوَّجَـتْـهُ ٱلأفَـاكِـلُ[٣]
فَـقَـاسَـمَـكَ الْـعَـيْـنَـيْـنِ مِـنْـهُ وَلَـحْـظَـهُ
سَـمِـيُّـكَ وَٱلْـخِـلُّ الَّـذِي لا يُـزَايِـلُ[٤]
وَأَبْـصَـرَ مِـنْـكَ الـرِّزْقَ وَالـرِّزْقُ مُـطْـمِـعٌ
وَأَبْـصَـرَ مِـنْـهُ الـمَـوْتَ وَالـمَـوْتُ هَـائِـلُ[٥]

= استطاع الرسول المثول بين يدي الأمير، وقد كان مروره في أراضٍ قد تعالى في أرجائها الغبار الذي أثارته جياد الأمير رائحة وغادية تغزوها في كلّ وقت.

(١) الجياد: الخيول. المناهل، الواحد منهل: الموارد. ويسأل الشاعر سيف الدولة مستفسراً عن مصادر المياه التي كان يسقي منها خيوله التي حملته إلى قصر الأمير، فقد تلوّثت الأنهار والينابيع في بلادهم من الدماء التي أهرقها من جنودهم في أراضيهم.

(٢) يروى «الذعر» بدلاً من «الدرع». يجحد: ينكر ويكفر. تنقدّ: تتقطّع. يصف الشاعر حالة الرسول الذي تملّك فيه خوف ورعب، وهو متردّد في مسيره إلى سيف الدولة، فهو يمدّ رجلاً إلى الأمام ثم يعيدها إلى الوراء، وهو يتحسّس رأسه متوهماً أنه وقع من بين كتفيه أو سيقع. أما مفاصله فتقعقع بين أرجله، ولكن ما يجعله يتماسك أنه رسول، وما على الرسول إلّا البلاغ المبين، والرسول عند المسلمين يكرّم ولا يُهان.

(٣) السماطين: الصفين. الأفاكل، الواحد أفكل: الرجفة نتيجة شدّة الفزع. يصف الشاعر مثول الرسول بين يدي الأمير، وقد تملّكه فزع شديد، يتقدّم ببطء بين صفين من حرس الأمير، فلا يجرؤ على النظر إليه، خافض العينين لشدّة الوقع لديه ولهيبة الأمير فإذا ما أحسّ بالاضطراب استعان بالجند يقوّمونه.

(٤) و(٥) يقصد الشاعر بسميك أي سيفك. الخليل: الصاحب المرافق والصديق الدائم. لا يزال الرسول يمشي بطيئاً، فتبدو الطريق طويلة، وعيناه تختلسان النظر إلى سيفين؛ =

وَقَـبَّـلَ كُـمَّـا قَـبَّـلَ الـتُّـرْبَ قَـبْـلَـهُ
وَكُـلُّ كَـمِـيٍّ وَاقِـفٌ مُـتَـضَـائِـلُ [١]

وَأَسْـعَـدُ مُـشْـتَـاقٍ وَأَظْـفَـرُ طَـالِـبٍ
هُـمَـامٌ إِلَـى تَـقْـبِـيـلِ كُـمِّـكَ وَاصِـلُ [٢]

مَـكَـانٌ تَـمَـنَّـاهُ الـشِّـفَـاهُ وَدُونَـهُ
صُـدُورُ الـمَـذَاكِـي وَالـرِّمَـاحُ الـذَّوَابِـلُ [٣]

فَـمَـا بَـلَّـغَـتْـهُ مَـا أَرَادَ كَـرَامَـةٌ
عَـلَـيْـكَ ولـكِـنْ لَـمْ يَـخِـبْ لَـكَ سَـائِـلُ [٤]

= أحدهما الأمير، والآخر سيفه، صديقه الدائم الذي لا يُفارقه، ونفسه تحدّثه بأن أي خطأ يبدر منه يعني موتاً مؤكّداً، كما أن علمه بجود الأمير يحمله على الطمع بحصوله على جوائزه فيجعله ذلك يأمل خيراً، ثم ينظر إلى سيفه فيعاوده خوفه، فيستولي عليه رعب قاتل يكاد يُودي بتوازنه النفسي.

(١) الكمي: البطل المدجج بالسلاح. متضائل: متصاغر. إنه مشهد انتهى بالرسول إلى تقبيل الأرض خضوعاً لما يُمثله الأمير ثم بادر إلى تقبيل يديه على طريقة ملوك الفرنجة والروم زال خوفه، ونظرة خاطفة على حرس الأمير اكتشف الرسول أي مدًى يهاب الجند أميرهم ويطيعونه.

(٢) الملك الهمام: العظيم القدر. ممّا يدلّ على عظم قدر الأمير أن الكثيرين يتمنّوْن تقبيل كم الأمير، فحتى الملوك العظام يتشوّقون إلى ذلك، ففي ذلك رفعة لهم وشرف عظيم قلّ من نال ذلك.

(٣) الذاكي من الخيول: التي كملت أسنانها. الذوابل من الرماح: الطويلة الليّنة. يُخاطب الشاعر سيف الدولة، مبيّناً ما يرمز إليه كمّه، فكلّ شفة تتمنّى تقبيله لما يُمثل من قيمة عظيمة، ولكثرة المزدحمين لينالوا هذا الشرف، فقلّة منهم تواتيهم الفرصة لازدحام الخيول والرماح التي تعمل على دوام حراسته فتحول دون ذلك.

(٤) وردت الأبيات الثلاثة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٤. يُردف الشاعر حديثه أن تنازل الأمير وقبول الرسول بتقبيل كم سيف الدولة ليس معناه أنه يستحقّ هذا التكريم، ولكن الأمر يتعلّق بالأمير الذي لا يرفض رجاء، فذلك من كرم أخلاقه من يُوافق على طلبه.

وَأَكْبَرَ مِنْهُ هِمَّةً بَعَثَتْ بِهِ
إِلَيْكَ الْعِدَى وَٱسْتَنْظَرَتْهُ الْجَحَافِلُ (١)

فَأَقْبَلَ مِنْ أَصْحَابِهِ وَهْوَ مُرْسَلٌ،
وَعَادَ إِلَى أَصْحَابِهِ وَهْوَ عَاذِلُ (٢)

تَحَيَّرَ فِي سَيْفٍ رَبِيعَةُ أَصْلُهُ
وَطَابِعُهُ الرَّحْمٰنُ وَالمَجْدُ صَاقِلُ (٣)

وَمَا لَوْنُهُ مِمّا تُحَصِّلُ مُقْلَةٌ،
وَلَا حَدُّهُ مِمّا تَجُسُّ الأَنَامِلُ (٤)

إِذَا عَايَنَتْكَ الرُّسْلُ هَانَتْ نُفُوسُهَا
عَلَيْهَا وَمَا جَاءَتْ بِهِ وَالْمُرَاسِلُ (٥)

---

(١) و (٢) الجحافل، الواحد جحفل: الجيش العظيم. يُخبر الشاعر أن الأعداء قد تدارسوا أمر الرسول حتى وقع عليه الاختيار، فأرسلوه عيناً ورسولاً، فشاهد وعاين وفكّر، فقرّ رأيه على أن الأمير عظيم، فتحت يديه جند يأتمرون بأمره ويُحبّونه ويبذلون معه كلّ غالٍ ورخيص، واستصغر شأن قومه وجيوشهم فلامهم على ما هم عليه من تناحر وتنابذ وعدم تنظيم في صفوفهم.

(٣) و (٤) يصف الشاعر ردّة الفعل لدى السفير، فقد اندهش إذ رأى سيفاً أصيلاً ينتسب إلى قبيلة ربيعة، وأن الرحمن طبعه رحيماً من رحمته بالمسلمين وجبروته وقوته على من عاداهم، فكان صقله حادًّا مستقيماً لا اعوجاج فيه، ولا لون تستطيع العين أن تميّزه به لمهابته، فلا يستطيع المرء إدامة النظر إليه لما يُثيره في نفس عدوه من رعب وإعجاب في آنٍ معاً، ولقد خرج عن مألوف المادة التي تميّز السيوف الحديدية؛ إنه روح وعزيمة وقوّة إرادة بحيث لا يقع تحت مفهوم المحسوسات التي تتعامل معه الأنامل.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٤. شهادة الأعداء تُؤخذ بعين الاعتبار، فقد رأى الرسل ما أدهشهم، فكان الأمير مثار دهشتهم مهابة وخلالاً وعظمة ممّا حملهم على إقامة مقارنة بين ملوكهم وكبرائهم، فاستصغروا شأنهم وما هم عليه من سوء الأحوال، حتى الهدايا التي كانوا يحملونها بدت في نظرهم لا قيمة لها لما يتميّز به الأمير من غنى.

رَجَا الرُّومُ مَنْ تُرْجَى النَّوَافِلُ كُلُّهَا
لَدَيْهِ وَلَا تُرْجَى لَدَيْهِ الطَّوَائِلُ(١)
فَإِنْ كَانَ خَوْفُ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ سَاقَهُمْ
فَقَدْ فَعَلُوا مَا الْقَتْلُ وَالْأَسْرُ فَاعِلُ(٢)
فَخَافُوكَ حَتَّى مَا لِقَتْلٍ زِيَادَةٌ
وَجَاؤُوكَ حَتَّى مَا تُرَادُ السَّلَاسِلُ(٣)
أَرَى كُلَّ ذِي مُلْكٍ إِلَيْكَ مَصِيرُهُ
كَأَنَّكَ بَحْرٌ وَالْمُلُوكُ جَدَاوِلُ(٤)
إِذَا مَطَرَتْ مِنْهُمْ وَمِنْكَ سَحَائِبٌ
فَوَابِلُهُمْ طَلٌّ وَطَلُّكَ وَابِلُ(٥)

---

(١) و (٢) النوافل، الواحدة نافلة: العطايا. الطوائل، الواحدة طائلة: الأحقاد. لقد وجد الروم أميراً كريماً يبذل المال لمن تمنّى عطاءه فلا يتردّد مهما كان المطلوب، وفي المقابل أنه فوق رجاء أن يجد أعداؤه غرّة ينفذون منها ليأخذوا ثأرهم، إنه شديد الحذر، فضلاً عن قوّته العظيمة في القتال، وهذا ما يدفعهم إلى القنوط من ذلك فيعملون على مهادنته ومسالمته لعجزهم من أن يكيدوا له، فضلاً عن خوفهم على أرواحهم التي بين أكتافهم من أن يغتالها بسيوفه أو أن يكونوا من أسراه، ولقد استجابوا لإرادة الأمير الذي يعمل على إذلالهم بقتلهم جسدياً في التخلّص منهم أو معنوياً بإذلالهم واستسلامهم لإرادته.

(٣) لقد تملّك الخوف قلوب الأعداء وعيونهم وأفكارهم، لذا فلن يزيد الموت من إحساسهم به شيئاً يُذكر، لو أعمل الأمير القتل فيهم، فكان أن جاء القوم طائعين أذلّاء، ومن المحتمل أن يحمل الواحد منهم سلاسلَ ليقيّد بها، لأنهم آثروا الحياة في الذلّ عن الكرامة، لو كانت تعني موتهم؛ فمن طبيعة هؤلاء حبّ الدنيا مهما تكن.

(٤) الجداول، الواحد جدول: النهير. يبدو للشاعر أن سائر الملوك سوف يُوادعون ويسلمون إلى الأمير قيادهم، فمصير الجداول أن تلتقي في نهر عظيم هدّار يبتلع كلّ الجداول فتغيب في طيّاته وتختفي معالمها؛ وبذلك يقوى أكثر فيدين له العدوّ قبل الصديق.

(٥) الطلّ: المطر الضعيف. الوابل: المطر الكثير، يُخاطب الشاعر ممدوحه منوّهاً بكرمه، مقارنة بين كرم سائر الملوك وبين كرمه، فكثيرهم قليل ونزر إذا ما قُورن بقليله، فكثيرهم عبارة عن طلّ يكاد يُبين، وسحابه يحمل في أنحائه مطراً مدراراً لا يُجاريه طلّهم.

كَـرِيـمٌ مَـتَـى ٱسْتُـوهِبْتَ مَـا أَنْـتَ رَاكِـبٌ
وَقَـدْ لَـقِـحَـتْ حَـرْبٌ فَـإِنَّـكَ نَـازِلُ[١]

أَذَا ٱلْـجُـودِ أَعْـطِ الـنَّـاسَ مَـا أَنْـتَ مَـالِـكٌ
وَلَا تُـعْـطِـيَـنَّ الـنَّـاسَ مَـا أَنَـا قَـائِـلُ[٢]

أَفِـي كُـلِّ يَـوْمٍ تَـحْـتَ ضِـبْـنِـي شُـوَيْـعِـرٌ
ضَـعِـيـفٌ يُـقَـاوِيـنـي قَـصِـيـرٌ يُـطَـاوِلُ[٣]

لِـسَـانِـي بِـنُـطْـقِـي صَـامِـتٌ عَـنْـهُ عَـادِلٌ
وَقَـلْـبِـي بِـصَـمْـتِـي ضَـاحِـكٌ مِـنْـهُ هَـازِلُ[٤]

وَأَتْـعَـبُ مَـنْ نَـادَاكَ مَـنْ لَا تُـجِـيـبُـهُ
وَأَغْـيَـظُ مَـنْ عَـادَاكَ مَـنْ لَا تُـشَـاكِـلُ[٥]

---

(١) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٧٥. لقحت حرب: اشتدّ أوارها. يُنوّه الشاعر بألمعيّة الأمير؛ إنه كريم بالفطرة، فما من مخلوق يطلب منه إلا وسارع إلى إجابته، حتى لو أن أحدهم استوهب منه فرسه، والحرب قد اشتدّ أوارها لترجّل عنه وأعطاه لمن طلب رغم شدّة حاجته إلى جواده.

(٢) يُخاطب الشاعر ممدوحه حاضاً إياه على البذل والعطاء ممّا يتناغم مع طبيعته، وألّا يتنازل عن شعره، فليستأثر الشاعر وشعره لنفسه وألّا يتركه يرحل عنه إلى سواه، وبذلك يكون ضيّع ذكره والإشادة بمكارمه، وحال دون انتشار مدحه فيه بين البشر.

(٣) و (٤) الضبن: ما بين الإبط والكشح. شويعر: تصغير شاعر للتحقير. لطالما تبرّم المتنبي من سواه من الشعراء، ونظر إليهم باحتقار. إنه بلا شكّ شاعر عظيم في عصره. يستغرب أن يتجرّأ أحد الشعراء الذي يعتبره المتنبي شويعراً ولا يزيده على ذلك شيئاً، ولصغر حجمه، فبإمكان المتنبي أن يجعله تحت إبطه، إنه قرم يُطاول عملاقاً يناطح رأسه السماء، فإذا ما نظر إليه وهو على هذه الحالة وجد الشاعر أنه لا يستحقّ التفاتة منه حتى ولا كلمة هجاء، فصمته وسكوته عنه وعن أمثاله أقسى حدود السخرية من قبل الشاعر استصغاراً لشأنهم واحتقاراً لهم.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٢. يأتي الشاعر بحكمة مفادها أن المنادي يُتعب نفسه ويزداد تعباً باستمرار مناداة امرئ لا يجيب على النداء، ولكن في حال الردّ عليه، فقد أراحه وشفاه من متابعة ندائه، وكذلك فالعدوّ يزيده ألماً إذا ترفّع عن المرء شعوره بأنه أفضل منه، فيُميته ذلك كيداً فيُشعره بالذلّ أكثر.

وَمَا التِّيهُ طَبِّي فِيهِم غَيْرَ أَنَّنِي
بَغِيضٌ إِلَيَّ ٱلْجَاهِلُ الْمُتَعَاقِلُ[(١)]

وَأَكْبَرُ تِيهِي أَنَّنِي بِكَ وَاثِقٌ
وَأَكْثَرُ مَالِي أَنَّنِي لَكَ آمِلُ[(٢)]

لَعَلَّ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ الْقَرْمِ هَبَّةً
يَعِيشُ بِهَا حَقٌّ وَيَهْلِكُ بَاطِلُ[(٣)]

رَمَيْتُ عِدَاهُ بِالْقَوَافِي وَفَضْلِهِ
وَهُنَّ الْغَوَازِي السَّالِبَاتُ الْقَوَاتِلُ[(٤)]

وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ النُّجُومَ خَوَالِدٌ
وَلَوْ حَارَبَتْهُ نَاحَ فِيهَا الثَّوَاكِلُ[(٥)]

وَمَا كَانَ أَدْنَاهَا لَهُ لَوْ أَرَادَهَا
وَأَلْطَفَهَا لَوْ أَنَّهُ الْمُتَنَاوِلُ[(٦)]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٧. التيه: التكبّر. طبّي: شأني وعادتي. ينفي الشاعر عن نفسه شعوره بالاستعلاء والتكبّر على الآخرين ولكن الأمر أنه يكره الجاهل الأحمق من يعتقد في نفسه الحصافة والرصانة والتعقّل، والأمر فيه نظر، فهل يُعقل أن يجتمع في بلاط سيف الدولة أمثال الأغبياء، إنها المنافسة على الاستئثار بقلب الأمير وماله وإعجابه.

(٢) يُخاطب الشاعر سيف الدولة أن فخره نابع من حسن نظره بالشاعر، وأن رأس ماله هو أمله بأن يكون إلى جانبه في مناضلته من يعتبرهم حاسديه.

(٣) القرم: السيد. الهبّة: الصحوة. يأمل الشاعر من سيف الدولة أن يصحو وينتبه إلى سائر أقوال الشعراء فيه، وهو شاعر عربي مثقّف يستطيع أن يميّز بين ما هو ركيك من الشعر وما هو أصيل عالي الرتبة، فيحكم للمتنبي، وهذا يكفيه شرفاً ورفعة.

(٤) القوافي: القصائد. الغوازي: التي تغزو وتنتصر. يُحارب الشاعر أعداء الأمير بقصائده كأنها سهام قاتلة تصيب منهم مقاتلهم، فقد أشاد به وبفضله، فأثار قلق وحسد أعدائه، فإذا بسهامه تقتلهم وتبقى سالمة شائعة تنشر ذكره في العالمين.

(٥) و (٦) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٤. الثواكل، الواحدة ثاكل: من فقدت أقرباءها من النسوة. ومن مغالاة المتنبي أن من البشر من =

قَـرِيـبٌ عَـلَـيْـهِ كُـلُّ نَـاءٍ عَـلَـى الْـوَرَى
إذَا لَـثَّـمَـتْـهُ بِـالْـغُـبَـارِ الْـقَـنَـابِـلُ[١]
تُـدَبِّـرُ شَـرْقَ الْأَرْضِ وَالْـغَـرْبَ كَـفُّـهُ
وَلَـيْـسَ لَـهَـا وَقْـتاً عَـنِ الْـجُـودِ شَـاغِـلُ[٢]
يُـتَـبِّـعُ هُـرَّابَ الـرِّجَـالِ مُـرَادَهُ
فَـمَـنْ فَـرَّ حَـرْبـاً عَـارَضَـتْـهُ الْـغَـوَائِـلُ[٣]
وَمَـنْ فَـرَّ مِـنْ إحْـسَـانِـهِ حَـسَـداً لَـهُ
تَـلَـقَّـاهُ مِـنْـهُ حَـيْـثُـمَـا سَـارَ نَـائِـلُ[٤]

= زعم أن النجوم خالدة قابعة في السماء، فلو أنها كانت حرباً عليه لأفناها وجعل الثاكلات يبكينها حزناً وأسفاً، ولو أنه عمل على استمالتها والتقرّب منها بلطف لهان عليه ذلك الأمر، لأنه محظوظ في دنياه، يستطيع بدماثته ولين حديثه وحسن تصرّفه معها عليه بلوغ ما يريد.

(١) النائي: البعيد. الورى: الناس، البشر. لثام جزء من العمامة يغطي به الفارس العربي وجهه. القنابل، الواحدة قنبلة: جماعة الخيل، أو الجماعة من الناس. يصف الشاعر بأن ممدوحه ذو إرادة وعزم، فإذا أراد شيئاً يستحيل تحقيقه على أيدي البشر حقّقه بفضل جيشه الذي ينتشر في أرض المعركة وقد أثارت خيوله زوبعة من الغبار فكأنها لثام في وجوه أعدائه.

(٢) يقول الشاعر عن مشاغل ممدوحه أن من بينها، أنه يعمل على إخضاع ممالك الشرق والغرب وتدبير شؤونها كما يرغب ويشتهي بسيفه وحسن سياسته، فذلك شغله الأكبر والأهمّ، وهو في نفس الوقت يهتمّ بالجود فلا ينقطع عنه أبداً مهما كانت الظروف المحيطة به، فلا يشغله شاغل عن ذلك.

(٣) الهُرّاب، الواحد هارب. الغوائل، الواحدة غائلة: المهالك. من حسن حظّ الأمير أن تُواتيه أمانيه ورغباته من حيث لا يدري، فلو فرّ من المعركة من كان في نيّته أن يقتله لصادفته المنية من حيث لا يدري واغتالته.

(٤) النائل: العطاء. يمدح الشاعر الأمير بالجود الذي يعمّ جميع الخلق، الولي الصديق والعدوّ سواء بسواء. فمن فرّ منه رافضاً صداقته أو حاسداً له، فحيثما حلّ سيجد عطايا الأمير قد سبقته مخصّصة له دون سواه.

فَـتًـى لَا يَـرَى إِحْـسَـانَـهُ وَهْـوَ كَـامِـلٌ
لَـهُ كَـامِـلاً حَـتَّـى يُـرَى وَهْـوَ شَـامِـلُ (١)
إِذَا الْـعَـرَبُ الْـعَـرْبَـاءُ رَازَتْ نُـفُـوسَـهَـا
فَـأَنْـتَ فَـتَـاهَـا وَالْـمَـلِـيكُ ٱلْـحُـلَاحِـلُ (٢)
أَطَـاعَـتْـكَ فِـي أَرْوَاحِـهَـا وَتَـصَـرَّفَـتْ
بِـأَمْـرِكَ وَالْـتَـفَّـتْ عَـلَـيْـكَ الْـقَـبَـائِـلُ (٣)
وَكُـلُّ أَنَـابِـيـبِ الْـقَـنَـا مَـدَدٌ لَـهُ
وَمَـا يَـنْـكُـتُ الْـفُـرْسَـانَ إِلَّا الْـعَـوَامِـلُ (٤)
رَأَيْـتُـكَ لَـوْ لَـمْ يَـقْـتَـضِ الطَّـعْـنُ فِي الْـوَغَـى
إِلَـيْـكَ ٱنْـقِـيَـاداً لَاقْـتَـضَـتْـهُ الـشَّـمَـائِـلُ (٥)

---

(١) يمدح الشاعر الأمير بالفتوّة الحقّة في موضوع الإحسان والجود، فكمال الإحسان لديه أن يشمل الناس جميعاً بعطائه ورفده، والكمال من طبيعة كلّ كامل، فلا يصدر عن الكامل إلّا الكامل في شتّى مناحي الحياة.

(٢) و (٣) العرب العرباء: العرب الخلّص الذين لم تشبهم شائبة غير العربيات من جهة أمهاتهم. رازت: جرّبت واختبرت، الحلاحل: السيد. إنها مباراة الأفضل، ذلك الميزان الذي يُنبئ عن حقيقة وجود المثل العليا في المجتمعات التي لم تشوّهها المفاسد، والفتى هو نتاج تلك المجتمعات، فالعرب العاربة قد وقع اختيارها على فتاها، إنه الأمير، فالإجماع على سيادته لكرمه وشجاعته حمله إلى سُدّة الإمارة. فكان أن أذعنت له طائعة، تأتمر بأمره وتلتفّ حوله، وكان قائدها بلا منازع، حتى لو طلب منهم التخلّي عن أرواحهم لاستجابوا بحبّ وامتنان.

(٤) الأنابيب، الواحدة أنبوب: العقد ما بين الكعاب من الرماح. القنا: عيدان الرماح. المدد: العون والمساعدة. يُمثّل الشاعر علاقة العرب بالأمير، فلا يُمكن أن يستغني منهم الواحد عن الآخر، فالأعراب بمثابة عقد الأنابيب من الرمح، والرمح بلا سنان لا وجود له أصلاً، فالسنان عامل الرمح وبه يتمّ الطعن وهو الأهم في الرمح، فالسنان هو الأمير، تكون الحروب به وبتوجيهه.

(٥) يقتضي: يتطلّب. الوغى الحرب. الشمائل: الصفات والأخلاق. ثمة طريقان يستوجبان انقياد الناس طاعتهم لأولي الأمر، السيف، فيكون الأمر بالإكراه، والحبّ فيكون الانقياد والتسليم ناتجين عن رغبة صادقة لا تنطوي على كره يُشعر بالذلّ، وفي أولى الحالات يعمل الناس على الخلاص ممن أذعنوا له =

وَمَنْ لَمْ تُعَلِّمْهُ لَكَ الذُّلَّ نَفْسُهُ
مِنَ النَّاسِ طُرًّا عَلَّمَتْهُ المَنَاصِلُ (١)

أنت صحيح لا عليل

لما وافى رسول ملك الروم رأى سيف الدولة يتشكى فقال: أتراه يفرح بعلتنا؟ فقال أبو الطيب:

[المتقارب]

فُدِيتَ بِمَاذا يُسَرُّ الرَّسُولُ؟
وَأَنْتَ الصَّحِيحُ بِذَا لَا العَلِيلُ (٢)

عَوَاقِبُ هَذَا تَسُوءُ العَدُوَّ
وَتَثْبُتُ فِيهِمْ وَهَذَا يَزُولُ (٣)

آلة العيش صحة وشباب

يرثي أخت سيف الدولة الصغرى ويسليه ببقاء الكبرى أنشده إياها يوم الأربعاء النصف من شهر رمضان سنة أربع وأربعين وثلاث مئة (٩٥٥م):

[الخفيف]

إنْ يَكُنْ صَبْرُ ذِي الرَّزِيَّةِ فَضْلَا
تَكُنِ الْأَفْضَلَ الْأَعَزَّ الْأَجَلَّا (٤)

= غصباً وإكراهاً بالإرهاب والدسائس، وقد يصل الأمر إلى الخيانة.

(١) المناصل، الواحد منصل: السيوف. ينهي الشاعر قصيدته بما ينمّ عن وجهته القرمطيّة أن الطاعة إن لم تكن طواعية، لا بدّ أن تكون بالإكراه، فاستعمال السيف الطريقة المثلى برأي الشاعر، فسيوف سيف الدولة بإخضاع الناس لمشيئته.

(٢) يُخاطب الشاعر سيف الدولة ردًّا على سؤاله داعياً له بالسلامة، ومعلناً أن كلّ الناس يفدونه بأرواحهم إذا ألمّ به مكروه، وممّا يدلّ على سلامته أنه حصل له ما يحصل لسائر البشر في الأحوال العادية، فبذلك سيكون سليماً حتى في نظر الرسول، فلا يستغرب ما حصل للأمير.

(٣) عواقب، الواحدة عاقبة: النتائج السيّئة، فنتائج الدمّل الذي يُعاني منه الأمير ستكون سيّئة على العدوّ، ففي حال عاود الأمير غزوهم، فستكون النتيجة مدمّرة وسيّئة عليهم، وما ألمّ بالأمير فسيزول عندما يقتضي مدته من المرض.

(٤) الرزيئة والرزيّة: المصيبة والفاجعة. يخاطب الشاعر سيف الدولة مادحاً فيه الصبر =

أَنْـــتَ يَـــا فَـــوْقَ أَنْ تُـــعَـــزَّى عَـــنِ الْأَحْـــ
بَـــابِ فَـــوْقَ الَّـــذِي يُـــعَـــزِّيـــكَ عَـــقْـــلَا[١]

وَبِـــأَلْـــفَـــاظِـــكَ ٱهْـــتَـــدَى فَـــإِذَا عَـــزَّ
اكَ قَـــالَ الَّـــذِي لَـــهُ قُـــلْـــتَ قَـــبْـــلَا[٢]

قَـــدْ بَـــلَـــوْتَ ٱلْـــخُـــطُـــوبَ مُـــرًّا وَحُـــلْـــواً
وَسَـــلَـــكْـــتَ الْأَيَّـــامَ حَـــزْنـــاً وَسَـــهْـــلَا[٣]

وَقَـــتَـــلْـــتَ الـــزَّمَـــانَ عِـــلْـــمـــاً فَـــمَـــا يُـــغْـــ
رِبُ قَـــــوْلاً وَلَا يُـــــجَـــــدِّدُ فِـــــعْـــــلَا[٤]

= على بلواه؛ فمن طبيعة أهل الصبر أن يلتزموا به عند المصائب فمن يُمدح بذلك يُعدّ من الأفاضل، وبما أن فقد الأمير أخته، وهي بفضلها وبمكانتها الرفيعة، فصبره على ما ألمّ بها يجعله أفضل الخلق لاحتماله وتقبّله ما كان.

(١) يستثير الشاعر بسيف الدولة التفوّق والشعور بأهميّته بالنسبة لمن يُعزّيه، فالحق أن للأحباب مكانة عظيمة في القلوب، ولعقول المعزّين أهميّة في تفهّم سرّ الحياة، وثَمّة من يُعزّي فيُعمل النصيحة لصاحب العزاء، والأمير أفضل الناس عقلاً، ومن السهل عليه أن يلج أبواب العزاء لمشاهدته لأحوال البشر ومآلهم المحتّم، فتهون عليه مصيبته فيُسرّي عن نفسه.

(٢) لا عجب أن المعزّي قد ردّ للأمير ما قدّمه من جميل العبارة في موقف كهذا إذ استعان بألفاظه الأنيقة المدبّجة بأبدع لفظ وأجمل التعابير التي تُزيل الهموم عن القلوب وتُثير في النفوس أرقّ المشاعر في جوّ الحزن الكئيب وتبعث على القبول بقضاء رب العالمين في البشر.

(٣) بلوت: جرّبت واختبرت. الخطوب، الواحد خطب: المصائب ونوائب الدهر. الحزن: ما غلُظ من الأرض. يتابع الشاعر مخاطباً الأمير، لقد عرك الحياة وعرف طبيعتها، إنها لا تخلو من مكدرات كما لا تخلو من مسرّات؛ تلك هي الحياة فيوم لك ويوم عليك كطبيعة الأرض التي مشى عليها منها ما هو غليظ تعتوره منحدرات خطرة وجبال وعرة، ومنها سهل تسرح فيه العيون والنفوس براحة وجدّ.

(٤) يُغرب: يأتي بما هو غريب. يُردف الشاعر أن الأمير قد خبر الزمان فتعلّم منه الشيء الكثير وأحاط به علماً، لذا فلم يكن الأمر جديداً، بل إنه متوقع لسائر البشر، ولا يُستغرب أن يفتك الموت بأعزّ الناس عليه، فالأمر يتكرّر كلّ يوم، ومن هنا قيمة العزاء والسلوان بالنسبة لسائر الناس.

أجِـدُ الْـحُـزْنَ فِـيـكَ حِـفْـظـاً وَعَـقْـلاً
وَأَرَاهُ فِـي الْـخَـلْـقِ ذُعْـراً وَجَـهْـلاً[١]

لَـكَ إلْـفٌ يَـجُـرُّهُ وَإذَا مَـا
كَـرُمَ ٱلْأَصْـلُ كَـانَ لِـلإلْـفِ أَصْـلَا[٢]

وَوَفَـاءٌ نَـبَـتَّ فِـيـهِ وَلٰـكِـنْ
لَـمْ يَـزَلْ لِـلْـوَفَـاءِ أَهْـلُـكَ أَهْـلَا[٣]

إنَّ خَـيْـرَ الـدُّمُـوعِ عَـوْنـاً لَـدَمْـعٌ
بَـعَـثَـتْـهُ رِعَـايَـةٌ فَـٱسْـتَـهَـلَّا[٤]

---

(١) وردت الأبيات العشرة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٥. الحزن حزن، ولكن الشاعر يجد في سيف الدولة فهم العاقل لناموس الموت، فالموت حقّ ولا مفرّ منه، فكلّ البشر إلى زوال، ولكن من أعمل عقله تأكد أنه على الدرب سائر، وأنه سوف يترك أحباباً تماماً لما تركه غيره حزيناً عرفاناً بجميل وأنساً بودّ وصداقة. أما الجهلة فإنهم يُعولون ويجزعون خوفاً من الموت لجهلهم بحقيقة الوجود وشكّهم بعدالة اللّه سبحانه وتعالى وبقضائه في الناس جميعاً.

(٢) الإلف، المعايشة والصحبة. يُردف الشاعر منوّهاً بمؤالفة الأمير من فقد؛ إنها صحبة عمر طويل، ورباط دم وأرض وآباء، لذا فلا عجب أن يكون كرم الأصل يحكم تلك العلائق بين البشر، فكيف إذا كان الأمر يتعلّق بالأخوة؟ فهنا تتكشف حقائق الوجود الإنساني النبيلة.

(٣) يُتابع الشاعر ذاكراً ظاهرة إنسانية، إذا فقدت من قلوب البشر فلا خير فيهم، إنه الوفاء؛ ذلك الرابط الإنساني العظيم الذي يربط الإنسان بأخيه الإنسان، ويربط الإنسان بالأرض والوطن، فالأمير رضع من خير الأرض وماءها وسلك درب الحياة بين عشيرته التي منها استقى مُثل الحياة الرفيعة، فلا عجب أن تكون ملكة الوفاء زاده، ولهذا بكى وحزن، فهذا من حقّه أملاه عليه الوفاء.

(٤) الرعاية: حفظ العهود والمواثيق. الاستهلال: الشروع بالانسكاب. يروى «عندي» بدلاً من «عوناً». يُبارك الشاعر من الأمير أن يشرع بالبكاء، ففي البكاء غسل للأحزان فضلاً عن شفافية ورقّة النفوس التي تعرّي القلوب التي تبدو للوهلة الأولى قاسية شأن سيف الدولة المقاتل الشرس الذي لا يعرف قلبه للرحمة مكاناً في مقاتلة أعدائه.

أيْـنَ ذِي الـرِّقَّـةُ الـتَّـي لَـكَ فِـي ٱلْـحَـرْ
بِ إذَا ٱسْـتُـكْـرِهَ ٱلْـحَـدِيـدُ وَصَـلَّا[١]
أَيْـنَ خَـلَّـفْـتَـهَـا غَـدَاةَ لَـقِـيـتَ الـ
رُّومَ وَالْـهَـامُ بِـالـصَّـوَارِمِ تُـفْـلَـى[٢]
قَـاسَـمَـتْـكَ الـمَـنُـونُ شَـخْـصَـيْـنِ جَـوْراً
جَـعَـلَ الْـقِـسْـمُ نَـفْـسَـهُ فِـيـكَ عَـدْلا[٣]
فَـإِذَا قِـسْـتَ مَـا أَخَـذْنَ بِـمَـا أَغْـ
دَرْنَ سَـرَّى عَـنِ الْـفُـؤَادِ وَسَـلَّـى[٤]
وَتَـيَـقَّـنْـتَ أَنَّ حَـظَّـكَ أَوْفَـى
وَتَـبَـيَّـنْـتَ أنَّ جَـدَّكَ أَعْـلَـى[٥]

---

(١) يسأل الشاعر سيف الدولة عن تلك الرقّة التي أظهرها بلا وعي منه كاشفاً عن صدق عنصره وأصالة طبعة. إنها تختفي إذا كانت الحرب التي يُجبر عليها والتقت السيوف بالسيوف والرماح بالرماح وغنّت أغنية الموت هناك في الميدان تنعدم الرقّة، فالموت يختطف القلوب الرقيقة، فلا بدّ من أن تكون قاسية كقساوة السلاح المستعمل فيها.

(٢) يروى «غادرتها» بدلاً من «خلّفتها» وهما بمعنًى واحد. الهام، الواحد هامة: الرؤوس. الصوارم، الواحد صارم: السيوف البتَّارة. تفلى: تفصل. يُحاول الشاعر أن يخرج سيف الدولة من الجوّ الحزين بتذكيره بما كان يفعله بأعدائه الروم، سائلاً عمَّا يبدو ازدواجيَّة في حياة الأمير؛ عن الرقّة التي ضاعت معالمها غداة لقي الأمير الروم فأنزل بهم الخسف والهوان، فإذا بسيوف جنده تعمل فيهم ذبحاً وتقتيلاً، وهو يصول ويجول بسيفه فيُفرّق صفوفهم ويطير جماجمهم عن أجسادهم.

(٣) و (٤) المنون: الموت. جوراً: ظلماً. يرى الشاعر أن الموت عندما يسلب النفوس أرواحها يُقاسم البشر، فيكون ذلك ظلماً لا ظلم بعده، وهو في تلك القسمة كان عادلاً إذ ترك الأمير وأبقى على أخته الكبرى مستأثراً لنفسه بالصغرى، وفي ذلك خير عوض إذ أبقاه سالماً معافًى، فقدره لا بدّ أن يُتمّه بأمر اللّه سبحانه وتعالى، وهنا لا بدّ للأمير من إجراء عملية حسابية حتى يتبيّن له وجه الخسارة والربح إذا كان هناك من ربح، وباب التعزّي أن الموت ترك للأمير أحبّ أختيه إليه، ممّا يحمله على التأسي والقبول بقضاء اللّه عزّ وجلّ.

(٥) تيقّنت: تأكّدت. أوفى: أكمل. جَدّك، بفتح الجيم: حظّك. يُردف الشاعر أن الأمير =

وَلَعَمْرِي لَقَدْ شَغَلْتَ الْمَنَايَا
بِالْأَعَادِي فَكَيْفَ يَطْلُبْنَ شُغْلَا[(١)]

وَكَمِ انْتَشْتَ بِالسُّيُوفِ مِنَ الدَّهْـ
ـرِ أسِيراً وَبِالنَّوَالِ مُقِلّا[(٢)]

عَدَّهَا نُصْرَةً عَلَيْهِ فَلَمَّا
صَالَ خَتْلاً رَآهُ أَدْرَكَ تَبْلَا[(٣)]

كَذَبَتْهُ ظُنُونُهُ أَنْتَ تُبْلِيـ
ـهِ وَتَبْقَى فِي نِعْمَةٍ لَيْسَ تَبْلَى[(٤)]

وَلَقَدْ رَامَكَ الْعُدَاةُ كَمَا رَا
مَ فَلَمْ يَجْرَحُوا لِشَخْصِكَ ظِلّا[(٥)]

= قد تأكّد له في حال بقيت أخته الكبرى أن حظّه منها أكمل وتبيّن له أن ذلك من حسن التوفيق.

(١) المنايا، الواحدة منيَّة: الموت. يُقسم الشاعر مستغرباً بمسار الأحداث والمقادير مع الأمير، ولطالما شغل عالم الموت بقضائه على أعدائه في ميادين القتال، ومع ذلك فقد كان الموت بالمرصاد لأخته، وقد شغل نفسه بالاستئثار بأخت الأمير.

(٢) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٦. انتشت: انتشلت واستنفذت. النوال: العطاء. مقلاً: معدماً. يُخاطب الشاعر الأمير منوّهاً بأعمال الخير التي يقوم بها لاستنهاض المعذبين في الأرض من كبواتهم، فثمّة من أسره الدهر، فانقطع عنه مدد المساعدة وتخلّى عنه الصديق، فإذا بالأمير يُنقذه من سوء المصير، وكم من فقير معدم فأعانه بماله وأزاح عنه شبح الفقر والعوز.

(٣) صال: جال. الختل: الخداع والغدر. التبل: الثأر. يُردف الشاعر أن ما قام به سيف الدولة من نصرة الضعفاء وإعانتهم جعل الدهر ينقم عليه عمله، فكان عليه أن يردّ الصاع صاعين للأمير فلجأ إلى الغدر والخداع وصال صولة منتصر، فإذا به يخرم أخته من عقد عائلته ويحرمه منها ويثأر لنفسه.

(٤) ومن مغالاة الشاعر أن الدهر أخطأ التقدير وخاب ظنّه بأنه ثأر لنفسه بإماتة أخت الأمير ويخاطب الشاعر ممدوحه بأنه هو من يُبلي الدهر ويُميته بكيده فيطول عمره وإدامة سعده بحيث لا تُؤثر فيه غدرات الزمان ومصائبه.

(٥) رام: قصد. يُخاطب الشاعر ممدوحه أن حربه مع الزمان تاريخ حافل بالمؤامرات =

وَلَــقَــدْ رُمْــتَ بِــالــسَّــعَــادَةِ بَــعْــضــاً
مِــنْ نُــفُــوسِ الْــعِــدَى فَــأَدْرَكْــتَ كُــلّاَ(١)
قَــارَعَــتْ رُمْــحَــكَ الــرِّمَــاحُ وَلٰــكِــنْ
تَــرَكَ الــرامِــحِــيــنَ رُمْــحُــكَ عُــزْلَا(٢)
لَــوْ يَــكُــونُ الــذِي وَرَدْتَ مِــنَ الْــفَــجْــ
عَــةِ طَــعْــنــاً أَوْرَدْتَــهُ الْــخَــيْــلَ قُــبْــلَا(٣)
وَلَــكَــشَــفْــتَ ذَا ٱلْــحَــنِــيــنَ بِــضَــرْبٍ
طَــالَــمــا كَــشَّــفَ الْــكُــرُوبَ وَجَــلَّــى(٤)

= عليه، فالأعداء حاولوا فلّه والقضاء عليه فخابوا وذلّوا فلم ينالوا منه سانحة يُؤذونه بها، والدهر بدوره كان حرباً عواناً عليه فلم يقدر عليه، لأن الأمير يقضي عمره بقضاء اللَّه تعالى وقدره فهو نعم المعين له وحاميه من غدرات الزمان.

(١) رمت: طلبت. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأن سعده يُحالفه التوفيق دائماً، فما من عدوّ دخل معه في معركة العداء إلّا وانتصر عليه بفضل حظّه وحسن التوفيق الإلهيّ له، الذي لم يتخلّ عنه في قضائه على سائر أعدائه.

(٢) قارع: قاتل وغالب. الرامحين: المقاتلين بالرماح. عُزلاً: من لا سلاح معهم. يُخاطب الشاعر ممدوحه منوّهاً بقوّته وشجاعته، فقد صارعه صراع الأبطال لأعدائهم فرمحه كان دائماً النصر حليفه، فإذا بصاحبه يقتل أعداءه، وكأنهم عزّل لا رماح معهم، وكأنهم يستسلمون لرمحه لهزيمتهم النفسية لرعبهم منه ولحسن حظّه.

(٣) وردت: استقبلت. الفَجعة: فقد أحد الأعزّاء من الأقرباء. قبلاً: مواجهة. محال أن يُقاتل الإنسان ما هو مجرّد عن الشكل والصورة، وتلك مشكلة الأمير، فلو كان الموت شخصاً لاستقبله الأمير بسلاحه وأورد خيله ليطعنه طعنة نجلاء تُودي به إلى الهلكة، ولكن الأمر لا يتعلّق بالمكان فضلاً عن الصورة والشكل، فالموت لا يخضع لحيّز المكان كذلك.

(٤) الحنين: الشوق. الكروب، الواحد كرب: الأحزان. جلّى: أزال وكشف. يحاول الشاعر أن يُخفّف من غلواء حزن الأمير لأخته، فالحنين حقّ من حقوق المودّة والقرابة، فلو كان القتال دفعاً لذلك الكرب لكان دواؤه عند الأمير فجهّز له جيشاً للقضاء عليه، ولكن الموت لا يُستدفع بتلك الوسائل ويمتنع عنه المرء بوسيلة.

خِـطْـبَـةٌ لِـلْـحِـمَـام لَـيْـسَ لَـهَـا رَدٌّ
وَإنْ كَـانَـتِ الـمُـسَـمَّـاةَ ثُـكْـلَا[١]

وَإذَا لَـمْ تَـجِـدْ مِـنَ الـنَّـاسِ كُـفْـأً
ذَاتُ خِـدْرٍ أَرَادَتِ الـمَـوْتَ بَـعْـلَا[٢]

وَلَـذِيـذُ الْـحَـيَـاةِ أَنْـفَـسُ فِـي الـنَّـفْـ
ـسِ وَأَشْـهَـى مِـنْ أَنْ يُـمَـلَّ وَأَحْـلَـى[٣]

وَإذَا الـشَّـيْـخُ قَـالَ أُفٍّ فَـمَـا مَـ
ـلَّ حَـيَـاةً وَإنَّـمَـا الـضَّـعْـفَ مَـلَّا[٤]

آلَـةُ الْـعَـيْـشِ صِـحَّـةٌ وَشَـبَـابٌ
فَـإذَا وَلَّـيَـا عَـنِ الـمَـرْءِ وَلَّـى[٥]

---

(١) الخطبة: طلب المرأة للزواج. الحِمام، بكسر الحاء: الموت. الثكل: فقد أحد الأقرباء الأعزّاء. إنها خطبة ليست كسائر الخطبات يمكن للمرء العودة عنها باختلاق الأعذار، ولكنها خطبة من لا تُردّ نيّته، فالموت هو الخاطب والحزن للأقارب والأحباب، والدموع لأعزّهم، فلا تردّ ودائعه.

(٢) وردت الأبيات الخمسة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٦. الكفؤ: المثيل. البعل: الزوج. يُعلّل الشاعر أن ما حصل لأخت الأمير كان صوناً لها، لأنها لن تجد كفؤاً لها في عالم الرجال لجلال قدرها وشرفها، فكان الموت خير كفوء، فهي بكر ولن تستهين بشرفها، فالموت خير لها وراحة وصيانة.

(٣) يرى الشاعر أن البشر يُحبّون الحياة ويُقبلون عليها بشغف وحبّ. ليتمتّعوا بما فيها من سرور وفرح فيعبّون منها كلّ قدر استطاعته، فمن كانت بمستوى أخت الأمير قدراً وجلالاً، قد لا يتوفّر لها الكفؤ فيسومها العذاب ألواناً، ففي هذه الحالة فإن الموت أستر لها وصون لشرفها.

(٤) أف: اسم فعل مضارع بمعنى أتضجّر. ومن طبيعة الحياة إذا سقت المرء حلواً تمنّى استمرارها على منوالها هذا، وما يُعكّر صفوها أن طولها قد يُشعر المرء بالضعف والفتور فيتأفّف، وهو إنما يظهر سأمه من الحالة التي هو فيها وليس من الحياة ونعيمها.

(٥) تلك هي الحياة الحلوة؛ شباب وصحّة وأمل وقوّة وتوفيق حظّ فإذا زالت أسباب الاستمرار في الحياة، فالموت خير للمرء من حياة تعيسة يُعكر صفوها مرض لا شِفاء منه وأهل يتمنّون موته أكثر منه.

أَبَـــداً تَـــسْـــتَـــرِدُّ مَـــا تَـــهَـــبُ الـــدُّنْـــ
ـيـا فَـيَـا لَـيْـتَ جُـودَهَـا كَـانَ بُـخْـلَا[1]
فَـكَـفَـتْ كَـوْنَ فَـرْحَـةٍ تُـورِثُ الْـغَـ
ـمَّ وَخِـلٍّ يُـغَـادِرُ الْـوَجْـدَ خِـلّا[2]
وَهْـيَ مَـعْـشُـوقَـةٌ عَـلَـى الْـغَـدْرِ لَا تَـحْـ
ـفَـظُ عَـهْـداً وَلَا تُـتَـمِّـمُ وَصْـلاً[3]
كُـلُّ دَمْـعٍ يَـسِـيـلُ مِـنْـهَـا عَـلَـيْـهَـا
وَبِـفَـكِّ الْـيَـدَيْـنِ عَـنْـهَـا تُـخَـلَّـى[4]
شِـيَـمُ الْـغَـانِـيَـاتِ فِـيـهَـا فَـلَا أَدْ
رِي لِـذَا أَنَّـثَ ٱسْـمَـهَـا الـنَّـاسُ أَمْ لَا[5]

---

(١) إنها الحياة عجيبة غريبة، تُعطي بيد، فتكون ولادات وأفراح وزغاريد، ثم تأخذ باليد الأخرى فتترك قلوباً لوّعها الحزن وأبكاها ألم الفراق، ليتها بخلت بما أعطت أصلاً. والردّ الطبيعي على تلك الإشكالية أن اللّه سبحانه وتعالى لحكمة هو يعلمها أوجدهم وأماتهم أيضاً لحكمة هو يعلمها.

(٢) كفى: أغنى. الوجد: شدّة الحزن. الخل: الصاحب والصديق. إنها صورة تشاؤمية من قلب عصره الألم. ليس للتمنّي في ردّ قضاء اللّه تعالى سبيل، فبخل الحياة عن دفق الحياة في البشر، لا يتوقّف عليهم، صحيح أن ذلك يفرح القلوب في حال الميلاد، فيتآلف البشر ويتحابّون ثم يكون الموت فيتألّمون ويحزنون، فيفقد الصاحب صاحبه والخليل خليله، فالدنيا كتاجر يبتاع ويشتري، فيفرح الشاري بمتاعه ويسرّ له، فإذا استرده التاجر سلعته آلم المشتري فقدها.

(٣) وردت الأبيات الستة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٦. يتحدّث الشاعر عن الدنيا، إنها معشوقة حلوة تُزيّن لعاشقيها جمالاً زائفاً خدّاعاً غادراً، فيغترّون بها ويُسارعون إلى اغتنامها، وفجأة وبلا سابق إنذار يختطفهم الموت من بين براثن الحياة، فكأن المرء ما عاش وقد خانته الحياة وقطعت صلتها به.

(٤) يتابع الشاعر تأملاته، فالمرء يبكي بمرارة على الدنيا وفوت ما أمل منها، ومع ذلك فإنه لا يتخلّى عن أمله وحبّه لها طوعاً، فإذا بالموت يجبره، رغماً عنه، على التخلّي عنها إذا نزل الموت بساحته.

(٥) شيم: خصائص وأخلاق وصفات. الغانيات، الواحدة غانية: التي اغتنت بجمالها =

يَـا مَـلِـيـكَ الْـوَرى الْـمُـفَـرِّقَ مَـحْـيـاً
وَمَـمَـاتـاً فِـيـهِـمِ وَعِـزًّا وَذُلَّا(١)

قَـلَّـدَ ٱلـلَّـهُ دَوْلَـةً سَـيْـفُـهَـا أَنْـ
ـتَ حُـسَـامـاً بِـالْـمَـكْـرُمَـاتِ مُـحَـلَّـى(٢)

فَـبِـهِ أَغْـنَـتِ الْـمَـوَالِـيَ بَـذْلاً
وَبِـهِ أَفْـنَـتِ ٱلأَعَـادِيَ قَـتْـلَا(٣)

وَإِذَا ٱهْـتَـزَّ لِـلـنَّـدَى كَـانَ بَـحْـراً
وَإِذَا ٱهْـتَـزَّ لِـلـرَّدَى كَـانَ نَـصْـلَا(٤)

وَإِذَا الْأَرْضُ أَظْـلَـمَـتْ كَـانَ شَـمْـسـاً
وَإِذَا الْأَرْضُ أَمْـحَـلَـتْ كَـانَ وَبْـلَا(٥)

= عن تصنّع الجمال. يرى الشاعر أن الدنيا كغانية لعوب تستهوي القلوب وتحيّر العقول فتشدّ إليها أعتى الرجال وأقواهم، وفجأة تتخلّى عنهم فتتركهم يتعذّبون بها ومن أجلها، وبدافع السخرية كيف منح الرجال الدنيا اسماً أنثوياً؟

(١) الورى: البشر، الخلق. المحيا: الحياة. يُخاطب الشاعر الأمير على أنه ملك الخلق، فبيده حياتهم بما يُنعم به على أوليائه ورعيته، وموتهم بما يُنزله بأعدائه، فيُعدمهم الحياة، وهو من يرفع أقواماً ويُذلّ آخرين.

(٢) الحسام: السيف البتَّار. يُخاطب الشاعر سيف الدولة أن اللّه سبحانه وتعالى قد جعله ملكاً على دولة، فكان سيفها ليحميها من الأعداء ويصونها من الطامعين، فضلاً عن أنه زيّنه بكريم الصفات وميّزه عن سواه بمكارم الأخلاق الرفيعة.

(٣) يُتابع الشاعر وصفه ذلك السيف، فبه نعمت الرعية بالرفاهية والغنى، وقد بذل لها الغنى، وبالمقابل فقد أذاق الأعداء مرّ الهزيمة وكان خير حام للدولة يُفني أعاديها ويحمي بيضتها ويُعلي رايتها.

(٤) اهتزّ: ارتاح. الندى: الكرم. الوغى: الحرب. النصل: السيف. يمدح الشاعر سيف الدولة بالجود، بأنه بحر يموج بالخير العميم، ففي شطآنه الغنى والجود والكرم، وإذا حزب الأمة أمر جلل اهتزّ غضباً فكان ناراً وسيفاً يقطع دابر الفتن وينزل بالأعداء صواعق الموت.

(٥) المحل: القحط والجدب. الوبل: المطر الغزير. فالأمير رحمة لأمته، فإذا حلّ =

وَهُـوَ الـضَّـارِبُ الـكَـتِـيـبَـةَ وَالـطَّـعْـ
نَـةُ تَـغْـلُـو وَالـضَّـرْبُ أَغْـلَـى وَأَغْـلَـى[١]

أَيُّـهَـا الْـبَـاهِـرُ الْـعُـقُـولَ فَـمَـا تُـدْ
رَكُ وَصْـفـاً أَتْـعَـبْـتَ فِـكْـرِي فَـمَـهْـلَا[٢]

مَـنْ تَـعَـاطَـى تَـشَـبُّـهَـاً بِـكَ أَعْـيَـا
هُ وَمَـنْ دَلَّ فِـي طَـرِيـقِـكَ ضَـلَّا[٣]

فَـإِذَا مَـا ٱشْـتَـهَـى خُـلُـودَكَ دَاعٍ
قَـالَ لَا زُلْـتَ أَوْ تَـرَى لَـكَ مِـثْـلَا[٤]

= بالأمة ما يجعل الشمس مظلمة كان بمثابتها، ضياءً ودفئاً وحياة، وإذا ضرب البلاد جفاف ومحل كان إلى جانب الأمة فيض كرم وجود عطاء، فأغرق الناس بإحسانه.

(١) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ١٥٠. الكتيبة: الفرقة من الجيش. تغلو: أي يندر وجودها. يذكر الشاعر قدرة الأمير وشجاعته، فيوم يعزّ على الأبطال في شدّة زحام المتقاتلين النزال، ويفرّ الشجعان مخافة الأسر أو الموت، سيف واحد يتحدّى الموت يجول ويصول في حمأة المعركة، إنه أغلى سيف في أغلى انتصار يُحقّقه.

(٢) وردت الأبيات الثلاثة الأخيرة في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٦. الباهر: المدهش. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه قد أدهش العقول وحيّر الألباب بصفاته العظيمة المحبّبة إلى النفوس، والباحث في كنه سرّ تلك الفضائل يعجز أن يحيط بها لكثرتها، فضلاً عن نوعيّتها المميّزة، لذا فإنه يطلب منه أن يتمهّل في عرضها أمامه، إنه لا يستطيع حصرها وعدّها.

(٣) التعاطي: التناول والممارسة. أعيا: أتعب. يُعقّب الشاعر مبيّناً سبب دهشة أن من حاول الاقتداء بالممدوح فتشبّه به قصّر به المدى لبعد المسافة بينه وبين الممدوح، وكذلك فمن حاول سلوك الطريق التي أوصلته إلى أعلى مكانة، أنهكه المسير وضلّ في متاهات طرق شتّى لا يطرقها إلّا الأقوياء المجرّبون، وانهارت قواه فاستسلم للقنوط.

(٤) وثمّة من يرغب للممدوح الخلود، فيدعو له بالديمومة وطول البقاء حتى يرى له شبيهاً وبديلاً، فلم يكن ذلك كذلك لصعوبة أن يُوجد له شبيه.

وإذا ما خلا الجبان بأرض

يمدحه ويذكر نهوضه إلى ثغر الحدث لما بلغه أن الروم أحاطت به وذلك في جمادى الأولى سنة أربع وأربعين وثلاث مئة (٩٥٥م):

[الخفيف]

ذِي الْمَعَالِي فَلْيَعْلُوَنْ مَنْ تَعَالَى
هٰكَذَا هٰكَذَا وَإِلَّا فَلَا لَا[١]

شَرَفٌ يَنْطِحُ النُّجُومَ بِرَوْقَيْـ
ـهِ وَعِزٌّ يُقَلْقِلُ الْأَجْبَالَا[٢]

حَالُ أَعْدَائِنَا عَظِيمٌ وَسَيْفُ الدَّ
وْلَةِ ابْنُ السُّيُوفِ أَعْظَمُ حَالَا[٣]

كُلَّمَا أَعْجَلُوا النَّذِيرَ مَسِيراً
أَعْجَلَتْهُمْ جِيَادُهُ الإِعْجَالَا[٤]

---

(١) يُخاطب الشاعر سيف الدولة. إن ما قام به مأثرة بحدّ ذاتها عظيمة كعظمة صاحبها؛ إنه المجد ولا يأتي جليل الأعمال إلّا من كان جليلاً بنفسه، ومن أراد ذلك فعليه أن يقتدي بما فعله الأمير ويتصدّى للأعداء مهما كثروا وأن يردّوا كيدهم إلى نحورهم، وإلّا فإنهم لا يستحقّون حتى أسماءهم كملوك وقادة، وعليهم أن يتخلّوا عن تكبّرهم الزائف، وحتى عن مكانتهم.

(٢) الروق: القرن. يقلقل: يزلزل. يُردف الشاعر أن تلك المأثرة شرف بحدّ ذاته، به يُناضل النجوم ويُناطحها مُناطحة الأقوياء من ذوات القرون فيُزلزلها عن مكانتها فيبزّها، فإذا بالجبال تتقلقل رهبة وإعجاباً بأعماله العظيمة الباهرة.

(٣) يُقرّ الشاعر بما عليه الأعداء من القوّة في العُدد والعديد، وسيف الدولة وليد سيوف عاركت السيوف فحطّمتها، فورث البطولة، وقد تحدّرت إليه. وراثة وطبعاً، فكان أعظم من الأعداء وأشدّ منهم، فالمنتصر على الأقوياء أقوى منهم وأسعد حالاً.

(٤) يتحدّث الشاعر عن المكر السيّئ الذي حاكه الروم بليل، فإذا بالخراب يأتيهم من حيث لم يحتسبوا وقد حلّ بالروم، فقد أرادوا مباغتة المسلمين في عقر دارهم، فإذا بأهل تلك البلاد يُسرعون بإرسال النذير إلى ولي أمرهم الذي بادر إلى مهاجمة الروم قبل أن يدركه النذير، وذلك من حسن تدبيره وإحساسه بمسؤولية الحاكم تجاه رعيته، فكانت الصدمة عظيمة عنيفة فلم يستطيعوا تحملها وباؤوا بهزيمة نكراء، لأنه عاجلهم دون إبطاء، وكان النصر على الأعداء.

فَـأَتَـتْـهُـمْ خَـوَارِقَ ٱلأَرْضِ مَـا تَـحْـ
مِـلُ إِلَّا ٱلْـحَـدِيـدَ وَٱلأَبْـطَـالَا[١]
خَـافِـيَـاتِ ٱلأَلْـوَانِ قَـدْ نَـسَـجَ النَّـقْـ
ـعُ عَـلَـيْـهَـا بَـرَاقِـعـاً وَجِـلالَا
حَـالَـفَـتْـهُ صُـدُورُهَـا وَالْـعَـوَالِـي
لَـتَـخُـوضَـنَّ دُونَـهُ ٱلأَهْـوَالَا[٢]
وَلَـتَـمْـضِـنَّ حَـيْـثُ لَا يَـجِـدُ الـرُّمْـ
ـحُ مَـدَاراً وَلَا ٱلْـحِـصَـانُ مَـجَـالَا[٣]
لَا أَلُـومُ ٱبْـنَ لَاوُنٍ مَـلِـكَ الـرُّو
مِ وَإِنْ كَـانَ مَـا تَـمَـنَّـى مُـحَـالَا[٤]
أَقْـلَـقَـتْـهُ بَـنِـيَّـةٌ بَـيْـنَ أُذْنَـيْـ
ـهِ وَبَـانٍ بَـغَـى الـسَّـمَـاءَ فَـنَـالَا[٥]

---

(١) الخوارق: الجياد التي تقطع الأرض حتى تبلغ أقصاها. إنها المفاجأة التي لم يحسبوا لها حساباً؛ إنها جياد تنهب الأرض نهباً بسرعتها الهائلة، يمتطي متونها أبطال يتسربلون الحديد؛ وقد تبدلت ألوانها، فلا يُعرف الأسود من الأبيض منها، ولا الأدهم من الكميت منها، ولا الأشهب من الأشقر منها لما نسج الغبار عليها حتى بدا على وجوهها كالبراقع وكالجلال على متونها.

(٢) و (٣) حالفته: صاحبته وعاهدته. العوالي: الرماح. وثمّة معاهدة قائمة بين سيف الدولة وأدوات حربه من خيول ورماح وسواها أن تُقاتل دونه وتكفيه شرّ أعدائه، فإنهم لا يستحقّون أن يُنازلهم سيف الدولة فإنهم دونه منزلةً وقوّة وشجاعة، فيُجالدون عدوّه حينما يضيق المجال في ميدان المعركة، ولا يُحسن الجواد الحركة بحرّية لضيق المجال لحركته والرمح تضيق عليه المسافات لتلاحم الجيشين؛ في هذه الحالة تجد في عتادك ما يُفرحك ويُرضيك في أعدائك.

(٤) و (٥) يسخر الشاعر من ملك الروم ابن لاون؛ فقد تمنّى مستحيلاً تحقيقه لعجزه عن تنفيذ أمنيّته لصعوبة تنفيذها، فتخريب هذه القلعة دونه القتاد وهو أهون عليه منها، رغم صعوبة ذلك أيضاً، فوراء الحدث الحمراء سيف الدولة ذلك البطل الصنديد الذي يضطلع بمسؤوليات جسام ولا تُغمض له عين عن محاولات ملك الروم الإفساد =

كُـلَّـمَـا رَامَ حَـطَّـهَـا اتَّـسَـعَ الْـبَـنْـ
يُ فَـغَـطَّـى جَـبِـيـنَـهُ وَالْـقَـذَالَا[١]
يَـجْـمَـعُ الـرُّومَ وَالـصَّـقَـالِـبَ وَالْـبُـلْـ
غَـارَ فِـيـهَـا وَتَـجْـمَـعُ الآجَـالَا[٢]
وَتُـوَافِـيـهِـم بِـهَـا فِـي الْـقَـنَـا الـسُّـمْـ
رِ كَـمَـا وَافَـتِ الْـعِـطَـاشُ الـصِّـلَالَا[٣]
قَـصَـدُوا هَـدْمَ سُـورِهَـا فَـبَـنَـوْهُ
وَأَتَـوْا كَـيْ يُـقَـصِّـرُوهُ فَـطَـالَا[٤]
وَٱسْـتَـجَـرُّوا مَـكَـايِـدَ ٱلْـحَـرْبِ حَـتَّـى
تَـرَكُـوهَـا لَـهَـا عَـلَـيْـهِـمْ وَبَـالَا[٥]

= عليه في كل شيء، ولا سيما تدمير القلعة التي رفع بنيانها سيف الدولة لتكون منيعة عليه وتؤرّق عليه نومه، وهو لا ينفكّ يزيدها مناعة وقوّة بزيادات عليها ممَّا يُؤلم الملك، وغاية الأمير أن ينال رضى السماء ورعايتها بزيادة مناعة تلك القلعة.

(١) رام: طلب. حطّها: تدميرها. القذال: مؤخّر الرأس. لجأ الشاعر إلى تصور الحالة النفسية التي يُعاني منها ملك الروم، إنه يبدو في ضيق شديد من الزيادات التي يُضيفها الأمير لزيادة مناعة القلعة، وكأنه يحملها على رأسه، فكلما زاد الأمير عليها شيئاً ازداد ما على رأس الملك حتى شمل جميع رأسه حتى قذاله وقفاه.

(٢) و (٣) لطالما اجتمعت أمم الغرب وتكالبت على مقاتلة المسلمين، والنتيجة الحتمية توالي الهزائم عليهم في كلّ وقت ومكان. فاجتماع الروم والصقالبة والبلغار شيء طبيعي أن يتوحّدوا في هدف واحد هو محاربة الإسلام فإذا بسيف الدولة يُطيح بهم جميعاً فيكونون وقوداً لسيفه وجيشه، ولقد سارع لمجابهتهم ليقمع آجالهم بالسلاح من رماح وسواها، فإذا بهم يسترفدون آجالهم بأيديهم برماح المسلمين الظامئة إلى دمائهم، وتلك الرماح سريعة الهبة إسراع العطش إلى أرض ممطورة.

(٤) كان الهدف من مسير الأعداء هدم القلعة، فإذا بسيف الدولة يرفع بنيانها ويسمو به إلى العلاء، فباءت محاولاتهم بفشل ذريع.

(٥) يقصد بمكائد الحرب: الآلات. الوبال: نذير الشؤم والخسارة. جاء القوم بقضّهم وقضيضهم وآلات حربهم يجرّونها لتكون وبالاً عليهم ونذير شؤم، فما إن أطلّت بوادر الهزيمة حتى ترك القوم تلك المعدّات وآلات السلاح مؤثرين السلامة بأنفسهم، =

رُبَّ أَمْــرٍ أَتَــاكَ لَا تَــحْــمَــدُ الْــفُــعَّــا
لَ فِــيــهِ وَتَــحْــمَــدُ الأفْــعَــالَا[١]
وَقِــسِــيٍّ رُمِــيــتَ عَــنْــهَــا فَــرَدَّتْ
فِــي قُــلُــوبِ الــرُّمَــاةِ عَــنْــكَ الــنِّــصَــالَا[٢]
أَخَــذُوا الــطُّــرْقَ يَــقْــطَــعُــونَ بِــهَــا الــرُّسْــ
لَ فَــكَــانَ ٱنْــقِــطَــاعُــهَــا إِرْسَــالَا[٣]
وَهُــمُ الْــبَــحْــرُ ذُو الْــغَــوَارِبِ إِلَّا
أَنَّــهُ صَــارَ عِــنْــدَ بَــحْــرِكَ آلَا[٤]
مَــا مَــضَــوْا لَــمْ يُــقَــاتِــلُــوكَ وَلٰــكِــ
نَّ الْــقِــتَــالَ الَّــذِي كَــفَــاكَ الْــقِــتَــالَا[٥]

= فإذا بجند سيف الدولة يستعينون بتلك الأسلحة ويُلاحقون الفارّين منهم يُعملون فيهم قتلاً وأسراً.

(١) لقد كان لتلك الحملة الفاشلة مفاعيل حسنة النتائج، فقد أدّى ذلك إلى هزيمة الروم، وأمرهم وعملهم مكروه لأنهم حاولوا ضرب المسلمين في عقر دارهم، وما هو محمود منهم أنهم تركوا تلك الأسلحة فكانت خير غنيمة يستعين بها المسلمون على حرب الروم.

(٢) قسي، الواحد قوس. يُردف الشاعر أن تلك القسي رُدّت إلى نحر راميها الذي جاء بها إلى حربِ المسلمين، والقسيّ فاستعملها جند الأمير في مطاردتهم للروم، فارتدّت وبالاً عليهم فكانت من أسباب قتلهم.

(٣) الرسل: البريد. لقد احتاط الروم من إنذار الأمير بما يحصل في القلعة، ولكن حدس الأمير وشعوره بالمسؤولية حمله بسرعة لمواجهة الأمر بشجاعة، فكان الإرسال عنده ذاتياً من ذات نفسه.

(٤) الغوارب: أعالي الأمواج. الآل: السراب. يُشبّه الشاعر الروم بالبحر الهائج لكثرة عدده وضجيجه المتعالي، ولكن سرعان ما تحوّل ذلك البحر إلى سراب لا وجود له، فصار كأنه ما كان، وانتهى أمره إلى تلاشٍ واضمحلال.

(٥) إنه الرعب المتأصل في نفوس الروم، فما إنْ شاهدوا طلائع جيش سيف الدولة حتى داخلهم رعب شديد فانهزموا نفسياً وانهارت قواهم، فكانوا طعماً للهزيمة شأنهم في كلّ مواجهة مع ما يُرعبهم، حتى لدى ذكر اسم سيف الدولة دون رؤيته.

وَالَّـــذِي قَــطَّــعَ الــرِّقَــابَ مِـــنَ الـــضَّـــرْ
بِ بِـــكَـــفَّـــيْـــكَ قَـــطَّـــعَ الآمَـــالَا[١]
وَالــثَّــبَــاتُ الَّــذِي أجَــادُوا قَــدِيــمــاً
عَــلَّــمَ الــثَّــابِــتِــيــنَ ذَا ٱلإجْــفَــالَا[٢]
نَـــزَلُـــوا فِـــي مَـــصَـــارعٍ عَـــرَفُـــوهَـــا
يَـــنْـــدُبُـــونَ ٱلأعْـــمَـــامَ وَٱلأخْـــوَالَا[٣]
تَــحْــمِــلُ الــرِّيــحُ بَــيْــنَــهُــمْ شَــعَــرَ ٱلْــهَــا
مِ وَتُـــذْرِي عَـــلَـــيْـــهِـــمِ ٱلأوْصَـــالَا[٤]
تُـــنْـــذِرُ ٱلْـــجِـــسْـــمَ أَنْ يَـــقُـــومَ لَـــدَيْـــهَـــا
وَتُـــرِيـــهِ لِـــكُـــلِّ عُـــضْـــوٍ مِـــثَـــالَا[٥]
أَبْــصَــرُوا الــطَّــعْــنَ فِــي الْــقُــلُــوبِ دِرَاكــاً
قَــبْــلَ أَنْ يُــبْــصِــرُوا الــرِّمَــاحَ خَــيَــالَا[٦]

---

(١) و (٢) إنها سابقة علّمت هؤلاء القوم أن ما نزل بأسلافهم من فتك على أيدي الأمير هو ما حملهم على الفرار والانتكاس مخافة الموت، علماً أن الأولين منهم ما كانوا جبناء بل كانوا شجعاناً أقوياء ومع ذلك فقد أنزل بهم الأمير الخسف والموت ولم ينفعهم ثباتهم في قتالهم مع جيش الأمير، ومع ذلك فقد أجفلت نفوس بعضهم.

(٣) وردت الأبيات الأربعة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٣. المصارع، الواحد مصرع: أمكنة مقاتلهم. من علائم شؤم هؤلاء الروم أنهم نزلوا حيث لقي من سبقهم إلى معاداة مصرعه، فإذا بهم يذكرون أحباءهم ممّا جعلهم يتألّمون ويبكون قتلاهم من الأعمام والأخوال، فحملهم على تحسس رؤوسهم وتصوّر مصارعهم ولهذا عجّلوا بالفرار.

(٤) و (٥) الأوصال، الواحد وُصل: الأعضاء. الهام، الواحدة هامة: الرؤوس. تذري: تثير. لم يكن عهد ما حصل لأسلاف الروم هؤلاء ببعيد؛ إنها شعور القوم تتلاعب فيها الرياح وبقايا أشلائهم تتقاسم بالأرض ممّا أثار في نفوسهم الرعب فآثروا الحياة على القتل، ففرّوا بأنفسهم؛ إنه إنذار مرعب، جعل القوم يتحسسون أعضاءهم، فكلما شاهد أحدهم تحسس أخاه في جسده مخافة أن يقع منه.

(٦) الطعن الدراك: المتوالي. يصوّر الشاعر شدّة خوف القوم، فإذا بخيالهم يُطيح بهم =

وَإِذَا حَـــاوَلَـــتْ طِـــعَـــانَـــكَ خَـــيْـــلٌ
أَبْــصَــرَتْ أَذْرُعَ الْــقَــنَــا أَمْــيَــالَا(١)
بَــسَــطَ الــرُّعْــبُ فِــي الْــيَــمِــيــنِ يَــمِــيــنــاً،
فَــتَــوَلَّــوْا، وَفِــي الــشِّــمَــالِ شِــمَــالَا(٢)
يَــنْــفُــضُ الــرَّوْعُ أَيْــدِيــاً لَــيْــسَ تَــدْرِي
أَسُــيُــوفــاً حَــمَــلْــنَ أَمْ أَغْــلَالَا(٣)
وَوُجُــوهــاً أَخَــافَــهَــا مِــنْــكَ وَجْــهٌ
تَــرَكَــتْ حُــسْــنَــهَــا لَــهُ وَالْــجَــمَــالَا(٤)

= من التصوّر إلى الواقع وكأنه حقيقة لا مفرّ منها، لذا راح بعضهم يتحسس قلبه ليطمئن إن كان لا يزال ينبض بالحياة.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٢. القنا: عيدان الرماح. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأن فرسانه يُثيرون الرعب في نفوس من حاول الطعان من الأعداء، فإذا بأيديهم لا تقدر على حمل الرماح لأن الخوف ملك عليهم نفوسهم، فشلّ فيهم إرادة الكفاح، فهم يتوقّعون أن تُدركهم رماح جيش الأمير ولو كانوا على بعد أميال، فتصوّرهم يقرّب المسافات وقد يُلغيها في حال اشتداد فزعهم.

(٢) يُتابع الشاعر حالة ما كان عليه الروم، وقد شملهم الخوف من كلّ جانب، فميمنة جيشهم تحكّم فيها يمين الرعب وشماله شمل شمالهم، بحيث شُلّت قدرتهم فتولّوا هاربين من مصائرهم.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٣. الروع: شدّة الرعب. الأغلال، الواحد غلّ: القيود والسلاسل. يُتابع الشاعر رسم صورة ما كان عليه جنود الروم، كان هؤلاء يحملون سيوفهم التي فقدت دورها الذي من أجله كانت، فأصبحت سلاسل وقيوداً لجبنهم وتخاذلهم، فقيدت إراداتهم وأيديهم.

(٤) يمدح الشاعر سيف الدولة ويُذري على جنود الروم؛ تقابلت الوجوه، وجه يشعّ بهاءً وجمالاً وتألّقاًونوراً، إنه وجه الأمير الذي زاده النصر جمالاً ونضرة على ما يتمتّع به في الأصل، ووجوه كالحة اكتست بصفرة الموت، ملأها الرعب وانسلخ عنها رونق الجمال فبدت وجوهاً لا لون لها، حتى أشكالها ضاعت معالمها لما هي عليه من عدم الارتكاز النفسي والحسيّ.

وَالْـعِـيَـانُ ٱلْـجَـلِـيُّ يُـحْـدِثُ لِـلـظَّـ
نِّ زَوَالاً وَلِـلْـمُـرَادِ ٱنْـتِـقَـالَا[١]

وَإِذَا مَـا خَـلَا ٱلْـجَـبَـانُ بِـأَرْضٍ
طَـلَـبَ الـطَّـعْـنَ وَحْـدَهُ وَالـنِّـزَالَا[٢]

أَقْـسَـمُـوا لَا رَأَوْكَ إِلَّا بِـقَـلْـبٍ
طَـالَـمَـا غَـرَّتِ الْـعُـيُـونُ الـرِّجَـالَا[٣]

أَيُّ عَـيْـنٍ تَـأَمَّـلَـتْـكَ فَـلَاقَـتْـ
كَ وَطَـرْفٍ رَنَـا إِلَـيْـكَ فَـآلَا[٤]

مَـا يَـشُـكُّ ٱلـلَّـعِـيـنُ فِي أَخْـذِكَ ٱلْـجَـيْـ
شَ فَـهَـلْ يَـبْـعَـثُ ٱلْـجُـيُـوشَ نَـوَالَا[٥]

---

(١) لقد حدثت الروم أنفسها بأنهم قادرون على محاربة الأمير؛ فتلك أمانيّهم عادت عليهم بالخسران المبين عندما كانت المواقعة والمواجهة، فانجلت عن أعينهم غِشاوة خادعة وبان لهم قصورهم، فانقلبوا على أنفسهم خاسرين.

(٢) ورد البيت في: الخصائص، لابن جني ٣:٣١٨، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٣. النزال: المقاتلة والمباراة. إن الروم لجهلهم حقيقة من يُعادون، فقد صوّر لهم غرورهم وحمقهم أنهم أقوياء، وهم يستعرضون أنفسهم على أنفسهم، لذا طلبوا منازلة السراب ليتأكدوا أن باستطاعتهم ومقدورهم الانتصار على الأمير.

(٣) نتيجة قناعات الروم أنهم قادرون على محاربة الأمير حملتهم على المغامرة، فكان الامتحان عسيراً عليهم وكشف عن سوء فهم وتسرّع في فهم ما رأته عيونهم من قوّة واهمة أدّت إلى هزيمة نكراء، فإذا بهم يُعملون عقولهم ولكن بعد فوات الأوان.

(٤) الطرْف، بسكون الراء: النظر. رنا: أدام النظر. آل: رجع، يمدح الشاعر ممدوحه بمهابته وقوّة شخصيّته، فالأعداء لا يجرؤون على إدامة النظر إليه ومعنى ذلك تسرّب الرعب إلى قلوبهم قليلاً قليلاً بقدر ما يستمرّون، وأما الأصحاب والأولياء والمواطنون فيرغبون بإدامة النظر إليه ليتأمّلوا محاسن وجهه ملؤهم الإعجاب والحبّ والتقدير. ومن أحبّ شيئاً أدام النظر إليه، فكيف بمن عرف سيف الدولة؟

(٥) يقصد الشاعر باللعين قيصر الروم. النوال: العطاء. يُشكِّك الشاعر بنيّة الملعون المطرود من رحمة ربّه، قيصر الروم؛ أن يُوالي بعث جيوشه لمحاربة سيف الدولة، =

مَـا لِـمَـنْ يَـنْـصِـبُ ٱلْـحَـبَـائِـلَ فِـي الأرْ
ضِ وَمَـرْجَـاهُ أنْ يَـصِـيـدَ الْـهِـلَالَا(١)
إنَّ دُونَ الَّــتِــي عَــلَــى الــدَّرْبِ وَالأحْــ
دَبِ وَالــنَّــهْــرِ مِـخْـلَـطـاً مِـزْيَـالَا(٢)
غَـصَـبَ الـدَّهْـرَ وَالـمُـلُـوكَ عَـلَـيْـهَـا،
فَـبَـنَـاهَـا فـي وَجْـنَـةِ الـدَّهْـرِ خَـالَا(٣)
فَـهْـيَ تَـمْـشِـي مَـشْـيَ الْـعَـرُوسِ اخْـتِـيَـالاً
وَتَــثَــنَّــى عَــلَــى الــزَّمَــانِ دَلَالَا(٤)
وَحَــمَــاهَــا بِــكُــلِّ مُــطَّــرِدِ الأكْــ
عُــبِ جَــوْرَ الــزَّمَــانِ وَٱلأوْجَــالَا(٥)

= وهو يعلم أن تلك الجيوش لن تعود إليه ظافرة، بل إنها لن ترجع إليه أصلاً، لأن الأمير سيظفر بها لتكون له مدداً ومن أسباب عظمته وعلو شأنه.

(١) ورد البيت في أمالي ابن الشجري ١: ٢٣٧. الحبائل: الشراك. يسخر الشاعر من الروم، إنه كمن ينصب الشراك في أرض خلاء، وفي نيّته أن يصيد الهلال الوليد في سماء تفصله عنه الآماد والمسافات البعيدة. إنها حماقة لا تقاربها حماقات المجانين، فكيف بمن يلي أمور الناس ومصائرهم؟ والأمر يتعلّق بسيف الدولة، ذلك الأمير الذي أذاق الروم مرارة هزائم متكرّرة.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٣. الدرب: الطريق المؤدّي إلى بلاد الروم. الأحدب: جبل قرب حصن الحدث. النهر: موضع قرب حصن الحدث. يُنوّه الشاعر ببطولة سيف الدولة؛ إنه حامي قلعة الحدث الواقعة على تخوم بلاد الروم وهي الموقع المتقدّم لثغور المسلمين، فلا بدّ لحمايتها من بطل قادر على حمايتها ومقاتلة الروم والانتصار عليهم دائماً وفي كلّ جولة.

(٣) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٨١، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٣. غصب: قهر. الخال: الشامة في وجه الإنسان. لم يكن الحصن ضربة حظّ، ولكن ذلك لم يحصل إلّا بالقوّة والقهر، فقد رفع الأمير بنيان الحدث بإرادة وعزم صادقين فكانت بمثابة خال يُزيّن وجه بلاد الثغور في ذلك الصقع، رغم محاولات يائسة من الدهر المعاكس والملوك الأعداء.

(٤) و (٥) الاختيال: الزهو. الدلال: الغنج. يصف الشاعر الحالة التي عليها القلعة، إنها =

وَظُبًى تَعْرِفُ ٱلْحَرَامَ مِنَ ٱلْحِـ
لِّ فَقَدْ أَفْنَتِ الدِّمَاءَ حَلَالَا(١)

فِي خَمِيسٍ مِنَ ٱلْأُسُودِ بَئِيسٍ
يَفْتَرِسْنَ النُّفُوسَ وَٱلأَمْوَالَا(٢)

إِنَّمَا أَنْفُسُ ٱلأَنِيسِ سِبَاعٌ
يَتَفَارَسْنَ جَهْرَةً وَٱغْتِيَالَا(٣)

مَنْ أَطَاقَ ٱلتِمَاسَ شَيْءٍ غِلَاباً،
وَٱغْتِصَاباً لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالَا(٤)

كُلُّ غَادٍ لِحَاجَةٍ يَتَمَنَّى
أَنْ يَكُونَ الْغَضَنْفَرَ الرِّئْبَالَا(٥)

= تزهو فخورة بعزّتها كعروس تتثنى وتميس بمشيتها مختالة فرحة بجمالها وعِزّتها، إنها فلتة زمان سيف الدولة حامي حماها وقاهر أعدائها فحقّ لها دلالها وغنجها، فبانيها أمير عظيم، وقد حماها بالرماح المطردة المستقيمة ذوات الأكعب من الحدثان، ودفع عنها جور الزمان وظلم الأعداء، فلم تعرف للخوف معنًى ولم ينزل بها شبحه.

(١) و (٢) الظبى، الواحدة ظبة: طرف السيف والسهم. يذكر الشاعر دور سيف الدولة، فقد حمى القلعة بالسيوف من وجب قتله من الروم الكافرين، فكانت دماؤهم حلالاً على سيوف المسلمين لاعتدائهم المستمرّ عليها، في جيش عرمرم عظيم، قد استأسد الجند فيه؛ إنهم أبطال شجعان يمتازون بالمهابة والعزّة وبشدّة البأس، إنهم ينتهبون أرواح الروم وأموالهم غنائم أحلّت لهم بشرع اللّه تعالى وباعتداء الروم عليهم.

(٣) ورد البيت في: شرح شواهد الشافية، للبغدادي: ٢٩٦، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٤. الأنيس: من يُستأنس به للطفه. يتفارسن: يتقاتلن. الاغتيال: القتل غدراً. يحكم الشاعر على البشر، هم في تكالبهم على الحياة كالمفترس من الحيوانات، يتباغضون ويتقاتلون بشراسة حتى الموت، فليجأون إلى أدنى الوسائل وأحقرها لتحقيق ما يصبون إليه بشتى الطرق وفي كلّ وقت.

(٤) و (٥) الغلاب: المغالبة. الاغتصاب: الحصول على ما يريدون بالقوّة. الغضنفر والرئبال: من أسماء الأسد. في العداء والكراهية، فمن قدر على تحصيل أمر من أمور الغلبة والسلطان والعلو عمد إلى وسائل مكروهة حتى من قبله لو فعلها غيره، =

ليس إلاك يا علي

أنفذ إليه سيف الدولة ابنه من حلب إلى الكوفة ومعه هدية وكان ذلك بعد خروجه من مصر ومفارقته لكافور، فقال يمدحه وكتب بها إليه من الكوفة سنة اثنتين وخمسين وثلاث مئة (٩٦٣م):

[الخفيف]

مَـا لَـنَـا كُـلُّـنَـا جَـوٍ يَـا رَسُـولُ
أنَـا أهْـوَى وَقَـلْـبُـكَ الـمَـتْـبُـولُ[١]

كُـلَّـمَـا عَـادَ مَـنْ بَـعَـثْـتُ إلَـيْـهَـا
غَـارَ مِـنِّـي وَخَـانَ فِـي مَـا يَـقُـولُ[٢]

أفْـسَـدَتْ بَـيْـنَـنَـا الأمَـانَـاتِ عَـيْـنَـا
هَـا، وَخَـانَـتْ قُـلُـوبَـهُـنَّ الْـعُـقُـولُ[٣]

تَـشْـتَـكِـي مَـا ٱشْـتَـكَـيْـتُ مِـنْ ألَـم الـشَّـوْ
قِ إلَـيْـهَـا وَالـشَّـوْقُ حَـيْـثُ الـنُّـحُـولُ[٤]

= عمادها السلب والاغتصاب والدهاء والمكر، وإن لم يستطع لجأ إلى السؤال، وفي هذه الحالة قد لا يُحصل شيئاً ذا خطر؛ لذا يتمنّى كلّ طالب حاجة أن يكون قادراً على تحقيقها، لذا فهو يستأسد ليُرهب الضعفاء فيستأثر بما لديهم بشتّى الوسائل المشروعة وغير المشروعة منها.

(١) يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي. الجوي: المحروق القلب من شدة الحزن أو الحبّ. المتبول: الهائم من الحبّ والمتيّم. يخاطب الشاعر الوسيط بينه وبين حبيبته، وقد شكّ بأنه يعشق حبيبته أيضاً، ممّا يُوحي بأن حبيبته على قسط كبير من الجمال بحيث تستهوي الشاعر والرسول.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٤. إنها مزاحمة على قلب فاتنة حسناء، والرسول وسيط بين الشاعر وحبيبته، فإذا به يخون أمانة النقل، وقلبه تأكله الغيرة، فيُغيّر الكلم عن مواضعه ويزيّد القول لطرفي المشكلة، ممَّا يزيدهما انشقاقاً وخلافاً.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٥. سبب تغيّر الرسول في تأدية الرسالة بصدق وأمانة عينا حبيبته الساحرتان، فإذا ما نظر إليهما الرسول نسي أو تناسى ما يحمله من رسالة بين الشاعر وحبيبته، فإذا به يُحرّف ويُعدّل من الرسالة ما يتناسب مع هدفه من الزيارة.

(٤) يروى «من طرب الشوق» بدلاً من «ألم الشوق». الطرب: حالة تعتري المرء جرّاء =

وَإِذَا خَامَرَ ٱلْهَوَى قَلْبَ صَبٍّ،
فَعَلَيْهِ لِكُلِّ عَيْنٍ دَلِيلُ[١]
زَوِّدِينَا مِنْ حُسْنِ وَجْهِكِ مَا دَا
مَ فَحُسْنُ الْوُجُوهِ حَالٌ تَحُولُ[٢]
وَصِلِينَا نَصِلْكِ فِي هٰذِهِ الدُّنْـ
ـيَا فَإِنَّ الْمُقَامَ فِيهَا قَلِيلُ[٣]
مَنْ رَآهَا بِعَيْنِهَا شَاقَهُ الْقُطَّا
نُ فِيهَا كَمَا تَشُوقُ ٱلْحُمُولُ[٤]
إِنْ تَرَيْنِي أَدِمْتُ بَعْدَ بَيَاضٍ
فَحَمِيدٌ مِنَ الْقَنَاةِ الذُّبُولُ[٥]

= الفرح أو الحزن. إنها مكاشفة واتّهام، وبنظرة فاحصة كشفت حُجُب سرّ الرسول، إن ما به من نحول ووجوم يُعاني مثله الشاعر، فالشكّ في محلّه، فكانت مصارحة، وسكوت من جانب الرسول يُؤكّد شكّ الشاعر، إنها هفوة لا يُمكن إصلاحها.

(١) خامر: داخل. الهوى: الحبّ، الصبّ: العاشق. يُردف الشاعر تفسيراً لما وصل إلى معرفته من حال رسوله، مفاده أن دلائل الحبّ الذي يغزو قلب المرء تكشفها نظراته وشرود فكره ونحول جسده ونبرات صوته.

(٢) و (٣) يُخاطب الشاعر حبيبته طالباً منها أن تُرفده بزاد، فلا تبخل عليه بإطلالة وجهها المشرق الجميل، فما دام نضيراً جميلاً، فإنه متعة الأنظار يحلو لها أن تتمتّع بجمال صنعة الخالق العظيم، فالشباب مرحلة سرعان ما يذوي الجمال مع تقدّم العمر، وقد تحلّ محله البشاعة؛ فالصلة واللقاء بين الأحبة في هذا الوجود سبب استمرار الحياة، وبإحساس ممضّ أليم ينطق الشاعر بحقيقة لا زيف فيها، أن البقاء على وجه الأرض قليل لبني البشر، فالحياة فرصة ليتمتّع الأحباب ببعضهم.

(٤) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ٢٦. يقصد بعينها أي بعين الدنيا. القطّان: السكّان. الحمول: المرتحلون. ما يثير الحزن في النفوس أن حقيقة هذا الوجود إلى زوال، فمن اعتقد هذه النظرية وآمن بها نظر إلى أحبائه وأصدقائه نظرة المودع، والمرء لا يعرف أياً يكون المودّع أو أياً يكون المرتحل، وفي كلا الحالين فالشوق والحرمان يجمع بينهما.

(٥) وردت الأبيات الثلاثة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٤. أدم: =

صَـحِـبَـتْـنِـي عَـلَـى الْـفَـلَاةِ فَـتَـاةٌ
عَـادَةُ الـلَّـوْنِ عِـنْـدَهَـا الـتَّـبْـدِيـلُ[١]
سَـتَـرَتْـكِ ٱلْـحِـجَـالُ عَـنْـهَـا وَلٰـكِـنْ
بِـكِ مِـنْـهَـا مِـنَ الـلَّـمَـى تَـقْـبِـيـلُ[٢]
مِـثْـلُـهَـا أَنْـتِ لَـوَّحَـتْـنِـي وَأَسْـقَـمْـ
ـتِ وَزَادَتْ أَبْـهَـاكُـمَـا الْـعُـطْـبُـولُ[٣]
نَـحْـنُ أَدْرَى وَقَـدْ سَـأَلْـنَـا بِـنَـجْـدٍ
أَقَـصِـيـرٌ طَـرِيـقُـنَـا أَمْ يَـطُـولُ[٤]
وَكَـثِـيـرٌ مِـنَ الـسُّـؤَالِ ٱشْـتِـيَـاقٌ
وَكَـثِـيـرٌ مِـنْ رَدِّهِ تَـعْـلِـيـلُ[٥]

= شحب لونه ومال إلى السواد. القناة: عود الرمح. الذبول: التلاشي. يُخاطب الشاعر محبوبته معلّلاً تغيّر حاله بعد شباب غضّ وقوّة بأن سمرته قد اكتسبها من كثرة تجواله وتنقله بين ممدوحيه في سبيل طلب الرزق والمعالي، فضلاً عن شيب حلّ محل شعر أسود، فما ترينه يُخمد فيه لأنه خميرة العمر تماماً كقناة ذابلة ولكنها اكتسبت قوّة وصلابة مع امتداد العمر.

(١) الفلاة: المفازة والصحراء. يُعلّل الشاعر أسباب سمرته إنه دائم الألفة والصحبة لفتاة لا تهرم مع الزمن؛ إنها الشمس في عُذريتها وتجدّدها الدائم، تبدّل الموجودات وسائر الوجود، وتبقى حسناء وتُحيل الألوان، فتبدو مع مرور الزمن كاسفة الألوان كأنها حزينة على ما ضاع منها.

(٢) الحجال، الواحدة حجلة: الستور. اللمى: سمرة في الشّفة. يُخاطب الشاعر حبيبته لقد ابتعدت عن ملاقاة الشمس واختبأت بين أستار، فلا ترى الشمس إلّا نادراً، فكان أن تركت على شفتها السفلى سمرة جذّابة حلوة، فكأن الشمس قبّلتها وتركت أثرها عليها.

(٣) لوّحتني: غيّرت لوني. أسقمتِ: جعلتني مريضاً. أبهاكما: جمالكما. العطبول: الطويلة السمينة من النسوة. يُخاطب الشاعر محبوبته بأنها شبيهة بالشمس، فالشمس آذته فأبدلت بياض وجهه سمرة بحرارتها ووهجها اللّاهب، أما محبوبته فكانت أشدّ ضرراً، فغزا المرض جسده، وما أدّى إلى نحوله لشدّة حرمانه ومعاناته إنها المرأة الطويلة المكتملة الأنوثة الصارخة، إنها المحبوبة.

(٤) و (٥) علّل: ألهى. يتحدّث الشاعر بلسان الجماعة للتفخيم، أنه على علم بطول =

لَا أقَــمْــنَــا عَــلَــى مَــكَــانٍ وَإنْ طَــا
بَ وَلَا يُــمْــكِــنُ الــمَــكَــانَ الــرَّحِــيــلُ[١]

كُــلَّــمَــا رَحَّــبَــتْ بِــنَــا الــرَّوْضُ قُــلْــنَــا
حَــلَــبٌ قَــصْــدُنَــا وَأَنْــتِ الــسَّــبِــيــلُ[٢]

فِــيــكِ مَــرْعَــى جِــيَــادِنَــا وَالــمَــطَــايَــا
وَإلَــيْــهَــا وَجِــيــفُــنَــا وَالــذَّمِــيــلُ[٣]

وَالــمُــسَــمَّــوْنَ بِــالأمِــيــرِ كَــثِــيــرٌ
وَالأَمِــيــرُ الَّــذِي بِــهَــا الــمَــأْمُــولُ[٤]

الَّــذِي زُلْــتُ عَــنْــهُ شَــرْقــاً وَغَــرْبــاً
وَنَــدَاهُ مُــقَــابِــلِــي مَــا يَــزُولُ[٥]

= الطريق التي تفصله عن الممدوح، ومع ذلك يسأل عن طول الطريق استئناساً، وحبًّا بمن سيلقاه، وهو يودّ لو يطير إليه بأسرع وقت ممكن، وفي السؤال دلالة الحبّ والشوق، فإذا تلقّى المرء الجواب المرجوّ الشافي أحسّ طمأنينة، فسرّى ذلك عن نفسه، فإذا بالطريق تنطوي، والمسافات تقترب.

(١) يتكلّم الشاعر بلسان نون الجماعة، يقرّر أنه لا يُطيل بقاءه في مكان واحد ولو أعجبه، فمقصده بعيد عن ذلك المكان، فلا عودة إليه ولا لقاء به، والمكان لا يرحل مصاحباً للشاعر. وتلك حقيقة أن الزمان والمكان إذا خلا منهما المرء لا يرجعان أبداً.

(٢) وردت الأبيات الثلاثة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٤. الروض، الواحدة روضة: الأرض تُغطيها أشجار وزهر. الطريق طويل، وثمّة محطات تُؤدي كلها إلى حلب عاصمة سيف الدولة ممدوح الشاعر. ينزل الركب في تلك المحطّات لأخذ قسط من الراحة، فيجد ما يسرّ ويُريح النفس، ويدعو إلى الاستقرار في تلك الأمكنة، ويكون الإغراء قوياً، ولكن وجهة سير الشاعر هي الأهم.

(٣) يُخاطب الشاعر تلك الأمكنة بأنها أفضل مرعى للخيل والجمال في طريقه إلى مدينة حلب التي يستعين بالخيول تنهب الأرض بوجيفها، والجمال بسرعتها للوصول إليها بلا توقّف.

(٤) و (٥) يعرّض الشاعر بالأمراء، وهم كثر، ولكن واحداً منهم في حلب هو المرتجى لجوده وشجاعته وأصالة نسبه، ورغم رحيل المتنبي يضرب في جنبات الأرض، بشرقها وغربها، فقد كانت عطايا الأمير تأتيه تترى رغم انقطاعه عنه.

وَمَعِي أَيْنَمَا سَلَكْتُ كأنِّي
كُلُّ وَجْهٍ لَهُ بِوَجْهِي كَفِيلُ (١)
وَإِذَا الْعَذْلُ فِي النَّدَى زَارَ سَمْعاً
فَفَدَاهُ الْعَذُولُ وَالْمَعْذُولُ (٢)
وَمَوَالٍ تُحْيِيهِم مِنْ يَدَيْهِ
نِعَمٌ غَيْرُهُمْ بِهَا مَقْتُولُ (٣)
فَرَسٌ سَابِحٌ وَرُمْحٌ طَوِيلٌ
وَدِلَاصٌ زَغْفٌ وَسَيْفٌ صَقِيلُ (٤)
كُلَّمَا صَبَّحَتْ دِيَارَ عَدُوٍّ
قَالَ تِلْكَ الْغُيُوثُ هٰذِي السُّيُولُ (٥)
دَهِمَتْهُ تُطَايِرُ الزَّرَدَ الْمُحْـ
كَمَ عَنْهُ كَمَا يَطِيرُ النَّسِيلُ (٦)

---

(١) سلك الطريق: مشى فيها. الكفيل: الضامن. يذكر الشاعر أن إحسان الأمير إليه يتبعه حيثما توجّه، فما من طريق سلكه إلّا وجد فيه من ندى الأمير مالاً ومتاعاً.

(٢) العذل: الملامة. يُندّد الشاعر بمن يلوم في الجود والإكثار منه ومن عمل برأي اللائم، والأمير لا يُصغي لأمثال تلك النصائح، فلا يهتمّ بالنصيحة ولا بقائلها، إنهما فداء له.

(٣) و (٤) الموالي: العبيد والأولياء. يذكر الشاعر أن موالي الأمير ينعمون بعطاياه ورفده منها: الفرس السريع العدو وكأنه يسبح في جريه، والرمح الطويل، والدلاص من الدروع البرّاقة الملساء اللينة المتقنة النسج والسيوف البتّارة الصقيلة، فيستعين هؤلاء بها لقتال أعدائه بها فيقتلونهم.

(٥) الغيوث، الواحد غيث: الأمطار. يتحدّث الشاعر عن دور موالي الأمير، فشأنهم الدائم الغارات على الأعداء يُصبحونهم بها نهباً وقتلاً ودماراً، فإذا بالأمير يستبشر بالغنى، إنه غيث عميم سببه هؤلاء الموالي.

(٦) دهمته: فاجأته. الزرد: حلق الدرع. المحكم: المتقن الصنعة. النسيل: ما يقع من نسج الثوب وسواه. يصف الشاعر أفعال الموالي في أعدائهم، إنهم يبطشون بهم بعنف، فيكون منهم قتلى وضرب ينثر أشلاءهم ويقطع دروعهم فلا تردّ عنهم أذى، فإذا بها كأنها ريش يتطاير أو نتف ثوب يُمزّق بقوّة وتتناثر أجزاؤه.

تَـقْـنِـصُ ٱلْـخَـيْـلَ خَـيْـلُـهُ قُـنُـصَ الْـوَحْـ
شِ وَيَـسْـتَـأْسِـرُ ٱلْـخَـمِـيـسَ الـرَّعِـيـلُ(١)

وَإِذَا ٱلْـحَـرْبُ أَعْـرَضَـتْ زَعَـمَ ٱلْـهَـوْ
لُ لِـعَـيْـنَـيْـهِ أَنَّـهُ تَـهْـوِيـلُ(٢)

وَإِذَا صَـحَّ فَـالـزَّمَـانُ صَـحِـيـحٌ
وَإِذَا ٱعْـتَـلَّ فَـالـزَّمَـانُ عَـلِـيـلُ(٣)

وَإِذَا غَـابَ وَجْـهُـهُ عَـنْ مَـكَـانٍ
فَـبِـهِ مِـنْ ثَـنَـاهُ وَجْـهٌ جَـمِـيـلُ(٤)

لَـيْـسَ إِلَّاكَ يَـا عَـلِـيُّ هُـمَـامٌ
سَـيْـفُـهُ دُونَ عِـرْضِـهِ مَـسْـلُـولُ(٥)

---

(١) قنص: اصطاد. يستأسر: يأسر. الخميس: الجيش العظيم المؤلف من فرق خمس. الرعيل: القطعة من الخيل. يُنوّه الشاعر بحسن حظّ الأمير، فخيوله تصطاد خيول جيوش أعدائه كأنها وحوش ضارية ويقع فرسانها أسرى بأيدي فرسان الأمير، لذا فالرعيل من جنده يأسر خميساً عظيماً بأفراده ومعداته.

(٢) أعرضت: قامت. الهول: الخوف. التهويل: الإرعاب، يُشيد الشاعر بشجاعة الأمير وصبره وتفاؤله وثقته بانتصاره في حروبه، لذا فإذا كانت الحرب استبشر بالنصر، رغم ما يبدو منها من قسوة وهول ورعب، فإنه يخوضها دون خوف مستبشراً بالنصر، فيكون له ما أراد.

(٣) اعتل: مرض. يُنوّه الشاعر بأن الزمان طوع إرادة الأمير وذلك من حسن حظّه، فحالما تصحّ إرادة سيف الدولة، فالزمان عون لها، وإذا تغيّر الأمير فلا بدّ من تغيّر حال الزمان؛ فإنه طوع إرادته في كلّ حال.

(٤) الثناء: المدح والصيت الحسن. إنه الصيت الحسن فحيثما رحل الأمير حلّ الثناء الحسن، وبقيت أطيافه تنشر عبير رزقه وفضله في المكان الراحل عنه؛ فالناس يلهجون بحمده ويُشيدون بمزاياه وأخلاقه.

(٥) الهمام: الملك العظيم ذو الهمّة العالية. يُخاطب الشاعر الأمير؛ إنه عليّ ذلك الملك الذي يحمي بسيفه عرضه ويصون مملكته دون سائر الملوك الذين يتّخذون من يحميهم من جند مرتزقة، فهؤلاء جبناء لا يستحقّون مراكزهم، وعليّ شجاع يحتلّ مركزه بجدارة.

كَـيْـفَ لَا تَـأْمَـنُ الْـعِـرَاقُ وَمِـصْـرٌ
وَسَـرَايَـاكَ دُونَـهَـا وَالْـخُـيُـولُ؟[١]

لَـوْ تَـحَـرَّفْـتَ عَـنْ طَـرِيـقِ الْأَعَـادِي
رَبَـطَ الـسِّـدْرُ خَـيْـلَـهُـمْ وَالـنَّـخِـيـلُ[٢]

وَدَرَى مَـنْ أَعَـزَّهُ الـدَّفْـعُ عَـنْـهُ
فِـيـهِـمَـا أَنَّـهُ الْـحَـقِـيـرُ الـذَّلِـيـلُ[٣]

أَنْـتَ طُـولَ الْـحَـيَـاةِ لِـلـرُّومِ غَـازٍ
فَـمَـتَـى الـوَعْـدُ أَنْ يَـكُـونَ الـقُـفُـولُ[٤]

وَسِـوَى الـرُّومِ خَـلْـفَ ظَـهْـرِكَ رُومٌ
فَـعَـلَـى أَيِّ جَـانِـبَـيْـكَ تَـمِـيـلُ[٥]

قَـعَـدَ الـنَّـاسُ كُـلُّـهُـمْ عَـنْ مَـسَـاعِـيـ
ـكَ وَقَـامَـتْ بِـهَـا الْـقَـنَـا وَالـنُّـصُـولُ[٦]

---

(١) السرايا، الواحدة سرية: الفرقة من الجيش. إنه الحامي الحقيقي لبلاد العراق ومصر، فكيف لا يطمئن أهلهما من غدر الروم وفيهم بطل يعمل سيفه وجيشه يحمي الأعراض والأرض.

(٢) و (٣) تحرّف: مال. السدر: شجر النبق. يفترض الشاعر لو أن الأمير تخلّى عن غزوه بلاد الروم لانقضّ هؤلاء على ديار الإسلام وربطوا خيولهم في شجر السدر والنخيل، وهو يغمز من قناة أمراء وملوك تلك النواحي وتخاذلهم وجبنهم؛ فهم لا يتحرّكون على الأقلّ للدفاع عن أنفسهم، ولولا وجود الأمير لذاق هؤلاء الذلّ بألوانه وأشكاله، سواء أكانوا في مصر أم في العراق؟

(٤) يُخاطب الشاعر الأمير بأنه مستمرّ بغزوّ الروم، فلا يعود من غزاتهم حتى يرجع يغزوهم من جديد، فمتى يكون الرجوع؟ ومن حاله كذلك فقفوله يعني الموت بالنسبة إليه.

(٥) يلفت الشاعر نظر الأمير إلى أنه محاط بالأعداء من كلّ جانب، فالروم أعداء الدين والأرض في بلادهم، وفي بلاد العرب هناك بنو بويه المستأثرون بالحكم والتسلّط على العباد، وهم شرّ من الروم في جورهم وظلمهم، فيسأل الأمير إلى أيهم توجّه سيفك؟

(٦) المساعي، الواحدة مسعاة. النصول، الواحد نصل: حدّ السيف. يُشيد الشاعر =

مَـا الَّـذِي عِـنْـدَهُ تُـدَارُ الـمَـنَـايَـا
كَـالَّـذِي عِـنْـدَهُ تُـدَارُ الـشَّـمُـولُ[١]

لَـسْـتُ أَرْضَـى بِـأَنْ تَـكُـونَ جَـوَاداً
وَزَمَـانِـي بِـأَنْ أَرَاكَ بَـخِـيـلُ[٢]

نَـغَّـصَ الْـبُـعْـدُ عَـنْـكَ قُـرْبَ الْـعَـطَـايَـا
مَـرْتَـعِـي مُـخْـصِـبٌ وَجِـسْـمِـي هَـزِيـلُ[٣]

إنْ تَـبَـوَّأْتُ غَـيْـرَ دُنْـيَـايَ دَاراً
وَأَتَـانِـي نَـيْـلٌ فَـأَنْـتَ الْـمُـنِـيـلُ[٤]

مِـنْ عَـبِـيـدِي إنْ عِـشْـتَ لِـي أَلْـفُ كَـافُـو
رٍ وَلِـي مِـنْ نَـدَاكَ رِيـفٌ وَنِـيـلُ[٥]

= بأعمال الأمير البطولية، بينما سواه من الملوك والأمراء لا يهمه سوى نفسه وتسلّطه على رعيته، وفي هذا الجوّ المحموم هناك من يقوم بأعباء الدفاع عن الأرض والعرض، إنه سيف الدولة.

(١) المنايا، الواحدة منيّة. الشمول: من أسماء الخمرة. إنها مناقضة متعارضة، يُشنّع الشاعر على الحكام الذين يهدرون أعمارهم في المسرات وتناول الخمرة، ويمدح من يضطلع بأعباء الدفاع عن الأرض والعرض، ويقدم الشهداء ويكيد الأعداء في سوق المنايا.

(٢) يُقرّ الشاعر بأنه لن يقف مكتوف الأيدي، فجود الأمير يتوالى في كلّ ظرف وحالة؛ لذا فلن يتوانى عن الإسراع والمثول بين يديه ولن يكون بخيلاً أو سلبياً لقاء كلّ ذلك الإكرام.

(٣) المرتع: المرعى. نغّص العيش: كدّره، الهزيل: النحيل. يُقرّ الشاعر أن جود الأمير جعله يعيش في بحبوحة من العيش يرتع فيها كما يحلو له، ومع ذلك فإنه هزيل، ينقصه شيء واحد رؤية وجه الأمير وسوف يمثل بين يديه عاجلاً.

(٤) تبوّأ: اعتلى ونزل. النيل: العطاء. المنيل: المعطي والواهب. ومن مغالاة الشاعر أن عطايا الأمير تُلاحقه حيثما ارتحل، حتى ولو ارتحل إلى عالم آخر غير الأرض لأتاه من رفد الأمير العطايا، وبلا شكّ سيكون هو المرفد.

(٥) يندّد الشاعر بكافور ويُنوّه بكرم الأمير، فلو قُدّر له أن يعيش طويلاً لاستملك ألف عبد على شاكلة كافور، ذلك العبد الذي أذاق الشاعر آلاماً وعذابات، ولحصل على عوض ما أمله من نيل مصر وريفها من فيض كرم الأمير.

مَـــا أُبَــالِـــي إِذَا ٱتَّــقَــتْــكَ الــرَّزَايَــا
مَــنْ دَهَــتْــهُ حُــبُــولُــهَــا وَٱلْـخُـبُــولُ(١)

لا خيل عندك تهديها..

قدم أبو شجاع فاتك المعروف بالمجنون من الفيوم إلى مصر فوصل أبا الطيب وحمل إليه هدية قيمتها ألف دينار فقال يمدحه:

[البسيط]

لا خَـيْـلَ عِـنْـدَكَ تُـهْـدِيـهَـا وَلَا مَـالُ
فَـلْـيُـسْـعِـدِ الـنُّـطْـقُ إِنْ لَـمْ تُـسْـعِـدِ الْـحَـالُ(٢)
وَاجْـزِ الأَمِـيـرَ الَّـذِي نُـعْـمَـاهُ فَـاجِـئَـةٌ
بِـغَـيْـرِ قَـوْلٍ وَنُـعْـمَـى الـنـاسِ أَقْـوَالُ(٣)
فَـرُبَّـمَـا جَـزَتِ الإِحْـسَـانَ مُـولِـيَـهُ
خَـرِيـدَةٌ مِـنْ عَـذَارَى ٱلْـحَـيِّ مِـكْـسَـالُ(٤)

---

(١) اتّقى: تجنّب. الرزايا، الواحدة رزية: المصائب والويلات. الحبول، الواحد حِبل: الواهي. الخبول، الواحد خبل: فساد العقل. يُقرّ الشاعر أنه لن يهتم لأحد سوى للأمير ويتمنّى له ألّا يُصيبه مكروه وأن تجنّبه المصائب، فهو أمله في هذه الحياة لأنه مصدر خير عميم.

(٢) ورد البيت في: معاهد التنصيص، للعباسي ٢: ٢٥٤. الإسعاد: المساعدة. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع وجداني وحوار ذاتي، إنه لا يملك مالاً ولا خيلاً يُقدّمها إلى من أسدى إليه عملاً جليلاً، والبديل قصيدة عنوان شكر وحبّ وتقدير.

(٣) النعمى: مدّ يد العون والصنيعة. إنه جزاء معنوي على ما تقدّم من إحسان ومدّ يد عون لامرئ في ديار غربة، فكان على الشاعر أن يُعبّر عن جميل شكره بقصيدة لمن لم يطلب بديلاً، ولم يستعن به لدفع مكروه؛ ومعظم الناس مآثرهم أقوال تخلو بلا أفعال، وكأنه يغمز من قناة كافور، إنه كثير الوعد مخلاف.

(٤) يروى «جزى» بدلاً من «جزت» جازى: كافأ، أولى: أعطى. الخريدة: الحسناء الحييّة. المكسال، من النسوة: الفاترة في حركتها. يُردف الشاعر متمًّا ما بدأ به أن مكافأة المحسن على إحسانه قصيدة بمثابة شابة حسناء حييّة فاترة العينين يُغالبها النعاس، فهذا أقلّ ما يمكن الشاعر أن يُقدّمه لممدوحه في حالة كهذه.

وَإنْ تكُنْ مُحْكَمَاتُ الشُّكْلِ تَمْنَعُنِي
ظُهُورَ جَرْيٍ فَلِي فِيهِنَّ تَصْهَالُ(١)
وَمَا شَكَرْتُ لأنَّ المَالَ فَرَّحَنِي
سِيَّانِ عِنْدِيَ إكْثَارٌ وَإقْلَالُ(٢)
لٰكِنْ رَأيْتُ قَبِيحاً أنْ يُجَادَ لَنَا،
وَأنَّنَا بِقَضَاءِ ٱلْحَقِّ بُخَّالُ(٣)
فكُنْتُ مَنْبِتَ رَوْضِ الْحَزْنِ بَاكَرَهُ
غَيْثٌ بَغَيْرِ سِبَاخِ ٱلأرْضِ هَطَّالُ(٤)
غَيْثٌ يُبَيِّنُ لِلنُّظَّارِ مَوْقِعُهُ
أنَّ الْغُيُوثَ بِمَا تَأْتِيهِ جُهَّالُ(٥)

---

(١) الشُّكل، الواحد شكال: الحبل تُشدّ به قوائم الدابة. الظهور، الواحد ظهر. التصهال: تصويت الحصان أي الصهيل. يتعامل الشاعر مع ممدوحه بحذر، فثمّة أمر يحول دون المكاشفة والمصارحة، إنه كافور من يمنع الشاعر عن مدح أبي شجاع لخلافهما، لذا كان عليه أن يلجأ إلى ذلك بالحيلة، فإن لم يكن بمقدوره فعلى الأقل عليه أن يسمع صوته.

(٢) سيان: سواء. الإكثار: الغنى. الإقلال: الفقر، يُقرّ الشاعر أن مدحه لأبي شجاع ليس باعثه المال؛ فالمال لا قيمة له، إذا كان المرء يعيش بما يُشبه السجن، فخطواته تُعدّ عليه حتى أنفاسه، لذا فالغنى والفقر في حالة كهذه لا قيمة لهما، فهما سيّان في نظر الشاعر.

(٣) بُخّال، الواحد بخيل. يُعلّل الشاعر سبب إقدامه على مدح أبي شجاع، أنه من سوء العرفان ألّا يردّ المرء حسن الأفعال بشكر، هو أقلّ ما يستطيع المرء تقديمه، وإلّا لاعتبر ذلك بُخلاً والبخل مذموم، وبخاصة إذا كان ردًّا على إحسان، فيُعدّ ذلك من لؤم الطباع.

(٤) الحزن: أرض المنحدرات الصعبة. السباخ من الأراضي: التي لا تصلح للزراعة المغمورة بالمياه المالحة. هطّال: غزيرة الأمطار. لقد استجاب الشاعر فلبّى نداء الكرم، فكان بمثابة أرض صعبة المرتقى أصابها وابل من مطر غزير، فأنبتت زهراً وعشباً أخضر، ولم تكن أرض سباخ رغم ما فيها من ماء، فماؤها آسن أماتت ملوحته فيه الحياة.

(٥) إنه غيث عميم الفائدة، يبدو من بعيد، فيه نضرة وجمال، قد أصاب أرض خير، =

لَا يُدْرِكُ الْمَجْدَ إِلَّا سَيِّدٌ فَطِنٌ
لِمَا يَشُقُّ عَلَى السَّادَاتِ فَعَّالُ[١]
لَا وَارِثٌ جَهِلَتْ يُمْنَاهُ مَا وَهَبَتْ
وَلَا كَسُوبٌ بِغَيْرِ السَّيْفِ سَآلُ[٢]
قَالَ الزَّمَانُ لَهُ قَوْلاً فَأَفْهَمَهُ
إِنَّ الزَّمَانَ عَلَى الإِمْسَاكِ عَذَّالُ[٣]
تَدْرِي الْقَنَاةُ إِذَا ٱهْتَزَّتْ بِرَاحَتِهِ
أَنَّ الشَّقِيَّ بِهَا خَيْلٌ وَأَبْطَالُ[٤]
كَفَاتِكٍ وَدُخولُ الْكَافِ مَنْقَصَةٌ
كَالشَّمْسِ قُلْتُ وَمَا لِلشَّمْسِ أَمْثَالُ[٥]

= والناظر يرى ذلك جلياً في ردّ الشاعر على الإحسان بأحسن منه إن قدر على ذلك، والشاعر يغمز من قناة كافور، فمن كان كريماً إلى هذا الحدّ فالواجب إكرامه وتشجيعه على فعل الخيرات بتوليه مراكز تُساعده على الإنفاق والجود.

(١) يشقّ: يصعب القيام به. الفطن: الذكي، الأريب. الذكاء والأريحيّة من المؤهلات التي تُساعد المرء على تبوّء أعلى المراكز، فالمجد ينتظر أمثال هؤلاء ليتربّعوا على عرشه، وهذا الموهوب سبّاق لغيره من السادات، وهم، مع الأسف كثر، ولكنهم يفتقدون القدرة إلى عظيم الفعال كشأن أبي شجاع.

(٢) سأآل: كثير الطلب. يمدح الشاعر والد أبي شجاع، فقد كان كريماً لم يترك لولده ما يرثه، ولقد حصّل أبو شجاع ما حصّله بجهده، ولطالما كافح وقاتل بسيفه حتى حصل على غناه، ولكثرة ما أنفق لم تدر يمناه ما أنفق، ولم يكن كسبه بكثرة طلبه، فلم يكن سأآلاً.

(٣) عذال: كثير اللوم. يرى الشاعر أن عبر الزمان لا تُعدّ ولا تُحصى، فمنها يستقي البشر عاداتهم وتقاليدهم، لقد رأى أبو شجاع أن المحامد والذكر لا يُبقيها إلّا الجود، فتاجر بهذه التجارة، ومنطق الزمان أنه يُزري بالبخلاء على أنفسهم وعلى غيرهم بخلهم ومكالبهم على جمع المال دون إنفاقه.

(٤) القناة: الرمح. يمدح الشاعر قوة أبي شجاع، لقد اعتاد رمحه إذا هزّه هزّة الغضب لا بدّ أن يهلك ويشقى به من الفرسان كثيرون، فيفقد الفرس فارسه.

(٥) يمدح الشاعر فاتكاً بأنه لا شبيه له تماماً كالشمس لا يُشبهها مخلوق، وشهرتها بأنها =

أَلْقَائِدِ الأُسْدَ غَذَّتْهَا بَرَاثِنُهُ
بِمِثْلِهَا مِنْ عِدَاهُ وَهْيَ أَشْبَالُ[(١)]

أَلْقَاتِلِ السَّيْفَ في جِسْمِ الْقَتِيلِ بِهِ
وَلِلسُّيُوفِ كما لِلنَّاسِ آجَالُ[(٢)]

تُغِيرُ عَنْهُ عَلَى الْغَارَاتِ هَيْبَتُهُ
وَمَالُهُ بِأَقَاصِي الأَرْضِ أَهْمَالُ[(٣)]

لَهُ مِنَ الْوَحْشِ مَا ٱخْتَارَتْ أَسِنَّتُهُ
عَيْرٌ وَهَيْقٌ وَخَنْسَاءٌ وَذَيَّالُ[(٤)]

تُمْسِي الضُّيُوفُ مُشَهَّاةً بِعَقْوَتِهِ
كأَنَّ أَوْقَاتَهَا في الطِّيبِ آصَالُ[(٥)]

= معروفة لسائر البشر بالضوء والدفء، وكذلك أبو شجاع مشهور بالجود والشجاعة والنبل والسيادة.

(١) البراثن: المخالب. الأشبال، الواحد شبل: أولاد الأسد. يمدح الشاعر أبا شجاع بأنه أسد شجاع ربّى أشبالاً، بفضله نشأوا تحت رعايته وبسلاحه تغذّوا، فقد كان يقضي على أعدائه ويأتي أشباله بما يغنم منهم حتى كانوا أسوداً يقدرون على تحصيل أرزاقهم بنفس الطريقة.

(٢) ومن عظم أبي شجاع وقوّته العظيمة أنه يقضي على عدوّه بسيفه، ولعظم ضربته ينتج عنها قتيلان: العدوّ والسيف، فقد انكسر في جسد العدوّ، فكان مقتولاً، لذا للسيوف أعمار وآجال تماماً كما للبشر.

(٣) لقد بعُد صيت أبي شجاع، وأصبحت شجاعته على كلّ لسان فهابه العدوّ قبل الصديق، فإذا بهيبته تأتي بغنائم المغيرين يضعونها بين يديه متنازلين له عنها بحبّ واسترضاءً له، فضلاً عن أنه يترك ما تحت يديه ترعى حيث شاءت في كلّ وقت فلا يقربها أحد بسوء خشية غضبه.

(٤) العير: الحمار الوحشي. الهيق: الظليم، ذكر النعام. الخنساء: البقرة الوحشية، الذيّال: الثور الوحشي. يُعطي أبو شجاع لكلّ وقت من نفسه: فوقت للقتال حيث الجدّ، فيظهر على حقيقته، ووقت للهو، يمضيه بمطاردة الوحشي من الحيوانات، فيختار ما يحلو له من قطعانها، وسنانه لا يُخطئ ما يُريد.

(٥) مشهّاة: تحصل على ما ترغب فيه. العقوة: الساحة. الآصال: الوقت عند الغروب. =

لَـوِ اشْـتَـهَـتْ لَـحْـمَ قَـارِيـهَـا لَـبَـادَرَهَـا
خَـرَادِلٌ مِـنْـهُ فـي الـشِّـيـزَى وَأَوْصَـالُ(١)

لَا يَــعْــرِفُ الــرُّزْءَ فِــي مَــالٍ وَلَا وَلَــدٍ
إِلَّا إِذَا حَـفَـزَ الْأَضْـيَـافَ تَـرْحَـالُ(٢)

يُرْوِي صَدَى الْأَرْضِ مِنْ فَضْلَاتِ مَا شَرِبُوا
مَحْضُ اللِّقَاحِ وَصَافِي اللَّوْنِ سَلْسَالُ(٣)

تَـقْـرِي صَـوَارِمُـهُ الـسَّـاعَـاتِ عَـبْـطَ دَمٍ
كَـأَنَّـمَـا الـسَّـاعُ نُـزَّالٌ وَقُـفَّـالُ(٤)

= يمتاز أبو شجاع بحسن الضيافة، يقوم على خدمة أضيافه بنفسه، فيبشّ بوجوههم ويُشرف على خدمتهم، فيقدّم لهم ما يشتهون من المآكل على أنواعها، فإذا بإحساس القوم بأنهم ينعمون بخير الأوقات عندهم بآصائل نهاراتهم.

(١) القاري: المضيف. الخرادل: القطع. الشيزى: القصاع المصنوعة من خشب أسود. الأوصال: المفاصل. ولنتصوّر مدى الجود لدى أبي شجاع، فلو أن أحد الضيوف تجرّأ وطلب لحمه لسارع إلى وضعه قطعاً ومفاصل في قصاع كبيرة صنعت من خشب أسود.

(٢) الرزء: المصيبة والفاجعة. حفزه: دفعه وحثّه. يُردف الشاعر منوّهاً بعظم كرم أبي شجاع، فالمصيبة تتمثّل له بارتحال ضيوفه من دياره، وهذا يُؤلمه أيّما ألم كأنه فقد ماله أو ولده، فتستولي عليه الكآبة ويرحل عنه الأنس.

(٣) يروى: يشبع غلّة العطشان. الصدى: العطش. المحض من كلّ شيء: خالصه. اللقاح، الواحدة لقحة: الناقة الحلوب. يقصد بصافي اللون: الخمرة. السلسال: الذي يستسيغه الحلق فيجري فيه سهلاً. يُتابع الشاعر الحديث عن كرم أبي شجاع، فهو يقدّم لضيوفه الخمرة واللبن الخالص، وحالما يرحل الأضياف يُسارع أبو شجاع إلى سكب ما بقي من كؤوسهم على الأرض فترتوي وتنتشي بما يصيبها من كرمه تماماً كما يفعل مع البشر يفعل مع الأرض.

(٤) تقري: تضيف. الصوارم، الواحد صارم: السيوف البتَّارة. العبط: الطري من اللحم. الساع، الواحدة ساعة. النزال: الضيف النازل. القفال: الضيف الراحل. يُتابع الشاعر حديثه عن فن الضيافة التي يقدّمها أبو شجاع لضيوفه، سواء منهم النازل أو الراحل؛ إنه بمضي الساعات يقطّع لهم اللحم شرائح، وهو دائم الذبح الطازج الجديد، فلا يقدّم لهم ما بقي من القديم منه.

تَـجْـرِي الـنُّـفُـوسُ حَـوَالَـيْـهِ مُـخَـلَّـطَـةً
مِـنْـهَـا عُـدَاةٌ وَأَغْـنَـامٌ وَآبَـالُ(١)

لَا يَـحْـرِمُ الْـبُـعْـدُ أَهْـلَ الْـبُـعْـدِ نَـائِـلَـهُ
وَغَـيْـرُ عَـاجِـزَةٍ عَـنْـهُ الأُطَـيْـفَـالُ(٢)

أَمْـضَـى الـفَـرِيـقَـيْـنِ فِـي أَقْـرَانِـهِ ظُـبَـةً
وَالْـبِـيـضُ هَـادِيَـةٌ وَالـسُّـمْـرُ ضُـلَّالُ(٣)

يُـرِيـكَ مَـخْـبَـرُهُ أَضْـعَـافَ مَـنْـظَـرِهِ
بَـيْـنَ الـرِّجَـالِ وَفِـيـهَـا الْـمَـاءُ وَالآلُ(٤)

وَقَـدْ يُـلَـقِّـبُـهُ الْـمَـجْـنُـونَ حَـاسِـدُهُ
إِذَا اخْـتَـلَـطْـنَ وَبَـعْـضُ الْـعَـقْـلِ عُـقَّـالُ(٥)

---

(١) عداة: أعداء. آبال: جمع إبل، إنها العادة المتأصّلة في أبي شجاع، ففي نفس الوقت يُطيح سيفه بأعدائه وأغنامه وإبله، فيوفي كل مخلوق حقّه من الرعاية أو الانتقام، فإذا بالدماء قد اختلطت فلا يستطيع تمييز دم إنساني عن دماء المواشي.

(٢) الأطيفال، الواحد طُفيل تصغير طفل. يُنوّه الشاعر بجود أبي شجاع الذي يشمل كلّ الناس، فالبعداء عنه مكانياً يشملهم حتى صغار الأطفال لا ينسى إعانتهم، وهذا يجعله محبوباً من سائر الناس.

(٣) القرن، بكسر القاف: الكفوء. الظبة: حدّ السيف. البيض: السيوف. هادية: مهتدية. السمر: الرماح. يتحدّث الشاعر عن أبي شجاع، إنه أقدر من سواه في القتال؛ يستعمل سيفه فيكون أقرانه من ضحاياه، فعزمه قوي وظبة سيفه قاطعة وقد اعتادت على إصابة أهدافها، بينما الرماح قد تخطئ أهدافها لبعد ما بينها وبين ضحاياها.

(٤) الآل: السراب. يتحدّث الشاعر عن تواضع أبي شجاع، فمن تواضعه بساطة في مظهره الخارجي، في اللباس والتعامل مع سائر الخلق، ولكن أعماله تنبئ عن حقيقة معدنه وعلو شأنه بين سائر الرجال، والرجال نوعان: منهم من هو كالماء في مدلوله وصفاته التي تعني الحياة بمعناها الإنساني الواسع، ومنهم من هو كالسراب صورة لا مدلول له في عالم الرجولة.

(٥) يقصد بـ«اختلطن»: السيوف والرماح. الجنون إفراط في اللاتعقل، ولا يُحمد =

يَـرْمِـي بِـهَـا الْـجَـيْـشَ لَا بُـدَّ لَـهُ وَلَـهَـا
مِـنْ شَـقِّـهِ وَلَـوَ انَّ الْـجَـيْـشَ أَجْـبَـالُ (١)

إِذَا الْـعِـدَى نَـشِـبَـتْ فِـيـهِـمْ مَـخَـالِـبُـهُ
لَـمْ يَـجْـتَـمِـعْ لَـهُـمُ حِـلْـمٌ وَرِئْـبَـالِ (٢)

يَـرُوعُـهُـمْ مِـنْـهُ دَهْـرٌ صَـرْفُـهُ أَبَـداً
مُـجَـاهِـرٌ وَصُـرُوفُ الـدَّهْـرِ تَـغْـتَـالُ (٣)

أَنَـالَـهُ الـشَّـرَفَ الْأَعْـلَـى تَـقَـدُّمُـهُ
فَـمَـا الَّـذِي بِـتَـوَقِّـي مَـا أَتَـى نَـالُـوا (٤)

= صاحبه، بل يُسخر منه، ولكن الأمر مع أبي شجاع مختلف كلياً، إنه بطل شجاع واثق بشجاعته وسيفه، والتعقّل في القتال محمود إذا كان الأمر يتطلّب رسم الخطط الحربية، أما أثناء القتال عندما تلتقي السيوف بالسيوف والرماح بالرماح، فلا بدّ للبطل من مغامرة وحتى من تهوّر في بعض الحالات يُؤدي إلى النصر، فنعم جنون كهذا.

(١) يُردف الشاعر حديثه عن ظاهرة الجنون لدى أبي شجاع، إنه يرمي بجنونه هذا الجيش العدوّ بقوّته وقدرته القتالية، فيُحسن استعمال سيفه في شقّ صفوف الأعداء مهما عظم عددهم وتواترت الأبطال عليه.

(٢) نشبت: تشبّثت. المخالب: الأظفار. الحلم: الروية والتعقّل. الرئبال: من أسماء الأسد. يُردف الشاعر حديثه عن أبي شجاع، إنه يتخلّى كليًّا عن التعقّل والحلم في ساحات القتال، فإذا اشتدت المعركة ونشب القتال كان كالأسد ينشب مخالبه في أعدائه، فلا الرحمة تعرف باباً إلى قلبه، ولا العقل يردعه بل العكس فالعقل يأمره بالقضاء على عدوّه الذي يتربّص به ويتوقّع منه هفوة تُعينه على القضاء عليه.

(٣) يروعهم: يرعبهم. صرفه: تبدّل أحواله. الاغتيال: القتل غدراً. يمدح الشاعر شجاعة أبي شجاع؛ إنه لا يعرف الغدر والمواربة، ولشجاعته فإنه يُجاهر بعداوته لمن يُعادي، وصروف الدهر تستعين بممدوحه لتمارس لعبتها فتغتال الناس على حين غِرّة، على خلاف أبي شجاع لا يُمارس هذه اللعبة بقذارتها.

(٤) يُقارن الشاعر بين ممدوحه وأعدائه، وهو لا يزال يُدافع عنه، فلقد أعانه تهوّره هذا في قتاله على بلوغ أعلى قمم المجد، بينما أعداؤه لا يزالون يقبعون في قاع الحياة لا يتزحزحون عن جبنهم وحقارتهم ولا همّ لهم سوى التقوّل على ممدوحه واختراع الأكاذيب والتشنيع عليه؛ إنها عادة السفلة من الرعاع.

إِذَا الْـمُـلُـوكُ تَـحَـلَّـتْ كَـانَ حِـلْـيَـتَـهُ
مُـهَـنَّـدٌ وَأَصَـمُّ الْـكَـعْـبِ عَـسَّـالُ (١)
أَبُـو شُـجَـاعٍ أَبُـو الـشُّـجْـعَـانِ قَـاطِـبَـةً
هَـوْلٌ نَـمَـتْـهُ مِـنَ الْـهَـيْـجَـاءِ أَهْـوَالُ (٢)
تَـمَـلَّـكَ الْـحَـمـدَ حَـتَّـى مَـا لِـمُـفْـتَـخِـرٍ
فِـي الْـحَـمْـدِ حَـاءٌ وَلَا مِـيـمٌ وَلَا دَالُ (٣)
عَـلَـيْـهِ مِـنْـهُ سَـرَابِـيـلٌ مُـضَـاعَـفَـةٌ
وَقَـدْ كَـفَـاهُ مِـنَ الْـمَـاذِيِّ سِـرْبَـالُ (٤)
وَكَـيْـفَ أَسْـتُـرُ مَـا أَوْلَـيْـتَ مِـنْ حَـسَـنٍ
وَقَـدْ غَـمَـرْتَ نَـوَالاً أَيُّـهَـا الـنَّـالُ (٥)

---

(١) المهند: السيف المصنوع في الهند. أصمّ الكعب: الرمح. الأصم: الصلب. العسّال: المهتزّ. يُندّد الشاعر بالملوك، فإنهم يتخذون التيجان دلالة على مراكز لا يستحقّونها، بينما قد استطاع أبو شجاع أن يكون ملكاً غير متوّج بتاج، فقد جعلته شجاعته يتحلّى بسيف هندي ورمح صلب يهتزّ غضباً في حال غضب صاحبه؛ إنها القوّة في مجتمع لا يُقرّ إلّا للأقوياء بالسيادة والرئاسة.

(٢) قاطبة: جميعاً. الهول: الرعب. نمته: نسبته. الهيجاء: الحرب. النسبة إلى الأفعال قد تكون في بعض الأحيان أفضل من الانتساب إلى الأجداد إذا همّة الإنسان قعدت به عن السموّ والطموح، فأبو شجاع تمكن من يكون أبا الشجعان جميعاً لأنه أشجعهم وأبسلهم وأقواهم، ولقد نبت مع النبال والرماح والأهوال في ساحات القتال، فانتسب إليها وانتسبت إليه.

(٣) و (٤) لقد تملّك أبو شجاع الحمد كلّه بمدلولاته المادية والمعنوية، فلم يُبق لسواه مجالاً في الأخذ بفتات منه، فقد استأثر به دون سواه من ملوك وأمراء، وقد تزيّا بسرابيله، فكانت أثوابه مضاعفة، بينما قد اكتفى بدرع ليّنة واحدة يستعين بها في قتاله، رغم دوام مقارعته الأبطال، ولكنه تزيّا بسرابيل عديدة من المكارم أهلته ليمتلك أزمة الحمد.

(٥) أوليت: أعطيت. النوال: الإعطاء. النّال: الكريم جدًّا. يُنوّه الشاعر بكرم أبي شجاع، إنه لو حاول أن يستر ويكفر بما أولاه من إحسان فإنه لن يستطيع لكثرة ما أولاه من نعم حتى غمره منها غنًى، فإذا به يعوم فيها.

لَـطَـفْـتَ رَأيَـكَ فـي بِـرِّي وَتَـكْـرِمَـتِـي
إنَّ الْـكَـرِيـمَ عَـلَـى الْـعَـلْـيَـاءِ يَـحْـتَـالُ[1]

حَـتَّـى غَـدَوْتَ وَلِـلأَخْـبَـارِ تَـجْـوَالُ
وَلِـلْـكَـوَاكِـبِ فـي كَـفَّـيْـكَ آمَـالُ[2]

وَقَـدْ أَطَـالَ ثَـنَـائِـي طُـولُ لَابِـسِـهِ
إنّ الـثَّـنَـاءَ عَـلَـى الـتِّـنْـبَـالِ تِـنْـبَـالُ[3]

إنْ كُـنْـتَ تَـكْـبُـرُ أَنْ تَـخْـتَـالَ فـي بَـشَـرٍ
فَـإِنَّ قَـدْرَكَ فـي الأَقْـدَارِ يَـخْـتَـالُ[4]

كَـأَنَّ نَـفْـسَـكَ لَا تَـرْضَـاكَ صَـاحِـبَـهَـا
إلَّا وَأَنْـتَ عَـلَـى الْـمِـفْـضَـالِ مِـفْـضَـالُ[5]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٣. يلمّح الشاعر إلى برّ أبي شجاع المتواصل يُرفده به بلطف دون إلحاح، والكريم لا تنقصه الحيلة وسعة أفقه لتحصيل ما يبغيه من علو الشأن ما يزيده شرفاً وتكرمة. ممّا حمله على مدح أبي شجاع، فاستأذن كافوراً، فما كان باستطاعته لتوافر الحجج والأسباب التي تحول دون منع الشاعر.

(٢) يُنوّه الشاعر بعلوّ شأن أبي شجاع، فسعيه دؤوب حتى يبلغ أسمى أعالي المجد، وقد طبقت سيرته الآفاق بحسن فعاله في ضروب الخير المتنوّعة، فما من أحد إلّا ويدعو له ويُحسن الثناء عليه، والكواكب بدورها تأمل أن يُرفدها بنوافله وعطاياه.

(٣) التنبال: التكاسل والتقصير. يُنوّه الشاعر بفضل أبي شجاع عليه، فقد حمله على مدحه ما قدّمه له من مساعدات مالية ومعنوية، فإذا بشعره يسمو ويشرئب ويتطاول بقدر ما قدّم أبو شجاع من كرمه، فبقدر ما يكون الفعل جميلاً يكون الثناء عليه جميلاً، فذلك شأن الكرماء بالفعل والقول.

(٤) اختال: مشى مشية اعتزاز وعجب. يمدح الشاعر في أبي شجاع تواضعه؛ فلا يتكبّر على غيره ثقة بمقوّمات شخصيته؛ ولكن قيمته وقدره يختال ويزهو ويفخر بصاحبه على سواه، لأنه حقيقة، أعظم قدراً من سائر الملوك والأمراء الذين يشمخون بأنوفهم بلا سبب وجيه.

(٥) المفضال: كثير الفضل. يمدح الشاعر أبا شجاع؛ إنها نفس تهفو إلى المعالي دائماً؛ =

وَلَا تَـعُـدُّكَ صَـوَّانـاً لِـمُـهْـجَـتِـهَـا
إلَّا وَأَنْـتَ لَـهَـا فـي الـرَّوْعِ بَـذَّالُ (١)
لَـوْلَا الْـمَـشَـقَّـةُ سَـادَ الـنَّـاسُ كُـلُّـهُـمُ
أَلْـجُـودُ يُـفْـقِـرُ وَالْإقْـدَامُ قَـتَّـالُ (٢)
وَإِنَّـمَـا يَـبْـلُـغُ الْإِنْـسَـانُ طَـاقَـتَـهُ
مَـا كُـلُّ مَـاشِـيَـةٍ بِـالـرَّحْـلِ شِـمْـلَالُ (٣)
إنَّـا لَـفِـي زَمَـنٍ تَـرْكُ الْـقَـبِـيـحِ بِـهِ
مِـنْ أَكْـثَـرِ الـنَّـاسِ إحْـسَـانٌ وَإِجْـمَـالُ (٤)
ذِكْـرُ الْـفَـتَـى عُـمْـرُهُ الـثَّـانِـي وَحَـاجَـتُـهُ
مَـا قَـاتَـهُ وَفُـضُـولُ الْـعَـيْـشِ أشْـغَـالُ (٥)

= فطموح الممدوح متأصل فيه تدفعه نفس لا تعرف الوسطية بل تتطلّب منه المزيد حتى يفوق من اشتهر بالفضل فإذا به يسبق أصحاب الفضل بأشواط بعيدة.

(١) المهجة: دم القلب. الروع: المخافة. بذال: كثير العطاء، ومن أسباب رفعة أبي شجاع رغبة نفسه الملحاحة في طلب المعالي تدعوه لخوض غمار الحروب لتحقق ذاتها في عالم البطولة فتقتحم الأهوال فتجتاز تلك التجربة بنجاح.

(٢) يُعقب الشاعر لولا المشقة وتعرّض المرء للأخطار لكان الناس جميعاً سادة، والفرق بين سائر البشر أن السيادة تتطلّب ضريبة غالية الثمن، فعلى المرء أن يجود بماله في وجوه الخير، وبنفسه في ميادين القتال، قد ينجح وقد يُقتل وفي كلا الحالين، فقد حقّق ما يصبو إليه من سؤدد.

(٣) الطاقة: القدرة. الشملال: الناقة السريعة. يلتمس الشاعر العذر لمن حاول تأكيد سيادته ولم يُفلح رغم تقديمه طاقته التي يقدر عليها، ومن هنا فقد أدرك أبو شجاع أعلى درجات الكمال في عالم السيادة، تماماً فليس كلّ ناقة مشت بالرحل شملالاً.

(٤) ورد البيتان الأخيران في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٣. ينعى الشاعر على سوء أحوال البشر، فمن باستطاعته الإساءة إلى الآخرين ولم يضرّهم، فقد أحسن عملاً، فالكثير منهم مجبول على فعل الشرّ.

(٥) يخلص الشاعر إلى حقيقة أن الذكر الحسن للبشر بعد موتهم حياة ثانية تتجدّد بذكرهم وذكر ما قدّموه لأخوانهم في حياتهم، والحقيقة أن البشر يكتفون بما يأكلونه من طعام =

أنبى مكان

استأذنه في الخروج إلى الرملة ليقضي مالاً كتب له به وإنما أراد أن يعرف ما عند الأسود في مسيره فمنعه وحلف عليه أن لا يخرج وقال: نحن نوجه من يقضيه لك. فقال في ذلك:

[الوافر]

أَتَحْلِفُ لا تُكَلِّفُنِي مَسِيراً
إِلَى بَلَدٍ أُحَاوِلُ فِيهِ مَالَا(١)

وَأَنْتَ مُكَلِّفِي أَنْبَى مَكَاناً،
وَأَبْعَدَ شُقَّةً وَأَشَدَّ حَالَا(٢)

إِذَا سِرْنَا عَلَى الْفُسْطَاطِ يَوْماً
فَلَقِّنِيَ الْفَوَارِسَ وَالرِّجَالَا(٣)

لِتَعْلَمَ قَدْرَ مَنْ فَارَقْتَ مِنِّي
وَأَنَّكَ رُمْتَ مِنْ ضَيْمِي مُحَالَا(٤)

= ويلبسونه من لباس وما ينفقونه في سبل الخير، وما تبقّى من أموالهم فهو شغلهم الشاغل الدائم، إنه فضول لا غناء فيه.

(١) يسأل الشاعر كافوراً ردًّا على قسمه أن يُرسل إلى الرملة من يأتيه بمالٍ له أحقاً يفعل ذلك؟

(٢) نبا بالمكان: لم تناسبه الإقامة فيه. الشقة: المسافة البعيدة. يلوم الشاعر ويسأله إذا كان الأمر يتعلّق بخوفه ألّا توافقه الإقامة في المكان الذي ينوي الذهاب، ومخافة أن يتجشم أهوال الطريق ومخاطرها، وهو في الأصل يعاني من الإقامة في مصر، وهو عليه أعسر من مخاطر الرحلة وبعد السفر.

(٣) الفسطاط: مصر القديمة. يُحسّ الشاعر خوف كافور من ذهابه عنه، مخافة لسانه، ألّا يهجوه بعدما يخلص بنفسه، لذا طلب منه أن يصحبه رجاله فيتبعوه، ويُعيدوه إن حاول الفرار، وليكن الجمع فرساناً ورجّالة.

(٤) رمت: أردت. ضيمي: ظلمي. محال: صعب. يُحاول الشاعر طمأنة كافور، بأنه لو أراد الرحيل فلن يستطيع الإمساك به طويلاً، إنه بطل شجاع يرفض الظلم أن يقع عليه، فلو حاول أن يُتبعه بجنده فلن يستطيعوا اللحاق به، فهو بإمكانه الإسراع والتخفّي لو أراد ذلك.

دون الشهد إبر النحل

يمدح أبا الفوارس دلير بن لشكروز وكان قد أتى إلى الكوفة لقتال الخارجي الذي نجم بها من بني كلاب وانصرف الخارجي قبل وصول دلير إليها:

[الطويل]

كَـدَعْـوَاكِ كُـلٌّ يَـدَّعِـي صِـحَّـةَ الْـعَـقْـلِ، وَمَـنْ ذَا الَّـذِي يَـدْرِي بِـمَـا فِـيـهِ مِنْ جَـهْـلِ (١)

لَـهِـنَّـكِ أَوْلَـى لَائِـمٍ بِـمَـلَامَـةٍ، وَأَحْـوَجُ مِـمَّـنْ تَـعْـذُلِـيـنَ إِلى الْـعَـذْلِ (٢)

تَـقُـولِـيـنَ مَـا فِـي الـنَّـاسِ مِـثْـلُـكَ عَـاشِـقٌ جِدِي مِثْلَ مَنْ أَحْـبَـبْـتُـهُ تَـجِـدِي مِثْلِي (٣)

مُـحِـبٌّ كَـنَـى بِـالْـبِـيضِ عَـنْ مُـرْهَـفَـاتِـهِ، وَبِـالْـحُـسْـنِ فِي أَجْـسَـامِـهِـنَّ عَـنِ الـصَّـقْـلِ (٤)

وَبِـالـسُّـمْـرِ عَـنْ سُـمْـرِ الْـقَـنَـا غَـيْـرَ أَنَّـنِـي جَـنَـاهَـا أَحِـبَّـائِـي وَأَطْـرَافُـهَـا رُسْـلِـي (٥)

---

(١) يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بالحديث عن حبّه للمعالي، والمعالي جلبت له لائمة تلومه لأنه يُحبّ خوض غمار الحروب؛ فكثيرون من البشر يدّعون لأنفسهن الرشد وصحة العقول، ومعظم هؤلاء لا يدرون بجهلهم لو علموا ذلك لكانوا من العقلاء لأنهم يستعملون عقولهم في ما يجب أن يكون.

(٢) يردّ الشاعر على لائمته بأنها أحقّ باللوم منه لجهلها بحبّه، فحبّه لا يُلام عليه، شرعيّ ينمّ عن رجولة وقوّة صاحبه.

(٣) يردّ الشاعر على مقالة العاذلة أنه لا شبيه له في حبّه. ولذا يطلب منها أن تبحث عن شبيه لما يُحبّ حسناً وجمالاً، وأيضاً أن تجد شبيهاً مثله في حبّه، والواقع ألّا مثيل لمحبوبه، فضلاً عن الشاعر نفسه.

(٤) و (٥) البيض: النسوة. المرهفات: السيوف الرقيقة الحدود. إنها مشكلة مشابهة بين النسوة في جمالهن وبياضهن وبين المرهفات الرقيقة الحدود كالنسوة في رقة أجسامهن وجلائها، لذا فإذا ذكر البيض قصد بذلك السيوف، وإذا عرّج على ذكر حسن النسوة قصد صقل السيوف. وإن ذكر السمراوات منهن قصد بذلك الرماح =

عَـدِمْـتُ فُـؤَاداً لَـمْ تَـبِـتْ فِـيـهِ فَـضْـلَـةٌ
لِـغَـيْـرِ الـثَّـنَـايَـا الْـغُـرِّ وَٱلْـحَـدَقِ الـنُّـجْـلِ (١)
فَـمَـا حَـرَمَـتْ حَـسْـنَـاءُ بِـالْـهَـجْـرِ غِـبْـطَـةً،
وَلَا بَـلَّـغَـتْـهَـا مَـنْ شَـكَـا الْـهَـجْـرَ بِـالْـوَصْـلِ (٢)
ذَرِيـنِـي أَنَـلْ مَـا لَا يُـنَـالُ مِـنَ ٱلْـعُـلَـى
فَصَعْبُ ٱلْعُلَى في الصَّعْبِ وَالسَّهْلُ في السَّهْلِ (٣)
تُـرِيـدِيـنَ لُـقْـيَـانَ الـمَـعَـالِـي رَخِـيـصَـةً،
وَلا بُـدَّ دُونَ الـشَّـهْـدِ مِـنْ إِبَـرِ الـنَّـحْـلِ (٤)

= السمراء، وليس المقصود عنده بالجنى القبل وإنما ما يجتنيه البطل من قطف المعالي التي يستعين بالرماح ليجتني منها بقدر ما يستطيع؛ فالبستان شاسع واسع وثماره لا تتساقط بل يجتنيها القادرون على الكفاح، لذا فالمعالي هي مجتنى من أحبّ ويسعى لخطبتها برماحه.

(١) عدمت: خسرت. الفضلة: البقيّة. الثنايا: الأسنان التي في مقدّم الفم. الغرّ: البيض. الحدق، الواحدة حدقة: سواد العين وقصد بها العين. النجل: الواسعة. يدعو الشاعر على نفسه إن لم يحتفظ قلبه بفضلة تهفو إلى المجد والعظمة والشهرة، فبها يحيا ويعيش؛ إنه شعور ينصبّ نحو المثل التي يحيا فيها ويُناضل من أجلها، وليس من أجل محبّة ثنايا الحسناوات وأحداقهن الواسعة.

(٢) الغبطة: السرور. يتحدّث الشاعر عن سياسة النساء، فالرجل بين اثنين: إما تارك للنساء، فهجرتهن لا تحرم الرجل السعادة، بل بالعكس تُحاول المرأة أن تزيده مسرّة واسترضاءه بأي شكل إذا كانت تميل إليه، أما إذا كان الهجر من قبلها، فالرجل قد يعثر على بديلة لا تحرمه السعادة. وإذا الرجل تذلل للمرأة، فإنها تزيد منه صدوداً، والغبطة في نظر الشاعر هي كسب الأمجاد والشرف العالي.

(٣) ذريني: اتركيني. يُخاطب الشاعر عاذلته أن تتركه وشأنه؛ إنه يسعى في تحصيل المعالي، وتلك مركبها صعب، لا يقدر عليه إلّا الأقوياء ذوو الإرادة، يدفعهم طموح جامح، والأمر السهل يكتفي بتحقيقه من لم يبذل على الأقل جهده، فإنه يعيش في قاع الحياة قانعاً بفشله.

(٤) الشهد: العسل. يُخاطب الشاعر العاذلة أن المعالي لا تُجتنى دون أن يدفع المرء ضريبة غالية، من تضحيات ومحاولات عديدة وقد يُؤدي بعضها إلى هلاكه فيتقبّل =

حَذِرْتِ عَلَيْنَا المَوْتَ وَٱلْخَيْلُ تَدَّعِي،
وَلَمْ تَعْلَمِي عَنْ أيِّ عَاقِبَةٍ تُجْلِي؟(١)

فَلَسْتُ غَبِيناً لَوْ شَرِيْتُ مَنِيَّتِي
بِإكْرَامِ دِلِّيرَ بْنِ لَشْكَرَوَزٍّ لِي(٢)

تَمَرُّ الأنَابِيبُ الْخَوَاطِرُ بَيْنَنَا،
وَنَذْكُرُ إقْبَالَ الأمِيرِ فَتَحْلَوْلِي(٣)

وَلَوْ كُنْتُ أدْرِي أنَّهَا سَبَبٌ لَهُ
لَزَادَ سُرُورِي بِالزِّيَادَةِ فِي الْقَتْلِ(٤)

فَلَا عَدِمَتْ أرْضُ الْعِرَاقَيْنِ فِتْنَةً
دَعَتْكَ إلَيْهَا كَاشِفَ ٱلْبَأْسِ وَالمَحْلِ(٥)

= مصيره برضًى ومحبّة، لذا فمن رغب بالحصول على الشهد عليه أن يلقى إبر النحل، عندئذٍ يلذّ له الشهد وحلاوته.

(١) يروى «تلتقي» بدلاً من «تدّعي». الادعاء في الحروب: انتساب المحارب إلى أبيه وقبيلته. تنجلي: تنكشف. يُخاطب الشاعر العاذلة مستنكراً خوفها من أن يُقتل في ساحة الحرب، كأنها تشكّ بشجاعته عند اللقاء، ولطالما التقى الأبطال فأودى بهم إلى الهلكة وكان النصر حليفه في نهاية الأمر.

(٢) يروى «شريت» بالياء بدلاً من «شربت» بالباء. الغبين: من خدع في البيع. دلير ولشكروز: من الأسماء الأعجميّة. يُردف الشاعر أنه لو لقي مصرعه، فلا يُعدّ ذلك غبناً وخسارة، فالمكسب الذي حصل عليه إكرام دلّير له؛ إنه خير مغنم.

(٣) تمرّ: تُصبح علقماً ذات مرارة. الأنابيب، الواحد أنبوب: الرماح. الخواطر: المهتزّة. تحلولي: تصبح حلوة المذاق. يشرع الشاعر بمدح ممدوحه. المعارك شديدة الوطء على الشاعر، تتصادم الرماح وتلتقي السيوف، والمعركة حامية تعصف بالنفوس، والأبطال يتجرّعون مرارة الموت أو الهزيمة، وفجأة يُطلّ الممدوح بطلعته على جواده فإذا بالروح ترتد إلى أصحابه فيستروحون ببطل همام يقودهم إلى النصر.

(٤) ما يدلّ على قُرمطية متأصّلة في فكر المتنبي أن ما يسرّه ويتمنّاه أن يكثر القتل وتمتدّ الفتنة، وإنما اتّخذ ذلك سبباً لمجيء الممدوح وحجة تُفرحه بطلعته.

(٥) يروى «الخوف» بدلاً من «البأس». والبأس: الشدّة والقوّة. العراقين: الكوفة والبصرة. المحل: الجدب. يدعو الشاعر بدوام الاضطرابات والفتن في العراقين =

ظَـلِـلْـنَـا إذَا أَنْـبَـى الْـحَـدِيـدُ نُـصُـولَـنَـا
نُـجَـرِّدُ ذِكْـراً مِـنْـكَ أَمْـضَـى مِـنَ الـنَّـصْـلِ (١)
وَنَـرْمِـي نَـوَاصِـيـهَـا مِـنِ ٱسْـمِـكَ فِـي الْـوَغَـى
بِـأَنْـفَـذَ مِـنْ نُـشَّـابِـنَـا وَمِـنَ الـنَّـبْـلِ (٢)
فَـإِنْ تَـكُ مِـنْ بَـعْـدِ الْـقِـتَـالِ أَتَـيْـتَـنَـا
فَـقَـدْ هَـزَمَ الأَعْـدَاءَ ذِكْـرُكَ مِـنْ قَـبْـلِ (٣)
وَمَـا زِلْـتُ أَطْـوِي الْـقَـلْـبَ قَـبْـلَ ٱجْـتِـمَـاعِـنَـا
عَـلَـى حَـاجَـةٍ بَـيْـنَ الـسَّـنَـابِـكِ وَالـسُّـبْـلِ (٤)
وَلَـوْ لَـمْ تَـسِـرْ سِـرْنَـا إِلَـيْـكَ بِـأَنْـفُـسٍ
غَـرَائِـبَ يُـؤْثِـرْنَ الْـجِـيَـادَ عَـلَـى ٱلأَهْـلِ (٥)
وَخَـيْـلٍ إِذَا مَـرَّتْ بِـوَحْـشٍ وَرَوْضَـةٍ
أَبَـتْ رَعْـيَـهَـا إِلَّا وَمِـرْجَـلُـنَـا يَـغْـلِـي (٦)

= ليكون ذلك من أسباب مجيء الممدوح، فيعم الأمن فيهما وينعدم الرعب ويحلّ فيهما الخير من جوده.

(١) و (٢) أنبى: جعلها كالّة على القطع. النصول: السيوف. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأن ذكر اسمه مُعين، وذلك في حال عدم فاعلية السلاح الذي يُقاتلون به وعدم قدرتهم على مقارعة أسلحة أعدائهم، ساعد على جعله فعّالاً في ردع الأعداء والقضاء عليهم؛ فإذا باسم الممدوح يبدو أشدّ نفاذاً في الأعداء من نشاب الفرس ونبال العرب يذكر من قبل جماعة المدافعين ترمي نواصي خيول الأعداء في الحرب وتصيب مقاتلهم.

(٣) يعزو الشاعر انتصار جماعته بفضل ذكر اسم الممدوح في ضمائرهم، ممّا حفزهم على الثبات وأدّى إلى انتصارهم قبل مجيء الممدوح إلى بلاد العراق.

(٤) وردت الأبيات الثلاثة المتتالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٦. السنابك: أطراف الحوافر. السبل، الواحد سبيل: الطرق. ينوّه الشاعر برغبته للاجتماع بالممدوح قبل ورود الممدوح على تلك الديار، وما منعه من ذلك إلّا حاجته إلى وسيلة وفوده عليه من خيل فضلاً عن طول المسافة التي تفصله عنه.

(٥) و (٦) الجياد: الخيول. يُؤثرن: يُفضّلن. إنها ظروف طارئة جعلت الممدوح يقصد =

وَلٰكِنْ رَأَيْتَ الْقَصْدَ فِي الْفَضْلِ شِرْكَةً
فَكَانَ لَكَ الْفَضْلَانِ بِالْقَصْدِ وَالْفَضْلِ (١)

وَلَيْسَ الَّذِي يَتَّبَّعُ الْوَبْلَ رَائِداً
كَمَنْ جَاءَهُ فِي دَارِهِ رَائِدُ الْوَبْلِ (٢)

وَمَا أَنَا مِمَّنْ يَدَّعِي الشَّوْقَ قَلْبُهُ
وَيَحْتَجُّ فِي تَرْكِ الزِّيَارَةِ بِالشُّغْلِ (٣)

أَرَادَتْ كِلَابٌ أَنْ تَفُوزَ بِدَوْلَةٍ
لِمَنْ تَرَكَتْ رَعْيَ الشُّوَيْهَاتِ وَالإِبْلِ (٤)

أَبَى رَبُّهَا أَنْ يَتْرُكَ الوحْشَ وَحْدَهَا
وَأَنْ يُؤْمِنَ الضَّبَّ الْخَبِيثَ مِنَ الأَكْلِ (٥)

= تلك الديار، وإن لم يأت إليها لقام الشاعر بمغامرة، ولسار إلى الممدوح سيراً على قدميه؛ إن الشاعر من طينة مميّزة، فهو خلاف الناس. لا يتكاسل أو يتراخى لسعيه الدّؤوب إلى مراقي المجد، مهما بلغت التضحيات؛ لذا لكان عليه أن يسير إلى الممدوح بخيل سريعة تُطارد الوحوش وتسبقها ولا ترعى وتأخذ قسطها من الراحة إلّا بعد صيدها من وحش تلك الروضة المعشوشبة، فتسرح مطمئنة، وفي أثناء ذلك تُطبخ اللحوم في مرجل يغلي.

(١) يُخاطب الشاعر ممدوحه منوّهاً بفضله المزدوج، فقد كان في نيّة الشاعر أن يُقدم على الممدوح قاصداً مديحه، فإذا بالممدوح يسبقه بالفضل ويقصد مدينته فكفاه مؤنة التعب والمسير إليه، وثمّة فضل آخر ينفرد به دون سائر الممدوحين والناس أجمعين.

(٢) الوبل: المطر الهطال. الرائد: المكتشف الذي يُرسله القوم ليستكشف لهم الأرض وما فيها. يُقيم الشاعر مقارنة بين من يسعى لاكتشاف مساقط الأمطار ومواضع المياه بمن يبقى في موضعه ويُمطر مطراً غزيراً حيث هو، إن الشاعر يُشبه من مُطر في بلده، ففضل الممدوح أنه قصد تلك الديار لذا ففضله أعمّ، فزاد كرامة واعترافاً بجميل.

(٣) ينفي الشاعر نفسه عن الكذب، فشوقه صادق للقيا ممدوحه، وهو لن يلجأ إلى الاعتذار بأعذار واهية يخترعها المدّعون؛ حقاً إنه كان ينوي زيارة ممدوحه، ولكن الظروف حتّمت على الممدوح أن يأتي إلى الكوفة، فسبقت نيّة الشاعر بقيامه بزياره الممدوح.

(٤) و (٥) كلاب: القبيلة المغيرة على الكوفة. الشويهات، الواحدة شويهة: تصغير شاة. يسخر الشاعر من كلاب، القبيلة البدوية؛ فالدافع إلى الغارة ضيق حال أفرادها، فكان =

وَقَادَ لَهَا دِلّيرُ كُلَّ طِمِرَّةٍ
تُنِيفُ بِخَدَّيْهَا سَحُوقٌ مِنَ النَّخْلِ (١)

وَكُلَّ جَوَادٍ تَلْطِمُ الأَرْضَ كَفُّهُ
بَأَغْنَى عَنِ النَّعْلِ الْحَدِيدِ مِنَ النَّعْلِ (٢)

فَوَلَّتْ تُرِيغُ الْغَيْثَ وَالْغَيْثَ خَلَّفَتْ
وَتَطْلُبُ مَا قَدْ كَانَ فِي الْيَدِ بِالرِّجْلِ (٣)

تُحَاذِرُ هَزْلَ المَالِ وَهْيَ ذَلِيلَةٌ
وَأَشْهَدُ أَنَّ الذُّلَّ شَرٌّ مِنَ الْهَزْلِ (٤)

وَأَهْدَتْ إِلَيْنَا غَيْرَ قَاصِدَةٍ بِهِ
كَرِيمَ السَّجَايَا يَسْبِقُ الْقَوْلَ بِالْفِعْلِ (٥)

= أن اعتدت على المدينة، وزعم الشاعر أنها تودّ إقامة دولة، يسخر الشاعر أن القوم من الرعاة، يعيشون على ما تنبته الأرض لرعي ماشيتهم وإبلهم. ويرى الشاعر أن اللّه تعالى لم يرد للقبيلة إلّا أن تعيش حياة الفقر والتوحّش في الصحراء يصطاد أفرادها الضباب الخبيثة الطعم ولم يرض لهم إقامة دولة.

(١) و (٢) الطمرة: الوثابة العالية. تنيف: تشرف. السحوق: النخلة العملاقة. لقد جهّز دلّير للقضاء على حركة العصيان هذه كل فرس وثابة يستطيل عنقها كنخلة عملاقة وكلّ جواد كريم النسب لقوّته يضرب الأرض بعنف وقوّة مستغنياً عن النعل بقوّة فيحفر على الصخر حوافره لقوّتها، فاستغنت عن الحديد.

(٣) ولّت: فرّت. تريغ: تطلب. الغيث: المطر. خلّفت: تركت وراءها. يرى الشاعر أن كلاباً أهدرت فرصة كانت في متناول يدها؛ حركة حرّة، تنتقل حيث شاءت وتنعم بالأمن وتستغيث بحماية السلطان ورفده، فإذا بها تفرّ من تلك النعمة مستعينة بأرجلها تبحث عن الأمن والرزق فلا تنعم بهما.

(٤) و (٥) يذكر الشاعر سبب قيام كلاب بغارتها على المدينة أن الجدب أدّى بثروتها الحيوانية إلى الهزال والضعف ممّا حملهم على المغامرة بكلّ شيء، فأدّى بهم إلى الهزيمة والقتل، ولو أعملوا عقولهم ما نزل بهم من الهزيمة والتشرّد ما نزل. وكان نتيجة ذلك أنها أهدت إلى الكوفة كريم السجايا والأخلاق الحميدة دلّير يجود بالمال قبل سؤاله، ففعله يسبق وعده.

تَـتَـبَّـعَ آثَـارَ الـرَّزَايـا بِـجُـودِهِ
تَـتَـبُّـعَ آثَـارِ الأسِـنَّـةِ بِـالْـفُـتْـلِ[(١)]

شَـفَـى كُـلَّ شَـاكٍ سَـيْـفُـهُ وَنَـوَالُـهُ
مِـنَ الـدَّاءِ حَـتَّـى الـثَّـاكِـلَاتِ مِـنَ الـثُّـكْـلِ[(٢)]

عَـفِـيـفٌ تَـرُوقُ الـشَّـمْـسَ صُـورَةُ وَجْـهِـهِ
وَلَـوْ نَـزلَـتْ شَـوْقـاً لَـحَـادَ إلَـى الـظِّـلِّ[(٣)]

شُـجَـاعٌ كـأنَّ الْـحَـرْبَ عَـاشِـقَـةٌ لَـهُ
إذَا زَارَهَـا فَـدَّتْـهُ بِـالْـخَـيْـلِ وَالـرَّجْـلِ[(٤)]

وَرَيَّـانُ لَا تَـصْـدَى إلَـى الْـخَـمْـرِ نَـفْـسُـهُ
وَعَـطْـشَـانُ لَا تَـرْوِي يَـدَاهُ مِـنَ الْـبَـذْلِ[(٥)]

---

(١) الرزايا: المصائب والنكبات. الأسنة: حراب الرماح. الفتل، الواحدة فتيلة: هي ما يجعل فيها الطبيب من المراهم ليوصلها إلى الجراح. من حسن سياسة الممدوح أنه عمل على بلسمة جراح المنكوبين، فعوّض عليهم خسائرهم بسبب الدمار الذي أحدثته قبيلة كلاب، وواسى جراحاتهم وأصلح أحوالهم بالمال، كأنه طبيب يُداوي جراحات سببتها الحراب والأسنة بجعل الفتائل والدواء بتلك الجروح على أصل شفائها.

(٢) النوال: العطاء. الثاكلات، الواحدة ثكلى: المرأة التي فقد أحد أقربائها. يُشيد الشاعر بأفعال ممدوحه، فقد ثأر لمن فقدن أولادهن وإخوتهن وآباءهن بقتل قتلتهم، كما أنه أفاض جوده عليهن وعلى سواهن من أبناء المدينة، فأزال شكاة الجميع بماله ومواساته، فأدخل الفرحة على القلوب.

(٣) تروق: تعجب وتحلو. حاد: انحرف. يمدح الشاعر ممدوحه بالعفّة والترفّع عن الموبقات والفحشاء، كذا فلو أشرقت الشمس لرغبت برؤية وجهه شوقاً وحبًّا، ولكنه يميل عنها لأنها محسوبة على عالم الأنوثة، كي لا يقع في المحرمات. وتلك من مغالاة الشاعر.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٦. يقصد بالخيل فرسانها. الرجل، الواحد راجل. ثمة عشق بين الممدوح والحرب، إنه بطل يخوض الحروب، فإذا نزل إلى الميدان ترامى الفرسان والرجالة يتدافعون لحمايته، أما الأعداء فيتهافتون صرعى أمام ضرباته.

(٥) ريَّان: شبعان لكثرة شربه. صديان: عطشان. البذل: العطاء. يمدح الشاعر ممدوحه =

فَتَمْلِيكُ دِلّيرٍ وَتَعْظِيمُ قَدْرِهِ
شَهِيدٌ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَالْعَدْلِ[(١)]
وَمَا دَامَ دِلّيرٌ يَهُزُّ حُسَامَهُ
فَلَا نَابَ فِي الدُّنْيَا لِلَيْثٍ وَلَا شِبْلِ[(٢)]
ومَا دَامَ دِلّيرٌ يُقَلِّبُ كَفَّهُ
فَلَا خَلْقَ مِنْ دَعْوَى الْمَكَارِمِ فِي حِلٍّ[(٣)]
فَتًى لَا يُرَجِّي أَنْ تَتِمّ طَهَارَةٌ
لِمَنْ لَمْ يُطَهِّرْ رَاحَتَيْهِ مِنَ الْبُخْلِ[(٤)]
فَلَا قَطَعَ الرّحْمٰنُ أَصْلاً أَتَى بِهِ
فَإِنّي رَأَيتُ الطَّيِّبَ الطَّيِّبَ الأصْلِ[(٥)]

= بأنه لا يُعاقر الخمرة ولا يقربها، فكأنه مرتو وهو في الوقت ذاته عطشان إلى العطاء الدائم، فمهما جاد فإنه يُحبّ إعطاء المزيد.

(١) من حسن حظوظ البشر أن جعل اللّه عزّ وجلّ دلّير ملكاً عليهم لعدله وعفّته وإحسانه؛ فذلك شهيد بوحدانيته تعالى وعدله في الناس.

(٢) الحسام: السيف البتّار. الليث: من أسماء الأسد. الشبل: ولد الأسد. يُشيد الشاعر بدوام عمل ممدوحه على رفع الظلم عن الضعفاء والمساكين بسيفه البتّار، فيقطع دابر من يظن بنفسه شجاعة وقوّة، فإذا به ينزع أنياب الأسد، فكأنه حيوان عشبيّ تخلّى عن أنيابه رغماً عنه.

(٣) و (٤) يُفضل الشاعر دلّير على سائر من يدّعي الجود، إنه يستثير ممدوحه ليستمرّ في العطاء، لذا فلا يحقّ لأحد سواه أن يفخر بكرمه على الناس؛ فتلك ميزته، فالجود والعطاء جبلّة جُبل عليها، فالبخل لا يعرف طريقاً إلى يديه ودنسه لا يلوّثهما؛ فالطهر من طبيعتهما.

(٥) يدعو الشاعر اللّه تعالى بدوام ممدوحه حيًّا معافى، إنه من أصل نبيل، كما يدعو أن يكون خلفه على نهجه وخلقه؛ ويرى الشاعر أن نظام الوراثة عامل أساسي متوارث، فلا بدّ أن يكون خلفه على شاكلته.

الملاح خوادع قُتُل

يمدحه ويذكر وقعة مع وهشوذان بن محمد الكردي بالطرم:

[الكامل]

إثْـلِـثْ فَـإنَّـا أيُّـهَـا الـطَّـلَـلُ
نَـبْـكِـي وَتُـرْزِمُ تَـحْـتَـنَـا الإبِـلُ[(١)]

أوْ لَا فَـلَا عَـتْـبٌ عَـلَـى طَـلَـلٍ
إنَّ الـطُّـلُـولَ لِـمِـثْـلِـهَـا فُـعُـلُ[(٢)]

لَـوْ كُـنْـتَ تَـنْـطِـقُ قُـلْـتَ مُـعْـتَـذِراً
بِـي غَـيْـرُ مَـا بِـكَ أيُّـهَـا الـرَّجُـلُ[(٣)]

أبْـكَـاكَ أنَّـكَ بَـعْـضُ مَـنْ شَـغَـفُـوا
لَـمْ أبْـكِ أنِّـي بَـعْـضُ مَـنْ قَـتَـلُـوا[(٤)]

---

(١) ورد الشطر الأول من البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٦. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بالغزل. إثلث: كن ثالثاً. الطلل: ما مثل من بقايا الديار. ترزم: تحنّ. يخاطب الشاعر الطلل، وقد وقف يعتبر، فإذا بدموعه تنهمر على ما حلّ بتلك الديار وقد رحل قاطنوها فإذا بسكون حزين يلفّها، ورسوم لها امّحت، والذكريات لفّها النسيان برداء الزمن، التفت الشاعر فوجد ناقته التي عرفت الديار وشمت نسائم الماضي فإذا بها دامعة العينين وترزم صوت الحنين، لذا طلب من الأطلال أن تكون ثالث الباكين، ولعلّها بكت رحيل الأحبّة في زمن مضى.

(٢) يتابع الشاعر حواره مع الأطلال، فالبكاء لغة الشوق إلى الأحبة لذا جدير بتلك الأطلال دمعة حزن، وإن لم تدمع عيناها فهذا من طبعها؛ ألم تكن في الأصل سبب هجرة الأحبّة عنها؛ وقد بخلت بسبل العيش فأجدبت أرضها وجفّ ماؤها؟ إن ذلك من طبعها النكران وقلّة الوفاء.

(٣) و (٤) إنه حوار من جانب واحد؛ فالشاعر يعلم أن الطلل يعجز عن النطق، فلو نطق لعبّر بألم عمّا حلّ به من الحزن لفراق من ارتحل عنه من الأحبة، ولو كان بمقدوره النطق لخنقته العبرات ولما استطاع التعبير عن إحساسه بالألم، وفي أضعف الأمور لردّ على الشاعر بقوله: إن ما به أكثر ما بالشاعر من ألم، فالأحبّة قاسم مشترك بين الشاعر وبين الطلل، فكلاهما عاشق، فقد حملت الحبيبة معها قلب الشاعر واستأثرت به لنفسها فأبكته، ولكن ما حلّ بالأطلال قتل، والمقتول لا يقدر على البكاء.

إنَّ الَّـــذِيـــنَ أقَـــمْـــتَ وَٱرْتَـــحَـــلُـــوا
أيَّـــامُـــهُـــمْ لِـــدِيَـــارِهِـــمْ دُوَلُ[١]
الْـــحُـــسْـــنُ يَـــرْحَـــلُ كُـــلَّـــمَـــا رَحَـــلُـــوا
مَـــعَـــهُـــمْ وَيَـــنْـــزِلُ حَـــيْـــثُـــمَـــا نَـــزَلُـــوا[٢]
فِـــي مُـــقْـــلَـــتَـــيْ رَشَـــإٍ تُـــدِيـــرُهُـــمَـــا
بَـــدَوِيَّـــةٌ فُـــتِـــنَـــتْ بِـــهَـــا الْـــحِـــلَـــلُ[٣]
تَـــشْـــكُـــو الْـــمَـــطَـــاعِـــمُ طُـــولَ هِـــجْـــرَتِـــهَـــا
وَصُـــدُودَهَـــا وَمَـــنِ الَّـــذِي تَـــصِـــلُ[٤]
مَـــا أَسْـــأَرَتْ فِـــي الْـــقَـــعْـــبِ مِـــنْ لَـــبَـــنٍ
تَـــرَكَـــتْـــهُ وَهْـــوَ الْـــمِـــسْـــكُ وَالْـــعَـــسَـــلُ[٥]

---

(١) ينقل الشاعر عن الطلل كلاماً فيه شيء من التأسي ردًّا عليه، أن من رحل عن تلك الديار وغادرك وأقمت بعدهم أيامهم دول لا تدوم على حال، فقد كانت لياليهم أُنساً وسمراً، وأيامهم عزًّا وفرحاً، والأيام لا تدوم على حال، فإذا بها حزينة كئيبة بتخلّي موجبات البقاء في تلك الأطلال.

(٢) إن الأحبة فتنة وجمال ساحر يُرافقهم حيثما حلّوا وارتحلوا، فإذا بالقلوب التي ملأها حبهم تهوي إليهم حيثما كانوا في حِلّهم وترحالهم.

(٣) الرشأ: ولد الظبية. الحلل، الواحدة حلة: القوم النازلون. يتغزّل الشاعر بعيني بدوية في غاية الحسن والجمال، وقد استعارت من رشأ جمال عينيها وأناقتها ورقّتها وخفّتها وجمال صوتها الذي ينساب في الآذان بلا استئذان، وحيثما حلّت فتنت القوم الذين تنزل بهم بمزاياها المحبّبة للقلوب.

(٤) يمدح الشاعر حبيبته بقلّة حبّها للطعام ممّا يكسبها تناسقاً بديعاً في جسدها لذا فالمآكل تشكو صدودها وقلّة اهتمامها بها، وبالتالي فإنها لا تهتمّ بشيء ذي قيمة، لذا يستنكر الشاعر عليها أنها لا تألف أحداً ومن عادتها الهجر بشكل عام.

(٥) أسأرت: أبقت. القعب: كأس خشبية مقعّرة. يتحدّث الشاعر عن طيب أنفاس حبيبته وعذوبة ريقها؛ إنها إذا شربت لبناً وأبقت في الكأس منه، فقد يتحوّل طعمه إلى مسك وعسل لعذوبة رضابها.

قَالَتْ أَلَا تَصْحُو فَقُلْتُ لَهَا
أَعْلَمْتِنِي أَنَّ الْهَوَى ثَمِلُ (١)

لَوْ أَنَّ فَنَّاخُسْرَ صَبَّحَكُمْ
وَبَرَزْتِ وَحْدَكِ عَاقَهُ الْغَزَلُ (٢)

وَتَفَرَّقَتْ عَنْكُمْ كَتَائِبُهُ
إِنَّ الْمِلَاحَ خَوَادِعٌ قُتُلُ (٣)

مَا كُنْتِ فَاعِلَةً وَضَيْفُكُمُ
مَلِكُ الْمُلُوكِ وَشَأْنُكِ الْبَخَلُ (٤)

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٦. ثمل: سكران. يروي الشاعر حواراً جرى بينه وبين لائمته محاولة ردّه إلى رشده بقولها: ألا تصحو ممّا أنت فيه؟ فكأنها قد جعلته يتفقّد نفسه، فردّ عليها مستنتجاً من مضمون كلامها أن الهوى ثمل؛ إنها حالة من السكر والنشوة حيث يغفو المرء عن اكتشاف حالته فقد تعلق قلبه بمن أحبّ وشلّ عقله فلم يُعمله حتى لفتت نظره إلى ما هو عليه من هيمان وعدم تركيز في أمره ومصيره.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٤. فناخسرو: اسم عضد الدولة. صبّحكم: أتاكم مع الصباح للغارة. عاقه: أخّره. يُمهّد الشاعر للتخلّص من الغزل إلى المدح. ففناخسر ممدوح الشاعر، لو أنه أراد غزو قوم حبيبة الشاعر، وهو عزوف عن النساء، لو أنها برزت إليه بجمالها وطلّتها لشغف بها ومال قلبه إليها ونسي المهمة التي ندب نفسه إليها. لا شكّ أن هذه البدوية أجمل من نساء الديلمي الفارسي حتى تشغله عن قصده.

(٣) الكتائب، الواحدة كتيبة: الفرقة من الجيش. قُتُل: الواحد قتول. يتابع الشاعر حديثه عن أثر سحر تلك الحبيبة، فقد برزت لممدوحه فتخلّى عن القتال، فكان أن تفرقت كتائبه عن قوم الحبيبة لشغفه بها وتعلّقه فنسي المهمة التي من أجلها قاد حملته. ويردف الشاعر أن جمال النسوة خادع يستميل القلوب حتى قلوب أقوى وأعتى الرجال، فلذا كانت هزيمة الممدوح برقة وسحر أنثوي.

(٤) وردت الأبيات الثلاثة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٤. يُخاطب الشاعر حبيبته منوّهاً ببخلها، مادحاً فناخسرو، فقد نزل بديارهم ملك الملوك ضيفاً تخضع له الرقاب، ومن طبع العربي الكرم والجود، والاحتفال بالضيف تكريمه =

أَتُــمَــنِّـعِـيــنَ قِـرًى فَـتَـفْـتَـضِـحِـي
أَمْ تَــبْــذُلِـيــنَ لَـهُ الّــذِي يَــسَــلُ؟(١)
بَـــلْ لا يَـــحُـــلُّ بِـــحَـيْـــثُ حــلَّ بِـــهِ
بُـــخْـــلٌ وَلاَ خَـــوْرٌ وَلا وَجَـــلُ(٢)
مَـــلِـــكٌ إِذَا مَـــا الـــرُّمْـــحُ أَدْرَكَـــهُ
طَـــنَـــبٌ ذَكَـــرْنَـــاهُ فَـــيَـــعْـــتَـــدِلُ(٣)
إِنْ لَــمْ يَــكُــنْ مَــنْ قَــبْـلَــهُ عَــجَــزُوا
عَــمّــا يَــسُــوسُ بِــهِ فَــقَــدْ غَــفَــلُــوا(٤)
حــتَّــى أَتــى الــدُّنْــيَــا ٱبْــنُ بَــجْــدَتِــهَــا
فَــشَــكَــا إِلَــيْــهِ الــسَّــهْــلُ وَالْــجَــبَــلُ(٥)
شَــكْــوَى الْــعَــلِــيــلِ إِلَــى الْــكَــفِــيــلِ لَــهُ
أَنْ لاَ تَــمُــرَّ بِــجِــسْــمِــهِ الْــعِــلَــلُ(٦)

= والقيام على خدمته، فإذا بحبيبته تظهر بخلها. والغريب بالأمر أن الشاعر يتحدّث عن حبيبته وإغرائها لسواه، وهو لا يحرّك ساكناً. فأين غيرة المحبّ؟ ففي عالم الحيوان يُدافع الذكر عن أنثاه بكلّ ما أوتي من قوّة أمام مزاحمه عليها.

(١) القرى: الضيافة والقيام بواجبها. يسل، بتخفيف الهمزة من يسأل. يسأل الشاعر حبيبته إن قامت بما يتوجّب من قرًى عليها لممدوحه، ففي ذلك خروج عمّا عُرِف عنها البخل فيه أم أنها تستضيفه فتبذل ما جاء من أجله فيفتضح أمرها فيعني ذلك أنها استمالت إليه.

(٢) الجور: الظلم. الوجل: الرعب. يروى «جَوْر» بدلاً من «خور» والخور: الضعف. يستدرك الشاعر أنه حيثما يحلّ ممدوحه يختفي البخل والظلم والضعف والخوف، لأنه يقوم بالعدل فينشر جناحيه حيث يُوجد وينعم الناس بالأمن والأمان.

(٣) الطنب: الاعوجاج في الرمح. يمدح الشاعر في ممدوحه الاستقامة في سائر أموره، فهابه الناس حتى الأشياء، ومنها الرمح المعوج، فقد اعتدل واستقام من اعوجاجه.

(٤) يُنوّه الشاعر بحسن سياسة ممدوحه وعدله في الرعيَّة. لذا فقد عجز من سبقه في الحكم فلم يكونوا عادلين في سياساتهم للرعية لغفلتهم عن سيرته، وكان عليهم أن يقتدوا به ويسيروا على دربه.

(٥) و (٦) ابن بجدتها: الخبير والعالم بأمورها. لقد عانى السهل والجبل من سياسة =

قَـالَـتْ: فَـلاَ كَـذَبَـتْ شَـجَـاعَـتُـهُ
أَقْـدِمْ فَـنَـفْـسُـكَ مَـا لَـهَـا أَجَـلُ (١)

فَـهْـوَ الـنِّـهَـايَـةُ إنْ جَـرَى مَـثَـلٌ
أَوْ قِـيـلَ يَـوْمَ وَغًـى مَـنِ الْـبَـطَـلُ (٢)

عُـدَدُ الْـوُفُـودِ الْـحَـامِـدِيـنَ لَـهُ
دُونَ الـسِّـلاَحِ الـشُّـكْـلُ وَالْـعُـقُـلُ (٣)

فَـلِـشُـكْـلِـهِـمْ فـي خَـيْـلِـهِ عَـمَـلٌ،
وَلِـعُـقْـلِـهِـمْ فـي بُـخْـتِـهِ شُـغُـلُ (٤)

تُـمْـسِـي عَـلَـى أَيْـدِي مَـوَاهِـبِـهِ
هِـيَ أَوْ بَـقِـيَّـتُـهَـا أَوِ الْـبَـدَلُ (٥)

= الجهلة من الملوك فعمّ الظلم والاستبداد ودبّت الفوضى في أواصر الدولة، وتأفف الخلق من حالة الفلتان الأمني، والسياسي والاقتصادي حتى آذن الزمان بمجيء عالم خبير بأمور السياسة؛ فأحسن ضبط الأمور فحكم بالعدل والحزم فأذعن له الخلق. إنه المخلّص الذي آل على نفسه القضاء على الفتنة وأن يُعيد للدولة عافيتها بعدما نخرها سوس الفساد فاستجارت بطبيب منقذ، فكانت على موعد مع عضد الدولة.

(١) ثمة حوار بين الممدوح وشجاعته؛ يدعو الشاعر أن تكون صادقة في دعائها بأن شجاعته قد زينت له الأمور ونتائجها بأجمل صورة بالإقدام والمخاطرة فالعمر يقضيه المرء مرّة واحدة، فالشجاع لا يهاب الموت فشجاعته تقيه العثرات خلاف سائر الناس الذين تُرعبهم المخاوف لجبنهم وخوفهم من الموت.

(٢) الوغى: الحرب. يُنوّه الشاعر بشجاعة ممدوحه العظيمة. لقد بلغ أقصى حدودها. وهو في ساحات القتال سيدها، فما من امرئ يصمد أمام عضد الدولة في المبارزة، فلا بدّ أن يصرعه مهما عظمت قدرته وكانت شجاعته.

(٣) الوفود: جماعة الماثلين أمامه يطلبون العطاء. الشكل، الواحد شِكال، وهو ما يجعل في قوائم الجواد. العُقُل، الواحد عِقال: الحبال. يتحدّث الشاعر عن الوافدين على الممدوح، إنهم يأتون مسالمين لا سلاح معهم لعلمهم أن عضد الدولة قوي شجاع يبطش بأعدائه، بل إنهم يقصدونه طامعين بعطاياه من الخيل والإبل والأموال، فيرفدهم بما هم بحاجة إليه سوى السلاح فإنه لا يتنازل عنه لسواه.

(٤) و (٥) البخت: الإبل العجميّة. يمدح الشاعر ممدوحه بالجود، فإنه يُعطيهم الخيول =

يُـشْـتَـاقُ مِـنْ يَـدِهِ إِلَـى سَـبَـلٍ
شَـوْقـاً إِلَـيْـهِ يَـنْـبُـتُ ٱلأَسَـلُ[١]
سَـبَـلٌ تَـطُـولُ الـمَـكْـرُمَـاتُ بِـهِ،
وَالـمَـجْـدُ لَا الْـحَـوْذَانُ وَالـنَّـفَـلُ[٢]
وَإِلَـى حَـصَـى أَرْضٍ أَقَـامَ بِـهَـا
بِـالـنَّـاسِ مِـنْ تَـقْـبِـيـلِـهَـا يَـلَـلُ[٣]
إِنْ لَـمْ تُـخَـالِـطْـهُ ضَـوَاحِـكُـهُـمْ
فَـلِـمَـنْ تُـصَـانُ وَتُـذْخَـرُ الْـقُـبَـلُ[٤]

= حتى يُشكلوها بشكلهم والجمال حتى يعقلوها بعقلهم؛ إنه لا يردّ سائليه بل يكون عند أملهم فيه، فيعطيهم ما جاؤوا من أجله فيعودون راضين فرحين بما آتاهم. ومن عادته أن يبدأ وافديه بما تحت يديه من الأنعام، فإذا وفّى وافديه وبقي منها رفد به من يتلوهم من الوفود، فإن لم يبق منها شيء رفدهم بما لديه من ذهب وفضة، وبذلك فلا يردّ راجياً بعطاء أو سائلاً خالي الوفاض.

(١) السبل: المطر بين السحاب والأرض. الأسل: عيدان الرماح. يُنوّه الشاعر بكرم عضد الدولة وشجاعته، فالناس دائمو التوقع من ممدوحه كلّ خير، وهم في حال شوق لا ينقطع لأن عطاءه لا ينفد ولا ينقطع، إنه مطر يُتوقّع هطوله في كلّ وقت، كما أن عيدان رماحه في حالة شوق دائم لاستمرار استعماله الرماح في حروبه، لتتبارك بحمل كفّه لها.

(٢) الحوذان والنفل: من أنواع النباتات الطيبة الرائحة. يُعقّب الشاعر أن سبل ممدوحه من نوع آخر من الأمطار، إنه يُنبت المكرمات التي تسبّح بحمده ومجده وعلو مكانته بين الممدوحين لذكائه وشجاعته، فليست مطراً يستنبت نباتاً، إنه مطر المواهب.

(٣) اليلل: قصار الأسنان. ومن مغالاة الشاعر أن جعل الحصى التي يُقيم عليها ممدوحه محجّة يحجّ إليها الناس ويُقبلونها وحتى لكثرة تقبيلهم إيَّاها أصابهم اليلل فإذا بأسنانهم تنكفئ إلى داخل أفواههم.

(٤) الضواحك: الأسنان بين الناب والأضراس. تصان: تحفظ وتذخر. يُردف الشاعر معلّلاً سبب صيانة القبلات، فلا بدّ للضواحك من أن تُخالط الأرض التي يفترشها عند تقبيلها، وإن لم تخالطها فلن تحفظ تلك القبل، وفي ذلك إجلال للممدوح وتعظيم له.

فــي وَجْـهِـهِ مِــنْ نُــورِ خَــالِـقِـهِ
غُــرَرٌ هِــيَ الآيَــاتُ وَالــرُّسُــلُ (١)
وَإِذَا الْـقُـلُـوبُ أَبَـتْ حُـكُـومَـتَـهُ
رَضِـيَـتْ بِـحُـكْـم سُـيُـوفِـهِ الْـقُـلَـلُ (٢)
وَإِذَا الْـخَـمِـيـسُ أَبَـى الـسُّـجُـودَ لَـهُ
سَـجَـدَتْ لَـهُ فِـيـهِ الْـقَـنَـا الـذُّبُـلُ (٣)
أَرَضِـيـتَ وَهْـشُـوذَانُ مَـا حَـكَـمَـتْ
أَمْ تَـسْـتَـزِيـدُ لِأُمِّـكَ ٱلْـهَـبَـلُ (٤)
وَرَدَتْ بِـلَادَكَ غَـيْـرَ مُـغْـمَـدَةٍ،
وَكَـأَنَّـهَـا بَـيْـنَ الْـقَـنَـا شُـعَـلُ (٥)
وَالْـقَـوْمُ فـي أَعْـيَـانِـهِـمْ خَـزَرٌ،
وَٱلْـخَـيْـلُ فـي أَعْـيَـانِـهَـا قَـبَـلُ (٦)

---

(١) يروى «قدر» بدلاً من «غرر»، الواحدة غرّة: بياض وحسن الشيء. لقد خصّ الخالق العظيم الممدوح بنور ربَّانيّ أهّله ليكون بمثابة الأمين على أمته ويقوم بدور المبلّغ عنه ما جاء به الرسل والأنبياء، إنه قدر اللّه عزّ وجل بأن أهله بدور عظيم لإصلاح ما فسد من أمور الأمة.

(٢) القلل، الواحد قلّة: الرؤوس. لقد خضعت له القلوب طائعة، ومن رفض ذلك كان سيفه كفيلاً بإخضاع أمثال هؤلاء الرافضين لسلطانه بالضرب على رؤوسهم، وعندئذٍ يرضون بحكمه مرغمين.

(٣) الخميس: الجيش المؤلف من خمس فرق. القنا: الرماح. الذبل: الدقاق. ومن حسن توفيق الممدوح أن خضوع جيوش الأعداء لا يخضعون لإرادته إلا بعدما يُعمل رماحه بهم تقتيلاً وطعناً فيُقبلون ليسجدوا له إقراراً بهزيمتهم وانتصاره.

(٤) و (٥) يُندّد الشاعر بعدوّ لركن الدولة والد عضد الدولة هو وهشوذان فقد كسر والد الممدوح شوكة عدوّه بالطرم موضع في عراق العجم، ويقول الشاعر أرضيت بحكم المنتصر أم أنك لا زلت على عدائك فتتمادى في غيّك؟ وتزيد من مصائب قومك تقتيلاً وتشريداً؟ وقد فاجأتك في عقر دارك سيوف ورماح قد زادها الغضب اشتعالاً ولهباً، فبدت حريقاً هائلاً يأكل الأخضر واليابس في ديار وهشوذان.

(٦) أعيان، جمع عيون. الخزر: ضيق العيون. القبل في الخيول: أي إقبال إحدى عينيها على =

فَــأَتَــوْكَ لَــيْــسَ بِــمَــنْ أَتَــوْا قِــبَــلٌ
بِــهِــمْ وَلَــيْــسَ بِــمَــنْ نَــأَوْا خَــلَــلُ(١)
لَــمْ يَــدْرِ مَــنْ بِــالــرَّيِّ أَنَّــهُــمُ
فَــصَــلُــوا وَلَا يَــدْرِي إِذَا قَــفَــلُــوا(٢)
فَــأَتَــيْــتَ مُــعْــتَــزِمــاً وَلَا أَسَــدٌ،
وَمَــضَــيْــتَ مُــنْــهَــزِمــاً وَلَا وَعِــلُ(٣)
تُــعْــطِــي سِــلَاحَــهُــمُ وَرَاحَــهُــمُ
مَــا لَــمْ تَــكُــنْ لِــتَــنَــالَــهُ الْــمُــقَــلُ(٤)
أَسْــخَــى الْــمُــلُــوكِ بِــنَــقْــلِ مَــمْــلَــكَــةٍ
مَــنْ كَــادَ عَــنْــهُ الــرَّأْسُ يَــنْــتَــقِــلُ(٥)

= الأخرى، يصف الشاعر حالة جند عضد الدولة، إنهم خزر العيون غضاب يتطاير الشرر منها، حتى جيادهم في أعيانها قَبَل، فإذا بإحدى عينيها تُقبل على الأخرى لعزّة نفسها.

(١) القبل: القدرة. نأوا: بعدوا. يذكر الشاعر ما حدث أثناء محاصرة ركن الدولة لوهشوذان، فقد انفصل بعض جند ركن الدولة والتحقوا بعدوّه، ومع ذلك فقد ألحق بهم ركن الدولة هزيمة نكراء ولم يتأثر جنده بخروج من خرج منهم عليهم.

(٢) الري: من بلاد فارس. فصلوا: خرجوا عنهم. قفلوا: رجعوا وعادوا. يذكر الشاعر أن ما حصل بخروج من خرج من عسكر ركن الدولة لكثرة جيوشه لم يؤثر على عسكر الريّ، وعندما رجعوا إلى جيش ركن الدولة كذلك لم يشعر أحد بعودتهم لأنهم نفر لا يستطيعون تغيير مجرى الأحداث، لا في حال رحيلهم عن ركن الدولة ولا في حال عودتهم.

(٣) الوعل: تيس الجبل، قوي البنية معكوف القرنين. يسخر الشاعر من وهشوذان. لقد قصد إلى ساحة المعركة واثقاً من النصر يمشي مشية أسد مختال يُوحي بالرهبة فإذا به سرعان ما فرّ من المعركة كأنه وعل شعر بالخطر فلجأ إلى أعالي الجبال بخفة هارباً من قضائه المحتوم.

(٤) الراح، الواحدة راحة: الكف من اليد. لقد كلّفت تلك الحرب وهشوذان الكثير فقد رمى جنده طعماً لسلاح ركن الدولة سهلاً، فكثر فيهم القتل، ومن سلم فقد فرّ تاركاً أموالاً كثيرة سلباً سهلاً لم تر العيون مثيلاً له لكثرته ونوعيّته الجيّدة.

(٥) أسخى: أكرم. يُندّد الشاعر بجبن وهشوذان، فقد جَبُن وترك مملكته يتآكلها الضياع =

لَـوْلَا الْـجَـهَـالَـةُ مَـا دَلَـفْـتَ إلَـى
قَـوْمٍ غَـرِقْـتَ وَإنَّـمَـا تَـفَـلُـوا[١]

لَا أَقْـبَـلُـوا سِـرًّا وَلَا ظَـفِـرُوا
غَـدْراً وَلَا نَـصَـرَتْـهُـمُ الْـغِـيَـلُ[٢]

لَا تَـلْـقَ أَفْـرَسَ مِـنْـكَ تَـعْـرِفُـهُ
إلّا إذَا ضَـاقَـتْ بِـكَ الْـحِـيَـلُ[٣]

لَا يَـسْـتَـحِـي أَحَـدٌ يُـقَـالُ لَـهُ
نَـضَـلُـوكَ آلُ بُـوَيْـهِ أوْ فَـضَـلُـوا[٤]

قَـدَرُوا عَـفَـوْا وَعَـدُوا وَفَـوْا سُـئِـلُـوا
أَغْـنَـوْا عَـلَـوْا أَعْـلَـوْا وَلُـوا عَـدَلُـوا[٥]

= بأسهل الأمور مؤثراً سلامة رأسه فسخا بشعبه ودياره في سبيل حماية نفسه ورأسه ولم يهتمَّ بمصير من أوكل أمرهم إليه.

(١) دلف: دنا وقرب. يسخر الشاعر من وهشوذان، فقد كلّفته رعونته وجهله فلم يحتسب لعواقب الأمور، وإنما تسرّع ورمى نفسه بين قوم أقوياء كثر لو تفلوا عليه بصاقهم لأغرقوه ولما استطاع العوم في هذه الحالة.

(٢) الغيل، الواحدة غيلة: القتل غدراً. يمدح الشاعر جيش عضد الدولة، لثقتهم بالنصر فهم لا يغدرون بعدوّهم بل إنهم يُجاهرون بعدائهم ويجاهرون بنواياهم فيقاتلونه علانية ويقهرونه فينزلون به الهزيمة النكراء.

(٣) يُخاطب الشاعر وهشوذان لائماً إيَّاه على تسرّعه ودخوله الحرب مع من هو أفرس منه، وهو على علم بذلك، مع أن فسحة الاتّفاق كانت متوفّرة له، ومع ذلك فقد غامر فخاب وخسر، ولكن إذا اضطرّ، في هذه الحالة فعذره معه، ولا غضاضة عليه حتى في حال خسر الحرب.

(٤) لا يستحي: لا يخجل. نضلوك: غلبوك. يصل إلى معادلة مفادها أن من غلبه بنو بويه لا يستحي، فهؤلاء أبطال لا يُغلبون، وهم باستمرار ينتصرون على عدوّهم.

(٥) يمدح آل بويه، إنهم يعفون عند المقدرة، وتلك من مكارم الأخلاق، ومن مكارمهم أنهم إذا وعدوا كان الوفاء من طبيعتهم، ومن سألهم أعطوه ما هو بحاجة إليه وأغنوه ممَّا يدلّ على كرمهم. ولقد واتتهم ظروف الغلبة فاعتلوا مراقي المجد وحملوا معهم أولياءهم ومؤيّديهم، ثم كانت لهم الولاية على أمور الناس فعدلوا واستتب الأمن في مملكتهم.

فَــوْقَ الــسَّــمَــاءِ وَفَــوْقَ مَــا طَــلَــبُــوا،
فَــإِذَا أَرَادُوا غَــايَــةً نَــزَلُــوا(١)
قَــطَــعَــتْ مَــكَــارِمُــهُــمْ صَــوَارِمَــهُــمْ،
فَــإِذَا تَــعَــذَّرَ كَــاذِبٌ قَــبِــلُــوا(٢)
لَا يَــشْــهَــرُونَ عَــلَــى مُــخَــالِــفِــهِــمْ
سَــيْــفــاً يَــقُــومُ مَــقَــامَــهُ الْــعَــذَلُ(٣)
فَــأَبُــو عَــلِــيٍّ مَــنْ بِــهِ قَــهَــرُوا
وَأَبُــو شُــجَــاعٍ مَــنْ بِــهِ كَــمَــلُــوا(٤)
حَــلَــفَــتْ لِــذَا بَــرَكَــاتُ غُــرَّةِ ذَا
فِــي الــمَــهْــدِ أَنْ لَا فَــاتَــهُــمْ أَمَــلُ(٥)

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٦. رفع الشاعر من مكانة آل بويه، إنّهم فوق السماء رفعةً وتخطّوْا ما كانوا يطلبون من منزلة ورفعة، ولذا فإذا أرادوا شيئاً دونهم نزلوا لينجزوه ثم ليعودوا حيث تبوّأوا بيسر وسرعة.

(٢) الصوارم، الواحد صارم: السيف القاطع. تعذّر: تعلّل بأعذار كاذبة فاختلقها. يمدح الشاعر آل بويه بكرم الأخلاق والحلم والتروي باستعمال السلاح، إنه آخر ما يلجأون إليه، فلو أن أحدهم عمد إلى الكذب في اعتذاره لقبلوا منه رغم قناعتهم بكذبه، وذلك تكرّم منهم.

(٣) يُردف الشاعر كلامه عن حلم آل بويه، فمن مكارم أخلاقهم أنهم لا يتسرّعون فيمتشقون سيوفهم، بل إنهم يُحذّرون ثم يهدّدون، فإن ارعوى مخالفهم وأذعن لهم كانت له الكرامة، وإلّا فالسيف آخر الكيّ بعدما تكون كل وسائل الإغراء قد عرضت عليه من لوم وعذل وو...

(٤) يُشيد الشاعر بأبي علي والد عضد الدولة، قامت الدولة على أكتافه واستقرّ كيانها بأبي شجاع عضد الدولة، فنهضت واكتملت عناصر السيادة لها والقوّة.

(٥) الغرّة: الطلعة. إنه الحظّ الموفق، بدأ بركن الدولة فحصّل أسباب استقرار الملك فيه وفي بنيه من بعده، ولقد كانت ولادة فناخسرو بشارة خير، فتوسّم الوالد في ولده النجابة وحسن الطالع، فكان أن تهافتت عليه دلائل التوفيق في كل حرب دخلها وكلّ مال توفّر بين يديه لسعادة خلائفه من بعده، فانتعش الأمل بمولد ابنه.

فخر الفتى بالنفس والأفعال

يمدحه ويذكر خروجه للصيد بموضع يعرف بدشت الأرزن:

[السريع]

مَا أَجْدَرَ الأيَّامَ وَاللَّيَالِي
بِأَنْ تَقُولَ مَا لَهُ وَمَا لِي؟![(١)]

لَا أَنْ يَكُونَ هٰكَذَا مَقَالِي
فَتًى بِنِيرَانِ الْحُرُوبِ صَالِ[(٢)]

مِنْهَا شَرَابِي وَبِهَا ٱغْتِسَالِي
لَا تَخْطُرُ الْفَحْشَاءُ لِي بِبَالِ[(٣)]

لَوْ جَذَبَ الزَّرَّادُ مِنْ أَذْيَالِي
مُخَيِّراً لِي صَنْعَتَيْ سِرْبَالِ[(٤)]

---

(١) الأجدر: الخليق. يبدأ الشاعر قصيدته المدحيّة بالحديث عن نفسه وصراعه مع الدهر الذي لم يُعنه على تحقيق آماله في هذه الحياة. إنها علاقة تشاحن وتنافر، فحقّ للدهر أن يستغرب أفعال المتنبي في هذه الحياة، وأن يستفسر عن أسباب التنافر بينه وبين المتنبي، فقد بذل ما باستطاعته ليحقّق أهدافه من هذه الحياة فأتعب وتعب بجهد مضنٍ، فلم يُحالفه التوفيق في تحقيق بعض أحلامه.

(٢) صال: يقاسي حرّ نيران الحروب. يعذر الشاعر الدهر بأنه يتأفّف منه لأنه لم يستطع مسايرة الشاعر في ما يرغب بتحقيقه؛ إنه فتًى اكتملت فيه عناصر الفتوة من شجاعة ومجابهة الأخطار والجلد والصبر على المكاره ومقاساة الحروب والاصطلاء بنيرانها، لذا فإنه لن يشكو إلى الدهر معاناته، بل إنه لا يزال قادراً على النضال والتحمّل في سبيل أسمى الغايات.

(٣) الفحشاء: الرذائل والفواحش والزنى. يتحدث عن تمازجه كليًّا بالحروب بحيث أصبحت شرابه المفضل، فيها يستروح طعم الحياة الحقيقي، وبها اغتساله فتطهره من أدران تعلق به من جراء التعامل مع أنماط عديدة من البشر كتبوا على جبين الدهر ولم يكونوا من أبنائه. ثم يتحدّث عن ظاهرة إيجابية في قاموس الأخلاق الرفيعة، إنه لم يقرب الزنى فضلاً عن أنه لم يخطر بباله ولا على خياله.

(٤) جذب: شدّ بقوّة. الزرّاد: صانع الدروع. السربال: القميص، ليكون الفارس مكتمل السلاح عليه أن يصطنع لنفسه درعاً يتّخذه له واقياً ليردّ عنه ضربات أعدائه، فكان أن =

مَـا سُـمْـتُـهُ سَـرْدَ سِـوَى سِـرْوَالِ
وَكَـيْـفَ لَا وَإِنَّـمَـا إِدْلَالِـي [(١)]
بِـفَـارِسِ الْـمَـجْـرُوحِ وَالشَّـمَـالِ
أَبِـي شُـجَـاعٍ قَـاتِـلِ الأَبْـطَـالِ [(٢)]
سَـاقِـي كُـؤُوسِ الْـمَـوْتِ وَالْـجِـرْيَـالِ
لَـمَّـا أَصَـارَ الْـقُـفْـصَ أَمْـسِ الْـخَـالِـي [(٣)]
وَقَـتَّـلَ الْـكُـرْدَ عَـنِ الْـقِـتَـالِ
حَـتَّـى ٱتَّـقَـتْ بِـالْـفَـرِّ وَالإِجْـفَـالِ [(٤)]
فَـهَـالِـكٌ وَطَـائِـعٌ وَجَـالِ
وَٱقْـتَـنَـصَ الْـفُـرْسَـانَ بِـالْـعَـوَالِـي [(٥)]

= جذبه الزرّاد ليستشيره مخيّراً عمّا يتطلبه في درعه من صفات يُحبّ أن يتحلّى بها الدرع.

(١) و (٢) سمته: كلّفته. إدْلالي: تيهي وفخري. المجروح والشمال: من خيول عضد الدولة. يُعلن الشاعر أنه لا يهتمّ بالدروع، فسيفه يردّ به كيد من حدّثته نفسه بقتاله، وإنما هو بحاجة إلى سروالٍ يستر به عورته، ممّا ينمّ عن تعفّفه وبعده عن الفحشاء والزنى، ويكفيه أن فخره واعتزازه مبعثه فارس المجروح والشمال، إنه أبو شجاع عضد الدولة قاتل الأبطال في ساحات النضال.

(٣) الجريال: صباغ أحمر تشبه به الخمرة. القفص: جيل من البشر كانوا ينزلون بجبال كرمان. أمس الخالي: الماضي. يمدح الشاعر عضد الدولة بالقوّة والجبروت، إنه ساقٍ كؤوس الموت؛ والسقيا تدلّ على الحياة، فإذا بها الآن تدلّ على الموت لأعدائه، كما أنه يسقي الخمرة لأصحابه، وتلك عادة فارسية متأصلة فيهم قبل الإسلام، وقد قضى عضد الدولة على تلك الجماعة من البشر بلا رحمة فأصبحوا هلكى في الماضي القريب.

(٤) و (٥) ويعدّد المتنبي مآثر عضد الدولة وسفكه الدماء، وقد كان عاشقاً سفّاكاً للدماء بداعي الغلبة والقهر، فقتّل الكرد حتى أذلّهم، فامتنعوا منه بالهروب من وجهه، وهم بين هالك أو طائع خاضع يتجرّع ذلّ المسكنة، أو نازح عن وطنه مرغماً لرفضه البقاء تحت عسف وطغيان بني بويه، ولقد اصطاد عضد الدولة فرسان القوم بالرماح الطويلة.

وَالْـعُـتُـقِ الـمُـحْـدَثَـةِ الـصِّـقَـالِ

سَـارَ لِـصَـيْـدِ الْـوَحْـشِ فِـي الْـجِـبَـالِ (١)

وَفِـي رِقَـاقِ الأَرْضِ وَالـرِّمَـالِ

عَـلَـى دِمَـاءِ الإِنْـسِ والأَوْصَـالِ (٢)

مُـنْـفَـرِدَ الـمُـهْـرِ عَـنِ الـرِّعَـالِ

مِـنْ عِـظَـمِ الـهِـمَّـةِ لَا الـمَـلَالِ (٣)

وَشِـدَّةِ الـضَّـنِّ لَا الاَسْـتِـبْـدَالِ

مَـا يَـتَـحَـرَّكْـنَ سِـوَى ٱنْـسِـلَالِ (٤)

---

(١) ويُردف الشاعر أن عضد الدولة استعان بسيوف قديمة متوارثة عن أجداده صقلها كثرة استعماله لها، فكانت قاطعة للأعمار والأرزاق، ومن حبّه لسفك الدماء فإنه لم يكفه من قتل من البشر بل إنه راح يُلاحق الوحوش بالجبال ليقضي عليها ليرعب البشر والحيوانات فلا يمتنع عنه أحد، فالكلّ يخضع طوعاً أو كرهاً.

(٢) الرقاق من الأرضين: اللينة منها. الإنس: البشر، الأوصال: المفاصل. فكرة التشفي القرمطية لا تني تلازم تفكير المتنبي حتى في آخر أيامه. يردف الشاعر أن عضد الدولة يُتابع جولته الدموية، إنه يطأ الدماء التي سكبها في الأرض ولا يكتفي رغم كثرة ما سفك من دماء.

(٣) الرعال، الواحدة رعلة: الكتيبة من الخيول. يصف الشاعر مسلك ممدوحه، إنه يتنحّى جانباً تاركاً حراسه وجيشه يودّ أن ينفرد بنفسه، فتلك عادته لعظم قوته وثقته بشجاعته لا ضجراً من مسايرتهم واتكالاً على حمايتهم.

(٤) الضنّ: البخل. الانسلال: الخروج من بين أصحابه دون أن يدري به أحد. يصف الشاعر الطريقة التي يستطيع من خلالها الخروج من بين عسكره خفية فلا يشعرون به، ممتطياً فرساً خفيف الوطء والحركة، وهو يعمد إلى ذلك ضنًّا بنفسه عن صحبة جنده، ومع ذلك لا يستبدلهم بغيرهم، كما أن خيله لا تُحدث صوتاً عندما تسير إلى جنبه هيبة له. إنها المبالغات التي يعمد إليها المتنبي، فلا يُعقل أن يترك القائد جنده مهما كان شجاعاً إلّا إذا كان يخاف غدرهم، وفي هذه الحالة عليه بتغييرهم.

فَـهُـنَّ يُـضْـرَبْـنَ عَـلَـى الـتَّـصْـهَـالِ
كُـلُّ عَـلِـيـلٍ فَـوْقَـهَـا مُـخْـتَـالِ (١)
يُـمْـسِـكُ فَـاهُ خَـشْـيَـةَ الـسُّـعَـالِ
مِـنْ مَـطْـلَـعِ الـشَّـمْـسِ إِلَـى الـزَّوَالِ (٢)
فَـلَـمْ يَـئِـلْ مَـا طَـارَ غَـيْـرَ آلِ
وَمَـا عَـدَا فَـانْـغَـلَّ فِـي الأدْغَـالِ (٣)
وَمَـا احْـتَـمَـى بِـالـمَـاءِ وَالـدِّحَـالِ
مِـنَ الْـحَـرَامِ الـلَّـحْـمِ وَالْـحَـلاَلِ (٤)
إِنَّ الـنُّـفُـوسَ عَـدَدُ الآجَـالِ
سَـقْـيـاً لِـدَشْـتِ الأَرْزَنِ الـطُّـوَالِ (٥)

---

(١) و (٢) التصهال: الصهيل. المختال: التيَّاه المستكبر. يصف الشاعر جلال الموقف، فالجياد تُضرب لصهيلها تأديباً لها لأنها اخترقت السكون وعكّرت صفو هدوء الممدوح، وفوق متون تلك الجياد أبطال معجبون بأنفسهم يتيهون بتكبّرهم، ورغم ذلك فإنهم يتصاغرون أمام ملكهم احتراماً له وتقديراً لهيبته؛ فالواحد منهم يتماسك ويضغط على نفسه لئلّا يسعل فيُفسد من كان المقصود عدم إزعاجه وتعكير صفوه، لزمن ليس بالقصير، يمتدّ من مطلع الشمس حتى زوال الشمس بعد الظهيرة.

(٣) لم يئل: لم ينج. غير آلٍ: غير مقصّر. عدا: ركض. الأدغال، الواحد دغل: الآجام الكثيرة الشجر. انغل: دخل. إنها رحلة صيد، فلم ينج من شراكه وحرابه طير بدا له أو حيوان عنّ أمام ناظريه، إلّا ما سارع إلى الاختفاء في الأدغال، ومع ذلك فإنه له بالمرصاد، يلاحقه ليكون من طرائده.

(٤) احتمى: اختبأ. الدحال، الواحد دحل: الشقوق في الأودية. يُردف الشاعر وصف مطاردة ممدوحه لسائر الحيوانات، ما لجأ منها إلى مخبئه في شقوق الأرض وتحصّن في داخلها ممَّا يحلّ أكله ويحرم، فكلّه من ضحايا عضد الدولة.

(٥) الآجال، الواحد أجل: ميعاد الموت والقضاء، دشت الأرزن: موضع بشيراز، والدشت: الصحراء. والأرزن: ضرب من الشجر. الطُّوال: مبالغة بالطول. إن لكل ذي روح أجلاً، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، ثم يدعو الشاعر لدشت الأرزن بالسقيا.

بَـيْـنَ الـمُـرُوجِ الْـفِـيـحِ وَالأَغْـيَـالِ
مُـجَـاوِرِ الْـخِـنْـزِيـرِ لِـلـرِّئْـبَـالِ[١]
دَانِـي الْـخَـنَـانِـيـصِ مِـنَ الأَشْـبَـالِ
مُـشْـتَـرِفِ الـدُّبِّ عَـلَـى الْـغَـزَالِ[٢]
مُـجْـتَـمِـعِ الأَضْـدَادِ وَالأَشْـكَـالِ
كَـأَنَّ فَـنَّـاخُـسْـرَ ذَا الإِفْـضَـالِ[٣]
خَـافَ عَـلَـيْـهَـا عَـوَزَ الْـكَـمَـالِ
فَـجَـاءَهَـا بِـالْـفِـيـلِ وَالْـفَـيَّـالِ[٤]
فَـقِـيـدَتِ الأَيَّـلُ فِـي الْـحِـبَـالِ
طَـوْعَ وُهُـوقِ الْـخَـيْـلِ وَالـرِّجَـالِ[٥]
تَـسِـيـرُ سَـيْـرَ الـنَّـعَـمِ الأَرْسَـالِ
مُـعْـتَـمَّـةً بِـيَـبِـسِ الأَجْـذَالِ[٦]

---

(١) الفيح، الواحد فيح: الواسعة. الأغيال، الواحد غيل: الآجام. الرئبال: من أسماء الأسد. يصف الشاعر ذلك الدغل، إنه عالم واسع لمختلف أنواع الحيوانات العشبي منها فيكون صيداً لأكلة اللحوم كالأسود والخنازير، والكلّ صيد سهل لعضد الدولة.

(٢) الداني: القريب. الخنانيص، الواحد خنوص: جرو الخنزير. الأشبال، الواحد شبل: صغير الأسد. مشترف: مشرف. يذكر الشاعر أن تلك الأدغال مجمع تجتمع فيه معظم الحيوانات، مختلفة البيئات، فالخنانيص تتعايش مع الأشبال وتتجاور، والدّبّ فيها مشرف على الغزال، وكلاهما ينعم بحياته الطبيعية.

(٣) و (٤) إنه مجتمع حيواني يكاد يكون جنينة حيوانات، قصد منها فناخسرو أن تكون تلك الأدغال محميّة تتعايش فيها سائر الحيوانات؛ العشبي منها كالغزلان والأرانب وسواها إلى جانب المفترس منها كالأسود والخنازير وسواها، وكان منه أن أحضر إليها الفيلة والفيّالة لتسوس وتقوم على خدمتها ورعايتها.

(٥) الأيّل، الواحد أيل: الخراف الجبلية. الوهوق، الواحد وهق: الحبال تؤخذ فيها الدواب. يُتابع الشاعر وصف تلك الأدغال، فحتى الأيائل التي من طبيعتها تسلّق الجبال والفرار من البشر، فقد قيّدت بالحبال، يقوم على سياستها فرسان ورجّالة لحفظها ورعايتها لجعلها أليفة.

(٦) النعم: الماشية. الأرسال، الواحد رسل: القطيع من الإبل. معتمة: تضع العمامة =

وُلِـدْنَ تَـحْـتَ أَثْـقَـلِ الأحْـمَـالِ

قَـدْ مَـنَـعَـتْـهُـنَّ مِـنَ الـتَّـفَـالِـي [١]

لَا تَـشْـرَكُ الأجْـسَـامَ فِـي ٱلْـهُـزَالِ

إِذَا تَـلَـفَّـتْـنَ إِلَـى الأظْـلَالِ [٢]

أَرَيْـنَـهُـنّ أَشْـنَـعَ الأمْـثَـالِ

كَـأَنَّـمَـا خُـلِـقْـنَ لِـلإذْلَالِ [٣]

زِيَـادَةً فِـي سُـبَّـةِ الْـجُـهَّـالِ

وَالْـعُـضْـوُ لَـيْـسَ نَـافِـعـاً فِـي حَـالِ [٤]

لِـسَـائـرِ الْـجِـسْـمِ مِـنَ الْـخَـبَـالِ

وَأَوْفَـتِ الْـفُـدْرُ مِـنَ الأوْعَـالِ [٥]

= على رأسها. الأجذال، الواحد جذل: جذع الشجرة. يردف الشاعر ذكر ما آلت إليه أمور تلك الأيائل، لقد روّضت، فإذا بها تسير سيراً هادئاً جماعات كالجمال والماشية بعدما كانت تعتلي قمم الجبال برشاقتها، وهي تعتمّ بقرونها الكبيرة كأنها تحمل أعواداً يابسة من الأجذال.

(١) يقصد بأثقل الأحمال: قرونها. التفالي: تنظيف رؤوسها. يُتابع الشاعر وصف ما عليه الأيائل من رؤوس تُوّجت بقرون تحول دون تنظيف رؤوسها، ولقد اكتسبتها الذكور منها علامة على بلوغها سنّ التزاوج من شياهها.

(٢) و (٣) و (٤) الهزال: نحول الجسم. السبة: العار يُسب المرء به. يذكر الشاعر ظاهرة جمالية، فجمال خراف الأيائل بقرونها في حال اكتمال صحّتها، فإذا دبّ النحول في أجسادها بدت بشعة، ذلك أن تلك القرون كبيرة متعرّجة تحملها رؤوس تبدو صغيرة بالنسبة لها، فكأن قرونها العظيمة مدعاة إذلال للجهلة وتعيير لهم، حيث يشير الشاعر إلى قول العامة يحقرون غيرهم: يا قرنان، وهو من لا يغار على عرضه ونفسه. والقرن لا نفع له في كلّ حال.

(٥) الخبال، الفساد. أوفت: أشرفت. الفدر: الواحد فدور: المسنّ من الأوعال. يرى الشاعر أن القرون لا فائدة منها إذا أصاب الشلل تلك الأيائل، فلم تعد تتسلّق الجبال لتقدّمها في السنّ، فاعتادت حياة السهول والرتع فيها لكثرة العشب فيها.

مُـــرْتَـــدِيَـــاتٍ بِـــقِـــسِـــيِّ الـــضَّـــالِ
نَـــوَاخِـــسَ الأَطْـــرَافِ لِـــلأَكْـــفَـــالِ(١)
يَـــكَـــدْنَ يَـــنْـــفُـــذْنَ مِـــنَ الآطَـــالِ
لَـــهَـــا لِـــحًـــى سُـــودٌ بِـــلَا سِـــبَـــالِ(٢)
يَـــصْـــلُـــحْـــنَ لِـــلإِضْـــحَـــاكِ لَا الإِجْـــلَالِ
كُـــلُّ أَثِـــيـــثٍ نَـــبْـــتُـــهَـــا مِـــتْـــفَـــالِ(٣)
لَـــمْ تُـــغْـــذَ بِـــالْـــمِـــسْـــكِ وَلَا الْـــغَـــوَالِـــي
تَـــرْضَـــى مِـــنَ الأَدْهَـــانِ بِـــالأَبْـــوَالِ(٤)
وَمِـــنْ ذَكِـــيِّ الـــمِـــسْـــكِ بِـــالـــدَّمَـــالِ
لَـــوْ سُـــرِّحَـــتْ فِـــي عَـــارِضَـــيْ مُـــحْـــتَـــالِ(٥)
لَـــعَـــدَّهَـــا مِـــنْ شَـــبَـــكَـــاتِ الـــمَـــالِ
بَـــيْـــنَ قُـــضَـــاةِ الـــسُّـــوْءِ وَالأَطْـــفَـــالِ(٦)

---

(١) و (٢) الضال: السدر البرّي. الآطال، الواحد إطل: الخواصر. ينفذن: يخترقن. السبال، الواحدة سبلة: الشوارب. يصف الشاعر عظم طول تلك القرون فكأنها قسيّ ركّبت في رؤوسها، فراحت تنخس أكفالها. حتى كادت تنفذ من خواصرها لشدّة استدارتها وطولها. وهي تمتاز بطول لحاها التي تتدلى فتبدو مضحكة ولا تحمل على الاحترام والتقدير، ولا شوارب لها.

(٣) أثيث: كثيف. متفال: خبيث الرائحة، يتابع الشاعر وصف تلك اللحى، إنها مثار السخرية والإضحاك، فلا تحمل المرء على الاحترام والتقدير لأصحابها، إنها كثيفة تنبعث منها رائحة خبيثة.

(٤) الغوالي، الواحدة غالية: أخلاط من الطيب. يُردف الشاعر مظهراً مقته لتلك اللحى، إنها لم تعرف الطيب البتة، بل إنها كانت يكفيها البول تدهّن به، أليست من الحيوانات؟ إنها لا تميّز بين ما هو قبيح وما هو حسن.

(٥) الدمال: الزبل. العارضين: جانبي الوجه. سرّحت: مشّطت. لقد استبدلت الأيائل الطيب بالزبل وألفت رائحته، ولو كانت في وجه محتال لأمكنه الضحك على العامة فسلبهم أموالهم باسم الدين، وهم يتبرّكون به، وقد لا يعلم شيئاً من العلم والفقه، فيكون لصّا استغلّ الدين لمصلحته.

(٦) ينتقد الشاعر المتاجرين باسم الدين، إنهم يُطيلون أذقانهم، فيتولون المناصب الرفيعة =

شَــبِــيــهَــةِ الْإِدْبَــارِ بِــالإِقْــبَــالِ
لَا تُــؤْثِــرُ الْــوَجْــهَ عَــلَــى الْــقَــذَالِ[١]
فَــاخْــتَــلَــفَــتْ فِــي وَابِــلَــيْ نِــبَــالِ
مِــنْ أَسْــفَــلِ الــطَّــوْدِ وَمِــنْ مُــعَــالِ[٢]
قَــدْ أَوْدَعَــتْــهَــا عَــتَــلُ الــرِّجَــالِ
فِــي كُــلِّ كِــبْــدٍ كَــبِــدَيْ نِــصَــالِ[٣]
فَــهُــنَّ يَــهْــوِيــنَ مِــنَ الْــقِــلَالِ
مَــقْــلُــوبَــةَ الأَظْــلَافِ وَالْإِرْقَــالِ[٤]
يُــرْقِــلْــنَ فِــي الْــجَــوِّ عَــلَــى الْــمَــحَــالِ
فِــي طُــرُقٍ سَــرِيــعَــةِ الإِيــصَــالِ[٥]

= كالقضاء، والفتيا ويدّعون العلم، فتكون تلك اللحى خير معين لاصطياد أموال البسطاء الطيّبي النفوس من العامة.

(١) الإدبار: الذهاب. الإقبال: المجيء. القذال: مؤخّر الرأس. يُتابع الشاعر رسم صورة كريكاتورية لأصحاب تلك اللحى، إنها تبدو كثّة كلما دار صاحبها، سواء أقبل أو أدبر، فكانت تحيط برأسه جميعاً.

(٢) الطود: الجبل العالي. يصف الشاعر كيف تمّ اصطياد تلك الوعول؛ فثمّة من يرميها بالنبل من رأس الجبل فيصيب مقاتلها، وهي بين من يمطرها بنبله من عل ومن يُمطرها بنبله من سفح الجبل، إنها بين نارين لا ملجأ لها وموتها مؤكّد.

(٣) العتل: القسي الفارسية. الرجال، الواحد راجل. النصال، الواحدة نصلة: الحديدة المركبة في السهم. يُتابع الشاعر وصف ما حلّ بتلك الوعول، فقد أثخنتها قسي الرماة جراحاً، واستقرّت نصالها في أكبادها.

(٤) يهوين: يقعن. القلال، الواحدة قلة: الذرى، أعالي الجبال. الأظلاف، الواحد ظلف: الحافر المشقوق. الإرقال: ضرب من العدو السريع. يصف الشاعر سرعة سقوط الأوعال من أعالي الجبل إلى أسفله، فإذا بها تنقلب رأساً على عقب، أظلافهن مقلوبة إلى أعلى، وظهورهن إلى الأرض بحيث صار عدوهنّ على ظهورهن.

(٥) يُرقلن: يسرعن. المحال، الواحدة محالة: فقار الظهر. يُتابع الشاعر وصف سقوط =

يَـنَـمْـنَ فـيـهَـا نِـيـمَـةَ الـمِـكْـسَـالِ
عَـلَـى الْـقُـفِـيِّ أَعْـجَـلَ الْـعِـجَـالِ[١]
لَا يَـتَـشَـكَّـيْـنَ مِـنَ الْـكَـلَالِ،
وَلَا يُـحَـاذِرْنَ مِـنَ الـضَّـلَالِ[٢]
فـكَـانَ عَـنْـهَـا سَـبَـبَ الـتَّـرْحَـالِ
تَـشْـوِيـقُ إِكْـثَـارٍ إِلَـى إِقْـلَالِ[٣]
فَـوَحْـشُ نَـجْـدٍ مِـنْـهُ فـي بَـلْـبَـالِ
يَـخَـفْـنَ فـي سَـلْـمَـى وَفـي قِـيَـالِ[٤]
نَـوَافِـرَ الـضِّـبَـابِ وَالأَوْرَالِ،
وَالْـخَـاضِـبَـاتِ الـرُّبْـدِ وَالـرِّئَـالِ[٥]
وَالـظَّـبْـيِ وَالْـخَـنْـسَـاءِ وَالـذَّيَّـالِ
يَـسْـمَـعْـنَ مِـنْ أَخْـبَـارِهِ الأَزْوَالِ[٦]

= الأوعال، تتسارع في سقوطها على ظهورها من علٍ إلى سفح الجبل تماماً كمن يهوي من مكان عالٍ إلى أسفل الوادي.

(١) إنه نوم خامد من فقد الحياة كنوم كسلان أرهقه التعب، فانحطّ ساقطاً إلى الأرض بعنف.

(٢) الكلال: التعب. الضلال: الضياع. يُتابع الشاعر حديثه عن سقوط الوعول من أعلى الجبل إلى أسفله، إنهن لا يتأفّفن من تعب، فضلاً عن أنهن يهوين إلى أسفل الجبل، فطريقهن ممهّد، فلا يخفن الضياع فطريقهن مرسوم إلى الحضيض حتماً.

(٣) عاد الشاعر أخيراً إلى الحديث عن ممدوحه بعدما استطرد إلى ذكر عالم الحيوانات. فقد اكتفى بما اصطاد، ورغم قلّته، فهو كثير، فكان أن قرّر العودة إلى قصره.

(٤) البلبال: انشغال البال بالهموم، سلمى: أحد جبلي طيّئ. قيال: جبل في البادية. لشدّة ولع عضد الدولة بالصيد جعل وحوش جبل سلمى في بلاد طيّئ وجبل قيال في البادية يشغل بالها هموم وخوف من أن يعرّج عليهما لينقضّ على ما فيهما من وحوش لاصطيادها.

(٥) و (٦) الضباب، الواحد ضبّ: من حيوانات الصحراء يأكله البدو. الأورال، الواحد ورل: حيوان من فصيلة الضباب. الخاضبات الربد: النعام لأنها ربد الألوان، =

مَـا يَـبْـعَـثُ الْـخُـرْسَ عَـلَـى الـسُّـؤَالِ
فُـحُـولُـهَـا وَالْـعُـوذُ وَالْـمَـتَـالِـي[١]
تَــوَدُّ لَــوْ يُــتْـحِـفُـهَـا بِـوَالِـي
يَـرْكَـبُـهَـا بِـالْـخُـطْـمِ وَالـرِّحَـالِ[٢]
يُــؤْمِــنُــهَــا مِــنْ هٰــذِهِ الأَهْــوَالِ
وَيَـخْـمُـسُ الْـعُـشْـبَ وَلَا تُـبَـالِـي[٣]
وَمَــاءَ كُــلِّ مُــسْــبِــلٍ هَــطَّــالِ
يَـا أَقْـدَرَ الـسُّـفَّـارِ وَالْـقُـفَّـالِ[٤]
لَـوْ شِـئْـتَ صِـدْتَ الأُسْـدَ بِـالـثَّـعَـالِـي
أَوْ شِـئْـتَ غَـرَّقْـتَ الْـعِـدَى بِـالآلِ[٥]

= الرئال: فراخ النعام، الخنساء: المهاة، البقرة الوحشية، الذيال: الثور الوحشي. الأزوال، الواحد زول: كلّ ما هو يمتاز باللطف والظرافة المعجبة. كلّ ما في صحراء العرب من حيوانات قد سمعت بنهم عضد الدولة بحبه للصيد، وتنامت أخباره إلى مسامعها فأرعبها ما سمعت من عجيب أخباره في عالم الصيد.

(١) فحولها: ذكورها. العوذ، الواحد عائذ: الحديثة النتاج. المتالي: التي تتلوها صغارها. يقول الشاعر: إن جميع الحيوانات تودّ لو أن عضد الدولة يولّي عليها من جانبه من يجعل ولاءها له، فتُعلن خضوعها لأمره.

(٢) و (٣) تودّ: تريد. يتحفها: يسرها بهدية. الخطم، الواحد خطام: الرسن، الزمام. الرحال، الواحد رحل: غطاء ظهر الناقة. يُتابع الشاعر حديثه عن تلك الحيوانات التي تبغي العيش في ظل عضد الدولة هانئة مطمئنة تحت سلطانه بسلام، وترغب إليه أن يُعيّن عليها من قبله حاكماً فيروّضها ويضع في أعناقها الخطم فتعلن ولاءها له، حتى لو استأثر بخمس الأعشاب التي ترعاها.

(٤) المسبل من السحب: الماطر. السفار، الواحد سافر: المسافر. القفّال: الراجعين. يُخاطب الشاعر ممدوحه إنه أقدر الناس في كلّ حالاته مقبلاً ومدبراً؛ فتلك الحيوانات على استعداد لتتخلّى عن المياه التي تمطر الأرض التي تسرح فيها راضية راغبة بحمايته.

(٥) الآل: السراب الذي يبدو عند الظهيرة. الثعالي: الثعالب. ينوّه الشاعر بقدرة ممدوحه على عالم الحيوان، فبإمكانه تغيير المألوف من عاداتها، فلو شاء لجعل =

وَلَوْ جَعَلْتَ مَوْضِعَ الإِلَالِ
لَآلِئاً قَتَلْتَ بِاللّآلِي (١)

لَمْ يَبْقَ إلا طَرَدُ السَّعَالِي
في الظُّلَمِ الْغَائِبَةِ الْهِلَالِ (٢)

عَلَى ظُهُورِ الإِبِلِ الْأُبَّالِ
فَقَدْ بَلَغْتَ غَايَةَ الآمَالِ (٣)

فَلَمْ تَدَعْ مِنْهَا سِوَى الْمُحَالِ
في لا مَكَانٍ عِنْدَ لا مَنَالِ (٤)

يَا عَضُدَ الدَّوْلَةِ وَالْمَعَالِي
أَلنَّسَبُ ٱلْحَلْيُ وَأَنْتَ الْحَالِي (٥)

بِالْأَبِ لَا بِالشَّنْفِ وَالْخَلْخَالِ
حَلْياً تَحَلَّى مِنْكَ بِٱلْجَمَالِ (٦)

= الثعلب يصطاد الأسد. إنها مغالطة عجيبة، ومن ذلك أن الممدوح لو أراد لأمكنه إغراق أعدائه بالسراب.

(١) الإلال، الواحدة ألة: الحراب العريضة النصال. يُردف الشاعر فلو أراد إغراق أعدائه لأمكنه ذلك بغير الماء وحتى لو طعنهم باللآلئ بدل الحراب لأدّى ذلك إلى هلاكهم فقامت مقام الحراب، لأن النصر حليفه في كلّ ما ينويه.

(٢) و (٣) السعالي، الواحدة سعلاة: الغيلان. الظلم: الليالي الثلاث الأخيرة من الشهر، الإبل الأبّال: التي تستغني عن المياه بالرطب. لقد جال الممدوح في كل مجالات الحياة، فضلاً عن عالم الحيوان، ولم يتولّ طرد السَّعالي من البلاد، والسعلاة حيوان لا وجود له إلّا في مخيّلة العربي، اختلقه مصاحباً لليالي المظلمة، فعلى الممدوح أن يستعين بالإبل الأبّالي التي تستغني عن المياه بالرطب لأن رحلتها طويلة المسافة لإبعاد السعالي، ويُعقّب الشاعر أن ممدوحه لحسن حظه فقد حقّق سائر آماله من هذا الوجود.

(٤) المحال: المستحيل الحدوث. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه لقدرته الفذّة فقد حقّق آماله القابلة للتحقيق في عالم المرئيات والموجودات، ولقد ترك ما لا يُتوقّع حدوثه في عالم اللامرئيات، إن ذلك من حسن الفطن، يدلّ على ذكاء صاحبه المفرط.

(٥) و (٦) الحلى: مصاغ النساء وزينتها. الحالي: صاحب الحلي. الشنف: القرط يُعلّق =

وَرُبَّ قُبْحٍ وَحُلًى ثِقَالِ
أَحْسَنُ مِنْهَا الْحُسْنُ في المِعْطَالِ[(١)]
فَخْرُ الْفَتَى بِالنَّفْسِ وَالأَفْعَالِ
مِنْ قَبْلِهِ بِٱلْعَمِّ وَالأَخْوَالِ[(٢)]

= في أذن المرأة. يُخاطب الشاعر عضد الدولة، إنه ينتمي إلى نسب رفيع عالٍ، ورث عن أبيه أمجاداً، وهو بدوره امتداد لأبيه، ولقد حلّاك أبوك بجميل الصفات وليس بالحلى التي تتزيّن بها النسوة من الذهب والفضة والأقراط وسواها، فتلك أدوات مستجلبة، أما زينة المجد فمكتسبة متوارثة.

(١) و (٢) المعطال: الخالي من الحلى. يعطي الشاعر رأيه في المرء، فإن لم يكن يتحلّى بجميل الخصال والخلق والحسن والنسب الرفيع، فلا يزيده ما يتحلّى به من زينة، لأنها زيف وتمويه؛ فالقبيح بفعله سيبقى قبيحاً مهما حاول التمويه على الناس. والجميل جميل بفعاله حتى لو كان قبيحاً بهيئته، فإن أعماله تستميل الناس فيُحبّونه ويُبجّلونه. لذا افتخر المرء بنفسه وفعله ثم يكون فخره بمن ينتمي إليه من أبويه، أي أخواله وأعمامه، فإن كانوا صالحين فنِعمَّا هم، وإلّا فيكفي المرء فخراً عمله.

رويّ الميم

نور تظاهر فيك لاهوتيه

قال وهو في المكتب يمدح رجلاً، وأراد أن يستكشفه عن مذهبه:

[الكامل]

كُفِّي أَرَانِي وَيْكِ لَوْمَكِ أَلْوَمَا
هَمٌّ أَقَامَ عَلَى فُؤَادٍ أَنْجَمَا (١)

وَخَيَالُ جِسْمٍ لَمْ يُخَلِّ لَهُ الْهَوَى
لَحْماً فَيُنْحِلَهُ السَّقَامُ وَلَا دَمَا (٢)

وَخُفُوقُ قَلْبٍ لَوْ رَأَيْتِ لَهِيبَهُ
يَا جَنَّتِي لَظَنَنْتِ فِيهِ جَهَنَّمَا (٣)

وَإِذَا سَحَابَةُ صَدِّ حِبٍّ أَبْرَقَتْ
تَرَكَتْ حَلَاوَةَ كُلِّ حُبٍّ عَلْقَمَا (٤)

---

(١) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢: ٧، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٩، ١٥٥. كفّي: دعي واتركي. أنجم: أقلع، يقال: أنجمت السماء، إذا أقلعت عن المطر. «ومن عاب من ابتدائه مثل قوله: كفّي أراني وَيْك لومك أَلْوَمَا». أراني: عرّفني وأعلمني. ويك أصلها ويلك، حذفت اللام لكثرة الاستعمال. يُخاطب الشاعر العاذلة طالباً منها أن تكُفّ عن لومها له، والسبب أن الهمّ نزل بساحته لفراق الحبيب، ولومها إيّاه أحقّ بأن يُلام من قبله.

(٢) يُنحله: يهزله. السقام: الأمراض. عطف الشاعر الخيال على الهمّ، والخيال لا حقيقة له تُلمس، فالحبّ لم يُبقِ في جسمه شيئاً ذا بال من لحم ودم.

(٣) الخفوق: اضطراب القلب وشدّة خفقانه. لا زال الشاعر يُخاطب حبيبته كاشفاً عمّا يُعانيه من شدّة حبّه لها، فهي جنّته التي يستظلّ بفيئها وحنانها.

(٤) الحِبّ: المحبوبة. أبرقت: أبدت صدوداً. العلقم: ضرب من الشجر مرّ المذاق يعلّل الشاعر سبب تحوّل حلاوة الحبّ إلى عذاب مرّ المذاق.

يَــا وَجْــهَ دَاهِــيَــةَ الَّــذي لَــوْلَاكَ مَــا
أَكَلَ الـضَّـنـى جَـسَـدي وَرَضَّ الأعْـظُـمَـا[١]

إِنْ كَــانَ أَغْــنَــاهَــا الــسُّــلُــوُّ فَــإِنَّــنِــي
أَمْسَيْتُ مِـنْ كَـبِـدي وَمـنْـهَـا مُـعْـدِمَـا[٢]

غُــصْــنٌ عَــلَــى نَــقَــوَيْ فَــلَاةٍ نَــابِــتٌ
شَـمْـسُ الـنَّـهَـارِ تُـقِـلُّ لَـيْـلاً مُـظْـلِـمَـا[٣]

لَــمْ تُــجْــمَــعِ الأَضْــدَادُ فــي مُــتَــشَــابِــهٍ
إِلَّا لِـتَـجْـعَـلَـنِـي لِـغُـرْمِـي مَـغْـنَـمَـا[٤]

كَـصِـفَـاتِ أَوْحَـدِنَـا أَبِـي الْـفَـضْـلِ الَّـتي
بَـهَـرَتْ فَـأَنْـطَـقَ وَاصِـفِـيـهِ وَأَفْـحَـمَـا[٥]

يُــعْــطِــيــكَ مُــبْــتَــدِراً فَــإِنْ أَعْــجَــلْــتَــهُ
أَعْـطَـاكَ مُـعْـتَـذِراً كَـمَـنْ قَـدْ أَجْـرَمَـا[٦]

---

(١) الرّض: التحطيم والدقّ. الضنى: المرض. يُخاطب الشاعر حبيبته إنها داهية نزلت بساحته فحطّمت عظامه لذا بدا خيالاً لا روح فيه.

(٢) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ٦٨، أمالي ابن الشجري ٢: ٧. السلو: النسيان. روى ابن جني «مصرما» بدلاً من «معدما». المصرم والمعدم بنفس المعنى: المقطوع لشدّة فقره. يُعلّل الشاعر سوء حاله التي نزلت بساحته أن حبيبته قد نسيت حبّها له وتخلّت عن وصله فبات محترق الكبد.

(٣) نقوي، مثنى نقا: الكثيب من الرمال. الفلاة: الصحراء. تُقِلّ: تحمل. يصف الشاعر حبيبته بأنها غصن لدن استطال وامتشق يحمله ردفان ثقيلان، ووجهها مشرق إشراقة شمس الفجر الضاحك، يُزيّن رأسها شعر فاحم كظلمة الليل الدامس.

(٤) الغرم: العشق. المغنم: الغنيمة. يتغزل الشاعر بحبيبته، فقد استحوذت على صفات متضادّة تناسقت في جسم بديع، ممّا جعله سهل المغنم فعشقها.

(٥) بهر: أدهش. أفحم: أخرس. تخلّص الشاعر من الغزل إلى المدح، فممدوحه يجمع الأضداد، شأنه في ذلك شأن حبيبته؛ إنه مرّ علقم على أعدائه، حلو طيّب الشمائل على أحبّائه وصحبه، كريم ممّا جعله أوحد عصره؛ أعان ذلك مادحيه على وصفه بتلك الصفات.

(٦) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٠٥. ومن دلائل كرم ممدوحه الإسراع =

وَيَــرَى الـتَّـعَـظُّـمَ أَنْ يُـرَى مُـتَـوَاضِـعـاً
وَيَـرَى الـتَّـوَاضُـعَ أَنْ يُـرَى مُـتَـعَـظِّـمـاً(١)

نـصَـرَ الْـفَـعَـالَ عَـلَـى الـمِـطَـالِ كَـأَنَّـمَـا
خَـالَ الـسُّـؤَالَ عَـلَـى الـنَّـوَالِ مُـحَـرَّمَـا(٢)

يَـا أَيُّـهَـا الـمَـلَـكُ الـمُـصَـفَّـى جَـوْهَـراً
مِنْ ذَاتِ ذِي الـمَلَكُوتِ أَسْمَى مَنْ سَمَا(٣)

نُــورٌ تَــظَــاهَــرَ فِــيــكَ لاهُــوتِــيُّــهُ،
فَـتَـكَـادُ تَـعْـلَـمُ عِـلْـمَ مَـا لَـنْ يُـعْـلَـمَـا(٤)

وَيَــهِــمُّ فِــيــكَ إذا نَـطَـقْـتَ فَـصَـاحَـةً
مِـنْ كُـلِّ عُـضْـوٍ مِـنْـكَ أَنْ يَـتَـكَـلَّـمَـا(٥)

أَنَــا مُــبْــصِــرٌ وَأَظُــنُّ أنــي نَــائِــمٌ
مَـنْ كَـانَ يَـحْـلُـمُ بـالإلٰـهِ فـأَحْـلُـمَـا(٦)

= في العطاء، وقد يُسبق بالسؤال، فيُعطي ويعتذر كأنه اقترف ذنباً يستوجب ذلك، دلالة على أنه غاية في الكرم.

(١) ومن صفات الممدوح شدّة تواضعه، ففهمه للعظمة الظهور بتواضعه فيكسب قلوب الناس عامة ومحبيه خاصة، ولكنه يتعاظم أمام أعدائه.

(٢) المطال: التسويف والإخلاف بالوعد. والممدوح لا يُماطل ولا يسوّف، بل إنه فعّال سريع العطاء حتى إنه يظنّ الإلحاح في السؤال حراماً.

(٣) و (٤) الجوهر: الأصل. ذي الملكوت: اللّه عزّ وجلّ. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه ملك ينتمي إلى أصل رفيع المحتد، وقد باركه اللّه تعالى أعلى من سما من البشر. فإذا بالنور الإلهي يحلّ بحمد وجه فإذا به يطّلع على الغيب وتنكشف له الحجب.

(٥) و (٦) من نعم اللّه على الممدوح أن يكشف كلّ عضو لديه عمّا حلّ به من النور الإلهي ويُفصح عن سرّ عظمته. ولذا فالشاعر لم يتصوّر أنه يُواجه حقيقة بل إنه يظنّ أنه يحلم لأن نظره لم يقع على موجود بين البشر يُماثل، شأنه في ذلك لمن يريه خالق الوجود لاستمالة رؤياه في عالم الحضور الدنيوي.

كَـــبُـــرَ الْـــعِـــيَـــانُ عَـــلَـــيَّ إنَّـــهُ
صَـارَ الْـيَـقِـيـنُ مِـنَ الْـعِـيَـانِ تَـوَهُّـمَـا[١]
يَـــا مَـــنْ لِـــجُـــودِ يَـــدَيْـــهِ فـــي أمْـــوَالِـــهِ
نِـقَـمٌ تَـعُـودُ عَـلَـى الْـيَـتَـامَـى أنْـعُـمَـا[٢]
حَـــتّـــى يَـــقُـــولَ الـــنَّـــاسُ مَـــا ذَا عَـــاقِـــلاً،
وَيَـقُـولَ بَـيْـتُ الـمَـالِ مَـا ذا مُـسْـلِـمَـا[٣]
إذْكَـــارُ مِـــثْـــلِـــكَ تَـــرْكُ إذْكَـــارِي لَـــهُ
إذْ لَا تُـرِيـدُ لِـمَـا أُرِيـدُ مُـتَـرْجِـمَـا[٤]

الموت في الحرب عسل في الفم

وقال في صباه:

[الطويل]

إلَـــى أيِّ حِـــيـــنٍ أنْـــتَ فـــي زِيِّ مُـــحْـــرِمِ
وَحَـتّـى مَـتَـى فـي شِـقْـوَةٍ وَإلَـى كَـمِ[٥]
وَإلَّا تَـــمُـــتْ تَـــحْـــتَ الـــسُّـــيُـــوفِ مُـــكَـــرَّمـــاً
تَـمُـتْ وَتُـقَـاسِـي الـذُّلَّ غَـيْـرَ مُـكَـرَّمِ[٦]

---

(١) يُردف الشاعر قوله بأن المفاجأة الكبرى أن يرى إنساناً ما توفّرت فيه السّمات الرفيعة، فإذا بما يلمسه ويراه يبدو لعينيه توهّماً، وكأنه في حالة نحو شيء لا وجود له.

(٢) و (٣) يُخاطب الشاعر ممدوحه، فكرمه يعمّ اليتامى بنعمه، وكأنه ينتقم من ماله بإنفاقه في سبيل مساعدة هؤلاء؛ ممّا يحمل الناس على الاستغراب والدهشة، فينعتون عمله بالجنون؛ فالمال مال سائر المسلمين، وقد بعثره في وجه واحد.

(٤) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣١٢. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأن تذكيره بما جاء لأجله، ذلك أن الممدوح يعلم حال الشاعر وغاية مجيئه إليه، فلن يتطرّق إلى تذكيره بذلك.

(٥) و (٦) المحرم: من لبس لباس الإحرام، وهو لباس غير مخيط. الشقوة: سوء الحال وشدّة الفقر. يستنهض الشاعر نفسه طلباً للغنى والقوّة، فالموت لا بدّ منه، وثمّة فرق بين موت فيه عِزّة تحت السيوف، وموت على فراش الموت فيه ذلّ واستكانة.

فَـثِـبْ وَاثِـقـاً بـالـلَّـهِ وَثْـبَـةَ مَـاجِـدٍ
يَرَى المَوْتَ في الهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ في الْفَمِ (١)

شربت غير أثيم

حلف صديق له بالطلاق أن يشرب، فقال:

[الكامل]

وَأَخٍ لَـنَـا بَـعَـثَ الـطَّـلاَقَ أَلِـيَّـةً
لأُعَـلِّـلَـنَّ بِـهٰـذِهِ ٱلْـخُـرْطُـومِ (٢)
فَـجَـعَـلْـتُ رَدِّي عِـرْسَـهُ كَـفَّـارَةً
عَـنْ شُـرْبِـهَـا وَشَـرِبْـتُ غَـيْـرَ أَثِـيـمِ (٣)

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة

وقال في صباه:

[البسيط]

ضَـيْـفٌ أَلَـمَّ بِـرَأْسِـي غَـيْـرَ مُـحْـتَـشِـمِ
وَالـسَّـيْـفُ أَحْـسَـنُ فِـعْـلاً مِـنْـهُ بِـالـلِّـمَـمِ (٤)

---

(١) الهيجا: الحرب. جنى النحل: العسل. يستنهض الشاعر نفسه، وفي نفسه ثقة بأن النصر من لدن اللّه تعالى، وطعم النصر كطعم الشهد لذيذ، ذو أثر في النفس.

(٢) الألية: القسم. التعليل: التلهي بأي شيء. الخرطوم: الخمرة السريعة الإسكار. الإعلال: الشرب مرة بعد مرة. يذكر الشاعر أن صديقه أقسم عليه أن يشرب الخمرة بتمهّل تباعاً، وإلّا فإنه سوف يُطلّق زوجته.

(٣) العِرْس: الزوجة. الكفارة: ما يقدّمه المرء من عمل صالح يُغطّي ما وقع فيه من محرّمات. الآثم: المقترف الذنب. إكراماً لصديقه جرع الشاعر الخمرة، ولم يحمله على حليلته، وبذلك استجاب لصديقه في نفس الوقت وحمى بيت الزوجية.

(٤) يقصد الشاعر بالضيف الشيب. ألمّ: حلّ. المحتشم: الخجول. اللمم، الواحدة لِمّة: الشعر الذي جاوز شحمة الأذن وأدرك المنكبين. بدأ الشاعر قصيدته بمطلع وجداني تلفّه مسحة حزينة، لقد فاجأ الشيب الشاعر فنزل برأسه ضيفاً غير مرغوب فيه؛ إنه مقدّمة مرعبة تؤذن بالرحيل عن هذا الوجود، والشاعر لم يُحقّق أمانيه حتى الآن، وهو يتمنّى لو أن السيف أزال تلك البشاعة عنه.

إبـعَـدْ بَـعِـدْتَ بَـيَـاضـاً لا بَـيَـاضَ لَـهُ
لَأَنْـتَ أَسْـوَدُ فـي عَـيْـنِـي مِـنَ الـظُّـلَـمِ (١)

بِـحُـبِّ قَـاتِـلَـتِـي وَالـشَّـيْـبِ نَـغْـذِيَـتِـي
هَـوَايَ طِـفْـلاً وَشَـيْـبِـي بَـالِـغَ الْـحُـلُـمِ (٢)

فَـمَـا أَمُـرُّ بِـرَسْـمٍ لا أُسَـائِـلُـهُ،
وَلَا بِـذَاتِ خِـمَـارٍ لا تُـرِيـقُ دَمِـي (٣)

تَـنَـفَّـسَـتْ عَـنْ وَفَـاءٍ غَـيْـرِ مُـنْـصَـدِع
يَـوْمَ الـرَّحِـيـلِ وَشَـعْـبٍ غَـيْـرِ مُـلْـتَـئِـمِ (٤)

قَـبَّـلْـتُـهَـا وَدُمُـوعِـي مَـزْجُ أَدْمُـعِـهَـا
وَقَـبَّـلَـتْـنِـي عَـلَـى خَـوْفٍ فَـمـاً لِـفَـمِ (٥)

---

(١) ورد البيت في: خزانة الأدب، للبغدادي ٣: ٣٧٤، مغني اللبيب وشرح شواهده، للسيوطي: ٥٤٣. ولشدّة كراهة الشاعر لما حلّ به من الشيب ثارت ثائرته فإذا به يصرخ، والمرارة تملأ قلبه غيظاً وحنقاً: ابعد فبياض الشيب أشدّ سواداً وألماً في النفس من ظلمة الليل البهيم.

(٢) ورد البيت في أمالي ابن الشجري ١: ٧٠/ ٢: ٢٨١. رحلة العمر سريعة لدى الشاعر، ملأ الحبّ قلبه في طفولته الأولى وغزا الشيب رأسه، وقد أطلّ برأسه على شباب غضّ شوّهه ضيف ثقيل نزل بساحته، لا بدّ من معايشته، وهو غذاء يحمل معه طعم الموت.

(٣) الرسم: معالم الديارات التي امّحت. وذات الخمار كناية عن المرأة، يشرع الشاعر بإنشاد شيء من الغزل، فرحلته تتسارع به الخُطى، فهو يسأل الأطلال عن حبيبته، فتعي جواباً، وتعجز عن ردّ، فإذا به يسأل نسوة عسى أن تُجيبه إحداهن إجابة شافية، ولكن دون جدوى، وإن كان من جواب فهو جواب طعمه طعم الموت.

(٤) تنفّست: آذنت. منصدع: منشق. شعب: متفرّق. غير ملتئم: منصدع. عادت بالشاعر الذكرى إلى يوم رحيل حبيبته، ففي نظراتها لوعة الفراق والحزن منبئان عن حبّ انغرز في الأحشاء، وهي على يقين أن ذلك الفراق أبديّ، فلن يكون بعده لقاء.

(٥) ورد البيت في: خزانة الأدب، للبغدادي ١: ٥٢٦٦. كان اللّقاء حزيناً، دموع بلّلت الخدود، وقبلات انطبعت عليها، حتى التقت الشفاه بالشفاه.

قَـدْ ذُقْـتُ مَـاءَ حَـيـاةٍ مِـنْ مُـقَـبَّـلِـهـا
لَـوْ صَـابَ تُـرْبـاً لأَحْـيَـا سَـالِـفَ الأُمَـمِ (١)
تَـرْنُـو إِلَـيَّ بَـعَـيْـنِ الـظَّـبْـي مُـجْـهِـشَـةً
وَتَـمْـسَـحُ الـطَّـلَّ فَـوْقَ الـوَرْدِ بِـالْـعَـنَـمِ (٢)
رُوَيْـدَ حُـكْـمَـكِ فـيـنَـا غَـيْـرَ مُـنْـصِـفَـةٍ
بـالـنَّـاسِ كُـلِّـهِـم أُفـدِيـكِ مِـنْ حَـكَـمِ (٣)
أبْـدَيْـتِ مِـثْـلَ الَّـذِي أبْـدَيْـتُ مِـنْ جَـزَعٍ
وَلَـمْ تُـجِـنِّـي الَّـذي أَجْـنَـنْـتُ مِـنْ أَلَـمِ (٤)
إذاً لَـبَـزَّكِ ثَـوْبَ ٱلْـحُـسْـنِ أَصْـغَـرُهُ
وَصِـرْتِ مِـثْـلِـيَ فـي ثَـوْبَـيْـنِ مِـنْ سَـقَـمِ (٥)

---

(١) مقبّلها: فاهها. صاب: انهمر، سال. ويروى «فذقت» بدلاً من «قد ذقت». لقد رشف الشاعر من ثغر حبيبته ماء الحياة، فانتعشت روحه حتى لو أن قطرة أصابت ثرى الأرض العطشى لدبّت بها حياة، فإذا بالأموات يُحشرون على وجه الأرض رغم عهدهم بالموت، وقد دبّت بهم الحياة وانتعشت.

(٢) ترنو: تنظر حانية. مجهشة: أي أنها تُوشك على البكاء. الطلّ: يقصد به البكاء. العنم: شجر ليّن الأغصان تُشبّه به بنان الجواري. يصف الشاعر جمال عيني حبيبته، إنهما عينا ظبي، تتمثّل فيهما الرقة والجمال والدعة والحبّ، لذا فهي دامعة، وقد بلّلت وجنتيها دموع، فاختلط الندى بالورد الأحمر الممتلئ حيوية وجمالاً.

(٣) رويد: تمهّل. المنصف: العادل. حاولت الحبيبة التملّص من الشاعر، فإذا به يطلب منها أن تتمهّل قليلاً لينعم بلقائها، ولكنها مجبرة على الرحيل، وفي ذلك ظلم له، وهو مستعدّ للتضحية بسائر البشر لقاء حكم عادل منها ببقائها لينعم بحبّها.

(٤) الجزع: الخوف. تُجني: تُخفي. تبادل المشاعر بينهما، فالخوف حلّ مكان الاطمئنان في قلبيهما، ولكنه أكثر تأثّراً منها، فالألم يفيض في قلبه، ولكنه يُغالبه كي لا يُظهر ضعفاً يُعاب عليه.

(٥) بزّ: سلب. السقم: المرض. يُتابع الشاعر مسوّغاً عدم شدّة تأثّر حبيبته بأنها لو فعلت لسُلبت جمالها، وفي هذه الحالة تشارك الشاعر آلامه، فإذا بها ترتدي ثوبين: ثوب البشاعة وثوب المرض.

لَـيْـسَ الـتَّـعَـلُّـلُ بـالآمَـالِ مِـنْ أَرَبِـي
وَلا الْـقَـنَـاعَـةُ بـالإِقْـلالِ مِـنْ شِـيَـمِـي[١]

وَلا أَظُـنُّ بَـنَـاتِ الـدَّهْـرِ تَـتْـرُكُـنِـي
حـتـى تَـسُـدَّ عَـلَـيْـهَـا طُـرْقَـهَـا هِـمَـمِـي[٢]

لُـمِ الـلَّـيَـالِـي الَّـتـي أَخْـنَـتْ عَـلَـى جِـدَتِـي
بِـرِقَّـةِ الْـحَـالِ وَٱعْـذُرْنِـي وَلا تَـلُـمِ[٣]

أَرَى أُنَـاسـاً وَمَـحْـصُـولِـي عَـلَـى غَـنَـمٍ
وَذِكْـرَ جُـودٍ وَمَـحْـصُـولِـيَ عَـلَـى الْـكَـلِـمِ[٤]

وَرَبَّ مَـالٍ فَـقِـيـراً مِـنْ مُـرُوءَتِـهِ
لَـمْ يُـثْـرِ مِـنْـهَـا كَـمَـا أَثْـرَى مِـنَ الْـعَـدَمِ[٥]

---

(١) التعلّل: اللهو بشيء ما دون شيء آخر أكثر أهمية. الأرب: المراد. شيمي: أخلاقي. ليس من طبيعة الشاعر اللهو بسفاسف الأمور أو إضاعة العمر في ما لا فائدة فيه ولا القناعة بالقليل من سبل القوّة في الحياة. بل إنه يسعى لتحصيل كلّ أسباب السيادة كجمع المال والسؤدد.

(٢) بنات الدهر: مصائبه وويلاته. الهمم، الواحدة هِمَّة: إرادة. الأخذ بالحذر والأسباب المؤدية إليه أهم ضروب النجاح في الحياة؛ فالشاعر لن يتوانى حتى تُفاجئه المصائب بدهائها ومكرها، بل إنه يُسارع لمقارعتها فيسبقها بحيث يمنعها من إضعافه، وبالتالي يسدّ عليها كلّ الذرائع فيتقوّى بالغنى والأنصار.

(٣) أخنت عليه الليالي: أتت عليه وأهلكته. الجِدة: كلّ ما هو جديد، كالمال والعمر وسواهما. رِقّة الحال: الفقر. يُخاطب الشاعر لائمه على ما هو عليه من سوء حالٍ طالباً منه أن يلوم الدهر الذي أبلى جِدته فحرمه من شبابه وما حصّله من مال فأفقره وسلبه أعزّ ما لديه؛ إنه جدير بالاعتذار.

(٤) الجود: الكرم. تبدو نِقمة الشاعر على أهل زمانه؛ إنهم غنم يسيرهم الأقوياء فلا إرادة لهم، ولا قوّة: والأغنياء يوهمونهم بجودهم فإذا به وعود كاذبة، والرجولة الحقّة تكمن بإنفاذ الوعود لا بالكلام.

(٥) أثرى: اغتنى. العدم: الفقر. ونظرة الشاعر إلى من اغتنى بعد فقر نظرة سوداوية، فقد ازداد هذا مالاً، وافتقر مروءة.

سَيَصْحَبُ النَّصْلُ مِنِّي مِثْلَ مَضْرِبِهِ
وَيَنْجَلي خَبَرِي عَنْ صِمَّةِ الصَّمَمِ (١)

لَقَدْ تَصَبَّرْتُ حتَّى لاتَ مُصْطَبَرٍ
فَالآنَ أُقْحِمُ حَتَّى لاتَ مُقْتَحَمِ (٢)

لأتْرُكَنَّ وُجوهَ ٱلْخَيْلِ سَاهِمَةً
وَٱلْحَرْبُ أقْوَمُ مِنْ سَاقٍ عَلَى قَدَمِ (٣)

والطَّعْنُ يُحْرِقُهَا وَالزَّجْرُ يُقْلِقُهَا
حَتَّى كَأَنّ بِهَا ضَرْباً مِنَ اللَّمَمِ (٤)

قَدْ كلّمَتْهَا الْعَوَالِي فَهْيَ كَالِحَةٌ
كَأَنَّمَا الصّابُ مَذْرُورٌ عَلَى اللُّجُمِ (٥)

بِكُلِّ مُنْصَلِتٍ مَا زَالَ مُنْتَظِرِي
حتى أدَلْتُ لَهُ من دَوْلَةِ ٱلْخَدَمِ (٦)

---

(١) النصل: السيف، مضرب السيف: حدّه القاطع. الصمّة: الشجاع. الشاعر ماضٍ، ذو عزيمة وإرادة عظيمتين، إنه بمثابة سيف قاطع في ميادين القتال، وستكشف الأحداث عن بطل لا يهاب شيئاً، عن بطل همام ليس كمثله شيء.

(٢) يُطلعنا الشاعر على خطة المجابهة حيث لا يتردّد حتى يُحقّق ما يسمو إليه، وقوام ذلك صبر في الملمات واقتحام للأهوال عندئذٍ تتحقّق الآمال العظام.

(٣) يُتابع الشاعر رسم خطته؛ وقوامها خيل ساهمة لا تعي على شيء لشدّة المعركة، وتلاحم الأبطال في المعمعة لا تبقي ولا تذر.

(٤) الزجر: الصياح. اللمم: الجنون. يروى «يخرقها» بدلاً من «يحرقها». يتابع الشاعر ما عليه الخيول من جنون الحركة، فهي تُقابل ضربات الأعداء بصدورها، وتهزّها أصوات فرسانها طلباً للظفر والانتصار، فإذا بها تبدو في حالة جنون مطبق لتستوعب ما يحصل في قتام المعركة.

(٥) كلّمتها: جرحتها. العوالي: الرماح. كالحة: عابسة، مكشّرة. الصاب: ضرب من النبات. مذرور: مرشوش. يروى «معصوب» و«معصور» بدلاً من «مذرور». يُردف الشاعر واصفاً جنون الخيول؛ لقد أصابتها الجراح؛ فالرماح تصيب منها مقاتلها، لذا فهي عابسة مكشّرة سخطاً وغضباً كأن عُصارة أثارتها، وقد صُبّت على اللجم.

(٦) المنصلت: الرجل الماضي في حوائجه. أدلت له: أعانته لتكون له الغلبة على عدوّه. =

شَيْخٌ يرَى الصّلَوَاتِ ٱلْخَمْسَ نَافِلَةً
وَيَسْتَحِلُّ دَمَ ٱلْحُجّاجِ في الحَرَمِ[(١)]

وَكُلّمَا نُطِحَتْ تَحْتَ الْعَجَاجِ بِهِ
أُسْدُ الْكَتَائِبِ رَامَتْهُ وَلم يرِمِ[(٢)]

تُنْسِي الْبِلَادَ بُرُوقَ ٱلْجَوِّ بَارِقَتِي
وَتَكْتَفي بالدّمِ الْجَارِي عَنِ الدِّيَمِ[(٣)]

رِدِي حِيَاضَ الرَّدَى يَا نَفْسُ وَٱتّرِكي
حِيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى لِلشّاءِ وَالنَّعَمِ[(٤)]

إنْ لَمْ أذَرْكِ عَلَى الأَرْمَاحِ سَائِلَةً
فَلَا دُعِيتُ ٱبْنَ أُمِّ الْمَجْدِ وَالْكَرَمِ[(٥)]

= وخروج الشاعر على دولة الخدم ليُديل حكمهم، فثمّة من ينتظر نصرته لتكون له الغلبة على عدوّه ويقضي على دولة الظلمة.

(١) النافلة: الصلوات السنن غير الفرائض الخمس. ومن تأثير الفكر القرمطي أن الأتباع يرون الصلوات الخمس شيئاً عرضياً، وليس غاية تعبّدية بحدّ ذاتها، وغايتهم البعيدة تحويل الخلافة والسلطان إلى العنصر الذي ينتمون إليه، ولقد أحلّوا دماء المسلمين في موسم الحجّ في الحرم المكيّ.

(٢) العجاج: الغبار. الكتائب، الواحدة كتيبة: الفرقة من الجند. رامته: أي زالت عن مراكزها. ولم يرم: أي لم يزل صامداً ولم يتزحزح عن مكانه. يمدح الشاعر نفسه بأنه لا ينهزم أبداً، يبقى ثابت الجنان، بينما أعداؤه ينهزمون فيتقهقرون متنازلين عن مراكزهم.

(٣) يقصد الشاعر ببارقتي سيوفه. الديم، الواحدة ديمة: الأمطار الدائمة الهطلان. ومن مغالاة الشاعر أن سيوفه تبرق مؤذنة بأنهار من الدماء، ممّا يثير الرعب في قلوب أعدائه فينسون الأمطار وما تحمله من خير، ولكنهم لن ينسَوا الدماء التي يُريقها منهم.

(٤) الردى: الموت. يُخاطب الشاعر نفسه مثيراً فيها الحماسة لتشرب كأساً لا بدّ لها من وروده بلا تردّد؛ فالقتل للأبطال وليس للبهائم.

(٥) يذر: يترك. يُتابع الشاعر مخاطبته نفسه؛ فهو يتمنّى أن يُقتل تحت أسنة الرماح، وإلّا فإنه لا يراها جديرة بأن تتبوّأ أسمى درجات المجد.

أيَـمْـلِـكُ الـمُـلْـكَ وَٱلْأسْـيَـافُ ظَـامِـئَـةٌ
وَالـطّـيْـرُ جَـائِـعَـةٌ لَـحْـمٌ عـلـى وَضَـمِ (١)

مَـنْ لَـوْ رآنِـيَ مَـاءً مَـاتَ مِـنْ ظَـمَـإِ
وَلَـوْ عَـرَضْـتُ لـهُ فـي الـنّـوْمِ لَـمْ يَـنَـمِ (٢)

مِـيـعَـادُ كـلِّ رَقِـيـقِ الـشَّـفْـرَتَـيْـنِ غَـداً
وَمَـنْ عَـصَـى مِـنْ مُـلُـوكِ الْـعُـرْبِ وَالْـعَـجَـمِ (٣)

فَـإنْ أجَـابُـوا فَـمَـا قَـصْـدِي بِـهـا لَـهُـمُ
وَإنْ تَـوَلَّـوْا فَـمَـا أرْضـى لَـهـا بِـهِـمِ (٤)

لو برز الزمان إلي

عذله أبو عبد الله معاذ بن إسماعيل اللاذقي على ما كان قد شاهده من تهوره، فقال:

[الوافر]

أبَـا عَـبْـدِ الإلٰـهِ مُـعَـاذُ إنّـي
خَـفِـيٌّ عَـنْـكَ فـي الـهَـيـجـا مَـقَـامِـي (٥)

---

(١) ظامئة: عطشى. الوضم: الخشبة التي يُقطّع الجزار عليها اللحم. ومن مغالاة الشاعر أنه لا يرى من يستحقّ الملك، فسيوفه ظامئة إلى دماء هؤلاء، وهم لا يقوون على دفع بلائه عنهم وكأنهم ذبائح وُضعت على خشبة الجزار لتقطيعها.

(٢) يُردف الشاعر أن هؤلاء الملوك لو كانوا عطاشاً وظنّوا أنه ماء، فلن يستسيغوا شربه فسوف يموتون من شدّة ظمئهم في حال تصوّرهم له حتى في النوم، فإنهم لن يعرفوا طعم النوم.

(٣) يقصد برقيق الشفرتين السيف. يُهدّد الشاعر ملوك العرب والعجم بالقتل، فالغد قريب لمن عصى إرادته.

(٤) وتتصاعد وتيرة تهديده؛ فالمطيع لإرادته يحمي نفسه، والرافض لن يلقى إلّا سيفاً لا يعرف للرحمة معنًى.

(٥) الهيجاء: الحرب. يُخاطب الشاعر أبا عبد الإله مدافعاً عن نفسه وناسباً إليه الجهل به، يفخر المتنبي بقوّته؛ إنه بطل شجاع جريء يخوض الحروب ويهلك الأقران، ولومه له لن يزيده إلّا إصراراً على المضي بما وطّن نفسه عليه، فلومه لن يجد صدى في الفتّ من عزيمته.

ذَكَــرْتُ جَســيــمَ مَــا طَــلَــبِــي وَإِنَّــا
نُــخَــاطِــرُ فِــيــهِ بِــالْــمُــهَــجِ الْــجِــسَــامِ (١)

أَمِــثْــلِــي تَــأخُــذُ الــنّــكَــبَــاتُ مِــنْــهُ
وَيَــجْــزَعُ مِــنْ مُــلَاقَــاةِ ٱلْــحِــمَــامِ (٢)

وَلَــوْ بَــرَزَ الــزَّمَــانُ إِلَــيَّ شَــخْــصــاً
لَــخَــضّــبَ شَــعْــرَ مَــفْــرِقِــهِ حُــسَــامِــي (٣)

وَمَــا بَــلَــغَــتْ مَــشِــيــئَــتَــهَــا الــلّــيَــالِــي
وَلَا سَــــارَتْ وَفِــــي يَــــدِهَــــا زِمَــــامِــــي (٤)

إِذَا ٱمْــتَــلأَتْ عُــيُــونُ ٱلْــخَــيْــلِ مِــنِّــي
فَــوَيْــلٌ فِــي الــتَّــيَــقُّــظِ وَالــمَــنَــامِ (٥)

---

(١) الجسيم: العظيم من كلّ شيء. المهج، الواحدة مهجة: الروح. يتحدّث بنا الجماعة مخاطباً أبا عبد الإله، ممَّا يدلّ على الاعتزاز بنفسه، إنه لا ينسى ما نهد إليه من مطلبه في هذه الحياة لذا فالعِتاب لن يأتي بطائل، ومضيه في ما عزم عليه يحمله على التضحية بالغالي والنفيس، لذا فهو على استعداد للتضحية بروح عزيزة في سبيل تحقيق أمر أعظم.

(٢) النكبات، الواحدة نكبة: الكوارث. الجزع: الخوف الشديد. الحمام، بكسر الحاء: الموت. يستنكر الشاعر أن تهزّه العواصف والزلازل؛ فالنكبات تستزيده إصراراً وصموداً، فلن يُرعبه الموت، ومواجهته بالتحدّي والصبر تؤدّي به إلى النصر الذي يسعى إلى تحقيقه.

(٣) المفرق: وسط الرأس. الحسام: السيف البتَّار. إن الشاعر يعلنها حرباً شعواء لا رحمة فيها، فلو أن الزمان بمفاجأته بالنكبات والمصائب لو تمثّل بشخص لكان ضحيّة سيف الشاعر فيعلوه به ليشقّ رأسه نصفين ويصبغ بدمائه حسامه.

(٤) الزمام: القياد. إنها حرب ضروس بين الشاعر والزمان، ممثلاً بالليالي التي تُوحي بالظلمة والخوف والرهبة، لن تُؤثر بعزيمته ولن يُصيبه الوهن، فسوف يُقاوم ولن يستسلم وينقاد لمشيئة الزمان المعاكس بشكل من الأشكال.

(٥) يقصد بعيون الخيل: الفرسان. إنه تهديد عنيف تحذيري بأن الشاعر سوف يتصدّى للفرسان الأبطال ويقتلهم في كلّ وقت فإذا بدا له شبحه في اليقظة أو المنام، فلن يعرفوا للنوم وراحة البال طعماً، إنه لهم بالمرصاد.

إذا ما شربت الخمر

قال له بعض الكلابيين: أشْربُ هذه الكأس سروراً بك، فقال له ارتجالاً:

[الطويل]

إذَا مَا شَرِبْتَ ٱلْخَمْرَ صِرْفاً مُهَنَّأً
شَرِبْنَا الَّذِي مِنْ مِثْلِهِ شَرِبَ الْكَرْمُ(١)
أَلَا حَبَّذَا قَوْمٌ نُدَامَاهُمُ الْقَنَا
يُسَقُّونَهَا رِيًّا وَسَاقِيهِمُ الْعَزْمُ(٢)

أطعناك طوع الدهر

وقال يمدح الحسين بن إسحاق التنوخي:

[الطويل]

مَلَامِي النَّوَى في ظُلْمِهَا غَايَةُ الظُّلْمِ
لَعَلَّ بِهَا مِثْلَ الذي بي مِنَ السُّقْمِ(٣)
فَلَوْ لَمْ تَغَرْ لَمْ تَزْوِ عَنِّي لِقَاءَكُمْ
وَلَوْ لَمْ تُرِدْكُمْ لم تَكُنْ فِيكُمُ خَصْمِي(٤)

---

(١) صرفاً: صافياً لم يُمزج. يترفع الشاعر عن شرب الخمرة التي لم تُمزج بالماء، فشربه الماء دون سواه، إنه مشروب الكرمة.

(٢) الندامى، الواحد نديم: هو من يشارك شارب الخمرة في الشرب والحديث. يُعلن الشاعر عن حبّه وإعجابه بمن يُقاتل ويجعل القنا أليفة ونديمة له، تتكافأ بينهما المصالح، هو يسقيها دماء الأعداء فيرويها، وهي ترفع من شأنه وتُعلي مركزه فيتبوّأ ذرى المجد لشدّة عزمه وبأسه باستعمالها.

(٣) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ٣١٨. ملامي: لومي. النوى: البعد. السقم: المرض. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي. الفراق شيء معنوي يرتبط بإحساس المرء ووجدانه. يلوم الشاعر البعد لأنه كان سبباً في التفريق بينه وبين حبيبته، وفي ذلك ظلم ما بعده ظلم، ولا بدّ من سبب حمل محبوبته على البعد، إنه البعد نفسه فقد يكون عاشقاً لمحبوبته كعشقه إياها.

(٤) زواه: نحّاه. يُردف الشاعر معلّلاً السبب الذي من أجله أن النوى يحول بينه وبين حبيبته، إنها الغيرة، غيرة البعد، الخصم المعاند في حبّ محبوبة الشاعر، لقد حرمه اللقاء، وفي نيّته الاستئثار بالمحبوبة دون سواه وتنحيته عنها.

أَمُـنْـعِـمَـةٌ بِـالْـعَـوْدَةِ الـظَّـبْـيَـةُ الّـتـي
بِـغَـيْـرِ وَلِـيٍّ كَـانَ نَـائِـلُـهَـا الْـوَسْـمِـي [(١)]

تَـرَشَّـفْـتُ فَـاهَـا سُـحْـرَةً فَـكَـأَنَّـنِـي
تَـرَشَّـفْـتُ حَرَّ الْـوَجْـدِ مِـنْ بَـارِدِ الـظَّـلْـمِ [(٢)]

فَـتَـاةٌ تَـسَـاوَى عِـقْـدُهَـا وَكَـلَامُـهَـا
وَمَبْسِـمُـهَـا الـدُّرِّيُّ فِـي ٱلْـحُـسْـنِ وَالـنّـظْـمِ [(٣)]

وَنَـكْـهَـتُـهَـا وَالْـمَـنْـدَلِـيُّ وَقَـرْقَـفٌ
مُـعَـتَّـقَـةٌ صَـهْـبَـاءُ فـي الـرِّيـحِ وَالـطّـعْـمِ [(٤)]

---

(١) أنعم: أعطى. الولي: المطر يُعقب الوسمي من المطر. الوسمي: المطرة الأولى في السنة. يسأل الشاعر نفسه متمنياً على حبيبته الظبية الرقيقة الأنيقة الجميلة أن تُعيد الكرّة مرّة أخرى، فقد كان لقاؤها الأول له بمثابة الوسمي الذي أحيا فيه النشوة بعد جفاف حياة لا ريّ فيها، فإذا بها تُحيل حياته إلى جنّة وروضة تزهر فيها أزهار الفرح والأمل. وللأسف لم يأت الولي ليزيد حياته بهجة.

(٢) ترشّف: امتصّ. السحرة: وقت السحر عند الفجر. الظلم: ماء الأسنان وبريقها. يذكر الشاعر مغامرته الليلية، لقد بات يرشف من ثغر حبيبته شهداً يمتصّه من بريق أسنانها ورُضابها، فكأنه كان يُطفئ لهيب شوقه من نبع رضابها البارد العذب مع الفجر الذي لم ينبثق بعد.

(٣) العقد: القلادة. المبسم: الثغر. درية، نسبة إلى الدرّ. الحسن: الجمال. النظم: للتناسق في كلّ شيء، يرسم الشاعر بريشة الفنان ملامح سريعة من حبيبته؛ يُزيّن جيدها عقد من اللؤلؤ، وتفترّ عن مبسم تناسقت أسنانه اللؤلؤية بشكل بديع منظم، كما أنها تمتاز بمنطق بديع جذّاب يحلو للمرء سماعها تنطق برقّة الأنوثة؛ فالكل ينتظم ويتناسق بشكل بديع.

(٤) النكهة: رائحة الفم. المندلي: نسبة إلى المندل عطر يصنع في بلاد الهند. القرقف: من أسماء الخمرة. الصهباء: الحمراء المائلة إلى بياض من الخمر. يردف الشاعر متمّماً ما بدأه في البيت السابق من تناسق ملامح حبيبته، فنكهة فمها عطرية الطعم والرائحة تُسكر كأنها خمرة عُتقت ذات لون أحمر يميل إلى البياض، وفي هذا الجوّ البديع يتضوّع المندليّ برائحته التي تدغدغ الأنوف وتُرسل إشعاعات الطيب.

جِـفَـتْـنِـي كَـأَنِّـي لَـسْـتُ أَنْـطَـقَ قَـوْمِـهَـا
وَأَطْعَـنَـهُـمْ وَالـشُّـهْـبُ فـي صُـورَةِ الـدُّهْـمِ (١)

يُـحَـاذِرُنِـي حَـتْـفِـي كَـأَنِّـيَ حَـتْـفُـهُ،
وَتَـنْـكُـزُنِـي الأَفْـعَـى فَـيَـقْـتُـلُـهَـا سُـمِّـي (٢)

طِـوَالُ الـرُّدَيْـنِـيَّـاتِ يَـقْـصِـفُـهَـا دَمِـي
وَبِـيضُ الـسُّـرَيْـجِـيَّـاتِ يَـقْـطَـعُـهَـا لَـحْـمِي (٣)

بَـرَتْـنِـي الـسُّـرَى بَـرْيَ الـمُـدَى فَـرَدَدْنَـنِـي
أَخَـفَّ عَـلَـى الـمَـرْكُـوبِ مِـنْ نَـفَـسِـي جِـرْمِـي (٤)

---

(١) جفتني: بعدت عنّي ونبت. الشهب من الخيول التي في لونها بياض غلب على السواد. الدهم: السود. يذمّ الشاعر مسلك حبيبته، لقد بعدت عنه بجفاء، وهذا ما آلمه، وقد تناست أنه شاعر قومها وفارسهم يقودهم إلى النصر ويدفع عنهم بلاء الأعداء، فهو يبلو فيهم بلاءً حسناً على جواده الأشهب الذي غطته دماء الأعداء فبدا أدهم.

(٢) يُحاذرني: يخشاني. الحتف: الموت. نكزته الحيَّة: لسعته بأنفها. يصوّر الشاعر شجاعته، فقرنه نذير خطر يهدّد حياته، لذا فإنه يداهمه لشدّة حذره بحيث يُودي به إلى التهلكة بقوّته وبطولته وشجاعته، حتى الأفعى فإنها لن تُؤثر فيه فسمّها يعود إليها قاتلاً لما يتمتّع به من شجاعة وحسن الدفاع عن النفس.

(٣) الردينيات: الرماح المنسوبة إلى ردينة. وهي امرأة كانت تقوّم الرماح. السريجيّات: السيوف المنسوبة إلى سريج وهو قين كان يصنع تلك السيوف. يُردف الشاعر متابعاً فكرته أن فكرة الحماية الذاتية التي يتمتّع بها قوية على ردّ الكيد إلى من يبغي إراقة دمه، فالرماح الردينية تتقصّف قبل وصولها إلى جسده والسيوف تتكسّر قبل ملامستها جارحة من جوارحه، وتتقطّع قبل أن تقطع لحمه، لأنه بطل صنديد يدفع البلاء عن نفسه بسلاحه.

(٤) برتني: أنحلت جسدي. السرى: المشي في الليل. المدى، الواحدة مدية: السكاكين. الجرم: الجسد. يصف الشاعر ما فعلته به الأيام، فقد أنحلت جسده كثرة ترحاله وانتقاله بين أرجاء بلاد العراق والشام من ممدوح إلى آخر يتنقل سائراً ليل نهار حتى بات أخفّ ما تحمل ناقته كنفسه الذي يُخرجه مع زفيره.

وَأَبْـصَـرَ مِـنْ زَرْقَـاءِ جَـوٍّ لأنَّـنـي
إذا نَـظَـرَتْ عَـيْـنَـايَ سَـاوَاهُـمَـا عِـلْـمِـي(١)

كـأنِّـي دَحَـوْتُ الأرْضَ مِـنْ خِـبْـرَتـي بِـهَـا
كـأنِّي بَنَـى الإسْـكَـنْـدَرُ الـسَّـدَّ مِـنْ عَـزْمِـي(٢)

لِأَلْـقَـى ٱبْـنَ إسْـحَـاقَ الّـذِي دَقَّ فَـهْـمُـهُ؛
فَـأَبْـدَعَ حَـتَّـى جَـلَّ عَـنْ دِقَّـةِ الْـفَـهْـمِ(٣)

وَأَسْـمَـعَ مِـنْ أَلْـفَـاظِـهِ الـلُّـغَـةَ الَّـتـي
يَـلَـذُّ بـهَـا سَـمْـعِـي وَلَـوْ ضُـمِّـنَـتْ شَـتْـمِـي(٤)

يَـمِـيـنُ بَـنِـي قَـحْـطَـانَ رَأْسُ قُـضَـاعَـةٍ،
وَعِـرْنِـيـنُـهَـا بَـدْرُ الـنُّـجُـومِ بَـنِـي فَـهْـمِ(٥)

---

(١) زرقاء: هي زرقاء اليمامة، امرأة من العرب كانت ترى على بعد مسيرة ثلاثة أيام. يروى «شأواهما» بدلاً من «سَاوَاهما». والشأو: المدى والغاية. يفخر الشاعر بأن نظره الحادّ مديد كنظر زرقاء اليمامة التي كانت مضرب المثل عند عرب الجاهلية ترى على بعد مسيرة ثلاثة أيام، ويساوي نظره علمه ومعرفته، لذا فعلمه سابق قلبي.

(٢) دحوت: بسطت. الإسكندر، ورد ذكره في سورة الكهف على أنه بنى السدّ بين يأجوج وسائر البلدان. يفخر الشاعر بأنه كثير الأسفار والترحال، فقد شقّ الأرض في الطول والعرض، فكان بها عليماً خبيراً، وكأن الإسكندر قد بنى السدّ من عزمه.

(٣) يتخلّص الشاعر إلى مدح ابن إسحاق، فكان «برتني السرى» مقدّمة طبيعية تمهيدية للمدح ليلقى ممدوحه الذكي الخارق الذكاء الدقيق الفهم، حتى فاق سائر البشر في هذا المجال، فكأنه عالم بالغيب يعرف دقائق الأمور.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٣. يروى «لها» بدلاً من «بها» ويروى «إن» بدلاً من «لو». لقد قطع الشاعر تلك المسافة الطويلة ليسمع منطق ممدوحه العذب بلغة عربية فصيحة في زمن شاعت فيه الأميَّة حتى في الأوساط العلمية المتخصّصة في علوم اللغة، فيلذّ للمرء أن يسمعه حتى في شتمه.

(٥) يمدح الشاعر ممدوحه مسترسلاً بذكر أنسابه، فقد عزاه إلى قحطان جدّ سائر قبائل اليمن، وإلى قبيلة قُضاعة وفهم من فروعها، إنه بمثابة عِرنينها وفخر آبائها، إنه بدر بين نجوم سطعت في سماء العروبة، وبذلك مدح الشاعر ممدوحه وسائر قبيلته.

إذا بَـيَّـتَ الأعْـدَاءَ كَـانَ ٱسْـتِـمَـاعُـهُـمْ
صَرِيـرَ الْـعَـوَالِـي قَـبْـلَ قَـعْـقَـعَـةِ الـلُّـجْـمِ (١)

مُـذِلُّ الأعِـزَّاءِ الـمُـعِـزُّ وَإنْ يَـئِـنْ
بِـهِ يُـتْـمُـهُـمْ فَـالْـمُـوتِـمُ الْـجَـابِـرُ الْـيُـتْـمِ (٢)

وَإنْ تُـمْـسِ دَاءً فِـي الْـقُـلُـوبِ قَـنَـاتُـهُ
فَـمُـمْـسِـكُـهَـا مِـنْـهُ الـشِّـفَـاءُ مِـنَ الْـعُـدْمِ (٣)

مُـقَـلَّـدُ طَـاغِـي الـشَّـفْـرَتَـيْـنِ مُـحَـكَّـم
عَـلَـى الـهَـام إلا أنَّـهُ جَـائِـرُ الْـحُـكْـمِ (٤)

تَـحَـرَّجَ عَـنْ حَـقْـنِ الـدِّمَـاءِ كَـأَنَّـهُ
يَـرَى قَـتْـلَ نَـفْـسٍ تَـرْكَ رَأْسٍ عَـلَـى جِـسْـمِ (٥)

---

(١) بيّتَ الأعداء: هاجمهم ليلاً. القعقعة والصرير: من الأصوات المزعجة التي تصدرها الأسلحة. العوالي: الرماح. يصف الشاعر ممدوحه باحتراسه الشديد، إنه يُعدّ العُدّة ويتدبّر الأمر بعناية ويُهاجم أعداءه ليلاً بسكون الليل وعتمته، فتُسمع قعقعة السلاح وصريرها في أجساد أعدائه يُقتل فيهم. ما ذكره الشاعر من حسن تكتّم ممدوحه وشدّة احتراسه لا يعني ذلك قوّة وشجاعة، وإنما يعني خديعة ومكراً.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٠. يئن: يحن. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه يُذلّ الأعزاء وهم الأعراب، ومن طبيعتهم عدم الرضوخ والإذعان لأحد فإذا بالممدوح يكسر أنوفهم ويُذلّهم، وفي المقابل فهو يرفع من الأذلاء فيرفع من عثراتهم ويعتزّون بمنعته وحمايته، فضلاً عن مساعدة اليتيم الذي قُتل والده فيعتني به ويُعينه بكفالته له.

(٣) القناة: الرمح. العدم: الفقر. الداء: المرض. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه بطل، يخترق رمحه قلوب أعدائه، فيُنزل بهم داءً لا شِفاء منه، إنه الموت المؤكّد، وفي المقابل فيده مصدر شفاء من الفقر والجوع لجوده الذي يعمّ المعدمين والمحتاجين.

(٤) مقلّد: حامل. الطاغي: الظالم. شفرتا السيف: حدّاه. الهام، الواحدة هامة: الرؤوس. يتقلّد الممدوح سيفاً لا يعرف للرحمة معنًى، يقتل بعنف ويُغالي في فتكه لأنه ذو شفرتين حادتين، وهو يُحكم الضرب جائر لا يعدل في حكمه.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٠. تحرّج: امتنع. يمدح الشاعر في =

وَجَدْنَا ابْنَ إسْحَاقَ الْحُسَيْنَ كَحَدِّهِ
عَلَى كَثْرَةِ الْقَتْلَى بَرِيئاً مِنَ الإثْمِ [(١)]
مَعَ الْحَزْمِ حَتّى لَوْ تَعَمَّدَ تَرْكَهُ
لَألْحَقَهُ تَضْيِيعُهُ الْحَزْمَ بالْحَزْمِ [(٢)]
وَفي الْحَرْبِ حَتى لَوْ أرَادَ تَأَخُّراً
لَأَخَّرَهُ الطَّبْعُ الْكَرِيمُ إلى الْقُدْمِ [(٣)]
لَهُ رَحْمَةٌ تُحْيِي الْعِظَامَ وَغَضْبَةٌ
بهَا فَضْلَةٌ لِلْجُرْمِ عَنْ صَاحِبِ الْجُرْمِ [(٤)]
وَرِقّةُ وَجْهٍ لَوْ خَتَمْتَ بِنَظْرَةٍ
عَلَى وَجْنَتَيْهِ مَا انْمَحَى أَثَرُ الْخَتْمِ [(٥)]

= ممدوحه أنه لا يتوقّف عن الإطاحة برؤوس أعدائه عن أجسادهم ففي ذلك حياة لهم، وإبقاؤهم على قيد الحياة يُعتبر موتاً لهم، لذا فهو يتحرّج أن يُبقيهم أحياءً. إنه مفهوم قرمطيّ لقتل الأعداء.

(١) يروى «كجدّه» بالجيم بدلاً من «كحدّه» بالحاء. يبَرئ الشاعر ممدوحه من جريرة القتل، فجدّه كان يقتل الكفار وهو على دين الإسلام، وإذا كانت الرواية بالحاء كحدّ السيف، فلا جريرة على السيف، لأنه يعمل بإرادة ممسكه وفي كلا الحالتين، فالممدوح بريء من دماء ضحاياه لخروجهم عن طاعة الأمير.

(٢) و (٣) الحزم: أخذ الأمور بالجدّ. يمدح الشاعر ممدوحه بالحزم، والحزم من طبع الناجحين في حياتهم، فلو بدا منه شيء لا يبدو حزماً، فقد يكون من متطلّبات الحزم وعين الحزم في الأمور العظام، لذا فإنه لا يتأخّر ولا يتردّد في الحرب، فمن طبعه التقدّم لا يتأخر، وإنما هي الخدعة في الحرب، ومن هنا كان النصر حليفه.

(٤) يصف الشاعر ممدوحه بأنه من الحِلم على قدر كبير، إنه يعفو عمّن أخطأ بحلمه، فهو يملك غضبه، ولكن في حال مواجهة المجرمين يفتقد قلبه الرحمة فيبطش بهم لأن ذلك إثارة الخوف في قلوب المتردّدين منهم فيستكنون ويلتزمون المهادنة والسّكينة.

(٥) رقة الوجه: كناية عن الحياء. يمدح الشاعر ممدوحه بشدّة الحياء وكريم الأخلاق، فلو نظر أحدهم إليه لانطبع على وجنتيه أثر تلك النظرة فبدت كأنها ختم لا يُفارقه.

أَذَاقَ الْغَوَانِي حُسْنُهُ مَا أَذَقْنَنِي،
وَعَفَّ فَجَازَاهُنَّ عَنِّي عَلَى الصَّرْمِ(١)

فِدًى مَنْ عَلَى الْغَبْرَاءِ أَوَّلُهُمْ أَنَا
لِهٰذَا الأبيِّ المَاجِدِ الْجَائِدِ الْقَرْمِ(٢)

لَقَدْ حَالَ بَيْنَ ٱلْجِنِّ وَالأمْنِ سَيْفُهُ
فَمَا الظَّنُّ بَعْدَ الْجِنِّ بِٱلْعُرْبِ وَالْعُجْمِ(٣)

وَأَرْهَبَ حَتّى لَوْ تَأَمَّلَ دِرْعَهُ
جَرَتْ جَزَعاً مِنْ غَيْرِ نَارٍ وَلا فَحْمِ(٤)

وَجَادَ لَوْلَا جُودُهُ غَيْرَ شَارِبٍ
لَقِيلَ كَرِيمٌ هَيَّجَتْهُ ٱبْنَةُ الْكَرْمِ(٥)

---

(١) الغواني، الواحدة غانية: الشابة التي اغتنت عن التزيّن بجمالها. حسنه: جماله. ترفّع: عفّ. الصرم: الهجر. يمتدح الشاعر في ممدوحه جماله وحسن خلقته، حتى إن الغانيات من الشابات يرغبن بحبّه ومبادلته حبّهن، ولكنه يصدّ عنهن لا كراهة بالنساء أو عجزاً، ولكنه عفيف ولذا جازاهن عن صرمهن للشاعر بعدم الانجذاب لهن.

(٢) الغبراء: الأرض. الأبي: الذي يرفض الدنايا. القرم: السيد. يُعلن الشاعر نيّته على أن يفدي الممدوح مع سائر ساكني الأرض بأنفسهم، إنه يأبى الضيم والذلّ والدنايا، وهو ماجد كريم يجود بماله وسيد عظيم.

(٣) حال: منع. ومن مبالغات الشاعر أن سيف الممدوح قد حمل الجنّ على الخوف، إنهم لا يأمنون سطوته، ولقد نشر في قلوبهم الرعب، فلو كان غُصّة في حلوق الجن، فماذا يفعل الأعراب وهم سادة الحروب والعجم أمام سيفه الذي لا يرحم عدوًّا.

(٤) أرهب: أرعب. الجزع: نفاد الصبر لشدّة الخوف. يردف الشاعر أن ممدوحه ذو هيبة تُرهب القلوب، فنظراته ثاقبة تخترق الحُجُب، فلو دقّق النظر في درع أحد الأعداء لساح كأنه ماء يسيل على جسم صاحبه من غير استعماله النار والفحم.

(٥) ابنة الكرم: الخمرة. يمدح الشاعر ممدوحه بالجود، إنه يتلهى بالكرم، بحيث يُظنّ أن ذلك من طبع الكرماء، فيظنّ أنه قد أسكرته خمرة فأخرجته عن طبيعته، ولكن تصرّفه في سائر شؤونه يُؤكد للرّائي أنه يتصرّف بوحي من أريحيّته وصدق نيّته.

أَطَعْنَاكَ طَوْعَ الدّهْرِ يَا بْنَ ابْنِ يُوسُفٍ
بِشَهْوَتِنَا، وَالْحَاسِدُو لَكَ بِالرُّغْمِ (١)
وَثِقْنَا بِأَنْ تُعْطِي فَلَوْ لَمْ تَجُدْ لَنَا
لَخِلْنَاكَ قَدْ أعْطَيْتَ مِنْ قُوَّةِ الْوَهْمِ (٢)
دُعِيتُ بِتَقْرِيظِيكَ في كلِّ مَجْلِسٍ،
وَظَنَّ الّذِي يَدْعُو ثَنَائِي عَلَيْكَ ٱسْمِي (٣)
وَأَطْمَعْتَنِي في نَيْلِ مَا لَا أَنَالُهُ
بِمَا نِلْتُ حَتّى صِرْتُ أَطْمَعُ في النَّجْمِ (٤)
إذا ما ضَرَبْتَ الْقِرْنَ ثُمَّ أَجَزْتَنِي
فَكِلْ ذَهَباً لي مَرَّةً مِنْهُ بِالْكَلْمِ (٥)

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩١. يُعلن الشاعر طاعته لممدوحه، وينسبه إلى جدّه يوسف، ويأتمر بأمره؛ إنه الخضوع إلى الدهر، وهو بذلك رديف للدهر، وفي طاعته حبّ وانجذاب لشخصه، حتى الحسّاد والأعداء دخلوا في طاعته مكرهين وذلك لشجاعته وقوّته، فكان استسلامهم رغماً عنهم.

(٢) خلناك: ظننّاك. قوّة الوهم لدى الشاعر جعلته يعتقد أن الممدوح قد جاد عليه من كرمه وهو لم يعطه شيئاً بعد. لثقته بأن كرمه لا يتوقّف لأي سبب، إنه مدرار دائم الجود.

(٣) التقريظ: الإشادة والمدح. لقد كانت للشاعر جولات، في كلّ مكان، يدور لسانه فيها بمدح الحسين بن إسحاق، حتى جعل السامعين يُنوّهون بعلاقة الشاعر بالممدوح، ممّا حملهم على القول بارتباط اسميهما كثنائي في عالم الشعر والسياسة.

(٤) الطمع ظاهرة سيئة إلّا في بعض الحالات كطلب العلم والاستزادة منه، ولكن الشاعر يذكر طمعه في الاستزادة من المال، وقد حصّل منه الشيء الكثير على يدي ممدوحه، ممّا حمله على طلب ما لا يُمكن أصلاً كتحصيل النجوم وإدراكها.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩١. القِرن: الكفء في الحرب. أجزتني: منحتني جائزة. الكلم، بسكون اللام: الجرح. يقترح الشاعر على ممدوحه بأنه إذا التقى القرن في المبارزة، فلتكن ضربته بقوّة بحيث تغور في جسده ولتكن جائزته كلّما فعل ذلك بمقدار اتساع جراح الكفء الذي أودى به إلى الهلاك، فيكثر ماله وغناه.

أَبَتْ لَكَ ذَمِّي نَخْوَةٌ يَمَنِيَّةٌ،
وَنَفْسٌ بِهَا فِي مَأْزِقٍ أَبَداً تَرْمِي[١]

فَكَمْ قَائِلٍ لَوْ كَانَ ذَا الشَّخْصُ نَفْسَهُ
لَكَانَ قِرَاهُ مَكْمَنَ الْعَسْكَرِ الدَّهْمِ[٢]

وَقَائِلَةٍ وٱلأرْضَ أَعْنِي تَعَجُّباً
عَلَيَّ ٱمْرُؤٌ يَمْشِي بِوَقْرِي مِنَ ٱلْحِلْمِ[٣]

عَظُمْتَ فَلَمّا لَمْ تُكَلَّمْ مَهَابَةً
تَوَاضَعْتَ وَهْوَ الْعُظْمُ عُظْماً عَنِ الْعُظْمِ[٤]

الموج مثل الفحول

وقال يمدح علي بن إبراهيم التنوخي:

[المنسرح]

أَحَقُّ عَافٍ بِدَمْعِكَ الْهِمَمُ
أَحْدَثُ شَيْءٍ عَهْداً بِهَا الْقِدَمُ؟[٥]

---

(١) أبت: رفضت. الذمّ: القدح وذكر المساوئ. النخوة: المروءة. المأزق: مواطن الحرج. يروى «عربية» بدلاً من «يمنيّة». ليس من رذائل تشوّه ذكر الممدوح، لذا يرفض الشاعر أن يقدح بممدوحه، فالمروءة اليمنيّة تأبى إلّا ذكر فضائل الممدوح؛ إنه كريم شجاع حليم مضياف ينجد الملهوف ويُغيثه بالمال.

(٢) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩١. القرى: الظهر. المكمن: المخبأ. الدهم: الكثير. ينوّه الشاعر بعظيم شجاعة ممدوحه؛ فثمة من يقولون: لو أن جسم الممدوح على قدر عظم نفسه وبعد همّته، لكان ظهره يحتمي به الجيش العرمرم.

(٣) الوقر: الثقل. حتى الأرض تعجب كيف أن امرأً يمشي عليها برزانة وتعقّل رغم ما بينهما من ثقل الحلم، ولم يتكبّر ويفخر بما لديه من صفات.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٣. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه جمّ التواضع، عظم بنفسه، فكان ساكتاً لا ينطق إلّا بالحقّ ممّا حمل الناس على تعظيمه فهم لا يكلمونه لمهابته إلّا إذا أذن لهم، وذلك من التواضع، ولقد رفعه التواضع إلى أشرف مكان، فكان جديراً بمكانته العالية.

(٥) أجدر: أحقّ. العافي: الدارس. يبدأ الشاعر قصيدته والألم يعصر قلبه، فالمقاييس =

وَإِنَّمَا النَّاسُ بِالْمُلُوكِ وَمَا
تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمُ[(١)]

لَا أَدَبٌ عِنْدَهُمْ وَلَا حَسَبٌ
وَلَا عُهُودٌ لَهُمْ وَلَا ذِمَمُ[(٢)]

بِكُلِّ أَرْضٍ وَطِئْتُهَا أُمَمٌ
تُرْعَى بِعَبْدٍ كَأَنَّهَا غَنَمُ[(٣)]

يَسْتَخْشِنُ الْخَزَّ حِينَ يَلْمُسُهُ
وَكَانَ يُبْرَى بِظُفْرِهِ ٱلْقَلَمُ[(٤)]

= انقلبت على أعقابها، والدمع غالٍ، ولكنه يرخص في حال انهماره وقد ضاعت الهمم وتاهت حتى لم يعد لها وجود في ذاكرة الزمان والبشر، من زمن بعيد، رحم اللّٰه تعالى ذلك الزمن زمن الانتصارات، إنه أحق بالبكاء لقد طمره القدم وما عاد له من وجود.

(١) و (٢) يعرّف الشاعر الدولة؛ إنها قائد وشعب؛ انتماء وولاء يُمدّه الإحساس بطاقات جبارة ذخرت بها طاقات الأمة، فمنها وإليها يكون ملوكها وزعماؤها وعلماؤها وكلّ عناصرها، وإن لم يكن ذلك فتكون الأمة مستعمرة في حال تولى أمورها من لم يكن أصيل النسبة إليها، وذلك شأن العرب في حال تخلخلت النظم السياسية، فتولى أمورها أعاجم وأتراك لا يُهمّهم سوى الحكم والتحكّم وامتصاص دماء الشعوب واستعمارهم، ففي هذه الحالة لا يُفلحون أبداً، وذلك شأنهم في كلّ زمان ومكان، فيعمل هؤلاء على طمر انتسابهم إلى تاريخ مجيد وأعراق فاضلة تمرّست في صحراء شاسعة واسعة تمتّعوا فيها بنسيم الحرية، ومنهم أمراؤهم وعلى رأسهم نبيّهم ﷺ.

(٣) و (٤) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٤. الخزّ: أثواب تصنع من الحرير الخالص فقط. يُبدي الشاعر كراهيته للحالة التي عليها العرب، فقد تولّى رعايتهم أتراك وفرس، يُسيمونهم الخسف باسم الخلافة الشكلية أما الفعل فلأمرائهم وملوكهم؛ فالواحد منهم لتخلّفه وبقائه على همجيّته يستخشن الثوب من الخز المصنوع من خالص الحرير فقط لأنه لم يعتد على شيء من هذا القبيل، وقد كان في منشئه متوحشاً بحيث يُبرى القلم لغلظ طبعه بأظفاره، ولم يعرف للنظافة سبيلاً وللباس طريقاً.

إنِّــي وَإنْ لُــمْــتُ حَــاسِــدِيَّ فَــمــا
أُنْــكِــرُ أَنِّــي عُــقُــوبَــةٌ لَــهُــمُ[١]

وَكَــيْــفَ لَا يُــحْــسَــدُ ٱمْــرُؤٌ عَــلَــمٌ
لَــهُ عَــلَــى كــلِّ هَــامَــةٍ قَــدَمُ[٢]

يَــهَــابُــهُ أَبْــسَــأُ الــرِّجَــالِ بِــهِ
وَتَــتَّــقِــي حَــدَّ سَــيْــفِــهِ الْــبُــهَــمُ[٣]

كَــفَــانِــيَ الــذَّمَّ أَنَّــنِــي رَجُــلٌ
أَكْــرَمُ مَــالٍ مَــلَــكْــتُــهُ الْــكَــرَمُ[٤]

يَــجْــنِــي الْــغِــنَــى لِــلِّــئَــام لَــوْ عَــقَــلُــوا
مَــا لَــيْــسَ يَــجْــنِــي عَــلَــيْــهِــم الْــعُــدُمُ[٥]

---

(١) حشد الشاعر حاسديه في تيار انفعالاته، فخرج عن تأملاته إلى أنانيته. من حقّه أن يلومهم ولذا فلا يُنكر أنهم يُعاقبون به، لأنه يتفوّق عليهم فيجعلهم يُحسّون بالنقص ولا يقدرون على اللحاق بهم.

(٢) العلم: الجبل. الهامة: الرأس. يُردف الشاعر معلّلاً أسباب حسدهم إيّاه بأنه قد علا نجمه حتى بات كجبل عالٍ راسخ ينظرون إليه بحسرة وهم في سفوح ضحلة يُرافقون الضفادع النقيق ولا يجهدون ليلحقوا به من وهدة تخلّفهم عنه.

(٣) أبسأ الرجال: آنسهم. البهم، الواحد بهمة: البطل الذي لا يعلم من أين يُؤخذ. يُردف الشاعر مشيداً بما يمتاز به من مهابة بحيث تجعل الصديق الأنيس يهابه والبطل الصنديد يخشاه ويعمل على الاحتماء منه بما أوتي من حذر، لا أنها أسباب تدعو إلى الحسد.

(٤) كفاني: يصرفه عني. الكرم: النحيزة. يمدح الشاعر نفسه بالجود وهذا ما حال دون ذمّه لأنه كريم وبذلك يفضل سواه، فبماله صان عرضه وكرامته وبهما يبخل خلاف المال الذي يجود به خلاف سواه ممن يبخلون بأموالهم مهدرين كرامتهم. ورأيي أنه يدّعي الكرم فلو كان كذلك، وقد حصّل ثراءً كبيراً من خلال ما جمعه من ممدوحيه لأمكنه جمع الكثير من المؤيدين والرجال وحقّق الإمارة ولو على شطر صغير من الأرض.

(٥) يجني: يجمع. اللئيم: الدنيء الأصل. العدم: الفقر، يتحدّث الشاعر عمّا يجره =

هُـــمُ لِأَمْـــوَالِـــهِـــمْ وَلَـــسْـــنَ لَـــهُـــمْ
وَالْـعَـارُ يَـبْـقَـى وَٱلْـجُـرْحُ يَـلْـتَـئِـمُ[(١)]

مَـنْ طَـلَـبَ ٱلْـمَـجْـدَ فَـلْـيَـكُـنْ كَـعَـلِـ
ـيٍّ يَـهَـبُ ٱلْأَلْـفَ وَهْـوَ يَـبْـتَـسِـمُ[(٢)]

وَيَـطْـعَـنُ ٱلْـخَـيْـلَ كُـلَّ نَـافِـذَةٍ
لَـيْـسَ لَـهَـا مِـنْ وَحَـائِـهَـا أَلَـمُ[(٣)]

وَيَـعْـرِفُ الأَمْـرَ قَـبْـلَ مَـوْقِـعِـهِ
فَـمَـا لَـهُ بَـعْـدَ فِـعْـلِـهِ نَـدَمُ[(٤)]

وَالْأَمْـرُ وَالـنَّـهْـيُ وَالـسَّـلَاهِـبُ وَالْـ
ـبِـيـضُ لَـهُ وَالْـعَـبِـيـدُ وَٱلْـحَـشَـمُ[(٥)]

= الغنى على بعض النفوس الضعيفة التي طبعها الذل بلؤم الطبع وخساسة النفس، فإذا اعتنى أمثال هؤلاء وازدادوا شرهاً وطمعاً وكبرياءً، ولو بقي هؤلاء على فقرهم لكان أرحم بهم ولما كشف عن خساستهم.

(١) التأم الجرح: التحم. يُردف الشاعر حديثه عن أمثال من اغتنى بعد فقر وكان لئيم الطبع، ففي هذه الحالة يزداد شرهه ويكبر بخله في نفسه ويَشدّ على نفسه وولده فضلاً عن الآخرين، فإذا ببخله يتحكم به ناسياً أن الرزق من لدن كريم حكيم، فالحكمة تقتضيه أن يُنفق ويجود بماله، ولكن خوفه من الفقر حمله على البخل وفي ذلك شكّ بكرم اللّه تعالى، وتلك مذمّة لا تمّحي إلّا بموت صاحبها، بينما الجرح الناتج عن سيف قد يلتئم ويشفي صاحبه.

(٢) يتخلّص الشاعر إلى ممدوحه؛ فالمجد له ثمن غالٍ لا يدفعه إلّا من تغلّب على البخل كممدوح الشاعر عليّ الذي يهب الألف من الدنانير، والابتسامة لا تفارق وجهه دلالة على الحبّ وأصالة الكرم في نفسه.

(٣) الوحاء: السرعة. يصف الشاعر قوّة ممدوحه، إنه سريع الطعن، فما من فارس تصدى له إلّا بادره برمحه فاخترق سنانه من جانب إلى آخر حتى كان من الهالكين لقوّته وسرعته الفائقة باستعماله لسلاحه، فلا يُحس ألماً.

(٤) يصف الشاعر ممدوحه بقوّة حدسه ورؤيته للأمور بوعي، لذا فإنه لا يُقدم على أمر إلّا بعد إمعان تفكير، فلا يقع في الأخطاء حتى يندم على خطئه، لذا يُحالفه التوفيق في كلّ أمر عزم على فعله.

(٥) السلاهب، الواحد سلهب: الخيول الطويلة. البيض: السيوف. الحشم: الأتباع من =

وَالسَّطَوَاتُ الَّتي سَمِعْتَ بِهَا
تَكَادُ مِنْهَا ٱلْجِبَالُ تَنْقَصِمُ(١)

يُرْعِيكَ سَمْعاً فِيهِ ٱسْتِمَاعٌ إلَى الدْ
داعي وَفِيهِ عَنِ ٱلْخَنَى صَمَمُ(٢)

يُرِيكَ مِنْ خَلْقِهِ غَرَائِبَهُ
في مَجْدِهِ كَيْفَ تُخْلَقُ النَّسَمُ(٣)

مِلْتُ إلَى مَنْ يَكَادُ بَيْنَكُمَا
إنْ كُنْتُمَا السَّائِلَيْنِ يَنْقَسِمُ(٤)

مِنْ بَعْدِ مَا صِيغَ مِنْ مَوَاهِبِهِ
لِمَنْ أُحِبُّ الشُّنُوفُ وَٱلْخَدَمُ(٥)

= الحاشية والعبيد. يُشيد الشاعر بما يتمتّع به ممدوحه؛ إنه ملك يأمر فيطاع وينهى فيُطاع أيضاً، فلا اعتراض على حكمه، فعبيده وحاشيته يهبون لتنفيذ رغباته دون تردّد، ومن مصادر قوّته جياده الطويلة وسيوفه التي تهبّ لهبّته وتغضب لغضبه وتأتمر بأمره.

(١) السطوات: الصولات. تنقصم: تنهد. يروى «تنفصم» بالفاء بدلاً من «تنقصم» بالقاف. يمدح الشاعر ممدوحه بقوّة بطشه بأعدائه، فأيامه يتناقل الناس الحديث عنها بإعجاب حتى إن الجبال تكاد تتصدّع لشدّة هولها.

(٢) يرعيك: يُصغي إليك كليًا. الخنى: الفحشاء. يتمتّع الممدوح برهافة حسّه الأخلاقي، فإذا به شديد السمع لمن دعاه لاستنهاضه من كبوة أو طلب مساعدة أو استغاثة، فإذا به يُسارع دون إبطاء، أما والأمر خلاف ذلك، فإنه يسدّ أذنيه معرضاً عن سماع ما هو فحش بذيء كأن به صَمَماً.

(٣) النسم، الواحدة نسمة: الأرواح. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه صورة جميلة عن خلق اللّه تعالى في مخلوقاته قولاً وعملاً، فيحدّث عن ملكوت السماوات بورع صادق وإيمان عميق، بحيث يجعل المرء يمجّد خالقه ويشكره على أن خلق هذا الممدوح.

(٤) يعمد الشاعر إلى مخاطبة صاحبيه على طريقه ما تقدّم من الشعراء؛ لقد مال الشاعر بوجدانه إلى ممدوحه الذي لو أتاه صاحباه يسألانه لانقسم إلى شطرين، وكلّ شطر خلُص كلّياً إلى سائله بكرم طبع وأريحية جود.

(٥) الشنوف، الواحد شنف: وهو من الحلي التي تُعلّق في أعلى أذن المرأة. الخدم، =

مَــا بَــذَلَــتْ مَــا بِــهِ يَــجُــودُ يَــدٌ
وَلَا تَــهَــدّى لِــمَــا يــقُــولُ فَــمُ[١]

بــنُــو الْــعَــفَــرْنَــى مَــحَــطَّــةَ ٱلأَسَــدِ الْــ
أُسْــدُ وَلٰــكِــنْ رِمَــاحُــهَــا ٱلأجَــمُ[٢]

قَــوْمٌ بُــلُــوغُ الْــغُــلَامِ عِــنْــدَهُــمُ
طَــعْــنُ نُــحُــورِ الْــكُــمَــاةِ لَا ٱلْــحُــلُــمُ[٣]

كــأنّــمــا يُــولَــدُ الــنّــدَى مَــعَــهُــمْ
لَا صِــغَــرٌ عَــاذِرٌ وَلَا هَــرَمُ[٤]

= الواحدة خدمة: الخلخال. يُنوّه الشاعر بجود ممدوحه العظيم الذي كان يأتيه بكثرة قبل مثوله بين يديه، وقد صاغ منه لمن يُحبّ الشنوف والخلاخل من كثرة ما وصل إليه من ذهب.

(١) تهدّى: اهتدى. يمدح الشاعر ممدوحه بكرمه الذي فاق سائر الكرماء فأصبح قُدوة في مجال الكرم، كما أنه فاق الفصحاء بمنطقه وحسن بيانه، وهو العربي الذي يأتي بما لا يهتدي إليه الكثيرون في فصاحتهم وبلاغتهم.

(٢) العفرنى: الأسد القوي. محطة: اسم جدّ الممدوح. الأجم، الواحد أجمة: الغيل يأوي إليه الأسد. يمدح الشاعر ممدوحه، إنه سليل الأسود، فجدّه أسد قويّ أنجب أسوداً أمثاله، وجُلّ هؤلاء يعتصمون ويحتمون برماحهم، فتلك هي أجماتهم لقوتهم وشجاعتهم.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٧. النحور، الواحد نحر: موضع القلادة. الكماة، الواحد كميّ: المدجج بالسلاح. الحلم: سن البلوغ. يمدح الشاعر آل ممدوحه، إنهم قوم مقاتلون شجعان، حتى الغلام منهم يطعن نحور الأعداء الكماة ولم يبلغ الحلم، وبلوغه يُعلن على الملء عندما يبدأ يحمل رمحه ويُمارس ما تتطلّبه منه مقوّمات الرجولة، عندئذٍ يكون قد بلغ مبالغ الرجال، وإن كان صغير السن.

(٤) وردت الأبيات الثمانية المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٧. وورد البيت الأول منها في دلائل الإعجاز للجرجاني: ٣٧٩. الندى: الجود. الهرم: الشيخوخة والعجز. عاذر: مانع. يمدح الشاعر آل ممدوحه؛ إنهم كرماء سليقة وطبعاً، يُولد معهم حب الجود ويترعرع بترعرعهم، ولا يحول دونهم ودون الجود حائل، يستوي في ذلك كبيرهم وصغيرهم.

إذَا تَــــوَلَّــــوْا عَـــدَاوَةً كَـــشَـــفُـــوا
وَإنْ تَـــوَلّـــوْا صَـــنِـــيـــعَـــةً كَـــتَـــمُـــوا[١]

تَـــظُـــنُّ مِـــنْ فَـــقْـــدِكَ ٱعْـــتِـــدَادَهُـــمُ
أَنَّـــهُـــمُ أَنْـــعَـــمُـــوا وَمَـــا عَـــلِـــمُـــوا[٢]

إنْ بَـــرَقُـــوا فَـــٱلْـــحُـــتُـــوفُ حَـــاضِـــرَةٌ
أَوْ نَـــطَـــقُـــوا فَـــالـــصَّـــوَابُ وَٱلْـــحِـــكَـــمُ[٣]

أَوْ حَـــلَـــفُـــوا بِـــالْـــغَـــمُـــوسِ وَاجْـــتَـــهَـــدُوا
فَـــقَـــوْلُـــهُـــمْ «خَـــابَ سَـــائِـــلِـــي» الْـــقَـــسَـــمُ[٤]

أَوْ رَكِـــبُـــوا الْـــخَـــيْـــلَ غَـــيْـــرَ مُـــسْـــرَجَـــةٍ
فَـــإِنَّ أَفْـــخَـــاذَهُـــمْ لَـــهَـــا حُـــزُمُ[٥]

---

(١) الصنيعة: المعروف. يردف الشاعر أن من طبع القوم أنهم يُجاهرون بعدائهم لمن يُعادونه، ثقة بشجاعتهم وقوّة غلبهم، وفي حال اصطناعهم المعروف مع امرئ تعمّدوا إغفاله لئلا يُجرح شعوره ويذهب الإحسان إليه أدراج الرياح، لأنهم يبغون رضى اللّٰه تعالى، فلا يمنون.

(٢) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٨٢. إنهم لا يعتدّون ويفخرون بما قدّموا من فضائل ومعروف، ومن عادتهم في مثل هذه الحالة أنهم ينسون لكثرة ما يفعلون ذلك، فيغفلون عن تذكره، فضلاً عن كثرة أشغالهم.

(٣) برقوا: أرعدوا وأرعبوا. الحتوف، الواحد حتف: الموت. يمدح الشاعر آل ممدوحه بظاهرتين من ظواهر التفوّق، أولاهما تهديد أعدائهم، ويعني ذلك هلاكهم ودمارهم وخراب بيوتهم، وثانيهما ببلاغة القول، فهم ينطقون بالحكم التي تتوارد على ألسنتهم، وهم العرب الأقحاح.

(٤) و (٥) الغموس: القسم الكاذب الذي يغمس صاحبه في الإثم. يمدح الشاعر القوم بالصدق، فلا يُقسمون الأيمان إلّا صدقاً، وهم يجتهدون في الصدق، وتلك من الفضائل المحبّبة إلى نفوسهم، ولمن أقسموا له لثقتهم بصدقهم، وهم يُسرعون لإغاثة الملهوف والمستغيث، فإذا بهم يُسرعون إلى امتطاء خيولهم ولم يُسرجوها ليتداركوا المستغيث لحظة حاجته إليهم، ولكثرة ذلك، فقد اعتادوا على ذلك حتى أصبحت أفخاذهم بمثابة أحزمة تضبط إيقاع خيولهم، فلا يقع أحدهم عن فرسه.

أَوْ شَــهِــدُوا الْــحَــرْبَ لَاقِــحــاً أَخَــذُوا
مِــنْ مُــهَــجِ الــدَّارِعِــيــنَ مَــا احــتَــكَــمُــوا (١)
تُــشْــرِقُ أَعْــرَاضُــهُــمْ وَأَوْجُــهُــهُــمْ
كَــأَنَّــهَــا فِــي نُــفُــوسِــهِــمْ شِــيَــمُ (٢)
لَــوْلَاكَ لَــمْ أَتْــرُكِ الــبُــحَــيْــرَةَ وَالْــ
غَــوْرُ دَفِــيءٌ وَمَــاؤُهَــا شَــبِــمُ (٣)
وَالْــمَــوْجُ مِــثْــلُ ٱلْــفُــحُــولِ مُــزْبِــدَةً
تَــهْــدِرُ فِــيــهَــا وَمَــا بِــهَــا قَــطَــمُ (٤)

---

(١) اللاقح: الحرب الضروس. المهج، الواحدة مهجة: دماء القلوب. الدارع؛ اللابس المدرع. يُردف الشاعر مدح القوم، فهم أقوياء في قتال أعدائهم فإذا ما تلاقوا في الميدان كان مصير أعدائهم بأيديهم يقتلون من أرادوا ويبقون على من أحبّوا، ولذا فلا يمتنع عنهم أحد حتى ولو تترّس بدرعه وترسه.

(٢) الأعراض، الواحد عرض: ما يمدح به المرء أو يذمّ. الشيم، الواحدة شيمة: الأخلاق. يمدح الشاعر القوم، فوجوههم تُشرق بنور شيمهم الحميدة المحبّبة إلى النفوس، فأفعالهم في وجوه البرّ وبطولاتهم في الحروب مصدر اعتزازهم وفخرهم، إنها متأصّلة في طباعهم يصدرون دائماً عنها بكريم الأعمال.

(٣). يقصد بالبحيرة بحيرة طبرية. الغور: غور الأردن. الشبم: البارد. يُخاطب الشاعر ممدوحه أنه سبب تخليه عن استقراره في مكان يدعو المرء إلى الركون والبقاء؛ فالجوّ لطيف، والماء بارد، والبحيرة هادئة يسرح النظر فيها ويرتاح القلب إلى مشاهدتها، وحيثما يُوجد الأمير حرّ لاهب وما يُخفّف الإحساس به وجود الشاعر إلى جانب ممدوحه.

(٤) الموج، الواحدة موجة. هدر الجمل: أخرج زبده. القطم: شهوة الضراب. المعلوم من أمر البحيرات أنها لا موج فيها؛ بل ما يُميّزها سكون مائها وهدوءه. فإذا بالشاعر يُحرّك الموج فيها بعنف فيعلوه الزبد. ويطفو على سطحها في هديره المرتفع كأنه فحل من فحول الإبل في هيجانه، وليس بها شهوة الضراب.

وَالـطَّـيْـرُ فَـوْقَ الْـحَـبـابِ تَـحْـسَـبُـهَـا
فُـرْسَـانَ بُـلْـقٍ تَـخُـونُـهَـا الـلُّـجُـمُ (١)

كَـأَنَّـهَـا وَالـرِّيَـاحُ تَـضْـرِبُـهَـا
جَـيْـشَـا وَغًـى هَـازِمٌ وَمُـنْـهَـزِمُ (٢)

كَـأَنَّـهَـا فـي نَـهَـارِهَـا قَـمَـرٌ
حَـفَّ بِـهِ مِـنْ جِـنَـانِـهَـا ظُـلَـمُ (٣)

تَـغَـنَّـتِ الـطَّـيْـرُ فـي جَـوَانِـبِـهـا
وَجَـادَتِ الأَرْضَ حَـوْلَـهَـا الـدِّيَـمُ (٤)

فَـهْـيَ كَـمَـاوِيَّـةٍ مُـطَـوَّقَـةٍ
جُـرِّدَ عَـنْـهَـا غِـشَـاؤُهَـا الْأَدَمُ (٥)

---

(١) و (٢) حباب الماء: الفقاقيع التي تطفو كالزبد على سطح الماء. البلق، الواحد أبلق: ما اختلط البياض فيه بالسواد. يُردف الشاعر متماً صورة ما عليه البحيرة؛ فالطيور تطير على سمت الماء وعلى سطحها فوق الحباب كأنها فرسان يمتطون جيادهم فتهيم في كلّ اتجاه وقد تُركت أعنتها، واختلط الأبيض منها بالأسود، كأنها جيشان متحاربان في وسط المعركة، يُلاحق بعضها بعضاً؛ فالمنتصر يهوي على المنهزم بقوّة عجيبة، والرياح تدفعها في كل اتّجاه بهوج وعنف.

(٣) حفّ به: أحاط به. يُردف الشاعر مكملاً ما عليه البحيرة من صورة؛ تبدو البحيرة كقمر يشعّ ضياءً وقد أحاطت بها بساتين تمتشق بقاماتها فيها الأشجار بخضرتها النضرة المائلة إلى السواد.

ورد بعد هذا البيت بيتان لم يردا في الديوان، وهما التاليان:

نَـاعِـمَـةُ الـجِـسْـمِ لَا عِـظَـامَ لَـهَـا ... لَـهَـا بَـنَـاتٌ وَمَـا لَـهَـا رَحِـمُ
يُـبْـقَـرُ عَـنْـهُـنَّ بَـطْـنُـهـا أَبَـداً ... وَمَـا تَـشَـكّـى وَلَا يَـسِـيـلُ دَمُ

(٤) جادت: أمطرت. الديم، الواحدة ديمة: المطر يستمرّ لأيام. يُردف الشاعر وصف الإطار الخارجي للوحة البحيرة؛ فالطيور تزقزق وتردّد أغنية الحبّ مسبّحة خالقها سبحانه وتعالى، ولقد أترعت ماءً غدقاً من ديم معطاءة استمرّت لأيام.

(٥) الماوية: المرآة. الغشاء: الغطاء. الأدم: الجلد. يُردف الشاعر متمّماً وصف البحيرة، إنها شبيهة بالمرآة، أحيطت بإطار من الخضرة لما يلفّها من بساتين، وقد نزع عنها غلافها.

يَـشِـيـنُـهـا جَـرْيُـهَـا عَـلَـى بَـلَـدٍ
تَـشِـيـنُـهُ الأَدْعِـيَـاءُ وَالْـقَـزَمُ[١]

أَبَـا الْـحُـسَـيْـنِ اسْـتَـمِـعْ فَـمَـدْحُـكُـمُ
بِـالـفِـعْـلِ قَـبْـلَ الْـكَـلامِ مُـنْـتَـظِـمُ[٢]

وَقَـدْ تَـوَالَـى الْـعِـهَـادُ مِـنْـهُ لَـكُـمْ
وَجَـادَتِ الْـمَـطْـرَةُ الَّـتِـي تَـسِـمُ[٣]

أُعِـيـذُكُـمْ مِـنْ صُـرُوفِ دَهْـرِكُـمُ
فَـإِنَّـهُ فِـي الْـكِـرَامِ مُـتَّـهَـمُ[٤]

معدن الذهب الرغام

وقال يمدح المغيث بن العجلي:

[الوافر]

فُـؤَادٌ مَـا تُـسَـلِّـيـهِ الْـمُـدَامُ
وَعُـمْـرٌ مِـثْـلُ مَـا تَـهَـبُ الـلِّـئَـامُ[٥]

---

(١) يشينها: يعيبها. الأدعياء: هم الذين يُنسبون إلى غير آبائهم. القزم: أراذل الناس وسفلتهم. لم يجد الشاعر عيباً في البحيرة، ولكنه وجدها محاطة بسفلة الناس والرعاع، فجريانها يضيع سدًى في أمثال أدعياء لا آباء لهم حقيقة، إنما ينتسبون لغير آبائهم، كأنهم أبناء سِفاح.

(٢) أخيراً بعد انحراف عن المدح شغل حيّزاً كبيراً من القصيدة تذكّر ممدوحه، فراح يُخاطبه بأن أفعاله في أبواب الخير حملت الناس على مدحه قبل مدحه من قبل الشعراء، لذلك فأفعاله أوحت للشعراء بذكر فضائله.

(٣) العهاد، الواحد عهد: المطر يتلو المطر. المطرة التي تسمّى: الوسمي من الأمطار في مطلع الربيع. يُلمّح الشاعر إلى أنه قد أفاض على آل الممدوح مدحاً كثيراً، وهذه القصيدة إحداها تُشيد بهم وتذكر فضائلهم وجودهم.

(٤) وردت القصيدة في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٧. صروف الدهر: مصائبه ونوائبه، يسأل الشاعر اللّه سبحانه وتعالى أن يحمي آل الشاعر من غدرات الزمان ومصائبه، لأنه مولع بالاستئثار بكرام الناس، لذا يحسّ محبّوهم بسرعة فقدهم.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٩. المدام: من أسماء الخمرة. =

وَدَهْــــرٌ نَــــاسُـــهُ نَـــاسٌ صِـــغَـــارٌ
وَإنْ كَـــانَـــتْ لَـــهُـــمْ جُـــثَـــثٌ ضِـــخَـــامُ[(١)]

وَمَــا أَنَــا مِــنْــهُــمُ بِــالْــعَــيْــشِ فِــيــهِــمْ
وَلَٰــكِــنْ مَــعْــدِنُ الــذَّهَــبِ الــرَّغَــامُ[(٢)]

أَرَانِـــبُ غَـــيْـــرَ أَنَّـــهُـــمُ مُـــلُـــوكٌ
مُـــفَـــتَّـــحَـــةٌ عُـــيُـــونُـــهُـــمُ نِـــيَـــامُ[(٣)]

بِـــأَجْـــسَـــامٍ يَـــحَـــرُّ الْـــقَـــتْـــلُ فِـــيـــهَـــا
وَمَـــا أَقْـــرَانُـــهَـــا إلَّا الـــطَّـــعَـــامُ[(٤)]

= اللئام، الواحد لئيم: من اتّصف بالشحّ وخساسة الآباء والنفس. يعنى الشاعر قصر عمره بحيث لا يُبيح له تحقيق كلّ آماله وطموحه من هذه الحياة، فالعمر نزر قليل إنه شبيه بهبة لئيم بخيل، والقلب مفعم بطموح عظيم لا تُسليه الخمرة في حال عدم تحقيق ما تقدّمه الحياة.

(١) يُردف الشاعر أن الدهر عجيب غريب، فناسه بشر أشكالهم أشكال البشر، ولكن عقولهم عقول الأطفال في أمانيهم وأخلاقهم وأعمالهم وطموحاتهم رغم أن بعضهم ضخام الجثث، فلم يستفيدوا من تلك المزايا التي امتازوا بها.

(٢) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١ : ٣٣٥. الرغام: التراب. يتبرّأ الشاعر من معاصريه، إنه يعيش بينهم ويُعاشرهم لاضطراره التعامل معهم، ولكن مثله مثل الذهب، ذلك المعدن النبيل الثمين الذي تحتضنه الأرض بترابها، وهو خلاف التراب نوعاً وشكلاً وخصائص ومزايا.

(٣) يُبدي الشاعر احتقاره وكرهه للملوك، إنهم في الواقع كالأرانب يتكاثرون وينهبون خيرات الأرض والبشر ويأكلون بشراهة، ونومهم عجيب غريب، إنهم يُفتّحون أعينهم وهم نِيام لجبنهم وخوفهم من أن ينقلب عليهم الطامعون بملكهم، فيبقون بين اليقظة والسهاد والغفلة والنوم؛ فلن يعرفوا طعم النوم الحقيقي.

(٤) يحرّ: يشتدّ. الأقران، الواحد قِرن، بكسر القاف: الكفوء. ينعى الشاعر على هؤلاء الملوك، فهمّهم الوحيد أن يُتخموا بطونهم لشدّة نهمهم وشرههم، فيموتون بسبب ذلك، وهم لم تُحدّثهم أنفسهم بخوض المعارك ومقارعة الأقران، فتحيي فيهم الهمم التي قضى عليها نهمهم وتخمتهم.

وَخَيْلٍ مَا يَخِرُّ لَهَا طَعِينٌ
كَأَنَّ قَنَا فَوَارِسِهَا ثُمَامُ(١)

خَلِيلُكَ أَنْتَ لَا مَنْ قُلْتَ خِلِّي
وَإنْ كَثُرَ التَّجَمُّلُ وَالْكَلَامُ(٢)

وَلَوْ حِيزَ الْحِفَاظُ بِغَيْرِ عَقْلٍ
تجَنَّبَ عُنْقَ صَيْقَلِهِ الْحُسَامُ(٣)

وَشِبْهُ الشَّيْءِ مُنْجَذِبٌ إلَيْهِ
وَأَشْبَهُنَا بِدُنْيَانَا الطَّغَامُ(٤)

وَلَوْ لَمْ يَعْلُ إلّا ذُو مَحَلٍّ
تَعَالَى الْجَيْشُ وَانْحَطَّ الْقَتَامُ(٥)

---

(١) يخرّ: يسقط. القنا: الرماح. الثمام: ضرب من النبت ضعيف. يُردف الشاعر معقباً على ذكر معايب هؤلاء الملوك؛ إنهم يمتطون متون خيولهم للتباهي والزهو الكاذب، لذا لا يهوي عدوّهم صريعاً مضرّجاً بدمائه، ذلك أن رماحهم ضعيفة استمدّت ضعفها من ضعفهم فبدت كالثمام.

(٢) الخلّ: الصديق والرفيق. التجمّل: التملّق وحلو الحديث. يُحدّد الشاعر معنى الصداقة في مفهومه؛ فصديق الإنسان نفسه، فلا يحكمن أحد أن فلاناً صديقه، وإن كثر تملّقه وصاغ حلو الودّ، فهو بلا ريب كاذب يعمل على الاستفادة ممّن يُوقعه في شركه.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٥. حيز، مجهول من حاز: ملك. الحفاظ: المحافظة على الحقوق. الصيقل: صانع السيوف. الحسام: السيف البتّار، يُنكر الشاعر على هؤلاء الملوك قلّة الوفاء والحفاظ على الودّ بصدق ومحبَّة، فمثلهم كمثل صانع السيوف، فقد يكون ضحية سيف صنعه، فإذا به يفصل عنقه عن جسده.

(٤) الطغام: الرعاع وأرذل الناس. يهجو الشاعر الدنيا والبشر؛ فالدنيا غدّارة طُبعت على اللؤم والخساسة، وناسها على شاكلتها، فكان التشابه بينهما لتشابه عنصريهما في خصائصهما.

(٥) ذو محل: ذو مكانة عالية، القتام: الغبار. يُتابع الشاعر هجاء معاصريه، فمن بلغ =

وَلَــوْ لَــمْ يَــرْعَ إلّا مُــسْــتَــحِــقٌّ
لِـرُتْـبَـتِـهِ أَسَـامَـهُـمُ الْـمُـسَـامُ(١)

وَمَــنْ خَـبَـرَ الْـغَـوَانِـيَ فَـالْـغَـوَانِـي
ضِـيَـاءٌ فِـي بَـوَاطِـنِـهِ ظَـلَامُ(٢)

إذَا كَـانَ الـشَّـبَـابُ الـسُّـكْـرَ وَالـشَّـيْـ
ـبُ هَـمًّـا فَـالْـحَـيَـاةُ هِـيَ الْـحِـمَـامُ(٣)

وَمَــا كُــلٌّ بِــمَــعْــذُورٍ بِــبُــخْــلٍ
وَلَا كُــلٌّ عَــلَــى بُــخْــلٍ يُــلَامُ(٤)

= مكانة رفيعة لا يستحقّها أصلاً فلا بدّ من مغالطة ساعدته على الحصول عليها، أو أنه انتهز فرصة وساعدته ظروفه، وذلك شأن معظم من تبوّأوا مراكز عالية لا يستحقّونها، فلو كانوا يستحقّون مراكزهم لما تصاعد الغبار فوق جيوش المتقاتلين.

(١) لم يرع: لم يسُس. أسام الرعية: أرعاها. يُتابع الشاعر تهجّمه على الملوك، إنهم رعاة يجب أن يقوموا بسياسة الناس بالعدل ودفع الظلم عنهم، ولكنهم ظلمة جهلة، فلو كانوا رعاة البهائم لكان على البهائم أن يسوسوهم لأن فيهم من يُحسن السياسة والرعاية أفضل من الملوك.

(٢) الغواني، الواحدة غانية: الشّابة التي اغتنت بجمالها فلم تتزيّن. يُعرّج الشاعر على نقد الجميلات من النسوة، إنهنّ شعاع جذّاب وبريق وضّاء يجذب قلوب الرجال فيقعون في حبالهن ويشقون فإذا بهم يُعانون ظلمة الحرمان وألم الهجر والغيرة والتحاسد.

(٣) الحمام، بكسر الحاء: الموت. يُبدي الشاعر نظرة تشاؤمية من خلال مسار المرء في حياته، فشبابه لهو ولعب واغترار بعزم الشباب وقوّة وعدم التعقل والتحرّز من الوقوع في المهالك، فإذا ما امتدّ به العمر بدأ التلاشي في جسده، فراح يبكي ماضيه ويتمنّى الرجوع إليه، ولكن ليس إلى ذلك من سبيل، فالموت على الأبواب، وحياة بني البشر منذ بدئها تحمل في طيّاتها الموت.

(٤) يُعرّج الشاعر على موضوع الكرم والبخل، والفقير المحتاج لا يُلام على بخله، لأن فاقد الشيء لا يُعطيه، وكذلك من نشأ في بيت اعتاد البخل فأبناؤه سيكونون بخلاء طبعاً وتربية. وهم يخافون الفقر ناسين أن من يُغني هو اللّه سبحانه وتعالى. والأغنياء لا يعذرون إذا بخلوا، فالأولى بهم أن يجودوا بالمال لقيام حياة البشر على ما يجب أن تكون.

وَلَـمْ أَرَ مِـثْـلَ جِـيـرَانِـي وَمِـثْـلِـي
لِـمِـثْـلِـي عِـنْـدَ مِـثْـلِـهِـم مُـقَـامُ[(١)]

بِـأَرْضٍ مَـا اشْـتَـهَـيْـتَ رَأَيْـتَ فِـيـهَـا
فَـلَـيْـسَ يَـفُـوتُـهَـا إلّا الْـكِـرَامُ[(٢)]

فَـهَـلّا كَـانَ نَـقْـصُ الْأَهْـلِ فِـيـهَـا
وَكَـانَ لِأَهْـلِـهَـا مِـنْـهَـا الـتَّـمَـامُ[(٣)]

بِـهَـا الْـجَـبـلَانِ مِـنْ صَـخْـرٍ وَفَـخْـرٍ
أنَـافَـا: ذَا الْـمُـغِـيـثُ وَذَا الـلُّـكَـامُ[(٤)]

وَلَـيْـسَـتْ مِـنْ مَـوَاطِـنِـهِ وَلٰـكِـنْ
يَـمُـرُّ بِـهَـا كَـمَـا مَـرَّ الْـغَـمَـامُ[(٥)]

سَـقَـى الـلَّـهُ ابْـنَ مُـنْـجِـبَـةٍ سَـقَـانِـي
بِـدَرٍّ مَـا لِـرَاضِـعِـهِ فِـطَـامُ[(٦)]

---

(١) و (٢) ينقل الشاعر تبرّمه وتأفّفه إلى جيرانه؛ إنهم جيران سوء، لا يراعون حسن الجوار، ولا يعرفون للجار حقًّا عليهم، مع الإحسان إليهم من جهة الشاعر وصبره على جفائهم، إنها الأقدار رمته في جيرة طُبعت على الضّرر والإضرار لجيرتها، إنها أرض اجتمعت فيها كل المساوئ فشأن أهلها المكروه من الصفات الذميمة والأخلاق المنحطة، لذا فلن يعثر المرء على كريم فيها.

(٣) يتطرّق الشاعر إلى موضوع حساس جدًّا، فالبيئات الاجتماعية هي عبارة عن أحياء يعيش فيها سكّان متجانسون اجتماعياً وطبقياً وثقافياً وعرقياً وأخلاقياً؛ فمحلته نموذجيّة للعيش فيها ويلزمها استبدال ساكنيها بغيرهم لتكون محلّة نموذجية تتوفر فيها كلّ أسباب العيش والرفاهية.

(٤) يتخلّص إلى مدح ممدوحه، فثمّة جبلان شامخان، أحدهما صخر يُعانق السماء، إنه جبل اللكام، وثانيهما جبل بشري يرتفع بجوده وفضائله، إنه يُغيث الملهوف بنفسه وماله؛ إنه وجهة الشاعر ومقصده.

(٥) الغمام، الواحدة غمامة: الغيوم الكثيفة. يعود الشاعر إلى ذكر تلك المحلّة المذمومة، إنها ليست موطن الممدوح ولكنه يمرّ بها مرور الكرام كغيوم كثيفة، فيُصيبها منه طلّ يُنعش ساكنيها برفده وجوده.

(٦) المنجبة: المرأة التي تلد النجباء. الدرّ: اللبن. الفطام: التوقّف عن إرضاع الأم =

وَمَـــنْ إحْـــدَى فَـــوَائِـــدِهِ الْـــعَـــطَـــايَـــا
وَمَـــنْ إحْـــدَى عَـــطَـــايَـــاهُ الـــذِّمَـــامُ[١]

وَقَـــدْ خَـــفِـــيَ الـــزّمَـــانُ بِـــهِ عَـــلَـــيْـــنَـــا
كَـــسِـــلْـــكِ الـــدُّرِّ يُـــخْـــفِـــيـــهِ الـــنِّـــظَـــامُ[٢]

تَـــلَـــذُّ لَـــهُ الْـــمُـــرُوءَةُ وَهْـــيَ تُـــؤْذِي
وَمَـــنْ يَـــعْـــشَـــقْ يَـــلَـــذُّ لَـــهُ الْـــغَـــرَامُ[٣]

تَـــعَـــلَّـــقَـــهَـــا هَـــوَى قَـــيْـــسٍ لِـــلَـــيْـــلَـــى
وَوَاصَـــلَـــهَـــا فَـــلَـــيْـــسَ بِـــهِ سَـــقَـــامُ[٤]

يَـــرُوعُ رَكَـــانَـــةً وَيَـــذُوبُ ظَـــرْفـــاً
فَـــمَـــا يَـــدْرِي أَشَـــيْـــخٌ أَمْ غُـــلَامُ[٥]

= رضيعها. يدعو الشاعر لممدوحه النجيب الذي سقي من جوده أن يستمرّ تدفّق الخير في يديه، فقد روي من لبن خيره ما يُشبعه ويُشجعه على طلب المزيد من عطاياه، مُتمنّياً ألّا يفطمه على رضاع كهذا، ويُديم اللّه تعالى عليه فضله ونعمه.

(١) يروى «الدوام» بدلاً من «الذمام». والذمام: العهد. يصف الشاعر ممدوحه بجوده، وتلك ظاهرة من صفات عديدة يتمتّع بها، فمن قرّبه الممدوح زاده رفعة وشرفاً وعِزّة ومودّة وصحبة، بحيث أصبح الشاعر من خلصاء الممدوح، ولم يُعامله معاملة سائر الشعراء.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٤. يروى «فقد» بدلاً من «وقد». السلك: الخيط الذي ينتظم به العقد. لقد كان الممدوح بمحاسنه وفضائله حائلاً دون إساءات الزمن، فإذا بوجه الزمان الكالح العابس يختفي ليحلّ مكانه وجه يحمل الخير والأمل للشاعر، كسلك ينتظم في سلكه كلّ الدرّ بتناسقه وإشراق ضيائه.

(٣) و (٤) المروءة: المسارعة إلى مساعدة المحتاجين. الغرام: حبّ أي عمل مضنٍ، أو حبّ معذّب. إن الممدوح مولّه بما هو مكلف متعب، ورغم ذلك فإنه يلذّ له ذلك، ففي العذاب احتراق الشوائب التي تعلق وتُشوّه البشر تماماً كالذهب ففي إذابته بنار لاهبة يتخلّص ممّا يشوبه ليعود صافياً برّاقاً يتلألأ ضياءً، فثمّة حبّ يشدّهما إلى بعضهما تماماً كحب قيس العامري لليلى، ولكن قيساً ابتلي بمرض الجنون ولم يُوفق بحبّه لها، بينما نجح الممدوح فكان لقاء وتواصل بينه وبين المروءة.

(٥) يروع: يخيف. الركانة: الوقار. الظرف: خفة الروح وذكاء القلب. يُردف الشاعر =

وَتَــمْــلِــكُــهُ الْــمَــسَــائِــلُ فِــي نَــدَاهُ
وَأَمَّــا فِــي الْــجِــدَالِ فَــلَا يُــرَامُ[(١)]
وَقَــبْــضُ نَــوَالِــهِ شَــرَفٌ وَعِــزٌّ
وَقَــبْــضُ نَــوَالِ بَــعْــضِ الْــقَــوْمِ ذَامُ[(٢)]
أَقَــامَــتْ فِــي الــرِّقَــابِ لَــهُ أَيَــادٍ
هِــيَ الْأَطْــوَاقُ وَالــنَّــاسُ الــحَــمَــامُ[(٣)]
إِذَا عُــدَّ الْــكِــرَامُ فَــتِــلْــكَ عِــجْــلٌ
كَــمَــا الْأَنْــوَاءُ حِــيــنَ تُــعَــدُّ عَــامُ[(٤)]
تَــقِــي جَــبَــهَــاتُــهُــمْ مَــا فِــي ذَرَاهُــمْ
إِذَا بِــشِــفَــارِهَــا حَــمِــيَ الــلِّــطَــامُ[(٥)]

= مدح ممدوحه، إنه يتّسم برزانة الشيوخ في تصرّفه، فضلاً أنه يبدو خفيف الظلّ يذوب مرحاً وحيوية وخفّة روح فتًى في مقتبل العمر، والمرء في حيرة من أمره، أهو أمام شيخ متزمّت؟ أم هو أمام فتًى تفتّحت أمامه الحياة، فأقبل عليها بفرح؟

(١) المسائل: المطالب. الندى: الجود، الكرم. الجدال: المحاورة. لا يُرام: لا يُحتمل. يصف الشاعر ممدوحه بكرمه العظيم، فما من سائلٍ إلّا ويحصل على بُغيته، وكذلك فإنه عالي الكعب في مناظراته ومحاوراته ممَّا يدلّ على علمه الغزير ومعرفته وثقافته العالية.

(٢) النوال: العطاء. الذام: العيب. يذكر الشاعر أن عطاء ممدوحه فيه الخير، يرفع الحاصل عليه ويزيده رفعة وعزة وشرفاً، بينما عطاء سواه فيه منٌّ وخزي لمن يأخذه، لأنه عطاء لا يخرج من قلب طبع على الجود.

(٣) الأيادي: النعم. الحمام: اسم جامع لسائر أنواعه. يمدح الشاعر ممدوحه بالجود، فجوده قد طوّق أعناق سائر الناس، ففي كلّ عنق له صدقة ويد كما تُزيّن أعناق الحمام بأطواقها.

(٤) عجل: قبيلة الممدوح. الأنواء، الواحد نوء، وهو سقوط نجم من منازل القمر في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه في الفجر. يمدح الشاعر قبيلة الممدوح؛ فعجل أفضل الخلق، وسائر البشر دونهم مكانة وكرماً وشجاعة، وقياسهم يُساوي وحدة الزمن السنوية، كالأنواء التي يتمثّل فيها الغيث ليعمّ الأرض ومن عليها وما عليها من سقوط أولها إلى سقوط آخرها، تلك هي عجل برجالاتها وكرمهم.

(٥) تقي: تحمي. الذرى، بفتح الذال: كلّ ما استترت به. الشفار، الواحدة شفرة: حدّ =

وَلَـوْ يَـمَّـمْـتَـهُـمْ فـي ٱلْـحَـشْـرِ تـجْـدُو
لَأَعْــطَـوْكَ الَّــذي صَــلَّــوْا وَصَــامُــوا(١)
فَــإنْ حَــلُـمُــوا فَـإِنَّ الْـخَـيْـلَ فِـيـهِـمْ
خِــفَــافٌ وَالــرِّمَــاحُ بِــهَــا عُــرَامُ(٢)
وَعِــنْــدَهُــمُ الْـجِـفَــانُ مُــكَــلَّــلاتٍ
وَشَــزْرُ الــطَّــعْــنِ وَالــضَّــرْبُ الــتُّــؤَامُ(٣)
نُــصَــرِّعُــهُــمْ بِــأَعْــيُــنِــنَــا حَــيَــاءً
وَتَــنْــبُــو عَــنْ وُجُــوهِــهِــمِ الــسِّــهَــامُ(٤)

= النصل. اللطام: الصدام بالسيوف. يمدح الشاعر حميّة قبيلة الممدوح، فهم يواجهون سيوف الأعداء ليحموا من استنجد بهم وأوى إليهم عندما يشتدّ القتال ويحمى الوطيس.

(١) يمّم: قصد شطر فلان، تجدو: تطلب من كرمهم. الحشر: يوم البعث والقيامة وسواء أكانت قبيلة الممدوح في عالم الحياة أم في يوم البعث والنشور، فالكرم فيهم مزيّة لا تتغيّر، فلو أن أحد الموتى كان بحاجة لحسنات وكان مقصّراً، وطلب من أحد أفراد القبيلة لما تردّد بإمداده من حسناته من صلاته وصيامه؛ وهذا ما يدلّ على أن سائر أفراد القبيلة تُقاة مؤمنون حقاً.

(٢) الحلم: العفو والمغفرة عند المقدرة، عُرام: شراسة. ما يميّز تلك القبيلة ظاهرتان؛ أولاهما الحِلم والمغفرة، وهم قادرون على أخذ المذنب بذنبه، وتلك ظاهرة تنم عن نبل أصحابها، وثانيهما أنهم يُسارعون إلى القتال، وهم على ظهور خيول خفاف ليجابهوا أعداءهم بلا توانٍ وجُبن.

(٣) الجفان، الواحدة جفنة: القصعة. الشزر: ما كان من الطعن يميناً وشمالاً. التؤام: المزدوج. يمدح الشاعر هؤلاء القوم بالجود، فهم يملأون جفانهم باللحوم للصادر والوارد، فلا يُميّزون بين ضيوفهم، وهي مملوءة بلا انقطاع، وهم في نفس الوقت شجعان يُمارسون فنون القتال طعناً برماحهم، ممّا يدلّ على شجاعة عظيمة لديهم.

(٤) صرعه: طرحه. نبا السهم عن هدفه: مال وأخطأ. يمدح الشاعر القوم بشدّة الحياء، فلو أن أحداً نظر إليهم وحدّد نظره لغلبهم ومالوا بوجوههم لرقتها ولفرط احتشامهم، ولكن تلك الوجوه تبدو على حقيقتها إذا واجهوا أعداءهم، فإذا بهم يتلقّون السهام بوجوههم لشجاعتهم، فإذا بسهام أعدائهم تطيش عن أهدافها.

قَـبِـيـلٌ يَـحْـمِـلُـونَ مِـنَ الـمَـعَـالِـي
كـمَـا حَـمَـلَـتْ مِـنَ ٱلْـجَـسَـدِ الـعِـظَـامُ[(١)]

قَـبِـيـلٌ أَنْـتَ أَنْـتَ وَأَنْـتَ مِـنْـهُـمْ
وَجَـدُّكَ بِـشْـرٌ الـمَـلِـكُ الـهُـمَـامُ[(٢)]

لِـمَـنْ مَـالٌ تُـمَـزِّقُـهُ الْـعَـطَـايَـا
وَيَـشْـرَكُ فـي رَغَـائِـبِـهِ الأَنَـامُ[(٣)]

وَلَا نَـدْعُـوكَ صَـاحِـبَـهُ فَـتَـرْضَـى
لأنَّ بِـصُـحْـبَـةٍ يَـجِـبُ الـذِّمَـامُ[(٤)]

تُـحَـايِـدُهُ كَـأَنَّـكَ سَـامِـرِيٌّ
تُـصَـافِـحُـهُ يَـدٌ فِـيـهَـا جُـذَامُ[(٥)]

---

(١) القبيل: الجماعة، يُردف الشاعر مدحه لقبيلة الممدوح، إنهم يحملون أعباء المعالي بقدرة وعزم وكرم وشجاعة، إنهم بمثابة العظام لهيكل يشمل الجسد، فلولاهم ما كان للحم قيام وقيمة.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٣. يُؤكد الشاعر على انتماء ممدوحه إلى تلك القبيلة، إنه منهم بمثابة الروح للجسد كما كان جدّه بشر ملكاً عظيماً عليهم، فعليه وعلى أكتاف جدّه قامت عظمة تلك القبيلة.

(٣) و (٤) الرغائب، الواحدة رغيبة: ما يُرغب باقتنائه. الأنام: البشر. الذمام: العهد. رأى الشاعر ما أثار دهشته، أموال تتناوشها أيدي البشر، ولا مانع يمنعهم فكأن تلك الأموال لا يمتلكها أحد، وهي بين يدي الممدوح، فالمنطق يجعل المال لمن كانت بين يديه، ولذا فمن البدهي أن يُعزى للممدوح، ولكنه يمتنع حتى على ادّعائه ولا يرضى بذلك، فإن فعل فلا بدّ أن يقوم على صيانته وحمايته من أيدي العابثين، وهو معروف منه أنه يحمي ذماره وعرضه.

(٥) حايده: جانبه، مال عنه. السامري: نسبة إلى السامرة في فلسطين، وفئة من اليهود الغلاة. الجذام: مرض البرص، يُخاطب الشاعر ممدوحه مستغرباً كيف أنه لا يهتم بما لديه من مال، وكأن هذا المال نجس وكأن الممدوح من السامريين الذين يتنجّسون من مخالطة من سواهم فضلاً عن الأموال لدنسها.

إِذَا مَـا الْـعَـالِـمُـونَ عَـرَوْكَ قَـالُـوا
أَفِـدْنَـا أَيُّـهَـا ٱلْـحِـبْـرُ الإِمَـامُ[١]

إِذَا مَـا الْـمُـعْـلِـمُـونَ رأَوْكَ قَـالُـوا
بِـهٰـذَا يُـعْـلَـمُ الْـجَـيْـشُ الـلُّـهَـامُ[٢]

لَـقَـدْ حَـسُـنَـتْ بِـكَ الأَوْقَـاتُ حَـتّـى
كَـأَنَّـكَ فـي فَـمِ الـدَّهْـرِ ابْـتِـسَـامُ[٣]

وَأُعْـطِـيـتَ الَّـذِي لَـمْ يُـعْـطَ خَـلْـقٌ
عَـلَـيْـكَ صَـلَاةُ رَبِّـكَ وَالـسَّـلَامُ[٤]

لا تسلم الأعداء منه ويسلم

يمدح عبد الواحد بن العباس بن أبي الإصبع الكاتب:

[الطويل]

نَـرَى عِـظَـمـاً بِـالْـبَـيْـنِ وَالـصَّـدُّ أَعْـظَـمُ
وَنـتَّـهِـمُ الْـوَاشِـيـنَ وَالـدَّمْـعُ مِـنْـهُـمُ[٥]

---

(١) عروك: قصدوك طالبين جواك. الحِبر، بكسر الحاء: العالم. يُنوّه الشاعر بما عليه ممدوحه من علم ومعرفة بحيث يقصده العلماء ليفيدوا ويستزيدوا منه علماً ومعرفة، وهم يعلنون صراحة بأنه حبرهم وأعلمهم.

(٢) المعلمون: الأبطال الذين يتّخذون لأنفسهم علامة يفرّقون بها أنفسهم عمن سواهم من الجند. الجيش اللهام: الجيش اللجب العظيم. يُشيد الشاعر بشجاعة ممدوحه، إنه يتّخذ لنفسه علامة تميّزه عمن سواه من جنده، فيقصده الأعداء، فيكونون من صرعاه، والجيش الذي ينتمي إليه يكون بدوره معلّماً ومميّزاً عمّن سواه من الجيوش لأن قائده أشجع الشجعان.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٤. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه فلتة الزمان أشرقت أنواره، فإذا بالسعادة تعمّ الكون، وإذا بالحياة تبدو بسمة على فم الزمان بعدما ادلهمّت أفق حياة البشر، فإذا بالبسمة تعمّ الوجود والبشر.

(٤) لقد خصّ اللّه سبحانه وتعالى الممدوح بما ميّزه عن سائر الخلق بالعلم والتقى وكرم الأخلاق والجود والشجاعة، لذا يدعو له الشاعر برعاية اللّه تعالى لتنعم روحه فيرضى السلام عليه.

(٥) البين: البعد. الواشي: النمام. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بالغزل. الهجر والبعد =

وَمَــنْ لُــبُّــهُ مَـعْ غَـيْـرِهِ كَـيْـفَ حَـالُـهُ
وَمَـنْ سِـرُّهُ فـي جَـفْـنِـهِ كـيْـفَ يَـكْـتُـمُ[١]

وَلَـمَّـا الْـتَـقَـيْـنَـا وَالـنَّـوَى وَرَقـيـبُـنَـا
غَـفُـولَانِ عـنَّـا ظِـلْـتُ أبْـكِـي وَتَـبْـسِـمُ[٢]

فَـلَـمْ أرَ بَـدْراً ضَـاحِـكـاً قَـبْـلَ وَجْـهِـهَـا
وَلَـمْ تَـرَ قَـبْـلـي مَـيِّـتـاً يَـتَـكَـلَّـمُ[٣]

ظَـلُـومٌ كَـمَـتْـنَـيْـهـا لِـصَـبٍّ كَـخَـصْـرِهـا
ضَـعِـيـفِ الـقُـوَى مِـنْ فِـعْـلِـهَـا يَـتَـظَـلَّـمُ[٤]

بِـفَـرْعٍ يُـعـيـدُ الـلّـيْـلَ وَالـصُّـبْـحُ نَـيِّـرٌ
وَوَجْـهٍ يُـعـيـدُ الـصُّـبْـحَ وَالـلّـيْـلُ مُـظْـلِـمُ[٥]

= عن حبيبة الشاعر يُؤلمه ويُزعج مرقده. ولكنه قد ينتهي في حال القرب، والمشكلة قائمة لا حلّ لها، إنه الصدود والتمنّع من جهة حبيبته، فثمّة من عمل على التفريق بينهما، إنهم الوشاة، وما الذي حملهم على ارتكاب هذه الحماقة؟ إنهم يهيمون حبًّا بحبيبة الشاعر.

(١) اللبّ: العقل. يكشف الشاعر ما ألمّ به من حزن؛ فقلبه معلّق بحبّ من لا يهتمّ به، فحاله لا تسرّ حبيباً فضلاً عن عدوّ ويترجم إحساسه جفن دامع، فلا يستطيع ردّه، إنه يكشف سرًّا دفيناً، إنه الحبّ.

(٢) و (٣) لقد كان لقاء بين الشاعر وحبيبته، وقد غفلت العيون، ونام الرقباء، فلا من وشاة ولا من أعداء، فالجوّ مؤات لكشف ما في نفس الشاعر، ولكن الدموع حالت دون الحديث وبثّ الشوق، فكانت الدموع تعبيراً حسياً عمّا يُعانيه، بينما كانت الحبيبة تبتسم مستغربة ممًا ترى ولا تجد له تفسيراً. ولقد تمكّنت الدهشة من الشاعر فقد رأى بدراً مطلّاً يشعّ ضحكاً وفرحاً، ولم ير ذلك من قبل، بينما كانت الحبيبة ترى ميّتاً قد ولّهه الحبّ، فإذا به ينطق بأرقّ لغة حبّ يُعاني منه حرماناً وصدوداً.

(٤) المتنان: ما على جانبي الصلب أي عظم الظهر. الصبّ: العاشق المتيّم. يتظلّم: يتشكّى. يصف الشاعر حبيبته بضخامة قفصها الصدري الذي يستند على خصرها النحيل؛ إنه نحيل كعاشقها، ضعفت قواه، ولطالما اشتكى الشاعر من سوء معاملتها له وتظلّم لإهمالها إيّاه.

(٥) الفرع: الشعر. يُردف الشاعر متيّماً وصف حبيبته وصفاً ماديًّا، فشعرها الأسود بسواد =

فَـلَـوْ كَـانَ قَـلْـبِـي دَارَهَـا كَـانَ خَـالِـيـاً
وَلٰـكِـنَّ جَـيْـشَ الـشّـوْقِ فِـيـهِ عَـرَمْـرَمُ (١)

أثَـافٍ بِـهَـا مَـا بِـالْـفُـؤَادِ مِـنَ الـصَّـلَـى
وَرَسْـمٌ كَـجِـسْـمِـي نَـاحِـلٌ مُـتَـهَـدِّمُ (٢)

بَـلَـلْـتُ بِـهَـا رُدْنَـيَّ وَالْـغَـيْـمُ مُـسْـعِـدي
وعَـبْـرَتُـهُ صِـرْفٌ وَفِـي عَـبْـرَتـي دَمُ (٣)

وَلَـوْ لَـم يَـكُـنْ مَـا انْـهَـلَّ فـي الْـخَـدِّ مِـنْ دَمِـي
لَـمَـا كَـانَ مُـحْـمَـرًّا يَـسِـيـلُ فَـأَسْـقَـمُ (٤)

بِـنَـفْـسِـي الْـخَـيَـالُ الـزَّائـري بَـعْـدَ هَـجْـعَـةٍ
وَقَـوْلَـتُـهُ لـي بَـعْـدَنَـا الْـغُـمْـضَ تَـطْـعَـمُ (٥)

= الليل يسترسل مسترخياً بهدوء، ونور وجهها يبثّ إشعاع جمال نيّر، فإذا بالصبح ينبلج من خلال خصلات شعر أسود كأنه الليل ممّا ينمّ عن شباب نضر بهيج.

(١) الجيش العرمرم: الكثير العدد. رغم حبّ الشاعر لحبيبته، فإنها جعلت قلبه فارغاً موحشاً، رغم ما يعتمل فيه من حبّ عظيم، إنه بمثابة جيش معطل القدرات والقوى أمام سحرها.

(٢) الأثافي، الواحد أثفية: الأحجار تُنصب تحت القدر. الفؤاد: القلب. الصلى: اللهب. الرسم: بقايا الأطلال. يصف الشاعر ما حلّ به من جرّاء ذلك الحبّ. لقد رحلت حبيبته مع قومها، وتركت آثاراً في تلك الديار هامدة لا حياة فيها، فالأثافي مات فيها اللهيب، واللهب في قلبه قويّ يأكل مشاعره وأحاسيسه، ورغم ذلك فهي تتّقد اشتعالاً، ويُتابع الشاعر رسم صورة حزينة لتلك الديار إنها كجسمه قد تهدّمت وانحلّت عُرى تماسكها فتقطّعت أوصالها.

(٣) الردن: الكمّ. الغيم: السحب. مسعدي: معينني. العبرة، بفتح العين: الدمعة. صرف: خالص من أية شائبة. لقد وقف الشاعر على تلك الأطلال، والجوّ ماطر، ينهمر الماء من السماء لم يُكدّر صفوه ما يشوبه، وفي نفس الوقت كانت دموع الشاعر حمراء مُزجت دماً تعبيراً عن ألمه وما حلّ بها من حزن.

(٤) انهل: انهمر وسال. يُردف الشاعر واصفاً دموعه الحمراء التي سالت على وجنتيه، وقد اتَّخذَت لون الدم الأحمر تعبيراً عمّا حلّ به من مرض، فأحاله هزيلاً لشدّة أسفه وحزنه.

(٥) الهجعة: الغفوة. يذكر الشاعر ما دار بينه وبين طيف حبيبته، وقد حلّ ضيفاً عليه، في =

سَـلَامٌ فَـلَـوْلَا الْـخَـوْفُ وَالْـبُـخْـلُ عِـنْـدَهُ
لَـقُـلْـتُ أَبُـو حَـفْـصٍ عَـلَـيْـنَـا الْـمُـسَـلِّـمُ[١]

مُـحِـبُّ الـنَّـدَى الـصَّـابِـي إِلَـى بَـذْلِ مَـالِـهِ
صُـبُـوًّا كَـمَـا يَـصْـبُـو الْـمُـحِـبُّ الْـمُـتَـيَّـمُ[٢]

وَأُقْـسِـمُ لَـوْلَا أَنَّ فِـي كُـلِّ شَـعْـرَةٍ
لَـهُ ضَـيْـغَـمـاً قُـلْـنَـا لَـهُ أَنْـتَ ضَـيْـغَـمُ[٣]

أَنَـنْـقُـصُـهُ مِـنْ حَـظِّـهِ وَهْـوَ زَائِـدٌ
وَنَـبْـخَـسُـهُ وَالْـبَـخْـسُ شَـيْءٌ مُـحَـرَّمُ[٤]

يَـجِـلُّ عَـنِ الـتَّـشْـبِـيـهِ لَا الْـكَـفُّ لُـجَّـةٌ
وَلَا هُـوَ ضِـرْغَـامٌ وَلَا الـرَّأْيُ مِـخْـذَمُ[٥]

= إحدى لياليه، وقد استسلم لنومه، فكان بينهما عتاب يستغرب منه كيف يستطيع النوم، وقد فارقه من يُحبّ، وها هو ماثل أمامه؟

(١) يتخلّص الشاعر من الغزل إلى مدح أبي حفص الممدوح. يُردف الشاعر حديثه ناعياً على الخيال الجبن والبخل لأنه لا يجود بما يرجوه منه من لقاء بلا خوف ولحمله ذلك على الابتهاج والفرح بلقاء أبي حفص يسلّم عليه.

(٢) الندى: العطاء. الصابي: المشتاق. المتيّم: العاشق الولهان. يصف الشاعر ممدوحه بولعه الشديد بالإنفاق وميله إلى بذل ماله في وجوه الخير المختلفة، على المحتاجين من أوليائه ومواطنيه؛ إنه شوق لديه كشوق محبّ إلى حبيبه.

(٣) الضيغم: من أسماء الأسد. ينوّه الشاعر بعظم شجاعة ممدوحه فيُقسم بحيث إن كلّ شعرة فيه بمثابة أسد، لذا فهو مجموعة أسود تتمثل بأسد واحد.

(٤) بخس: نقص. يُردف الشاعر حديثه عن قوّة شجاعة ممدوحه، فلو أنه شبّه شجاعته بشجاعة الأسد، فقد بخسه حقّه، لأنه أقوى وأشجع من الأسد، وفي ذلك ظلم، وبخس المرء حقه محرّم شرعاً.

(٥) يجلّ: يعلو، ويسمو. اللجّة: معظم الماء. الضرغام: من أسماء الأسد. المخذم: السيف البتّار. يمدح الشاعر بالجود، فمن الظلم أن يُشبّه كفّه بالبحر، لأنه أكرم منه، والبحر قد يبخل في حال هيجانه، فيرعب البحّارة ويمتنعون عن خوضه خلاف الممدوح، فإنه يجود في كلّ حال. والممدوح شجاع قوي فلا يُمكن تشبيهه بالأسد، فالأسد حيوان أولاً وآخراً، والممدوح إنسان يمتاز فضلاً عن شجاعته بحسن ذكائه =

وَلَا جُــرْحُـــهُ يُـــؤْسَـــى وَلَا غَـــوْرُهُ يُـــرَى
وَلَا حَـــدُّهُ يَـــنْـــبُـــو وَلَا يَـــتَـــثَـــلَّـــمُ(١)

وَلَا يُـــبْـــرَمُ الأمْـــرُ الَّـــذِي هُـــوَ حَـــالِـــلٌ
وَلَا يُـحْـلَـلُ الأمْـرُ الَّـذِي هُـوَ مُـبْـرِمُ(٢)

وَلَا يَـــرْمَـــحُ الأذْيَـــالَ مِـــنْ جَـــبَـــرِيَّـــةٍ
وَلَا يَـــخْـــدُمُ الـــدُّنْـــيَـــا وَإيَّـــاهُ تَـــخْـــدُمُ(٣)

وَلَا يَـشْـتَـهِـي يَـبْـقَـى وَتَـفْـنَـى هِـبَـاتُـهُ
وَلَا تَـسْـلَـمُ الأعْـدَاءُ مِـنْـهُ وَيَـسْـلَـمُ(٤)

أَلَـــذُّ مِـــنَ الـــصَّـــهْـــبَـــاءِ بِـــالْـــمَـــاءِ ذِكْـــرُهُ
وَأَحْـسَـنُ مِـنْ يُـسْـرٍ تَـلَـقَّـاهُ مُـعْـدِمُ(٥)

= وقوّة حيلته إذا ضاقت عليه المداخل والمخارج في الأزمات الصعبة، بفضل رأيه وحصافته وحسن تدبيره.

(١) يُؤسى: يُداوى. الغور: العمق. ينبو: يكلُّ. تثلم: تكسّر حدّه. يُردف الشاعر مدحه لممدوحه؛ فإذا التقى خصمه في الميدان، فسيفه ماض بعزيمته يغور في الخصم، فلا شفاء له إلّا القبر، والممدوح يمتاز بحسن الرأي والحصافة، إنه عميق التفكير في العواقب ويُحسن التخلّص منها، كما أنه ماضي العزيمة كالسيف يبرم الأمر دون تردّد، فلا يُصيبه أدنى مكروه.

(٢) يُردف الشاعر، دلالة على مضاء همّة ممدوحه، أنه إذا أبرم أمراً مضى في تحقيقه، فلا يُردّ مهما عظمت المصاعبُ، فيُحقّق ما أراد، وإذا قرّر شيئاً، فإنه نافذ لا مرد له، ولا يتراجع عمّا أبرمه.

(٣) الرمح: الرفس بالرجل، الجبريَّة: التكبر. يمدح الشاعر في ممدوحه التواضع الجمّ، إنه لا يتيه في مشيه، ويمشي كالمتجبّر، بل مشيه متّزن، لأنه في الواقع لا يعمل من أجل رفعة شأنه، لأن الدنيا أتت إليه راغمة، تسوق إليه كلّ ما يرغب ويتمنّى من مال وجاه وقوّة.

(٤) يُنوّه الشاعر بحبّ ممدوحه للعيش، فعيشه يرتبط به حياة الكثيرين الذين ينعمون بعطاياه ويحصلون على جوده فيُفنون هباته، وهو يُسرّ لذلك، كما أنه سبب في هلاك أعدائه على يديه، لذا يبقى سالماً من الأذى.

(٥) الصهباء: من أسماء الخمرة. اليسر: الغنى. المعدم: الفقير، يرى الشاعر أن ذكر =

وَأَغْـرَبُ مِـنْ عَـنْـقَـاءَ فِـي الـطَّـيْـرِ شَـكْـلُـهُ
وَأَعْـوَزُ مِـنْ مُـسْـتَـرْفِـدٍ مِـنْـهُ يُـحْـرَمُ(١)
وَأَكْـثَـرُ مِـنْ بَـعْـدِ الأيَـادي أيَـاديـاً
مِنَ الْقَطْرِ بَعْدَ الْقَطْرِ وَالْوَبْلُ مُثْجِمُ(٢)
سَنِيُّ الْعَطَايَا لَوْ رَأى نَوْمَ عَيْنِهِ
مِنَ اللُّؤْمِ آلَى أنَّهُ لَا يُهَوِّمُ(٣)
وَلَوْ قَالَ هَاتُوا دِرْهَماً لَمْ أجُدْ بِهِ
عَلَى سَائِلٍ أعْيَا عَلَى النَّاسِ دِرْهَمُ(٤)
وَلَوْ ضَرَّ مَرْءاً قَبْلَهُ مَا يَسُرُّهُ
لَأثَّرَ فِيهِ بَأْسُهُ وَالتَّكَرُّمُ(٥)

= ممدوحه يلذّ للنفوس أن تتداول سيرته لما فيها من عبرة ومأثرة فتتغنى بها الأجيال وتتناقلها الأمم، ومن أثر ذلك أنّ الفقير يأنس لها ويُسرّ.

(١) العنقاء: طائر خرافي عند العرب. المسترفد: طالب العطاء. يُنوّه الشاعر بتفرّد ممدوحه، فلا يُوجد في الخلق شبيه له مثله مثل العنقاء يتناول الناس ذكرها ولا يرون لها وجوداً، لأنها من عالم الخرافة، فمهما حاولوا البحث عنها، فلن يعثروا لها على وجود. أما كرمه فلا يُوجد له مثيل، فهو لا يحرم مخلوقاً عطاءً.

(٢) الأيادي: النعم. القطر: المطر. الوبل: المطر الغزير. المثجم: المستمرّ الكثير. يمدح الشاعر ممدوحه باستمرار جوده، فلا ينقطع مدده، بل إنه يتوالى دون توقّف، وأياديه تفوق نعم غيره ممن يدّعي الكرم؛ فوابله يدرّ بكثرة واستمرار.

(٣) السنيّ: الشريف. اللؤم: خسة الطبع. آلى: أقسم. التهويم: هزّ الرأس من شدّة النعاس. يمدح الشاعر ممدوحه بنبل أخلاقه وسموّها، فليس في طبعه خسّة، حتى إنه لو ظنّ أن إغماضة عينه أمام ضيفه لأقسم على نفسه ألّا ينام وتماسك احتراماً لنفسه وجليسه.

(٤) ومن مغالاة الشاعر أن ممدوحه نثر دراهمه في أيدي الناس، فلو طلب منهم أن يعثروا على درهم واحد لم تمسّه يده لم ينثره فيهم لما أمكنهم أن يجدوه.

(٥) يمدح الشاعر ممدوحه بالجود وقوّته، وهو يعتبر ذلك من دواعي سروره، فهو لا يضرّه ذلك أبداً، يتكرّم على الخلق، وقد يجد بعض البخلاء في ذلك ما يكدّره ويكشف بخله للناس، كما أن شجاعته تكشف للجبناء عن ضعفهم فيحسدونه على ما يُميّزه عنهم.

يُــرَوِّي بِــكَــالْــفِــرْصَــادِ فِــي كُــلِّ غَــارَةٍ
يَـتَـامَـى مِـنَ الْأَغْـمَـادِ تُـنْـضَـى فَـتُـوتِـمُ(١)

إِلَـى الْـيَـوْمِ مَـا حَـطَّ الْـفِـدَاءُ سُـرُوجَـهُ
مُـذُ الْـغَـزْوِ سَارٍ مُـسْـرَجُ الْـخَـيْـلِ مُـلْـجَـمُ(٢)

يَــشُــقُّ بِــلَادَ الــرُّومِ وَالــنَّــقْــعُ أَبْــلَــقٌ
بِــأَسْــيَــافِــهِ وَٱلْــجَــوُّ بِــالــنَّــقْــعِ أَدْهَــمُ(٣)

إِلَـى الـمَـلِـكِ الـطَّـاغِـي فَـكَـمْ مِـنْ كَـتِـيـبَـةٍ
تُـسَـايِـرُ مِـنْـهُ حَـتْـفَـهَـا وَهْـيَ تَـعْـلَـمُ(٤)

وَمِــنْ عَــاتِــقٍ نَــصْــرَانَــةٍ بَــرَزَتْ لَــهُ
أَسِـيـلَـةِ خَـدٍّ عَـنْ قَـرِيـبٍ سَـتُـلْـطَـمُ(٥)

---

(١) الفرصاد: ثمر التوت الأحمر. قصد الشاعر باليتامى السيوف. تنضى: تُسلّ. وممّا يدلّ على شدّة بأس الممدوح أنه يُروّي سيوفه العطشى من دماء الأعداء فترتوي بدمائهم بلون الفرصاد، عندما يجرّدها من أغمادها، فتجول على رؤوس أعدائه فيُيتم أولادهم.

(٢) يُشيد الشاعر بعمل الممدوح على فكّ أسرى المسلمين وإعادتهم إلى الحرّية، ودفع الفدية عن رقابهم، وهو لا يتوانى يقود الحملات على بلاد الروم دون انقطاع، فخيوله على استعداد لغزو ديارهم.

(٣) النقع: الغبار. الأبلق: ما اختلط الأبيض فيه بالسواد. الأدهم: الأسود. يُردف الشاعر متمّماً حديثه عن حملات ممدوحه؛ إنه يتوغل في بلاد الروم، وفرسانه يُثيرون الغبار بسيوفهم ورماحهم المشرعة، وقد امتازت ألوانها بلون الغبار المعتم المتصاعد في السماء.

(٤) الكتيبة: الفرقة من الجيش. الحتف: الموت. يُردف الشاعر حديثه أن غاية تلك الحملات التصدّي لملك الروم الظالم المعتدي، يودّ الممدوح ردعه فإذا به يُواجه بجيوشه، وهي على يقين أنها طعم سهل لسيوفه، وكأنها تنتحر لتحمي ملكها، فتكون وقوداً سهل الاحتراق.

(٥) العاتق: الشابّة البكر. نصرانة: يقصد بأنها نصرانية. الخدّ الأسيل: الطويل الناعم. ومن آثار تلك الحروب أن أسيرات كثيرات في ميعة الصبا من الأبكار الجميلات =

صُـفُـوفـاً لِـلَـيْـثٍ فـي لُـيُـوثٍ حُـصُـونُـهَـا
مُـتُـونُ الـمَـذَاكِـي وَالْـوَشِـيجُ الـمُـقَـوَّمُ(١)

تَـغِـيـبُ الـمَـنَـايَـا عَـنْـهُـمُ وَهْـوَ غَـائِـبٌ
وَتَـقْـدَمُ فـي سَـاحَـاتِـهِـمْ حِـيـنَ يَـقْـدَمُ(٢)

أجِـدَّكَ مَـا تَـنْـفَـكُّ عَـانٍ تَـفُـكُّـهُ
عُـمَ بْـنَ سُـلَـيْـمَـانَ وَمَـالٌ تُـقَـسِّـمُ(٣)

مُـكَـافِـيـكَ مَـنْ أَوْلَـيْـتَ دِيـنَ رَسُـولِـهِ
يَـداً لَا تُـؤَدِّي شُـكْـرَهَـا الْـيَـدُ وَالْـفَـمُ(٤)

عَـلَـى مَـهَـلٍ إنْ كُـنْـتَ لَـسْـتَ بِـرَاحِـمٍ
لِـنَـفْـسِـكَ مِـنْ جُـودٍ فَـإِنَّـكَ تُـرْحَـمُ(٥)

= يمثلن بين يدي الممدوح، وقد لطمن خدودهنّ، وهنّ يشعرن بالخزي والعار ومذلّة الأسر، وممّا يزيدهن ألماً أنهنّ يتلقين الصفع والإهانة.

(١) الليث: من أسماء الأسد. المتون، الواحد متن: الظهر. المذاكي: الخيول المسنّة. الوشيج: ضرب من الشجر تتّخذ من قضبانه الرماح. يصف الشاعر، فالممدوح يتصدّر المجلس كالأسد، ويُحيط به حاشيته كأنهم أسود يمتطون جيادهم من المذاكي التي تآلفت مع فرسانها، وقد تسلّحوا بالرماح. بينما يستعرض الممدوح صفوف الأسيرات.

(٢) المنايا، الواحد منيّة: الموت. ديدن الممدوح مع الروم، أنهم، في حال تركهم وحالهم، فهم في أطيب عيش، وقد غاب عنهم الموت والتنكيل، ولكن الأمر ينعكس إذا قدم الممدوح بجيوشه فهنا الكارثة، فقد أقبل الموت بمعدّاته وأسبابه يحصد فيهم قتلاهم ويسبي سراريهم ويأسر جنودهم.

(٣) الجِدّ، بكسر الجيم: الاجتهاد في الأمر. العاني: الأسير. عُمَ: ترخيم عمر. يمدح الشاعر ممدوحه بالمضي في ما انتدب نفسه للقيام به، إنه يعمل على فكّ أسرى المسلمين، وكذلك يجود بأمواله على كلّ محتاج من بني قومه.

(٤) أوليت: أعطيت. اليد: رمز القوّة. يدعو الشاعر أن يُجازي اللّٰه عزّ وجلّ ممدوحه خيراً وقوّة في دنياه وآخرته، لأنه عمل على تقوية دين رسوله ﷺ، فالشكر باليد واللسان من قبل البشر لا يكفي، ولكن شكر خالقه سبحانه خير من شكر خلقه.

(٥) يطلب الشاعر من ممدوحه أن يرفق بنفسه، وأن يُبقي على شيء من ماله، فجوده يعمّ الخلق بلا تمييز، كما أنه يُغامر في قتاله الأعداء، والمسلمون بحاجة إلى قائد يحمي ويصون بلادهم، والناس يرأفون به ويرحمونه.

مَـحَـلُّـكَ مَـقْـصُـودٌ وَشَـانِـيـكَ مُـفْـحَـمٌ
وَمِـثْـلُـكَ مَـفْـقُـودٌ وَنَـيْـلُـكَ خِـضْـرِمُ(١)

وَزَارَكَ بِـي دُونَ الـمُـلُـوكِ تَـحَـرُّجٌ
إذَا عَـنَّ بَـحْـرٌ لَـمْ يَـجُـزْ لِـي الـتَّـيَـمُّـمُ(٢)

فَـعِـشْ لَـوْ فَـدَى الـمَـمْـلُـوكُ رَبًّـا بِـنَـفْـسِـهِ
مِنَ الـمَـوْتِ لَـمْ تُـفْـقَـدْ وَفِي الأَرْضِ مُسْلِمُ(٣)

ورائي وقدامي عداة

اجتاز بمكان يعرف بالفراديس من أرض قنّسرين فسمع زئير الأسد فقال:

[الطويل]

أَجَـارُكِ يَـا أُسْـدَ الْـفَـرَادِيـسِ مُـكْـرَمُ
فَـتَـسْـكُـنَ نَـفْـسِـي أَمْ مُـهَـانٌ فَـمُـسْـلَـمُ(٤)

وَرَائِـي وَقُـدَّامِـي عُـدَاةٌ كَـثِـيـرَةٌ
أُحَـاذِرُ مِـنْ لِـصٍّ وَمِـنْـكِ وَمِـنْـهُـمُ(٥)

---

(١) الشانئ: المبغض. المفحم: العاجز عن النطق. النيل: العطاء. الخضرم: الكثير. يمدح الشاعر ممدوحه بصفات إنسانية رفيعة يميل إليها عقول الناس وقلوبهم؛ فالناس يقصدون الممدوح ليجدوا عنده الكرم والرأفة والحبّ والرعاية، وقد خلا الممدوح من كلّ عيب، لذا فلا يجرؤ مخلوق على القدح فيه وذمّه، فالأعداء يشهدون له بصلاحه واستقامته، وذلك لتفرّده بتلك الصفات، ويُضاف إليها كرمه الفيّاض.

(٢) تحرّج: تأثّم. عنّ: بدا. التيمّم: التوضؤ بالتراب في حال عدم وجود الماء. يُخاطب الشاعر ممدوحه منوّهاً بحبّه وإعجابه به دون سائر الملوك، فجميعهم يرغب بمدح الشاعر له، ولكنه فضّله عليهم جميعاً، لشدّة حرجه من الوقوع في شرك إغوائهم له لأنه قد رأى بحراً في أعماقه الخير كلّه والجود فغاص فيه مفضلاً إياه على الرمال المتمثّلة بغيره من الملوك وولاة الأمر.

(٣) فدى: ضحّى. المملوك: العبد. الربّ: السيد. يتمنّى الشاعر لممدوحه دوام العمر وألّا يموت، فسائر المسلمين يودّون أن يفدوه بأنفسهم ما دامت الحياة، لأنهم مملوكون من قبله، وهو سيّدهم.

(٤) و (٥) الفراديس: موضع في بلاد الشام. يُخاطب الشاعر آساد ذلك المكان، وقد أدرك =

فَهَلْ لَكِ فِي حِلْفِي عَلَى مَا أُرِيدُهُ
فَإِنِّي بِأَسْبَابِ الْمَعِيشَةِ أَعْلَمُ[١]
إِذاً لَأَتَاكِ الْخَيْرُ مِنْ كُلِّ وِجْهَةٍ
وَأَثْرَيْتِ مِمَّا تَغْنَمِينَ وَأَغْنَمُ[٢]

لا تلمها

وأديرت اللعبة فسقطت فقال:

[المنسرح]

مَا نَقَلَتْ فِي مَشِيئَةٍ قَدَماً
وَلَا ٱشْتَكَتْ مِنْ دُوَارِهَا أَلَمَا[٣]
لَمْ أَرَ شَخْصاً مِنْ قَبْلِ رُؤْيَتِهَا
يَفْعَلُ أَفْعَالَهَا وَمَا عَزَمَا[٤]
فَلَا تَلُمْهَا عَلَى تَوَاقُعِهَا
أَطْرَبَهَا أَنْ رَأَتْكَ مُبْتَسِمَا[٥]

= الليل وحلّت الظلمة، فإذا بالشاعر يُحسّ بوحشة المكان، وقد علا الزئير يزيده رعباً، فما كان منه إلّا أن خاطبها سائلاً بلغة الواثق من شجاعته، ليُحسّ بالأمن والطمأنينة، فهل سيكون آمناً في جوارها، سالماً من أذاها؟ وهو ملاحق. من الأعداء في كلّ مكان ينزل فيه، وهل ستكون له حليفة، والحليف يحمي حليفه، فضلاً عن لصوص يعملون على سلبه ما يملك؟

(١) و (٢) يُردف الشاعر كلامه سائلاً الآساد وطالباً منها أن تكون حليفة له، وهو بإمكانه أن يُؤمن لها القوت لشجاعته، فهو بطل يفتك بالأعداء؛ وهو أريب في أسباب تأمين سبل معيشتها، فيكون لها ما ترغب من معاش ومغنم، ويكون له حسن جوارٍ وحماية ومغنم من قتلاه.

(٣) و (٤) يصف الشاعر لعبة كانت تتحرّك في ديوان بدر بن عمّار، إنّها تدور وترقص وتمشي فإذا بها تهوي وتسقط أرضاً، ممّا أدهشه ولم يكن قد شاهد قبل ذلك لعبة تقوم بعمل كهذا، ولكنه كان على يقين أنها لا إرادة لها ولا حسّ، ولم تشكُ ألماً أو دواراً.

(٥) ولقد برّر الشاعر وقوع تلك اللعبة، أنها شاهدت ممدوحه فوقعت أرضاً مهابة له، لأنها رأت ابتسامته قد ارتسمت على محيّاه علامة السرور والاستغراب.

هابك الليل والنهار

خرج أبو الطيب إلى جبل جرس فنزل بأبي الحسين علي بن أحمد المري الخراساني وكان بينهما مودة بطبرية فقال يمدحه:

[الخفيف]

لَا افْتِخَارٌ إِلَّا لِمَنْ لَا يُضَامُ
مُدْرِكٍ أَوْ مُحَارِبٍ لَا يَنَامُ(١)

لَيْسَ عَزْماً مَا مَرَّضَ الْمَرْءُ فِيهِ
لَيْسَ هَمَّاً مَا عَاقَ عَنْهُ الظَّلَامُ(٢)

وَاحْتِمَالُ الأَذَى وَرُؤيَةُ جَانِيـ
ـهِ غِذَاءٌ تَضْوَى بِهِ الأَجْسَامُ(٣)

ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الذَّلِيلَ بِعَيْشٍ
رُبَّ عَيْشٍ أَخَفُّ مِنْهُ الحِمَامُ(٤)

---

(١) بدأ الشاعر قصيدته المدحية برأي شخصي ينمّ عن فهمه لواقع الحياة في حال اختلال المفاهيم الإنسانية، حيث يفتقد المجتمع إلى العدل ويعمّ الظلم، عندئذٍ يكون الفخر للقادر على دفع الظلم عن نفسه بقدرته على ظلم الآخرين، تلك هي نظرة المجتمع الجاهلي التي سادت آنئذٍ في حال تفكك الدولة العباسية وتغلّب الديلم على مقاليد الأمور في مجتمع غلبت عليه الأثرة والفساد. فالقادر على حماية نفسه لا ينام، وهو أبداً محارب ليحصل على ما يبغيه من مطالب.

(٢) مرّض: قصّر. الهمّ: ما عزمت فيه. يُردف الشاعر أن المقصّر لا يُعدّ من الأقوياء ذوات الإرادة والعزم؛ فالأقوياء لا يحول دون أهدافهم مهما كانت المعضلات، فهم القادرون على تحقيق ذلك بالصبر والإرادة والتصميم، عندئذٍ يتربّعون قمم الحياة.

(٣) تضوى: تهزل. يرى الشاعر أن تحمّل الأذى من قبل الآخرين والعادة عليه تميت في المرء إحساس الكرامة، فيستسلم إلى الذلّ ويتلاشى شيئاً فشيئاً ويموت ببطء مكسور الخاطر.

(٤) غبط: رغب وتمنّى وسعى أن يكون على شاكلة غيره. الحمام، بكسر الحاء: الموت. يرى الشاعر أن الذلّ عدوى شنيعة النتائج، فمَن وجد راحة نفسه بذلّ رآه في غيره فسوف يموت ذليلاً حقيراً، والأفضل للمرء أن يموت بكرامته، وهنا لا بدّ من مجابهة الضعف في الحياة وإلّا فالموت ستر لضعف النفوس الضعيفة، وخير لهم من حياة لا طعم لها ولا رائحة ولا أهداف نبيلة.

كُـــلُّ حِــلْــمٍ أَتَـــى بِــغَــيْــرِ اقْــتِــدَارٍ
حُــجَّــةٌ لَاجِــىءٌ إِلَــيــهَــا الــلِّــئَــامُ[١]

مَــنْ يَــهُــنْ يَــسْــهُــلِ الــهَــوَانُ عَــلَــيْــهِ
مَـــا لِــجُــرْحٍ بِــمَــيِّــتٍ إِيــلَامُ[٢]

ضَـــاقَ ذَرْعـــاً بِـــأَنْ أَضِــيــقَ بِــهِ ذَرْ
عــاً زَمَــانِــي وَاسْــتَــكْــرَمَــتْــنِــي الــكِــرَامُ[٣]

وَاقِــفــاً تَــحْــتَ أَخْــمَــصَــيْ قَــدْرِ نَــفْــسِــي
وَاقِـــفـــاً تَـــحْـــتَ أَخْـــمَـــصَـــيِّ الأَنَـــامُ[٤]

أَقَـــــراراً أَلَـــــذُّ فَـــــوْقَ شَــــرَارٍ
وَمَـــرامـــاً أَبْـــغِـــي وَظُــلْــمِــي يُــرام؟[٥]

(١) الحلم: العفو والغفران. اللئام، الواحد لئيم: الخسيس. يرى الشاعر أن من يُسوّغ عجزه ويُغلّفه بما يُدّعى حلماً، إنما هو خسيس ضعيف يلجأ إلى تمويه حقيقته بقالب من النبل الكاذب.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٥. يُردف الشاعر موضحاً ما بدأه من أن المرء الذي اعتاد على احتمال الظلم والمكاره ولم يعمل على الخلاص من ضعفه والتخلّص من ذلّه، فقد مات وهو على قيد الحياة، ومهما نزل بساحته من أذًى ومهانة لا يُحسّ؛ فالجراح مهما كانت غائرة في مشاعره وجسده لا يُحسّ لها ألماً، لقد ماتت فيه الأحاسيس والمشاعر.

(٣) الذرع: القدرة والطاقة. إنه صراع بين الشاعر والزمن الذي لم يزل يكيل للشاعر المصائب والويلات، ونفذت كلّ حيله لإضعاف عزيمته، فلم يُفلح، لأن الشاعر ذو عزيمة قوية وصبر عجيب في مواجهة جيل الزمن، فكان أن قدّر الكرام ما فيه من إرادة قوية وعلو همّة.

(٤) الأخمص: باطن القدم. الأنام: البشر. يُردف الشاعر أنه مهما بذل من جهد، فلم يبذل كلّ ما لديه من طاقة، ومع ذلك، فالقليل ممّا يبذله أكثر ممّا يبذله ممن حالفه الحظّ وأيّده التوفيق فحاز المناصب الرفيعة. وينمّ البيت عن تشوّق الشاعر وتكبّره على سائر الخلق.

(٥) الشرار: ما يتطاير من النيران. المرام: المطلوب. يُعلن الشاعر عن رفضه للذلّ بشتّى أنواعه، فلا يقبل الركون إلى شرر نار؛ فالظلم نار تحرق من يرمي نفسه بإرادته فيها، وهو يربأ بنفسه ذلك.

دُونَ أَنْ يَــشْــرَقَ الــحِــجَــازُ وَنَــجْــدٌ
وَالــعِــرَاقَــانِ بِــالــقَــنَــا وَالــشَّــامُ[(١)]

شَــرَقَ الــجَــوِّ بِــالــغُــبَــارِ إِذَا سَــا
رَ عَــلِــيُّ بْــنُ أَحْــمَــدَ الــقَــمْــقَــامُ[(٢)]

الأَدِيــبُ الــمُــهَــذَّبُ الأَصْــيَــدُ الــضَّــرْ
بُ الــذَّكِــيُّ الــجَــعْــدُ الــسَّــرِيُّ الــهُــمَــامُ[(٣)]

وَالَّــذِي رَيْــبُ دَهْــرِهِ مِــنْ أَسَــارَا
هُ وَمِــنْ حَــاسِــدِي يَــدَيْــهِ الــغَــمَــامُ[(٤)]

يَــتَــدَاوَى مِــنْ كَــثْــرَةِ الــمَــالِ بِــالإِقْــ
ـلَالِ جُــوْداً كَــأَنَّ مَــالاً سَــقَــامُ[(٥)]

حَــسَــنٌ، فِــي عُــيُــونِ أَعْــدائِــهِ، أَقْــ
ـبَــحُ مِــنْ ضَــيْــفِــهِ، رَأَتْــهُ الــسَّــوَامُ[(٦)]

---

(١) و (٢) يشرق: يغصّ. العراقان: عراق العرب والعجم. القمقام: السيد العظيم. يُردف الشاعر متمّماً فكرة مجابهة ظلمه بحرب شعواء تشمل بلاد الشام والعراقين فيغصان بها حيث تتصاعد الأغبرة وتخيّم على جوّ تلك الديار، وهنا يظهر ممدوح الشاعر علي بن أحمد الذي يأخذ بيده ليُعينه على النصر، وهو سيّد همام.

(٣) الأصيد: الملك الهمام المتواضع. الضرب: المجتهد في أموره. الجعد: الكريم. السري: النبيل. الهمام: الملك العظيم. شرع الشاعر بمدح علي بن أحمد، إنه أديب خلقاً وعلماً، وملك عظيم القدرة والقدر، فلا يتوانى في قضاء أموره، وهو جواد كريم ذكيّ القلب والفؤاد، مستنير العقل، سري ذو همّة عالية.

(٤) ريب الدهر: مصائبه. أساراه، الواحد أسير. يُردف الشاعر مدحه لممدوحه لقد تمكّن من القضاء على مصائب الدهر، فتخلّت عن محاربته، فإذا بالدهر يسير طوع إرادته، ووفق ما يُحبّ ويرضاه، فإذا به من أسراه، ويُضيف الشاعر تنويهاً بفيض كرم ممدوحه؛ إنه سبّاق في المكرمات، فإذا بالغمام يتحسّر حسداً وغيظاً من كرمه.

(٥) ومن صفات الممدوح أنه يُخفّف من تبعات اختزان الأموال التي تُسبب لجامعها الأمراض، فإذا به يُنفقها كيفما اتّفق في أيدي العفاة والمعوزين، وبذلك يتخلّص من الأدواء، فإذا به يبدو معافى، فلا يهتمّ لما بحوزته من الأموال.

(٦) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ١٥٠. ٢٨٨. السوام: الماشية. يُردف =

لَـوْ حَـمَـى سَـيِّـداً مِـنَ الـمَـوْتِ حَـامٍ
لَـحَـمَـاهُ الإِجْـلَالُ وَالإِعْـظَـامُ(١)

وَعَـوارٍ لَـوَامِـعٌ دِيـنُـهَـا الـحِـ
ـلُّ وَلَـكِـنَّ زِيَّـهَـا الإِحْـرَامُ(٢)

كُـتِـبَـتْ فِـي صَـحَـائِـفِ الـمَـجْـدِ: بِـسْـمٌ
ثُـمَّ قَـيْـسٌ، وَبَـعْـدَ قَـيْـسَ الـسَّـلَامُ(٣)

إِنَّـمَـا مُـرَّةُ بْـنُ عَـوْفِ بْـنِ سَـعْـدٍ
جَـمَـراتٌ لَا تَـشْـتَـهِـيـهَـا الـنَّـعَـامُ(٤)

لَـيْـلُـهَـا صُـبْـحُـهَـا مِـنَ الـنَّـارِ وَالإِصْـ
ـبَـاحُ لَـيْـلٌ مِـنَ الـدُّخَـانِ تِـمَـامُ(٥)

= الشاعر مدحه، فالممدوح يمتاز بالحسن في أعين أحبائه وعشيرته، لمزاياه الحميدة، كرماً وشجاعة وحسن خلق، وهو في نفس الوقت مكروه في أعين أعدائه لما يُسبّبه لهم من آلام وقتل وتشريد، وهو كذلك مكروه من قبل ما لديه من الماشية التي ترى جزرها في حال نزول أضيافه المكروهين من قبلها لعلمها بما يفعله بها الممدوح.

(١) و (٢) يُتابع الشاعر منوّهاً بعظمة قدر ممدوحه وعلوّ جلاله لو أن الموت ترك أحداً من البشر لكان الممدوح لهيبته وخوفه منه لما لديه من سيوف تعمل على حمايته وتأتمر بأمره، فتعمل قتلاً في نفوس الأعداء بلا ندم ولا تحرّج لأن زيها الإحرام، وقد جرّدت من أغمادها.

(٣) يُعرّج الشاعر على مدح قبيلة الشاعر التي سطّرت مجدها بعد البدء باسم اللّٰه الرحمن الرحيم، فارتبط ذكرها بالأمجاد وعظائم الأمور طوال الدهور، وإذا ما نزل في تلك القبيلة من دمار كان ذلك آخر الدهر، وعندئذٍ السلام على الكون.

(٤) و (٥) الجمرات من قبائل العرب هي التي قويت باتّحاد أفخاذها ولم تُحالف غيرها من القبائل. يحصر الشاعر بمصطلح الجمرات قبيلة الشاعر مرّة بن عوف بن سعد دون سواها لاتّحاد سائر أفخاذها في قتالهم ولا يستعينون بسواهم متحالفين في حروبهم، حتى إن النعام لا تقدر على الاقتراب منهم، لأنهم جمرات ليست لاهبة بالمفهوم الاحتراقي، بل لأنهم يحرقون قلوب أعدائهم في حروبهم ليلاً ونهاراً وهم يثيرون الغبار فينكسف نور الشمس نهاراً، وهم يُشعلون نيرانهم ليلاً لاستضافة من يطرقهم، فلذا يبدو ليلهم نهاراً ونهارهم ليلاً.

هِمَمٌ بَلَّغَتْكُمُ رُتَبَاتٍ
قَصُرَتْ عَنْ بُلُوغِهَا الأَوْهامُ[١]

وَنُفُوسٌ إِذَا انْبَرَتْ لِقِتَالٍ
نَفِدَتْ قَبْلَ يَنْفَدُ الإِقْدامُ[٢]

وَقُلُوبٌ مُوَطَّنَاتٌ عَلَى الرَّوْ
عِ كَأَنَّ اقْتِحَامَهَا اسْتِسْلَامُ[٣]

قَائِدو كُلِّ شَطْبَةٍ وَحِصَانٍ
قَدْ بَرَاهَا الإِسْرَاجُ وَالإِلْجَامُ[٤]

يَتَعَثَّرْنَ بِالرُّؤُوسِ كَمَا مَرَّ
بِتَاءَاتِ نُطْقِهِ التَّمْتَامُ[٥]

---

(١) يُردف الشاعر منوّهاً بعظمة المكانة التي جعلت قبيلة الممدوح تعتليها بجدارة لما امتازوا به من قُدرات وإمكانيات وعظائم الأمور التي تُعدّ من الخوارق بحيث لا تدركها الأوهام وتصوّرات كبار النفوس، فكيف بصغارها؟

(٢) انبرت: تعرّضت. نفد: انتهى. يُثني الشاعر على القوم إنهم قُدوة يقتدي بهم الناس، إنهم يُقدمون في الحرب ويُقاتلون أعداءهم قتال الأبطال ممّا يُثير حماسة غيرهم على الاقتداء بهم، فإذا بالآخرين تضعف هممهم وينهارون، بينما يستمرّ مقاتلو القبيلة بحماسهم وإقدامهم في مقاتلة أعدائهم.

(٣) موطّنات: مصممات على الدخول في أمر ما. الروع: المخافة والحرب. الاقتحام: الدخول في الشيء بقوّة. الاستسلام: طلب الدخول في السلم. يمدح الشاعر قبيلة الممدوح، إنهم إذا ما تطلّب الأمر الاستعداد للحرب وطّنوا نفوسهم على خوضها بقوّة وتصميم وعزيمة، وهم يبدو عليهم كأنهم يسعون إلى الدخول في السلم لثقتهم بمنعتهم وضعف أعدائهم.

(٤) الشطبة من الأفراس: الطويلة. براها: أنحلها. يمدح الشاعر القوم بأنهم فرسان مجرّبون قد اعتادوا على اعتلاء أجود الجياد من الأفراس الطويلة التي تبدو هزيلة لكثرة إسراجها وإلجامها وعدوها في حروبهم المتعدّدة.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٦. يمدح الشاعر قبيلة الممدوح بكثرة فتكهم بأعدائهم، فإذا برؤوس هؤلاء لا تسمح بحرّية حركة الجياد التي تتعثر =

طَـالَ غِـشْـيَـانُـكَ الـكَـرِيـهَـةَ حَـتَّـى
قَـالَ فِـيـكَ الَّـذِي أَقُـولُ الـحُـسَـامُ[(١)]

وَكَـفَـتْـكَ الـصَّـفَـائِـحُ الـنَّـاسَ حَـتَّـى
قَـدْ كَـفَـتْـكَ الـصَّـفَـائِـحَ الأَقْـلَامُ[(٢)]

وَكَـفَـتْـكَ الـتَّـجَـارِبُ الـفِـكْـرَ حَـتَّـى
قَـدْ كَـفَـاكَ الـتَّـجَـارِبَ الإِلْـهَـامُ[(٣)]

فَـارِسٌ يَـشْـتَـرِي بِـرَازَكَ لِـلْـفَـخْـ
ـرِ بِـقَـتْـلٍ مُـعَـجَّـلٍ لَا يُـلَامُ[(٤)]

نَـائِـلٌ مِـنْـكَ نَـظْـرَةً سَـاقَـهُ الـفَـقْـ
ـرُ عَـلَـيْـهِ لِـفَـقْـرِهِ إِنْـعَـامُ[(٥)]

= بها في الأرض كما لا يستطيع التمتام بحرّية النطق، فإذا به تقطع نطقه التاء إذا أراد أن ينطق، فلا يستطيع ذلك بحرّية.

(١) غشيانك: إتيانك. الكرائه، الواحدة كريهة: من أسماء الحرب. الحسام: السيف البتّار. يُشيد الشاعر بشجاعة ممدوحه، إنه بطل لا يني يُقاتل في كل وقت باستمرار دون كلل، فيخوض الحروب، وقول الشاعر يُؤيّد ما ينطق به سيفه، فقد تثلّم لكثرة استعماله وقتله الأبطال.

(٢) الصفائح من السيوف: العريضة. يروى «البأس» بدلاً من «الناس». كان لكثرة استعمال الممدوح الصفائح من السيوف العريضة أن تحامى الناس الممدوح فكفّوا ألسنتهم وأسلحتهم عن مقارعته لدوام انتصاره عليهم ودوام هزيمتهم في كلّ حرب كانوا الركن الأضعف فيها. لذا جاء دور الكلمة لتحلّ محل السيف، فتكون أداة استسلام الأعداء فيهتدون بعقولهم إلى مسالمة الممدوح لهيبته وشجاعته وحكمته.

(٣) يُردف الشاعر منوّهاً بحكمة الممدوح ورزانته، فقد عرك الحياة وكانت له تجارب صقلت موهبته وهذّبت تصرّفه وقوّت عقله، وكان اللّه تعالى يُلهمه في كلّ أمر يُرفع القيام به، فحال بينه وبين وقوعه في الأخطاء، مهما يكن نوعها.

(٤) البراز: المبارزة، يُنوّه الشاعر بعظمة ممدوحه وقوّته؛ فالأبطال الشجعان يتوافدون ليبارزوه في ميادين الكفاح، فإذا بهم يتهاوون صرعى بسيفه، ويكون ذلك مدعاة فخر ورثتهم أن آباءهم كانوا ضحايا بطولته وشجاعته.

(٥) ومن حسنات فقر بعض من يقصد الممدوح طلباً للمساعدة ورمي عار الفقر عنه أنه =

خَـيْـرُ أَعْـضَـائِـنَـا الـرُّؤُوسُ وَلَـكِـنْ
فَـضَـلَـتْـهَـا بِـقَـصْـدِكَ الأَقْـدَامُ[١]

قَـدْ لَـعَـمْـرِي أَقْـصَـرْتُ عَـنْـكَ، وَلِـلْـوَفْـ
ـدِ ازْدِحَـامٌ، وَلِـلْـعَـطَـايَـا ازْدِحَـامُ[٢]

خِـفْـتُ إِنْ صِـرْتُ فِـي يَـمِـيـنِـكَ أَنْ تَـأْ
خُـذَنِـي فِـي هِـبَـاتِـكَ الأَقْـوَامُ[٣]

وَمِـنَ الـرُّشْـدِ لَـمْ أَزُرْكَ عَـلَـى الـقُـرْ
بِ، عَـلَـى الـبُـعْـدِ يُـعْـرَفُ الإِلْـمَـامُ[٤]

وَمِـنَ الـخَـيْـرِ بُـطْءُ سَـيْـبِـكَ عَـنِّـي
أَسْـرَعُ الـسُّـحْـبِ فِـي الـمَـسِـيـرِ الـجَـهَـامُ[٥]

= ينعم بالنظر إلى الممدوح فيردّ عافيته، ويكون ذلك سبب سعادته وغناه.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٦. يُخاطب الشاعر ممدوحه أن المعلوم لدى سائر البشر أن أجلّ ما لديهم من أعضاء يأتي الرأس في مقدمتها لما يحتويه من حواسّ ودماغ، كلّها جعلت الإنسان مميّزاً عن سائر المخلوقات، ولكن تلك الحقيقة غيّرتها واقعة جديدة لم تكن بالحسبان فإذا بالأقدام التي تسعى إلى الممدوح تحلّ مكان الرأس في جلالة قدرها وعظيم قيمتها.

(٢) و (٣) أقصر عن الأمر: تركه مع قدرته على فعله. يعتذر الشاعر عن تأخّره، فلم يقصد ممدوحه خوفاً على نفسه، فالممدوح لا يستقرّ بيمناه مال، والوفود يتدافعون بكثرة، فإذا به يخاف أن يختطفه أحد الوفود على أنه هبة من الممدوح.

(٤) الرشد: العقل والاتزان. الإلمام: الزيارة. يُردف الشاعر متمّماً سبب اعتذاره أنه لم يزرْه، وقد كان قريباً من دياره، والوفود لا تني تتردّد عليه، فكان عليه أن ينتظر قليلاً، ورغم بعد الشقّة بينهما، فإنه الآن بين يدي ممدوحه، فيكون للزيارة معنًى أكبر دلالة وأشدّ تأثيراً.

(٥) ورد البيت في: معاهد التنصيص، للعباسي: ٢:١٣. البطء: التأخّر. السيب: العطاء. الجهام: السحاب الذي لا ماء فيه. يلفت الشاعر نظر الممدوح مخافة تأخّر عطائه فإذا به غزير يحمل معه الخير الكثير، لذا فالإبطاء في هذه الحالة خير من الإسراع تماماً كالسحب المسرعة التي لا تحمل فيها ماءً.

قُـلْ فَـكَـمْ مِـنْ جَـوَاهِـرٍ بِـنِـظَـامٍ
وُدُّهَـا أَنَّـهَـا بِـفِـيـكَ كَـلَامُ[(١)]

هَـابَـكَ الـلَّـيْـلُ وَالـنَّـهَـارُ فَـلَـوْ تَـنْـ
ـهَـاهُـمَـا لَـمْ تَـجُـزْ بِـكَ الأَيَّـامُ[(٢)]

حَـسْـبُـكَ الـلَّـهُ مَـا تَـضِـلُّ عَـنِ الـحَـ
ـقِّ، وَلَا يَـهْـتَـدِي إِلَـيْـكَ أَثَـامُ[(٣)]

لِـمَ لَا تَـحْـذَرُ الـعَـوَاقِـبَ فِـي غَـيْـ
ـرِ الـدَّنَـايَـا، أَمَـا عَـلَـيْـكَ حَـرامُ؟[(٤)]

كَـمْ حَـبِـيـبٍ لَا عُـذْرَ لِـلَّـوْمِ فِـيـهِ
لَـكَ فِـيـهِ مِـنَ الـتُّـقَـى لُـوَّامُ؟[(٥)]

رَفَـعَـتْ قَـدْرَكَ الـنَّـزَاهَـةُ عَـنْـهُ
وَثَـنَـتْ قَـلْـبَـكَ الـمَـسَـاعِـي الـجِـسَـامُ[(٦)]

---

(١) النظام: خيط العقد. يُنوّه الشاعر بحسن منطق ممدوحه، فإذا بمنطقه ينتظم كأنه عقد نظمت جواهره بنسق نادر الوجود يتسلسل فيه الكلم؛ فإذا بكل مفردة تقع في موقعها، فتتقبّلها الآذان صاغية كأنها زغردة وموسيقى محبّبة إلى النفوس والقلوب.

(٢) هابك: احترمك وأجلك. لم تجز: لم تمرّ. ومن مبالغات الشاعر أن الليل والنهار يهابان الممدوح وينزلان على إرادته، فلو أمرهما ألّا يمرّا به لالتزما بأمره، وتوقّفا، وبطلت حركة الزمن.

(٣) يُنوّه الشاعر بتقوى ممدوحه، فاللّه سبحانه وتعالى يكفيه الوقوع في الإثم والوقوع في الأخطاء الجسيمة، ولذا فلن يضلّ لأن اللّه يرعاه ويقيه الوقوع في الزلل، لأنه على الحقّ ويسير معه حيثما سار، فلا يأتي بما يدلّ على تهوّر، لأن المولى عصمه عن الفواحش والرذائل.

(٤) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ٢٦١. يروى «حرام» بدلاً من «الدنايا». يُخاطب الشاعر ممدوحه، ولقد رآه لا يهاب المخاطر ويرمي بنفسه في أتونها لشجاعته وقوّته، وهو في نفس الوقت يجتنب المنكرات والفواحش، وهذا يمدح عليه ممّا ينمّ عن تقاه وشدّة حرصه مخافة الوقوع في المحرمات.

(٥) و (٦) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ٢٦١. يُنوّه الشاعر بتقوى ممدوحه، لقد =

إِنَّ بَـعْـضـاً مِـنَ الـقَـرِيـضِ هُـذَاءٌ
لَـيْـسَ شَـيْـئـاً وَبَـعْـضَـهُ أَحْـكَـامُ[١]
مِـنْـهُ مـا يَـجْـلُـبُ الـبَـرَاعَـةَ وَالـفَـضْـ
ـلُ وَمِـنْـهُ مَـا يَـجْـلُـبُ الـبِـرْسَـامُ[٢]

ولا قابلاً إلا لخالقه حكما

ورد على أبي الطيب كتاب من جدته لأمه تشكو شوقها إليه وطول غيبته عنها، فتوجه نحو العراق ولم يمكنه وصول الكوفة على حالته تلك فانحدر إلى بغداد. وكانت جدته قد يئست منه فكتب إليها كتاباً يسألها المسير إليه فقبلت كتابه وحمت لوقتها سروراً به وغلب الفرح على قلبها فقتلها، فقال يرثيها:

[الطويل]

أَلَا لَا أُرِي الْأَحْـدَاثَ مَـدْحـاً وَلَا ذَمَّـا
فَـمـا بَـطْـشُـهـا جَـهْـلاً وَلَا كَـفُّـهـا حِـلْـمَـا[٣]

= أهمل مُحبّة له جميلة الحسن تتدفّق شباباً ونضارة، وليس في ذلك اقتراف الآثام، وهو لا يلام على ذلك؛ إنها التقوى العاصم الذي استمسك به الممدوح، والترفّع عن صغائر الأمور وتفاهتها، فكانت بمثابة الرادع يردعه عن المنكرات، واللائم الذي يصدّه عن الوقوع في الأخطاء، فتنزّه عن كلّ شائبة.

(١) و (٢) القريض: الشعر. الهذاء: التكلم بما هو غير معقول. يُعطي الشاعر رأياً نقدياً للشعر عامة؛ فبعضه كلام لا طائل منه ولا رواء فيه، فهو عبارة عن هذيان نطق به أحدهم، ويُظنّ أنه من الشعر. وثمّة نوع آخر نابع من تجربة حقيقية ومعاناة نفس تألّمت، فكانت الكلمة شعراً ينبع من القلب والعقل والشعور، فطار بها الخلود عبر الأزمان والأمكنة؛ إنه الشعر الحقيقي، وإنه مرض جنوني لا يستحقّ التفاتة، وسرعان ما تمحوه الذاكرة من الوجود.

(٣) الأحداث: مصائب الدهر وويلاته. البطش: الفتك بقوّة وعنف. إنها نظرة لمظاهر مجريات الأحداث التي يمرّ بها المرء، لذا لا ينفع الفرح إذا سرّته الأحداث أو آلمته، لأن الشعور في كلا الحالين يتبخّر كسراب يبدو من بعيد ثم يختفي، وما يبدو من عنف بطشها لا ينمّ عن جهل منها، وحتى توقّفها عن الإضرار بمصالح البشر لا يدلّ على حِلم أصيل نابع من إرادتها، فثمّة محرك لها خفيّ يُحركها كيف يشاء، ولذا فإنها لا تُلام على ما يبدو منها.

إِلَى مِثْلِ مَا كَانَ الْفَتَى مَرْجِعَ الْفَتَى
يَعُودُ كما أُبْدِي وَيُكْرِي كَمَا أَرْمَى[١]
لَكِ ٱللَّهُ مِنْ مَفْجُوعَةٍ بِحَبِيبِهَا
قَتِيلَةِ شَوْقٍ غَيْرِ مُلْحِقِهَا وَصْمَا[٢]
أَحِنُّ إِلَى الْكَأْسِ الَّتِي شَرِبَتْ بِهَا
وَأَهْوَى لِمَثْوَاهَا التُّرَابَ وما ضَمَّا[٣]
بَكَيْتُ عَلَيْهَا خِيفَةً فِي حَيَاتِهَا
وَذَاقَ كِلانَا ثُكْلَ صَاحِبِهِ قِدْمَا[٤]

---

(١) أبدى: خلق. أكرى: نقص. أرمى: زاد. تملأ الحسرة قَلب الشاعر؛ فالعدم يلاحق البشر جميعاً، فهم قبل ميلادهم، كانوا في ظلمة العدم، وإذ بمولدهم مقدّمة لعدم آخر يملأ القلوب الحسرات، فيعود ابن آدم إلى حالة عدمية بعدما يكون قد عرف طعم النصر والهزيمة والحبّ والكراهية والبطش والحلم وو. . . ، وبذلك يتلوّث، ليته لم يكن، ولما لم يكن للأحداث يد في ما ينزل بالمرء من حالات لا حصر لها فلا ذنب للأحداث لأن محرّكها واحد خفي قادر، يريد فيكون ما أراد، ولا مردّ لقضائه.

(٢) الوصم: العار والعيب. يدعو الشاعر لجدته بالرحمة؛ إنها في كنف اللّه تعالى الغفور الرحيم بعباده، لقد فجعها فراق حفيدها وكانت المفاجأة صاعقة، فإذا بالموت يعاجلها، فحبّها حبّ الأم لولدها، فيه طهر وحبّ وتكريس وشوق، لا عيب فيه ولا عار.

(٣) يقصد بالكأس: الموت. المثوى: القبر. إنه حنين الشاعر، حنين من نوع آخر، إنه حنين إلى الموت، والموت كأسه علقم في نظر محبّي الحياة والخائفين منه، فشوق الشاعر لذلك أسبابه ودواعيه، إنها رابطة الدم والحبّ والتكريس والتربية، لذا فهو يهوى التراب الذي حلّت جدّته بضيافته، لا حبًّا فيه كمادة، بل لأنه رمز معنوي لما يرمز إليه من علائق إنسانية تسمو فوق المادة وما تمثله من مصالح وعلائق.

(٤) الثكل: الفقد. قدماً: قديماً. البكاء لغة الحرمان، فقد بكى الشاعر لحرمانه مشاهدة جدّته في حياتها، فقد كان يجوب الآفاق يطرق أبواب ذوي اليسار والأمراء، فلما حان له أن يستريح إلى حضن جدّته الدّافئ فتح عينيه ليجدها قد اختفت ولحقت بالعدم، ولطالما كانت تفتقد الشاعر بدورها، فكأنما قد فقد كلّ منهما الآخر في حياته قبل موتها.

وَلَـوْ قَـتَـلَ ٱلْـهَـجْـرُ ٱلْـمُـحِـبِّـيـنَ كُـلَّـهُـمْ
مَـضَـى بَـلَـدٌ بَـاقٍ أَجَـدَّتْ لَـهُ صَـرْمَـا (١)

عَـرَفْـتُ الـلَّـيَـالِـي قَـبْـلَ مَـا صَـنَـعَـتْ بِـنَـا
فَـلَـمَّـا دَهَـتْـنِـي لَـمْ تَـزِدْنِـي بِـهَـا عِـلْـمَـا (٢)

مَـنَـافِـعُـهَـا مَـا ضَـرَّ فِـي نَـفْـعِ غَـيْـرِهَـا
تَـغَـذّى وَتَـرْوَى أن تَـجُـوعَ وَأَنْ تَـظْـمَـا (٣)

أَتَـاهَـا كِـتَـابِـي بَـعْـدَ يَـأْسٍ وَتَـرْحَـةٍ
فَـمَـاتَـتْ سُـرُوراً بِـي فَـمُـتُّ بِـهَـا غَـمَّـا (٤)

حَـرَامٌ عَـلَـى قَـلْـبِـي الـسُّـرُورُ فَـإِنَّـنِـي
أَعُـدُّ الَّـذِي مَـاتَـتْ بِـهِ بَـعْـدَهَـا سُـمَّـا (٥)

---

(١) أجدّت، جدّدت. الصرم: القطيعة. ولم يكن الرباط فقط صراعاً على الجدّة، بل إنه رابط قوي بالأرض التي فتّح عينيه على ترابها وشرب من مائها، وضحك ولعب مع لداته في أزقتها، إنه حبّ الوطن الذي فقد طعم الراحة والاستقرار فيه.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٩. دهتني: فاجأتني. الليل رمز الظلمة والوحشة والخوف والاغتراب، إنها معرفة حيّة عاشها الشاعر طوال حياته، فاختمرت لديه تجربة الألم، ورغم أن المفاجأة كانت صاعقة، فقد أكّدت نظريته، فلم تزده علماً بكارثة كهذه بل أضافت حزناً إلى حزن.

(٣) نظرة سوداوية إلى الدنيا، إنها تستأثر بالمنافع لنفسها دون البشر فتسلبهم أحلامهم وأحباءهم بل وتتعدّى ذلك إلى وجودهم، وهي لا تني تسلبهم كلّ شيء تتغذّى بهم وترتوي بدمائهم، وهي تهتم بآلامهم وجوعهم وعطشهم إلى سعادة الحياة وهناءة العيش الكريم في ظلّ قيم نبيلة خالدة.

(٤) الترحة: الحزن. عاد الشاعر إلى جدّته، فقد مات كلّ منهما، لقد ماتت من شدّة الفرح المفاجئ، فلم تحمل هول المفاجأة فكانت الوفاة، والشاعر بدوره مات نفسياً وألماً لمفاجأة صاعقة لم يكن يتوقعها بعد افتراقهما وغربته عنها.

(٥) وردت الأبيات الخمسة المتوالية في الوساطة: ١٤٩. نتيجة ما حدث صمّم الشاعر على استعداء السرور، فلن يعرف له طعماً بعدما ماتت جدّته به، إنه سمّ قاتل، لذا فيتجنّبه ويحرّمه عليه.

تَـعَـجَّـبُ مِـنْ لَـفْـظِـي وَخَـطِّـي كَـأَنَّـهَـا
تَـرَى بِـحُـرُوفِ الـسَّـطْـرِ أَغْـرِبَـةً عُـصْـمَـا[١]
وَتَـلْـثِـمُـهُ حَـتَّـى أَصَـارَ مِـدَادُهُ
مَـحَـاجِـرَ عَـيْـنَـيْـهَـا وَأَنْـيَـابَـهَـا سُـحْـمَـا[٢]
رَقَـا دَمْـعُـهَـا ٱلْـجَـارِي وَجَـفَّـتْ جُـفُـونُـهَـا
وَفَـارَقَ حُـبِّـي قَـلْـبَـهَـا بَـعْـدَ مَـا أَدْمَـى[٣]
وَلَـمْ يُـسْـلِـهَـا إِلّا الـمَـنَـايَـا وَإِنَّـمَـا
أَشَـدُّ مِـنَ الـسُّـقْـمِ ٱلّـذِي أَذْهَـبَ الـسُّـقْـمَـا[٤]

---

(١) يروى الشطر الأول من البيت على النحو التالي: «تعجّب من خَطِّي ولفظي كأنها» الأغربة، الواحد غراب. الأعصم من الغربان: ما في جناحيه بياض، وذلك نادر. يتحدّث الشاعر عن يأس جدّته من عودته، ولطالما ألهاه تجواله في البلاد، فأنساه أن يكتب إليها في النادر، حتى كانت مفاجأة عودته وطلبه أن تلقاه، فإذا بها تقرأ ما كتب وتعيد القراءة مرّات ومرّات، وكأن بين السطور شيئاً لم تصدّقه عيناها أن الشاعر قد كتب إليها يستدعيها، لندرة ما يكتب إليها.

(٢) تلثمه: تقبّله. المحاجر، الواحد محجر: ما حول العينين. سحماً: سوداً. يُردف الشاعر واصفاً حالة جدّته وهي تقرأ رسالته، إنها تقبّلها، بجوع الحبّ والحرمان، ولشدّة شوقها تضع الرسالة على عينيها كأنها ترى حفيدها من سطور الرسالة السوداء، فإذا بدموع الفرح تختلط بمدادها، فتحوّل ذلك الوجه الذي تحوّل إلى قطعة قماش بالية هدّها الدهر وألحق فيه أثلاماً من التجاعيد، فاستحال كلّ ذلك إلى سواد فاتّخذت الرسالة بالوجه وما يتمثّل فيه من آلام وفراق وشوق وحبّ.

(٣) رقأ الدمع: جفّ. يصف الشاعر ما كانت عليه جدّته حالة وفاتها، لقد تجمّد كلّ شيء فيها؛ فقد جفت دموعها فإذا بجفونها هامدة لا حراك فيها، وما عادت تشعر بشيء من الحبّ نحو حفيدها، ولطالما كان الشوق يملأ قلبها حتى أدماه فراق حفيدها.

(٤) يسلها: يُنسها. المنايا، الواحدة منية: الموت. السقم: المرض. يتحدّث الشاعر عن شدّة شوق جدّته إليه؛ إنها دائمة التذكر له، وكأنها في حالة مرضية مزمنة، حتى حدث ما حدث فأنستها المنايا أحزانها وآلامها، فإذا بذلك المرض يذهب معها، وبذلك استراحت من عظم البلاء.

طَلَبْتُ لَهَا حظًّا فَفَاتَتْ وَفَاتَنِي
وَقَدْ رَضِيَتْ بي لَوْ رَضِيتُ بهَا قِسْمَا(١)

فَأَصْبَحْتُ أَسْتَسْقِي ٱلْغَمَامَ لِقَبْرِهَا
وَقَدْ كُنْتُ أَسْتَسْقِي الْوَغَى وَالْقَنَا الصُّمَّا(٢)

وَكُنْتُ قُبَيْلَ المَوْتِ أَسْتَعْظِمُ النَّوَى
فَقَدْ صَارَتِ الصُّغْرَى الَّتي كَانَتِ الْعُظْمَى(٣)

هَبِينِي أَخَذْتُ الثَّأرَ فِيكِ مِنَ الْعِدَى
فَكَيْفَ بِأَخْذِ الثَّأْرِ فِيكِ مِنَ ٱلْحُمَّى(٤)

وَمَا ٱنْسَدَّتِ الدُّنْيَا عَلَيَّ لِضِيقِهَا
وَلٰكِنَّ طَرْفاً لَا أَرَاكِ بِهِ أَعْمَى(٥)

---

(١) يعلّل الشاعر سبب فراقه لجدّته؛ لقد قصد من تجواله في الدنيا الواسعة أن يغتني فيُسعدها، فلم يحالفه الحظّ ولم تواته الفرصة رغم طول المحاولات وتكرارها، وكانت النتيجة ضياع العمر سدى وموت الجدّة، فكانت الحسرة مضاعفة، والمشكلة أن الجدّة قبلت الشاعر كما هو بما يتمثل به الحفدة عادة، وللأسف لم يكن لدى الشاعر أن يقبل ويقتنع بوجود جدّته إلى جانبه، ولذا فإنه يلوم نفسه على تقصيره تجاهها.

(٢) أستسقي: أطلب السقيا. الغمام: السحب. الوغى: من أسماء الحرب. القنا: الرماح. الصمّ: الصلبة. لقد قسم الشاعر حياته قسمين، لقد كان يُمارس سقيا دموية فيطلب من ربّه أن يُباركه، وهو يُقاتل أعداءه في ميادين القتال ويستعين بالرماح الصلبة فيقتل الأبطال، وهاهو الآن يستسقي قبر جدّته طالباً من السماء أن تمطرها الرحمة ودوام السقيا، بقوله: سقى اللّه تعالى قبرها.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٩. النوى: البعد. يعبّر الشاعر عن شدّة حزنه؛ فقد كان قبل موت جدّته يستعظم بعده عنها، فإذا بإحساس الفرقة يتقلّص ويصغر مقابل موتها الذي يعتبره كارثة عظيمة، يصعب على المرء احتمالها، حلّت به.

(٤) هبيني: افترضي أنني، الثأر: الانتقام. يُخاطب الشاعر جدّته مفترضاً أنها قتلت، فسوف يثأر لها من قاتليها، ولكن الأمر يتعلّق بسبب آخر، لا شكل له ليثأر منه لأنه سبب موتها؛ إنها الحمّى التي فاجأتها فأودت بحياتها.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٩. الطرْف، بسكون الراء: =

فَـــوَا أَسَــفَـــا أَنْ لَا أُكِـــبَّ مُـــقَـــبِّـــلاً
لِـرَأسِـكِ وَالـصَّـدْرِ الـلَّـذَيْ مُـلِـئَـا حَـزْمَـا[١]
وَأَنْ لَا أُلَاقِـــى رُوحَـــكِ الـــطَّـــيِّـــبَ الّـــذِي
كَـأَنَّ ذَكِـيَّ الـمِـسْـكِ كَـانَ لَـهُ جِـسْـمَـا[٢]
وَلَـــوْ لَـــمْ تَـــكُـــونـــي بِـــنْـــتَ أَكْـــرَم وَالِـــدٍ
لَـكَـانَ أَبَـاكِ الـضَّـخْـمَ كَـوْنُـكِ لِـي أُمَّـا[٣]
لَـئِـنْ لَـذَّ يَـوْمُ الـشَّـامِـتِـيـنَ بِـيَـوْمِـهَـا
فَـقَـدْ وَلَـدَتْ مِـنِّـي لأَنْـفِـهِـم رَغْـمَـا[٤]
تَـغَـرَّبَ لَا مُـسْـتَـعْـظِـمـاً غَـيْـرَ نَـفْـسِـهِ
وَلَا قَـابِـلاً إلّا لِـخَـالِـقِـهِ حُـكْـمَـا[٥]

= النظر. يُحسّ الشاعر بالضياع، الدنيا لا تزال على حالها، فرغم اتساعها لقد أحسّ أنها انكمشت وضاقت مسالكها، حتى بدا لا يعرف طريقه كالأعمى لفقده جدّته.

(١) أكبّ: انحنى على وجهه، يعبّر الشاعر عن شدّة حزنه وألمه أنه ما استطاع دفنها، فلو حصل ذلك لانكبّ عليها يغسل رأسها وصدرها بقبلاته الحرّى الممتلئة شوقاً وحبًّا، اللذين ملئا عزيمة قوية وعقلاً منفتحاً يقظاً.

(٢) يُردف الشاعر أنه يأسف أيضاً أن روح جدّته كانت تنفث طهراً ومسكاً وعبيراً عظيم النشر في جسدها، فكانت روحها محرّكاً لجسدها المفعم بالطيب.

(٣) الضخم: العظيم. يخاطب الشاعر جدّته مفاخراً بنفسه، فلو لم يكن والدها عظيم النسب ذا يد طويلة في الأمجاد، لكفاها أن تنتسب إلى الشاعر، فهذا أعظم نسب، وهو أفضل مدعاة إلى الفخر.

(٤) لذّ: طاب وسرّ. الشامتين: الفرحين بمصابه الأليم من أعدائه، رغم أنفه: دسّ في التراب. رغم مأساة الشاعر فإنه لم ينس فخره بنفسه، ثمّة من فرح بموت جدته فشمت به وبموتها، والحقّ أنها خلّفته ليكون في نحورهم يكيد لهم ويُذلّهم فيمرّغ أنوفهم بالتراب. ولو نظر المرء إلى حالة تلك المرأة المسنّة التي لا دور لها، ولا أحد يهتمّ بحياتها فضلاً عن موتها ليشمت بها.

(٥) يسترسل الشاعر بفخره، لقد رحل في الأرض لا يرى له ندًّا أو كفؤاً إنه يشعر بنفسه بركان عظمة، لذا لم يرض أحداً من البشر أن يُقارن به فلم يقبل حكماً من البشر يتحكّم بمصيره إلّا خالقه سبحانه وتعالى.

وَلَا سَالِكاً إِلَّا فُؤَادَ عَجَاجَةٍ
وَلَا وَاجِداً إِلَّا لِمَكْرُمَةٍ طَعْمَا (١)

يَقُولُونَ لِي مَا أَنْتَ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ
وَمَا تَبْتَغِي مَا أَبْتَغِي جَلَّ أَنْ يُسْمَى (٢)

كَأَنَّ بَنِيهِمْ عَالِمُونَ بِأَنَّنِي
جَلُوبٌ إِلَيْهِمْ مِنْ مَعَادِنِهِ الْيُتْمَا (٣)

وَمَا ٱلْجَمْعُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ فِي يَدِي
بِأَصْعَبَ مِنْ أَنْ أَجْمَعَ ٱلْجَدّ وَالْفَهْمَا (٤)

---

(١) العجاجة: الغبار. يرسم الشاعر خريطة حياته الماضية؛ إنه يخوض الحروب فيسلك ضروبها حيث تتصاعد الأغبرة، وطعمه فيها مادة لا يعرف طعمها سواه، إنها المكارم والشوق إلى ضرب أعناق الأعداء.

(٢) يستغرب الناس كثرة أسفار الشاعر وتجواله، فيسألونه عن سرّ ذلك وعن غايته من التنقّل في حياة مليئة بالمخاطر والأهوال، ولو استطلع المرء حياته لوجد أنه كان يسعى إلى الغنى والشهرة، ولو ردّ على أسئلة الناس لقال، إنه لن يُفصح عن ذلك إلّا بقتل الملوك والاستيلاء على ملكهم، ولقد ملأت نفسه الغيرة منهم وحسدهم، ولطالما تصوّر نفسه في أمكنتهم.

(٣) يُردف الشاعر مستوضحاً، رغم شكّه بعجزهم أنهم يظنون بأنه سوف يقتل آباءهم ويجعلهم أيتاماً، لذا فهو يجول باحثاً عن أمثال ملوك لا يستحقّون أن يحتلّوا مقاعدهم، ولذلك فالأبناء يكرهون الشاعر، فضلاً عن آبائهم. والسؤال لأي سبب راح المتنبي يمدح العدد الكبير من رجال عصره؟

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٣. الجَدّ، بفتح الجيم: الحظ. لطالما ظنّ الشاعر أن حظّه تعيس، ولو وفّق بتولي منصب ولاية لما سمعنا به طوال تاريخنا المجيد، فإذا كان لم يُفلح بتولي منصب كهذا، فقد تولّاه ملايين منهم فعاشوا وماتوا ولم يتركوا أثراً، وذلك من حسن حظّه ولطالما بجّلوه وأكرموه، وهم يشعرون في قرارة أنفسهم بما يمتاز به عنهم. وهو يرى أن الفهم والعلم لا يتوافقان مع الحظّ، تماماً كالماء والنار لا يجتمعان.

وَلٰـكِـنّـنـي مُـسْـتَـنْـصِـرٌ بِـذُبَـابِـهِ
وَمُـرْتـكِـبٌ فِـي كُـلِّ حَـالٍ بِـهِ الْـغَـشْـمَـا[١]
وَجَـاعِـلُـهُ يَـوْمَ الـلِّـقَـاءِ تَـحِـيَّـتِـي
وَإلَّا فَـلَـسْـتُ الـسَّـيِّـدَ الْـبَـطَـلَ الْـقَـرْمَـا[٢]
إذَا فَـلَّ عَـزْمِـي عَـنْ مَـدًى خَـوْفُ بُـعْـدِهِ
فَـأَبْـعَـدُ شَـيءٍ مُـمْـكِـنٌ لَـمْ يَـجِـدْ عَـزْمَـا[٣]
وَإنِّـي لَـمِـنْ قَـوْمٍ كَـأَنَّ نُـفُـوسَـهُـمْ
بِـهَـا أَنَـفٌ أنْ تَـسْـكُـنَ الـلّـحْـمَ وَالْـعَـظْـمَـا[٤]
كَـذَا أَنَـا يَـا دُنْـيَـا إذَا شِـئْـتِ فَـاْذْهَـبِـي
وَيَـا نَـفْـسُ زِيـدِي فِـي كَـرَائِـهِـهَـا قُـدْمَـا[٥]

---

(١) بذبابه: أي بذباب السيف: أي حدّه. الغشم: الظلم والتعدّي. يُردف حديثه أنه لم يُفلح بجمع الحظّ الحسن والعلم وحدّة الذكاء، فإذا به يستعيض عن الحظّ بسيفه ويركب مطيّة الظلم والتعدّي فيبطش بأعدائه مستنصراً بالسيف صديقه الودود.

(٢) القرم: الفحل. يُردف الشاعر مفتخراً بسيفه، إنه تحيّته لأعدائه، يلتقي به أعداءه فيبطش بهم؛ فتلك تحية الأعداء؛ وإن لم يفعل ذلك فليس بالسيد البطل الشجاع القويّ.

(٣) يروى «قلّ» بدلاً من «فلّ». وفلّ السيف: تثلّم لكثرة استعماله. المدى: الغاية، البعد. إنها المحاولة والقناعة بفحواها ونتيجتها، لذا فلو حال البعد دون تحقيق أماني الشاعر فعليه أن يستنجد بعزيمته وقوّته حتى يبلغ أبعد الغايات ويتغلّب على كلّ الصعوبات، فإذا بالصعب يبدو سهلاً وببعد المسافات يُقرّب أبعادها.

(٤) الأنف: استكراه شيء ما. يفخر الشاعر بأنه ممن يكرهون الدّعة والركون إلى ذلّ الضعف والهوان، لذا فإنه يهوى ترقي أعلى قمم المجد، وفي هذه الحالة فالجسد لا يحتمل تلك النفوس الوثّابة، فإذا بها تتوثب للانفلات من ربقة المادة لتلحق بعالمها، يبدو الشاعر قد نسي جدّته في زحمة تأملاته.

(٥) كرائهها، الواحدة كريهة. يُخاطب الشاعر الدنيا منوّهاً بعزيمة لا تلين، فحربه لن تقف، ولن يرضى بالذلّ والضيم، بل سيبقى محارباً عنيداً لا تلين له قناة، ولذا فهو يتمنّى التخلّص من حياة لا تُحتمل في حرب غير متكافئة مع الدنيا والزمن الذي لا يستطيع مخلوق الانفلات منه كما يحلو له.

فَــلَا عَـبَـرَتْ بِـي سَـاعَــةٌ لَا تُـعِـزُّنِـي
وَلَا صَحِبَتْنِي مُهْجَةٌ تَقْبَلُ الظُّلْمَا[١]

ومن عرف الأيام معرفتي بها

يمدح الأمير أبا محمد الحسن بن عبيد اللّه بن طفج بالرملة:

[الطويل]

أَنَــا لَائِـمِـي إِنْ كُـنْـتُ وَقْـتَ الـلَّـوَائِـمِ
عَلِمْتُ بِمَا بِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ[٢]
وَلٰـكِـنَّـنِـي مِـمَّـا شُـدِهْـتُ مُـتَـيَّـمٌ
كَـسَـالٍ وَقَـلْـبِـي بَـائِـحٌ مِـثْـلُ كَـاتِـمِ[٣]
وَقَــفْـنَـا كَــأَنَّـا كُـلُّ وَجْـدِ قُـلُـوبِـنَـا
تَـمَـكَّـنَ مِـنْ أَذْوَادِنَـا فِـي الْـقَـوَائِـمِ[٤]

---

(١) يدعو الشاعر بإحساس تشاؤمي ألّا تمرّ به ساعة لا عزّ فيها، وكذلك يُعلن التخلّي عن نفسه في حال رضوخها لمغريات الظلم مهما كانت الأسباب ومهما كانت نتائجها.

(٢) ورد الشطر الأول من البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٦. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي. المعالم، الواحد معلم: الأثر يستدلّ به على الطريق. ما إن تكشفت معالم ديار الحبيبة حتى عرا الشاعر فجأة حالة من الجزع والبكاء، نبّهت صحبه، فإذا بهم يهدّئون من روعه، ولكنه زاد بكاؤه فإذا بهم يلومونه على بكاء ديار حبيبته. ولقد أثار وجده مشاعره فلم يتمالك نفسه فاسترسل في بكائه، ولو أنه انتبه لحاله لبدأ يلوم نفسه قبل لوم سواه له.

(٣) يروى «ذهلت» بدلاً من «شدهت»: دهشت وتحيّرت. المتيّم: العاشق الولهان. يُعلّل الشاعر الحالة التي خامرته بلا وعي منه؛ إنها المفاجأة التي فجّرت مشاعره لرؤية حالة تلك الآثار، فأحيت فيه ذكريات عزيزة على القلب، وقد اندهش لشدّة إحساسه، فأصبح كالسامي، وكشف قلبه ما كان دفيناً في أعماق نفسه، فطفا على سطح وجهه دموع وأنين، ولم يكن ليصرّح به في ما مضى.

(٤) وردت الأبيات الخمسة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٣. الأذواد، جمع ذود: والذود ما بين الثلاثة إلى العشر من الإبل. إنه وقوف الذكرى والتأسّي، فالماضي كُتب على الجباه وسطر خطوطه في النفوس، إنه وقوف صلاة حيث تعمّ العظة تملأها الحسرات، فينسى المرء نفسه ساعتئذٍ، حتى إن قوائم الإبل تسمّرت في أمكنتها تشارك الركب أحاسيسهم ومشاعرهم.

وَدُسْنَا بِأَخْفَافِ الْمَطِيِّ تُرَابَهَا
فَلَا زِلْتُ أَسْتَشْفِي بِلَثْمِ الْمَنَاسِمِ (١)

دِيَارُ اللَّوَاتِي دَارُهُنَّ عَزِيزَةٌ
بِطُولِ الْقَنَا يُحْفَظْنَ لَا بِالتَّمَائِمِ (٢)

حِسَانُ التَّثَنِّي يَنْقُشُ الْوَشْيُ مِثْلَهُ
إِذَا مِسْنَ فِي أَجْسَامِهِنَّ النَّوَاعِمِ (٣)

وَيَبْسِمْنَ عَنْ دُرٍّ تَقَلَّدْنَ مِثْلَهُ
كَأَنَّ التَّرَاقِي وُشِّحَتْ بِالْمَبَاسِمِ (٤)

فَمَا لِي وَلِلدُّنْيَا طِلَابِي نُجُومُهَا
وَمَسْعَايَ مِنْهَا فِي شُدُوقِ الْأَرَاقِمِ (٥)

---

(١) المناسم، الواحد منسم: إنها للأخفاف كالسنابك لحوافر الخيل. ولشدّة شوق الشاعر راح يلثم أخفاف تلك الإبل لأنها وطئت تلك الأرض، وعلق فيها منها شيء ما، ليتبارك وينعم بتقبيل رمز لحبيبته.

(٢) عزيزة: منيعة. القنا: الرماح. التمائم، الواحدة تميمة: العُوذة تُعلّق على الإنسان. تلك ديار منيعة يقوم على حمايتها أبطال ويصونونها برماحهم وأرواحهم، فلا يمكن لمخلوق أن يدنو من نسائها، وهم لا يلجأون إلى السحر والتمائم، فتلك حالة الضعفاء والمشعوذين.

(٣) التثني: التمايل في المشي. الوشي: النقش والزينة في الأثواب. ماست: مالت وتبخترت في مشيتها. لرقة أجسادهن ونعومتهن وترفهن تنعكس زركشات وشي أثوابهن على جلودهن وهنّ يمسن متبخترات باعتزاز بجمالهن وشبابهن.

(٤) التراقي، الواحدة ترقوة: أعلى الصدر. المباسم، الواحد مبسم: الثغر أي الفم والأسنان. يصف الشاعر هؤلاء النسوة، مركزاً على وجوههن، بسمة لطيفة فيها السحر واللباقة والانجذاب، فإذا بثغورهن يكشفن عن لؤلؤ ترصّع بعناية خالق عظيم، وما يزيدهن جمالاً أنهن يتحلين بعقود انتظم في أسلاكها لؤلؤ، فإذا باللؤلؤ يُضيء وجوههن وأعالي صدورهن فكان انسجام عظيم في مظهرهن.

(٥) الأراقم: ذكور الحيات. يشكو الشاعر ما يُلاقيه في هذا الوجود، فلا معين ولا غنى ولا نسب يستند إليه، والدنيا لا تستجيب لمن لا يملك تلك المقوّمات، فإذا بها حرب عليه تُمطره بالمصائب والفشل يتلو الفشل، ومسعاه بعيد المنال وطموحه لا حدّ له، إنه يودّ لو يُمسك النجوم بيده، ولكن دون ذلك آماد وأبعاد فمسعاه في شدوق الأراقم.

مِنَ الْحِلْمِ أنْ تَسْتَعْمِلَ الْجَهْلَ دُونَهُ
إذَا اتَّسَعَتْ فِي الْحِلْمِ طُرْقُ الْمَظَالِمِ (١)

وَأنْ تَرِدَ الْمَاءَ الَّذِي شَطْرُهُ دَمٌ
فَتُسْقَى إذَا لَمْ يُسْقَ مَنْ لَمْ يُزَاحِمِ (٢)

وَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ مَعْرِفَتِي بِهَا
وَبِالنَّاسِ رَوَّى رُمْحَهُ غَيْرَ رَاحِمِ (٣)

فَلَيْسَ بِمَرْحُومٍ إذَا ظَفِرُوا بِهِ
وَلَا فِي الرَّدَى الْجَارِي عَلَيْهِم بِآثِمِ (٤)

إذَا صُلْتُ لَمْ أتْرُكْ مَصَالاً لِصَائِلٍ
وَإنْ قُلْتُ لَمْ أتْرُكْ مَقَالاً لِعَالِمِ (٥)

---

(١) وردت الأبيات الثلاثة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٤. الحِلم: التعقّل والتصرّف بوعي. المظالم، الواحدة مظلمة: الظلم. يرى الشاعر أن الحلم أن يجهل المرء وينتصر لنفسه إذا نزلت به المظالم، ولرفعها لا بدّ من أخذ المبادرة بظلم الآخرين فيرتدعون. وبذلك يكونون حلماء لخوفهم، فالظلم لا يردّه إلّا الظلم في مجتمع يفتقد إلى العدل والأمن.

(٢) يروى «يَسْقِ» بدلاً من «يُسْقَ». الشطر: النصف. يُردف الشاعر متمّماً فكرته أن على المرء أن يقتحم نهر الحياة حيث يكثر صراع البشر وتهدر دماؤهم، هناك لا بدّ من أن يرد المرء ذلك النهر العظيم، وقد امتزجت مياهه بدماء ضحاياه من القتلى، فإن استطاع المرء الوصول شرب وارتوى بدماء تلك الضحايا. وهذا لا يتأتّى إلّا للأقوياء.

(٣) و (٤) يُبدي الشاعر رأيه بناءً لتجربة قرمطية في مجتمع يسوده العداء والظلم والكراهية، فنظرته للناس والمجتمع نظرة عدائية، فرغم ما مدح من رجالات لم يجد في قرارة نفسه في أحدهم صفات إنسانية فاضلة، حتى يُنميها بذرة خير في أعماق نفسه، فالبشر كلهم جميعاً يستحقّون الموت، ولا بدّ من القضاء عليهم، وإن لم تقضِ عليهم قضوا عليك. فإن لم تقتلهم ماتوا رغم أنوفهم، وفي هذه الحالة لا يشفي غيظه منهم.

(٥) يروى «لصائل» بدلاً من «لفاتك». صال عليه: فتك به. يفخر الشاعر بشجاعته، إنه يفتك بعدوّه فلا يترك له مجالاً للفكاك من يديه، وكذلك فلا يُوجد من يباريه في موهبته الشعرية لتفوّقه على سائر الشعراء.

وَإِلَّا فَخَانَتْنِي الْقَوَافِي وَعَاقَنِي
عَنِ ابْنِ عُبَيْدِ ٱللَّهِ ضُعْفُ الْعَزَائِمِ (١)

عَنِ الْمُقْتَنِي بَذْلَ التِّلَادِ تِلَادَهُ
وَمُجْتَنِبِ الْبُخْلِ ٱجْتِنَابَ المَحَارِمِ (٢)

تمنَّى أَعَادِيهِ مَحَلَّ عُفَاتِهِ
وَتَحْسُدُ كَفَّيْهِ ثِقَالُ الْغَمَائِمِ (٣)

وَلَا يَتَلَقَّى الْحَرْبَ إلّا بِمُهْجَةٍ
مُعَظَّمَةٍ مَذْخُورَةٍ لِلْعَظَائِمِ (٤)

وَذِي لَجَبٍ لَا ذُو الْجَنَاحِ أَمَامَهُ
بِنَاجٍ وَلَا الْوَحْشُ الْمُثَارُ بِسَالِمِ (٥)

---

(١) يتخلّص الشاعر إلى مدح ابن عبيد اللّه مبرّراً ما تقدّم به من فخر أمام ممدوحه إن كذب في مقالته ألّا تأتيه قريحته الشعرية بما يستوجبه الموقف من مدح، فيكون ذلك بمثابة تأكيد لادّعاء فارغ كاذب، وبالتالي فلا يستحقّ جائزته، فيكون فشل ذريع له.

(٢) التلاد: الموروث من المال. يستثير الشاعر حاسّة الجود لدى ممدوحه، لقد ورث مالاً من أجداده، فإن لم يبذله إشادة لفضائله ورفعة لقدره ورثه أولاده فبعثروه ولم يُنفقوه في وجوه الخير فيكون قد فوّت على نفسه فرصة الشهرة والأمجاد، والبخل ذميم واجتنابه من اجتناب المحارم، هذا في ما يخصّ الموروث من المال فكيف بالطريف منه؟

(٣) العفاة، الواحدة عاف: الفقير طالب العون. الغمائم، الواحدة غمامة: السحب المليئة بالماء. يُشيد الشاعر بكرم ممدوحه، إنه يسحّ بالخير على العفاة، ممّا حمل أعاديه على تمنّي أن يقصدهم العفاة ليشتهروا بميزة الكرم، وحتى الغيوم تحسده لأنه سبّاق إلى المكارم، فإن انهمر ماؤها فسوف يطول زمن حتى تُسعف العفاة، على عكس الممدوح فإن خيره يفعل فعله في الحال.

(٤) المهجة: الروح والنفس. يُشيد الشاعر بشجاعة ممدوحه، إنه يُسارع إلى مجالدة أعدائه بروح متوثّبة، صادقة العزيمة، واثقة بنصره بعيدة عن التواني والتكاسل، حفزته بمدد عظيم لبلوغ ذروة المجد بما تدّخره من طاقات لا تتوفّر عند سواه.

(٥) وردت الأبيات الثلاثة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٤. اللجب: الصخب والضجة حيث تختلط الأصوات. المثار: المرعوب. يذكر الشاعر أن ممدوحه يقود جيشاً عظيماً، فأثناء تقدّمه يُثير الرعب في كلّ شيء، تتعالى الأصوات، فإذا بجماعة الطير تتهاوى صرعى والنبل يتناوشها، فلا ينجو شيء منها، حتى =

تَـمُـرُّ عَـلَـيْـهِ الـشّـمْـسُ وَهْـيَ ضَـعِـيـفَـةٌ
تُـطَـالِـعُـهُ مِـنْ بَـيْـنِ رِيـشِ الْـقَـشَـاعِـمِ[(١)]

إذَا ضَـوْؤُهَـا لاَقَـى مِـنَ الـطّـيـرِ فُـرْجَـةً
تَـدَوّرَ فَـوْقَ الْـبَـيْـضِ مِـثْـلَ الـدَّرَاهِـمِ[(٢)]

وَيَـخْـفَـى عَـلَـيْـكَ ٱلْـبَـرْقُ وَالـرَّعْـدُ فـوْقَـهُ
مِـنَ الـلَّـمْـعِ فـي حَـافَـاتِـهِ وَالْـهَـمَـاهِـمِ[(٣)]

أرَى دُونَ مَـا بَـيْـنَ الْـفُـرَاتِ وَبَـرْقَـةٍ
ضِـرَاباً يُـمَـشّـي الْـخَـيْـلَ فَـوْقَ الـجَـمَـاجِـمِ[(٤)]

وَطَـعْـنَ غَـطَـارِيـفٍ كَـأَنَّ أكُـفَّـهُـمْ
عَـرَفْـنَ الـرُّدَيْـنِـيَّـاتِ قَـبْـلَ الْـمَـعَـاصِـمِ[(٥)]

حَـمَـتْـهُ عَـلَـى ٱلأَعْـدَاءِ مِـنْ كُـلِّ جَـانِـبٍ
سُـيُـوفُ بَـنِـي طُـغْـجِ بْـنِ جُـفِّ الْـقَـمَـاقِـمِ[(٦)]

= المفترس من الوحوش الذي أثاره الضجيج والجلبة خرج من مأواه ليُلاقي حتفه.

(١) و (٢) ورد البيت التالي منهما في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٦. تطالعه: تطلع عليه. القشاعم: النسور. يُردف الشاعر رسم صورة زحف جيش ممدوحه، إنه لا يزال يسعى للوصول إلى موطن العدوّ؛ تبدو الشمس منهكة كاسفة البال، فالغبار يتصاعد في كبد السماء، فإذا بنسور تتابع والزحف يتوالى، وهي على يقين من أنها ستشبع نهمها من جثث القتلى، طيرانها سريع وأجنحتها منتشرة في السماء، ومن خلالها تسرّب لمع من ضياء خافت كأنه دنانير نثرت على رقعة الأرض.

(٣) حافاته: جوانبه. الهماهم، الواحدة همهمة: صوت يتردّد في الصدر لا يُفهم. يُردف الشاعر صورة ما كان عليه هذا الجيش؛ فقد اكتمل عدداً وعُدّة؛ فالأسلحة ترسل بريقها إلى عنان السماء ممّا يمنع البرق من إرسال إشعاعاته إلى الأرض، أمّا الرعد فقد ضاعت أصواته لشدّة ما ينبعث من ضجيج وجلبة الجند وجرّ عربات القتال والمنجنيقات وسواها من عتاد.

(٤) و (٥) و (٦) وردت الأبيات الأربعة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٤. برقة: إحدى قرى العراق. يرسم الشاعر صورة للصراع الذي دار في ذلك الموقع؛ لقد حال دون وصول الأعداء إلى ذلك المكان رؤوس تدحرجت عن أجساد =

هُمُ ٱلْمُحْسِنُونَ ٱلْكَرَّ فِي حَوْمَةِ ٱلْوَغَى
وَأَحْسَنُ مِنْهُ كَرُّهُمْ فِي الْمَكَارِمِ(١)

وَهُمْ يُحْسِنُونَ ٱلْعَفْوَ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ
وَيَحْتَمِلُونَ ٱلْغُرْمَ عَنْ كُلِّ غَارِمِ(٢)

حَيِيُّونَ إِلَّا أَنَّهُمْ فِي نِزَالِهِمْ
أَقَلُّ حَيَاءً مِنْ شِفَارِ الصَّوَارِمِ(٣)

وَلَوْلَا ٱحْتِقَارُ ٱلْأُسْدِ شَبَّهْتُهَا بِهِمْ
وَلٰكِنَّهَا مَعْدُودَةٌ فِي ٱلْبَهَائِمِ(٤)

= أصحابها داستها الخيل، يمتطيها جند الممدوح، إنهم سادة عظام، غطاريف يتسلحون برماح ردينية تنسب إلى ردينة إحدى النساء العربيات. كانت تقوّم تلك الرماح، والحقّ أن القوم قد اعتادوا على استعمال هذا السلاح قبل أن تقوى معاصمهم على حمل أيّ شيء آخر، ممّا جعلهم يتمرّسون في فنون القتال، فضلاً عمّا يتمتعون به من شجاعة، ولقد كان لسيوف بني طغج بن جفّ، جد الممدوح، الفضل في الحؤول دون وصول الأعداء إلى ذلك المكان، إنهم غطارفة، سادة كرماء؛ فسيوفهم قاطعة؛ فما استطاع الأعداء محاصرة المكان، فانقلبوا على أعقابهم مهزومين يجرّون وراءهم عار هزيمتهم.

(١) و (٢) الكرّ: العودة إلى القتال. حومة كلّ شيء: معظمه. الوغى: الحرب. يردف الشاعر حديثه عن مسلك آل الممدوح، فلشجاعتهم يكرّون على أعدائهم ملحقين بهم الهزيمة مرة تلو الأخرى، وهم في نفس الوقت تتوالى عطاياهم على مستحقيها دون انقطاع، ومن حسن أخلاقهم العفو عند المقدرة، فهم حلماء مع من أساء إليهم مع قدرتهم على النيل منه، وما يدلّ على أفضالهم أنهم يمدون مساعدة للغارمين فيؤدون ما عليهم من ديون ويُقيلون من عثراتهم.

(٣) الشفار، الواحدة شفرة. الصوارم، الواحد صارم: السيف القاطع. يمدح الشاعر في هؤلاء قوّة الحياء، وهي ملكة تنمّ عن إيمان أصحابها وطهارة أثوابهم من كلّ شائبة، ولكنهم في الحروب يخلعونها، لأن الحروب تتطلّب منهم الشجاعة والمجابهة، حينئذٍ يبدون أنهم صفاق الوجوه حتى الوقاحة.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٤. إشادة بشجاعة القوم وشدّتهم أراد أن يُشبه الأسود بهم لتوفر القوّة والشجاعة في الأسود، ولكن فهمه للطبيعة =

سَرَى النَّوْمُ عَنِّي فِي سُرَايَ إلى الَّذِي
صَنَائِعُهُ تَسْرِي إِلَى كُلِّ نَائِمِ (١)

إِلَى مُطْلِقِ الأَسْرَى وَمُخْتَرِمِ ٱلْعِدَى
وَمُشْكِي ذَوِي الشَّكْوَى وَرَغْمِ المُرَاغِمِ (٢)

كَرِيمٌ لَفَظْتُ النَّاسَ لَمَّا بَلَغْتُهُ
كَأَنَّهُمُ مَا جَفَّ مِنْ زَادِ قَادِمِ (٣)

وَكَادَ سُرُورِي لَا يَفِي بِنَدَامَتِي
عَلَى تَرْكِهِ فِي عُمْرِيَ المُتَقَادِمِ (٤)

وَفَارَقْتُ شَرَّ ٱلْأَرْضِ أَهْلاً وَتُرْبَةً
بِهَا عَلَوِيٌّ جَدُّهُ غَيْرُ هَاشِمِ (٥)

= الإنسانية لدى هؤلاء وبين الطبيعة الوحشية الحيوانية لدى الأسود لم يلجأ إلى ذلك تنزيهاً وإعلاءً للطبيعة الآدمية في هؤلاء.

(١) السرى: سير الليل. الصنائع، الواحدة صنيعة: الإحسان والمعروف. يصف الشاعر حالته النفسية التي حملته على المجيء إلى ممدوحه؛ فقد تخلّى النوم عن عينيه، لذا شمّر قاصداً من تسير عطاياه إلى كل نائم لم يتوقّع هباته، فإذا به يتلقّاها مفتحاً عينيه وكأنه في حلم، فكيف بمن يقصد الممدوح والشاعر يحدوه الأمل بعطاء عظيم يُرفده به الممدوح.

(٢) اخترم العدى: أهلكهم. الرغم: الإذلال. المراغم بالمغاضب. يُعدّد الشاعر فضائل ممدوحه، إنه يُطلق أسراه، فيمنّ عليهم بحريتهم، وهو في نفس الوقت يُهلك أعداءه بقوّته وشجاعته، كما أنه يُزيل شكوى من يشتكي ويُقيله من عثرته رغم كلّ العوائق التي تحول دون ذلك.

(٣) و(٤) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٥. يروى «نفضْتُ» بدلاً من «لفظت» و«لقيته» بدلاً من «بلغته». يُعبّر الشاعر عن شدّة أسفه لأنه لم يلتق ممدوحه قبل ذلك، إنه كريم، وما حصل عليه من سِواه لا قيمة له، إنه زاد أناس بخلاء لا يفي بحاجته ولا يسد عوزه، لذا تركهم فكان سروره يتَضاعف باتصاله بممدوحه، وكانت مقارنة بين ماضي تجربته مع سوى ممدوحه هذا، فإذا بندمه يزداد ويُحسّ بالحرمان وعدم تقدير موهبته.

(٥) يقصد الشاعر بشرّ أهل الأرض أعداءه في طبرية، وعليه من يدّعي بأنه علوي ينتسب =

بَـلَا ٱلـلَّـهُ حُـسَّـادَ ٱلأَمِـيـرِ بِـحِـلْـمِـهِ
وَأَجْـلَـسَـهُ مِـنْـهُـمْ مَـكَـانَ الْـعَـمَـائِـمِ (١)

فَـإِنَّ لَـهُـمْ فـي سُـرْعَـةِ الـمَـوْتِ رَاحَـةً
وَإِنَّ لَـهُـمْ فِـي ٱلْـعَـيْـشِ حَـزَّ الْـغَـلَاصِـمِ (٢)

كَـأَنَّـكَ مَـا جَـاوَدْتَ مَـنْ بَـانَ جُـودُهُ
عَـلَـيْـكَ وَلَا قَـاوَمْـتَ مَـنْ لَـمْ تُـقَـاوِمِ (٣)

تركت الأحرما

وأقسم عليه أبو محمد أن يشرب فأخذ الكأس وقال ارتجالاً:

[الكامل]

حُـيِّـيْـتَ مِـنْ قَـسَـمٍ وَأَفْـدِي الـمُـقْـسِـمَـا
أَمْـسَـى الأَنَـامُ لَـهُ مُـجِـلّاً مُـعْـظِـمَـا (٤)

وَإِذَا طَـلَـبْـتُ رِضَـا الأَمِـيـرِ بِـشُـرْبِـهَـا
وَأَخَـذْتُـهَـا فَـلَـقَـدْ تَـرَكْـتُ الأَحْـرَمَـا (٥)

= إلى الإمام علي رضي اللّه عنه، وهو ليس من آل بيته، فيُنكر عليه هذه النسبة وكأنه يتّهم ذلك الرجل بالانتحال والكذب.

(١) و (٢) ينوّه الشاعر بحلم ممدوحه، فقد ابتلى اللّه حسّاده بأنه جعله حليماً بهم، فلم يبطش بهم بل زادهم حسرة وأشعل في قلوبهم الحسد والحسرة بأن جعله كالعمائم فوق رؤوسهم بسلطته وقوّته عليهم. فلو قتلهم لأراحهم من عذاباتهم وخلّصهم من آلامهم. والغلاصم، الواحد غلصمة: اللحمة الناتئة عند رأس الحلقوم، تحول دون إزهاق أرواحهم وهم يتحسسونها دائماً، فإذا بعذابهم يتجدّد مع إطلالة كل فجر، وهم يتوقّعون الموت في كلّ لحظة.

(٣) جاود: غالب في الجود وغلب. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه سبّاق إلى كلّ محمدة، فقد تفوّق على سائر حسّاده في كل ميدان، وهو أجودهم وأكرمهم وحتى في ساعات الوغى تكون له الغلبة عليهم لشجاعته وقوّة بأسه، فإذا بهم مهزومون فلا يُجارونه، إنه سبّاق إلى كلّ محمدة.

(٤) و (٥) الأنام: الخلق. يُخاطب الشاعر ممدوحه نازلاً عند رغبته، مجيباً لإرادته. ولقد أصبح الممدوح عظيم القدر في نظر الخلق، وذا مهابة. ولذا فسوف يشرب ما في =

غير مستنكر لك الإقدام

وحدث أبو محمد عن مسيرهم بالليل لكبس بادية وأن المطر أصابهم فقال أبو الطيب:

[الخفيف]

غَـــيْــرُ مُــسْــتَــنْــكَــرٍ لَــكَ الْإِقْــدَامُ
فَــلِــمَــنْ ذَا الْــحَــدِيــثُ وَٱلْإِعْــلَامُ

قَــدْ عَــلِــمْــنَــا مِــنْ قَــبْــلُ أَنَّــكَ مَــنْ لَــمْ
يَــمْــنَــعِ الــلَّــيْــلُ هَــمَّــهُ وَٱلْــغَــمَــامُ(١)

لا تقنع بما دون النجوم

كبست أنطاكية وهو فيها فقتل الطخرور وأمه فقال:

[الوافر]

إِذَا غَــامَــرْتَ فِــي شَــرَفٍ مَــرُومِ
فَــلَا تَــقْــنَــعْ بِــمَــا دُونَ الــنُّــجُــومِ(٢)

فَــطَــعْــمُ الــمَــوْتِ فِــي أَمْــرٍ صَــغِــيــرٍ
كَــطَــعْــمِ الــمَــوْتِ فِــي أَمْــرٍ عَــظِــيــمِ(٣)

= الكأس، رغم تحريم الخمرة، ولكن رفض رجاء الأمير محرّم أيضاً، فاختار شرب الخمرة لأن حرمتها دون حرمة الأمير، وبذلك يكون الشاعر قد فعل ما هو أسلم له في نظره.

(١) ينوّه الشاعر ببعد همّة الأمير، فلا شي يحول دون تحقيق غايته، لا المطر الغزير ولا الليل بظلمته، فكلّ شيء رهن إرادته وعظم سعيه.

(٢) و (٣) غامرت: دخلت في ما يُهلك. المروم: المطلوب. في موقف تأمّلي يبدي الشاعر رأيه بمسير الحياة، فالمرء معرّض باستمرار إلى الامتحان الصعب، ولذا فعليه أن يدرك أمانيه بجهده، وتصميمه وعزيمته، فالشرف لا يتأتى للمرء إلّا مرّة واحدة حيث يتربّع عرش المجد، لذا فعليه ألّا يقبل أقلّ من ذلك، لأن في ذلك خسارة عظيمة ذلك أن الموت حاصل يستهلك كلّ نفس، فإن مات ابن آدم فله شرف التجربة، وإن حقّق حلمه؛ فهو المجد الحقيقي.

سَتَبْكِي شَجْوَهَا فَرَسِي وَمُهْرِي
صَفَائِحُ دَمْعُهَا مَاءُ الْجُسُومِ[(١)]

قَرَيْنَ النَّارَ ثُمَّ نَشَأْنَ فِيهَا
كَمَا نَشأ الْعَذَارَى فِي النَّعِيمِ[(٢)]

وَفَارَقْنَ الصَّيَاقِلَ مُخْلَصَاتٍ
وَأَيْدِيهَا كَثِيرَاتُ الْكُلُومِ[(٣)]

يَرَى الْجُبَنَاءُ أَنَّ الْعَجْزَ عَقْلٌ
وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبْعِ اللَّئِيمِ[(٤)]

وَكُلُّ شَجَاعَةٍ فِي الْمَرْءِ تُغْنِي
وَلَا مِثْلَ الشَّجَاعَةِ فِي الْحَكِيمِ[(٥)]

---

(١) الصفائح: السيوف العريضة. الشجو: الحزن. ماء الجُسوم: كناية عن الدماء. فكرة الانتقام تسيطر دائماً على الشاعر، لذا فإنه سوف يثأر لفرسه ومهره من القتلة، فيجعل سيفه يقطر من دمائهم ويبكي ما فقد من بهائمه.

(٢) يروى «قربن» بالباء بدلاً من «قرين» بالياء، وقرين من القرى أي الضيافة. يُردف الشاعر حديثه عن تلك السيوف التي جعلت قراها في النار التي هذّبتها بلهيبها وحرارتها، فإذا بها تخرج سالمة من كلّ شائبة كالعذارى التي سلمت من عبث العابثين في طهرهن ونقاء سرائرهن.

(٣) الصياقل، الواحد صيقل، وهو صانع السيوف. مخلصات: أي خلصت من الخبث. الكلوم، الواحد كلم: الجراح. والغريب في الأمر أن تلك السيوف من طبعها إحداث الجراح في كل شيء، فإذا بصانيعها لا تخلو أيديهم من جراح سبّبتها تلك السيوف، رغم تجميلهم لها وصقلها.

(٤) و (٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٦. يحكم الشاعر على الجبناء أن عقولهم القاصرة جعلتهم يعتقدون بأن الحكمة تقتضي منهم البعد عن القتال، ولقد توصّلوا إلى حقيقة تنمّ عن قصور عقليّ لديهم فلو علموا أن الموت آتٍ لا محالة في زمن ومكان محدّدين، لما تردّدوا في مجابهة تلك الحقيقة، لذا فالشجاعة هي حكمة توفّر على المرء الخوف المزمن لديه، فالحكيم حقاً هو الشجاع الذي يُواجه الموت ببسالة دون رهبة.

وَكَـمْ مِـنْ عَـائِـبٍ قَـوْلاً صَـحِـيـحـاً
وَآفَـتُـهُ مِـنَ ٱلْـفَـهْـمِ الـسَّـقِـيـمِ (١)
وَلٰـكِـنْ تَـأْخُـذُ الآذانُ مِـنْـهُ
عَـلَـى قَـدْرِ الْـقَـرَائِـحِ وَالْـعُـلُـومِ (٢)

إذا توالت الغيوث كره الغمام

نزل على علي بن عسكر ببعلبك فخلع عليه وحمله وسأله أن يقيم عنده وكان يريد السفر إلى أنطاكية فقال يستأذنه:

[الوافر]

رَوِينَـا يَـا ٱبْـنَ عَـسْـكَـرٍ الْـهُـمَـامَـا
وَلَـمْ يَـتْـرُكْ نَـدَاكَ بِـنَـا هُـيَـامَـا (٣)
وَصَـارَ أَحَـبُّ مَـا تُـهْـدِي إلَـيْـنَـا
لِـغَـيْـرِ قِـلًـى وَدَاعَـكَ وَالـسَّـلَامَـا (٤)
وَلَـمْ نَـمْـلَـلْ تَـفَـقُّـدَكَ الْـمَـوَالِـي
ولَـمْ نَـذْمُـمْ أَيَـادِيَـكَ الْـجِـسَـامَـا (٥)
وَلٰـكِـنَّ الْـغُـيُـوثَ إذَا تَـوالَـتْ
بِـأَرْضِ مُـسَـافِـرٍ كَـرِهَ ٱلْـمُـقَـامَـا (٦)

---

(١) و (٢) ورد البيتان الأخيران في: المحتسب، لابن جني ٢: ١٩، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٦. الآفة: المرض والعاهة. مشكلة الفهم لدى البشر مشكلة دائمة، فقد تستعصي بعض الأفهام، فلا تفهم لقصور لديها وتصوّر قاصر، ممَّا يدلّ على حالة مرضية يصعب الشفاء منها؛ والحقيقة أن البشر يختلفون في الفهم، فكلّما كانت قرائحهم سليمة من الآفات والأمراض كان الفهم لطبيعة الحياة لديهم أكثر عمقاً وانسجاماً مع منطق القوّة والكرامة.

(٣) الهمام: السيد العظيم الشجاع السخي. والهيام: شدّة العطش، يخاطب الشاعر ممدوحه منوّهاً بجوده وحسن ضيافته، فقد نزل في ضيافته، فارتوى من معين كرمه حتى سدّ عطشه بنداه وكرمه، فلم يعد عطشان لما أولاه من جود.

(٤) القلى: البغض، الكره. يُردف الشاعر بامتنان وشكر على ما قدّمه الممدوح طالباً منه أن يُودّعه بحبّ لا تشوبه بغضاء ويتركه بسلام. إنه خير وداع وأحبّه إلى قلبه.

(٥) و (٦) الموالي: يقصد بذلك العبيد. الأيادي: النعم والعطايا. الجسام: العظام. =

للغمام طباع

أراد أبو الطيب الانصراف من عنده في بعض الليالي فقال له: اجلس فجلس فأمر له بجارية ثم نهض فقال له: اجلس فجلس فأمر له بمهر فقال له الخصي: تمدح الليلة يا أبا الطيب فقال:

[الوافر]

أَعَنْ إِذْنِي تَهُبُّ الرِّيحُ رَهْواً
وَيَسْرِي كُلَّمَا شِئْتُ الْغَمَامُ(١)

وَلٰكِنَّ الْغَمَامَ لَهُ طِبَاعٌ
تَبَجُّسُهُ بِهَا وَكَذَا الْكِرَامُ(٢)

بدر وبحر

يمدح سيف الدولة أبا الحسن علي بن عبد الله بن حمدان العدوي عند منصرفه من الظفر بحصن برزويه وعودته إلى أنطاكية وقد جلس في فازة(٣) من الديباج عليها صورة ملك الروم وصور وحش وحيوان وكان ذلك في شهر جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وثلاث مئة (٩٤٨م):

[الطويل]

وَفَاؤُكُمَا كَالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهْ
بِأَنْ تُسْعِدَا وَالدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهْ(٤)

= يعتذر الشاعر من ممدوحه، فرغم ما أفاضه من هبات على الشاعر ورجائه، فلا بدّ من الرحيل، فليس الأمر يتعلّق بالملل، فثمّة أمر آخر يتعلّق بأحوال الطقس السّيّئ، فالمطر غزير، والمقام قد يطول في هذه الحالة ويُعيق الشاعر عن مقصده؛ ففي هذه الحالة من الصواب الرحيل والوداع.

(١) و(٢) الرهو: السير السهل. الغمام: السحب المليئة بالماء. يستنكر الشاعر أن يكون الأمر بيده؛ فالرياح لا تهب بإرادته وإذنه، والسحب لا تأتمر بأمره، إن الأمر يتعلّق بالممدوح الذي يجري جوده بالسرعة التي يراها مناسبة، لذا فالغمام يأتمر بأمر الأمير وذلك من طبعه، فهو الذي يفجّر سحبه بالجود المطبوع عليه.

(٣) الفازة: مظلة بعمودين.

(٤) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٦١، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٨، ١٥٧. الربع: الطلل. أشجاه: أحزنه. الطاسم: الدارس. سجم الدمع: هطل =

وَمَــا أَنَــا إِلَّا عَــاشِــقٌ كُــلُّ عَــاشِــقٍ
أَعَـقُّ خَـلِـيـلَـيْـهِ الـصَّـفِـيَّـيْـنِ لَائِـمُـهْ (١)

وَقَــدْ يَــتَــزَيَّــا بِــالْــهَــوَى غَــيْــرُ أَهْــلِــهِ
وَيَـسْـتَـصْـحِـبُ ٱلْإِنْـسَـانُ مَـنْ لَا يُـلَائِـمُـهْ (٢)

بَـلِـيَـتُ بِـلَـى الْأَطْـلَالِ إِنْ لَـمْ أَقِـفْ بِـهَـا
وُقَـوفَ شَـحِـيـحٍ ضَـاعَ فِـي التُّـرْبِ خَـاتِـمُـهْ (٣)

كَـئِـيـبـاً تَـوَقَّـانِـي الْـعَـوَاذِلُ فِـي ٱلْـهَـوَى
كَـمَـا يَـتَـوَقَّـى رَيِّـضَ الْـخَـيْـلِ حَـازِمُـهْ (٤)

= بغزارة. الوفاء بضاعة نادرة، من معدن النبل والأصالة، يُخاطب الشاعر صاحبيه، مُنوّهاً بتبلّد مشاعرهما، حتى بدت خافتة الإحساس كأنها ذلك الربع الذي تركه ساكنوه فبدا موحشاً حزيناً لقدم العهد، ممَّا يحمل المرء على البكاء للأسف لانقطاع علاقة الشاعر بساكنيه، لذا فهو يحضّهما على البكاء، فالبكاء غسل للروح وتجديد للمشاعر، وهاهو الشاعر يبكي الآن تلك الأطلال لانقطاع صلتها به كما يبكي صاحبيه وقد تركاه وحيداً يبكي وفاءهما أيضاً.

(١) و (٢) يسوّغ الشاعر سبب بكائه، بأنه عاشق مغرم ثم يُردف أن أحد صديقيه لامه على عقوقه لهما، فيردّ عليه أن اللائم في الحقيقة هو العاق الذي تخلّى عن صداقة الشاعر، إنه لا يزال يُخلص الودّ لهما، فنيّته نحوهما لا يشوبها غش أو ريبة أو كذب، والحقّ أن المرء قد يتزيّا بزيّ لا يلائمه، والصداقة رداء يحميه من عوادي الزمن إذا كان صادق الودّ، ولما لم يكن صاحباه يُخلصان له الودّ راح يُعرّض بمسلكهما نحوه، فليسا في الحقيقة يفيان بما تتطلّبه الصحبة من إخلاص الودّ وحسن الصحبة.

(٣) الأطلال: آثار الديار. الأطلال رمز علاقة الإنسان بالأرض والوطن والذكريات، من هنا أدرك الشاعر الأهمية التي تحمله على البكاء، والبكاء غسل لرواسب الحاضر التي تدعو للأسف، فإذا بالذكريات ترسم خيالاتها في لا وعي المرء بما فيها من مسرّة وسعادة، لذا فمن الطبيعي أن يدعو على نفسه بالخسران إن لم يقف على الأطلال ليغسل تراب ماضٍ حميم، مفتشاً فيه عن ومضات ذلك الماضي الحبيب مع أحبّة تركوا الديار، إنه لشدّة حرصه على ذلك كبخيل أضاع درهماً في التراب فراح يبحث عنه في أرض لا حدود لها.

(٤) الكئيب: الحزين. توقاني: اجتنبني. العواذل، الواحد عاذل: اللّائمون. الريض من =

قِفِي تَغْرَمِ ٱلْأولَى مِنَ اللَّحْظِ مُهْجَتِي
بِثَانِيَةٍ وَٱلْمُتْلِفُ الشَّيْءَ غَارِمُهْ(١)

سَقَاكِ وَحَيَّانَا بِكِ اللَّهُ إِنَّمَا
عَلَى الْعِيسِ نَوْرٌ وَٱلْخُدُورُ كَمَائِمُهْ(٢)

وَمَا حَاجَةُ الأَظْعَانِ حَوْلَكِ فِي الدُّجَى
إِلَى قَمَرٍ مَا وَاجِدٌ لَكِ عَادِمُهْ(٣)

إِذَا ظَفِرَتْ مِنْكِ الْعُيُونُ بِنَظْرَةٍ
أَثَابَ بِهَا مُعْيِي الْمَطِيِّ وَرَازِمُهْ(٤)

= الخيول: الصعب القياد. الحازم: السائس الذي يسوسه ويلجمه. يذكر الشاعر موقف اللائمين منه؛ يتكرّر لومهم له، ويُقابل موقفهم هذا باللامبالاة، مصرًّا على الوقوف على الأطلال، بل يزيده موقفهم هذا منه تنمّراً بحيث يخافون منه ويجتنبونه كما يجتنب السائس جواداً صعب القياد مخافة أن يعضه أو يرفسه برجليه.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٣. المهجة: الروح. يُخاطب الشاعر محبوبته طالباً منها أن تنظر إليه ثانية، فنظرتها الأولى أتلفت روحه وأضاعت صوابه، وهو بحاجة إلى نظرة ثانية تعيد إليه روحه وصوابه وبذلك تكون قد أدّت ما عليها من غرم، لأنها في الحقيقة هي التي أدّت إلى تلفه وخسرانه.

(٢) العيس: الإبل البيضاء. النور: ضرب من الزهور بيضاء. الكمائم: أغلفة الزهور قبل تفتحها. يُخاطب الشاعر حبيبته، وهي بين باقة من الصبايا يمتطين النياق البيضاء في رحلتهن إلى المجهول، والباقة متجانسة، لطيب عبقهن في خدورهن كأنهن زهرات في أكمامها لم تتفتح بعد، ولكي تتفتح دعا لهن بالسقيا والانتعاش، عندئذٍ تكون تحيّة القلوب إلى القلوب.

(٣) الأظعان: النسوة الراحلات في هوادجهن. يُردف الشاعر مخاطباً حبيبته، إنها قمر يُنير ظلمة الليل البهيم، والركب بحاجة إلى من يُنير لهن الدرب، إنهن لسن بحاجة إلى قمر يؤنسهن، لأن محبوبته لا تجد لها مزاحماً في هذا المجال؛ إنها ضياء لطيف ينشر في النفوس الأنس والانشراح.

(٤) أثاب: عاد إليه جسمه بعد هزاله. المعيي: الكليل. المطي، الواحدة مطيّة: الدواب التي تُركب. الرازم: الساقط من شدّة التعب. يُردف الشاعر حديثه عن مدى قوّة سلطان حبيبته على الوجود، فحتى النياق المدنفة من شدّة التعب، إذا نظرت إلى =

حَبِيبٌ كَأَنَّ ٱلْحُسْنَ كَانَ يُحِبُّهُ
فَآثَرَهُ أَوْ جَارَ فِي ٱلْحُسْنِ قَاسِمُهْ(١)

تَحُولُ رِمَاحُ ٱلْخَطِّ دُونَ سِبَائِهِ
وَتُسْبَى لَهُ مِنْ كُلِّ حَيٍّ كَرَائِمُهْ(٢)

وَيُضْحِي غُبَارُ ٱلْخَيْلِ أَدْنَى سُتُورِهِ
وَآخِرُهَا نَشْرُ الْكِبَاءِ الْمُلَازِمُهْ(٣)

وَمَا ٱسْتَغْرَبَتْ عَيْنِي فِرَاقاً رَأَيْتُهُ
وَلَا عَلَّمَتْنِي غَيْرَ مَا الْقَلْبُ عَالِمُهْ(٤)

فَلَا يَتَّهِمْنِي الْكَاشِحُونَ فَإِنَّنِي
رَعَيْتُ الرَّدَى حَتَّى حَلَتْ لِي عَلَاقِمُهْ(٥)

= محبوبته زال عنها الإعياء وتجدّدت لديها الرغبة في الحياة، فعادت إليها حيويتها وقوّتها، فكيف بالبشر وبخاصة من يُحبّها.

(١) يُردف الشاعر حديثه عن محبوبته، لقد صاغها الجمال صياغة عجيبة فصبّ ما في جعبته من جمال وخصّها به وحدها، فكأنه جار ولم يعدل حتى يُوزع ما في جعبته منه على سائر الحسناوات.

(٢) الخط: موضع في اليمامة يشتهر بتقويم الرماح. الحيّ: جماعة من البشر ينزلون في البادية. يُشيد الشاعر بمناعة قبيلة حبيبته، إنهم يحمون نساءهم برماحهم الخطيّة، ويحتاطون لها مخافة سبائها لما يكلّفهم هذا من مشقة، وهم بدورهم يُغيرون على القبائل الأخرى فيسبون خيرة النساء لديهم ليجعلوهن خادمات لها.

(٣) النشر: العبير الطيّب. الكباء: عود البخور. يُنوّه الشاعر بمنعة حبيبته، إنها محاطة بالستور، فأدناها تُغطّيه غبار الخيول التي تقوم بحراستها، فتتصاعد لتخفي خباءها عن العيون الشرهة أو التي تسعى لسبائها، وفي المقابل ترتفع أجواء حميمة لطيفة، قوامها عبق البخور الذي يتصاعد في أركان ذلك الخباء فتكون ساتراً لها يحول دون تراكم الغبار في مخدعها.

(٤) لقد اعتاد الشاعر على الترحال من مكان إلى آخر، لذا فإنه لا يستغرب ما يتوالى عليه من مصائب وويلات، فحياته حُبلى بالمآسي؛ فالفراق مألوف لديه، ولم تزده عينه على ما يعلمه قلبه من آلام الفراق علماً بطبيعة الحياة؛ فهو لا يتفاجأ بحدث مألوف يتكرّر باستمرار.

(٥) الكاشحون: المبغضون. الردى: الهلاك، الموت. العلاقم، الواحد علقم: =

مُشِبُّ الَّذي يَبْكِي الشَّبَابَ مُشِيبُهُ
فَكَيْفَ تَوَقِّيهِ وَبَانِيهِ هَادِمُهْ؟[١]

وَتَكْمِلَةُ الْعَيْشِ الصِّبَا وَعَقِيبُهُ
وَغَائِبُ لَوْنِ الْعَارِضَيْنِ وَقَادِمُهْ[٢]

وَمَا خَضَبَ النَّاسُ الْبَيَاضَ لأَنَّهُ
قَبِيحٌ وَلكِنْ أَحْسَنُ الشَّعْرِ فَاحِمُهْ[٣]

وَأَحْسَنُ مِنْ مَاءِ الشَّبِيبَةِ كُلِّهِ
حَيَا بَارِقٍ فِي فَازَةٍ أَنَا شَائِمُهْ[٤]

= الحنظل، وهو نبات شديد المرورة. إحساس الشاعر بالكاشحين وموقفه منهم يجعله يتصدّى لردّة أفعالهم بعنف وشدّة، فقد يتهمونه بالجبن، لذا فإنه ينفي عنه تلك التهمة، فقد رعى الهلاك، فحيثما رحل صادف حروباً اشترك فيها بسيفه ولسانه، والعادة على معايشة الألم تميت الإحساس به، ولقد تشرّب كؤوس العلقم مترعة حتى بات لا يحسّ بمرارتها.

(١) توقيه: تحذره. رغم ما يبدو على الشاعر من ثورة على كلّ شيء، فإنه يبدو الآن قدرياً، فلا مردّ لأشياء تجري على سائر البشر، فمن عاش لا محالة سيُفاجئه المشيب يوماً، تماماً كالموت، فهو ضيف كريه وكلّ البشر يحسبون له ألف حساب، لذا لا يستطيع أحد اجتنابه، فضلاً عن دفعه، لأن الأمر بيد من رسم خارطة الوجود البشري، سبحانه وتعالى.

(٢) و (٣) العارضان: جانبا الوجه. عقيبه: تاليه. يُردف الشاعر حديثه عن رحلة الحياة لدى البشر، فثمّة مرحلتان أساسيتان؛ الصبا شباب وقوة حماس ولهو فإذا بعارضيه يكلّلهما سواد محبب إلى كل قلب، والنساء يهوين الفتيّ من الرجال، والرجال بدورهم يُعجبون بدوام الشباب فيهم، وفجأة دون سابق إنذار تبدأ شعيرات تغزو العارضين بلون مكروه غير مألوف، إنه الشيب، إنه الضعف، إنه بدء نهاية الرحلة، وليتلافى الرجل ما يراه فيه عيباً يلجأ إلى الخضاب ليستر مشيبه بسواد مستجلب خادع، ولكنه على كلّ حال أفضل من الشيب، وإن كان الشيب مدعاة للوقار والهيبة إلّا أن سواد الشعر لافت لنظر الحسناوات من النسوة.

(٤) بماء الشبيبة: حسنها ونضارتها. الحيا: المطر. البارق: السحاب الذي يصدر البرق. الفازة: مظلة بعمودين نصبت لسيف الدولة. الشائم: النظر إلى البرق يتوقّع مطراً. =

عَلَيْهَا رِيَاضٌ لَمْ تَحُكْهَا سَحَابَةٌ
وَأَغْصَانُ دَوْحٍ لَمْ تُغَنِّ حَمَائِمُهْ(١)
وَفَوْقَ حَوَاشِي كُلِّ ثَوْبٍ مُوَجَّهٍ
مِنَ الدُّرِّ سِمْطٌ لَمْ يُثَقِّبْهُ نَاظِمُهْ(٢)
تَرَى حَيَوَانَ البَرِّ مُصْطَلِحاً بِهِ
يُحَارِبُ ضِدٌّ ضِدَّهُ وَيُسَالِمُهْ(٣)
إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ مَاجَ كَأَنَّهُ
تَجُولُ مَذَاكِيهِ وَتَدْأَى ضَرَاغِمُهْ(٤)

= عاد الشاعر إلى الواقع الذي يتمثل أمام عينيه تاركاً تأملاته في الحياة، ثمّة فازة ينظر إلى شاغلها نظرة تفاؤل بخير وجود عميم، فسحب تفيض بوميض الماء العذب الزلال الذي يسعى إلى الحصول، فلا يُوازيه الشباب قيمة وعزًّا، فما نفع الشباب والفقر وسوء الحال يلاحق صاحبه؟ فليترك الشباب لأصحابه وليأمل الغنى حيث من بيده المال والقوّة والمنعة والحماية.

(١) الدوح: ضرب من الشجر العظيم. يشرع الشاعر بوصف تلك الفازة، إنها تزدان بالرسوم، فثمّة صور رياض وأشجار تجتمع عليها أنواع من الطيور، إنها صامتة لا تدبّ فيها الحياة خرساء، كما أن تلك الأشجار ساكنة لا حراك لها تجمّعت وتجمّدت في حيّز، مهما اتّسع فإنه يضيق بها.

(٢) و (٣) الموجّه: ذو الوجهين. السمط: السلك والسلك في العادة يُطلق على القلادة. قصد بسمط الدر: تلك الدوائر البيضاء التي رسمت على حواشي تلك الأردية التي جعلت منها الفازة ولم تثقب لأنها ليست درًّا حقيقياً. إنها مسرح للوحوش من الحيوانات الضارية، كلّ تسمّر في مكانه في سلام ووئام، رغم أن من طبيعتها التقاتل والتفاني، ولقد أعمل الفنان ريشته ببراعة، فلم ينقصها إلّا الحركة، إنها حركة الحياة.

(٤) المذاكي: المسنّة من الخيول. تدأى: تختل وتراوغ. الضراغم، الواحد ضرغام: من أسماء الأسود. تتمثل الحركة في هذا المشخص من الجماد عندما تحركها ريح، فإذا بكلّ ما فيها يبدو ويمور مور الحياة بعنفها، فتبدو الجياد تعدو ويُلاحق بعضها بعضاً في جولات لا تهدأ، وفي جانب آخر من المشهد فتبدو الأسود تستعدّ للانقضاض على فرائسها، والظباء على وشك الانطلاق بسرعة كعادتها عندما تحسّ بخطر داهم.

وَفِــي صُــورَةِ الــرُّومِــيِّ ذِي الـتّـَـاجِ ذِلّـَـةٌ
لأبْـلَـجَ لا تِـيـجَـانَ إلَّا عَـمَـائِـمُـهْ[(١)]
تُـقَـبِّـلُ أَفْـوَاهُ الـمُـلُـوكِ بِـسَـاطَـهُ
وَيَـكْـبُـرُ عَـنْـهَـا كُـمُّـهُ وَبَـرَاجِـمُـهْ[(٢)]
قِـيَـامـاً لِـمَـنْ يَـشْـفِـي مِـنَ الـدَّاءِ كَـيُّـهُ
وَمَـنْ بَـيْـنَ أُذْنَـيْ كُـلِّ قَـرْمٍ مَـوَاسِـمُـهْ[(٣)]
قَـبَـائِـعُـهـا تَـحْـتَ الـمَـرَافِـقِ هَـيْـبَـةً
وَأَنْـفَـذُ مِـمّـا فِـي ٱلْـجُـفُـونِ عَـزَائِـمُـهْ[(٤)]
لَـهُ عَـسْـكَـرَا خَـيْـلٍ وَطَـيْـرٍ إذا رَمَـى
بِـهَـا عَـسْـكَـراً لَـمْ يَـبْـقَ إِلَّا جَـمَـاجِـمُـهْ[(٥)]

---

(١) يروى «الأبلحُ» بدلاً من «الأبلج». والأبلح: المتكبّر العظيم في نفسه. تتّسع الصورة لخصمين، طالما تعاديا وتقاتلا، في ركن من المشهد قيصر الروم، وعليه علائم المذلة والانكسار، فهو ساجد مقابل أمير عربي يقف موقف الاعتزاز والظفر، وهو يعَمّ بعمامة العروبة.

(٢) و (٣) البراجم، الواحدة برجمة: مفاصل الأصابع. ولاتمام محتوى الصورة، ملوك يتوافدون بين يدي الأمير يُقبّلون بساطه ليدخلوا في سلمه، وهم يودّون تقبيل كمّه وهو يمتنع لشأنه العظيم، فتبدو أشواقهم وحسراتهم لنيل تلك المكرمة، ولكن هيهات أن يستجيب لرغباتهم، وهم قِيام ترهقهم الذلّة والمسكنة، وعليهم السكينة لهيبته، وقلوبهم يتصاعد خفقانها لعلمهم بقوّته؛ إنه يشفي جبنهم بقتلهم فيتخلّصون من رعبهم الدائم، ولقد عرفوا أنه قادر على كي قلوب العصاة منهم، فما من سيد منهم إلّا طبعه بميسم لا يُمحى أثره في نفوسهم وقلوبهم، لذا فهم يأملون مهادنته.

(٤) القبائع، الواحدة قبيعة، وهي ما يُزين مقبض السيف من الفضّة أو الحديد. الجفون، الواحد جفن: الغمد. يُتمّ الشاعر الصورة؛ فالملوك يتكئون على قبائع سيوفهم لشدّة رهبهم وعظم هيبته وجلاله، فنظراته الحادّة الصارمة أقوى من أي سلاح، وعزيمته بمثابة سيوف تحتفظ بأغمادها.

(٥) من أسباب نظر الأمير، أنه يقود جيشين: جيش بشري قِوامه جنده المدرّب أفضل تدريب والمعدّ أفضل عتاد، وجيش آخر قوامه طيور لا تعرف الرحمة طريقاً إلى =

أَجِلَّتُها مِنْ كُلِّ طَاغٍ ثِيَابُهُ
وَمَوْطِئُهَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ مَلاَغِمُهْ[(١)]

فَقَدْ مَلَّ ضَوْءُ الصُّبْحِ مِمَّا تُغِيرُهُ،
وَمَلَّ سَوَادُ اللَّيْلِ مِمَّا تُزَاحِمُهْ[(٢)]

وَمَلَّ القَنَا مِمَّا تَدُقُّ صُدُورَهُ،
وَمَلَّ حَدِيدُ الْهِنْدِ مِمَّا تُلَاطِمُهْ[(٣)]

سَحَابٌ مِنَ الْعِقْبَانِ يَزْحَفُ تَحْتَهَا
سَحَابٌ إِذَا اسْتَسْقَتْ سَقَتْهَا صَوَارِمُهْ[(٤)]

= قلوبها، فالجند يقضون على الأعداء ووحوش الطير تنهش لحومها، فلا يبقى منهم إلّا الجماجم والعظام.

(١) الأجلة، الواحد جلّ: ما يُجعل على ظهر الدابة. الملاغم: تشمل الفم والأنف والأشداق من كلّ شيء. يُردف الشاعر متحدّثاً عمّا يفعله سيف الدولة بالملوك الطغاة وأسلابهم؛ فمن أثوابهم يتّخذ أجلّة لخيوله، ومن أنوفهم مواضع فخرهم يتّخذها موطئاً لأقدامه، وهذا مغالاة تُرضي الممدوحين، فيعمد إليها المتنبي كعادته.

(٢) يُخاطب الشاعر الأمير بأنه دائم الإغارة على أعدائه في كلّ وقت، فقد ملّ الصبح لمبادرة الأمير عدوّه مع الفجر، والقوم نيام فيفتك بهم، والليل قد ضجر، فإذا به يملّ ظلمة حالكة زادت من سواده، إنها غبار تُثيره خيول الأمير وفرسانه، وكأن تلك تُزاحم حلكة الليل لتزيحها عن أمكنتها لتحلّ محلها، فيبدو الكون في ليل سرمدي دائم.

(٣) القنا: الرماح. تدقّ: تكسر. صدر الرمح: أعلاه. إنها حالة تتكرّر، لذا فالملل يسيطر على رماح جند الأمير لدوام استعمالها، فهي تدقّ صدور الأعداء وتقرعها بعنف فتُودي بحياتهم، حتى السيوف الهندية داخلها الملل لكثرة استعمالها في الحروب، فهي دائمة المصادمة فتلطم أعداء الأمير بلا رحمة وتبطش بفرسانهم.

(٤) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢: ٣٥٣. سحاب: غيوم. العقبان، الواحد عقاب: ضرب من الطيور الكاسرة. استسقت: أرادت السقيا. الصوارم، الواحد صارم: السيوف القاطعة. يرسم الشاعر صورة زحف جيش الأمير، إنه سحاب كثيف يُغطي الأرض بجنده وسلاحه، وإذا نظر المرء إلى ما فوق هذا الجيش العرمرم العظيم هاله منظر سحب تطير وتتحرّك بسرعة، إنها جوارح الطير، وقد اعتادت على مصاحبة =

سَـلَـكْـتُ صُـرُوفَ الـدَّهْـرِ حَـتّـى لَـقِـيـتُـهُ
عَـلَـى ظَـهْـرِ عَـزْمٍ مُـؤْيَـدَاتٍ قَـوَائِـمُـهْ(١)
مَـهَالِـكَ لَـمْ تَـصْـحَـبْ بـهَـا الـذِّئِـبَ نَـفْـسُـهُ،
وَلَا حَـمَـلَـتْ فِـيـهَـا الْـغُـرَابَ قَـوَادِمُـهْ(٢)
فَـأَبْـصَـرْتُ بَـدْراً لا يَـرَى الْـبَـدْرُ مِـثْـلَـهُ،
وَخَـاطَـبْـتُ بَـحْـراً لا يَـرَى الْـعِـبْـرَ عَـائِـمُـهْ(٣)
غَـضِـبْـتُ لَـهُ لَـمَّـا رَأَيْـتُ صِـفَـاتِـهِ
بِـلَا وَاصِـفٍ وَالـشِّـعْـرُ تَـهْـذِي طَـمَـاطِـمُـهْ(٤)

= هذا الجيش، لأنه يُعينها على الاستمرار في ما يُوفّره لها من قوت على الدوام، ويقتصر عملها على تخليص الطبيعة من جيف الأعداء.

(١) و (٢) صروف الدهر: مصائبه وويلاته. المؤيد: القوي. يُطلعنا الشاعر على مكابداته وصراعه مع الدهر ومصائبه، فقد رحل إلى بلدان كثيرة يفتّش عمّن يُرضي طموحه ويشبع خياله حتى كان اللقاء الحميم الودود بين الشاعر والأمير، وهو لم يتوان طيلة رحلة البحث الطويلة هذه، وقد كانت العزيمة رائدة في رحلة البحث هذه، فلم تكلّ ولم تضعف حتى وقعت على بُغيتها، لقد قطع مفازات مهلكات، وما كان بمقدور الذئب أن يقوى على اجتياز تلك الأخطار، وحتى الغراب الذي لا يستقرّ بمكان لما استطاعت قوادمه على حمله طوال تلك المسافات التي قطعها الشاعر حتى وصل أخيراً إلى قصر الأمير.

(٣) عِبر البحر، بكسر العين: شاطئه. يمدح الشاعر سيف الدولة، أخيراً وقع نظره على بدر ينشر أنسه على الكون فيشمل ضياؤه كلّ المخلوقات، حتى إن القمر لم يعثر على شبيه رغم تجواله على سائر الكون، وكانت مخاطبة جعلت الشاعر يكتشف أنه أمام بحر زاخر بالجود والعلم، فلا يستطيع أحد الخوض فيه، وإن فعل فإنه لن يدرك شاطئه لاتساعه وعمقه.

(٤) تهذي: تتكلم بما هو غير معقول. الطماطم، الواحد طمطم: من في لسانه عجمة، يُعبّر الشاعر عن مدى سخطه وغضبه، فرغم كثرة شعراء بلاط سيف الدولة الذين لا يُحسنون قولاً، ومعظمهم لا يكادون يفقهون قولاً، وهم يتشدّقون بطمطمانية لا تفهم، فضلاً عن سخافة عباراتهم ومعانيهم المرذولة. علماً أن مزايا الممدوح تُوحي بجيد الشعر وعظيم معانيه.

وَكُـنْـتُ إذَا يَـمَّـمْـتُ أَرْضـاً بَـعِـيـدَةً
سَرَيْتُ وَكُنْتُ السِّرَّ وَاللَّيْلُ كَاتِمُهْ[١]

لَقَدْ سَلَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ المَجْدُ مُعْلِماً؛
فَلَا المَجْدُ مُخْفِيهِ وَلَا الضَّرْبُ ثَالِمُهْ[٢]

عَلَى عَاتِقِ المَلْكِ الأغَرِّ نِجَادُهُ،
وَفي يَدِ جَبَّارِ السَّمٰوَاتِ قَائِمُهْ[٣]

تُحَارِبُهُ الأعْدَاءُ وَهْيَ عَبِيدُهُ،
وَتَدَّخِرُ الأمْوَالَ وَهْيَ غَنَائِمُهْ[٤]

وَيَسْتَكْبِرُونَ الدَّهْرَ وَالدَّهْرُ دُونَهُ،
وَيَسْتَعْظِمُونَ المَوْتَ وَالمَوْتُ خَادِمُهْ[٥]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٢. يمّمت: قصدت. السرى: سير اللّيل. عاد الشاعر عمَّا كان يُعانيه في رحلة البحث عن البطل الذي يمكنه أن يملأ الفراغ النفسي الذي يُحسّ به؛ فقد قطع آماداً بعيدة ليل نهار، فقد عرفته السّرى أنيس وحدتها ووحشتها، في ظلمة الليل الحالكة.

(٢) ثلم السيف: كسر حرفه. يمدح الشاعر الأمير، لقد كان على موعد مع المجد فجرّده سيفاً يردّ عنه عاديات النكبات، فلا يُغمده، ولا يثلّمه الضرب، لأنه ليس مجرد آلة حديدية، بل إنه إنسان شديد المضاء والعزم، فلا تلوي إرادته الأزمات والمصائب.

(٣) العاتق: الكتف. الملك: أي الخليفة. الأغرّ: الأبيض الكريم. النجاد: حمالة السيف. قائم السيف: مقبضه. يُنوّه الشاعر بمكانة ممدوحه عند الخليفة، فقد اختاره ليكون حامي البلاد من الأعداء يضرب اللّه تعالى به أعداءه فقد جرّده لهذا الغرض، فكان نصره بإرادته تعالى، لذا فقد رفعه إلى أعلى مكانة يصل إليها أفراد من البشر.

(٤) ومن حسن حظّ الأمير أن أعداءه يجاهرون بعدائهم له، ممَّا يُساعده على قهرهم واستعبادهم فيأسرهم، حتى أموالهم التي يدّخرونها تنتقل من خزائنهم في حال انتصاره عليهم إلى خزائنه، فيستعين بها على عدوّه، فتكون حسرة في قلوبهم.

(٥) إنها معركة خاسرة باستمرار، فهم يُرجعون كلّ أمر إلى الدهر الذي بيده مصيرهم، ولم يعلموا أن الدهر يأتمر بأمره، وهو طوع إرادته، والأمر إذا تعلّق بالموت فإنه على وفاق مع الأمير، فبيده يكون موتهم وحياتهم.

وَإِنَّ الَّـذِي سَـمَّـى عَـلِـيًّـا لَـمُـنْـصِـفٌ،
وَإِنَّ الَّـذِي سَـمَّـاهُ سَـيْـفـاً لَـظَـالِـمُـهْ(١)
وَمَـا كُـلُّ سَـيْـفٍ يَـقْـطَـعُ الْـهَـامَ حَـدُّهُ،
وَتَـقْـطَـعُ لَـزْبَـاتِ الـزَّمَـانِ مَـكَـارِمُـهْ(٢)

وإذا كانت النفوس كباراً

يمدحه وقد عزم على الرحيل عن أنطاكية:

[الخفيف]

أَيْـــنَ أَزْمَـــعْـــتَ أَيُّـــهَـــذَا الْـــهُـــمَـــامُ
نَـحْـنُ نَـبْـتُ الـرُّبَـى وَأَنْـتَ الـغَـمَـامُ(٣)
نَــحْــنُ مَــنْ ضَـايَـقَ الـزَّمَـانُ لَـهُ فِـيـ
ـكَ وَخَـــانَـــتْـــهُ قُـــرْبَـــكَ الأَيَّـــامُ(٤)
فِـي سَـبِـيـلِ الْـعُـلَـى قِـتَـالُـكَ وَالـسِّـلْـ
ـمُ وَهٰـــذَا الْـــمُـــقَـــامُ وَالإِجْـــذَامُ(٥)

---

(١) و (٢) لزبات الزمان: شدائده. يرى الشاعر أن تسمية الأمير بعلي كانت في مكانها، لأنه رفيع المنزلة عالي الهمة والمقام، ومن لقّبه سيفاً، فقد بخسه حقّه، لأن السيف شيء مادي، فيصدأ وينبو، فضلاً عن احتياجه للإرادة، فالحديد لا يعمل بذاته، إنما بإرادة حامله وقوّته، والأمير يعمل على دفع المصائب عن المحتاج بماله وحمايته وشجاعته، لذا فمن الظلم والخطأ أن يسمّى السيف.

(٣) أزمع: عزم على الأمر. الهمام: الملك العظيم. الربى، الواحدة ربوة: ما ارتفع من الأرض. الغمام: السحب المليئة بالماء. يُخاطب الشاعر ممدوحه مستفسراً عن مسيره وسببه؛ إنه ملك عظيم، وبيده مقاليد كلّ شيء، إنه غمام عمَّ فيضه وغيثه تلك التي تعانق السماء، فإذا بالنبت تدبّ فيه الحياة وينتعش به الأمل، لذا يسأله إلى أين المسير، والبشر رهن إشارته يأتمرون بأمره، وهو سرّ حياتهم لأنهم نبت يديه فيه ومنه يعيشون، وفي حال تخلّيه عنهم، فلا بدّ لليباس أن يدبّ فيهم.

(٤) إنّه من سوء حظّ الشاعر ومن لفّ لفّه أن يُشارك الزمان بالممدوح، فضلاً عن أن يستأثر به لنفسه دونهم؛ فهم بحاجة إليه لدفع الفاقة عنهم، فليس من العدل أن ينفرد به دون سائر الناس.

(٥) الإجذام: الإسراع في المسير. يُنوّه الشاعر بسعي سيف الدولة الجادّ إلى إدراك =

لَـيْـتَ أَنَّـا إذَا ارْتَـحَـلْـتَ لَـكَ الْـخَـيْـ
ـلُ وَأَنَّـــا إِذَا نَـــزَلْـــتَ الْـــخِـــيَـــامُ(١)

كُـــلَّ يَـــوْمٍ لَـــكَ احْـــتِـــمَـــالٌ جَـــدِيـــدٌ
وَمَـــسِـــيـــرٌ لِـــلْـــمَـــجْـــدِ فِـــيـــهِ مُـــقَـــامُ(٢)

وَإِذَا كَـــانَـــتِ الـــنُّـــفُـــوسُ كِـــبَـــاراً
تَـــعِـــبَـــتْ فـــي مُـــرَادِهَـــا الأَجْـــسَـــامُ(٣)

وَكَـــذَا تَـــطْـــلُـــعُ الْـــبُـــدُورُ عَـــلَـــيْـــنَـــا
وَكَـــذَا تَـــقْـــلَـــقُ الْـــبُـــحُـــورُ الْـــعِـــظَـــامُ(٤)

= المعالي، وسواءٌ أكان ذلك في الحرب أم في السلم، فالهدف واضح لديه وسواء أكان ذلك في حال الإقامة أم في المسير بسرعة إلى بُغيته.

(١) يتمنّى الشاعر ومن معه أن يكونوا بإمرة الأمير في حال ارتحاله يُشاركونه بأعماله ويُسهّلون له أموره، فيتحمّلون معه المشقات في حال ترحاله ونزوله، وليكونوا مع الخيول ينقلون أمتعته، وليكونوا بمثابة الخيام يسترونه من حرّ السماء وهطول الأمطار.

(٢) يروى «ارتحال» بدلاً من «احتمال». وهما بمعنى واحد. لغة الأرقام تُحسب بالأيام، بل بالسّاعات لمن يُقدّر قيمة الحياة، فالأمير لا يستكين إلى الدعة وراحة البال شأن سواه من الملوك، بل إنه دائم المسير والارتحال في سبيل طلب المعالي حيث يُقيم المجد، وإن يرحل المجد برحيله، فسيسعى به ومعه.

(٣) يُعقّب الشاعر على كلامه معلّلاً مسلك الأمير بأنه ذو نفس عظيمة لا حدّ لها، تبغي له العلاء والمجد، والجسم مهما ضخم يبقى الأداة التي بواسطتها يُحقّق المرء مبتغاه في هذا الوجود، وقد يُدركه الموت بعجلة فيموت وفي قلبه الحسرات، لذا فمهما حقّق منها، فإذا به يطلب المزيد.

(٤) يتأسى الشاعر بتوالي البدور على البشر تنير حياتهم بأنسها وضوئها، حتى البحار العظيمة فإنها بحركة دائمة لا تستكين أبداً، موج وعواصف ورزق عظيم لا ينفد، وتستمرّ الحياة على هذه الوتيرة، وشأن الطبيعة كشأن الأمير، حركة دؤوب لا راحة فيها ولا استكانة، تماماً كالبدور والبحار في ما توجبه من قوّة الحياة وزخمها الذي لا يتوقّف.

وَلَـنَـا عَـادَةُ ٱلْـجَـمِـيـلِ مِـنَ الـصَّـبْـ
رِ لَـــوَ ٱنَّـــا سِـــوَى نَـــوَاكَ نُـــسَـــامُ(١)
كُـلُّ عَـيْـشٍ مَـا لَـمْ تُـطِـبْـهُ حِـمَـامٌ
كُـلُّ شَـمْـسٍ مَـا لَـمْ تَـكُـنْـهَـا ظَـلَامُ(٢)
أَزِلِ الْـوَحْـشَـةَ الَّـتِـي عِـنْـدَنَـا يَـا
مَـنْ بِـهِ يَـأْنَـسُ الْـخَـمِـيـسُ الـلُّـهَـامُ(٣)
وَالَّـذِي يَـشْـهَـدُ الْـوَغَـى سَـاكِـنَ الْـقَـلْـ
بِ كَـأَنَّ الْـقِـتَـالَ فِـيـهَـا ذِمَـامُ(٤)
وَالَّـذِي يَـضْـرِبُ الْـكَـتَـائِـبَ حَـتَّـى
تَـتَـلَاقَـى الْـفِـهَـاقُ وَالأَقْـدَامُ(٥)

---

(١) النوى: البعد. نسام: نتجشم الأمر. العادة تتأصل في النفس؛ فطول العشرة تجعل المرء يتآلف مع من يُعاشره، حتى في نظام العمل الذي يزاوله الناس، فيكف إذا كان الأمر يتعلّق بشخص كالأمير؟ لذا فالشعور بالفراق يُؤلم، فالصبر على تحمّل الآلام والمحن أهون بكثير من فراق الأحبَّة، لذا لا صبر للشاعر على بعد الأمير ولا قدرة على احتمال حدث كهذا.

(٢) الحمام: بكسر الحاء: الموت. يردف الشاعر مخاطباً الأمير بأنه سرّ الحياة ونعمتها، فطيبها بوجوده ورفده وحياته، وأنه بمثابة شمس تشرق بضيائها ودفئها وعمومها سائر الكون، وهو نور يبدّد ظلمة الحياة وقساوتها تماماً كالشمس بشمولها واتّساعها وجبروتها وقوتها.

(٣) الخميس: الجيش المؤلف من خمس فرق. اللهام: العظيم الذي يلتهم كلّ شيء ويهلكه. ويُردف بأن الشاعر ومحبي الأمير يُحسون بالغربة والوحشة في حال رحيله دونهم، لأنه أنسهم، فحتى الجيش العظيم الذي يلتهم جيوش الأعداء يأنس بقيادته الحكيمة وبأسه وشجاعته، فيضمن النصر في حال كهذه.

(٤) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٧٥. الوغى: الحرب. الذمام: العهد. يردف الشاعر مادحاً الأمير بأنه قوي الجنان، ثابت القلب يخوض رحى الحرب مطمئناً كأن بينه وبين الحروب عهداً بحمايته، فلا يصل إليه مكروه.

(٥) الكتائب، الواحدة كتيبة: الفرقة من الجيش. الفهاق، الواحدة فهقة: العظم عند =

وَإِذَا حَـــلَّ سَـــاعَـــةً بِـــمَـــكَـــانٍ
فَـــأَذَاهُ عَـــلَـــى الـــزَّمَـــانِ حَـــرَامُ(١)
وَالَّـــذِي تُـــنْـــبِـــتُ الْـــبِـــلَادُ سُـــرُورٌ،
وَالَّـــذِي تَـــمْـــطُـــرُ الـــسَّـــحَـــابُ مُـــدَامُ(٢)
كُـــلَّـــمَـــا قِـــيـــلَ قَـــدْ تَـــنَـــاهَـــى أَرَانَـــا
كَـــرَمـــاً مَـــا ٱهْـــتَـــدَتْ إِلَـــيْـــهِ الْـــكِـــرَامُ(٣)
وَكِـــفَـــاحـــاً تَـــكِـــعُّ عَـــنْـــهُ الأعَـــادِي
وَارْتِـــيَـــاحـــاً يَـــحَـــارُ فِـــيـــهِ الأنَـــامُ(٤)

= موصل الرأس والعنق. يُتابع الشاعر مدح الأمير بأنه قوي البطش يُفني الجيوش بسيفه بعزم قوي فإذا به لعظم الضربة يفلق رأس الخصم حتى يصل حدّ سيفه إلى فهقة خصمه فيشقّ العظم حتى العنق.

(١) و (٢) يُتابع الشاعر مدح الأمير منوّهاً بالخير والأمان والأمن حيثما حلَّ، فإذا نزل بمكان حلّت البركات بوصوله إليه وانعدمت الفواجع والمصائب فيه لأنه أصبح تحت حمايته، فإذا بالزمان يُقلع عن فواجعه الطبيعية والمعيشية والأمنية، إنه في عهدة أيدٍ أمينة خيّرة، فالنبت يستحيل فرحاً يسرّ العين ويطمئن القلوب بفيض زرع وفير ومطر غزير، فالناس يحصدون ويعصرون خمراً. فيعمّ الفرح ويغمر القلوب سرور، وتقام الأفراح والأعراس في ظل ضامن للحياة والأمن.

(٣) تناهى: بلغ نهايته. في مثل جوّ كهذا ثمّة من يقول: في ظل أمير كهذا قد أدركنا منتهى السعادة، فإذا بالأمير يهتدي إلى ابتداع فنون جديدة في الكرم لم يُسبق إليها، فالكرام قد قصّروا عن الاهتداء إليها.

(٤) تكعّ: تجبن وتضعف. الارتياح: الإسراع بالبذل واصطناع المعروف. الأنام: الخلق. ينوّه الشاعر بشجاعة الأمير، إنه يُثير الرعب في قلوب أعدائه لقوّته وشجاعته، فإذا بهم ينهزمون نفسياً للرعب الذي يسببه قتاله لهم، وبذلك يسهل القضاء عليهم، وهو في نفس الوقت كريم، فأريحيّته تُثير دهشة الخلق لكثرة ما يُنفق في سُبُل الخير.

إِنَّمَا هَيْبَةُ المُؤَمَّلِ سَيْفِ الدَّ
وْلَةِ المَلْكِ في القُلُوبِ حُسَامُ[١]
فَكَثِيرٌ مِنَ الشُّجَاعِ التَّوَقِّي
وَكَثِيرٌ مِنَ البَلِيغِ السَّلَامُ[٢]

درة تاج الخليفة

وقال يمدحه أيضاً:

[الكامل]

أَنَا مِنْكَ بَيْنَ فَضَائِلٍ وَمَكَارِمِ
وَمِنِ ارْتِيَاحِكَ في غَمَامٍ دَائِمِ[٣]
وَمِنِ احْتِقَارِكَ كُلَّ مَا تَحْبُو بِهِ؛
فِي مَا أُلَاحِظُهُ بِعَيْنَيْ حَالِمِ[٤]
إِنَّ الْخَلِيفَةَ لَمْ يُسَمِّكَ سَيْفَهَا
حَتَّى بَلَاكَ فَكُنْتَ عَيْنَ الصَّارِمِ[٥]

---

(١) و (٢) وممّا ساعد سيف الدولة على النصر على أعدائه هيبة تخلع قلوبهم وتردعهم عن التمادي بعدائه، وتلك من سيوفه، ولكنها أشدّ وقعاً في قلوب أعدائه فيجنحون إلى المهادنة والمسالمة، ولذا فليس الأمير بحاجة إلى استعمال السلاح. لذا فمن مصلحة الشجاع، ومهما بلغت شجاعته، أن يتّقيه، فيحفظ نفسه ويصون كرامته، فيعيش بسلام حتى البليغ الأريحيّ إن استطاع أن يُسلّم عليه ويُصافحه يكون قد ضمن حياته وسعادته؛ فهيبته تحتّم على البشر ألّا ينطقوا بين يديه، إلّا إذا أراد، والبسمة تعلو شفتيه.

(٣) وردت القصيدة في الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٨ ـ ١٣٩. الارتياح: انشراح النفس واهتزازها للعطاء. يتحدث الشاعر عن ممدوحه، إنه في حالة اندهاش لما يجده في ممدوحه، ففضائله الخلقية والذهنية لا تُوصف ولا تحدّ لعظمها في شخصه ومكارم أخلاقه، فضلاً عن كرمه الذي لا ينقطع وكأنه غمام دائم الهطول.

(٤) تحبو به: تسخو به. يُردف الشاعر مفنداً أسباب دهشته، فما يلفت نظره كرمه الذي لا يُوصف إنه يستصغر كلّ ما يجود به إلى مستحقيه، إنه محض خيال لا يُوجد حتى في الخيال، لأن ما رآه الشاعر من كرم فاق حدّ الوصف لم ير مثله في من عرف ممّن يدّعون الجود.

(٥) بلاك: اختبرك. الصارم: السيف القاطع. يُتابع الشاعر أن الخليفة قد أصاب كبد =

فَــإذَا تَــتَــوَّجَ كُــنْــتَ دُرَّةَ تَــاجِــهِ،
وَإذَا تَـخَـتَّـمَ كُـنْـتَ فَـصَّ الْـخَـاتِـمِ[(١)]

وَإذَا انْـتَـضَـاكَ عَـلَـى الْـعِـدَى فـي مَـعْـرَكٍ
هَـلَـكُـوا وَضَـاقَـتْ كَـفُّـهُ بِـالْـقَـائِـمِ[(٢)]

أَبْـدَى سَـخَـاؤُكَ عَـجْـزَ كُـلِّ مُـشَـمِّـرٍ
فِـي وَصْـفِـهِ وَأَضَـاقَ ذَرْعَ الْـكَـاتِـمِ[(٣)]

لا رزق إلا من يمينك

أمر سيف الدولة غلمانه أن يلبسوا وقصد ميافارقين في خمسة آلاف من الجند وألفين من غلمانه ليزور قبر والدته وذلك في شوال سنة ثمان وثلاثين وثلاث مئة (٩٤٩م) فقال:

[الطويل]

إذَا كَـانَ مَـدْحٌ فَـالـنَّـسِـيـبُ الـمُـقَـدَّمُ
أَكُـلُّ فَـصِـيـحٍ قَـالَ شِـعْـراً مُـتَـيَّـمُ[(٤)]

= الحقيقة عندما لقّب الممدوح بلقب سيف الدولة، فقد اختبر ما لديه من سلاح فعّال لدفع البلاء فلم يجد أفضل من الممدوح في محاربة أعداء دولته، فكان أن مَنّ عليه بما يستحقّه إنه سيف بتّار لا يكلّ ولا يفلّ في محاربة كلّ عدوّ.

(١) تتوّج: وضع التاج على رأسه. تختّم: وضع الخاتم بإصبعه. ويُتابع الشاعر منوّهاً بحاجة الخليفة إلى ممدوحه، إنه التاج المفضل لدى الخليفة، لذا فإنه يُزيّن ويتوّج رأسه به ويتختم أيضاً به، لذا فهو علامة فارقة تميّز الخليفة به، ومصدر اعتزازه.

(٢) انتضاك: استلّك. قائم السيف: مقبضه. يُخاطب الشاعر الأمير، إنه سيف الخليفة يستلّه ليقضي على عدوّه ويُؤدي مهمته ببسالة وشجاعة، فإذا بالعدوّ يتهاوى تحت ضرباته، ولثقل سيف كهذا تضيق كفّ الخليفة بحمله، فهو من العيار الثقيل، لا يُستعمل إلّا في حالات الحرج للدفاع عن الخلافة فقط.

(٣) السخاء: الكرم. المشمّر: المجتهد. ومن معجزات الأمير أن جوده أعجز الشعراء أن يعدّدوا فنون العطاء لديه، لذا فقد لزموا السكوت عن ذلك لئلّا يُقصّروا في إعطائه حقّه، أو لئلّا يُكتشف تقصيرهم، فمهما جهدوا فلن يُفلحوا أبداً بإيفائه حقّه.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٨. النسيب: التشبيب بالنساء، أي الغزل بهن. المتيّم: من استعبده الحبّ. يُبدي الشاعر موقفاً نقدياً للشعراء، وهو =

لَـحُـبُّ ٱبْـنِ عَـبْـدِ ٱلـلَّـهِ أَوْلَـى فَـإِنَّـهُ
بِـهِ يُـبْـدَأُ الـذِّكْـرُ الْـجَـمِـيـلُ وَيُـخْـتَـمُ (١)
أَطَـعْـتُ الْـغَـوَانِـي قَـبْـلَ مَـطْـمَـحِ نَـاظِـرِي
إِلـى مَـنْـظَـرٍ يَـصْـغُـرْنَ عَـنْـهُ وَيَـعْـظُـمُ (٢)
تَـعَـرَّضَ سَـيْـفُ الـدَّوْلَـةِ الـدَّهْـرَ كُـلَّـهُ
يُـطَـبِّـقُ فـي أَوْصَـالِـهِ وَيُـصَـمِّـمُ (٣)
فَـجَـازَ لَـهُ حَـتَّـى عَـلَـى الـشَّـمْـسِ حُـكْـمُـهُ
وَبَـانَ لَـهُ حَـتَّـى عَـلَـى الْـبَـدْرِ مَـيْـسَـمُ (٤)
كَـأَنَّ الْـعِـدَى فـي أَرْضِـهِـمْ خُـلَـفَـاؤُهُ؛
فَـإِنْ شَـاءَ حَـازُوهَـا وَإِنْ شَـاءَ سَـلَّـمُـوا (٥)

= واحد منهم، فقد اعتادوا على التغزل بمحبوبة وهميّة وبالوقوف على الأطلال في قصائدهم المدحيَّة، لذا فمن المؤكد أنه ليس كلّ شاعر قد تيّمه الحبّ واستعبده وملك عليه قلبه.

(١) لذا فحب سيف الدولة قد ملك على الشاعر مشاعره، فجعله ينسى جنس المرأة ويقصر حبّه على من يُبدي كلّ مكرمة، فذكره الجميل يحمله على التعلّق به والإشادة بما يمثّله من مكارم الأخلاق والجود، لذا فهو أولى بإشادة ذكره ممن عداه.

(٢) الغواني، الواحدة غانية، وهي التي اغتنت بجمالها عمَّا سواه. يتحدّث الشاعر عن رحلاته مع جنس المرأة، لقد عمد إلى التشبيب بها في مطالع قصائده، لأنها كانت شغله، وخلال ذلك كان دائم البحث عمّن يُرضي خياله من الملوك والأمراء حتى وقع أخيراً على المثال مجسّداً بسيف الدولة، لذا قصر كلّ اهتمامه بمن يشبع توثّب تطلّعه من يمثل مثله العليا.

(٣) و (٤) تعرّض: تصدّى. يطبق: يصيب المفصل. يصمّم: يمضي في العظم ويقطعه. الميسم: ظاهرة الجمال في المرء. يذكر الشاعر إنجازات سيف الدولة؛ فكان صراع بينه وبين الدهر، خرج منه منتصراً، فإذا بالدهر يكون طوع إرادته يأتمر بأمره، ويفعل به ما يشاء بإرادة سيف يقطّع أوصاله كما يحلو له، بل إنه تمكّن حكمه من الشمس التي تعمّ الكون بضيائها ودفئها، ولقد فاق حسن جماله على هالة القمر، وما يُمثّله من أنس ورقّة وجمال. تلك هي المغالاة التي يعمد إليها الشاعر في مدحه لمعظم ممدوحيه بأنهم يسيّرون مظاهر الكون المختلفة بإرادتهم.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٠. تتمثل قوّة سلطة الأمير بإرادة =

وَلَا كُـتْـبَ إِلَّا الـمَـشْـرَفِـيَّـةُ عِـنْـدَهُ
وَلَا رُسُـلٌ إِلَّا الْـخَـمِـيـسُ الْـعَـرَمْـرَمُ[(١)]

فَـلَـمْ يَـخْـلُ مِـنْ نَـصْـرٍ لَـهُ مَـنْ لَـهُ يَـدٌ،
وَلَـمْ يَـخْـلُ مِـنْ شُـكْـرٍ لَـهُ مَـنْ لَـهُ فَـمُ[(٢)]

وَلَـمْ يَـخْـلُ مِـنْ أَسْـمَـائِـهِ عُـودُ مِـنْـبَـرٍ
وَلَـمْ يَـخْـلُ دِيـنَـارٌ وَلَـمْ يَـخْـلُ دِرْهَـمُ[(٣)]

ضَـرُوبٌ وَمَـا بَـيْـنَ الْـحُـسَـامَـيْـنِ ضَـيِّـقٌ
بَـصِـيـرٌ وَمَـا بَـيْـنَ الـشُّـجَـاعَـيْـنِ مُـظْـلِـمُ[(٤)]

تُـبَـارِي نُـجُـومَ الْـقَـذفِ فـي كُـلِّ لَـيْـلَـةٍ
نُـجُـومٌ لَـهُ مِـنْـهُـنَّ وَرْدٌ وَأَدْهَـمُ[(٥)]

= فوقية، فإن أحبّ أن يُبقي أعداءه من ملوك الروم على عروشهم فعل، وإن لم يرغب في ذلك نحّاهم بقوّته فعزل من عزل وقتل من قتل، والكلّ محكوم بإرادته في كل حال.

(١) المشرفية: السيوف. الخميس: الجيش المؤلف من فرق خمسة. العرمرم: الكثير العدد. يُنوّه الشاعر بقوّة الأمير، فرسائله إلى أعدائه سريعة عمادها السيوف القواطع والجيش العظيم عدداً وعدّة، إنه أسرع وسيلة من الرسائل التي تأخذ وقتاً طويلاً ولذا كانت أفعل في قلوب أعدائه فيستسلمون لإرادته وينزلون عند رغبته وحكمه.

(٢) من طبيعة البشر أنهم يد مع المنتصر يتطوّعون إلى جانبه، لأنهم ينتصرون بنصره، ويتقوّون به، وهذا ما جعل الكثيرين ينضوون تحت لوائه ويكونون عوناً على أعدائه؛ وهو لكرمه وجوده وإحسانه لهجت الألسنة بالدعاء له والإشادة بأعماله العظيمة.

(٣) ولقد انتشر صيت إنجازات الأمير في البلاد، فإذا بالخطباء على منابرهم يُشيدون به ويمتدحون أعماله، وما يُمثل امتداد سلطانه في البلاد أن الدنانير والدراهم تُزين باسمه، وذلك راجع إلى غناه وقوّة سلطانه إلى جانب سلطان الخليفة العباسي.

(٤) يردف الشاعر متحدّثاً عن الأمير بأنه يُجيد القتال في حال اشتداده وتلاحم الخصمين بسيفيهما، والغبار قد حجب أشعة الشمس، وقد أظلمت الدنيا عليهما، فإذا بسيف الأمير قد سطع وقد غطته دماء الخصم، والخصم يشخب دماً.

(٥) تُباري: تسابق في نفس العمل. نجوم القذف: الشهب التي تُرمى بها الشياطين. =

يَـطَـأْنَ مِـنَ الأبْـطَـالِ مَـنْ لَا حَـمَـلْـنَـهُ،
وَمِـنْ قِـصَـدِ الْـمُـرَّانِ مَـا لَا يُـقَـوَّمُ (١)

فَـهُـنَّ مَـعَ الـسِّـيـدَانِ فـي الْـبَـرِّ عُـسَّـلٌ
وَهُـنَّ مَـعَ الـنِّـيـنَـانِ فـي الْـمَـاءِ عُـوَّمُ (٢)

وَهُـنَّ مَـعَ الْـغِـزْلَانِ فـي الْـوَادِ كُـمَّـنٌ،
وَهُـنَّ مَـعَ الْـعِـقْـبَـانِ فـي الـنِّـيـقِ حُـوَّمُ (٣)

= نجوم الأمير: خيوله. الورد: الحصان ما بين الأشقر والكميت. يصف الشاعر فرسان الأمير إنهم نجوم تتلألأ ضياءً، فالسيوف لديهم تتهاوى على رؤوس الأعداء كأنها شواظ من نار تلهب أجسادهم وتُودي بأرواحهم إلى النار، والخيول ما بين ورد وأدهم ولديهم تمرق كالسهام بسرعة البرق كأنها كواكب بضيائها في ليل حالك السواد.

(١) القِصد الواحدة قصدة: قطع الرماح إذا انكسرت. المران، الواحد مارن: الرماح الليّنة. يصف الشاعر تدفّق فرسان الأمير أثناء المعركة، فالخيل تطأ أجساد الأبطال القتلى لكثرتهم وقد غطّوا الأرض، فالرماح ما عادت لتمنع عنهم الموت وقد تكسّرت وتبعثرت في وسط المعركة، واللّين منها انطرح أرضاً مستسلماً لمصير بئيس، أما خيول القتلى من الأعداء، فقد استسلمت بدورها إلى الهزيمة، فإذا بها تقف كسيرة البال، آسفة على فرسانها، وكأنها في لحظة تأمّل بغرابة الموقف.

(٢) السيدان، الواحد سيد: الذئاب. عسل، الواحد عاسل: ضرب من عدو الذئاب وهو ما بين الإسراع والاضطراب. النينان، الواحد نون: الحيتان. يُردف الشاعر وصف ما كانت عليه خيول الأمير، إنها سريعة على اليابسة، وكأنها ذئاب تسابق الريح من كلّ مكان، وهي في البحر حيتان تمخر عباب اليمّ سريعة مرعبة، لا تعرف للخوف معنى.

(٣) الكمّن: مختبئات. العقبان، الواحد عُقاب: من الطيور الكاسرة. النيق: ذروة الجبل. الحوّم، الواحد حائم: الدائر في طيرانه. يُتابع الشاعر وصف ما كانت عليه خيول الأمير، إنها تختبئ في الأودية تتربّص بالأعداء لتُفاجئهم، وحتى لو كانوا يتمركزون في قمم الجبال، فإنها تحوم كأنها طيور كاسرة وعقبان سريعة الطيران والانقضاض، فلا يفلت عدوّ من قبضة الأمير لمضاء عزيمته وإصراره على القضاء على أعدائه، سواءٌ اتخذوا من الأودية ملجأ لهم أو من الجبال تحصيناً لهم، فهم في كلّ حال غنيمة سهلة تقع بين يديه.

إذا جَلَبَ النَّاسُ الْوَشِيجَ فَإِنَّهُ
بِهِنَّ وَفي لَبَّاتِهِنَّ يُحَطِّمُ (١)

بِغُرَّتِهِ في الْحَرْبِ وَالسِّلْمِ وَالْحِجَى،
وَبَذْلِ اللُّهَى وَالْحَمْدِ وَالمَجْدِ مُعْلِمُ (٢)

يُقِرُّ لَهُ بِالْفَضْلِ مَنْ لا يَوَدُّهُ،
وَيَقْضِي لَهُ بِالسَّعْدِ مَنْ لا يُنَجِّمُ (٣)

أَجَارَ عَلَى الأَيَّام حَتَّى ظَنَنْتُهُ
تُطَالِبُهُ بِالرَدِّ عَادٌ وَجُرْهُمُ (٤)

ضَلالاً لِهَذِي الرِّيحِ مَاذَا تُرِيدُهُ
وَهَدْياً لِهَذَا السَّيْلِ مَاذَا يُؤَمِّمُ (٥)

---

(١) الوشيج: شجر الرماح. اللبات، الواحدة لبّة: أعلى الصدر. يردف الشاعر وصف شدّة بأس الأمير وجيشه؛ فإن فرسانه يتلقّون الرماح بصدورهم ممّا يدلّ على شجاعتهم واستبسالهم، فتتكسر دونهم لأنها من شجر الوشيج، كما أنها تتكسر بأجناد الأعداء لشدّة طعن فرسان الأمير لأعدائهم.

(٢) الغرة: ما يبدو من الوجه. الحجى: العقل. اللهى: الواحدة لهية: الهبات. المُعلم: من أراد أن يتميّز في الحرب بعلامة يمتاز بها عمّن سواه ليعرف. يصف الشاعر ممدوحه وهو يُقاتل، إنه يُعرف من غرّته ونظرة وجهه في ميادين القتال، كما أنه يُعرف بقوّة عقله وذكائه المفرط، فضلاً عن جود لا يُوصف لعظمه ولا يُقارن بسواه، لذا فهو محمود في أفعاله التي تتّسم بالسمو والرفعة في كلّ حال.

(٣) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٧٦. يودّ: يُحبّ. ولشهامة الأمير في حروبه مع أعدائه يقرّون له بالفضل وسموّ أخلاقه ونبلها، ولدوام توفيقه في شتّى أعماله جعل الناس يحكمون له بطالع السعد الدائم وإن لم يكونوا ممّن يتعاملون بالتنجيم.

(٤) يُشيد الشاعر بأريحية وحميّة الأمير، إنه نعم المعين في الملمات ونزول الكوارث بالناس، فإذا به يهبّ لمساعدتهم وإقالتهم من عثراتهم فترتد إليهم أرواحهم، حتى إن عاداً وجرهماً تودّان من الأمير أن يُعيدهما إلى الحياة وقد طوتهم الأرض في أحضانها، وتوالت عليهم الدهور بأزمانها.

(٥) يدعو الشاعر بأن يضلّ الريح لمحاولته إعاقة جيوش الأمير في تقدّمهم ليُدركوا =

أَلَـمْ يَـسْـأَلِ الْـوَبْـلُ الَّـذِي رَامَ ثَـنْـيَـنَـا
فَـيُـخْـبِـرَهُ عَـنْـكَ الْـحَـدِيـدُ الْـمُـثَـلَّـمُ(١)
وَلَـمَّـا تَـلَـقَّـاكَ الـسَّـحَـابُ بِـصَـوْبِـهِ
تَـلَـقَّـاهُ أَعْـلَـى مِـنْـهُ كَـعْـبـاً وَأَكْـرَمُ(٢)
فَـبَـاشَـرَ وَجْـهـاً طَـالَـمَـا بَـاشَـرَ الْـقَـنَـا
وَبَـلَّ ثِـيَـابـاً طَـالَـمَـا بَـلَّـهَـا الـدَّمُ(٣)
تَـلَاكَ وَبَـعْـضُ الْـغَـيْـثِ يَـتْـبَـعُ بَـعْـضَـهُ
مِـنَ الـشَّـأْمِ يَـتْـلُـو الْـحَـاذِقَ الْـمُـتَـعَـلِّـمُ(٤)

= أعداءهم، حتى لا يُثنيهم ذلك عن أهدافهم، كما أنه دعا للسيل بالهداية، لأنه سرّ الغنى للبشر فيُوجّه حيث يُصلح أحوالهم، وهو كريم كالممدوح يُفيض عطاياه على العُفاة والأولياء سواء بسواء، فلا يستثني أحداً من جوده.

(١) الوبل: المطر الغزير. ثنينا: صرفنا. يُخاطب الشاعر ممدوحه مستغرباً أن الأمطار الغزيرة التي هطلت وأعاقت الجيش في مهمته وحالت دون تقدّمه ألم تسأل الأمير عن سبب حملته لكانت الإجابة من سيوف جيشه التي ثلّمها كثرة مقارعته الأعداء، وأن لا شيء يحول دون مقاصد الأمير، لا الأمطار ولا سواها من معوّقات تمنعه عن بلوغ مقصده، لعزمه الأكيد وإرادته القويّة.

(٢) الصوب: انسكاب المطر بغزارة. يُردف الشاعر حديثه منوّهاً بعلوّ كعب ممدوحه في الكرم، فقد كان ردّه على المطر المنهمر بغزارة الذي استقبله ردًّا ينمّ عن سموّ وجود لدى الممدوح أعلى ممَّا يتمثّل به المطر.

(٣) باشر العمل: تولّاه بنفسه، القنا: الرماح. يُردف الشاعر أن تلك الأمطار التي تلقّت الأمير وباشرت وجهه فلم تثنه عمَّا عزم عليه، فطالما باشر ذلك الوجه رماحاً تبغي هلكته فتلقَّاها بقلب صلب وعزيمة قويَّة فلم تنل منه، وأما تلك الأثواب التي بلّلها المطر، فقد كستها دماء الأعداء بلونها الأرجواني، لذا فالأمطار لا تردعه عمَّا أراد فعله.

(٤) تلاك: لحق بك. يُتابع الشاعر فكرته؛ لقد تبعك المطر الغزير علّه يتعلّم من الممدوح الفنون العظيمة في الجود، فالمطر يلحق مطراً مثله ليستفيد من علمه وحذقه في ما يشتركان به.

فَزَارَ الَّتي زَارَتْ بِكَ ٱلْخَيْلُ قَبْرَهَا
وَجَشَّمَهُ الشَّوْقُ الَّذِي تَتَجَشَّمُ [(١)]

وَلَمَّا عَرَضْتَ ٱلْجَيْشَ كَانَ بَهَاؤُهُ
عَلَى الْفَارِسِ الْمُرْخَى الذُّؤَابَةِ مِنْهُمُ [(٢)]

حَوَالَيْهِ بَحْرٌ لِلتَّجَافِيفَ مَائِجٌ
يَسِيرُ بِهِ طَرْدٌ مِنَ الْخَيْلِ أَيْهَمُ [(٣)]

تَسَاوَتْ بِهِ الْأَقْطَارُ حَتَّى كَأَنَّهُ
يُجَمِّعُ أَشْتَاتَ الجِبَالِ وَيَنْظِمُ [(٤)]

وَكُلُّ فَتًى لِلْحَرْبِ فَوْقَ جَبِينِهِ
مِنَ الضَّرْبِ سَطْرٌ بِالْأَسِنَّةِ مُعْجَمُ [(٥)]

---

(١) جشمه: كلّفه، يُخاطب الشاعر ممدوحه بأن المطر زار قبر والدته للتّبرّك وشدّة شوقه إليها، فكان اللقاء بينهما وبين القبر لقاءً حميماً رغم ما تجشّم كلّ منهما من مشقّات.

(٢) الذؤابة: ما أرسل من طرف العمامة بعد تكويرها. البهاء: الجمال. من عادة القائد أن يستعرض جنده ليستطلع أحوالهم ويكتشف استعداداتهم. ولقد استعرض سيف الدولة جيشه فكان بهاء هذا الجيش وجماله، رغم كثرة عدد الجند وشجاعتهم.

(٣) التجافيف، الواحد تجفاف: ما جال به الفارس من سلاح وآلة تقيه الجراح، وقد يرتديه الإنسان أيضاً. الطود: الجبل الشاهق العظيم. الأيهم: الذي لا يُهتدى فيه. يصف الشاعر مسير للأمير وسط جيشه من الفرسان، فقد شكّلوا منظراً بديعاً، فبدوْا جبلاً شامخاً وسط بحر هائج من أسلحة تُضاحك نور الشمس، ولكثرة تعرّجه وتشعّبه فلا يهتدى إلى طرقه. إنه موكب عظيم يتقدّمه أمير عظيم أيضاً.

(٤) الأشتات: المتفرّقة. جيش عرمرم سدّ الآفاق، فإذا به يسدّ الفرج بين تلك الجبال التي تشغل الصورة، فإذا بتلك الجبال تتقارب وتنتظم فتأتلف السهول والوديان مع تلك الجبال لكثرة الجيش عدّة وعدداً.

(٥) الأسنة: أطراف الرماح. الإعجام: التنقيط. يُتابع الشاعر رسم تلك الصورة، يُحيط الأمير جيش من الفتيان قد جرّبوا الحروب، فبدت جراحات على وجوههم؛ إنه صكّ البطولة، فإذا بآثار الضرب تبدو سطوراً ممتدّة بينما بدا الطعن إعجاماً لملحمة بطولية تُقرأ سطورها بحروف المجد والفخار للأمير وجيشه.

يَـمُـدُّ يَـدَيْـهِ فـي الـمُـفَـاضَـةِ ضَـيْـغَـمٌ
وَعَـيْـنَـيْـهِ مِـنْ تَـحْـتِ الـتَّـرِيـكَـةِ أَرْقَـمُ[1]

كَـأَجْـنَـاسِـهَـا رَايَـاتُـهَـا وَشِـعَـارُهَـا
وَمَـا لَـبِـسَـتْـهُ وَالـسِّـلَاحُ الْـمُـسَـمَّـمُ[2]

وَأَدَّبَـهَـا طُـولُ الـقِـتَـالِ فَـطَـرْفُـهُ
يُـشِـيـرُ إلـيْـهَـا مِـنْ بَـعِـيـدٍ فَـتَـفْـهَـمُ[3]

تُـجَـاوِبُـهُ فِـعْـلاً وَمَـا تَـعْـرِفُ الْـوَحَـى
وَيُـسْـمِـعُـهَـا لَـحْـظـاً وَمَـا يَـتَـكَـلَّـمُ[4]

تَـجَـانَـفُ عَـنْ ذَاتِ الْـيَـمِـيـنِ كَـأَنَّـهَـا
تَـرِقُّ لِـمـيَّـافَـارِقِـيـنَ وَتَـرْحَـمُ[5]

وَلَـوْ زَحَـمَـتْـهَـا بِـالْـمَـنَـاكِـبِ زَحْـمَـةً
دَرَتْ أَيَّ سُـورَيْـهَـا الـضَّـعِـيـفُ الْـمُـهَـدَّمُ[6]

---

(١) المفاضة: الدرع الواسعة. الضيغم: من أسماء الأسد. التريكة: البيضة من الحديد. الأرقم: الحيَّة الذكر، وهي من أخبث الحيَّات. يصف الشاعر الأمير وقد تسربل بالحديد، إنه يرتدي المفاضة تلك الدرع الواسعة لتسمح له بحرّية الحركة، فإذا حرّك يديه، فقد بدا أسداً فتكه عظيم في عدوّه، ومن مميّزاته أنه يبدو متيقّظاً كالحيَّة الرقطاء، لا يغفل عمَّا يدور في ميدان المعركة ينتظر اللحظة المناسبة ليقضي على عدوّه ويقطف ثمار النصر.

(٢) الشعار: العلامة في الحرب. المسمّم من الأسلحة: ما سُقي سمًّا، يُنوّه الشاعر بانتساب وأصالة تلك الخيول، إنها عربية الأصول والمنشأ، وليأتلف المنظر، فحتى السلاح والشارات والرايات والملابس عربية صناعة وشكلاً كذلك؛ وهذا من دواعي اعتزاز الشاعر بعروبته.

(٣) و (٤) الطرْف، بسكون الراء: النظر، يُردف الشاعر كلامه ليُتمّ الصورة لتلك الخيول؛ لقد أدّبها وربّاها طول خوضها الحروب، فتآلفت مع فرسانها، حتى كان بينها وبينهم تفاهم، لذا فتكتفي لمحة سريعة حتى تستجيب لرغبة فارسها وتأتمر بأمره، فيكفيها أن تلحظ حركته حتى دون أن تسمع صوته أو الوحى، ذلك الصوت الخفي الذي قد ينبعث من الفارس.

(٥) و (٦) التجانف: الميل. ميافارقين: بلد من أعمال ديار بكر. يتحدّث الشاعر عن =

عَـلَـى كُـلِّ طَـاوٍ تَـحْـتَ طَـاوٍ كَـأَنَّـهُ
مِنَ الـدَّمِ يُسْقَـى أَوْ مِـنَ الـلَّحْـمِ يُطْعَـمُ(١)

لَـهـا فِـي الْـوَغَـى زِيُّ الْـفَـوارِسِ فَـوْقَـهَـا
فَـكُـلُّ حِـصَـانٍ دَارِعٌ مُـتَـلَـثِّـمُ(٢)

وَمَـا ذَاكَ بُـخْـلاً بِـالـنُّـفُـوسِ عَـلَـى الْـقَـنَـا
وَلَـكِـنَّ صَـدْمَ الـشَّـرِّ أَحْـزَمُ(٣)

أَتَـحْـسَـبُ بِـيضُ الْـهِـنْـدِ أَصْـلَـكَ أَصْـلَـهَـا
وَأَنَّـكَ مِـنْـهَـا؟ سَـاءَ مَـا تَـتَـوَهَّـمُ(٤)

= سلوك تلك الخيول؛ إنها تتجانف أن تطأ أرض ميافارقين وتدوس ترابها لأنها تضمّ جدث والدة سيف الدولة. وتحتضن قبرها، فكيف لو أنها سارت بجانبها أو زاحمتها بمناكبها، أو لو زحمت ميافارقين الخيل بجدرها؟ عندئذٍ يتكشف لها أن أسوارها لا تستطيع مزاحمة تلك الخيول القوية، فلا بدّ لها والحالة هذه أن تنهار تلك الأسوار.

(١) الطاوي: الخميص الجوف. يُردف الشاعر وصفه لتلك الخيول تتميماً لرسم الصورة التي هي عليها. ثمّة فارس أنهكه الجوع، أخمص البطن يمتطي فرسه الضامرة يطلب الأعداء بلا خوف أو وجل يقتحم عليهم ديارهم فيمتصّ دماءهم ويأكل لحومهم، فحتى تلك الخيول تُشارك فرسانها في الاستماتة في طلب الأعداء رغم ضمورها وكأنها تتغذّى ذاتياً فتسقى من دمها وتأكل من لحمها، شأنها في ذلك شأن فرسانها.

(٢) و (٣) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٠. الوغى: الحرب. الدارع: الذي يلبس الدرع. يُتابع الشاعر وصف تلك الخيول، فقد حصَّنها فرسانها فألبسوها التجافيف مخافة إصابتها بسوء؛ فكل حصان ألبس درعاً ولثاماً أرسل على وجهه من حديد، ولقد تسربل الفرسان بالدروع الحديدية أيضاً، وليس ذلك جبناً، بل إنه احتراس، والاحتراس واجب شرعاً، ومقارعة الشرّ لا تكون إلّا بمقارعته، إنه من باب الحيطة والحذر، ومع ذلك، فالقضاء لا يردّه شيء.

(٤) تشابهت الأسماء، فالسيوف الهندية يسأل الشاعر إذا كانت تعتقد أن سيف الدولة مجبول من طبيعة حديدية، فرغم أنها جليلة الاحترام، إلّا أنها لا تقوم بنفسها بل بمن يستعملها، ثم إن مادتها حديدية لا تُحسّ ولا تعقل، وسيف الدولة على العكس من =

إِذَا نَـحْـنُ سَـمَّـيْـنَـاكَ خِـلْـنَـا سُـيُـوفَـنَـا
مِـنَ الـتِّـيـهِ فِـي أَغْـمَـادِهَـا تَـتَـبَـسَّـمُ[(١)]

وَلَـمْ نَـرَ مَـلْـكـاً قَـطُّ يُـدْعَـى بِـدُونِـهِ
فَـيَـرْضَـى وَلَـكِـنْ يَـجْـهَـلُـونَ وَتَـحْـلُـمُ[(٢)]

أَخَـذْتَ عَـلَـى الأَرْوَاحِ كُـلَّ ثَـنِـيَّـةٍ
مِـنَ الْـعَـيْـشِ تُـعْـطِـي مَـنْ تَـشَـاءُ وَتَـحْـرِمُ[(٣)]

فَـلَا مَـوْتَ إِلَّا مِـنْ سِـنَـانِـكَ يُـتَّـقَـى
وَلَا رِزْقَ إِلَّا مِـنْ يَـمِـيـنِـكَ يُـقْـسَـمُ[(٤)]

= ذلك إنسان اكتملت لديه معاني الإنسانية في أجلى صورها، إنه هو من يُمسك السيف بيده، وبيده يُصبح للسيف معنًى ووجود وفاعليَّة، ولو فكرت السيوف، والسيوف لا تعي، ولا تفكّر لكان وهمها باطلاً، لا أصل له من منطق.

(١) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢: ٣٢٢. يُخاطب الشاعر ممدوحه؛ فتسمية السيوف بالسيوف رفع لمعنويَّاتها لأنها شاركت الممدوح اسمه فتاهت وفخرت وتبسّمت لذلك لأنها شاركت عظيماً باسمها، فإذا بها تعتزّ بما لديها ممّا تتميّز به عن سائر أنواع السلاح، فابتسامتها تحمل فضلاً عن ذلك سخرية واحتقاراً لكل سلاح ممّا عداها.

(٢) يُخاطب الشاعر ممدوحه بأن الملوك يدعون بما يجسّدون من قيم وأخلاق، إنهم يتَّخذون من الألقاب على قدر مكانتهم وقدراتهم، لذا فليس كل منهم يستحقّ تسميته بسيف، والمشكلة أن الناس يجهلون قدر الممدوح، فيتندّرون إما حاسدين وإما جاهلين، فإذا بالممدوح يعفو ويغفر لهم جهلهم وزلّاتهم.

(٣) يروى «الأعداء» بدلاً من «الأرواح». الثنية: طريق العقبة. يذكر الشاعر سلوك الممدوح؛ فهو مع الأعداء قوي صلب لا يرحم، فقد سدّ على أعدائه طرق عيشهم وضيّق عليهم سبلها، فلا يستطيعون العيش بسلام، فقد أزال عن أجسادهم أرواحها، وهو في المقابل يُعطي من شاء من رعيته ويمنع من شاء أيضاً.

(٤) يُردف الشاعر بأن الموت بيد ممدوحه، فرمحه يفتك بمن أراد من عدوّه، ومن أراد الحياة، فعليه مسالمته فتُكتب له الحياة، وفي الجانب الآخر من سلوكه أنه يجود بماله، فيُمناه تُقسّم العطايا على مستحقيها بنفس طيبة وأريحيَّة مجبولة على الجود.

الخيل والليل والبيداءُ تعرفني

قال وقد جرى له خطاب مع قوم متشاعرين وظن الحيف عليه والتحامل:

[البسيط]

وَا حَـرَّ قَـلْـبَـاهُ مِـمَّـنْ قَـلْـبُـهُ شَـبِـمُ
وَمَـنْ بِـجِـسْـمِـي وَحَـالِـي عِـنْـدَهُ سَـقَـمُ (١)

مَـا لِـي أُكَـتِّـمُ حُـبًّـا قَـدْ بَـرَى جَـسَـدِي
وَتَـدَّعِـي حُـبَّ سَـيْـفِ الـدَّوْلَـةِ الأُمَـمُ؟ (٢)

إِنْ كَـانَ يَـجْـمَـعُـنَـا حُـبٌّ لِـغُـرَّتِـهِ
فَـلَـيْـتَ أَنَّـا بِـقَـدْرِ ٱلْـحُـبِّ نَـقْـتَـسِـمُ (٣)

قَـدْ زُرْتُـهُ وَسُـيُـوفُ الْـهِـنْـدِ مُـغْـمَـدَةٌ
وَقَـدْ نَـظَـرْتُ إِلَـيْـهِ وَالـسُّـيُـوفُ دَمُ (٤)

---

(١) ورد البيت في: شرح المفصل، لابن يعيش ١: ٤٤، التصريح بمضمون التوضيح، للشيخ خالد ٢: ١٨٣. شبم: بارد. يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع وجداني، حيث يظهر تأفّفه وألمه ممَّا يعانيه؛ فقلبه تلتهمه نيران الألم والغضب، وفي المقابل قلب بارد لا يهتمّ لأمره ولا يشعر بألمه، إنه مريض يُعاني عزلة نفسية في بلاط كلّ من فيه على علاقة سيّئة معه، وعلى رأس تلك الحاشية أميرهم وسيّدهم، فقد بردت مشاعره حتى تجمّدت نحو الشاعر.

(٢) أكتم: أخفي. برى: أنحل، أضنى. إنّها مكاشفة عن حقيقة مشاعر الشاعر نحو الأمير، فلا بدّ من تحديد معالم العلاقة بين كلّ منهما؛ فالشاعر يُخفي حبّه الصادق الخالص، بينما الآخرون يُظهرون حبًّا مُزيفاً فيه مراءة وخداع، ولطالما أضناه ذلك الحبّ الذي يعمل باستمرار على كتمانه.

(٣) الغرّة: الطلعة. الحبّ يتطلّب التكريس والإخلاص والصدق، فلو كان ذلك الحبّ القاسم المشترك بين المتنبي وسواه ممّن يدّعون حبّه ويهيمون بغرّته، لذا فإنه يتمنّى لو كانوا يقتسمون أفضاله وحبّه لهم في ما بينهم ليحوز الشاعر على القدر الأوفر والنصيب الأكبر.

(٤) يُنوّه الشاعر بدوره الإيجابي، فقد طالت صحبته للأمير زمناً، بحيث كان إلى جانبه في حروبه وشاركه انتصاراته وفرحه، في مختلف المناسبات، كما أنه كان إلى جانبه في السلم، فشاركه أفراحه وأتراحه. والحقّ أن فضل المتنبي على الأمير عظيم، فقد خلّد أعماله الحربية العظيمة في شعره، فكانت نبراساً يُقتدى في الشعر العربي.

فَـكَـانَ أَحْـسَـنَ خَـلْـقِ اللَّـهِ كُـلِّـهِـم
وَكَـانَ أَحْـسَـنَ مَـا فِـي الأَحْـسَـنِ الشِّـيَـمُ[(١)]

فَـوْتُ الْـعَـدُوِّ الّـذِي يَـمَّـمْـتَـهُ ظَـفَـرٌ
فِـي طَـيِّـهِ أَسَـفٌ فـي طَـيِّـهِ نِـعَـمُ[(٢)]

قَدْ نَـابَ عَنْكَ شَدِيدُ الْخَوْفِ وَاصْطَنَعَتْ
لَـكَ الْـمَـهَـابَـةُ مَـا لَا تَـصْـنَـعُ الْـبُـهَـمُ[(٣)]

أَلْـزَمْـتَ نَـفْـسَـكَ شَـيْـئـاً لَـيْـسَ يَـلْـزَمُـهَـا
أَنْ لَا يُـــوَارِيَـــهُـــمْ أَرْضٌ وَلَا عَـــلَـــمُ[(٤)]

أَكُـلَّـمَـا رُمْـتَ جَـيْـشـاً فَـانْـثَـنَـى هَـرَبـاً
تَـصَـرَّفَـتْ بِـكَ فِـي آثَـارِهِ الْـهِـمَـمُ؟[(٥)]

---

(١) الشيم، الواحدة شيمة: الأخلاق. أثنى الشاعر على الأمير بأنه ذو خلق رفيع سما به إلى المعالي في سائر أحواله، ولا بدّ من توفّر من يُشيد بتلك الشيم الرفيعة وبخاصّة في حالات التحوّلات الخطيرة في تاريخ الأمة كالفترة المضطربة التي عاصرها المتنبي والأمير.

(٢) و (٣) يمّم: يقصد. الأسف: الحزن. يذكر الشاعر حرص الأمير على ملاحقة أعدائه من ملوك الروم، فأحد هؤلاء استطاع الفرار والنجاة بنفسه وجيشه، ولا بدّ أن يُثير ذلك أسف الأمير فقد فاتته الفرصة للتخلّص من عدوّ ماكر؛ ويرى الشاعر أن في فرار هذا الجبان توفير مؤنة على الأمير وجيشه بحيث لم يُكلّف ذلك مشقة فحفظ أرواحاً وتلافى خسائر، فكانت النعم الإلهية، لأن هيبة الأمير وقوّة سطوته أرعبت عدوّه فآثر الحياة على الموت وارتحل لشدّة خوفه؛ فكانت هيبته أشدّ مضاضةً في نفوس أعدائه وأبطاله البهم الذين فاقت شجاعتهم كلّ جند عدوّ الأمير.

(٤) يواريهم: يسترهم. العلم: الجبل. يُردف الشاعر مخاطباً الأمير أنه ألزم نفسه بملاحقة أعدائه حيثما حلّوا في الجبل والأرض، فلا مفرّ أو ملجأ يحميهم من سطوته، وظهوره عليهم أمر طبيعيّ، ولا يكفي أن يتركهم أحياء، فعليه أن يُعمل فيهم قتلاً وسفك دماء.

(٥) رمت: طلبت. انثنى: ارتدّ. ينوّه الشاعر بعادة اتبعها الأمير مع أعدائه، فلا تكفيه هزيمتهم والوقوع بقبضته بهمته وإصراره على النيل منهم، مهما حاولوا الهرب =

عَـلَـيْـكَ هَـزْمُـهُـمْ فِـي كُـلِّ مُـعْـتَـرَكٍ
وَمَـا عَـلَـيْـكَ بِـهِـمْ عَـارٌ إِذَا انْـهَـزَمُـوا[(١)]

أَمَـا تَـرَى ظَـفَـراً حُـلْـواً سِـوَى ظَـفَـرٍ
تَـصَافَـحَـتْ فِـيهِ بِـيضُ الْـهِـنْـدِ وَالـلِّـمَـمُ[(٢)]

يَـا أَعْـدَلَ الـنَّـاسِ إِلَّا فِـي مُـعَـامَـلَـتِـي
فِـيكَ الْـخِـصَامُ وَأَنْـتَ الْـخَـصْـمُ وَالْـحَـكَـمُ[(٣)]

أُعِـيـذُهَـا نَـظَـرَاتٍ مِـنْـكَ صَـادِقَـةً
أَنْ تَـحْـسِـبَ الـشَّـحْـمَ فِـي مَـنْ شَـحْـمُـهُ وَرَمُ[(٤)]

= والتخفي، بل إنه يزيد بطشاً وعنفاً، لذا فإن حسبه أن يُوقع بهم لا أن يُعمل فيهم قتلاً، وهذا يكفيه فخراً.

(١) المعترك: ميادين المعركة. يُردف الشاعر متمًّا فكرته أنه تكفيه هزيمتهم إذا التقى بهم في ساحة المعركة، ولا لوم عليه لأنهم هم الذين جرّوا على أنفسهم المصير المحزن، وفي حال فرارهم يجرّون معهم هزيمتهم خوفاً من بطشه ليلحقوا بديارهم، فعليه ألّا يُحسّ بالندم.

(٢) بيض الهند: السيوف المصنوعة في بلاد الهند. اللمم، الواحدة لمّة: الشعر الذي ألَمّ بالمنكب. يركّز الشاعر على مفهوم النصر لدى الأمير، فلا يكفيه أن ينتصر على عدوّه، بل من متمّمات النصر ومستلزماته الإمعان في قتل أعدائه بإعمال سيوف جنوده برؤوس أولئك الأعداء حتى تتمّ فرحته بخلاصه منهم، وإلّا فالنصر يكون ناقصاً غير تامّ.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٦. يستحضر الشاعر مشكلته أمام الأمير، فالأمير عادل، وعدله مطلق يسود سائر الرعيّة، ولكنّه الآن يلجأ إلى الظلم، ويتمثّل ذلك في معاملة الشاعر، والمتظلّم، عادة، يشكو ظالمه إلى من هو فوقه وبيده ردّ المظالم إلى أصحابها، لذا فإنه يستعدي الأمير على الأمير لينتصف منه لنفسه.

(٤) يتوسّم الشاعر بالأمير حسن الحكم، إنه ذو نظرات صائبة تنمّ عن ذكاء حادّ ورأي ثاقب ومعرفة ببواطن الأمور؛ فالظواهر قد تخدع لأول وهلة، والنظرة العجلى تنمّ عن تسرّع وفساد رأي، فالورم لا يعني شحماً وسمنة، بل إنه يعني مرضاً دفيناً وموتاً أكيداً.

وَمَـا انْـتِـفَـاعُ أَخِـي الـدُّنْـيَـا بِـنَـاظِـرِهِ
إِذَا ٱسْـتَـوَتْ عِـنْـدَهُ الأَنْـوَارُ وَالـظُّـلَـمُ؟[1]

سَـيَـعْـلَـمُ الـجَـمْـعُ مِـمَّـنْ ضَـمَّ مَـجْـلِـسُـنَـا
بِـأَنَّـنِـي خَـيْـرُ مَـنْ تَـسْـعَـى بِـهِ قَـدَمُ[2]

أَنَـا الَّـذِي نَـظَـرَ الأَعْـمَـى إِلَـى أَدَبِـي
وَأَسْـمَـعَـتْ كَـلِـمَـاتِـي مَـنْ بِـهِ صَـمَـمُ[3]

أَنَـامُ مِـلْءَ جُـفُـونِـي عَـنْ شَـوَارِدِهَـا
وَيَـسْـهَـرُ الْـخَـلْـقُ جَـرَّاهَـا وَيَـخْـتَـصِـمُ[4]

---

(١) يُردف الشاعر رأيه في كشف بواطن الأمور في مدعاه؛ فالنظر حاسة معرفة وعلم يكاد يكون يقينيًا، والانتفاع بهذه الحاسّة ضروري وذلك في حال اشتباه الأمور على المرء يرجع إليها عند الحاجة ليتبيّن له الحقّ من الباطل وتنجلي الأمور على حقيقتها؛ فالنور هداية والظلمة عمًى، والفرق بينهما جليّ للعيان، ولا يستويان في نظر اللبيب الأريب.

(٢) انفلت الغضب لدى الشاعر، فإذا به يتخلّى عن حذره في حضرة الأمير ويلجأ إلى التبجّح والفخر الممجوج في مجلس يحتوي خيرة رجالات العصر آنئذٍ، إنه أفضل من في ذلك المجلس حزماً وذكاءً وعلماً وشاعرية، فكلّ أبواب ذوي السلطان مفتوحة في وجهه حيثما ارتحل وحلّ.

(٣) ومن مغالاة الشاعر في فخره أن العمى فقد طبيعته لدى صاحبه، فإذا بشعر المتنبي يُفتّح مغاليق عينيه ويُبصر عظمة ذلك الشعر، وحتى الأصمّ الذي فقد حاسّة المعرفة لديه تفتّقت مغاليق أذنيه، فاخترقتها بلاغة شعر المتنبي فأيقظت ما كان نائماً في أحضان جهل أمثال هؤلاء، وإذا كان أثر شعره بأمثال هؤلاء، فكيف يكون أثره في من يُبصر ويسمع؟

(٤) الشوارد: النافر من كل شيء، فلا يخطر ببال، الاختصام: التجاذب بعنف. يُنوّه الشاعر بقدرته العجيبة في الإنشاد، فالأمر لديه سهل يأتيه بلا إعمال فكر، كأنه ينبوع يفيض بلاغة وحكمة خلاف غيره ممّن يدّعون بأنهم شعراء؛ فهم يسهرون ويُعملون أفكارهم ويتعبون، ويتخاصمون، فكل منهم يدّعي القدرة على الشعر، فتأتيه الأبيات أرسالاً.

وَجَـاهِـلٍ مَـدَّهُ فِـي جَـهْـلِـهِ ضَـحِـكِـي
حَـتَّـى أَتَـتْـهُ يَـدٌ فَـرَّاسَـةٌ وَفَـمُ[١]

إذَا رَأَيْـتَ نُـيُـوبَ الـلَّـيْـثِ بَـارِزَةً
فَـلَا تَـظُـنَّـنَّ أَنَّ الـلَّـيْـثَ يَـبْـتَـسِـمُ[٢]

وَمُـهْـجَـةٍ مُـهْـجَـتِـي مِـنْ هَـمِّ صَـاحِـبِـهَـا
أَدْرَكْـتُـهَـا بِـجَـوَادٍ ظَـهْـرُهُ حَـرَمُ[٣]

رِجْـلَاهُ فِـي الـرَّكْـضِ رِجْـلٌ وَالْـيَـدَانِ يَـدٌ
وَفِـعْـلُـهُ مَـا تُـرِيـدُ الْـكَـفُّ وَالْـقَـدَمُ[٤]

---

(١) مدّه: أهمله. فرّاسة: بطّاشة. يعرض الشاعر سياسته التي يتّبعها مع سواه من الشعراء؛ فمن تعاليه تجاهله لمن يعتبره جاهلاً في الصناعة الشعرية ويتوهّم أنه ينطبق عليه مفهوم مصطلح شاعر، وفي لحظة لم يحسب لها حساباً تأتيه صفعة العدم ممّن تمرّس في عالم الشعر والنبوغ فتقضي عليه فتُردي به في عالم النفايات.

(٢) وردت الأبيات الثلاثة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٦. يروى «نظرت» بدلاً من «رأيت». الليث: من أسماء الأسد. يُردف الشاعر قوله أن نظر الجاهل قد يخدعه لقلّة فطنته وغبائه أن يظنّ تكشيرة الأسد عن أنيابه تبسماً، إنه في حقيقة الأمر استعداد للانقضاض والافتراس، لجأ الشاعر إلى تمثيل حالته مع الجهلة الذين تخدعهم نظراته، فإنها تُبطن غير ما تُظهر من ازدراء وتعالٍ واحتقار.

(٣) المهجة: الروح. الجواد: الفرس الكريم. الحرم: ما يجتنب انتهاكه. نظرة العداء هي التي تتحكّم بمشاعر الشاعر وأحاسيسه، فقد جعل لنفسه حسّاداً وأعداءً بمسلكه المتعالي، ولا ريب أن بعض هؤلاء يودّ الانتهاء منه بأيّة وسيلة ممكنة، ومنهم من يسعى إلى قتله جاهداً. فما كان من الشاعر إلّا أن سارع إلى مبادرته بعدائه فقضى عليه وهو يمتطي جواداً لا يقدر أحد على امتطائه، وقد تحكّم الشاعر من متنه، ممّا يدلّ على فروسيته وقوّته.

(٤) يصف الشاعر فرسه في عدوه، فرجلاه في الركض كأنهما رجل واحدة، فهو يرفعهما معاً ويضعهما معاً، وكذلك الأمر بيديه. وهو رهن أمر فارسه في كلّ ما يطلبه منه في المعارك والصيد وسواهما.

وَمُرْهَفٍ سِرْتُ بَيْنَ الْجَحْفَلَيْنِ بِهِ
حَتَّى ضَرَبْتُ وَمَوْجُ الْمَوْتِ يَلْتَطِمُ(١)

أَلْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي
وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ(٢)

صَحِبْتُ فِي الْفَلَوَاتِ الْوَحْشَ مُنْفَرِداً
حَتَّى تَعَجَّبَ مِنِّي الْقُورُ وَالْأَكَمُ(٣)

---

(١) المرهف: السيف الرقيق الشفرتين. الجحفل: الجيش اللجب العظيم. يُشيد الشاعر بقوّته وشجاعته، فقد امتلك سيفاً رقيق الشفرتين يضرب به كيفما اتّفق له، وهو يمرق مروق السهم بين جيشين عظيمين، وقد التحما، وقامت الحرب على أشدّها، وهو يمعن قتلاً وسفكاً بالأعداء غير هيّاب، ونشوة النصر تشدّ من عزيمته.

(٢) ورد البيت في شذور الذهب، لابن هشام: ١٥. يروى «فالخيل» بدلاً من «الخيل». ويروى «تشهد لي» بدلاً من «تعرفني». ويروى «الضرب والطعن» بدلاً من «السيف والرمح». البيداء: المفازة، الفلاة. القرطاس: الصحيفة. يعدّد الشاعر ميادين تفوّقه على من سواه، لقد كان فارساً عظيماً، عالماً بفنون الفروسية، ذا خبرة بطبيعة الخيول، والمعرفة مشتركة بينه وبينها. ولقد عرفه الليل، إنه يسري في وحشته وظلمته، حيث لا أنيس ولا رفيق، والمفازة تمتدّ وتمتدّ والوحوش الكاسرة تتربص بأي شيء يتحرّك لتفترسه، ولطول الصحبة بينها وبين الشاعر نشأت صداقة وتحوّل الاستيحاش إلى تآلف ومعرفة، وحتى العتاد الحربي من سيوف ورماح لطالما استعملهما فكانا خير حام ومساعد فرّج كربته وقت الأزمات، أما العلم فحدّث عنه ولا حرج، لقد اقتطف منه الشيء الكثير، فالتراث الشعري منذ الجاهلية حتى أبي تمام نهل منه، فضلاً عن معرفته لتاريخ العرب كذلك، كما أنه كان على علم ببعض العلوم الدخيلة، مع تركيزه على شيء من فلسفة اليونان في الأمثال والحكم، بلا ريب فإنّ رصيد الشاعر كبير في هذا المجال.

(٣) الفلوات، الواحدة فلاة: القفار الموحشة. القور، الواحدة قارة: أصاغر الجبال وأعاظم الآكام. يُنوّه الشاعر بجرأته، لقد اعتاد على الأسفار في رحلة الغنى، فإذا به يخترق الآفاق وحيداً، بلا مؤنس سوى الطبيعة بقسوتها، حيث تآلف مع وحوش الفلوات، فاستفاقت القور والآكام متعجّبة من جسارته، فقلّما أحست بوجود آدمي في جنباتها وأركانها.

يَـا مَـنْ يَـعِـزُّ عَـلَـيْـنَـا أَنْ نُـفَـارِقَـهُـمْ
وِجْـدَانُـنَـا كُـلَّ شَـيْءٍ بَـعْـدَكُـمْ عَـدَمُ (١)

مَـا كَـانَ أَخْـلَـقَـنَـا مِـنْـكُـمْ بِـتَـكْـرِمَـةٍ
لَـوْ أَنَّ أَمْـرَكُـمُ مِـنْ أَمْـرِنَـا أَمَـمُ (٢)

إنْ كَـانَ سَـرَّكُـمُ مَـا قَـالَ حَـاسِـدُنَـا
فَـمَـا لِـجُـرْحٍ إذَا أَرْضَـاكُـمُ أَلَـمُ (٣)

وَبَـيْـنَـنَـا لَـوْ رَعَـيْـتُـمْ ذَاكَ مَـعْـرِفَـةٌ
إنَّ الـمَـعَـارِفَ فِـي أَهْـلِ الـنُّـهَـى ذِمَـمُ (٤)

---

(١) ورد البيتان الأولان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٦. يُخاطب الشاعر الأمير بعد هذا التباهي والفخر ملمحاً إلى أمر يلوح في أفق حياته؛ إنه الافتراق بعد رحلة الاطمئنان والاستقرار في كنف الأمير، فقد نعم بعطاياه ورفده وحمايته، وهذا ما يجعله يتردّد باتّخاذ قرار خطير في حياته، وهو في داخلة نفسه على يقين أنه في حال رحيله لن يهدأ له بال، ومن هنا كان تردّده.

(٢) الأمم: القريب. يستثير الشاعر في نفس الأمير داعي الكرم والحبّ اللذين يتمتّع بهما نحوه، إنه يستحقّ ذلك منه بكرمه. والحقّ أن اسم المتنبي قد ارتبط باسم سيف الدولة، رغم كثرة ممدوحي المتنبي، والمشكلة في منتهى البساطة، وتناولها قريب لا يُكلّف الأمير شيئاً سوى الرعاية والودّ.

(٣) ورد البيتان المتواليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٧. يُخاطب الشاعر الأمير، فسروره بسبب مقالة حاسد يُشنّع على الشاعر في أقواله ممّا أضحك الأمير وحمله على السخرية منه، فضلاً عن جرح أصابه فسال دمه، ومع ذلك بقي الشاعر متماسكاً يتابع إنشاده، فالمهمّ بالنسبة إليه سرور الأمير، والجرح بسيط لا ألم له عند الشاعر. وهذا بلا شكّ يدل على رباطة جأش المتنبي وتخطيه حالات حرجة مماثلة.

(٤) النهى: الواحدة نهية: العقول. الذمم: العهود. يركّز الشاعر على إثارة نخوة الأمير؛ فالحبّ يربطه بالأمير، وهو يُخلص الحبّ له، والمعرفة التي طال أمدها بينهما تكشف حقيقة الشاعر ومدى إخلاصه، والأمير لا تنقصه المعرفة، فهو الخبير بطبيعة البشر، وبإمكانه أن يرجع إلى عقله ويُفكّر ملياً، وبذلك لن يضيّع ما سلف من ودّ وحب في حال فكر بعواقب الأمور.

كَـمْ تَـطْـلُـبُـونَ لَـنَـا عَـيْـبـاً فَـيُـعْـجِـزُكُـمْ
وَيَـكْـرَهُ الـلَّـهُ مَـا تَـأْتُـونَ وَالْـكَـرَمُ[(١)]

مَـا أَبْـعَـدَ الْـعَـيْـبَ وَالْـنُّـقْـصَـانَ عَـنْ شَـرَفِـي
أَنَـا الـثُّـرَيَّـا وَذَانِ الـشَّـيْـبُ وَالْـهَـرَمُ[(٢)]

لَـيْـتَ الْـغَـمَـامَ الّـذِي عِـنْـدِي صَـوَاعِـقُـهُ
يُـزِيـلُـهُـنَّ إِلَـى مَـنْ عِـنْـدَهُ الـدِّيَـمُ[(٣)]

أرَى الـنّـوَى تَـقْـتَـضِـيـنـي كـلَّ مَـرْحَـلَـةٍ
لَا تَـسْـتَـقِـلُّ بِـهَـا الْـوَخَّـادَةُ الـرُّسُـمُ[(٤)]

لَـئِـنْ تَـرَكْـنَ ضُـمَـيْـراً عَـنْ مَـيَـامِـنِـنَـا
لَـيَـحْـدُثَـنَّ لِـمَـنْ وَدَّعْـتُـهُـمْ نَـدَمُ[(٥)]

---

(١) يُخاطب الشاعر حاشية الأمير ممّن كان يعتقد أنهم يتعقّبون سقطاته ليعيبوا عليه ذلك، ولكن اللّه عزّ وجلّ جعله مبرّأً من كلّ عيب، فضلاً عن كرم أخلاقه التي تحول بينه وبين وقوعه في السقطات المعيبة.

(٢) ورد البيتان المتتاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٧. ينفي الشاعر عن نفسه النقصان، ويتجسّد فيه الكمال الإنساني المطلق، لذا فإنه يبعد عن النقصان والعيب كما يبعد عن الثريا ذلك النجم الذي يتربّع في عرش السماء وبين الشيب رمز العجز والهرم رمز النهاية المفجعة لبني البشر.

(٣) الغمام: السحب المليئة بالمطر. الصواعق، الواحدة صاعقة: الموجات النارية التي تصحب الرعد الشديد. الديم، الواحدة ديمة: المطر الدائم الهادئ. يتمنّى الشاعر على الأمير الجواد الذي يرميه بصواعقه النارية المهلكة أن يحوّلها إلى من عنده ممّن ينعمون برفده وبرّه فيستوي الفريقان في العدالة والنصفة.

(٤) النوى: البعد. تقتضيني: تطلب منّي. الوخد والرسم: ضربان من السير. يُعلّل الشاعر أسباب تردّده في ما سيُقدم عليه؛ مراده رحلة بعيدة المدى تتطلّب منه جهداً عنيفاً ووقتاً عظيماً، وتحتاج إلى إبل شديدة تقطع المسافات بسرعة فتؤثر في الأرض بأخفافها لسرعتها الفائقة.

(٥) ضمير: جبل عن يمين الراحل من بلاد الشام إلى مصر قرب دمشق. يبدو أن الشاعر قد صمّم على مغادرة بلاط سيف الدولة، ومن الجائز أنه كان على اتّصال بكافور، =

إِذَا تَــرَحَّــلْــتَ عَــنْ قَــوْمٍ وَقَــدْ قَــدَرُوا
أَنْ لَا تُــفَــارِقَــهُــمْ فَــالــرَّاحِــلُــونَ هُــمُ(١)

شَــرُّ الْــبِــلَادِ مَــكَــانٌ لَا صَــدِيــقَ بِــهِ
وَشَــرُّ مَــا يَــكْــسِــبُ الإِنْــسَــانُ مَــا يَــصِــمُ(٢)

وَشَــرُّ مَــا قَــنَــصَــتْــهُ رَاحَــتِــي قَــنَــصٌ
شُــهْــبُ الْــبُــزَاةِ سَــوَاءٌ فِــيــهِ والــرَّخَــمُ(٣)

بِــأَيِّ لَــفْــظٍ تَــقُــولُ الــشِّــعْــرَ زِعْــنِــفَــةٌ
تَــجُــوزُ عِــنْــدَكَ لا عُــرْبٌ وَلَا عَــجَــمُ(٤)

= لذا راح يُهدّد سيف الدولة بتركه يندم على مفارقته إذا ترك جبل ضير عن يمينه متّجهاً إلى مصر، وجهته العتيدة المأمولة.

(١) يُخاطب الشاعر سيف الدولة ذاكراً سبب ارتحاله، فبيد الأمير الأمر فباستطاعته أن يُبقي على شاعره بإعادة اعتباره وتكريمه وإزالة الظلم عنه، فإن فعل يكون قد صان وجهه وامتنعت حجة الشاعر وإلّا فكأنه قد غادر نفسه بارتحال الشاعر عنه. ولا ريب أن الأمير أحسّ بفداحة ما ارتكب من خطأ.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٧. يصم: يعيب. في ساعات الحرج يُفتّش المرء على صديق صدوق يبثّه لواعج نفسه ويكشف له عن دفائن روحه، وفي حال عدم وجود نموذج كهذا فالأوجب الارتحال عن بلاد ليس فيها صديق ودود، وفي هذه الحالة يفقد المال سحره في القلوب، فرغم كثرة ما حصل عليه الشاعر من هبات وعطايا أسبغها عليه الأمير بهت بريقها حتى كاد أن يختفي كليًّا في تلك اللحظة، فقد انقلب عيباً.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٧. الشهب، الواحد أشهب: هو ما فيه بياض يُخالطه سواد. البزاة، الواحد باز: ضرب من جوارح الطير. الرخم، الواحد رخمة. يُخاطب الشاعر سيف الدولة أن من سوء حظّه أنه كان صيداً تساوت فيه البزاة التي تمتاز بالنبل رغم أنها من الجوارح الصيّادة بالرخم تلك الطيور التي تمتاز بلؤم الطباع وشراستها ودناءتها، فقد عامل الأمير سائر شعرائه معاملة متساوية، ولم يُميّز المتنبي عمّن سواه منهم.

(٤) الزعنفة: الساقط اللئيم من الناس. يسأل الشاعر مستنكراً على شعراء الأمير، إنهم ليسوا عرباً أقحاحاً، لذا فليست لهم بلاغة العرب وفصاحتهم إنهم من الأعاجم =

هٰـــذَا عِـــتَـــابُـــكَ إلَّا أَنَّـــهُ مِـــقَـــةٌ
قَـــدْ ضُـــمِّـــنَ الـــدُّرَّ إلَّا أنَّـــهُ كَـــلِـــمُ(١)

كريم الكرام

أرسل شاعر إلى الأمير أبياتاً يذكر فيها فقره ويزعم أنه رآها في النوم، فقال أبو الطيب:

[الخفيف]

قَـــدْ سَـــمِـــعْـــنَـــا مـــا قُـــلْـــتَ فِـــي الأحْـــلَامِ
وأَنَـــلْـــنَـــاكَ بَـــدْرَةً فِـــي الْـــمَـــنَـــامِ(٢)

وانْـــتَـــبَـــهْـــنَـــا كَـــمَـــا انْـــتَـــبَـــهْـــتَ بِـــلَا شَـــيْ
ءٍ وَكَـــانَ الـــنَّـــوَالُ قَـــدْرَ الْـــكَـــلَامِ(٣)

كُـــنْـــتَ فِـــي مَـــا كَـــتَـــبْـــتَـــهُ نَـــائِـــمَ الْـــعَـــيْـــ
نِ فَـــهَـــلْ كُـــنْـــتَ نَـــائِـــمَ الأقْـــلَامِ(٤)

أيُّـــهَـــا الْـــمُـــشْـــتَـــكِـــي إذَا رَقَـــدَ الإعْـــ
دَامَ لَا رَقْـــدَةٌ مَـــعَ الإعْـــدَامِ(٥)

= الأوباش، لذا فهم لا يحسنون الإنشاد، كما أنهم يفتقدون إلى ملكة شعرية سليمة من العجمة، لذا فهم لا يُساوون شيئاً.

(١) المقة: المحبَّة. يُنهي الشاعر قصيدته ببيت يحمل شيئاً من الاعتذار المهذّب، إنه عتاب، والعتاب في كلام ودّ، فيه من الصراحة الشيء الكثير، وبذا يتمّ غسل القلوب بعبير الصدق ولون المحبَّة، وقد صاغه الشاعر درًّا يُزيّن به قصيدته بنظم بديع وأسلوب بليغ.

(٢) و(٣) البدرة: ألف دينار أو عشرة آلاف درهم. يسخر الشاعر ممن زعم أنه أنشأ قصيدته في المنام ليمدح سيف الدولة، وقد سمع المتنبي كلاماً لا يدلّ على أنه شعر، والمتنبي ينقد الشعر نقد عليم خبير، فإذا بما سمع لا يُساوي شيئاً، فإذا به يُنعم عليه ببدرة من المال في المنام، وبذلك كانت جائزته حلماً كادّعائه، وفجأة كانت صحوة، فإذا بالجائزة تُساوي الكلام المبتذل.

(٤) يُردف الشاعر بسخرية مؤلمة أن المسكين قد أنشأ قصيدته الرديئة فإذا بخطّه الرديء، فيسأله هل كتب قصيدته وهو في حال نوم؟

(٥) الإعدام: سوء الحال والفقر المدقع. يُخاطب الشاعر من يُصاحبه سوء الحال والفقر =

إِفْتَحِ الْجَفْنَ وَٱتْرُكِ الْقَوْلَ فِي النَّوْ
مِ وَمَيِّزْ خِطَابَ سَيْفِ الأَنَامِ[١]

أَلَّذِي لَيْسَ عَنْهُ مُغْنٍ وَلَا مِنْـ
ـهُ بَدِيلٌ وَلَا لِمَا رَامَ حَامِ[٢]

كُلُّ آبَائِهِ كِرَامُ بَنِي الدُّنْـ
ـيَا وَلَكِنَّهُ كَرِيمُ الْكِرَامِ[٣]

إذا سلمت سلم الناس

قال وقد عوفي سيف الدولة مما كان به:

[البسيط]

أَلْمَجْدُ عُوفِيَ إِذْ عُوفِيتَ وَالْكَرَمُ
وَزَالَ عَنْكَ إِلَى أَعْدَائِكَ الأَلَمُ[٤]

صَحَّتْ بِصِحَّتِكَ الْغَارَاتُ وَٱبْتَهَجَتْ
بِهَا الْمَكَارِمُ وٱنْهَلَّتْ بِهَا الدِّيَمُ[٥]

= كيف استطاع النوم وهو على هذه الحالة من البؤس وكيف استطاع الفقر أن ينام إلى جانبه.

(١) الأنام: الخلق. ينعى الشاعر على هذا المسكين عدم معرفته بسيف الدولة، إنه الأمير، فلا يمكن أن يُخاطب مخاطبة سائر العامة، فلا بدّ للمادح من الارتفاع إلى مستوى ممدوحه ليكون الشاعر قاصداً مدحه بما يليق به ويستحقّه.

(٢) يمدح المتنبي سيف الدولة، وهو ينبّه ذلك المسكين إلى ما يجب في حق الأمير، إنه واحد بذاته لا يمكن أن يحلّ غيره محلّه ولا يقوم مقامه، يعمّ فضله البشر، وهو عظيم القدر، وبإمكانه أن يفعل ما يشاء، بيده قدرة نافذة مع أقرانه من الملوك والأمراء.

(٣) يلتفت الشاعر إلى أجداد الأمير، إنهم كرام توارثوا النبل والسيادة أجيالاً متلاحقة، فكانوا أكرم البشر، والأمير أكرم آل بيته، فهو أكرم أهل زمانه.

(٤) و (٥) ورد البيتان الأولان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٣. يُخاطب الشاعر الأمير بفرح، فقد عادت إليه العافية، فإذا بالمجد يستردّ قُواه، فالمجد يستمدّ وجوده من وجود الأمير، حتى الكرم يعود إليه بهاؤه بعودة صحة الأمير؛ وهذا ما يجعل =

وَرَاجَعَ الشَّمْسَ نُورٌ كَانَ فَارَقَهَا
كَأَنَّمَا فَقْدُهُ فِي جِسْمِهَا سَقَمُ[(١)]

وَلَاحَ بَرْقُكَ لِي مِنْ عَارِضَيْ مَلِكٍ
مَا يَسْقُطُ الْغَيْثُ إلّا حَيْثُ يَبْتَسِمُ[(٢)]

يُسْمَى الْحُسَامَ وَلَيْسَتْ مِنْ مُشَابَهَةٍ
وَكَيْفَ يَشْتَبِهُ الْمَخْدُومُ وَالْخَدَمُ[(٣)]

تَفَرَّدَ الْعُرْبُ فِي الدُّنْيَا بِمَحْتِدِهِ
وَشَارَكَ الْعُرْبَ فِي إحْسَانِهِ الْعَجَمُ[(٤)]

= أعداء الأمير في غيظ بعدما هلّلوا وانشرحت صدورهم بمرضه، فإذا بهم ينتظرون مباغتته لهم بالغارات، فيعمّ ديارهم الدمار والموت والخراب، وفي المقابل ذلك دبّت الحياة في أوصال المكارم في الكون فإذا بالأمطار تنهال مبشّرة بانتصارات على الروم وبعودة أمل متجدّد مع استرجاع الأمير عافيته.

(١) ثمّة رباط بين الشمس وما تمثل من دفء ونور وعطاء، فإذا بها تبدو كليلة، فلم تُشارك الناس ما هم فيه، فإذا بهم يتأثرون بما حدث للأمير وانعكس على إحساسهم بالشمس وما تحمل، حتى استردّ الأمير عافيته، فإذا بالشمس تعود إلى بهجتها، فانعكس ذلك على مواطنيه، فإذا الفرحة تغمر النفوس والقلوب.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٣. العارضان: صفحتا الوجه. الغيث: المطر. لقد أطلّ الأمير بوجهه الباسم، فإذا بالشاعر يُحسّ بأن الحياة دبّت في الكون من جديد، واستبشر خيراً بأن جوده سيتدفّق وكأنه غيث تلوح في الأفق بوادره.

(٣) إن تشابه الأسماء لا يعني تشابه الصفات؛ فالأمير سمي سيفاً، إنه من لحم ودم، وشيمته تجعله من أفضل بني البشر في عصره كرماً وشجاعة وعلماً وخلقاً وأخلاقاً، بينما تشكّل السيف الحديدي بإرادة الإنسان ولا يقوم بذاته خلاف الإنسان، فالإنسان يستعمله، فهو يستمد فاعليته بقوّة عضد الإنسان وجبروته، ولولا ذلك لارتمى أيضاً كسائر ما يستخرج من الأرض من مواد يستعين بها الإنسان على الحياة، لذا فلا سبيل للمشابهة بينهما.

(٤) المحتد: الأصل. يمدح الشاعر الأمير بعروبته وبذلك يفتخرون لما يمثّل بالنسبة إليهم من استمرار المنعة والتفوّق والكرم الذي يتقاسم رفده العرب والعجم سواء بسواء.

وَأَخْلَصَ اللَّهُ لِلإِسْلامِ نُصْرَتَهُ
وَإِنْ تَقَلَّبَ في آلائِهِ الأُمَمُ(١)

وَمَا أَخُصُّكَ في بُرْءٍ بِتَهْنِئَةٍ
إذا سَلِمْتَ فَكُلُّ النّاسِ قَدْ سَلِمُوا(٢)

على قدر أهل العزم..

يمدحه ويذكر بناءه ثغر الحدث سنة ثلاث وأربعين وثلاث مئة(٩٥٤م):

[الطويل]

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ
وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ(٣)

وَتَعْظُمُ في عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا
وتَصْغُرُ في عينِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ(٤)

---

(١) الآلاء: النعم والخيرات. لقد جعل اللّه عز وجل نصر الإسلام على يديه لإعزاز دينه ورفعة المسلمين، والجانب الآخر مما امتاز به الأمير كثرة عطاياه، فكرمه شمل سائر أمم الأرض، فهو يوزّع من فضل اللّه تعالى بلا حساب.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٣. إن تهنئة الأمير بالسلامة لا تتوقّف عليه دون سِواه، بل إن التهنئة تشمل سائر الناس، فبسلامته يسلم الجميع من كلّ الآفات والمصائب، لأنه المعوّل عليه في حمايتهم وانتصارهم على عدوّهم اللدود من الروم وسواهم.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٨. العزم: القوّة والإرادة. العزائم، الواحدة عزيمة: القدرة. الكرام، الواحد كريم: الجواد. المكارم، الواحدة مكرمة: الفضائل. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية ببيت حكمي جميل، فالأفعال العظيمة منوطة بأصحابها؛ فأولو القوّة لا يأتون إلّا بما يدلّ على عظمتهم من جليل الأعمال وعظيم الأفعال، وهؤلاء من نسيج خاصّ نسجتهم يد القدرة وغمستهم في بحر الوجود الطامي بعظيم الأحداث، وهم بطبيعتهم كرماء جُبلوا من عجينة العظمة والكرم؛ إنهم مؤهّلون لكلّ مكرمة.

(٤) يُردف الشاعر منوّهاً بعظمة سيف الدولة؛ فالصغار أعمالهم تدلّ عليهم، يمتازون بقصر النظر وفتور الهمّة بحيث لا يرون حتى في أصغر الأعمال إلاّ الرعب والهول =

يُكَلِّفُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الْجَيْشَ هَمَّهُ
وَقَدْ عَجِزَتْ عَنْهُ الجُيوشُ الخضارِمُ(١)
ويطلبُ عِنْدَ النَّاسِ ما عِنْدَ نَفْسِهِ
وذٰلِك ما لا تَدَّعِيهِ الضّراغِمُ(٢)
يُفَدِّي أَتَمُّ الطَّيْرِ عُمْراً سِلَاحَهُ
نُسُورُ الْمَلَا أَحْداثُها والْقَشاعِمُ(٣)
وَمَا ضَرَّهَا خَلْقٌ بِغَيْرِ مَخالِبٍ
وَقَدْ خُلِقَتْ أَسْيَافُهُ وَالْقَوائِمُ(٤)

= ممّا يشلّ إراداتهم ويُضعف إمكاناتهم، وبالمقابل هناك من يمتازون بالصلابة وقوّة الإيمان بما يملكون من طاقات خلّاقة مبدعة بحيث تصغر كلّ الصعاب في أعينهم فيستهينون بها ويدفعهم إلى التغلّب عليها بما أوتوا من عزائم، وسيف الدولة أحد هؤلاء إن لم يكن الوحيد في عصره.

(١) الهمّ: الهمّة والعزيمة. الخضارم، الواحد خضرم: الكثير من كلّ شيء. لدى سيف الدولة طموح لا حدّ له، ومع ذلك فإنه لا مفرّ له من أن يعوّل على جيشه فيكلّفه تنفيذ رغباته، والحقّ أن هذا الجيش قام بما تعجز عنه جيوش كثيرة العدد والعُدد؛ وقد أفلح في ذلك، ومع ذلك فإن الأمير ملحاح يطلب من جيشه المزيد.

(٢) الضراغم، الواحد ضرغام: من أسماء الأسد. يعتقد العظيم أن سائر الناس على شاكلته، وهم في الحقيقة على شاكلته في الظاهر ولكن عند التجربة تجدهم يختلفون في الجوهر والطبيعة، فهو يتطلب منهم أكثر ما لديهم من قدرات، وهذا ما لا تدعيه الأسود حقيقة، فالأمير أسد مهيب وشجاع عظيم.

(٣) القشاعم من النسور، الواحد قشعم: المعمرة منها. ولكثرة قتلاه وضحاياه من الأعداء التي تغطّي الأرض، إذا بالنسور القمّامة صغارها والمعمّرة منها تفدي سلاحه وتتمنّى له الدوام في الحياة وتوالي الانتصارات.

(٤) المخالب، الواحد مخلب: البراثن. القوائم، الواحد قائم: مقابض السيوف. يردف الشاعر متمماً فكرته، فالقشاعم والصغار من النسور لا يضرّها لو خلقت بلا مخالب لأن سيوف الأمير كفيلة بأن تقوم بأود هؤلاء بأهون الطرق وأسهلها لكثرة قتلاها من أعدائه.

هَـلِ الْـحَـدَثُ الْـحَـمْـرَاءُ تَـعْـرِفُ لَـوْنَـهَـا
وَتَـعْـلَـمُ أَيُّ الـسَّـاقِـيَـيْـنِ الْـغَـمَـائِـمُ(١)

سَـقَـتْـهَـا الْـغَـمَـامُ الْـغُـرُّ قَـبْـلَ نُـزُولِـهِ
فَـلَـمَّـا دَنَـا مِـنْـهَـا سَـقَـتْـهَـا الْـجَـمَـاجِـمُ(٢)

بَـنَـاهَـا فَـأَعْـلَـى وَالْـقَـنَـا يَـقْـرَعُ الـقَـنَـا
وَمَـوْجُ الْـمَـنَـايَـا حَـوْلَـهَـا مُـتَـلَاطِـمُ(٣)

وَكَـانَ بِـهَـا مِـثْـلُ الْـجُـنُـونِ فَـأَصْـبَـحَـتْ
وَمِـنْ جُـثَـثِ الْـقَـتْـلَـى عَـلَـيْـهَـا تَـمَـائِـمُ(٤)

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٥. الحدث: قلعة ابتناها سيف الدولة على تخوم بلاد الروم، وكانوا غلبوا عليها وتحصنوا بها ففاجأهم، وكان بينهم قتال شديد انتهى بمذبحة عظيمة لهم، ثم أعاد بناءها، فوصفت بالحمراء. الغمائم، الواحدة غمامة: السحب المليئة بالأمطار. إنها وقفة تأمل حملت الشاعر على التساؤل هل تعلم القلعة لونها الحقيقي، فقد أعطتها دماء قتلى الروم اللون الأحمر، وفي نفس الوقت أمطرت السماء مباركة هذا الانتصار، فإذا بالألوان تمتزج وتختلط، فيحار المرء بأيّ الألوان صبغت.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٥. الغمام، الواحدة غمامة: السحب المليئة بالمطر. الغرّ: الأبيض. يُتمّ الشاعر صورة الحدث بتسارع عجيب، فالمطر الطاهر قام بعملية الإرواء السماوية المباركة، فإذا بمباركة من سيوف الأمير تتبع تلك المباركة بمباركة دموية، رؤوس تتساقط سراعاً إيذاناً بنصر مؤزر.

(٣) القنا: الرماح. يصوّر الشاعر حركة الموت العنيفة المصاحبة لتسارع البناء الذي راح يعلو ويعلو، فالبناؤون يعملون بجدّ وبوتيرة متسارعة لضيق الوقت، وفي الجانب الآخر من المشهد حرب ضروس تدور رحاها بين جند الأمير والروم، تلاحم عنيف، أصوات تعلو وأصوات حشرجات، وكأننا أمام مشهد بحر عاصف يبتلع كل شيء مصحوباً بهدير يصمّ الآذان.

(٤) وردت الأبيات الثلاثة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٥. التمائم، الواحدة تميمة: التعويذة يتوقى بها مسّ الجنّ. الحرب جنون، لأنه نتيجة حالة من فوران المشاعر الغاضبة والحماس المندفع بقوّة اللاوعي لدى المتحاربين، إنها سوق الهرج والمرج، وفجأة يُسيطر سكون مُمضّ كأنه العدم بذاته، وتشفياً بالأعداء عمد =

طَـرِيـدَةُ دَهْـرٍ سَـاقَـهَـا فَـرَدَدْتَـهَـا
عَـلَـى الـدِّيـنِ بِـالْـخَـطِّـيِّ وَالـدَّهْـرُ رَاغِـمُ[(١)]

تُـفِـيـتُ الـلَّـيَـالِـي كُـلَّ شَـيْءٍ أَخَـذْتَـهُ
وَهُـنَّ لِـمَـا يَـأْخُـذْنَ مِـنْـكَ غَـوَارِمُ[(٢)]

إِذَا كَـانَ مَـا تَـنْـوِيـهِ فِـعْـلاً مُـضَـارِعـاً
مَـضَـى قَـبْـلَ أَنْ تُـلْـقَـى عَـلَـيْـهِ الْـجَـوَازِمُ[(٣)]

وَكَـيْـفَ تُـرَجِّـي الـرُّومُ وَالـرُّوسُ هَـدْمَـهَـا
وَذَا الـطَّـعْـنُ آسَـاسٌ لَـهَـا وَدَعَـائِـمُ؟[(٤)]

= الأمير إلى تعليق جثث الصرعى من الروم على حيطان فبدت كأنها تمائم لحمايتها من كيد الروم في قابل الأيام.

(١) الطريدة: المطرودة. الخطي: الرماح. راغم: ذليل. يُردف الشاعر أن تلك القلعة مقصد الروم دائماً يعملون على خرابها وتهديمها، فكانت من الطرائد السهلة لمن حاول الإيقاع بها، حتى عزم الأمي على تحريرها من ربقة الغزاة، فكان له ما أراد، وبذلك أرغم الدهر على حكم عادل صاغه الأمير بنفسه.

(٢) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٨٨. تفيت: تترك. الغوارم، الواحدة غارمة: الدين وما يلزم بأدائه. يُخاطب الشاعر الأمير منوّهاً بقوّته، وصراع الإرادة ليست بين إنسان وآخر، إنه صراع بين الإنسان والزمن؛ فالليالي تتخلّى عن أيّ شيء انتزعه الأمير منها، ولم يعد بحوزتها، وفي المقابل فإنها لا تستطيع الاحتفاظ بما سلبته من الأمير لعلمها أنه سيعمل جاهداً على استرداده بقوّته وإرادته، فكأنها قد استدانته، ولا بدّ لها من إعادته لصاحب الحق.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٢. يُردف الشاعر مخاطباً الأمير بأنه جادّ في ما ينوي فعله، فهو لا يعرف التردّد، بل إنه يُسارع إلى تنفيذ ما يرى في تنفيذه صواباً، فإذا به يسبق الزمن المستقبل قبل أن تحول دون تنفيذه عوائق خارجة عن إرادته، لأنها أقوى على التنفيذ حتى قبل أن توضع الجوازم على الفعل المضارع، فإذا به يتحوّل إلى ماضٍ فاقد الحركة.

(٤) الآساس، الواحد أسّ. الدعائم، الواحد دعامة: عماد البيت. من طبع أمم الغرب منذ كان الإسلام الاجتماع على مقاتلته في كلّ زمان ومكان تواجد فيه، لذا فقد اتّحد الروم والروس لمقاتلته في الحدث كعادتهم، ولكن خاب أملهم فثمّة من يحميها =

وَقَدْ حَاكَمُوهَا وَالْمَنَايَا حَوَاكِمٌ
فَمَا مَاتَ مَظْلُومٌ وَلَا عَاشَ ظَالِمُ[(١)]

أَتَوْكَ يَجُرُّونَ ٱلْحَدِيدَ كَأَنَّمَا
سَرَوْا بِجِيَادٍ مَا لَهُنَّ قَوَائِمُ[(٢)]

إِذَا بَرَقُوا لَمْ تُعْرَفِ الْبِيضُ مِنْهُمُ
ثِيَابُهُمُ مِنْ مِثْلِهَا وَالْعَمَائِمُ[(٣)]

خَمِيسٌ بِشَرْقِ الأَرْضِ وَالْغَرْبِ زَحْفُهُ
وَفِي أُذُنِ ٱلْجَوْزَاءِ مِنْهُ زَمَازِمُ[(٤)]

= بسلاحه ويُقيمها ويُعلي بنيانها بسواعده؛ وتلك دعائم ثابتة قوامها إرادة صلبة وعزيمة لا تلين.

(١) المنايا، الواحدة منية: الموت. إنها محاكمة عادلة، فالمدّعي ظالم غاشم والضحيّة تلك القلعة والمحامي بارع في الدفاع يستعين بجيشه وعتاد حربه، فإذا به ينتصر لها، وكان لا بدّ من تنفيذ حكم القضاء فكان أن قضى المدّعي الكاذب فأهلكه وأراح الضحية من الجاني.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٥. السرى: السير ليلاً. الجياد: الخيول. يصف الشاعر مسير جيوش الأعداء، لقد اغتنموا ظلمة الليل علّهم يصيبون من الأمير وجنده غِرّة، فيُنزلون به هزيمة نكراء، ولقد استعدّوا استعداداً عظيماً، بالمدد والسلاح، حتى جيادهم وضعوا عليها التجافيف لحمايتها من الرماح والنبال، فبدا زحفهم كأنه يتقدّم إلى ساحة بجياد تسبح بلا قوادم.

(٣) البرق: اللمعان. البيض: السيوف. يردف الشاعر متمّماً وصف مسير جيوش الروم، لقد تسربل الجنود منهم بالحديد، ولا شكّ أن المبالغة باستعمال الحديد تشلّ لديهم سرعة الحركة في التقدّم والقتال كما أنها تعني شدّة خوفهم لذا فقد لجأوا إلى الاحتراس الشديد؛ فإذا بسيوفهم ودروعهم وخوذهم في حال عكست الشمس ضوءها وحرارتها عليهم تبدو كأنها بحر من ضياء يتحرك موجه بعنف مشعّ.

(٤) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٣٥. الخميس: الجيش العظيم المؤلف من خمس فرق. الجوزاء: نجمان معترضان في جوز السماء: أي وسطها، وهما من البروج. الزمازم الأصوات التي لا تفهم لاختلاف لغات أصحابها. يُتابع الشاعر وصف ذلك إنه عظيم، يتألف من خمس فرق حتى إنه غطّى الأرض، شرقها =

تَـجَـمَّـعَ فِـيـهِ كُـلُّ لِـسْـنٍ وَأُمَّـةٍ
فَـمَـا تُـفْـهِـمُ الْـحُـدَّاثَ إِلَّا الـتَّـرَاجِـمُ (١)

فَـلِـلَّـهِ وَقْـتٌ ذَوَّبَ الْـغِـشَّ نَـارُهُ
فَـلَـمْ يَـبْـقَ إِلَّا صَـارِمٌ أَوْ ضُـبَـارِمُ (٢)

تَـقَـطَّـعَ مَـا لَا يَـقْـطَـعُ الـدِّرْعَ وَالْـقَـنَـا
وَفَـرَّ مِـنَ ٱلأَبْـطَـالِ مَـنْ لَا يُـصَـادِمُ (٣)

وَقَـفْـتَ وَمَـا فِـي الْـمَـوْتِ شَـكٌّ لِـوَاقِـفٍ
كَـأَنَّـكَ فِـي جَـفْـنِ الـرَّدَى وَهْـوَ نَـائِـمُ (٤)

= وغربها، والزحف يتقدّم، والأصوات تتعالى لإثارة هِمم الجنود، لذا لا يُفهم منها شيء، وقد تخطّت كبد السماء حتى أدركت أذن الجوزاء، فأدركت أن صراعاً عنيفاً سيداهم سكّان الأرض.

(١) اللسن: اللغة. الحدّاث: المتخاطبين. التراجم: المترجمون. يُتمّ الشاعر رسم الصورة التي كان عليها ذلك الجيش العظيم، لقد اجتمع فيه جنود من أقوام عديدة، لغاتهم مختلفة باختلافهم، وجيش كهذا لا يمكن له أن ينتصر، فكلّ أمّة تأتمر بأمر قائدها، والمفروض أن الكلّ يأتمرون بقائد واحد يتلقّى منه قواده أوامره بلغة يفهمها الجميع، وهذا لا يتأتى لهم في حالتهم تلك، ممّا يُبيح للمترجمين محاولة جمع هذا الشتيت من اللغات واللهجات، وقد لا يوفّقون في القيام بمهمتهم تلك.

(٢) و (٣) الغش: ما يخدع النظر، تبدو عليه القوة، وهو رعديد جبان، أو سلاح غير فعّال في ساحة الميدان. الصارم: السيف البتّار. الضبارم: البطل الشجاع. يعجب الشاعر بالحقيقة التي تجلّت، فقد كشفت الحرب حقيقة المشاركين فيها، لقد تهاوى الضعفاء وانتكس الجبناء أمام ضرب السيوف الصادقة العزم والتي صمدت صمود الجبابرة، فإذا بنار الحرب تلتهم من لديه قابلية الاحتراق؛ إنه زيف وبهتان انجلى عن حقيقة مروّعة، فكانت النتيجة أن الضعيف من تلك السيوف قد تكسّر فانكسر أصحابها وانهارت قواهم، وكان عليهم أن يلاقوا مصيراً محزناً أو أن يفرّوا مؤثرين الحياة على الموت يكلّلهم عار الجبن، فتركوا الصدام لسواهم ليلاقوا مصيرهم المحتوم.

(٤) ورد البيت في: حاشية يس على التصريح ١: ٢٢٠، وورد البيتان المتتاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٥. الردى: الهلاك، الموت. يُخاطب الشاعر الأمير، إنّه يتحدّى الموت في وسط المعركة. والأبطال يتهاوون أمام ضرباته، وهو =

تَـمُـرُّ بِـكَ ٱلأبْـطَـالُ كَـلْـمَـى هَـزِيـمَـةً
وَوَجْـهُـكَ وَضَّـاحٌ وَثَـغْـرُكَ بَـاسِـمُ(١)

تَـجَـاوَزْتَ مِـقْـدَارَ الـشَّـجَـاعَـةِ وَالـنُّـهـى
إلَـى قَـوْلِ قَـوْمٍ أنْـتَ بِـالْـغَـيْـبِ عَـالِـمُ(٢)

ضَـمَـمْـتَ جَـنَـاحَـيْـهِـمْ عَـلَى الْـقَـلْـبِ ضَـمّـةً
تَـمُـوتُ الْـخَـوَافِـي تَـحْـتَـهَـا وَالْـقَـوَادِمُ(٣)

بِـضَـرْبٍ أتَـى الْـهَـامَـاتِ وَالـنّـصْـرُ غَـائِـبٌ
وَصَـارَ إلَـى الـلَّـبَّـاتِ وَالـنّـصْـرُ قَـادِمُ(٤)

= لا يلين، بل إنه يشتدّ باشتداد أوار المعركة، والموت بعيد عنه، وكأن الموت غافل عنه مع أنه في جفنه المغمض؛ الحقيقة أن أمثال الأمير كانوا يؤمنون بالقضاء والقدر، وأن الموت سيأتيهم مرّة واحدة إذا توافرت له الظروف؛ لذا فقتالهم مع الأعداء قدري بذاته.

(١) كلمى، الواحد كليم: جرحى. هزيمة: مهزومين. وضاح: مشرق جميل. يُخاطب الشاعر الأمير بما يُثير في نفسه الاعتزاز والفخار، فإذا به يقف على منصة عرشه يمتطي جواده، يستعرض موكب الأسرى المنهزمين، إنهم أبطال، وقد فقدوا بطولتهم أمام بطل من العيار الثقيل، فإذا بجراحهم تكشف لهم حقيقة بطولاتهم القاصرة أمام جبروت المنتصر، البسمة تعلو ثغره، إنها بسمة الاعتزاز لا يلتبس بها غرور وكبرياء مزيّف، إنها الثقة بالذات وبربّ السماء والأرض سبحانه الناصر الحقيقي، فمنه النصر وبه الظفر.

(٢) النهى: الواحد نهية: العقول. يُنوّه الشاعر بشجاعة وصبر الأمير؛ كلّ شيء له حدود يقف عندها، أما بالنسبة للأمير فقد أثار دهشة الشاعر لتجاوزه الحدود لبني البشر. والحقيقة أن الأمر يتعلّق بالمصير، والمصير يستوجب على البشر أن يحطّموا الحدود إلى منطلق أرحب وأوسع ليحقّقوا لأنفسهم مصيراً مخالفاً لما يُتوقّع، وهذا لا يتأتى إلّا لمن أوتي بصيرة وكشفاً غيبياً وحدساً صادقاً، وذلك لا يتطلّب اضطلاعاً على الغيب، فالاضطلاع على الغيب مغامرة لا تُحمد عقباها، لأن الغيب بيد اللّه سبحانه وتعالى.

(٣) و (٤) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٥. يقصد الجناحين: ميمنة الجيش وميسرته. قلبه: الكتيبة في وسطه. القوادم: عشر ريشات =

حَـقَـرْتَ الـرُّدَيْـنِـيَّـاتِ حَـتّـى طَـرَحْـتَـهَـا
وَحَـتّـى كـأنَّ الـسَّـيْـفَ لِـلـرُّمْـحِ شَـاتِـمُ[(١)]

وَمَـنْ طَـلَـبَ ٱلْـفَـتْـحَ ٱلْـجَـلِـيـلَ فـإنَّـمَـا
مَـفَـاتِـيـحُـهُ الْـبِـيضُ ٱلْـخِـفَـافُ الـصَّـوَارِمُ[(٢)]

نَـثَـرْتَـهُـمْ فَـوْقَ الأُحَـيْـدِبِ كُـلِّـهِ
كـمـا نُـثِـرَتْ فَـوْقَ الْـعَـرُوسِ الـدَّرَاهِـمُ[(٣)]

تَـدُوسُ بِـكَ ٱلْـخَـيْـلُ ٱلْـوُكُـورَ عَـلَـى ٱلـذُّرَى
وَقَـدْ كَـثُـرَتْ حَـوْلَ ٱلْـوُكُـورِ الْـمَـطَـاعِـمُ[(٤)]

= في معدم جناح الطائر. الخوافي: ما تحتها. الهامات، الواحدة هامة: الرؤوس. اللبات: النحور. يصف سرعة ذلك والخطّة العسكرية التي اتّبعها الأمير ممّا يدل على درايته في قيادة المعارك وعلمه بفنون القتال، سارع إلى ضمّ جناحي الجيش بسرعة عجيبة بحيث يُؤدّي ذلك إلى تخلخل في الدفاع وارتباك بين صفوف الجيوش، فإذا بهم يقتلون أنفسهم بأنفسهم لضيق مجال حركتهم، وفي الخطة كهذه يُعمل الجند المحيطون بأعدائهم سيوفهم وأسلحتهم بهجمة صادقة تُزيل الرؤوس عن أجسادها، ويكون النصر، وبشائره تلتقي بالتكبير والحمد. وأخيراً أصبح النصر حقيقة.

(١) و (٢) الردينيات: رماح نسبت إلى ردينة، وهي امرأة كانت مع زوجها تصلح الرماح في اليمامة. طرح: رمى. يُخاطب الشاعر الأمير منوّهاً بشجاعته، فقد رمى الرماح لأنها تحول بينه وبين عدوّه، ولا مجال لاستعمالها في حال الالتحام المباشر، والشجاع من يستعمل السيوف لشدّة الالتحام وللتأكيد على الشجاعة الحقّة، وكأنه في هذه الحالة قد رذل الرماح؛ فالشتم كان من جهة السيف للرمح. والقاعدة أن النصر المظفّر العظيم لا يكون إلّا بالسيوف المرهفة الخفيفة عكس الرماح الثقيلة، والفتح لا يكون إلّا بمفتاح بسيط يحمله خبير باستعماله عليم بصفاته، إنه بلا ريب الصارم القاطع.

(٣) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ٦٦. نثر: فرّق. الأحيدب: جبل الحدث. يخاطب الشاعر الأمير بأنه قام بأمر عظيم، فقد فرّق جموع الروم ونثرهم، فإذا بجبل الأحيدب، وقد تكلّل بأجساد القتلى، وكأنه عروس يوم فرحتها، وقد نُثرت عليها الدراهم، والنظارة يتسارعون إلى التقاط ما يستطيعون من تلك الدراهم، فرحين بأكبر قدر ممّا يجمعون.

(٤) وكر الطائر: عشّه حيث يبيت. الذرى، الواحدة ذروة: القمم. يتابع الشاعر إتمام

تَــظُــنُّ فِــرَاخُ الْــفُــتْــخِ أَنَّــكَ زُرْتَــهَــا
بِــأُمَّــاتِــهَــا وَهْــيَ الْــعِــتَــاقُ الــصَّــلَادِمُ[١]

إذَا زَلِــقَــتْ مَــشَّــيْــتَــهَــا بِــبُــطُــونِــهَــا
كَــمَــا تَــتَــمَــشَّــى فِــي الــصَّــعِــيــدِ الأرَاقِــمُ[٢]

أفِــي كُــلِّ يَــوْمٍ ذَا الــدُّمُــسْــتُــقُ مُــقْــدِمٌ
قَــفَــاهُ عَــلَــى ٱلإِقْــدَامِ لِــلْــوَجْــهِ لَائِــمُ[٣]

أَيُــنْــكِــرُ رِيــحَ ٱلــلَّــيْــثِ حَــتَّــى يَــذُوقَــهُ
وَقَــدْ عَــرَفَــتْ رِيــحَ ٱلــلُّــيُــوثِ الْــبَــهَــائِــمُ[٤]

= الصورة التي كان عليها الأمير وجيشه يُتابعون الروم المهزومين الفارّين، فيُمعنون قتلاً فيهم، والروم يمعنون هرباً، وجثث قتلاهم تقع صرعى، والأمير لا يني ولا تفتر همّته حتى صعد مع جنده إلى ذرى ذلك الجبل حيث وكور الجوارح من الطيور، وأشلاء قتلى الروم تتزايد كلّما تقدم جيش الأمير وأوغل صعوداً؛ إنه طعام وفير لأمثال تلك الطيور.

(١) الفتخ، الواحدة فتخاء: إناث العقبان. الأمات، الواحدة أم: في ما لا يُعقل. العتاق: كرام الخيول. الصلادم، الواحد صلدم: الفرس الشديدة الصلبة. إنها المفاجأة التي لم تكن في الحسبان؛ ففراخ الفتخ تنتظر أماتها لتأتي لها بما تقتات به، فإذا بجيش الأمير يُوفّر لها المأكل فظنّت أن خيول الجيش القويّة السريعة أماتها وقد أتتها بما يُشبعها.

(٢) الصعيد: وجه الأرض. الأراقم، الواحد أرقم: الحيات فيها سواد وبياض. ولصعوبة مرتقى ذلك الجبل، إذا بتلك الخيول تنزلق، ولا بدّ من متابعة الفارّين من جنود الروم، فكان أن أجبرت على الزحف على بطونها لصعوبة المرتقى ومزالقه الخطيرة، فبدت الخيول كأنها حيّات تتلوّى بتلوي الأرض وتنحرف بانحرافها.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٦. الدمستق: قائد جيش الروم. يسخر الشاعر من الدمستق ومن محاولاته المتعدّدة للنيل من الأمير وجيشه، فإذا به يعود يجرّ وراءه هزائمه المتكرّرة وقد حمله طمعه على الإقدام ليندحر ويُسلّم قفاه لجيش الأمير، فإذا بقفاه يلعن مقدمه.

(٤) الليث: من أسماء الأسد. يذوقه: يجرّبه. يُتابع الشاعر سخريته بالدمستق، إنه لم يتّعظ من محاولاته السابقة، فإذا به يعيد المحاولة، مرّة تلو مرة؛ فمن طبيعة سائر =

وَقَدْ فَجَعَتْهُ بِابْنِهِ وَٱبْنِ صِهْرِهِ
وَبِالصِّهْرِ حَمْلَاتُ الْأَمِيرِ الْغَوَاشِمُ (١)

مَضَى يَشْكُرُ الْأَصْحَابَ فِي فَوْتِهِ الظُّبَى
بِمَا شَغَلَتْهَا هَامُهُمْ وَالْمَعَاصِمُ (٢)

وَيَفْهَمُ صَوْتَ الْمَشْرَفِيَّةِ فِيهِمِ
عَلَى أَنَّ أَصْوَاتَ السُّيُوفِ أَعَاجِمُ (٣)

يُسَرُّ بِمَا أَعْطَاكَ لَا عَنْ جَهَالَةٍ
وَلٰكِنَّ مَغْنُوماً نَجَا مِنْكَ غَانِمُ (٤)

= الحيوانات إذا أحسّت بوجود الأسد جمدت من هيبته وقوّة بطشه، فإذا بها تنكفئ على نفسها مؤثرة السلامة، فلم يمنعها كونها من البهائم من أن تحترس لنفسها، فما بال الدمستق لم يتّعظ بأمثاله الحيوانات أمام الأسد الملك العظيم سيف الدولة؟

(١) فجعته: رزأته. الصهر: أهل بيت المرأة. الغواشم، الواحدة غاشمة: الظالمة. يُخاطب الشاعر الأمير بأنه أصاب مقتل الدمستق بأسره ابنه وصهره زوج ابنته، وهما أعزّ ممّا لديه بمغامرته المجنونة، فضلاً عن أنه عرّض نفسه للخطر، ولولا أنه فرّ للقي مصيراً بئيساً لا يرحم، ذلك أن حملات الأمير قوية لا ترحم لقوّة بطشه حيث لا هوادة.

(٢) الظبى، الواحدة ظبة: حدّ السيف. الهام، الواحدة هامة: الرؤوس. المعاصم، الواحد معصم: أطراف السواعد، يُردف الشاعر مندّداً بالدمستق، فقد هرب وترك أصحابه يتحمّلون وزره ويتلقّون مصيره بدلاً منه، لذا فهو يشكر لهم تضحياتهم التي دفعوا ثمنها غالياً من أرواحهم وأجسادهم، فإذا برؤوسهم تزرع الأرض ومعاصمهم تتناثر في كلّ مكان من صعيدها.

(٣) المشرفية: السيوف. يتابع الشاعر سخريته بالدمستق، فهو تارة يفهم، لقد سمع أصوات صليل السيوف، فأدرك أنه الموت فجدّ بالفرار موقناً أن أصحابه هالكون حتماً، ولقد سمعها بإحساس الجبان علماً أن تلك الأصوات لا تفهم، فلغتها خرساء لا تبين.

(٤) يُخاطب الشاعر الأمير، لقد سرّ الدمستق بما حصل له، رغم أنه قد ضحّى بجنوده وعتاده وسلاحه، فكانوا فداءً له؛ ولقد قارن بين الخسارة والربح، فإذا به يسري نفسه رابحاً لنجاته ممّا يدلّ على عدم الشعور لديه بالذنب وعدم المسؤولية إنها الأنانيّة المقيتة والوصولية بأسوأ صورها.

وَلَسْتَ مَلِيكاً هَازِماً لِنَظِيرِهِ
وَلٰكِنَّكَ التَّوْحِيدُ لِلشِّرْكِ هَازِمُ[(١)]

تَشَرَّفُ عَدْنَانٌ بِهِ لَا رَبِيعَةٌ
وَتَفْتَخِرُ الدُّنْيَا بِهِ لَا الْعَوَاصِمُ[(٢)]

لَكَ الْحَمْدُ في الدُّرِّ الَّذِي لِيَ لَفْظُهُ
فَإِنَّكَ مُعْطِيهِ وَإِنِّيَ نَاظِمُ[(٣)]

وَإِنِّي لَتَعْدُو بي عَطَايَاكَ فِي الْوَغَى
فَلَا أَنَا مَذْمُومٌ وَلَا أَنْتَ نَادِمُ[(٤)]

عَلَى كُلِّ طَيَّارٍ إِلَيْهَا بِرِجْلِهِ
إِذَا وَقَعَتْ فِي مِسْمَعَيْهِ الْغَمَاغِمُ[(٥)]

أَلَا أَيُّهَا السَّيْفُ الَّذِي لَيْسَ مُغْمَداً
وَلَا فِيهِ مُرْتَابٌ وَلَا مِنْهُ عَاصِمُ[(٦)]

---

(١) يُخاطب الشاعر الأمير، فالأمير يمثل الإسلام جوهراً حيًّا بصراعه مع الشرك وعدوانيته وغطرسته الكاذبة المتمثّلة بالدمستق، الذي تتمثّل فيه القيادة الفاشلة الرعناء، فانتصار الأمير انتصار الإسلام.

(٢) عدنان: أبو العرب. ربيعة: قبيلة الأمير. يرى الشاعر أن سيف الدولة مفخرة سائر العرب، فالفخر يعود إلى عدنان، وهم أصل العروبة، وليس فقط ربيعة قبيلة الأمير، بل سائر العرب يفخرون إلى من انتموا، فالنصر عربي ولكل قطر عربي.

(٣) يقصد الشاعر بالدرّ شعره، فالأمير من تتجسّد فيه البطولة والشاعر يصوغ تلك الأعمال بما توحيه له من مثل عظيمة تمثّلت بسيف الدولة.

(٤) و (٥) تعدو: تجري. الوغى: الحرب. يخاطب الشاعر الأمير مقرًّا بفضله، فلقد منّ عليه بالخيول العربية التي حملته على مشاركة الأمير في حروبه، لذا فهو شاكر نعمه مقدّر له ذلك، ولا يندم على عطاياه العظيمة التي جعلت منه بطلاً وجندياً في جيش الأمير، يطير فرحاً وهو يُشارك في معاركه، ويكفيه أن يسمع النداء حتى يهبّ للقيام بدوره، فيجري لا يلتفت إلى الوراء بل يعدو بكلّ قواه ليكون في وسط الميدان إلى جانب من أحبّ.

(٦) العاصم: الحامي. يخاطب الشاعر الأمير، إنه سيف مجرد دائماً للقيام بجلائل =

هَنِيئاً لِضَرْبِ الْهَامِ وَالْمَجْدِ وَالْعُلَى
وَرَاجِيكَ وَٱلْإِسْلَامِ أَنَّكَ سَالِمُ[(١)]

وَلِمْ لَا يَقِي الرَّحْمٰنُ حَدَّيْكَ مَا وَقَى
وَتَفْلِيقُهُ هَامَ الْعِدَى بِكَ دَائِمُ[(٢)]

أنت لأهل المكرمات إمام

قال وقد ورد فرسان الثغور ومعهم رسول ملك الروم يطلب الهدنة وأنشده إياها بحضرتهم وقت دخولهم لثلاث عشرة بقين من المحرم افتتاح سنة أربع وأربعين وثلاث مئة (٩٥٥م):

[الطويل]

أَرَاعَ كَذَا كُلَّ الْمُلُوكِ هُمَامُ،
وَسَحَّ لَهُ رُسْلَ الْمُلُوكِ غَمَامُ[(٣)]

وَدَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا فَأَصْبَحَ جَالِساً،
وَأَيَّامُهَا فِي مَا يُرِيدُ قِيَامُ[(٤)]

= الأعمال، وهو لا يغمد ولا يعرف الراحة، بل يقود عزمه وإرادته إلى البطش بأعدائه، فلا يقدر عدوّ أن يحمي نفسه من غضبه، كما أن خوف أعدائه على يقين بأنهم مدركون من قبله.

(١) الهام، الواحد هامة: الرؤوس. العلى: المجد. يخاطب الشاعر الأمير، فالهناء والسعادة وراحة البال لسلامة الأمير، فسلامته أساس وجود مفاخره ومكارمه، فمنها أيضاً انتصاراته وضربه رؤوس أعدائه، وبه يكمّل المجد وتُزهر المعالي، والأماني له بطول العمر في ظل راية الإسلام التي رفع لواءها.

(٢) وقى: حمى. يسأل الشاعر الأمير عن سرّ رعاية اللّه تعالى له، إنه سيف الإسلام، به تقوم قواعده، وبه يقضي على أعدائه لذا فمن الطبيعي أن تدوم رعاية اللّه عز وجلّ لهذا السيف وتصونه من كل عادية من عوادي الزمن.

(٣) راع: خاف. الأنام: البشر. الهمام: الملك العظيم الهمة. سحّ الماء: صبّه. يُخاطب الشاعر الأمير مستفهماً متعجباً هل من ملك بعيد الهمّة عظيم يُمكن أن تتقاطر رسل ملوك أعدائه يطلبون عقد صلح معه مخافة بطشه وقوة جيشه، وهم يتسارعون يستجدون رضاه خاضعين مذعنين لإرادته كالغمام يسحّ سحًّا سريعاً بغزارة.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٥. دانت: خضعت. يُردف =

إذا زَارَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الرُّومَ غَازِياً
كَفَاهَا لِمَامٌ لَوْ كَفَاهُ لِمَامُ (١)

فَتًى تَتْبَعُ الأَزْمَانُ في النَّاسِ خَطْوَهُ
لِكُلِّ زَمَانٍ في يَدَيْهِ زِمَامُ (٢)

تَنَامُ لَدَيْكَ الرُّسْلُ أَمْناً وَغِبْطَةً،
وَأَجْفَانُ رَبِّ الرُّسْلِ لَيْسَ تَنَامُ (٣)

حِذَاراً لِمُعْرَوْرِي الْجِيَادِ فُجَاءَةً
إلَى الطَّعْنِ قُبْلاً مَا لَهُنَّ لِجَامُ (٤)

تُعَطَّفُ فِيهِ وَالأَعِنَّةُ شَعْرُهَا،
وَتُضْرَبُ فِيهِ وَالسِّيَاطُ كَلَامُ (٥)

= الشاعر أن الدنيا بأسرها قد خضعت لإرادته، وهو لا يُحرّك ساكناً، فإذا بالدنيا تأتيه بما يريد طواعية، وإذا بها تخدمه وأيامها تجري ساعية لرخاء سعده.

(١) اللمام: الزيارة السريعة. إنها زيارة ولكنها ليست زيارة ودّ وتعاطف بل هي غزو، فإذا ما شرع بالغزو فإنه لا يكتفي بالعودة إلى دياره سريعاً، وليست زيارته لماماً بل هي توغّل في بلاد الروم حيث يمعن تخريباً ودماراً وقتلاً وأسراً فيهم، فإذا اكتفى عاد منتصراً بما حصل عليه.

(٢) الزمام: القياد. يمدح الشاعر الأمير بالفتوّة، والفتوّة تعني الكمال عند العرب في كلّ شيء، كرماً، شجاعة، كرم أخلاق، أصالة نسب، نبلاً... ولقد ساعده حظّ عظيم سما به إلى المجد، فإذا به يخطو بخطاه ويسير بسيره، فحيثما حلّ في محطّة من محطّات حياته كان طوع إرادته، فكأنه يسيّره بنفسه إلى حيث يحالفه التوفيق الدائم.

(٣) الغبطة: السعادة وراحة البال. يُنوّه الشاعر بحسن الضيافة وحسن القيام بواجباتها، فالرسل ينعمون بحماية ورعاية الأمير، وقد زالت لديهم كلّ دواعي الخوف التي تقلق من أرسلهم طلباً للصلح، فإنهم لا يدرون ما عليه رسلهم من غبطة وراحة بال، فنومهم هادئ خلاف ما عليه مرسلوهم، فإنهم لا يعرفون طعم النوم الهادئ لشدّة خوفهم من الأمير.

(٤)و (٥) يُحذّر الشاعر الأمير من مكر القوم، فطلب الهدنة قد يكون استعداداً لحرب تُشنّ على أمل الانتقام من الأمير الذي يُسارع دائماً لردّ الغارة، فجنوده قد تعوّدوا امتطاء جيادهم بلا سُرُج ولُجُم، وذلك أعلى مستويات الفروسية والشجاعة، وثمّة تفاهم =

وَمَـا تَـنْـفَـعُ الْـخَـيْـلُ الْـكِـرَامُ وَلَا الْـقَـنَـا
إذا لَـمْ يَـكُـنْ فَـوْقَ الْـكِـرَامِ كِـرَامُ؟[(١)]

إلَـى كَـمْ تَـرُدُّ الـرُّسْـلَ عَـمَّـا أَتَـوْا لَـهُ
كَـأَنَّـهُـمُ فِـي مَـا وَهَـبْـتَ مَـلَامُ[(٢)]

وَإِنْ كُـنْـتَ لَا تُـعْـطِـي الـذِّمَـامَ طَـوَاعَـةً
فَـعَـوْذُ الأعَـادِي بِـالْـكَـرِيـمِ ذِمَـامُ[(٣)]

فَـإِن نُـفُـوسـاً أَمَّـمَـتْـكَ مَـنِـيـعَـةٌ
وَإِنَّ دِمَـاءً أَمَّـلَـتْـكَ حَـرامُ[(٤)]

إِذَا خَـافَ مَـلْـكٌ مِـنْ مَـلِـيـكٍ أَجَـرْتَـهُ
وَسَـيْـفَـكَ خَـافُـوا وَالْـجِـوَارَ تُـسَـامُ[(٥)]

= عجيب بين الفرسان وجيادهم إنهم يستعيضون عن الأعنة بشعورها يُمسكون بها، وهي تكتفي بالكلام دون الزجر والتعنيف، فإذا بها تنساب مطواعة برقة عجيبة.

(١) القنا: الرماح. يقرّر الشاعر حقيقة؛ مفادها أن السلاح لا يفعل فعله إلّا بوجود أبطال يستعملونه استعمالاً جيداً، فالخيول لا بدّ لها من فرسان يجيدون استغلالها بحيث تعود الفائدة على الفرسان، والسلاح لا بدّ من توفّر من يستعمله في وجهته الصحيحة تدريباً ومراناً في ساحات القتال.

(٢) يُوحي الشاعر للأمير برفض عقد الهدنة بينه وبين بلاد الروم. والحقّ أن ثمة من يلوم الأمير لكثرة عطائه وهو يُبقي على عادته المحمودة في هذا الأمر، والهدنة عطاء لجاحد الفضل، لذا فالأوجب ألّا ينزل عند رغبتهم ويعقد معهم صلحاً.

(٣) و (٤) يروى «وإن» بدلاً من «فإن». الذمام: العهد. عاذ به: لجأ إليه. يخاطب الشاعر الأمير مثيراً فيه شهامة المسلم الذي يحفظ الذمام ويفي بالعهد؛ فمن حقّه ألّا يوافق على عقد هدنة بينه وبين بلاد الروم ولكن الرسل جاؤوا يطلبون الحماية والسلام ضمن تلك المعاهدة. وكونهم جاؤوا يلوذون بحمى الأمير، فلا بدّ من رعاية ما أتوا لأجله، فلولا ثقتهم ورجاؤهم بتلبية أمنيّتهم بحفظ دمائهم وتأمين عيشهم بسلام، وهم بذلك يدخلون في حرمة الأمير آملين بتلبية رجائهم، مذعنين لسلطته لما قصدوه.

(٥) تسام: تكلف. يُخاطب الشاعر الأمير أنه في حال عداء بين ملكين، وأحدهما يجور =

لَـهُـمْ عَـنْـكَ بِـٱلْـبِـيـضِ الْـخِـفَـافِ تَـفَـرُّقٌ
وَحَـوْلَـكَ بِـالْـكُـتْـبِ الـلِّـطَـافِ زِحَـامُ (١)

تَـغُـرُّ حَـلاَوَاتُ الـنُّـفُـوسِ قُـلُـوبَـهَـا
فَـتَـخْـتَـارُ بَـعْـضَ الْـعَـيْـشِ وَهْـوَ حِـمَـامُ (٢)

وَشَـرُّ الْـحِـمَـامَـيْـنِ الـزُّؤَامَـيْـنِ عِـيـشَـةٌ
يَـذِلُّ الّـذِي يَـخْـتَـارُهَـا وَيُـضَـامُ (٣)

فـلَـوْ كَـانَ صُـلْـحـاً لَـمْ يَـكُـنْ بِـشَـفَـاعَـةٍ،
وَلٰـكِـنَّـهُ ذُلٌّ لَـهُـمْ وَغَـرَامُ (٤)

وَمَـنٌّ لِـفُـرْسَـانِ الـثُّـغُـور عَـلَـيْـهِـم
بِـتَـبْـلِـيـغِـهِـمْ مَـا لَا يَـكَـادُ يُـرَامُ (٥)

= على الآخر، كان الأمير نعم المجير للضعيف يساعده ويقوّي عضده، فالأوجب الآن أن يُجير من جاء يحتمي به من سيفه الذي يمحق أعداءه، ليصونوا حياتهم من جبروته.

(١) البيض الخفاف: السيوف. يردف الشاعر مبيّناً حال الروم، إنهم مختلفون في الحروب يتفرّقون بين منهزم ومتمرّد، ولكنهم لا يختلفون في طلب الهدنة، فإذا بكتب القوم تظهر رغبتهم بمسالمة الأمير بليّن القول لصاحب الصول والجول مخافة سيوفه الخفيفة، وهم يزدحمون على أبواب قصره ينشدون السلام.

(٢) و (٣) الحِمام، بكسر الحاء: الموت. نعمة الحياة تحمل بعض من لا يؤمن بالآخرة على التمسّك بأهداب الحياة كيفما كانت سواء أكانت في ذل ومسكنة أم متمثلة بالفرار من قبضة العدم المتمثلة بسيوف الأمير آنذاك، وذلك العيش مرير لا يستحقّ صاحبه الحياة، فالموت خير له على كل حال، فذلك شرّ لمن لا يُقدّر طعم الكرامة والحرّية فخير له أن يتجرّع طعم الموت العزيز الزؤام السريع من أن يُسام موتاً بطيئاً ذليلاً ينزل به سوط العذاب من كلّ جانب، حتى إنه مع مرور الزمن يعتاده ويستسيغه، فكأنه ميت حيّ، فلا يجد من يدفنه في التراب ليخلّصه من عذابه.

(٤) الغرام: الشرّ الدائم. يضع الشاعر الإصبع على موضع الألم بالنسبة للروم، فلجبنهم وعدم إخلاصهم في ما يطلبون، فنواياهم غير صادقة في طلب معاهدة السلام أنهم استشفعوا بأهل الثغور من المسلمين لدى الأمير ليتوسّطوا في موضوع الصّلح؛ إنها طبيعة الجبن والشر الدائم التي جُبلوا عليها.

(٥) المنّ: النعمة. الثغور: المدن المتاخمة لبلاد الأعداء. يُرام: يُطلب. يثني الشاعر =

كَـتَـائِـبُ جَـاؤُوا خَـاضِـعِـيـنَ فَـأَقْـدَمُـوا،
وَلَـوْ لَـمْ يَـكُـونُـوا خَـاضِـعِـيـنَ لَـخَـامُـوا(١)

وَعَـزَّتْ قَـدِيـمـاً فـي ذَرَاكَ خُـيُـولُـهُـمْ
وَعَـزُّوا وَعَـامَـتْ فِـي نَـدَاكَ وَعَـامُـوا(٢)

عَـلَـى وَجْـهِـكَ الـمَـيْـمُـونِ فِـي كـلِّ غَـارَةٍ
صَـلَاةٌ تَـوَالَـى مِـنْـهُـمُ وَسَـلَامُ(٣)

وَكُـلُّ أُنَـاسٍ يَـتْـبَـعُـونَ إِمَـامَـهُـمْ،
وَأَنْـتَ لأَهْـلِ الـمَـكْـرُمَـاتِ إِمَـامُ(٤)

= على فرسان الثغور الذين توسّطوا عند الأمير لعقد الهدنة بينه وبين الروم لشجاعتهم، فلهم المنة على عملهم الإنساني، وقد أفلحوا في وساطتهم، ولو حاول الروم ذلك بمفردهم لما أفلحوا وباؤوا بالفشل.

(١) الكتائب، الواحدة كتيبة: الفرقة من الجيش. خام: جبن ونكص على عقبيه. يُردف الشاعر قوله بأن هؤلاء كانوا كتائب قد أتوا مذعنين طائعين يدينون بالولاء للأمير، ولو لم يكونوا كذلك لجبنوا ونكصوا على أعقابهم خائبين، ولذا فقد أفلحوا وحصلوا على بغيتهم.

(٢) يُنوّه الشاعر بأفضال الأمير على مقاتلة الثغور، فقد استلهموا من رعاية الأمير وحمايته لهم أن عزّوا وأصبحوا ذات منعة وقوّة ولا سيّما أن جوده ينعمون به، إنهم كانوا يسبحون في بحر إحسانه المتواتر على أهل الثغور عامة، والمقاتلة منهم خاصة.

(٣) الميمون: الموفّق. الغارة: الحرب الفجائية. توالى: تتابع. يُنوّه الشاعر بتعاطف القوم مع الأمير، ففي كلّ غارة يقوم بها يدعون له على الدوام بالنصر المؤزّر، وهم على يقين بنصره لما يعرفون عن شجاعته وقوّته.

(٤) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٥. ومن طبيعة قيام التجمّعات المدنية أن يُوجد من يقوم على أمورها، فيأتمرون بأمره في كلّ صغيرة وكبيرة تخصّ الجماعة، وهم على الدوام يأتمّون به في ما يعود عليهم بالخير والأمن لما يتوفّر لديه من خصائص النبل ورجاحة العقل والشجاعة، ولمّا توفّرت تلك الفضائل فكان نعم الإمام.

وَرُبَّ جَوَابٍ عَنْ كِتَابٍ بَعَثْتَهُ،
وَعُنْوَانُهُ لِلنّاظِرِينَ قَتَامُ(١)

تَضِيقُ بِهِ الْبَيْدَاءُ مِنْ قَبْلِ نَشْرِهِ،
وَمَا فُضَّ بِٱلْبَيْدَاءِ عَنْهُ خِتَامُ(٢)

حُرُوفُ هِجَاءِ النَّاسِ فِيهِ ثَلَاثَةٌ
جَوَادٌ وَرُمْحٌ ذَابِلٌ وَحُسَامُ(٣)

أَخَا الْحَرْبِ قَدْ أَتْعَبْتَهَا فَالْهُ سَاعَةً
لِيُغْمَدَ نَصْلٌ أَوْ يُحَلَّ حِزَامُ(٤)

وَإِنْ طَالَ أَعْمَارُ الرِّمَاحِ بِهُدْنَةٍ،
فَإِنَّ الَّذِي يَعْمُرْنَ عِنْدَكَ عَامُ(٥)

---

(١) القتام: الغبار. يرى الشاعر أن أفضل الردود على من يلتمس هدنة أن يكون الكتاب فرساناً يجوسون خلال الديار، فيتصاعد الغبار معانقاً كبد السماء.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٦. البيداء: الأرض الموحشة المقفرة التي لا أنيس فيها. فضّ الختام: فكّه. يتابع الشاعر حديثه عن كتاب الأمير إنه جيش عظيم تضيق به البيداء، تلك الأرض الموحشة المقفرة التي لا أنيس فيها رغم اتساعها، وهو منتظم صفوفاً متراصة، فكيف به إذا انتشر في أرجائها، فسوف يسدّ الآفاق، فلا يستطيع العدوّ فراراً.

(٣) الجواد: الفرس الكريم. الرمح الذابل: الليّن. الحسام: السيف القاطع. إنه كتاب عجيب، عماده فرس كريم ورمح ليّن وسيف بتّار، إنها حروف يقرأها المحاربون بدمائهم وأرواحهم، إنه خير جواب في مواطن العداء.

(٤) يروى «إذا الحرب» بدلاً من «أخا الحرب». الهُ: خذ لنفسك فترة من اللهو والراحة. تقتضي الأخوة التلازم والمشاركة والودّ ودوام العشرة، بهذه العبارة يُخاطب الشاعر الأمير، وذلك لأنه لا يتوقّف عن غزو أعدائه من الروم، تتوالى غزواته، وهو لا يكلّ ولا يمنح نفسه راحة. لذا فالشاعر يدعوه ليلهو حتى يستجمّ ويستريح من عناء استمرار الحروب، فإذا بالسيوف تعانق أغمادها بلهفة، وبالجياد تستجم في اسطبلاتها.

(٥) إنها العادة المتأصلة يُمارسها الأمير آلياً؛ الدوام على الحرب، لذا فإن أعمار الرماح =

وَمَا زِلْتَ تُفْنِي السُّمْرَ وَهْيَ كَثِيرَةٌ،
وَتُفْنِي بِهِنَّ الْجَيْشَ وَهْوَ لُهَامُ[(١)]
مَتَى عَاوَدَ الْجَالُونَ عَاوَدْتَ أَرْضَهُمْ،
وَفِيهَا رِقَابٌ لِلسُّيُوفِ وَهَامُ[(٢)]
وَرَبَّوْا لَكَ الأَوْلَادَ حَتَّى تُصِيبَهَا،
وَقَدْ كَعَبَتْ بِنْتٌ وَشَبَّ غُلَامُ[(٣)]
جَرَى مَعَكَ الْجَارُونَ حَتَّى إذا انْتَهَوْا
إلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى جَرَيْتَ وَقَامُوا[(٤)]

= لديه قصيرة لا تتخطّى الواحد من الأعوام، فإذا بها تلقى مصيرها سريعاً حالما يُعاود سيرته وشنّ الغارات على بلاد الروم فتتكسّر وتنبطح في الأرض صرعى.

(١) السمر: الرماح. الجيش اللهام: الكثير العدد الذي يلتهم كلّ شيء. يركّز الشاعر على مداومة الأمير على مهاجمة بلاد الروم باستمرار، وضحاياه في كلّ مرّة رماح تتهاوى صرعى بأيدي فرسانه وقتلى من الروم تصرع بتلك الرماح، وبتلك الرماح يتمّ له النصر.

(٢) الجالون: النازحون عن ديارهم. الهام، الواحد هامة: الرؤوس. يخاطب الشاعر الأمير بأن من حسنات الموافقة على الهدنة تحمل النازحين من ديارهم على العودة إليها، وبذا إذا عاود الغزو كان السلب وفيراً والأسرى كثيراً فضلاً عمن تكفلت بهم سيوف الجيش تُمعن فيهم قتلاً، فإذا بالرؤوس تتطاير عن أجساد أصحابها.

(٣) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٦. كعبت البنت: نهد ثدياها. تعني الهدنة بالنسبة للقوم بعد عودتهم إلى ديارهم، الالتفات إلى القيام بتربية صغارهم، فإذا بالصغيرات من بناتهم قد شبّت الواحدة منهن ونهد ثدياها، وإذا بالصبيان من أبنائهم قد شارفوا سن الشباب؛ فمن هؤلاء يكون الأسرى ليُباعوا أو يُستبدل بهم أسرى المسلمين، ومنهم يكون القتلى بسيوف الأمير.

(٤) القصوى: البعيدة. ينوّه الشاعر بقوّة الأمير وتفوّقه على من سواه من الملوك، فالمباراة مع غيره من الملوك تكشف حقيقة حالهم، إنهم سرعان ما ينهكهم التعب فيتمدّدون على الأرض يلهثون بينما لا يزال الأمير يعدو وحيداً في مضمار الفضائل بعزم عظيم حتى يدرك الغاية إلى آخر الشوط.

فَلَيْسَ لِشَمْسٍ مُذْ أَنَرْتَ إنَارَةٌ،
وَلَيْسَ لِبَدْرٍ مُذْ تَمَمْتَ تَمَامُ(١)

فتى يهب الإقليم بما فيه

قال يمدحه وقد خرج إلى إقطاع أقطعه إياه بناحية معرة النعمان:

[الطويل]

أَيَا رَامِياً يُصْمِي فُؤَادَ مَرَامِهِ
تُرَبِّي عِدَاهُ رِيشَهَا لِسِهَامِهِ(٢)

أَسِيرُ إلى إقْطَاعِهِ، في ثِيَابِهِ
عَلَى طِرْفِهِ، مِنْ دَارِهِ، بِحُسَامِهِ(٣)

وَمَا مَطَرَتْنِيهِ مِنَ الْبِيضِ وَالْقَنَا
وَرُومِ الْعِبِدَّى هَاطِلَاتُ غَمَامِهِ(٤)

---

(١) يتمّ الشاعر فكرته بأن نور الأمير الباهر قد كسف ضياء غيره من الملوك لقوّة إشعاعه، ومن بدر نوره منهم فناقص في مقابل نور الأمير الذي تمّ بضيائه وأنسه ورقّته.

(٢) يُصمي: يُصيب مقتلاً في الرمي. المرام: المطلب. يخاطب الشاعر الأمير والفرح يملأ قلبه منوّهاً بحسن توفيقه، إنه رام من نوع نادر الوجود، فإذا رمى أصمى وأهلك عداه وأصاب مقاتلهم، فمن يرم الإساءة إليه أعادها إلى نحره، ولذا فهؤلاء يجمعون أموالهم وعتادهم ورجالهم لتؤول إليه غصباً واقتداراً فيستعين بها عليهم وينتصر بها.

(٣) ورد البيت في: خزانة الأدب للبغدادي ٣: ٦٧٣، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٢. الإقطاع: ما يقتطع من الأرض استغلالاً لها. الطرف: الفرس الكريم. الحسام: السيف البتّار. يُقرّ الشاعر بأفضال الأمير، إنه يتوجّه إلى ما أقطعه من أرض ينعم بخيراتها ويتصرّف بشؤونها، وقد أنعم عليه بثياب ملكية وفرسه الكريم فأهداه إليه يمتطيه بزهو وفخر، فضلاً عن بيوت للسكن وسلاح يستعين به وقت الملمات؛ فلم يُعوزه شيء في الحياة.

(٤) البيض: السيوف. القنا: الرماح. العبدّى، الواحد عبد. الغمام: السحب المليئة بالمطر. وليكتمل المشهد الاستعراضي أمدّ الأمير الشاعر بعبيد من الروم بأسلحتهم من سيوف ورماح يمشون بين يديه كأنه من الأمراء.

فَتًى يَهَبُ الإِقْلِيمَ بِالمَالِ وَالْقُرَى
وَمَنْ فِيهِ مِنْ فُرْسَانِهِ وَكِرَامِهِ (١)

وَيَجْعَلُ مَا خَوَّلْتُهُ مِنْ نَوَالِهِ
جَزَاءً لِمَا خُوِّلْتُهُ مِنْ كَلَامِهِ (٢)

فَلَا زَالَتِ الشَّمْسُ الّتِي في سَمَائِهِ
مُطَالِعَةَ الشَّمْسِ الَّتِي في لِثَامِهِ (٣)

وَلَا زَالَ تَجْتَازُ الْبُدُورُ بِوَجْهِهِ
تَعَجَّبُ مِنْ نُقْصَانِهَا وَتَمَامِهِ (٤)

فقال أبو الطيب مرتجلاً:

[الوافر]

رَأَيْتُكَ تُوسِعُ الشُّعَرَاءَ نَيْلاً
حَدِيثَهُمُ المُوَلَّدَ وَالْقَدِيمَا (٥)

فَتُعْطِي مَنْ بَقَى مَالاً جَسِيماً
وَتُعْطِي مَنْ مَضَى شَرَفاً عَظِيمَا (٦)

---

(١) يمدح الشاعر الأمير؛ إنه فتى اكتملت لديه عناصر الفتوة كرماً، شجاعة، نبل أخلاق، حسباً شريفاً، فمن كرمه أنه يهب الإقليم، الإقطاع بما فيه من حيوان وزروع وقرى حتى الفرسان من حماته وكرام الإقطاع، الكلّ يأتمر بأمر الشاعر ورهن إشارته، إنه الجود بعينه، ورغم ذلك، فقد راح المتنبي يستذل لكافور ليمنحه إقطاعاً يتصرّف به كيفما شاء. لذا لا بدّ من سبب آخر حمل الشاعر على ترك الأمير والارتحال عنه.

(٢) خوّل: وضع تحت يده، ملكه. النوال: العطاء. يتبيّن أن سيف الدولة كان على قدر كبير من الثقافة والمعرفة، لذا يعترف الشاعر بفضله بما يُوحيه له من معانٍ تتمثّل بشخصه أو بما يذكره أمام الشاعر من آراء وأفكار وحكم وقصص، فإذا بالشاعر يصوغها شعراً، فيكون كلاهما مشتركاً في العمل الشعري.

(٣) و (٤) يدعو الشاعر للأمير بالبقاء وطول العمر، فكلّما أشرقت الشمس واجهت وجه الأمير المشرق المنير بطلعته البهية. حتى البدور التي تدور مع الزمن، فيعتريها النقصان والكمال تسعد بنور وجه الأمير الدائم الجمال والكمال.

(٥) و (٦) توسع العطاء: تتبسّط فيه كثرة. النيل: العطاء. لقد جمع سيف الدولة عصبة من =

سَـمِـعْـتُـكَ مُـنْـشِـداً بَـيْـتَـيْ زِيَـادٍ
نَـشِـيـداً مِـثْـلَ مُـنْـشِـدِهِ كَـرِيـمَـا [(١)]

فَـمَـا أَنْـكَـرْتُ مَـوْضِـعَـهُ وَلٰـكِـنْ
غَـبَـطْـتُ بِـذَاكَ أَعْـظُـمَـهُ الـرَّمِـيـمَـا [(٢)]

الجسوم تسقط والأرواح تنهزم

قال وقد تُحدث بحضرة سيف الدولة أن البطريق أقسم عند ملكه أنه يعارض سيف الدولة في الدرب وسأله أن ينجده ببطارقته وعَدده وعُدده ففعل فخاب ظنه.
أنشده إياها سنة خمس وأربعين وثلاث مئة (٩٥٦م) وهي آخر ما أنشده بحلب:

[البسيط]

عُـقْـبَـى الْـيَـمِـيـنِ عَـلَـى عُـقْـبَـى الْـوَغَـى نَـدَمُ
مَـاذَا يَـزِيـدُكَ فِـي إِقْـدَامِـكَ الْـقَـسَـمُ [(٣)]

= الشعراء في عصره لا يُستهان بهم، وممّا أثار إعجاب الشاعر جود الأمير، فإذا به يصبّ الأموال عليهم، ولولا ذلك لما ذكر في أشعارهم، إنهم ساعدوا على انتشار صيته عبر الزمن، ولقد منح المال الجزيل للمحدثين منهم والقدماء، فمن لا يزال إلى جانب الأمير يستزيده عطاءً، ومن رحل عنه، فقد زاده شرفاً عظيماً لارتباط اسمه باسمه الأمير، فكلما أُنشد شعر هؤلاء انتشر صيتهم بانتشار صيت الأمير.

(١) زياد: هو النابغة الذبياني من كبار شعراء العصر الجاهلي ارتبط اسمه بالنعمان بن المنذر اللخمي. فقد استشهد الأمير بشعره، ممّا حمل المتنبي على مدح كلٍّ من الشاعر الذبياني والأمير.

(٢) الغبط: أن يتمنّى المرء أن يكون مثل من غبطه. الرميم: البالي من العظام. يبدي الشاعر إعجابه بشعر النابغة ويقدّر مكانته في عالم الشعر، ولذا تذكّر مكانته الرفيعة التي تبوّأها في عصره حتى خلّده شعره فإذا بالأمير يستشهد بشعره، لذا تمنّى أن يخلد في عالم الشعر كالنابغة الذي تفصله عنه أربعة قرون ونيّف، لذا غبط عظامه البالية.

(٣) العقبى: العاقبة. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بسخرية لاذعة للبطريق الذي أقسم لملك الروم أنه سيلتقي سيف الدولة ويُودي به إلى الهلكة، وقد جرت الأحداث خلاف ما تمنّى فكذّبت ذلك المدّعي فإذا بالأمير يُنزل به هزيمة منكرة. لذا فإن القسم لا يُؤدّي إلى النصر إن كان صاحبه جباناً رعديداً، وقد خيّب اللّه تعالى ظنّه. ومن هنا كانت شماتة الشاعر بذلك البطريق أن القادر على أمر ما ليس من الضروري أن يُقسم، فيجب عليه البرّ بقسمه.

وَفِـي الْـيَـمِـيـنِ عَـلَـى مَـا أَنْـتَ وَاعِـدُهُ
مَـا دَلَّ أَنَّـكَ فِـي الـمِـيـعَـادِ مُـتَّـهَـمُ[١]

آلَـى الْـفَـتَـى ٱبْـنُ شُـمُـشْـقِـيـقٍ فـأَحْـنَـثَـهُ
فتًى مِنَ الـضَّـرْبِ تُـنْـسَـى عِـنْـدَهُ الْـكَـلِـمُ[٢]

وَفَـاعِـلٌ مَـا اشْـتَـهَـى يُـغْـنِـيـهِ عَـنْ حَـلِـفٍ
عَـلَـى الْـفِـعَـالِ حُـضُـورُ الْـفِـعْـلِ وَالْـكَـرَمُ[٣]

كـلُّ الـسُّـيُـوفِ إذا طَـالَ الـضِّـرَابُ بِـهَـا
يَـمَـسُّـهَـا غَـيْـرَ سَـيْـفِ الـدَّوْلَـةِ الـسَّـأَمُ[٤]

لَـوْ كَـلَّـتِ الْـخَـيْـلُ حَـتّـى لا تَـحَـمَّـلُـهُ
تَـحَـمَّـلَـتْـهُ إلـى أَعْـدَائِـهِ الـهِـمَـمُ[٥]

---

(١) يتّهم الشاعر ذلك البطريق بالكذب، وهو ليس بحاجة إلى اليمين عندما وعد ملكه، فلم يصدق في قسمه، وليس من الضروري أن يعمد إلى ذلك حتى يتأكّد من أنه يُمكنه أن يبرّ بقسمه، وذلك محال بالنسبة لأي شخص مهما علا شأنه أمام سيف الدولة.

(٢) آلى: أقسم، حلف. ابن شمشقيق: البطريق الرومي. أحنثه: حمله على عدم البرّ بقسمه. الكلم، الواحدة: كلمة. لقد حمّل ابن شمشقيق أكثر ما يستطيع عندما أقسم، فإذا به يُفاجأ ببطل من العيار الثقيل ممّا أدهشه وشلّ تفكيره وجعل يتولّه، فذَبّ بمفاصيله الخوف ممّا أنساه قسمه فلم يبرَّ بوعده.

(٣) يُردف الشاعر قوله أن من حمل ابن شمشقيق على الحنث بقسمه فعّال لما يُريد فلا يلجأ إلى القسم، ففعله الإيجابي يكفي، لذا جعل البطريق أُضحوكة، حتى أمام نفسه قبل غيره. إنه كريم الأصل والفعال، فالكريم لا يصدر عنه إلّا كريم الأفعال.

(٤) الضّراب: المضاربة. السأم: الملل. يمدح الشاعر سيف الدولة، إنه سيف دائم القتال، لا يريم يضرب أعداءه وينتصر عليهم، خلاف غيره من سيوف سرعان ما تملّ وتفتر هممها.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٥. ينوّه الشاعر ببعد همّة الأمير وتصميمه على نضال أعدائه، فحتى جياده تتعب عن حمله ونقله إلى حيث يريد، فإذا به يتخلّى عنها ويسير راجلاً بهمته العظيمة حتى يصل إلى عدوّه ويتخلّص من شروره.

أَيْنَ الْبَطَارِيقُ وَالْحَلْفُ الّذِي حَلَفُوا
بِمَفْرَقِ المَلْكِ وَالزَّعْمُ الّذِي زَعَمُوا؟[١]

وَلَّى صَوَارِمَهُ إكْذَابَ قَوْلِهِمِ
فَهُنَّ أَلْسِنَةٌ أفْوَاهُهَا الْقِمَمُ[٢]

نَوَاطِقٌ مُخْبِرَاتٌ في جَمَاجِمِهِمْ
عَنْهُ بِمَا جَهِلُوا مِنْهُ وَمَا عَلِمُوا[٣]

الرَّاجِعُ الْخَيْلَ مُحْفَاةً مُقَوَّدَةً
مِنْ كلِّ مِثْلِ وَبَارٍ أَهْلُهَا إرَمُ[٤]

كَتَلِّ بِطْرِيقٍ المَغْرُورِ سَاكِنُهَا
بأَنَّ دَارَكَ قِنَّسْرِينُ وَالأَجَمُ[٥]

---

(١) البطريق: القائد من الروم. قصد بمفرق الملك رأسه. يستبعد الشاعر أن يبرّ البطاريق بقسمهم برأس الملك، وهو عظيمهم أنهم سيلتقون سيف الدولة ويُنزلون به هزيمة نكراء ويثبتون على قتاله ويظفرون به، ولقد أثبتت التجارب كذب مدعاهم، وهم لا يلتزمون بما ألزموا أنفسهم به من أيمان.

(٢) ولّى: أوكل، الصوارم، الواحد صارم: السيوف القاطعة. القمم، الواحدة قمّة: الرؤوس. أوكل الأمير رجاله أمر تكذيب البطارقة، فكانوا على قدر المسؤولية، فإذا بسيوفهم تنطق مكذّبة ادّعاءات أولئك البطارقة.

(٣) يتمّ الشاعر حديثه أن سيوف جيش الأمير تنطق بلسان الأحداث بصدق وأمانة في رؤوس أولئك المدّعين لتكشف عن كذبهم وضعفهم وجبنهم في مقابل بطل عظيم لا يستكين يضع السيف في رقابهم، عندئذٍ يتبيّن لهم أنهم يجهلون حقيقة ذلك البطل العظيم، ولكن معرفة ذلك قد جاءتهم بعد فوات الأوان، وقد أصبحوا في عداد الموتى.

(٤) وبار: مدينة تاريخية قد خرّبت، يقال إنها من مساكن عاد. إرم: جيل من البشر أهلكوا في الزمن القديم، يقال إنهم من عاد. يُنوّه الشاعر بقدرة سيف الدولة وجيشه على الانتصارات العظيمة، إنه يرجع إلى قاعدة إمارته، وقد ترك ديار أعدائه قاعاً صفصفاً، وقد سوّيت أركان بنيانها بالأرض، ودُمّرت معابدها وهبّت فيها النيران، فحلّ بها ما حدث لوبار وقوم إرم، فأصبح ساكنوها في خبر كان.

(٥) تل بطريق: من بلاد الروم. قنسرين: كورة ببلاد الشام قرب حلب. الأجم: مكان بقرب الفراديس، يُتمّ الشاعر كلامه عمّا حدث لسكّان تل بطريق، فهؤلاء قوم كانوا يستبعدون هجوم جيش الأمير على مدينتهم لما يظنون أن الأمير لا يستطيع الوصول =

وَظَنُّهُمْ أَنَّكَ الْمِصْبَاحُ فِي حَلَبٍ
إذا قَصَدْتَ سِوَاهَا عَادَهَا الظُّلَمُ (١)

وَالشَّمْسَ يَعْنُونَ إلّا أَنَّهُمْ جَهِلُوا
وَالْمَوْتَ يَدْعُونَ إلا أَنَّهُمْ وَهَمُوا (٢)

فَلَمْ تُتِمَّ سَرُوجٌ فَتْحَ نَاظِرِهَا
إلَّا وَجَيْشُكَ فِي جَفْنَيْهِ مُزْدَحِمُ (٣)

وَالنَّقْعُ يَأْخُذُ حَرَّاناً وَبَقْعَتَهَا
وَالشَّمْسُ تَسْفِرُ أحْيَاناً وَتَلْتَثِمُ (٤)

سُحْبٌ تَمُرُّ بِحِصْنِ الرَّانِ مُمْسِكَةً
وَمَا بِهَا الْبُخْلُ لَوْلَا أَنَّهَا نِقَمُ (٥)

= إلى مدينتهم لبعدها عن قنسرين في بلاد الشام والأجم، حيث يعسكر جيشه.

(١) عادها: انتابها. يُتابع الشاعر حديثه كاشفاً عن سوء اعتقاد القوم الخاطئ بأن حلب لو خلت من أميرها ذلك المصباح الذي يشعّ نوراً وطمأنينة لقام السكّان فيها بثورة على الأمير وحاولوا خلعه عن إمارته، فخاب ظنّهم لتمسّك مواطنيها بأميرهم.

(٢) يُردف الشاعر كاشفاً عن وهم القوم وغفلتهم، فالواقع أن الأمير شمس، وليس فقط مصباحاً بل إنه شمس تعمّ الأرض بأسرها، ومن خطئهم أنهم ظنوا أن الموت بعيد عنهم بتجنّبهم للأمير، فإذا بالموت يجثم على صدورهم.

(٣) سروج: بلد قرب حرّان. الناظر: العين. إنها سرعة المبادرة، فسروج كان سكّانُها يغطّون بنوم عميق، فإذا بتفتّح الفجر الوليد يفتح عيونهم على جيش الأمير يجثم على صدورهم، وخيول فرسانه تغطي أرضهم.

(٤) النقع: الغبار. حرّان: من بلاد ما بين النهرين على بعد من سروج. البَقعة: مكان كالبطحاء، يعرف ببقعة حرّان. تسفر: تكشف. يصوّر الشاعر مدى قوّة انتشار جيش الأمير في ذلك الصقع؛ فالغبار يغطّي سماء ذلك المكان، حرّان وبقعتها، والشمس في حيرة من أمرها تكشف عن وجهها تارة وتختفي طوراً آخر كأنها حسناء تسفر عن وجهها أحياناً ثم تعود لتستر وكأنها مِغناج تعمل على إغراء حبيبها.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٥. حصن الران: موضع من عمل سيف الدولة. ممسكة: بخيلة بالمطر. يصف الشاعر تقدّم جيش الأمير؛ إنها سحب تتدافع تترى مارّة بحصن الرّان، تمتاز بعنف حركتها وقوّة اندفاعها، ولكن لا تحمل =

جَـيـشٌ كـأنّـكَ فـي أرْضٍ تُـطَـاوِلُـهُ
فَـالأرْضُ لَا أَمَـمٌ وَالْـجَـيْـشُ لا أَمَـمُ (١)

إذا مَـضَـى عَـلَـمٌ مِـنْـهَـا بَـدَا عَـلَـمٌ
وَإنْ مَـضَـى عَـلَـمٌ مِـنْـهُ بَـدَا عَـلَـمُ (٢)

وَشُـزَّبٌ أحْـمَـتِ الـشِّـعْـرَى شَـكَـائِـمَـهَـا
وَوَسَّـمَـتْـهَـا عَـلَـى آنَـافِـهَـا ٱلْـحَـكَـمُ (٣)

حَـتّـى وَرَدْنَ بِـسِـمْـنِـيـنٍ بُـحَـيْـرَتَـهَـا
تَـنِـشُّ بـالـمَـاءِ فـي أشْـدَاقِـهَـا الـلُّـجُـمُ (٤)

وَأصْـبَـحَـتْ بِـقُـرَى هِـنـزِيـطَ جَـائِـلَـةً
تَـرْعَـى الظُّـبَـى فـي خَـصِـيـبٍ نَـبْـتُـهُ الـلِّـمَـمُ (٥)

فَـمَـا تَـرَكْـنَ بِـهَـا خُـلْـداً لَـهُ بَـصَـرٌ
تَـحْـتَ الـتُّـرَابِ وَلا بَـازاً لَـهُ قَـدَمُ (٦)

= معها مطراً لبخلها، ولو انهمر وابلها لخرّب تلك الديار، وهي في الأصل تفتك بأعدائها لأنها نقمة تحلّ بهم فتُهلك كلّ شيء.

(١) و (٢) تطاوله: تغالبه في الطول. الأمم: القرب. يُخاطب الشاعر الأمير منوّهاً بعظم جيشه، لقد امتدّ فغطّى الأرض لكثرة عدده، والأرض بدورها تتّسع لتستوعب فرقه، وكلّ فرقة يتقدّمها أميرها والفرق لا تني تتّسع أيضاً رغم تلاصقها وتقاربها، والفرق تتلاحق بتلاحق مرأى الجبال، وكأن كلّاً منهما يسعى للفوز بقصب السبق.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٥. الشّزّب، الواحد شازب: الفرس الضامر. الشعرى: نجم. الشكائم، الواحدة شكيمة: الحديدة المعترضة في فم الفرس. التوسيم: الكيّ. الحكم، الواحدة حكمة: ما أحاط من اللجام بالحنك. يُتابع الشاعر رسم ما كانت عليه الخيول عند اشتداد حرّ شمس الظهيرة، فقد حميت لجمها فإذا بالحكم تسم أنوفها.

(٤) سمنين: موضع النشيش: صوت الماء إذا غلى. يتابع الشاعر رسم ما كانت عليه تلك الجياد من عطش شديد وجهد عظيم بسبب اشتداد الحرارة، فحالما وصلت إلى بحيرة سمنين حتى تدافعت تروي عطشها وتبرّد لجمها التي حميت من شدّة الحرارة، فإذا بنشيش يتصاعد من لجمها.

(٥) و (٦) هنزيط: موضع ببلاد الروم، الظبى، الواحدة ظبة: حدّ السيف. اللمم، =

وَلَا هِـــزَبْـــراً لَـــهُ مِـــنْ دِرْعِـــهِ لِـــبَـــدٌ
وَلَا مَـهَـاةً لَـهَـا مِـنْ شِـبْـهِـهَـا حَـشَـمُ[(١)]

تَـرْمِـي عَـلَـى شَـفَـرَاتِ الْـبَـاتِـرَاتِ بِـهِـمْ
مَـكَـامِـنُ الأَرْضِ وَالْـغِـيـطَـانُ وَالْأَكَـمُ[(٢)]

وَجَـاوَزُوا أَرْسَـنَـاسـاً مُـعْـتَـصِـمِـيـنَ بِـهِ
وَكَـيْـفَ يَـعْـصِـمُـهُـمْ مَـا لَـيْـسَ يَـنْـعَـصِـمُ[(٣)]

= الواحدة لمّة: ما ألمّ بالمنكب من الشعر. أخيراً حلّت تلك الخيول في بلاد العدوّ، في قرى هِنّزيط تجول وتصول ويعمل فرسانها سيوفهم في رقاب القوم، فإذا بها ترعى بأرض خصبة تجمّ لمم المقاتلة، فتزيل الرؤوس عن أجسادها، والقوم لا يني بعضهم يدخل المطامير كالمناجذ يختبئون، فما منعتهم مطاميرهم من الموت، فالسيوف تلاحقهم بشفارها تهبرهم هبراً، ومن هؤلاء من اعتصم بالجبال كالبزاة يختبئ متوارياً عن الأنظار، ولكن الأنظار أدركته وألحقته بالعدم.

(١) الهزبر: من أسماء الأسد. اللبد، الواحدة لبدة: زبرة الأسد. المهاة: البقرة الوحشية، يقصد بذلك: النساء. الحشم: الخدم: حاشية الرجل العظيم. يُتابع الشاعر جولة السيوف؛ فأبطال الروم لم تمنعهم شجاعتهم من الهلاك، فكان نصيبهم نصيب سواهم من القتلى، حتى نساء القوم، الحسناوات الجميلات وبخاصة النبيلات منهن لقين مصير سواهن مع حاشياتهن.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٥. الشفرات، الواحدة شفرة: حدّ السيف، الباترات: القاطعات. مكامن الأرض: الخافي منها. الغيطان، الواحد غائط: المطمئن من الأرض. الأكم، الواحدة أكمة: التلال. يتابع الشاعر وصف ما حلّ بالقوم، لقد تخلّت عنهم أرضهم وتركتهم يلاقون مصيرهم المشؤوم، بل إنها ساعدت على كشف مخابئهم ليكونوا عرضة للذبح بشفار السيوف البتَّارة، فلا الغيطان ولا التلال رثت لحالهم بل إنها دفعت بهم ليلاقوا مصيراً بئيساً.

(٣) أرسناس: نهر معروف ببلادهم. معتصمين ممتنعين. يذكر الشاعر تصميم الأمير على ملاحقة ما بقي من القوم على قيد الحياة، فإذا بالفارّين يُعرّضون أنفسهم لمخاطر نهر جار جارف؛ أرسناس ذلك النهر الذي لم يمتنع عن جند الأمير الذين عبروا النهر ليتابعوا قتل من عبره من الفارّين. ولذا فلا يعصي على الأمير البشر ولا الطبيعة بجبالها وأوديتها وأنهارها.

وَمَـا يَـصُـدُّكَ عَـنْ بَـحْـرٍ لَـهُـمْ سَـعَـةٌ
وَمَـا يَـرُدُّكَ عَـنْ طَـوْدٍ لَـهُـمْ شَـمَـمُ[١]

ضَـرَبْـتَـهُ بِـصُـدُورِ ٱلْـخَـيْـلِ حَـامِـلَـةً
قَـوْمـاً إذا تَـلِـفُـوا قُـدْمـاً فَـقَـدْ سَـلِـمُـوا[٢]

تَـجَـفَّـلُ الـمَـوْجُ عَـنْ لَـبَّـاتِ خَـيْـلِـهِـم
كَـمَـا تَـجَـفَّـلُ تَـحْـتَ الْـغَـارَةِ الـنَّـعَـمُ[٣]

عَـبَـرْتَ تَـقْـدُمُـهُـمْ فِـيـهِ وَفـي بَـلَـدٍ
سُـكَّـانُـهُ رِمَـمٌ مَـسْـكُـونُـهَـا حُـمَـمُ[٤]

وَفـي أكُـفِّـهِـم الـنَّـارُ الَّـتِـي عُـبِـدَتْ
قَـبْـلَ الـمَـجُـوسِ إلَـى ذَا الْـيَـوْمِ تَـضْـطَـرِمُ[٥]

---

(١) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٥. الطود: الجبل العظيم. الشمم: العلو والارتفاع. يُخاطب الشاعر الأمير منوّهاً ببعد همّته وإصراره على ملاحقة عدوّه حيثما كان، لذا فلا تمتنع عنه البحار مهما اتّسعت وعظمت، حتى الجبال الشاهقة تدين لسلطانه، فإذا به يطأ قممها رغماً عنها بحثاً عن أعدائه.

(٢) يذكر الشاعر ما فعل الأمير، فقد ضرب النهر بصدور خيله ولم يتردّد في الملاحقة؛ فالفارّون اندفعوا يواجهون الموت فراراً من الموت، فمن لم يلاقه غرقاً لاقاه بسيوف جيش الأمير.

(٣) التجفل: الإسراع في الهرب. اللبّات، الواحدة لبة: أعلى الصدر. الغارة: الخيول المغيرة على القوم. النعم: الأنعام من مواشٍ كالأغنام والأبقار والجمال. يصوّر الشاعر اندفاع الخيول في مواجهة المياه المتدفقة كأنها بواخر تواجه الأمواج بصدورها بعنف فتنهزم تلك الأمواج وتتفرّق كأنها أنعام فوجئت بغارة وحش كاسر لا تدري أين المفرّ، فإذا بها تجفل منهزمة لا تلوي على شيء.

(٤) الرمم، الواحدة رمّة: العظام البالية. الحُمَم الواحدة، حُممة: الرماد والفحم. يُخاطب الشاعر الأمير مُنوّهاً بإقدامه على المخاطرة؛ فالقائد قدوة في كلّ ما يفعل، فإذا بالجند لا يتردّدون عندما يروْن الأمير يرمي بنفسه في المهالك ولا يتردّدون أن يقتدوا به، لقد نكب المدينة بساكنيها، فأعمل فيهم قتلاً ذريعاً ثم أحرق مدينتهم، فكانت النتيجة مريعة.

(٥) يذكر الشاعر مدى قوّة جيش الأمير؛ إنهم يستعملون سيوفاً ناريّة تضطرم غضباً؛ إنها =

هِـنْـدِيَّـةٌ إنْ تُـصَـغِّـرْ مَـعْـشَـراً صَـغُـرُوا
بِـحَـدِّهَـا أوْ تُـعَـظِّـمْ مَـعْـشَـراً عَـظُـمُـوا[١]

قَـاسَـمْـتَـهَـا تَـلَّ بِـطْـرِيـقٍ فَـكَـانَ لَـهَـا
أَبْـطَـالُـهَـا وَلَـكَ الأطْـفَـالُ وَالْـحُـرَمُ[٢]

تَـلْـقَـى بِـهِـمْ زَبَـدَ الـتَّـيَّـار مُـقْـرَبَـةٌ
عَـلَـى جَـحَـافِـلِـهَـا مِـنْ نَـضْـحِـهِ رَثَـمُ[٣]

دُهْـمٌ فَـوَارِسُـهَـا رُكَّـابُ أَبْـطُـنِـهَـا
مَـكْـدُودَةٌ بِـقَـوْمٍ لا بِـهَـا الألَـمُ[٤]

مِـنَ الْـجِـيَـادِ الَّـتِـي كِـدْتَ الْـعَـدُوَّ بِـهَـا
وَمَـا لَـهَـا خِـلَـقٌ مِـنْـهَـا وَلَا شِـيَـمُ[٥]

= لاهبة مشتعلة على الدوام كنار المجوس الملاعين الذين يعبدون النار من دون اللّه تعالى، وهي لا تزال على حالها وستبقى مدى الدهر في نظرهم.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٥. يُتابع الشاعر متحدّثاً عن دور تلك السيوف، إنها من صنع بلاد الهند، يتمحور دورها في خفض شأن جماعة بهزيمتهم وقتلهم أو بدور جماعة أخرى برفع شأنهم لاستعمالهم إيّاها فتساعدهم على النصر والغلبة فيعظمون بواسطتها.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٦. تل بطريق: اسم بلدة رومية. يُتابع الشاعر حديثه عن تلك السيوف النارية فإذا بها تقوم بالقسمة، وقسمتها ليس فيها إجحاف، فأبطال الروم من حظها سفكت دماءهم وارتوت بها. أما النساء والأطفال فقد كانوا من حصة الأمير، فكانوا أسرى وسبايا.

(٣) المقربة: الخيل وعنى بها السفن. الجحافل، الواحدة جحفلة: وهي لذي الحافر بمنزلة الشفة للإنسان. النضح: الرشّ. الرثم: بياض في جحفلة الفرس العليا. يصف الشاعر عودة الفرسان، وهم يصطحبون السبايا والأطفال، لقد بدت الجياد كأنها سفن تمخر عباب النهر، وقد غمرها الماء فبدا الزبد كالرثم في جحافلها.

(٤) دهم: سود. مكدودة: متعبة. يصف الشاعر تلك الجياد إنها سوداء طُليت بالقار، لقد أنهك قواها طول السير، وفرسانها تركب بطونها، لا ظهورها، والملّاحون قد حلّ بهم التعب لأنهم هم الذين يعملون على قيادتها عبر النهر.

(٥) الجياد: الخيول. الشيم، الواحدة شيمة: الأخلاق. إن تلك الخيول محسوبة على =

نِـتَــاجُ رَأْيِــكَ فــي وَقْــتٍ عَــلَــى عَــجَــلٍ
كَــلَــفْــظِ حَــرْفٍ وَعَــاهُ سَــامِــعٌ فَــهِــمُ[١]

وَقَــدْ تَــمَــنَّــوْا غَــدَاةَ الــدَّرْبِ فــي لَــجَــبٍ
أَنْ يُــبْــصِــرُوكَ فَــلَــمَّــا أَبْــصَــرُوكَ عَــمُــوا[٢]

صَــدَمْــتَــهُــمْ بِــخَــمِــيــسٍ أَنْــتَ غُــرَّتُــهُ
وَسَــمْــهَــرِيَّــتُــهُ فــي وَجْــهِــهِ غَــمَــمُ[٣]

فَــكَــانَ أَثْــبَــتَ مَــا فِــيــهِــمْ جُــسُــومُــهُــمُ
يَــسْــقُــطْــنَ حَــوْلَــكَ وَالْأَرْوَاحُ تَــنْــهَــزِمُ[٤]

= جنسها، وليست منها لأنها الآن تقوم بعمل السفن، لقد أعدّها الأمير ليكيد بها أعداءه، فعليها يحمل جيشه، وحيث إنها شبيهة بأبناء جنسها إلّا أنها لا تحمل خصائص الخيول وطباعها.

(١) يُنوّه الشاعر بشدّة فطنة الأمير، إنه الموقف الذي لم يكن بالحسبان، العدوّ يفرّ والنهر تتدافع مياهه، ولا بدّ من اتخاذ قرار سريع، وإلّا سيضيع مجهود الجيش، فإذا بكلمة تصدر من الأمير إنه أمر بملاحقة الفارّين وأسرهم أو قتلهم؛ فإذا بالالتزام بأوامر القيادة يكون دون تردّد.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٦. الدرب: موضع. اللجب: الضجيج والجلبة. يُخاطب الشاعر الأمير، لقد كان في نيّة الروم ملاقاته. وكانت المفاجأة أن اللقاء كان صباح الدرب، فإذا بهم لدهشتهم يُبصرون بطلاً ذا هيبة قد أعمى قلوبهم وأبصارهم فاستسلموا لعجزهم وضعفهم، فكانوا لقمة سائغة التقمها جيش الأمير.

(٣) الخميس: الجيش العظيم المؤلّف من خمس فرق. الغرّة: الطلعة والوجه المشرق الجميل. السمهري: الرمح. الغمم: كثرة الشعر وإسباله على الوجه. إنه صدام عنيف نزل بالقوم، جيش عظيم مؤلّف من خمس فرق يقوده غرّته بطلاقة وجهه وإشراقه، استقبلهم برماح سمهريّة، وقد نقل الشاعر هذه الصورة المتحركة إلى جواد جموح.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٦. يتابع الشاعر ما حلّ بالروم، فقد ثبت القوم في أماكنهم، ولم يثبتوا في قتالهم فتهاووا صرعى واستسلموا إلى الأمير وقد انهزموا نفسياً فآل أمرهم إلى الخسران المبين.

وَالْأَعْـوَجِـيَّـةُ مِـلْءُ الـطُّـرْقِ خَـلْـفَـهُـمُ
وَالْـمَـشْـرَفِـيَّـةُ مِـلْءُ الْـيَـوْمِ فَـوْقَـهُـمُ(١)

إِذَا تَـوَافَـقَـتِ الـضَّـرْبَـاتُ صَـاعِـدَةً
تَـوَافَـقَـتْ قُـلَـلٌ فِـي الْـجَـوِّ تَـصْـطَـدِمُ(٢)

وَأَسْـلَـمَ ابْـنُ شُـمُـشْـقِـيـقٍ أَلِـيَّـتَـهُ
أَلَّا ٱنْـثَـنَـى فَـهْـوَ يَـنْـأَى وَهْـيَ تَـبْـتَـسِـمُ(٣)

لَا يَـأْمُـلُ الـنَّـفَـسَ ٱلْأَقْـصَـى لِـمُـهْـجَـتِـهِ
فَـيَـسْـرِقُ الـنَّـفَـسَ ٱلأَدْنَـى وَيَـغْـتَـنِـمُ(٤)

تَـرُدُّ عَـنْـهُ قَـنَـا الْـفُـرْسَـانِ سَـابِـغَـةٌ
صَـوْبُ الأَسِـنَّـةِ فِـي أَثْـنَـائِـهَـا دِيَـمُ(٥)

---

(١) الأعوجية: الخيول المنتسبة إلى أعوج: جواد عظيم في العصر الجاهلي. المشرفية: السيوف. لقد ضاقت الأرض على القوم، فالخيول أحاطت بهم من كلّ جانب، والسيوف أشرقت شمسها فوق رؤوسهم، فوقع القوم لقمة سائغة ينهشها فرسان الأمير.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٦. القلل، الواحدة قلّة: أعلى الرأس. يصف الشاعر ضرب فرسان الأمير، إنهم يرفعون سيوفهم في الهواء فوق رؤوس الأعداء، فإذا بتلك الرؤوس قد انفصلت عن أجساد أصحابها وتدحرجت أرضاً. ولقد توافقت الضربات بعدد الرؤوس، ممّا يعني أن الفرسان مهرة في القتال.

(٣) أسلم: ترك. ابن شمشقيق: أحد بطارقة الروم. ينأى: يبعد. يسخر الشاعر من ابن شمشقيق، فقد آل على نفسه أن يثبت في القتال وألّا يفرّ، فإذا به يتخلّى عن قسمه ويُؤثر السلامة، فيفرّ منهزماً، ولقد توغّل في فراره ويمينه تهزأ منه ضاحكة.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٦. الأقصى: الأبعد. المهجة: الروح. يرى الشاعر أن الموت في القتال سبب من أسباب خلود المرء، وابن شمشقيق فكّر واختار حياة بئيسة، فإذا به يسرق أنفاسه القريبة سرقة من أيدي الأجل.

(٥) القنا: الرماح. السابغة: الدرع التامة الطويلة. الصوب: انهمار الماء بغزارة. الديم، الواحدة ديمة: المطر الدائم في سكون. يذكر الشاعر أن ابن الشمشقيق كان قد تدرّع بدرع تامة طويلة، ورغم تكاثر الفرسان عليه وكلّ منهم يودّ أن ينال الشرف بقتله فإنهم لم يُفلحوا، فقد حالت الدرع دون مسعاهم ودون قتله على أيديهم، فلا زال في عمره بقيّة من شقاء ومهانة وعذاب.

تَـخُـطُّ فِـيـهَـا الْـعَـوَالِـي لَـيْـسَ تَـنْـفُـذُهَـا
كَـأَنَّ كُـلَّ سِـنَـانٍ فَـوْقَـهَـا قَـلَـمُ[١]

فَـلاَ سَـقَـى الْـغَـيْـثُ مَـا وَارَاهُ مِـنْ شَـجَـرٍ
لَـوْ زَلَّ عَـنْـهُ لَـوَارَتْ شَـخْـصَـهُ الـرَّخَـمُ[٢]

أَلْـهَـى الْـمَـمَـالِـكَ عَـنْ فَـخْـرٍ قَـفَـلْـتَ بِـهِ
شُـرْبُ الْـمُـدَامَـةِ وَالأَوْتَـارُ وَالـنَّـغَـمُ[٣]

مُـقَـلَّـداً فَـوْقَ شُـكْـرِ ٱلـلَّـهِ ذَا شُـطَـبٍ
لَا تُـسْـتَـدَامُ بِـأَمْـضَـى مِـنْـهُـمَـا الـنِّـعَـمُ[٤]

أَلْـقَـتْ إلَـيْـكَ دِمَـاءُ الـرُّومِ طَـاعَـتَـهَـا
فَـلَـوْ دَعَـوْتَ بِـلَا ضَـرْبٍ أَجَـابَ دَمُ[٥]

---

(١) العوالي: صدور الرماح. يُتابع الشاعر رسم الصورة، فصدور الرماح التي صُوّبت إليه لم تُفلح في اختراق تلك الدرع رغم تكاثرها، إنها تخدش الدرع بخربشات كأنها أقلام لا أثر لها يُذكر بحيث لم تقتله بل هي أشبه بخطوط وهمية تخطّ في قرطاس ولا تؤثر فيه حتى تمزّقه.

(٢) الغيث: المطر. واراه: ستره. الرخم، الواحدة رخمة: من جوارح الطيور الضخمة. تمكن ابن شمشقيق من الفرار والاختباء بين لفيف من الأشجار حالت دون رؤيته، ولو اكتشف أمر فراره لكان من الهالكين ولكان طعماً للرخم، لذا راح الشاعر يدعو على الأشجار التي حمته بألّا تسقى بمياه الأمطار.

(٣) وردت الأبيات الأربعة التالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٦. قفلت: رجعت. يُقارن الشاعر بين سياسة سيف الدولة الذي يسعى على الدوام إلى البحث عن الانتصار، ولا يهتمّ بما يهتمّ به سائر الملوك الذين يعكفون على اللهو ومعاطاة الخمرة وسماع الغناء، وما يدور في قصورهم من لهو.

(٤) ذا شطب: السيف في متنه طرائق. يصف الشاعر الأمير، بأنه يتقلّد سيفاً ذا شطب، ويجاهد به أعداء اللّه ومن طبيعته شكر اللّه عزّ وجلّ على تأييده له بالنصر المؤزّر، وبذلك يستديم نعمه عليه ورعايته له.

(٥) يُخاطب الشاعر سيف الدولة لقد استسلم الروم لإرادته، فقد أذعنت دماؤهم لسيفه لكثرة ما قتل منهم، حتى اعتقدوا يقيناً بأن قتلهم لا يتمّ إلّا على يديه، ومن مغالاة =

يُسَابِقُ الْقَتْلُ فِيهِمْ كُلَّ حَادِثَةٍ
فَمَا يُصِيبُهُمُ مَوْتٌ وَلَا هَرَمُ[(١)]

نَفَتْ رُقَادَ عَلِيٍّ عَنْ مَحَاجِرِهِ
نَفْسٌ يُفَرِّجُ نَفْساً غَيْرَهَا الْحُلُمُ[(٢)]

الْقَائِمُ الْمَلِكُ الْهَادِي الَّذِي شَهِدَتْ
قِيَامَهُ وَهُدَاهُ الْعُرْبُ وَالْعَجَمُ[(٣)]

إِبْنُ الْمُعَفِّرِ فِي نَجْدٍ فَوَارِسَهَا
بِسَيْفِهِ وَلَهُ كُوفَانُ وَالْحَرَمُ[(٤)]

لَا تَطْلُبَنَّ كَرِيماً بَعْدَ رُؤْيَتِهِ
إِنَّ الْكِرَامَ بِأَسْخَاهُمْ يَداً خُتِمُوا[(٥)]

= الشاعر أن دماء القوم يكفي أن يدعوهم الأمير إلى القتال لسالت دماؤهم قبل المباشرة بالقتال استجابة لإرادته.

(١) الحادثة: الأمراض الفجائية. ينوّه الشاعر بأن موت القوم سريع، فلا تُصيبهم الأمراض المزمنة أو الفجائية، لأن الأمير يعمل على قتل الجنود منهم وهم في مقتبل العمر فلا يهرمون، لذا قلّما يموت بعضهم حتف أنفه أو يشيخ لكبر سنه. فالأمير يسابق الأحداث فيهم، وذلك من فضله عليهم.

(٢) علي: اسم سيف الدولة. المحاجر، الواحد محجر: ما حول العين، يقصد جفنيه. الحلم: الرؤية في النوم. يذكر الشاعر بعد همة الأمير، فنومه لراحة جسده ليقوى على القيام بالأعباء التي يريد القيام بها وتتطلّب جهداً عظيماً، فلا ينام ليحلم، لأن الأحلام عنده واقع يتجسّد بهمة عالية وطموح يتحقّق بعزم وقوّة صادقة.

(٣) يصف الشاعر الأمير بأنه القائم بشؤون الدفاع عن الدين وأعراض المسلمين بوعي وحسن دراية، وهذا ما جعل العرب والعجم يشهدون له بقيامه بواجبه خير قيام بما يتوجّب عليه نحو ملته وأمته.

(٤) يمدح الشاعر والد سيف الدولة أبا الهيجاء الذي تصدّى للقرامطة وفتك بهم وكسر شوكتهم وأفناهم في نجد وتركهم معفرين بالتراب وحمى الكوفة منهم والحرم المكي من تخريبهم وفسادهم في الأرض.

(٥) ينوّه الشاعر بجود الأمير، فمن أراد أن يقصد كريماً، فما عليه إلّا أن يقصد سيف الدولة، ولا أحد سواه، فإنه أكثر الكرماء سخاءً، وآخر الكرماء حقيقة.

وَلَا تُبَالِ بِشِعْرٍ بَعْدَ شَاعِرِهِ
قَدْ أُفْسِدَ الْقَوْلُ حَتَّى أُحْمِدَ الصَّمَمُ (١)

غريبة الزمان

يمدحه ويذكر إيقاعه بعمرو بن حابس وبني ضبة سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة (٩٣٣م) ولم ينشده إياها :

[الكامل]

ذِكَرُ الصِّبَى وَمَرَاتِعِ الآرَامِ
جَلَبَتْ حِمَامِي قَبْلَ وَقْتِ حِمَامِي (٢)

دِمَنٌ تَكَاثَرَتِ الْهُمُومُ عَلَيَّ فِي
عَرَصَاتِهَا كَتَكَاثُرِ اللُّوَّامِ (٣)

وَكَأَنَّ كُلَّ سَحَابَةٍ وَقَفَتْ بِهَا
تَبْكِي بِعَيْنَيْ عُرْوَةَ بْنِ حِزَامِ (٤)

---

(١) لم ينس الشاعر نفسه، في خضم المدح من أن يفخر بشعره فعلى المرء ألّا يهتم بشاعر سواه، لأن هؤلاء أفسدوا الشعر، لذا فالأوجب ألّا يسمع من غيره، فالصمم في هذه الحالة نعمة لا تساويها نعمة.

(٢) يروى «مرابع» بدلاً من «مراتع». وهو المكان حيث يربعون. ذكر، الواحدة ذكرى. المراتع: المواضع حيث ترتع الماشية. الآرام، الواحد ريم: الظبي الخالص البياض. الحمام، بكسر الحاء: الموت. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بالغزل؛ لقد تذكر الشاعر أيام صباه حيث كان يلهو بفرح مع عذارى كأنهن الظباء، جمالاً وأناقة ورقة ولطافة، فإذا بالذكرى تنقله إلى ذلك الماضي البهي حيث مراتع غنّاء مليء باللهو البريء وصدق المشاعر ممّا أمضّ ألمه لشدّة شوقه ووجده لفراقهن، فكأنه مات لفقده فترة طهر وحبّ صادق.

(٣) وردت الأبيات الثلاثة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٢. الدمن، الواحدة دمنة: ما تلبّد من آثار الديار بعد مغادرة القوم لها. العرصات، الواحدة عرصة: ساحة الدار، فناؤها. لقد وقف الشاعر على تلك الأطلال الباقية التي تحوّلت إلى دمن فاقدة الروح، فقد هجرها أهلها، هناك كانت ديار محبوبته فأشجاه مرآها الحزين، فإذا بالهموم تهبّ من رقدتها ويشتد هيامه وتكثر لواعجه كتكاثر لائميه لحبّ ما عاد له وجود لتقادم عهده.

(٤) يروى «فكأن» بدلاً من «وكأن» و «وكفت» بدلاً من «وقفت». وكفت: انهمرت. =

وَلَطَالَمَا أَفْنَيْتُ رِيقَ كَعَابِهَا
فِيهَا وَأَفْنَتْ بِالْعِتَابِ كَلَامِي[(١)]

قَدْ كُنْتَ تَهْزَأُ بِالْفِرَاقِ مَجَانَةً
وَتَجُرُّ ذَيْلَيْ شِرَّةٍ وَعُرَامِ[(٢)]

لَيْسَ الْقِبَابُ عَلَى الرِّكَابِ وَإِنَّمَا
هُنَّ ٱلْحَيَاةُ تَرَحَّلَتْ بِسَلَامِ[(٣)]

لَيْتَ الَّذِي فَلَقَ النَّوَى جَعَلَ ٱلْحَصَى
لِخِفَافِهِنَّ مَفَاصِلِي وَعِظَامِي[(٤)]

= عروة بن حزام: أحب عفراء ابنة عمه تربى في كنف عمه مع ابنته، ولما كبر خطبها منه، ولكن أمها طلبت مهراً لا يقدر عليه، فرحل إلى عم له ليأتي بمهر عفراء، فإذا بامرأة عمه تزوّج ابنتها من أموي من أهل البلقاء (بالشام) فلحق بها، وأكرمه زوجها، فأقام أياماً ثم رحل عنها ومات نحو سنة ٣٠هـ = نحو سنة ٦٥٠م. انظر ترجمته في الشعر والشعراء، مصارع العشاق: ١٣٢. يُتمّ الشاعر رسم الصورة التي كانت عليها تلك الأطلال، فإذا بها تبدو باهتة لكثرة الأمطار التي عرّتها عن صورتها الأصلية ومحت آثار تلك الديار.

(١) الكعاب: الفتاة الناهد وقد نهد ثدياها. لشدة حبّ الشاعر لمحبوبته التي بدأت الأنوثة تغزو جسدها بتناسقها وجمالها، كان منه أن يلثم ريق كعاب تلك الدمن، ممّا حمل محبوبته على معاتبته وإطالة عتابها له فأسكتته، فلم يعد ينطق ببنت شفة، وها هو يذكر الآن ساكني تلك الديار فيزداد شوقه وألمه لما حلّ بتلك الديار.

(٢) المجانة: الخلاعة. الشّرّة: البطر. العرام: الشراسة. حوار ذاتي يجري بين الشاعر ونفسه، لطالما لم تفكر في شبابك في الفراق وما يُحدثه من ألم في نفس المرء، وكنت تتعامل معه باستخفاف وسخرية، وذلك سببه قوّة الشباب وحيويّته وعدم تقدير عواقب ما تأتي به الأيام.

(٣) القباب، الواحدة قبة: الهوادج مراكب النساء في الرحلات. الركاب: الإبل. يستخلص الشاعر العظة من ترحّل النسوة في هوادجهن، فما يراه، إنه في الحقيقة حياة زائلة، صحيح أنه يرى هوادج تترحّل، ولكنها الحياة التي تُؤذن بالتحوّل، ولشدّة حزنه فإنه يُحسّ بموت بطيء يتسرّب إلى روحه وكيانه بارتحالهن.

(٤) النوى: البعد. يتمنّى الشاعر لو أن الذي خلق البعد والغربة يحوّل مفاصله وعظامه =

مُـتَـلَاحِـظَـيْـنِ نَـسُـحُّ مَـاءَ شُـؤُونِـنَـا
حَـذَراً مِـنَ الـرُّقَـبَـاءِ فِـي الأَكْـمَـامِ(١)

أَرْوَاحُـنَـا ٱنْـهَـمَـلَـتْ وَعِـشْـنَـا بَـعْـدَهَـا
مِـنْ بَـعْـدِ مَـا قَـطَـرَتْ عَـلَـى الْأَقْـدَامِ(٢)

لَـوْ كُـنَّ يَـوْمَ جَـرَيْـنَ كُـنَّ كَـصَـبْـرِنَـا
عِـنْـدَ الـرَّحِـيـلِ لَـكُـنَّ غَـيْـرَ سِـجَـامِ(٣)

لَـمْ يَـتْـرُكُـوا لِـي صَـاحِـبـاً إِلَّا الْأَسَـى
وَذَمِـيـلَ دِعْـبِـلَـةٍ كَـفَـحْـلِ نَـعَـامِ(٤)

= حصًى تدوسها أخفاف المطايا ممّا يُوحي بشدّة معاناته وحرمانه ليحسّ بشدّة الارتباط بينه وبين حبيبته.

(١) نسحّ: نسكب. الشؤون، الواحد شأن: مجرى الدمع من الرأس. الأكمام، الواحد كمّ: الثوب مدخل اليد ومخرجه. يروى «الآكام» بدلاً من «الأكمام». يصف الشاعر لحظة ارتحال حبيبته، لقد كانت لغة الدموع تتكلّم بينهما، وتنهمر من عيونهما، وهما يتبادلان النظرات بصمت، ومخافة لفت أنظار الرقباء، فقد كان الواحد منهما يستتر فيستعمل أكمام ثوبه ليغطي بها دموعه بحذر شديد.

(٢) انهملت: انسكبت. لقد كانت تلك الدموع المنسكبة بمثابة روحين ذابتا وانصبّتا على أقدامهما، وفجأة تغيّرت مجريات الأمور وتبدلت حياة كل منهما، فأصبحت حياتهما مختلفة المصير.

(٣) سجام: غزيرة كثيرة. يتحدّث الشاعر عن حالة محبوبته وحالته، لقد كانت لغة الدموع هي الغالبة، فقد انسكبت دموعهما بغزارة، أما صبرهما فما كان بمقدار ما سكبا من الدموع، ولو كان كذلك لقلّ بكاؤهما، وذلك منطقي، فالشباب وحيويته تتطلب الإسراع في إنجاز ما يحبّون، فالصبر من طبيعة النضج العقلي وسعة التجربة لدى المرء.

(٤) الأسى: الحزن. الذميل: ضرب من السير السريع. الدعبلة: الناقة السريعة، فحل النعام: الظليم، ذكر النعام. لقد رحل القوم بعيداً فشعر الشاعر بالأسى والوحدة والوحشة، فما كان له إلّا أن يترك تلك الديار بدوره باحثاً عمّا يُسليه ويُنسيه أحزانه مستعيناً بناقة سريعة تعدو به بعيداً كالظليم في عدوها وسرعتها في القفر.

وَتَعَذُّرُ ٱلْأَحْرَارِ صَيَّرَ ظَهْرَهَا
إِلَّا إِلَيْكَ عَلَيَّ ظَهْرَ حَرَامِ(١)
أَنْتَ الْغَرِيبَةُ فِي زَمَانٍ أَهْلُهُ
وُلِدَتْ مَكَارِمُهُمْ لِغَيْرِ تَمَامِ(٢)
أَكْثَرْتَ مِنْ بَذْلِ النَّوَالِ وَلَمْ تَزَلْ
عَلَماً عَلَى ٱلْإِفْضَالِ وَالْإِنْعَامِ(٣)
صَغَّرْتَ كُلَّ كَبِيرَةٍ وَكَبُرْتَ عَنْ
لَكَأَنَّهُ وَعَدَدْتَ سِنَّ غُلَامِ(٤)
وَرَفَلْتَ فِي حُلَلِ الثَّنَاءِ وَإِنَّمَا
عَدَمُ الثَّنَاءِ نِهَايَةُ الْإِعْدَامِ(٥)

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٤. يروى «فَرْج» بدلاً من «ظهر». يتخلّص الشاعر من الغزل إلى المدح، يُردف الشاعر أن ناقته انطلقت تبحث عن الكرام، فلم تعثر إلّا على الأمير من بين الأمراء والملوك، فإذا بها بحسّها تعرف وجهته؛ فهو الحرّ الذي يستحقّ التكريم والزيارة، والشاعر بدوره لا يسعى إلّا للمثول بين يديه على ظهر ناقته دون سواه.

(٢) ينوّه الشاعر بتفرّد الأمير بجوده في زمن كثر من نقص مكارمه، فكان غريباً في مأدبة كثر فيها اللئام لبخلهم وقلّة إنعامهم.

(٣) النوال: العطاء. العلم: العلامة الدّالة عليه. يُخاطب الشاعر الأمير، فقد أصبح رمز العطاء، كثير الإفضال، فبهما يُعرف وبه يُعرفان، فبات كالعلامة لهما، يتحرّكان ويدلّان على أفعاله.

(٤) يُردف الشاعر كلامه مخاطباً الأمير، فبأعماله العظيمة صغّر كلّ عمل يقوم به غيره ويعتبره عظيماً، فإذا به يضمحلّ ويصغر شيئاً فشيئاً حتى يكاد يختفي من الوجود، وفي المقابل تكبر أعماله مع مرور الزمن، والأمير لم يكن وليد ساعته، بل إنه يُلازم الأمير منذ طفولته، وهو ينمو بترعرعه.

(٥) رفل في ثيابه: أطالها وجرّها متبختراً. الثناء: المدح. الإعدام: الفقر. يخاطب الشاعر ممدوحه، لقد أعطاه كرمه ثناءً وألبسه حُللاً بهيّة يتيه بها على الزمن، فقصائد الشعراء أسبغت عليه فضلاً لن تمحوه الأيام بفضل جوده، بينما ستذهب تلك الأموال ويبقى فضله تلهج به الألسن.

عَيْبٌ عَلَيْكَ تُرَى بِسَيْفٍ فِي ٱلْوَغَى
مَا يَصْنَعُ الصَّمْصَامُ بِالصَّمْصَامِ؟[١]

إنْ كَانَ مِثْلُكَ كَانَ أوْ هُوَ كَائِنٌ
فَبَرِئْتُ حِينَئِذٍ مِنَ ٱلْإِسْلَامِ

مَلِكٌ زُهَتْ بِمَكَانِهِ أيَّامُهُ
حَتّى ٱفْتَخَرْنَ بِهِ عَلَى ٱلْأيَّامِ[٢]

وَتَخالُهُ سَلَبَ الْوَرَى مِنْ حِلْمِهِ
أحْلَامَهُمْ فَهُمُ بِلَا أحْلَامِ[٣]

وَإذَا ٱمْتَحَنْتَ تَكَشَّفَتْ عَزَمَاتُهُ
عَنْ أوْحَدِيِّ النّقْضِ وَالْإِبْرَامِ[٤]

وَإذَا سَأَلْتَ بَنَانَهُ عَنْ نَيْلِهِ
لَمْ يَرْضَ بِالدُّنْيَا قَضَاءَ ذِمَامِ[٥]

---

(١) الوغى: الحرب. الصمصام: من أسماء السيف: الصارم البتّار. يرى الشاعر أنه من العيب أن يستعين الأمير بسيف، وهو صمصام من صفاته أنه يبتر بقوته في القتال، فليس بحاجة إلى سيف يستعين به على عدوّه.

(٢) زهت: فخرت وتكبّرت. يمدح الشاعر الأمير، إنه ملك توفّرت له أسباب الملك ولوازمها، الجاه، العظمة، القوّة، السؤدد، الغنى، المكارم، الفضائل، لذا فاق أهل زمانه وافتخر على سائر الأزمان اعتزازاً به وافتخاراً.

(٣) تخاله: تظنّه. سلب: أخذ ما لديهم بقوّة. الورى: الخلق، البشر. يُنوّه الشاعر بعظمة حلم الأمير، والحلم من طبيعة كبار النفوس الذين يحلمون رغم عظم قوتهم وشدّة بطشهم. للوهلة الأولى إذا رأى امرؤ الأمير ظنّ أنه لم يُبق لأحد من الحلم شيئاً يتحلّى به، فقد استحوذ على شتى ألوان الحلم واحتفظ بها لنفسه، فبدا سائر الناس بلا حلم.

(٤) تكشفت: ظهرت. العزمات: العزائم. النقض: الحلّ. الإبرام: العقد والربط. تثبت التجربة أن الأمير يمتاز بقوة العزيمة وعلوّ الهمّة، إنه لا يعرف التردّد في الأمور المصيرية، فإذا عزم على أمر توكّل على اللّه تعالى، لذا فهو قادر على نقض ما يريد نقضه وعقد ما يريد عقده.

(٥) البنان، الواحدة بنانة: أطراف الأصابع. النيل: العطاء. الذمام: العهد، الحقّ. وممّا =

مَــهْــلاً أَلَا لِــلّـــهِ مَــا صَــنَــعَ الْــقَــنَــا
فِــي عَــمْــرو حَــابِ وَضَــبَّــةَ ٱلْأَغْــتَــامِ(١)
لَــمَّــا تَــحَــكَّــمَــتِ الأَسِــنَّــةُ فِــيــهِــم
جَــارَتْ وَهُــنَّ يَــجُــرْنَ فِــي الْأَحْــكَــامِ(٢)
فَــتَــرَكْــتَــهُــمْ خَــلَــلَ الْــبُــيُــوتِ كَــأَنَّــمَــا
غَــضِــبَــتْ رُؤُوسُــهُــمُ عَــلَــى الْأَجْــسَــامِ(٣)
أَحْــجَــارُ نَــاسٍ فَــوْقَ أَرْضٍ مِــنْ دَمٍ
وَنُــجُــومُ بَــيْــضٍ فِــي سَــمَــاءِ قَــتَــامِ(٤)
وَذِرَاعُ كُــلِّ أَبِــي فُــلَانٍ كُــنْــيَــةً
حَــالَــتْ فَــصَــاحِــبُــهَــا أَبُــو الأَيْــتَــامِ(٥)

= يدلّ على عظم جود الأمير، فلو سأله امرؤ لأعطاه الدنيا بحذافيرها، ومع ذلك لا يرضى بعطائه ذلك، بل يودّ لو استطاع أن يزيده عطاءً لفعل.

(١) القنا: الرماح. قصد الشاعر بـ «عمرو حاب» عمرو بن حابس ـ بطن من أسد. ضبّة: إحدى قبائل العرب. الأغتام، الواحد غتم: من لا يُفصح لعجمته. يعجب الشاعر مما حصل على يدي الأمير من تنكيل وقتل بعمرو بن حابس وضبة، إنهم أغتام فلم يقدّروا الأمير حقّ قدره لجهلهم حين عصوه حتى أثخن بهم وفعل بهم ما فعل.

(٢) ويُردف الشاعر أن الأمير أنزل بالقوم خسفاً ودماراً، فقد لعبت بهم الأسنة وكانت ظالمة، ولم يكن ذلك إلّا لأنهم أساؤوا في تعدّيهم حدودهم، فكان الردّ من الأمير عنيفاً ليربيهم لئلّا يعودوا إلى أفعالهم الرديئة.

(٣) و (٤) الخلل: الشقوق بين شيئين. البيض، الواحدة بيضة: الخوذ. القتام: الغبار، يخاطب الشاعر الأمير منوّهاً بما فعل بالقوم، فقد فاجأهم في عقر ديارهم، فأعمل فيهم سيوفه، فإذا بالرؤوس تنتشر فوق الأرض والأجساد تغطيها، كأنها أحجار ويبدو خلالها ومضات من ضياء، والدماء صبغت الأديم بلونها الأحمر يُخالطها ألوان نجميّة تتلألأ بضوء الشمس، إنها خوذ تناثرت في ميدان المعركة والغبار يرسم لونها في السماء وتزكم الأنوف بروائح كريهة.

(٥) يُتابع الشاعر وصف تلك الصورة المحزنة، هناك ذراع مبتورة كانت في وقت ما عاملة على سدّ جوعة صغار أصبحوا أيتاماً بمقتل أبيهم، فلم يعد يُكنّى إلّا بأبي الأيتام.

عَـهْـدِي بِـمَـعْـرَكَـةِ ٱلْأَمِـيـرِ وَخَـيْـلُـهُ
فِي الـنَّـقْـعِ مُـحْـجِـمَـةٌ عَنِ الإِحْـجَـامِ(١)

صَـلَّـى الإِلٰـهُ عَـلَـيْـكَ غَـيْـرَ مُـوَدِّعٍ
وَسَـقَـى ثَـرَى أَبَـوَيْـكَ صَـوْبَ غَـمَـامِ(٢)

وَكَـسَـاكَ ثَـوْبَ مَـهَـابَـةٍ مِـنْ عِـنْـدِهِ،
وَأَرَاكَ وَجْـهَ شَـقِـيـقِـكَ الْـقَـمْـقَـامِ(٣)

فَـلَـقَـدْ رَمَـى بَـلَـدَ الْـعَـدُوِّ بِـنَـفْـسِـهِ
فِـي رَوْقِ أَرْعَـنَ كَـالْـغِـطَـمِّ لُـهَـامِ(٤)

قَـوْمٌ تَـفَـرَّسَـتِ الْـمَـنَـايَـا فِـيـكُـمُ
فَـرَأَتْ لَـكُـمْ فـي الْـحَـرْبِ صَـبْـرَ كِـرَامِ(٥)

تَـالـلَّـهِ مَـا عَـلِـمَ ٱمْـرُؤٌ لَـوْلَاكُـمُ
كَـيْـفَ الـسَّـخَـاءُ وَكَـيْـفَ ضَـرْبُ الْـهَـامِ؟(٦)

---

(١) النقع: الغبار. الإحجام: التأخر. يذكر الشاعر أنه قد اعتاد على رؤية فرسان الأمير يتقدّمون دائماً إلى الأمام في المعارك ولا يعرفون التأخر أو التردّد والغبار يعانق السماء.

(٢) يدعو الشاعر أن يرحم الإله والدي الأمير وبالسقيا بصوب الغمام ليبارك قبريهما كما يدعو له بالتوفيق ودوام الحياة، آملاً أن يلتقيه، فروحه دائمة إلى جانبه.

(٣) كساك: ألبسك. القمقام: السيد الكثير الخير الواسع الفضل. قصد بشقيقه أخاه ناصر الدولة. يُتابع الشاعر دعاءه آملاً أن يُلبسه اللّه تعالى ثوب المهابة، فيبثّ في نفوس أعدائه مخافته من لدنه وأن يسعد بلقاء أخيه ناصر الدولة، فيقوى بوجوده إلى جانبه.

(٤) روق الجيش: أوله. الأرعن: الجيش المضطرب لكثرته. الغطم: البحر العظيم. اللهام: الجيش العظيم الذي يلتهم كلّ شيء. ينوّه الشاعر بشجاعة ناصر الدولة، فقد خاطر بنفسه وألقى بها في خضم جيش عظيم من جيوش الروم فكان مصيره الأسر، نتيجة تسرّعه وتهوّره وشجاعته.

(٥) تفرَّست: تأملت. المنايا: الواحدة منية: الموت. يمدح الشاعر آل الأمير، إنهم قوم تنظر المنايا بعيون الإعجاب، فهم كرام يمتازون بالصبر على المكاره في الحروب، والمنايا على علم يقيني أنهم إلى جانبها يُساعدونها على اقتناص ضحاياها.

(٦) الهام، الواحدة هامة: الرؤوس. يُبدي الشاعر إعجابه بما لدى القوم من فضائل محبّبة =

فدًى لأبي المسك الكرام

وقاد إليه فرساً فقال يمدحه:

[الطويل]

فِـــرَاقٌ وَمَـــنْ فَـــارَقْـــتُ غَـــيْـــرُ مُـــذَمَّـــمِ
وَأَمٌّ وَمَـــنْ يَـــمَّـــمْـــتُ خَـــيْـــرُ مُـــيَـــمَّـــمِ (١)

وَمَـــا مَـــنْـــزِلُ الـــلَّـــذَّاتِ عِـــنْـــدِي بِـــمَـــنْـــزِلٍ
إِذَا لَـــمْ أُبَـــجَّـــلْ عِـــنْـــدَهُ وَأُكَـــرَّمِ (٢)

سَـــجِـــيَّـــةُ نَـــفْـــسٍ مَـــا تَـــزَالُ مُـــلِـــيـــحَـــةً
مِـــنَ الـــضَّـــيْـــمِ مَـــرْمِـــيًّـــا بِـــهَـــا كُـــلُّ مَـــخْـــرِمِ (٣)

رَحَـــلْـــتُ فَـــكَـــمْ بَـــاكٍ بِـــأَجْـــفَـــانِ شَـــادِنٍ
عَـــلَـــيَّ وَكَـــمْ بَـــاكٍ بِـــأَجْـــفَـــانِ ضَـــيْـــغَـــمِ (٤)

= إلى كلّ نفس، فهم كرماء أسخياء أقوياء شجعان يعرفون كيف يضربون رؤوس أعدائهم.

(١) الأمّ: القصد. يممت: قصدت. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية، كاشفاً عمّا يُعانيه من تشتت فكري بين ماضيه مع سيف الدولة، لقد فارقه، وهو لا يذمّ على ما قدّمه له من الهبات والرعاية والأمن، وبين كافور آملاً فيه أن يكون نعم الممدوح الذي يأمل منه كلّ خير.

(٢) يكشف الشاعر عن أمانٍ عذاب تُدغدغ أحلامه بعيش كريم حيثما ينزل، في كنف كافور، فمفهوم السعادة بالنسبة إليه يتلخّص بحياة رغيدة وكرامة موفورة، فلا يطيب له عيش في وهدة الذلّ والمهانة.

(٣) سجية: صفة. المليحة: الخائفة. الضيم: الذلّ. المخرم: الطريق في الجبل. كأن الشاعر يذكر الأسباب التي من أجلها ترك سيف الدولة وقصد كافوراً. وكأنه يُحذّر كافوراً من الاستهتار به والاستهانة بكرامته، إنها سجيّة وطبع متأصّل في حياته سلوكاً وتجربة ومعاملة، لذا فإنه يخترق كلّ ما هو يصعب على المرء عبوره كالمخرم وسواه في الجبال ضنًّا بكرامته من أن تُذلّ أو تنتقص.

(٤) الشادن: ولد الغزال. الضيغم: من أسماء الأسد. لقد فارق الشاعر سيف الدولة، فبكى الأمير لفراقه نادماً على التفريط به دون قصد منه، وثمة من يبكي لفراقه بأجفان حرّقها الشوق والحبّ لشخص الشاعر.

وَمَـا رَبَّـةُ الْـقُـرْطِ الْـمَـلِـيـحِ مَـكَـانُـهُ
بِـأَجْـزَعَ مِـنْ رَبِّ الْـحُـسَـامِ الْـمُـصَـمِّـمِ (١)

فَـلَـوْ كَـانَ مَـا بـي مِـنْ حَـبِـيـبٍ مُـقَـنَّـعٍ
عَـذَرْتُ وَلٰـكِـنْ مِـنْ حَـبِـيـبٍ مُـعَـمَّـمِ (٢)

رَمَـى وَاتَّـقَـى رَمْـيِـي وَمِـنْ دُونِ مَـا اتَّـقَـى
هَـوًى كَـاسِـرٌ كَـفِّـي وَقَـوْسِـي وَأَسْـهُـمِـي (٣)

إذَا سَـاءَ فِـعْـلُ الْـمَـرْءِ سَـاءَتْ ظُـنُـونُـهُ
وَصَـدَّقَ مَـا يَـعْـتَـادُهُ مِـنْ تَـوَهُّـمِ (٤)

وَعَـادَى مُـحِـبِّـيـهِ بِـقَـوْلِ عُـدَاتِـهِ
وَأَصْـبَـحَ فـي لَـيْـلٍ مِـنَ الـشَّـكِّ مُـظْـلِـمِ (٥)

---

(١) القُرط: ما يعلّق بشحمة الأذن من حلّى. أجزع: أشدّ خوفاً. الحسام: السيف البتّار. المصمّم: الذي يطبق العظام. يُتمّ الشاعر الفكرة، فالمرأة، ولعلّه يقصد بها أخت سيف الدولة، وسيف الدولة جزعا لفراق الشاعر، ولا ريب أن ربّ الحسام كان أكثر حزناً من ربّة القرط.

(٢) يقصد الشاعر بالحبيب المقنع: المرأة، والحبيب المعمّم: الرجل. ما يُثير ألم الشاعر أن الغدر الذي نزل بساحته كان من قبل رجل ولم يكن من قبل المرأة، فالغدر من طبع النساء لضعفهن، وكأن الرجل قد ضعف فلجأ إلى الغدر.

(٣) يُنوّه الشاعر بحبّه وإخلاصه لسيف الدولة، فقد أغناه من عطاياه ولكنه أساء إليه، فلم يستنصر له ضدّ حسّاده وأعدائه، ومع ذلك فلم يلجأ إلى هجائه، فعطّل كل وسائل متوفّرة وأسلحة لصبّ جام غضبه عليه، فلم يفعل، فحبّه كان أقوى من غضبه.

(٤) ورد البيت في: معاهد التنصيص، للعباسي ٢:١٨٦، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٧. يعتاده: ينتابه. يُعقّب الشاعر على كلامه أن سوء ظنّ المرء يُوقعه بالأخطاء والإساءة إلى الآخرين، فإذا ما شاهد شيئاً أو سمع كلاماً يفسّره بما يتوافق مع ظنونه السيّئة المريضة، وهذا سببه أنه ناتج عن أوهام سيّئة فيه.

(٥) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٧. يُردف الشاعر معقباً بأن سيف الدولة كان سيّئ الظنّ فأخطأ في أحكامه، فإذا به يُعادي الشاعر الذي يُكنّ له كل حبّ وإخلاص، بسبب وِشاية عدوّه، وللأسف فلم يميّز بين الصديق والعدوّ لاختلاط الرؤية في فكره ونظره، فإذا به يتخبّط في دياجير الشكّ المظلمة.

أُصَـادِقُ نَـفْـسَ الْـمَـرْءِ مِنْ قَـبْلِ جِـسْـمِـهِ
وَأَعْـرِفُـهَـا فـي فِـعْـلِـهِ وَالـتَّـكَـلُّـمِ(١)

وَأَحْـلُـمُ عَـنْ خِـلِّـي وَأَعْـلَـمُ أَنَّـهُ
مَتَى أَجْزِهِ حِلْماً عَلَى الْجَهْلِ يَنْدَمِ(٢)

وَإِنْ بَـذَلَ الإِنْـسَـانُ لِـي جُـودَ عَـابِـسٍ
جَـزَيْـتُ بِـجُـودِ الـتَّـارِكِ الْـمُـتَـبَـسِّـمِ(٣)

وَأَهْـوَى مِـنَ الْـفِـتْـيَـانِ كُـلَّ سَـمَـيْـذَعٍ
نَـجِـيـبٍ كَـصَـدْرِ الـسَّـمْـهَـرِيِّ الْـمُـقَـوَّمِ(٤)

خَـطَـتْ تَـحْـتَـهُ الْعِـيـسُ الْـفَـلاَةَ وَخَـالَـطَـتْ
بِـهِ الْـخَـيْـلُ كَـبَّـاتِ الْـخَـمِـيـسِ الْـعَـرَمْـرَمِ(٥)

---

(١) يُتابع الشاعر حديثه وتأمّلاته في لحظة حزن وألم عن مفهومه للصداقة، فالتآلف بين بني البشر، يبدأ باكتشاف فضائل الخير في النفس البشرية وعكوفها على حبّ مجرّد من كلّ غاية مادية؛ والتقارب الروحي والوجداني هو المعوّل عليه في عالم المثل النبيلة، والشاعر قادر على التمييز بين ما ينبع من القلب وما لا يتجاوز اللسان.

(٢) الخلّ: الصديق، الصاحب. لقد رسم الشاعر لنفسه منهجاً يتّبعه في معاملته لصديقه، إنه لا يُسارع إلى ردّ الإساءة بمثلها، بل إنه يغفر لصاحبه خطأه ويُبادله بالحلم، وفي حال تبيّن للصديق جهله كان ردّه اعتذاراً وندماً على ما بدر منه.

(٣) يُتابع الشاعر تأملاته مركّزاً على كرامته وعِزّة نفسه، فهو لا يقبل صلة من يقدمها له، وهو عابس مقطّب، إنّما يُجازيه بتركها وهو يبتسم شاكراً له عطاءه، فيردّه ردًّا جميلاً.

(٤) السميذع: السيد الكريم الجميل. النجيب: الفاضل الكريم. السمهري: الرمح. الصدر: مقدم الرمح ممّا يلي السنان. يُعلن الشاعر عن حبّه لمن يمتاز بمواصفات عالية الجودة، إنه سميذع، سيّد كريم طبعاً وتطبّعاً جميل سهل المخالقة متواضع شجاع نجيب مضياف طويل القامة مستقيم كأنه رمح قوّة وشكلاً.

(٥) خطت: جابت الآفاق. العيس: الإبل البيضاء. الكبات، الواحدة كبّة: الحملة في الحرب. الخميس: الجيش العظيم المؤلف من خمس فرق. العرمرم: الكثير. يُتابع الشاعر وصف من يتخذه صديقاً له، إنه المغامر الذي لا يستقر بمكان، يمتطي ظهر العيس ويخترق القفار لا يستقرّ له قرار، يصول ويجول في ميادين القتال ويخترق =

وَلَا عِــفَّــةٌ فِــي سَــيْــفِــهِ وَسِــنَــانِــهِ
وَلَـكِـنَّـهـا فـي الْـكَـفِّ وَالـطَّـرْفِ وَالْـفَـمِ (١)

وَمَـا كُـلُّ هَـاوٍ لِـلْـجَـمِـيـلِ بِـفَـاعِـلٍ
وَلَا كُـلُّ فَـعَّـالٍ لَـهُ بِـمُـتَـمِّـمِ (٢)

فِـدًى لِأَبِـي الـمِـسْـكِ الْـكِـرَامُ فَـإِنَّـهَـا
سَـوَابِـقُ خَـيْـلٍ يَـهْـتَـدِيـنَ بِـأَدْهَـمِ (٣)

أَغَـرَّ بِـمَـجْـدٍ قَـدْ شَـخَـصْـنَ وَرَاءَهُ
إِلَـى خُـلُـقٍ رَحْـبٍ وَخَـلْـقٍ مُـطَـهَّـمِ (٤)

إِذَا مَـنَـعَـتْ مِـنْـكَ الـسِّـيَـاسَـةُ نَـفْـسَـهَـا
فَـقِـفْ وَقْـفَـةً قُـدَّامَـهُ تَـتَـعَـلَّـمِ (٥)

= صفوف الأعداء في الجيش الخميس العرمرم، فلا يعرف له الخوف مدخلاً. هل يصف الشاعر نفسه أو يصف سيف الدولة؟!

(١) يُتابع الشاعر وصف صديقه الذي يحلو له أن يتّخذه صديقاً له، إنه لا يصفّ في القتال، يقتل الأقران من الأبطال، وسيفه لا يكلّ ورمحه يخترق الأكباد ويمزّق الصدور، ولا يتعفف عن الاستئثار بدمائهم دون سواه، وهو عفيف اليد فلا يتكالب على أموال غيره فلا يأكل إلّا حلالاً طيباً مباركاً فيه، وهو عفيف اللسان فلا يذكر عورات سواه بسوء، ولا يزني.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٧. يُعقّب الشاعر قوله أن ليس كلّ محبّ للمكرمات بقادر على فعلها، وحتى لو باشر فعلها قد لا يقدر على إيفائها حقَّها من الكمال، فالأمر يتطلّب قوّة إرادة وعزيمة صادقة وصبراً حتى يتمّ له ما أراد.

(٣) الأدهم من الخيول: الأسود. يتخلّص الشاعر من نثر تأملاته في الحياة ليمدح كافوراً، إنه أبو المسك، ذلك الطيب الغالي الثمن، الرفيع القيمة، فالكرام من الناس يفدونه بأرواحهم، وهو سبّاق في ميدان الكرم، به يهتدي الكرماء ويقتدون.

(٤) شخص بصره: رفعه. الرحب: الواسع. المطهّم: التام. يُتابع الشاعر مدح كافور إنه أبيض المجد، فغرّته مشرقة للعلن بحيث يشخص الكرام بأنظارهم إليه بإعجاب، لأخلاقه الرفيعة الواسعة التي تتّسع لمخالقة كلّ مخلوق يمتاز بجمال الخلقة التامّة.

(٥) يُخاطب الشاعر الملأ مشيداً بحسن سياسة كافور، فمن أراد أن يتعلّم فن السياسة =

يَـضِـيـقُ عَـلَـى مَـنْ رَاءَهُ الْـعُـذْرُ أَنْ يُـرَى
ضَـعِـيـفَ الـمَـسَـاعِـي أو قـلِـيـلَ الـتَّـكَـرُّمِ (١)

وَمَـنْ مِـثْـلُ كَـافُـورٍ إِذَا الْـخَـيْـلُ أَحْـجَـمَـتْ
وَكَـانَ قَـلِـيـلاً مَـنْ يَـقُـولُ لَـهَـا ٱقْـدُمِـي (٢)

شَـدِيـدُ ثَـبَـاتِ الـطِّـرْفِ وَالـنَّـقْـعُ وَاصِـلٌ
إِلَـى لَـهَـوَاتِ الْـفَـارِسِ الـمُـتَـلَـثِّـمِ (٣)

أَبَـا الـمِـسْـكِ أَرْجُـو مِـنْـكَ نَـصْـراً عَـلَـى الْـعِـدَى
وَآمُـلُ عِـزًّا يَـخْـضِـبُ الْـبِـيـضَ بِـالـدَّمِ (٤)

وَيَـوْمـاً يَـغِـيـظُ الْـحَـاسِـدِيـنَ وَحَـالَـةً
أُقِـيـمُ الـشَّـقَـا فِـيـهَـا مَـقَـامَ الـتَّـنَـعُّـمِ (٥)

= الحكيمة، فعليه أن يحضر إلى قصره ليُشاهد حسن إدارته للبلاد ويتعلّم من مواهبه السياسة على أصولها.

(١) يُتابع الشاعر مدح كافور؛ يصعب على الملأ أن يجدوا في كافور مطعناً، فهو ليس بالضعيف المتخاذل، بل إنه واسع الحيلة، يُحسن التصرّف في كلّ الظروف، فضلاً عن أنه كريم جداً؛ وهذا ما يتعب من يبحث عن نقائص فيه.

(٢) أحجمت: تأخّرت. لا يُعدّ شجاعة من كافور إذا طلب من الكتيبة المتردّدة فلا هي تتقدّم للقتال ولا هي تنكفئ. والقلّة من أولي الأمر من يطلب من الكتبة المبادرة إلى القتال. والشجاعة الحقّة أن يهجم القائد على رأس جيشه ليُقاتل الأعداء.

(٣) الطِّرف: الجواد الكريم. النقع: الغبار. اللهوات، الواحدة لهاة: اللحمة المتدلية في أقصى الحلق، يمدح الشاعر كافوراً بأنه يثبت في ميدان المعركة عندما يشتدّ أوارها ويتصاعد الغبار مخيّماً عليها، فإذا بالفرسان يستعين كلّ منهم باللثام اتقاءً من الهواء والغبار؛ فهو يثبت ثبات الجبابرة لا يُرهبه لهيبها، ولا يعرف الخوف إلى قلبه طريقاً.

(٤) البيض: السيوف. تتكشف رغبة الشاعر عن لؤم طبع، وقد ألمح في مطلعها بأنه حليم، وها هو الآن يطلب من أبي المسك أن يُعينه على أعدائه ويجعله في علو منزلة تُتيح له قتلهم بالسيوف وتُزيل حنقه برؤية دمائهم، إنه ذو نزعة قرمطيّة متعطشة إلى الدماء.

(٥) يُتابع الشاعر أنه يتمنّى يوم بؤس لأعدائه وحسّاده يشفي به غيظه منهم، فيحلّ بهم =

وَلَـــمْ أَرْجُ إِلَّا أَهْـــلَ ذَاكَ وَمَـــنْ يُـــرِدْ
مَـوَاطِـرَ مِـنْ غَـيْـرِ الـسَّـحَـائِـبِ يَـظْـلِـمِ(١)
فَـلَـوْ لَـمْ تَـكُـنْ فِي مِـصْـرَ مَـا سِـرْتُ نَـحْـوَهَـا
بِـقَـلْـبِ الـمَـشُـوقِ الـمُـسْـتَـهَـامِ الـمُـتَـيَّـمِ(٢)
وَلَا نَـبَـحَـتْ خَـيْـلِـي كِـلَابُ قَـبَـائِـلٍ
كَـأَنَّ بِـهَـا فِـي الـلَّـيْـلِ حَـمْـلَاتِ دَيْـلَـمِ(٣)
وَلَا اتَّـبَـعَـتْ آثَـارَنَـا عَـيْـنُ قَـائِـفٍ
فَـلَـمْ تَـرَ إِلَّا حَـافِـراً فَـوْقَ مَـنْـسِـمِ(٤)

= الشقاء والعذاب؛ فعزّه يُقابله العذاب لحسّاده فيشقون ويتألّمون: إنه إمعان بالكيد يتنافى مع الحلم المزعوم.

(١) يُخاطب الشاعر كافوراً آملاً أن يصدق حدسه فيه، وهو في الحقيقة موضع ثقته بأنه سيُحقّق أمله ورجاه، لقد آمن أنه قادر على تحقيق أمله، فهو قد رجا مطراً في سحب مليئة بالمطر تحمل الخير العميم، إنه وضع الشيء في موضعه.

(٢) المستهام: العاشق الذي ذهب عقله لشدّة حبه. المتيّم: العاشق الذي ملك الحبّ عليه قلبه ومشاعره فاستعبده. لقد توجّه إلى مصر، وكلّه أمل بتحقيق أمانيه لوجود كافور فيها، علماً أنه القادر على الاستجابة لرغباته، فإذا به يشدّه إليها حبّه وعقله المستهام، فقد ملك حبّ كافور على قلبه ومشاعره فاستعبده.

(٣) الديلم: جيل من الأتراك، كانت بينهم وبين العرب عداوة، فصار اسمهم رمز العداوة. يذكر الشاعر ما لاقاه في رحلته إلى كافور، لقد واجه أخطاراً عظيمة، وعومل معاملة الأعداء، فإذا بكلاب تلك القبائل التي مرّ بها تنبح على خيل الشاعر محذّرة من الاقتراب، كأنها رأت الديلم يُغيرون على تلك القبائل تُؤذن بالخراب والدمار.

(٤) القائف: من يقفو آثار الراحلين. المنسم: خفّ البعير. يُتابع الشاعر وصف مسيره إلى كافور، فثمة من كان يُلاحق الركب لإرجاعه إلى سيف الدولة، فإذا بالشاعر يستعين بالإبل لأنها أقوى على السير في الصحراء وعمد لإراحة الخيل، ممّا جعل القائف يحتار ويتردّد في متابعة رحلة الشاعر لأنه استطاع الإفلات والوصول إلى كافور.

وَسَمْنَا بِهَا الْبَيْداءَ حَتَّى تَغَمَّرَتْ
مِنَ النِّيلِ وَاسْتَذْرَتْ بِظِلِّ المُقَطَّمِ [(١)]

وَأَبْلَجَ يَعْصِي بِاخْتِصَاصِي مُشِيرَهُ
عَصَيْتُ بِقَصْدِيهِ مُشِيرِي وَلُوَّمِي [(٢)]

فَسَاقَ إِلَيَّ الْعُرْفَ غَيْرَ مُكَدَّرٍ
وَسُقْتُ إِلَيْهِ الشُّكْرَ غَيْرَ مُجَمْجَمِ [(٣)]

قَدِ اخْتَرْتُكَ الْأَمْلَاكَ فَاخْتَرْ لَهُمْ بِنَا
حَدِيثاً وَقَدْ حَكَّمْتُ رَأْيَكَ فَاحْكُمِ [(٤)]

فَأَحْسَنُ وَجْهٍ فِي الْوَرَى وَجْهُ مُحْسِنٍ
وَأَيْمَنُ كَفٍّ فِيهِمِ كَفُّ مُنْعِمِ [(٥)]

---

(١) البيداء: الصحراء. تغمّرت: أي شربت دون الريّ. استذرت: نزلت في ذراه. المقطم: جبل بجانب مدينة القاهرة. يُتابع الشاعر وصف رحلته وسط المخاطر، فقد اخترق صحراء لم تُطرق من قبل، فإذا به أول رائد لها، فوسمها بما معه من إبل، وعندما أشرفت على النيل شربت قليلاً من الماء لأنها كانت متعبة فقلّ شربها، وحالما وصلت إلى جبل المقطّم استظلّت به.

(٢) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه ١١٧. يروى "أبلخ" بالخاء بدلاً من "أبلج". وأبلج: الطلق الوجه. يمدح الشاعر كافوراً بأنه طلق الوجه، فثمّة من أشار على الشاعر بالتوجّه إلى كافور، وقد عصى من لامه على الذهاب إليه لخوفه من مغبّة الأمر، ورغم ذلك فقد قصد الشاعر كافوراً.

(٣) العرف: المعروف. جمجم الكلام: عماه وأخفاه. يذكر الشاعر عطايا كافور فقد خلت ممّا يكدّرها من منّ أو أذى، ولقد اعترف المتنبي بفضل ممدوحه فكان شكره خالصاً لم يشبه شائبة مكر.

(٤) الأملاك: الملوك. يخاطب الشاعر كافوراً، منوّهاً بفضله عليه؛ إنه اختاره من بين سائر الملوك، متوسّماً في وجهه الخير، ينتظر أن يُلبي رجاءه في ما جاء به إليه، فالملوك وسائر الناس ينتظرون كيف يعود الشاعر بعد ملاقاته ممدوحه فهل يمنحه ما أراد ليذكروا فضله، وإن لم يفعل فسوف يشمت القوم به ويذمون كافوراً على ما بدر منه.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٧. الورى: الخلق. أيمن: أكثر بركة. يُبدي الشاعر رأيه أن أفضل وجوه البشر وجه كريم معطاء ذو كفّ يبذل العطاء ويحمل في أثنائه اليمن والبشرى والبركة، فذلك كفّ منعم لا يتوانى عن خير. =

وَأشْـــرَفُـــهُـــمْ مَـــنْ كَـــانَ أشْـــرَفَ هِـــمَّـــةً
وَأكْـــبَـــرَ إقْـــدَامـــاً عَـــلَـــى كُـــلِّ مُـــعْـــظَـــمِ (١)

لِـمَـنْ تَـطْـلُـبُ الـدُّنْـيَـا إذَا لَـمْ تُـرِدْ بِـهَـا
سُـــرُورَ مُـــحِـــبٍّ أو إسَـــاءَةَ مُـــجْـــرِمِ (٢)

وَقَـدْ وَصَـلَ الـمُـهْـرُ الّـذِي فَـوْقَ فَـخْـذِهِ
مِـنِ اسْـمِـكَ مَـا فـي كُـلِّ عُـنْـقٍ وَمِـعْـصَـمِ (٣)

لَـكَ ٱلْـحَـيَـوَانُ الـرَّاكِـبُ ٱلْـخَـيْـلَ كُـلُّـهُ
وَإنْ كَـانَ بـالـنِّـيـرَانِ غَـيْـرَ مُـوَسَّـمِ (٤)

وَلَـوْ كُـنْـتُ أدْرِي كَـمْ حَـيَـاتِـي قَـسَـمْـتُـهَـا
وَصَـيَّـرْتُ ثُـلْـثَـيْـهَـا ٱنْـتِـظَـارَكَ فَـاعْـلَـمِ (٥)

وَلٰـكِـنَّ مَـا يَـمْـضِـي مِـنَ الْـعُـمْـرِ فَـائِـتٌ
فَـجُـدْ لِـي بِـحَـظِّ الْـبَـادِرِ الـمُـتَـغَـنِّـمِ (٦)

= يحاول الشاعر أن يُثير في كافور إحساسه بعظم ما سيقدم عليه من خير، وإلّا فسوف يُنعت بعكس ذلك ويجلب لنفسه الذم والهجاء.

(١) يُردف الشاعر متمماً فكرته أن الشرف يُكتسب بعلوّ همّة صاحبه، فبقدر بذله يرتقي في معارج الشرف ويسمو، ومن صفات الشريف أنه لا يتردّد في طلب المعالي، بل إنه يُقدم بكلّ ما أوتي من طاقة وعزيمة على فعل المكرمات، فهمّه إدراك كلّ ما هو عظيم.

(٢) يرى الشاعر أن الدنيا ساحة واسعة رحبة، يسعى المرء فيها لسعادة أحبائه ونفعهم بكل ما أوتي من قوّة ومال وجاه، ويعمل على الإساءة لأعدائه بكلّ ما أوتي من قوّة ومكر ودهاء، والمرء بين حبيب وعدوّ.

(٣) المعصم: موضع السوار من الزند. يذكر الشاعر المهر الذي أهداه كافور إليه بأنه من أمواله وخيوله، حتى كلّ ما يُوجد من داجن الحيوانات ممهورة باسمه، ولو لم تكن موسومة فهي من مسؤوليّته واسمه.

(٤) قصد بالحيوان الراكب الخيل: الإنسان. الموسم: المعلم. يُتابع الشاعر منوّهاً بسيطرة كافور الكلية على الحيوانات وراكبيها من بني الإنسان، وإن لم توسم بما يدلّ على ملكيته، وهذا ما يناقض الواقع، إنه من المغالاة التي تتنافى مع طبيعة الإسلام كدين والمنحى الإنساني في المجتمعات المتحضّرة.

(٥) و (٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٧. يُخاطب الشاعر كافوراً لو =

رَضِيتُ بِمَا تَرْضَى بِهِ لِي مَحَبَّةً
وَقُدْتُ إِلَيْكَ النَّفْسَ قَوْدَ المُسَلِّمِ (١)
وَمِثْلُكَ مَنْ كَانَ ٱلْوَسِيطَ فُؤَادُهُ
فَكَلَّمَهُ عَنِّي وَلَمْ أَتَكَلَّمِ (٢)

من الحِمام إلى الحِمام

نالت أبا الطيب بمصر حُمَّى فقال يصفها ويعرض بالرحيل عن مصر وذلك في ذي الحُجة سنة ثمان وأربعين وثلاث مئة (٩٥٩م):

[الوافر]

مَلُومُكُمَا يَجِلُّ عَنِ المَلَامِ
وَوَقْعُ فَعَالِهِ فَوْقَ الْكَلَامِ (٣)
ذَرَانِي وَالْفَلَاةَ بِلَا دَلِيلٍ
وَوَجْهِي وَالْهَجِيرَ بِلَا لِثَامِ (٤)

= أنه يعلم مقدار عمره لقسّمه أقساماً أربعة وجعل ثلاثة منها لانتظار تحقيق وعده، وهنا يُنبهه محذّراً أنه قد يُغيّر مسلكه معه فيُقدم على أمر لا تُحمد عقباه.

(١) استدرك الشاعر بعد كتاب كافور أنه راضٍ بما يُرضيه محبّةً وانقياداً بطواعية آملاً أن يتصرّف كافور بما يرضيهما معاً وما يجمعهما من حبّ، فقد سلّم إليه أمره.

(٢) وبمكر ذكي جعل الشاعر فؤاد كافور وسيطاً وحكماً بينهما، إنه يقبل به حكماً، لأنه يعلم يقيناً بشدّة حساسية قلبه، فلا يحوجه إلى الكلام والترجّي.

(٣) يُخاطب الشاعر صاحبيه موافقاً على لومهما له، إنه بدافع الحبّ والغيرة وذلك لأنه يُخاطر بنفسه في بلاد يفتقد فيها إلى صاحب ومُعين، ولكن الأمر ليس بيده، إنه الطموح إلى المجد، لذا فإنه أجلّ من أن يُلام لنبل الهدف وسمو المحاولة.

(٤) ذراني: اتركاني. الفلاة: الصحراء. الهجير: حرّ الظهيرة في الصيف. يطلب الشاعر من صاحبيه أن يتركاه وشأنه يُواجه مصيره بما أوتي من قوّة، إنه يُواجه الصحراء بحرّها اللاهب في الظهيرة، لا دليل يهديه على مجاهلها، لأنه على علم بفلواتها ووديانها وجبالها، ولقد اعتاد على رياحها اللاهبة التي تحمل معها رمالاً فلا يحتمي منها بلثام أو يختبئ في هضابها.

فَــــإنِّـــي أَسْـــتَـــرِيـــحُ بِـــذِي وَهْـــذَا
وَأَتْـــعَـــبُ بِـــالإِنَـــاخَـــةِ وَالـــمُـــقَـــامِ(١)

عُـــيُـــونُ رَوَاحِـــلِـــي إنْ حِـــرْتُ عَـــيْـــنِـــي
وَكُـــلُّ بُـــغَـــامِ رَازِحَـــةٍ بُـــغَـــامِـــي(٢)

فَـــقَـــدْ أرِدُ الـــمِـــيَـــاهَ بِـــغَـــيْـــرِ هَـــادٍ
سِـــوَى عَـــدِّي لَـــهَـــا بَـــرْقَ الْـــغَـــمَـــامِ(٣)

يُـــذِمُّ لِـــمُـــهْـــجَـــتِـــي رَبِّـــي وَسَـــيْـــفِـــي
إذَا احْـــتَـــاجَ ٱلْـــوَحِـــيـــدُ إلَـــى الـــذِّمَـــامِ(٤)

وَلَا أُمْـــسِـــي لِأَهْـــلِ الْـــبُـــخْـــلِ ضَـــيْـــفـــاً
وَلَـــيْـــسَ قِـــرًى سِـــوَى مُـــخِّ الـــنَّـــعَـــامِ(٥)

---

(١) الإناخة: النزول. المقام: البقاء والإقامة. ولطول تعرّفه على عالم الصحراء تآلف مع أجوائها وحيوانها وجغرافيتها، فتارة ينزل هنا وطوراً يقيم هناك، وهكذا تمضي حياته دون إحساس بالملل أو الكراهية لنمط حياته فيها ومعها.

(٢) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٩. الرواحل، الواحدة راحلة: الناقة. بغام الناقة: صوتها. ومع أن الشاعر عليم بعالم الصحراء يستهدي بنجومها ليلاً وبرياحها نهاراً، وقد يحتار بالاهتداء إلى معالم الطريق فإنه يستهدي برواحله التي اعتادت على مسالك الصحراء، فكأنها عيون أخرى يستعين بها تساعده في وجهة سيره. وهو لا يستغني عن صوتها ليسمع سكّان الصحراء من البدو بغامها، فينوب عن فصيح عبارته وتُؤدي دور المبلّغ عنه.

(٣) وممّا يدلّ على معرفته الجيّدة في عالم الصحراء، أنه يرد مواطن المياه بلا دليل، فضلاً عن معرفته بالأنواء فهو يشيم الأمطار بالنظر إلى السماء فيراقب لمع البرق فيعدّ سبعين برقة أو مائة فيتأكد له أن المطر سيهطل، فيتابع مساقط الغيث فيتزوّد بالماء العذب النمير.

(٤) يذم له: يُعطيه الذمة والعهد، المهجة: الروح. يفخر الشاعر أنه يرحل منفرداً في الصحراء، فلا يعرف معنًى للخوف، لأنه في ذمّة اللّه عزّ وجلّ ووعده وخفارته، وإلى جانبه سيفه يعتمد عليه يحتمي به من الأعداء.

(٥) القرى: الضيافة. يُنوّه الشاعر بعزّة نفسه وترفّعه، إنه لا يقصد بخيلاً يبغي ضيافته بل إنه يكتفي بمخّ النعامة، ولا مخّ لها أو ببيضها في عالم الصحراء البخيل بطبيعته. أي =

وَلَــمَّــا صَــارَ وُدُّ الــنَّــاسِ خِــبًّــا
جَــزَيْــتُ عَــلَــى ابْــتِــسَــامٍ بِــابْــتِــسَــامِ[١]
وَصِــرْتُ أَشُــكُّ فِــي مَــنْ أَصْــطَــفِــيــهِ
لِــعِــلْــمِــي أَنَّــهُ بَــعْــضُ ٱلْأَنَــامِ[٢]
يُــحِــبُّ الْــعَــاقِــلُــونَ عَــلَــى الــتَّــصَــافِــي
وَحُــبُّ ٱلْــجَــاهِــلِــيــنَ عَــلَــى ٱلْــوَسَــامِ[٣]
وَآنَــفُ مِــنْ أَخِــي لِأَبِــي وَأُمِّــي
إِذَا مَــا لَــمْ أَجِــدْهُ مِــنَ الْــكِــرَامِ[٤]
أَرَى الْأَجْــدَادَ تَــغْــلِــبُــهَــا كَــثِــيــراً
عَــلَــى الْأَوْلَادِ أَخْــلَاقُ الــلِّــئَــامِ[٥]

= أنه لا يأكل ويفضل البقاء على الطوى إن لم ينل كريم المأكل عند من يقدّر له حقّه.

(١) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٠. الخبّ: الخداع. إنها الحياة عندما تفسد المبادئ ويدبّ فيها العفن المزخرف بالتملّق والخداع، وتتلوّن بألوان الكذب المموّه بالابتسامات ترتسم على الشفاه ولا تصل إلى الأعماق سرعان ما تختفي تاركةً وراءها سخرية جارحة ونفوساً شوّهتها الأطماع والحسد، وبدون أدنى مقاومة لنوازع الشرور استسلم الشاعر وانحرف مع التيار، فباتت ابتساماته بلا هوية ولا دليل.

(٢) الأنام: الخلق. الشكّ حالة سلبية سببها الخوف وعدم الثقة بالطبيعة الإنسانية وصفائها بما تحمله من نوازع الخير: إنها نظرة سوداوية لمسها الشاعر في بني عصره، لذا حمله الشكّ على الكراهية لكلّ الناس، لذا فلا يُمكنه أن يختار صديقاً يلجأ إليه يبثّه آلام نفسه فيُشاركه أفراحه كما يُشاركه أحزانه، والمشكلة فيه، فقد نظر إلى الخلق نظرة استعلاء واحتقار، فكانت ردّة الفعل من قبلهم بمستوى نظرته لهم.

(٣) الوسام، الوسامة: جمال الخلقة. يُصنف الشاعر البشر صنفين، فالعقلاء يتحابون بعقولهم قبل حبّهم بعيونهم وأحاسيسهم، فيكون بينهم ودّ وصفاء، أما الجهلة فإنهم يتحابّون بعيونهم وأحاسيسهم وغالباً ما يُخطئون حسب رأي الشاعر، وليست مقولته قابلة التطبيق بشكل مطلق.

(٤) آنف: استنكف. إنه يتبرّأ من شقيقه إن لم يكن كريم الخلق والنفس.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٠. يتحدّث الشاعر عن أثر الوراثة =

وَلَسْتُ بِقَانِعٍ مِنْ كُلِّ فَضْلٍ
بِأَنْ أُعْزَى إِلَى جَدٍّ هُمَامِ[١]

عَجِبْتُ لِمَنْ لَهُ قَدٌّ وَحَدٌّ
وَيَنْبُو نَبْوَةَ الْقَضِمِ الْكَهَامِ[٢]

وَمَنْ يَجِدُ الطَّرِيقَ إِلَى الْمَعَالِي
فَلَا يَذَرُ الْمَطِيَّ بِلَا سَنَامِ[٣]

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ شَيْئاً
كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ[٤]

= في النشء، فالأبناء صورة عن الآباء والأجداد، فاللؤم طبيعة يرثها الخلف عن السلف.

(١) أعزى: أنسب. الهمام: السيد الشجاع السخيّ، إنها وجهة نظر صحيحة في عالم العُصاميين من الرجال، ولكن العربي الأصيل يبحث دائماً في تاريخ الأنساب علّه يجد من ينتسب إليه من العظماء. وبناءً عليه يبدو أن المتنبي لم يجد في سلسلة أجداده من يسدّ طموحه للانتساب إليه، فبقي يُعاني من حالة الضياع حتى وجد الحلّ في نفسه فراح يفخر بنفسه.

(٢) القدّ: القامة. الحدّ، يقصد بذلك حدّ السيف. نبا السيف: كلّ عن الضرب. القضم: السيف الذي فيه فلول. الكهام: السيف الذي لا يقطع. يستغرب الشاعر ممن يتمتّع بقوّة الشباب ويُلغي دوره فينزوي في وهدة التواني ولا يتمتّع بالإرادة الصلبة ومضاء العزيمة.

(٣) يذر: يترك. المطيّ: الإبل. السنام: ما بدا من ظهر البعير. يُردف الشاعر مبيناً استغرابه، ومعبراً عن دهشته من امرئ توفرت له كلّ أسباب العظمة والأمجاد ولا يسعى جاهداً لتحقيق أَربه من هذه الحياة، فالأقوياء هم الذين يُمسكون بأيديهم كتلة النار الملتهبة يُنيرون بها سبل حياتهم وحياة سائر البشر، فالمطايا موجودة والطريق بحاجة إلى السائرين بدربها.

(٤) إنه يستحثّ نفسه على المغامرة؛ فالعيب بمن يكون قادراً ويتراخى إلى الكسل ويؤثر الدّعة على المحاولة، فحتى لو فشل، فالفشل سببه عدم دقّة تنفيذ المحاولة، فلا بدّ من تعديل مسار المحاولة حتى يُكتب لها النجاح. أما من تراخت به همّته أو من لا تتوفّر له الوسائل فلا لوم عليه.

أَقَــمْــتُ بِــأَرْضِ مِــصْــرَ فَــلَا وَرَائــي
تَــخُــبُّ بِــيَ الــرِّكَــابُ وَلَا أَمَــامِــي[١]

وَمَــلَّــنِــيَ ٱلْــفِــرَاشُ وَكَــانَ جَــنْــبِــي
يَــمَــلُّ لِــقَــاءَهُ فــي كُــلِّ عَــامِ[٢]

قَــلِــيــلٌ عَــائِــدِي سَــقِــمٌ فُــؤَادِي
كَــثِــيــرٌ حَــاسِــدِي صَــعْــبٌ مَــرَامِــي[٣]

عَــلِــيــلُ ٱلْــجِــسْــمِ مُــمْــتَــنِــعُ الْــقِــيَــامِ
شَــدِيــدُ الــسُّــكْــرِ مِــنْ غَــيْــرِ الــمُــدَامِ[٤]

وَزَائِــرَتِــي كَــأَنَّ بِــهَــا حَــيَــاءً
فَــلَــيْــسَ تَــزُورُ إلَّا فــي الــظَّــلَامِ[٥]

---

(١) الخبب: ضرب من سير الإبل. الركاب: الإبل. لقد عرف الشاعر في مصر حياة الخمول فافتقد حياة المغامرة التي عرفها في عهد سيف الدولة، لذا فهو لا يتنقل بواسطة الإبل، بل إنه كان مجبراً على الإقامة كأنه تحت الإقامة الجبرية.

(٢) لقد ملّ الفراش لاستمرار مرضه كما ملّه الفراش، وليس ذلك من عادته، فقد كان يحلو له النوم ليستريح في كل عام مرّة واحدة حيث يمكث طلباً للراحة من تجوال لا يهدأ، فإذا بالفراش يزيد ألمه على ألم المرض.

(٣) يُعدّد الشاعر ما تراكم عليه من المصائب. الغربة كربة، وبخاصة إذا ألمّ بالمرء مرض، فإحساسه بالغربة يكاد يكون قاتلاً، فالأصدقاء الحقيقيون قليلون، فثمّة من يتجسّس عليهم ممّا يردعهم عن زيارة المريض وعيادته، والقلب ما عاد يتحمّل العذاب، العذاب النفسي والمرض الجسدي، وفي زوايا الحياة حسّادون كثيرون يتمنّون الخلاص من الشاعر وكلّ منهم له أسبابه الخاصّة التي تدعوه إلى ذلك، وما يزيد الطين بلّة أن إلحاحاً داخلياً يدعو الشاعر لمتابعة النضال علّه يدرك أملاً يُراوده باستمرار رغم صعوبة إدراكه في ظروف معاكسة.

(٤) المدام: من أسماء الخمرة. يتابع الشاعر حديثه عن مصائبه، إنه يُعاني مرضاً ألزمه الفراش، فلا يستطيع حراكاً، ولقد تراكمت الأحزان في رأسه حتى بدا كأنه سكران رغم أنه لم يتعاط الخمرة، إنه بحر تضطرب فيه أمواج عاتية من كلّ جانب، نواح، هموم، أحزان، غربة، مرض، حسد، توق إلى المجد.

(٥) وردت الأبيات الستة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٠. الليل =

بَـذَلْـتُ لَـهَـا الْـمَـطَـارِفَ وَالْـحَـشَـايَـا
فَـعَـافَـتْـهَـا وَبَـاتَـتْ فـي عِـظَـامِـي[١]
يَـضِـيـقُ ٱلْـجِـلْـدُ عَـنْ نَـفْـسِـي وَعَـنْـهَـا
فَـتُـوسِـعُـهُ بِـأَنْـوَاعِ الـسِّـقَـامِ[٢]
كَـأَنَّ الـصُّـبْـحَ يَـطْـرُدُهَـا فَـتَـجْـرِي
مَـدَامِـعُـهَـا بِـأَرْبَـعَـةٍ سِـجَـامِ[٣]
أُرَاقِـبُ وَقْـتَـهَـا مِـنْ غَـيْـرِ شَـوْقٍ
مُـرَاقَـبَـةَ الْـمَـشُـوقِ الْـمُـسْـتَـهَـامِ[٤]

= موطن الأحلام، يحلو للمرء أن يخلو بطيف الحبيب، لكن زائرة الشاعر سمجة مكروهة كرست الليل لنفسها تزيده بشعور الخوف والألم والوحدة، والنهار مسرح الحركة والليل مسرح الاستقرار، يخلو من الحركة ممّا يسمح للشاعر الفرار من زائرته المكروهة بكلّ ما تُمثّل من قبح، إنها تجثم على قلبه وكاهله في ليل تلهو به كما يحلو لها.

(١) المطارف، الواحد مطرف: رداء من خزّ في جنبه علمان. الحشايا، الواحدة حشية: الفراش المحشو. عاف: كره. لقد هيّأ الشاعر كل وسائل الراحة للحمى من مطارف وحشايا، ولكنها رفضت تلك الضيافة وفضّلت أن تبيت في عظامه لتذيقه أنواعاً من العذاب أليمة بمكرها وجنونها.

(٢) السقام: الأمراض. ينتج عن مبيت الحمّى في أوصال الشاعر وعظامه عدم القدرة على احتمال ذلك العذاب، فإذا بجلده يفقد الصبر فلا يعود يحتمل الألم وتكاد أنفاسه تتقطّع لشدّة معاناته. وتتّسع دائرة الآلام، فإذا كلّ ما في جسده يتألم وتزداد أنواع أسقامه.

ـ ورد بعد هذا البيت بيت لم يرد في الديوان، وورد في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٠، وهو التالي:

إِذَا مَـا فَـارَقَـتْـنِـي غَـسَّـلَـتْـنِـي كَـأَنَّـا عَـاكِـفَـانِ عَـلَـى حَـرَامِ

(٣) سجم الدمع: سال، انسكب، المدامع: مجاري الدمع. يحمل الصبح فرجاً، فإذا بالحمّى تنسلّ تاركة جسداً أنهكه المرض، فإذا بدموعها تنسكب لشدّة حزنها فكأنها لا ترغب بمغادرة ضحيّة سهل عليها الإمساك بها وعدم تركها أبداً.

(٤) المستهام: المتحيّر الذاهب في الأرض على وجهه من شدّة حبّه. حمل الشاعر خوفه =

وَيَــصْــدُقُ وَعْــدُهَــا وَالــصِّــدْقُ شَــرٌّ
إِذَا أَلْــقَــاكَ فــي الْــكُــرَبِ الْــعِــظَــامِ(١)

أَبِــنْــتَ الــدَّهْــرِ عِــنْــدِي كُــلُّ بِــنْــتٍ
فَــكَــيْــفَ وَصَــلْــتِ أَنْــتِ مِــنَ الــزِّحَــامِ(٢)

جَــرَحْــتِ مُــجَــرَّحــاً لَــمْ يَــبْــقَ فِــيــهِ
مَــكَــانٌ لِــلــسُّــيُــوفِ وَلَا الــسِّــهَــامِ(٣)

أَلَا يَــا لَــيْــتَ شِــعْــرَ يَــدِي أَتُــمْــسِــي
تَــصَــرَّفُ فــي عِــنَــانٍ أَوْ زِمَــامِ(٤)

وَهَــلْ أَرْمِــي هَــوَايَ بِــرَاقِــصَــاتٍ
مُــحَــلَّاةِ الْــمَــقَــاوِدِ بِــالــلُّــغَــامِ؟(٥)

= الشديد على توقّع مجيء تلك الزائرة المرغوب عدم زيارتها، فإذا به يترقّب مقدمها برعب يزداد كلما حان موعد زيارتها، كأنه عاشق متيّم ينتظر حضورها بفارغ الصبر.

(١) الكرب، الواحدة كربة: الحزن يأخذ في النفس. إنها صادقة الوعد، لا تُخلف وعداً، ووعدها أسوأ من الكذب في هذه الحالة، لأنه يحمل معه عذاباً لا يُحتمل وآلاماً تكاد تقضي عليه.

(٢) بنات الدهر: مصائبه. يُخَاطب الشاعر الحمّى إنها بنت الدهر، فمصائبه تتوالى عليه فتزيده بلاء على بلواه، فتتراكم عليه المصائب، وأسوأ النوائب مرض لم يُحسب له حساب.

(٣) يُردف الشاعر خطابه للحمّى، فقد زادت من جراحه، وأخطر تلك الجراح الجراح النفسية وأقلّها خطراً جراح السيوف والسهام، وتلك الجراح سرعان ما تشفى وتلتئم بمرور الزمن. أما الجراح النفسية قد تزيد آلاماً بمرور الوقت.

(٤) وردت الأبيات الأحد عشر المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٠. العنان: الزمام، المقود. يتمنّى الشاعر لنفسه الشفاء ليعود إلى حالته الطبيعية فيُمسك بزمام فرس أو بمقود ناقة. يُستشفّ من ذلك صعوبة ما كانت عليه حالته المرضية، وعلى يأسه من الشفاء.

(٥) هواي: رغبتي. الراقصات: يقصد بإبل تسير رقصاً، وهو ضرب من الخبب. محلّاة: مزيّنة. اللغام: الزبد الخارج من شدق البعير. يُردف الشاعر متابعاً أمنياته؛ إنه يتمنّى لو استطاع امتطاء إبل راقصات تسير مسرعة وقد تجمّد الزبد في أشداقها فبدا كحلّى فضية، فيمضي عليها إلى حيث يحلو له الرحيل دون عوائق تُذكر.

فَــرُبَّــتَــمَــا شَــفَــيْــتُ غَــلِــيــلَ صَــدْرِي
بِــسَــيْــرٍ أَوْ قَــنَــاةٍ أَوْ حُــسَــامِ(١)
وَضَــاقَــتْ خُــطَّــةٌ فَــخَــلَــصْــتُ مِــنْــهَــا
خَــلَاصَ الْــخَــمْــرِ مِــنْ نَــسْــجِ الْــفِــدَامِ(٢)
وَفَــارَقْــتُ ٱلْــحَــبِــيــبَ بِــلَا وَدَاعٍ
وَوَدَّعْــتُ الْــبِــلَادَ بِــلَا سَــلَامِ(٣)
يَــقُــولُ لِــيَ الــطَّــبِــيــبُ أَكَــلْــتَ شَــيْــئــاً
وَدَاؤُكَ فِــي شَــرَابِــكَ وَالــطَّــعَــامِ(٤)
وَمَــا فِــي طِــبِّــهِ أَنِّــي جَــوَادٌ
أَضَــرَّ بِــجِــسْــمِــهِ طُــولُ الْــجَــمَــامِ(٥)
تَــعَــوَّدَ أَنْ يُــغَــبِّــرَ فِــي الــسَّــرَايَــا
وَيَــدْخُــلَ مِــنْ قَــتَــامٍ فِــي قَــتَــامِ(٦)
فَــأُمْــسِــكَ لَا يُــطَــالُ لَــهُ فَــيَــرْعَــى
وَلَا هُــوَ فِــي الْــعَــلِــيــقِ وَلَا الــلِّــجَــامِ(٧)

---

(١) الغليل: العطش الشديد. القناة: الرمح. الحسام: السيف البتّار. يُتابع الشاعر أمنيّته، فيكون نتيجتها شفاء عطش صدره، ممّا ألّم به من مرض، حرّية الحركة والسير كما يحلو له أو يُقاتل برمح أو سيف قاطع.

(٢) و (٣) الخطّة: الأمر. الفدام: ما يجعل على فم الإبريق لتصفية ما فيه. يُتابع الشاعر ذكر ما يحصل له في شفائه، إنه في ضيق شديد وشفاؤه يُساعد على الخلاص ممّا هو فيه بإيجاد حيلة للخلاص من محاصرته بأهون الأسباب كما تخلص الخمرة من النسيج الذي تُشدّ به أفواه الأباريق. فيتمّ له رحيل مدروس بدقّة على عجل فيُفارق أحبّته بلا وداع ولا يودّع تلك البلاد بلا سلام.

(٤) و (٥) الجمام: الراحة. ينقل الشاعر حوار الطبيب معه بأن مرضه سببه بعض أنواع من المآكل تسبّب ضرراً وبعض أنواع من الأشربة، فيردّ الشاعر عليه بأن سبب مرضه نفسي، ذلك أنه بمثابة جواد حرّ، ولقد أساء إليه فتور همته عن الحركة فتبلّدت قواه.

(٦) و (٧) يُتابع الشاعر وصف حالته، فمن عادة ذلك الجواد أنه كان ينطلق ضمن جيش غازٍ يخترق المعترك والغيوم تتصاعد متشابكة، فالغبار كثيف لتلاحم المقاتلين، والآن =

فَـإِنْ أَمْـرَضْ فَـمَـا مَـرِضَ اصْطِـبَـارِي
وَإِنْ أُحْـمَـمْ فَـمَـا حُـمَّ اعْـتِـزَامِـي (١)
وَإِنْ أَسْـلَـمْ فَـمَـا أَبْـقَـى وَلٰـكِـنْ
سَلِمْتُ مِنَ الْحِمَامِ إِلَى الْحِمَامِ (٢)
تَـمَـتَّـعْ مِـنْ سُـهَـادٍ أَوْ رُقَـادٍ
وَلَا تَـأْمُـلْ كَـرًى تَـحْـتَ الـرِّجَـامِ (٣)
فَـإِنَّ لِـثَـالِـثِ الـحَـالَـيْـنِ مَـعْـنًـى
سِـوَى مَـعْـنَـى انْـتِـبَـاهِـكَ وَالـمَـنَـامِ (٤)

المجد للسيف لا للقلم

قال بالكوفة يرثي فاتكاً ويذكر مسيره من مصر:

[البسيط]

حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِي النَّجْمَ فِي الظُّلَمِ
وَمَـا سُـرَاهُ عَـلَـى خُـفٍّ وَلَا قَـدَمِ (٥)

= إنه شبه سجين لا يستطيع حراكاً ولا يُسمح له ممارسة هوايته، وما يزيد بألمه أنه رهين الفراش فضلاً عن محاولة كافور شلّ حركته مخافة فراره لئلا يهجوه.

(١) أحمم: من الحمّى. يُقرّ الشاعر بأن جسده في حالة إعياء شديد نتيجة ما ألمّ به من مرض، ولكنّ روحه وإرادته وعزمه لم ولن يُؤثر فيها شيء، بل إنه يتمتّع بإرادة صلبة وعزيمة لا تُقهر.

(٢) الحِمام، بكسر الحاء: الموت. يُقرّ الشاعر بأن آتيه حتماً، فإن نجا من الحمّى، فلن يُفلح من الإفلات من براثنه، فلا بدّ من توفّر أسبابه ذات يوم.

(٣) السهاد: السهر. الكرى: النعاس. الرّجام، الواحدة رجمة: حجارة تنصب على القبر. ينطق الشاعر بلسان من مرّ بأزمة عنيفة، ففي حال عودة المرء إلى حال طبيعية فعليه أن ينتهز فرصة الحياة ويتنعّم فيسهر ويفرح ويلهو وينام قبل ممات ونوم طويل في قبر تكدّست عليه أحجار الرجام.

(٤) يقصد الشاعر بثالث الحالين الموت فهو حالة عدميّة تنعدم حركة ابن آدم فيها خلاف حالتي السهر والنوم. يُحسّ المرء انكساراً نفسياً واستسلاماً من قبل الشاعر في مواجهة عبثية الحياة المادية لعدم اهتمامه لما بعد الحياة.

(٥) السرى: السير ليلاً. الخفّ للبعير: بمثابة الحافر للدابة. يبدأ الشاعر قصيدته =

وَلَا يُحِسُّ بِأَجْفَانٍ يُحَسُّ بِهَا
فَقْدَ الرُّقَادِ غَرِيبٌ بَاتَ لَمْ يَنَمِ (١)

تُسَوِّدُ الشَّمْسُ مِنَّا بِيضَ أَوْجُهِنَا
وَلَا تُسَوِّدُ بِيضَ الْعُذْرِ وَاللِّمَمِ (٢)

وَكَانَ حَالُهُمَا فِي الْحُكْمِ وَاحِدَةً
لَوِ ٱحْتَكَمْنَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَى حَكَمِ (٣)

= بإحساس تشاؤمي، فيه غصّة وشعور بالألم. فيتساءل وهو يعلم أن الوجود الكوني مفطور على نظام دقيق عجيب، خلقه اللّه سبحانه بخصائص ومزايا يتميز بها عن سائر المخلوقات، وأوكل له عملاً يقوم به. نظر الشاعر إلى السماء فوجدها قد زُينت بنجوم ترافق الوجود برحلته الأبدية، فالإنسان ينتقل برجليه ويتحرّك بإرادته والجمل ينتقل بقوائمه ويدوس الأرض بأخفافها والنجوم تساير موكب الحياة بضيائها. يسأل الشاعر إلى متى المسير؟ وتتوالى الأسئلة في أعماق بني آدم حتى يصل إلى نهاية الحياة. والسؤال عند الشاعر لماذا لا تتشابه الكائنات؟

(١) يُتابع الشاعر وصف ما عليه تلك النجوم من عمل، ألا تنام وتُغمض عيونها كسائر الموجودات المتحركة، ألا تتعب كما يتعب الشاعر، وهو بعيد عن الأهل والوطن في غربة طويلة لا تعرف لها نهاية؟

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٢. العذر، الواحد عذار: جانب اللحية. اللمم، الواحدة لمّة: الشعر المجاوز شحمة الأذن. يتحدّث عن تأثير الشمس على البشر، إنها تحوّل بياض بشرة الوجه إلى بشرة سوداء، ولكنها لا تقوم بنفس العمل مع الشيب الذي يغزو شعور بني البشر فتتركها تزداد شيباً بمرور الزمن. أليس في ذلك تناقض؟ أم أن لكلّ أسبابه ونتائجه ومستلزماته؟ دون شكّ إنه الزمن يحفر في الوجوه أثره وفي أشعار البشر أثره أيضاً.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٣. الحكم: الحاكم. احتكمنا: رجعنا إلى من يحكم. يُتابع الشاعر تأملاته في ذات الإشكالية التي يُناقشها، فلو عاد المرء يسأل العاقل من بني البشر لأوجب على من أحال بياض الوجوه البشرية أن يُحوّل شيب الشعر إلى سواد، إنه المنطق السليم، ولكن الأمر الآن لا يتعلّق بالمنطق، فالأمر إذاً يتعلّق بخالق الكون ومن فيه وما فيه، إنها المشيئة الإلهية، وعلى المرء أن يُسلّم بواقعه دون مناقشة.

وَنَتْرُكُ الْمَاءَ لَا يَنْفَكُّ مِنْ سَفَرٍ
مَا سَارَ فِي الْغَيْمِ مِنْهُ سَارَ فِي الْأَدَمِ (١)

لَا أُبْغِضُ الْعِيسَ لٰكِنِّي وَقَيْتُ بِهَا
قَلْبِي مِنَ الْحُزْنِ أَوْ جِسْمِي مِنَ السَّقَمِ (٢)

طَرَدْتُ مِنْ مِصْرَ أَيْدِيهَا بِأَرْجُلِهَا
حَتَّى مَرَقْنَ بِهَا مِنْ جَوْشَ وَالْعَلَمِ (٣)

تَبْرِي لَهُنَّ نَعَامُ الدَّوِّ مُسْرَجَةً
تُعَارِضُ الْجُدُلَ الْمُرْخَاةَ بِاللُّجُمِ (٤)

فِي غِلْمَةٍ أَخْطَرُوا أَرْوَاحَهُمْ وَرَضُوا
بِمَا لَقِينَ رِضَى الْأَيْسَارِ بِالزَّلَمِ (٥)

---

(١) الأدم، الواحد أديم: الجلد المدبوغ. يلتفت المرء إلى رحلة الماء العجيبة؛ في الواقع رحلة طويلة عجيبة تبدأ من حالة بخارية وتمرّ بمراحل عديدة اختصرها الشاعر بحالتين: أولاهما الحالة الغيمية وثانيهما الحالة المائية، وفي الحقيقة إنها آخر الرحلة لتملأ الأدم ويستعملها من هو بحاجة إليها.

(٢) العيس: الإبل البيضاء. يُقرّ الشاعر بأنه لا يكره الإبل ولكنها تُعينه على تنفيذ مآربه منها، إنها تقيه وتبعده عن الإحساس بالحزن، فهو يهرب منه ومن مسبباته وكذلك فهي تُعينه على المحافظة على الحياة وتبعد عنه الأمراض بالاستعانة بها.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٣. مرق: خرج. جوش والعلم: موضعان. لقد استعان الشاعر بالإبل للخلاص من شبه الأسر الذي مارسه عليه كافور، فكانت الناقة نعم الراحلة فإذا بها تخبّ به مسرعة حتى استطاع الخروج من جوش والعلم.

(٤) تبري: تعارض. الدوّ: المفازة. الجدل: حبال من جلد أو شعر تكون في عنق الناقة. يُشبّه الشاعر سرعة الإبل بسيرها بالجياد عندما تعدو في المفازة في حال أُسرجت، فإذا بها تباري الخيول وتسبقها.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٣. الغلمة، الواحد غلام. أخطروا أرواحهم: خاطروا بها. الأيسار: القوم يجتمعون على اليسر للمقامرة. الزلم: السهم من سهام الميسر. يصف الشاعر رحلة المخاطر من مصر إلى بلاد =

تَـبْـدُو لَـنَـا كُـلَّـمَـا أَلْـقَـوْا عَـمَـائِـمَـهُـم
عَـمَـائِـمٌ خُـلِـقَـتْ سُـوداً بِـلَا لُـثُـمِ (١)

بِـيضُ الْـعَـوَارِضِ طَـعَّـانُـونَ مَـنْ لَـحِـقُـوا
مِـنَ الْـفَـوَارِسِ شَـلَّالُـونَ لِـلـنَّـعَـمِ (٢)

قَـدْ بَـلَّـغُـوا بِـقَـنَـاهُـمْ فَـوْقَ طَـاقَـتِـهِ
وَلَـيْـسَ يَـبْـلُـغُ مَـا فِـيـهِـمْ مِـنَ الْـهِـمَـمِ (٣)

فِـي الْـجَـاهِـلِـيَّـةِ إلَّا أَنَّ أَنْـفُـسَـهُـمْ
مِـنْ طِـيـبِـهِـنَّ بِـهِ فِـي الْأَشْـهُـرِ الْـحُـرُمِ (٤)

نَـاشُـوا الـرِّمَـاحَ وَكَـانَـتْ غَـيْـرَ نَـاطِـقَـةٍ
فَـعَـلَّـمُـوهَـا صِـيَـاحَ الـطَّـيْـرِ فـي الْـبُـهَـمِ (٥)

= العراق، فقد اختار غلماناً خاطروا بأرواحهم ليُوصلوا الشاعر إلى مأمنه، رغم طول المسافة وخطورة الطريق وصعوبتها، وقبلوا بقدرهم وما يُلاقون فيها من ضروب المشقة، وكأنهم في هذه الحالة يُخاطرون بحياتهم كما يفعل المغامرون بما يخرج لهم من الأزلام.

(١) و (٢) اللثم، الواحد لثام. العوارض، الواحد عارض: صفحة الخدّ. شلالون: طرّادون. النعم: الماشية. يصف الشاعر الغلمة الذين شاركوا الشاعر رحلة الخلاص من كافور، إنهم فتية في مقتبل العمر، فإذا ألقوا عمائمهم بدت شعور سوداء تُغطي رؤوسهم، وخدود خالية من عذار، فهم مرد، صفحات خدودهم لم يغزها شعر بعد، أشدّاء يُمكنهم أن يفتكوا بكلّ فارس صنديد، يطاردون النعم ويُغيرون عليها حيث وجودها.

(٣) القنا: الرماح. يمدح الشاعر هؤلاء الغلمان ويُشيد بقوّتهم، فهم يُحسنون استعمال الرماح في حروبهم ومع ذلك فقد قصّرت رماحهم فلم تفهم حقوقهم بما يقدرون.

(٤) يردف الشاعر مدحه لهؤلاء الغلمان، إنهم شجعان، دائمو الإغارة، أفعالهم أفعال أهل الجاهلية، لا يعرفون للحرام باباً، فكلّ شيء لديهم حلال، فلا تطيب نفوسهم إلّا بالقتل وسفك الدماء، فأشهر الحرام لم تُذكر في قاموس حياتهم.

(٥) ناشوا: تناولوا. البهم، الواحد بهمة: الشجاع الذي لا يُدرى من أين يُؤتى. يصف الشاعر أفعال هؤلاء الغلمان في قتالهم أعداءهم، لقد تناولوا الرماح، فأنطقوها بلغة =

تَـخْـدِي الـرِّكَـابُ بِـنَـا بِـيـضـاً مَـشَـافِـرُهَـا
خُـضْـراً فَـرَاسِـنُـهَـا فـي الـرُّغْـلِ وَالْـيَـنَـمِ (١)
مَـكْـعُـومَـةً بِـسِـيَـاطِ الْـقَـوْمِ نَـضْـرِبُـهَـا
عَنْ مَنْبِتِ الْعُشْبِ نَبْغِي مَنْبِتَ الْكَرَمِ (٢)
وَأَيْــنَ مَــنْـبِـتُــهُ مِـنْ بَـعْـدِ مَـنْـبِـتِـهِ
أَبِـي شُـجَـاعِ قَـرِيـعِ الْـعُـرْبِ وَالْـعَـجَـمِ (٣)
لَا فَــاتِــكٌ آخَــرٌ فــي مِـصْـرَ نَـقْـصِـدُهُ
وَلَا لَـهُ خَـلَـفٌ فـي الـنَّـاسِ كُـلِّـهِـمِ (٤)
مَــنْ لَا تُــشَــابِـهُـهُ الْأَحْـيَـاءُ فِـي شِـيَـمٍ
أَمْـسَـى تُـشَـابِـهُـهُ الْأَمْـوَاتُ فـي الـرِّمَـمِ (٥)

= الموت، فإذا بالناس يسمعون صريرها فبدت كأنها طيور تصدر أصواتاً مزعجة منذرة بموت سريع لا نجاة منه.

(١) تخدي الناقة: تُسرع. الركاب: الإبل. المشافر، الواحد مشفر: وهو للبعير بمنزلة الشفة للإنسان. الفراسن، الواحد فرسن: لحم خفّ البعير، الرغل والينم: من ضروب النبات. يصف الشاعر سير الإبل السريع، وهم لا يتوقّفون للاستجمام وطلب الراحة، لذا فقد جفّ الزبد على مشافر الإبل، فإذا بفراسنها اتّخذت اللون الأخضر لها لأنها كانت تطأ الرغل والينم من النباتات.

(٢) معكومة: مشدودة مشافرها لئلا تعض أو تأكل. يصف الشاعر معاملتهم للإبل، فقد شُدّت مشافرها لئلا ترعى فتؤخر الركب عن مواصلة المسير، وهم يقصدون المنبت، إنه منبت الفضائل والكرم والشجاعة، أبو شجاع فاتك.

(٣) القريع: السيّد. يُردف الشاعر منوّهاً بمنبت أبي شجاع فاتك، إنه منبت كرم وشجاعة ونجدة كلّ محتاج وموئل كلّ فقير، إنه سيّد العُرب والعجم. لا ريب أن المتنبي، في مدحه لأبي شجاع فاتك وكان قد توفي دلّ على وفاء عظيم يتمتّع به، فلم يكن مدحه نابعاً من طمع أو محاولة ارتزاق.

(٤) يُعقب الشاعر بألم أنه لم يعد هناك في مصر من يقصد مدحه بعد وفاة أبي شجاع فاتك، فهو الكريم الودود ذو الطبع الليّن المتواضع المحبّ لبني البشر، ولو حاول إيجاد بديل له في مزاياه وأخلاقه لما وجد.

(٥) الشيم، الواحدة شيمة: الأخلاق. الرمم: العظام البالية. وبنبرة حزينة يُعلن الشاعر =

عَـدِمْـتُـهُ وَكَـأَنِّـي سِـرْتُ أَطْـلُـبُـهُ
فَـمَـا تَـزِيـدُنِـيَ الـدُّنْـيَـا عَـلَـى الْـعَـدَمِ(١)
مَـا زِلْـتُ أُضْـحِـكُ إِبْـلِـي كُـلَّـمَـا نَـظَـرَتْ
إِلَـى مَـنِ ٱخْـتَـضَـبَـتْ أَخْـفَـافُـهَـا بِـدَمِ(٢)
أُسِـيـرُهَـا بَـيْـنَ أَصْـنَـامٍ أُشَـاهِـدُهَـا
وَلَا أُشَـاهِـدُ فِـيـهَـا عِـفَّـةَ الـصَّـنَـمِ(٣)
حَـتَّـى رَجَـعْـتُ وَأَقْـلَامِـي قَـوَائِـلُ لِـي
أَلْـمَـجْـدُ لِـلـسَّـيْـفِ لَـيْـسَ الْـمَـجْـدُ لِـلْـقَـلَـمِ(٤)

= عن أسفه وألم يمتصّ روحه، لقد رحل أبو شجاع فاتك عن عالم لا شبيه له فيه، إنه عالم الأحياء، إلى عالم آخر هناك عالم المساواة، ففي الموت تنعدم الطبقات وتختفي الفروقات بين سائر البشر، إنه عالم الرمم، فالكلّ يعود إلى المادّة الأصلية لبني آدم، لقد تحوّل إلى تراب.

(١) يروي الشاعر قصة البحث عن شبيه لأبي شجاع فاتك؛ فقد افتقده فراح يفتّش عن البديل والشبيه، فلم يعثر على ضالّته في عالم الرجال، فاستخلص درساً أن من ذهب لن يعود، وأنّه أوحد زمانه رغم كثرة الرجال.

(٢) إنها رحلة البحث والتنقيب الفاشلة، عبثاً حاول أن يجد شبيهاً، لذا لو استطاعت الضحك والاستهزاء لضحكت ممّا وقع نظر الشاعر ونظرها عليه لضحكت ملء أشداقها، ولقد جال في صقع عظيم، فإذا بأخفاف إبله تدمى فلم يعثر على شبيه لضالّته.

(٣) يتهجّم الشاعر على من رأى في رحلة عودته من الملوك والأمراء، إنهم أصنام يُعبدون، ويُصلّى لهم، ولكنهم لا يستحقّون ذلك فحياتهم مليئة بالآثام والفضائح تزكم الأنوف بروائح العفن وتصمّ الآذان بمخازيها، لذا فالأصنام التي لا تنطق والتي صيغت من أحجار ألف مرّة أعفّ وأطهر من ملوك البشر.

(٤) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٣. إن الشاعر ينطق بلسان الواقع في أمم تخلّفت في مفهوم الحضارة وتمكّنت من أفرادها المطاعم، فهي تحكم بالسيف، أمّا الأقلام إن لم تكن مطايا للسيف، فلا بدّ من أن تضام وتسحق لأنها تخلّت عن الطاعة العمياء، وراحت تنشر راية العصيان فاستحقت الموت في مفهوم أصحاب السيوف. فإذا بالشاعر ينساق مع أصحاب السيوف، وليكون سيفاً لا بدّ له من مقارعة السيوف كسائر السيوف فيظلم كما يظلمون فيقتلون بعضهم بعضاً.

اُكْـتُـبْ بِـنَـا أَبَـداً بَـعْـدَ الْـكِـتَـابِ بِـهِ
فَـإِنَّـمَـا نَـحْـنُ لِـلأَسْـيَـافِ كَـالْـخَـدَمِ(١)

أَسْـمَـعْـتِـنِـي وَدَوَائِـي مَـا أَشَـرْتِ بِـهِ
فَـإِنْ غَـفَـلْـتُ فَـدائِـي قِـلَّـةُ الْـفَـهَـمِ(٢)

مَـنِ اقْـتَـضَـى بِـسِـوَى الْـهِـنْـدِيِّ حَـاجَـتَـهُ
أَجَـابَ كُـلَّ سُـؤَالٍ عَـنْ هَـلٍ بِـلَـمِ(٣)

تَـوهَّـمَ الْـقَـوْمُ أَنَّ الْـعَـجْـزَ قَـرَّبَـنَـا
وَفِـي الـتَّـقَـرُّبِ مَـا يَـدْعُـو إلَـى الـتُّـهَـمِ(٤)

وَلَـمْ تَـزَلْ قِـلَّـةُ الإِنْـصَـافِ قَـاطِـعَـةً
بَـيْـنَ الـرِّجَـالِ وَلَـوْ كَـانُـوا ذَوِي رَحِـمِ(٥)

---

(١) ردّة الفعل لأصحاب الأقلام الاستسلام لأقدارهم، فيلجأون إلى تمويه الحقائق وتزويرها، وهم أقدر الناس على ذلك فبهم تضلّ الرعية إذا ساعدوا أصحاب السيوف فقدت الأمة طعم الطهر والصدق.

(٢) كان الردّ من قبل الشاعر للأقلام، فلنعم الدواء المشار إليه؛ سفك دماء وظلم يعمّ الأرض وسيادة الفوضى حيث ينعدم العدل، والشره والطمع والحسد يدوس الكرامات، فلْيفعل الشاعر ما بدا له وليكتب انتصاره بدماء سوّدت وجه التاريخ في وقت ضاعت فيه القيم النبيلة الإنسانية، وإن لم يفهم الشاعر فهو مريض بقلّة الفهم.

(٣) وردت الأبيات الثلاثة الأخيرة في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٣. الهندي: السيف المصنوع في الهند. يُؤكد الشاعر على إيمانه باستعمال القوّة الممثلة بالسيف الهندي، فمن لم يستعن به، فهو الخاسر، وجوابه للسائل دائماً لم أفعل، لم أوفق، لم أنل لم... لم...

(٤) يرى الشاعر أن من مدحه قد اعتقد فيه العجز عن طلب الرزق بالطرق التي أوصلتهم إلى تولية أمور الناس، فلهم الحقّ أن يتوهّموا ذلك، لأن النفوس إذا اعتادت على التكسّب بهذا الشكل أماتت في النفوس الشعور بالكرامة فيلجأ الشاعر حينئذ إلى التدليس والكذب. ولقد مارس المتنبي هاتين الطريقتين فقد ثار وجمع الجموع وباءت حركته بفشل ذريع وسجن ولولا توسّله واعترافه أنه كان على خطأ في مدعاه لما عاد إلى الحرّية، وهو لم يجبر على مدح ممدوحيه بل إنه كان يستدرّ عطاياهم بنفس منكسرة، لذا كان موضع التهمة في كلتا مرحلتي حياته.

(٥) الإنصاف: العدل وإعطاء الحق أصحابه. ذوي الرحم: القرابة. يرى الشاعر أن من =

فَـــــلَا زِيَـــــارَةَ إِلَّا أَنْ تَـــــزُورَهُـــــمُ
أَيْـدٍ نَـشَـأْنَ مَـعَ الْـمَـصْـقُـولَـةِ الْـخُـذُمِ(١)
مِـنْ كُـلِّ قَـاضِـيَـةٍ بِـالْـمَـوْتِ شَـفْـرَتُـهُ
مَـا بَـيْـنَ مُـنْـتَـقَـمٍ مِـنْـهُ وَمُـنْـتَـقِـمِ(٢)
صُـنَّـا قَـوَائِـمَـهَـا عَـنْـهُـمْ فَـمَـا وَقَـعَـتْ
مَـوَاقِـعَ الـلُّـؤْمِ فـي الْأَيْـدِي وَلَا الْـكَـزَمِ(٣)
هَـوِّنْ عَـلَـى بَـصَـرٍ مَـا شَـقَّ مَـنْـظَـرُهُ
فَـإِنَّـمَـا يَـقَـظَـاتُ الْـعَـيْـنِ كَـالْـحُـلُـمِ(٤)
وَلَا تَـشَـكَّ إِلَـى خَـلْـقٍ فَـتُـشْـمِـتَـهُ
شَـكْـوَى الْـجَـرِيـحِ إِلَـى الْـغِـرْبَـانِ وَالـرَّخَـمِ(٥)

= أسباب التخلي عن ذوي الرحم عدم الإنصاف في ما بينهم، فكيف بمن لا صلة تربطهم، فالأوجب القطيعة ومحاربة أمثال هؤلاء.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٣. الخذم، الواحد خذوم: القاطع، يقصد بذلك السيوف. يعد الشاعر أنه لن يزور هؤلاء الملوك والأمراء إلّا زيارة مقاتل قد اعتاد على الجلاد وخوض المعارك بصحبة من نشأ في صحبة السيوف، إن لم يُنصفوه ويُقرّوا بحقّه بالسيادة، فإنه آتيهم بجيش محارباً ظلمهم له: وللأسف ضاع تهديده ووعيده هباءً فقد عاد إلى سيرته يتوسّل إليهم متكسّباً.

(٢) شفرة السيف: حدّه. يتضمّن وعيد السيوف التي تقضي بالحق، وتنتصف للمظلوم من الظالم بالقضاء عليه والتخلّص من شروره.

(٣) وردت الأبيات الثلاثة المتتالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٣. قائم السيف: مقبضه. اللؤم: خسة الطبع. الكزم: قصر اليد. يُردف الشاعر حديثه عن علاقته بسيوفه، إنها مصانة محميّة من دنس أيدي الملوك والأمراء واللصوص، وهم أصلاً لا يُحسنون استعمالها؛ فالشاعر من أربابها يُحسن استعمالها وقت الحاجة، فيها يُحقق ما يصبو إليه.

(٤) شقّ: أتعب. يطلب الشاعر من الإنسان ألّا يتأثر لمآسي البشر وأن يعتبرها شيئاً عارضاً، ذلك أن الحياة سريعة الخطى نحو العدم.

(٥) شكا: أخبر عمّا يُؤلمه، ذكر ما يتوجّع منه. تشمت: تفرح عدوّك بمصابك، الرخم، الواحد رخمة: من جوارح الطير الخسيسة. ينصح الشاعر ألّا يُظهر المرء ضعفه =

وَكُـنْ عَـلَـى حَـذَرٍ لِـلـنَّـاسِ تَـسْـتُـرُهُ
وَلَا يَـغُـرَّكَ مِـنْـهُـمْ ثَـغْـرُ مُـبْـتَـسِـمِ (١)

غَـاضَ الْـوَفَـاءُ فَـمَـا تَـلْـقَـاهُ فِـي عِـدَةٍ
وَأَعْـوَزَ الـصِّـدْقُ فِـي الْإِخْـبَـارِ وَالْـقَـسَـمِ (٢)

سُـبْـحَـانَ خَـالِـقِ نَـفْـسِـي كَـيْـفَ لَـذَّتُـهَـا
فِـيـمَـا الـنُّـفُـوسُ تَـرَاهُ غَـايَـةَ الْأَلَـمِ (٣)

الـدَّهْـرُ يَـعْـجَـبُ مِـنْ حَـمْـلِـي نَـوَائِـبَـهُ
وَصَـبْـرِ نَـفْـسِـي عَـلَـى أَحْـدَاثِـهِ الْـحُـطُـمِ (٤)

وَقْـتٌ يَـضِـيـعُ وَعُـمْـرٌ لَـيْـتَ مُـدَّتَـهُ
فِـي غَـيْـرِ أُمَّـتِـهِ مِـنْ سَـالِـفِ الْأُمَـمِ (٥)

= ويشكو سوء حاله، فحوله من الأعداء آكلي لحوم البشر وسالبي أعراضهم ينتهزون فرصة الانقضاض عليه لعلمهم بأن جراحه تُؤذن بهلاكه القريب، لينهشوا لحمه وعرضه وماله.

(١) يُردف الشاعر أن على المرء أن يحترس في كلّ شؤونه، فلا يكشف لنفسه سرًّا لأحد، وإن بدا ودوداً مؤنساً، إنه المكر المزيّف المبرقع بلثام الغدر المبطّن بحلو الكلام.

(٢) غاض: نقص ونضب. أعوز: ندر وأشرف على النفاذ. يُعبّر الشاعر عن قناعته بأن الوفاء مفقود لدى بني البشر، فالوفاء بضاعة كاسدة لا رواج لها في أسواقهم ومعاملاتهم؛ فالكذب ميزان الربح والخسارة لفسادهم وسوء طباعهم، فلا يصدق أحدهم إلا إذا كان له في الصدق مصلحة يبغي رواجها.

(٣) يعبّر الشاعر عن استغرابه من أن اللّه سبحانه وتعالى قد جعل لذّته في ركوب المخاطر والانتقال باستمرار وعدم الاستقرار في مكان دون سواه، إنها حياة متحرّكة، وكثير من الناس يراها عذاباً وشقاءً، بينما من اعتاد عليها يرى فيها وجوه خير عديدة.

(٤) الحطُم، بالضم، الواحد حَطوم: التي تحطّم من ألمت به. يروى «صبر جسمي» بدلاً من «صبر نفسي». النوائب: المصائب. يفخر الشاعر من أنه يُواجه المصاعب، ويتحمّل نتائجها بصبر وجلد، ولطالما صادفه من الأحداث العظام ما لا تقوى عليه الجبال، ولقد انتصر على الأزمات باستمرار.

(٥) يتسرّب عمر الشاعر من بين يديه، وهو لا بدّ له من البقاء مع معاصريه الذين لا =

أَتَى الزَّمَانَ بَنُوهُ فِي شَبِيبَتِهِ
فَسَرَّهُمْ وَأَتَيْنَاهُ عَلَى الْهَرَمِ [١]

يذكرني فاتكاً حلمه

دخل عليه صديق بالكوفة وبين يديه تفاحة من الندّ مكتوب عليها اسم فاتك وكان قد أهداها إليه فاستحسنها الرجل فقال أبو الطيب:

[المتقارب]

يُذَكِّرُنِي فَاتِكاً حِلْمُهُ
وَشَيْءٌ مِنَ النَّدِّ فِيهِ اسْمُهُ [٢]

وَلَسْتُ بِنَاسٍ وَلٰكِنَّنِي
يُجَدِّدُ لِي رِيحَهُ شَمُّهُ [٣]

وَأَيَّ فَتًى سَلَبَتْنِي الْمَنُونُ
وَلَمْ تَدْرِ مَا وَلَدَتْ أُمُّهُ [٤]

= يُقدّرون صفاته الرفيعة، فضلاً عن سوء طبع ونذالة خلق، وتمنّى لو أنه بُعث في زمن غير هذا الزمن، ولذا فإنه يأسف لضياع عمره هباءً في معاشرة أمثال هؤلاء السفلة.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٥. يرى الشاعر أن الحياة قد مرّت بعصور ذهبيّة، فعاش بنوها في رغد من العيش وطمأنينة وسلام وسعادة، وها هو قد جاء في آخر الدهر، وقد ساء كلّ ما في الحياة، البشر، الحيوان، النبات، الطبيعة، لذا لم ير في العيش ما يسرّ ويُريح.

(٢) النّدّ: عود يتبخّر به. لا ريب أن لفاتك في قلب الشاعر مكانة خاصة لما يمتاز به ذلك الفتى، فما يرى أو يسمع بما كان يمتاز به فاتك حتى يتبادر إلى مخيّلة وعقل الشاعر فاتك بحلمه الواسع، فرغم قوّته وشجاعته كان حليماً رؤوفاً بالضعفاء، وكذلك اسمه يرمز إلى الطيب وما يجعل النفس تستريح لعبيره.

(٣) يُتابع الشاعر أنه لم ينس فاتكاً، وما يذكره به عبير النّدّ الذي يملأ الجوّ بعبقه الزكيّ.

(٤) المنون: الموت. ينوّه الشاعر بتفرّد فاتك، أي فتًى من نوع خاص، تفرّد بمزاياه وصفاته، ولقد اصطفته المنون من بين البشر، ولقد ولدته أمه مميّزاً ولم تدرِ عن مصيره ومواصفاته شيئاً، فالطبيعة صقلته صقلاً وشذّبته بحيث يخلص من العيوب قلباً وقالباً.

وَلَا مَـــا تَـــضُـــمُّ إِلَـــى صَـــدْرِهَـــا
وَلَـــوْ عَـلِـمَـتْ هَـالَـهَـا ضَـمُّـهُ[١]

بِـــمِـــصْـــرَ مُـلُـــوكٌ لَـــهُـــمْ مَـــا لَـــهُ
وَلٰـكِـنَّـهُـمْ مَـــا لَـــهُـــمْ هَـــمُّـــهُ[٢]

فَـــأَجْـــوَدُ مِـــنْ جُـــودِهِـــمْ بُـــخْـــلُـــهُ
وَأَحْـــمَـــدُ مِـــنْ حَـــمْـــدِهِـــمْ ذَمُّـــهُ[٣]

وَأَشْـــرَفُ مِـــنْ عَـــيْـــشِـــهِـــمْ مَـــوْتُـــهُ
وَأَنْـــفَـــعُ مِـــنْ وُجْـــدِهِـــمْ عُـــدْمُـــهُ[٤]

وَإِنَّ مَـــنِـــيَّـــتَـــهُ عِـــنْـــدَهُ
لَـــكَـــالْـــخَـــمْـــرِ سُـــقِّـــيَـــهُ كَـــرْمُـــهُ[٥]

---

(١) هالها: أرعبها، بحنان الأم كانت تضمّ صغيرها جاهلة مصيره، ولو أنها علمت أن فاتكاً سيكون شجاعاً مرعباً لأعدائه ما ضمته إلى صدرها لما قد يُثيره من خوف في نفسها. وذلك من مغالاة الشاعر، فالأمّ أمّ تحتضن صغيرها بقلب ملؤه الحبّ والتكريس والإشفاق والشفقة.

(٢) يعرّض الشاعر بكافور إنه ملك بمصر، غني، ولكنه يفتقد إلى همّة كهمة أبي شجاع الجواد، وكرمه لا حدود له.

(٣) يُنوّه الشاعر بجود أبي شجاع، وكرمهم لا يُداني كرمه، فإن قصّر اعتبر ذلك بخلاً من نفسه، وهو في محامده لا يُدانيه مخلوق، فهم يذمّون فيه كرمه وشجاعته حتى التهور في بعض الأحيان؛ فذمّه بمثابة حمد له وذمّ لهم لجبنهم وبخلهم.

(٤) الوُجْد: الغنى. العُدم: الفقر. يُقارن الشاعر بين موت أبي شجاع وحياة أولئك الملوك، فموته شرف له وحياتهم زراية لهم وحطّ من كراماتهم، وهو في حال فقره أنفع للناس من أولئك في حالة غناهم مع بخلهم.

(٥) المنية: الموت. حال الموت حال عجيب، فقد كان فاتك يفتك بنفوس الأعداء ويُوردها إلى العدم، وهو بدوره لم يستعصِ على المنية، احتضنه تراب الأرض؛ فكان يسقي أعداءه ذلك الكأس فشربه حتى الثمالة، فإذا بالكرمة تستقيه لجوده وكرمه.

فَــذَاكَ الَّــــذِي عَــبَّــهُ مَــاؤُهُ
وَذاكَ الَّــذِي ذَاقَــهُ طَــعْــمُــهُ[١]

وَمَــنْ ضَــاقَــتِ الْأَرْضُ عَــنْ نَــفْــسِــهِ
حَــرًى أنْ يَــضِــيــقَ بِــهَــا جِــسْــمُــهُ[٢]

أين المحاجم يا كافور؟

وقال يهجو كافوراً أيضاً:

[البسيط]

مِـنْ أَيَّـةِ الـطُّـرْقِ يَـأْتِـي مِـثْـلَـكَ الـكَـرَمُ
أَيْـنَ الـمَـحَـاجِـمُ يَـا كَـافُـورُ وَالْـجَـلَـمُ[٣]

جَـازَ الأُلَـى مَـلَـكَـتْ كَـفَّـاكَ قَـدْرَهُـمُ
فَـعُـرِّفُـوا بِـكَ أَنَّ الْـكَـلْـبَ فَـوْقَـهُـمُ[٤]

---

(١) عبّه: جرعه. لقد ذاق فاتك طعم ما كان يُذيقه لأعدائه، فإذا به يكون طعماً سائغاً لما كان يفعله مع سواه، فتجرّعه الموت، وهو من صنع يديه.

(٢) حرى: خليق وجدير. إن فاتكاً من العظماء الذين تضيق بهم الحياة ذرعاً ولا تستطيع الاستجابة لرغباتهم وطموحهم إلّا راغمة، وإن لم تفعل كان عليها أن تغتال طموحهم وتسلبهم حياتهم ثمن فشلها، لذا هلك، لأنه لم يحتمل العيش في قاع الاستكانة والضعف.

(٣) المحاجم، الواحدة محجمة: القارورة يُحجم بها الجلد. الجلم: أحد شقي المقراض، وهما جلمان. يسخر الشاعر من كافور، فالكرم لا يتعرّف إليه، فكلّ الطرق مقطوعة بحواجز وموانع يصعب على كافور تخطيها أو التخلّص منها. وإمعاناً باحتقاره يسأله عن المحاجم والجلم، هل لا زال يستعملها أم خبّأها في مكان ما؟ يذكّر الشاعر كافوراً بمن اشتراه في ما مضى وكان حجّاماً.

(٤) يصبّ الشاعر جام غضبه على من ملّكوا كافوراً عليهم، لقد انصرفوا عن جادة الصواب وغيّروا وبدّلوا بدينهم، فابتلاهم ربهم بمن يسومهم سوء العذاب؛ بكلب لا يكلّ عن عضّهم وإرعابهم بنباحه عليهم.
ـ ورد بعد هذا البيت بيت لم يرد في الديوان، وهو التالي:
لَا شَـيْءَ أَقْـبَـحُ مِـنْ فَـحْـلٍ لَـهُ ذَكَـرٌ   تَـقُـودُهُ أَمَـةٌ لَـيْـسَـتْ لَـهَـا رَحِـمُ

سَــادَاتُ كُــلِّ أُنَــاسٍ مِــنْ نُــفُــوسِــهِــم
وَسَــادَةُ الْـمُـسْـلِـمِـيـنَ الأَعْـبُـدُ الْـقَـزَمُ[١]
أَغَــايَــةُ الــدِّيــنِ أَنْ تُــحْــفُــوا شَــوَارِبَــكُــمْ
يَــا أُمَّــةً ضَــحِــكَــتْ مِــنْ جَــهْــلِــهَــا الأُمَــمُ[٢]
أَلَا فَــتًــى يُــورِدُ الْــهِــنْــدِيَّ هَــامَــتَــهُ
كَــيْــمَــا تَــزُولَ شُــكُــوكُ الــنَّــاسِ وَالــتُّــهَــمُ[٣]
فَــإِنَّــهُ حُــجَّــةٌ يُــؤْذِي الْــقُــلُــوبَ بِــهَــا
مَــنْ دِيــنُــهُ الــدَّهْــرُ وَالــتَّــعْــطِــيــلُ وَالْــقِــدَمُ[٤]
مَــا أَقْــدَرَ الــلَّــهَ أَنْ يُــخْــزِي خَــلِــيــقَــتَــهُ
وَلَا يُــصَــدِّقَ قَــوْمــاً فــي الَّــذِي زَعَــمُــوا[٥]

---

(١) القزم: أراذل الناس وسفلتهم. من طبيعة الأمم العظيمة أن تُولّي عليها أفضل رجالها علماً وفهماً وشجاعة وورعاً، والأمر الآن معكوس، فقد ولي أمور المسلمين عبيدهم الأراذل اللئام. يحاول الشاعر أن يُثير الناس ضدّ كافور لعلّهم يخلعونه من ربقتهم.

(٢) أحفى شاربه: استأصله، حلقه. ينتقد الشاعر المصريين بأنهم يُحفون الشوارب، فالدين لا يُعوّل فيه على الشكليات والمظاهر، وهذا ما يدعو إلى السخرية، فالأمم ضحكت من جهلهم. يعمل الشاعر على كشف حقائق الأمور علّ هؤلاء يثورون ضدّ حاكم لا يربطهم به أدنى رباط.

(٣) الهندي: السيف المصنوع في الهند. الهامة: الرأس. يحرّض الشاعر على اغتيال كافور، ألا يُوجد فتى يُحسّ بالكرامة فيخلع عن نفسه الخوف والجبن ليحرر الأمة من مسبّة لحقت بها وينفي الشكّ بأن اللّه عزّ وجلّ ابتلاهم بحاكم كهذا لعجزهم عن إدارة شؤونهم بأنفسهم، لذا فالمرء يتساءل أين العدالة الإلهية؟ وما سرّ تلك النكبة التي حلّت بالقوم؟

(٤) يرى الشاعر أن تملّك كافور مدعاة للدهرية والمعطّلة والقائلين بقدم العالم، وأن لا ربّ يُسيّر الكون، أن يتمخرقوا على الدين، بأنه لو كان هناك إله يدبّر الأمر، ما ملك كافور العبد أمثال هؤلاء الأحرار.

(٥) يردّ الشاعر مزاعم أولئك الملاحدة وتمخرقهم على الدين بأنه أراد سبحانه وتعالى أن يُجازي القوم بتملك عبد عليهم علّهم يرجعون إلى ربّهم ويتوبون عندئذ فلا بدّ من أن يستأصله من بينهم في حال طاعتهم واستجابتهم أوامره.

كأن الحر بينهم يتيم

وقال يهجو كافوراً أيضاً:

[الوافر]

أَمَــا فــي هَــذِهِ الــدُّنْــيَــا كَــرِيــمُ
تَــزُولُ بِــهِ عَــنِ الْــقَــلْــبِ الْــهُــمُــومُ(١)
أَمَــا فــي هَــذِهِ الــدُّنْــيَــا مَــكَــانٌ
يُــسَــرُّ بِــأَهْــلِــهِ الْــجَــارُ الْــمُــقِــيــمُ(٢)
تَــشَــابَــهَــتِ الْــبَــهَــائِــمُ وَالْــعِــبِــدَّى
عَــلَــيْــنَــا وَالْــمَــوَالــي وَالــصَّــمِــيــمُ(٣)
وَمَــا أَدْرِي أَذَا دَاءٌ حَــدِيــثٌ
أَصَــابَ الــنَّــاسَ أَمْ دَاءٌ قَــدِيــمُ(٤)
حَــصَــلْــتُ بِــأَرْضِ مِــصْــرَ عَــلَــى عَــبِــيــدٍ
كَــأَنَّ ٱلْــحُــرَّ بَــيْــنَــهُــمُ يَــتِــيــمُ(٥)

---

(١) لا يرى الشاعر في دنياه أحداً من الكرام، والكريم مألوف مأنوس محبّب إلى النفوس تميل إليه القلوب، فهو يشكو انعدام أنموذج بشري يمتاز بصفات عالية في إنسانيته.

(٢) لا يرى الشاعر كذلك في الأرض، على سعتها، مكاناً آمناً يسكنه من البشر من يحمل في قلبه بذرة خيّرة تبذر من معينها السعادة والحبّ والأمن لجيرانها وأبناء ملّتها وعشيرتها من فيض ذلك المعين الطاهر الصادق المبرّأ من كلّ عيب ودنس.

(٣) العبدّى: العبيد. الموالي: الملوك والسّادة. الصميم: العربي الخالص النسب. يحكم الشاعر على مجتمعه حكماً جائراً، فقد تساوى سائر البشر بالبهائم لكثرة العبيد في مجتمع غلب عليه عنصر الرقيق في كلّ مجالات الحياة، ومن هؤلاء من تملك بالخديعة والغدر والخيانة، واختلط هؤلاء بالعرب الخلّص ففسدت طباعهم وتعلّموا فنون الغدر لطول العشرة للعبيد فتطبّعوا بطبائعهم وفسدت سرائرهم، فأشبهوا البهائم.

(٤) و (٥) يتساءل الشاعر عن تلك اللعنة المرضية من تحكّم العبيد في مصائر الأحرار إذا طرأت حديثاً على مجتمعه أم أنها متأصّلة فيه من زمن بعيد وبالتالي أنها مرض مزمن لا علاج له ولا يُرجى له شفاء؟ ولقد شاهد الشاعر عجباً في أرض مصر، فالناس =

كَـــأَنَّ الأَسْـــوَدَ الـــلَّابِـــيَّ فِـــيـــهِـــمْ
غُـــرَابٌ حَـــوْلَـــهُ رَخَـــمٌ وَبُـــومُ[١]

أُخِـــذْتُ بِـــمَـــدْحِـــهِ فَـــرَأَيْـــتُ لَـــهْـــواً
مَـــقَـــالِـــيَ لِـــلأُحَـــيْـــمِـــقِ يَـــا حَـــلِـــيـــمُ[٢]

وَلَـــمَّـــا أَنْ هَـــجَـــوْتُ رَأَيْـــتُ عِـــيًّـــا
مَـــقَـــالِـــيَ لاْبْـــنِ آوَى يَـــا لَـــئِـــيـــمُ[٣]

فَـــهَـــلْ مِـــنْ عَـــاذِرٍ فِـــي ذَا وَفِـــي ذَا
فَـــمَـــدْفُـــوعٌ إِلَـــى الـــسَّـــقَـــمِ الـــسَّـــقِـــيـــمُ؟[٤]

= هناك يتصرّفون في حياتهم وأحكامهم تصرّف العبيد، فإذا به يُحسّ أنه غريب يتيم وسط تلك الكتل البشرية من لحم ودم ترتهن وتأتمر بأمر عبد زنيم.

(١) اللابي: نسبة إلى اللاب، من بلاد النوبة. الرخم: من جوارح الطيور الكبيرة الجثة الوحشية الطباع. لم ير الشاعر في مصر سوى كافور، إنه غراب أسود، نذير شؤم وغربة ووحشة لا يألف الناس ولا يألفونه، إنه وسط حاشية على شاكلته من بوم يسكن أفراد سربها دياراً تخلّى عنها أصحابها لفساد بيئتها وما فيها من عيوب، وفوق ذلك فهناك إضافة إلى تلك الأسراب طيور الرخم المتوحّشة التي لا تُوفّر الجيف المهترئة تنهش ما بقي من لحومها بشراهة وعنف.

(٢) يعرض الشاعر مشكلته مع كافور، لقد كان مجبراً على مدحه، فإذا به يلهو معه ساخراً منه يصبّ عليه الفضائل التي يفتقدها فيه ويكيل له المديح بالإكراه.

(٣) العيّ: العجز عن النطق السليم والفصيح. يرى الشاعر أنه قد قصّر بهجاء كافور، فلم يفه حقّه في الهجاء، فإذا به يُصاب بالعيّ، لسبب ما تملّكه من حنق وغيظ يودّ لو استطاع محو كافور من الوجود لفعل، ولكن ليس بيده حيلة فلجأ إلى هجائه والسخرية منه.

(٤) السقم: المرض. السقيم: المريض. يُحاول الشاعر أن يسوغ لنفسه هجاء كافور، فالأعذار موجودة لديه، ولكنه يبحث عمّن يعذر في ما يفعل، فالأمر أشبه بمرض حلّ بجسد ضعيف لا يقدر على دفعه إلّا بما أوتي الشاعر من عتاد وسلاح يردع الباغي الظالم عن ظلمه.

إِذَا أَتَـــتِ الْإِسَـــاءَةُ مِـــنْ وَضِـــيـــعٍ
وَلَـــمْ أَلُـــمِ الْـمُـسِـيءَ فَـمَـــنْ أَلُـــومُ؟[١]

صدق الورد

قال يمدح في يوم الجلسان وقد نثر عليهم الورد وهم قيام بين يديه حتى غرقوا فيه:

[المنسرح]

قَــدْ صَــدَقَ الْــوَرْدُ فــي الَّــذِي زَعَــمَــا
أَنَّــكَ صَــيَّــرْتَ نَــثْــرَهُ دِيَــمَــا[٢]

كَــأَنَّــمَــا مَــائِــجُ الْــهَــوَاءِ بِــهِ
بَــحْــرٌ حَــوَى مِــثْــلَ مَــائِــهِ عَــنَــمَــا[٣]

نَــاثِــرُهُ الــنَّــاثِــرُ الــسُّــيُــوفَ دَمــاً
وَكُــلُّ قَــوْلٍ يَــقُــولُــهُ حِــكَــمَــا[٤]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٤. يرى الشاعر أن من حقّه أن يصبّ نار هجائه على لئيم وضيع النسب أساء إليه فلا بدّ له من أن يشفي ما في نفسه من غضب وحنق عليه، لذا فعليه أن يوجّه إليه كلّ أسلحته المدمّرة.

(٢) الديم، الواحدة ديمة: المطر الدائم في سكون. يرى الشاعر أن الورد صادق في مقولته من أن الأمير لكثرة ما نثر من الورود في المكان وعلى شاغليه، فإذا بالمنثور كأنه مطر دائم يسحّ عليهم برقّة وسكون.

(٣) وردت الأبيات الخمسة التالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥١. يروى «مازج» بدلاً من «مائج». العنم: شجر ذو ثمرة حمراء يشبه به بنان النساء المخضوب. يتابع الشاعر رسم صورة المجلس، فقد تناثرت الورود تاركة عطرها ينفث أريجه وعبيره في ذلك الجوّ البديع، فإذا ببحر من حمرة تسبح به العيون وهي في حيرة حيثما التفتت الأنظار أين يُمكن أن تستقرّ.

(٤) يمدح الشاعر ممدوحه، إنه مرفّه بما نثره من الورود، ويدلّ ذلك على ذوق رفيع، وهو في نفس الوقت شجاع بطل ينثر سيوفه في أعدائه وقد لطّخت بدمائهم، كما أنه يمتاز بالحكمة، فأقواله حكم تنمّ عن تجربة وحصافة لديه ومعرفة في شتّى شؤون الحياة.

وَالْـخَـيْـلَ قَـدْ فَـصَّـلَ الـضِّـيَـاعَ بِـهَـا
وَالـنِّـعَـمَ الـسَّـابِـغَـاتِ وَالـنِّـقَـمَـا(١)
فَـلْـيُـرِنَـا الْـوَرْدُ إِنْ شَـكَـا يَـدَهُ
أَحْـسَـنَ مِـنْـهُ مِـنْ جُـودِهِ سَـلِـمَـا(٢)
فَـقُـلْ لَـهُ لَـسْـتَ خَـيْـرَ مَـا نَـثَـرَتْ
وَإِنَّـمَـا عَـوَّذَتْ بِـكَ الْـكَـرَمَـا(٣)
خَـوْفـاً مِـنَ الْـعَـيْـنِ أَنْ يُـصَـابَ بِـهَـا
أَصَـابَ عَـيْـنـاً بِـهَـا يُـصَـابُ عَـمَـى(٤)

لا يسلم الشرف الرفيع

مر في طريقه على إسحاق بن الأعور بن إبراهيم بن كيغلغ وكان محافظاً على طريق طرابلس فطلب منه أن يمدحه، فاحتج بأنه قد حلف أن لا يمدح أحداً في الطريق فاعتاقه إسحاق عن طريقه، ولما فارقه قال يهجوه ويمدحُ أبا العشائر بهذه القصيدة وقد حذفت منها أبيات:

[الكامل]

لِـهَـوَى الـنُّـفُـوسِ سَـرِيـرَةٌ لَا تُـعْـلَـمُ
عَـرَضـاً نَـظَـرْتُ وَخِـلْـتُ أَنِّـي أَسْـلَـمُ(٥)

---

(١) السابغات: التامّات. يُردف الشاعر مدحه لممدوحه؛ لقد جعل من خيوله سبيلاً لوحدة وجمع تلك الديار التي أخضعها بسيوفه، فنظمها إقطاعات يقوم على رعايتها والعناية بأمور مواطنيها. لذا فقد أسبغ عليهم من نعمه، فهم في بحبوحة من العيش، وفي المقابل أذاق أعداءه صنوف العذاب ألواناً، فانتقم منهم أشدّ انتقام؛ كلّ ذلك بفضل تلك الخيول والجيش العظيم.

(٢) يُحاول أن يستدرّ مال ممدوحه، يستحسن الشاعر نثر الممدوح ورده وقد شكا منه الإسراف في ذلك، فإذا به يُثير فيه حاسة الجود، فلينثر دنانيره وذهبه على الشاعر، فتكتمل الفرحة ويعمّ السرور المكان.

(٣) و (٤) عوّذه رقاه رقية لدفع الأذى عنه. يرى الشاعر أن ما نثرته يد ممدوحه من ورود، فليس أفضل ما نثرت، وإنما يقصد به دفع عيون الحاسدين وقاية لكرمه الحقيقي، فلو رأوه يجود بالأموال بكثرة لانصبّت عيون الحاسدين تبغي ضرره، فلْتعم عيونهم.

(٥) يروى «القلوب» بدلاً من «النفوس». السريرة: السرّ. عرضاً: فجاءة. يبدأ الشاعر =

يَـا أُخْـتَ مُـعْـتَـنِـقِ الْـفَـوَارِسِ فِـي الْـوَغَـى
لأَخُـــوكِ ثَـــمَّ أَرَقُّ مِـــنْـــكِ وَأَرْحَـــمُ(١)

يَـــرْنُـــو إِلَـــيْـــكِ مَـــعَ الْـــعَـــفَـــافِ وَعِـــنْـــدَهُ
أَنَّ ٱلْـمَـجُـوسَ تُـصِـيـبُ فِـي مَـا تَـحْـكُـمُ(٢)

رَاعَـتْـكِ رَائِـعَـةُ الْـبَـيَـاضِ بِـمَـفْـرِقِـي
وَلَـوْ أَنَّـهَـا الأُولَـى لَـرَاعَ الأَسْـحَـمُ(٣)

لَـوْ كَـانَ يُـمْـكِـنُـنِـي سَـفَـرْتُ عَـنِ الـصِّـبَـا
فَـالـشَّـيْـبُ مِـنْ قَـبْـلِ الأَوَانِ تَـلَـثُّـمُ(٤)

وَلَـــقَـــدْ رَأَيْـــتُ ٱلْـــحَـــادِثَـــاتِ فَـــلَا أَرَى
يَـقَـقـاً يُـمِـيـتُ وَلَا سَـوَاداً يَـعْـصِـمُ(٥)

= قصيدته بمطلع غزلي، الهوى حال جذب وجداني وشعوري يُنتج تعلّقاً، فيميل الحبيب إلى حبيبه ولا يعرف سبباً مقنعاً، فثمة شيء غامض يُحرّك مشاعر البشر فيتحابّون، إنه سرّ إلهي عجيب، ولقد تطلّع الشاعر من غير قصد، فإذا به يعشق عينين ساحرتين، ولم يدر في خلده أن تستميله إليها بدلّها وعنجها.

(١) و (٢) وردت الأبيات الخمسة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٠. الوغى: الحرب. يُخاطب الشاعر حبيبته، إن أخاها بطل مغوار يُعتق الأبطال الذين يقعون في قبضة يده، في أسره، فيعيد لهم حرّيتهم، لذا فهو يمتاز بالرقّة لحاله ويرحم ضعفه، فهو أرحم منها في كلّ حال، ومع ذلك فهو ينظر إليها نظر المحب العفيف ويتمنى الزواج منها على مذهب المجوس الذين يُبيحون الزواج بالأخوات.

(٣) راعتك: أرعبتك. يروى «بعارضي» بدلاً من «بمفرقي». العارض: صفحة الوجه. الأسحم: الأسود. من الطبيعي أن النساء يملن إلى الفتوة والشباب، ولقد بدأت طوالع الشيب تغزو لحية الشاعر، ممّا أرعب حبيبته فصدّت عنه، حتى الشعر الأسود حالما رأى الشيب لأول وهلة دبّ فيه الخوف من مقبل الأيام.

(٤) سفرت: كشفت. التلثّم: شدّ اللثام على الفم. يردف الشاعر أنه لو أمكنه أن يزيل ذلك الطارئ وبدا كلثام لفعل، فتحت الشيب لا زال الصبا يموج في خديه رغم بوادر الشيب الأولى، والصبا حالة نفسية لدى بعض من بدأ يتقدّم في السّنّ.

(٥) اليقق: الأبيض. يعصم: يحفظ. يرى الشاعر أن الموت لا يرتبط بالشيب فقد يُعمّر =

وَالْـهَـمُّ يَـخْـتَـرِمُ ٱلْـجَـسِـيـمَ نَـحَـافَـةً
وَيُـشـيـبُ نَـاصِـيَـةَ الـصَّـبِـيِّ وَيُـهْـرِمُ[١]

ذُو الْـعَـقْـلِ يَـشْـقَـى فِـي الـنَّـعِـيـمِ بِـعَـقْـلِـهِ
وَأَخُـو ٱلْـجَـهَـالَـةِ فِـي الـشَّـقَـاوَةِ يَـنْـعَـمُ[٢]

وَالـنَّـاسُ قَـدْ نَـبَـذُوا الْـحِـفَـاظَ فَـمُـطْـلَـقٌ
يَـنْـسَـى الَّـذِي يُـولَـى وَعَـافٍ يَـنْـدَمُ[٣]

لَا يَـخْـدَعَـنَّـكَ مِـنْ عَـدُوٍّ دَمْـعُـهُ
وَٱرْحَـمْ شَـبَـابَـكَ مِـنْ عَـدُوٍّ تَـرْحَـمُ[٤]

= المرء رغم تقدّمه بالسنّ ويموت الفتى في ريعان شبابه والشعر الأسود يغطي رأسه.

(١) يخترم: يميت. الجسيم: السمين. النحافة: الهزال. الناصية: شعر مقدم الرأس. يرى الشاعر أن سبب تحوّل أحوال البشر وموتهم من نعمة الصحة والعافية إلى حالة المرض الهموم التي تجعل مقدمة ناصية الفتى يدبّ فيها الشيب وتستولي عليه الشيخوخة المبكرة.

(٢) يرى الشاعر أنه لا تتمّ النعم لدى بني البشر، فلا بدّ لها ممّا ينغّص التنعّم بها؛ فالعقل نعمة لا تقدّر بثمن، ومع ذلك فلا بدّ من منغصات، كالإحساس بالظلم وعدم تقدير الهبات والمواهب من قبل الآخرين كالحسد والكيد، وفي بعض الأحيان السخرية من أمثال ذوي العقول النيّرة، وفي المقابل فمن حرم من نعمة العقل، فإنه يفعل ما يحلو له دون مساءلة أو لوم من قبل الآخرين بحجّة أنه لا عقل له.

(٣) نبذوا: طرحوا. الحفاظ: المحافظة على حقوق الآخرين. النسيان نعمة في بعض الأحيان، يشفي المرء من جراحات أليمة، كالموت والمرض والإساءة وسواها، ولكنه سيّئ في حالات عديدة، فالحفاظ على العهد والصداقة والقرابة والمواطنية ضرورة من ضرورات الحبّ والودّ بين بني البشر، فمن نسي أو تناسى، فإنه بلا شك لئيم الطبع، والتكبّر من أكبر دواعي ذلك، فلا بدّ للاعتراف بمطلق إنسان من الأسر ألا ينسى ذلك لمن أطلق يديه وأنعم عليه بالحرية، وكذلك لا بدّ من تقدير من عفا وهو قادر على الاقتصاص؛ فحلمه حمله على ذلك، ولا بدّ من مراعاته في وقوعه بين يدي من عفا لخطأ ارتكبه ولم يقصد الإساءة إليه.

(٤) يطلب الشاعر من البشر ألا ينخدعوا من أعدائهم لبكائهم استدراراً لعطفهم علّهم يخدعونهم لينقضّوا عليهم إذا ما سنحت الفرصة، وهنا على المرء أن يرحم نفسه ويُحافظ على وجوده موفور الكرامة؛ ففي حال ضعفه فلن يجد عدوًّا راحماً.

لَا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى
حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ[(١)]

يُؤْذِي القَلِيلُ مِنَ اللِّئَام بِطَبْعِهِ
مَنْ لَا يَقِلُّ كَمَا يَقِلُّ وَيَلْؤُمُ[(٢)]

والظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ
ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لَا يَظْلِمُ[(٣)]

وَمِنَ الْبَلِيَّةِ عَذْلُ مَنْ لَا يَرْعَوِي
عَنْ غَيِّهِ وَخِطَابُ مَنْ لَا يَفْهَمُ[(٤)]

---

(١) ورد البيت في أسرار البلاغة، للجرجاني: ٣٠٠. يُراق: يُسفك. الشرف تتمثل فيه الفضائل الرفيعة والنبل في أرقى معانيها، وذلك من أهم صفات العربي المسلم، وللمحافظة عليه كانت حروب دامية لأتفه الأسباب في التاريخ العربي، وردّ العدوان لا يكون إلّا بالعدوان يرهب الأعداء فيحملهم ذلك على الاستكانة والخضوع.

(٢) يرى الشاعر القليل من يفتقد في نفسه عوامل الحياء، فكان خسيس الطبع في معاملاته، فإذا به يتعدّى على الكرماء؛ فكلّما تجنّبه هؤلاء زاد لؤماً وخسّة طبع.

(٣) ورد البيت في حاشية يس على التصريح ١: ٢٥٠. الشيم، الواحدة شيمة: الخلق. يروى «في خلق النفوس» بدلاً من «من شيم النفوس». يرى الشاعر أن البشر مطبوعون على الظلم، وذلك مغروس في جبلتهم الأولى، ولا يستطيعون الخلاص إلا برادع منها، قوامه دين قويم وأخلاق رفيعة، وإلّا فالأمر يتعلّق بجبن بعضهم وخسته.

ـ ملاحظة: هجا الشاعر ابن كيغلغ في هذا الموضع من القصيدة بأبيات خمسة فيها إسفاف تنمّ عن المستوى الأخلاقي للشاعر، فلم أوردها في الديوان.

(٤) وردت الأبيات الأربعة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٠. يروى «عن جهله» بدلاً من «عن غيّه». البلية: المصيبة. العذل: اللوم. يرعوي: يكفّ، يرتدع. الغيّ: الجهل. يرى الشاعر أنه خطأ أن يعمد المرء إلى لوم من لا يرتدع عن السفه والطيش من الجهلة، فذلك يدفعهم إلى الإمعان في ضلالتهم وطيشهم، فهم لا يفهمون الغاية من وراء نصحهم، لأنهم لا يفهمون لتحجّر عقولهم وانسداد أفهامهم.

ـ ملاحظة: يُورد الشاعر بيتاً فيه إسفاف بعد البيت السابق لم أذكره لإسفافه.

وَجُـفُـونُـهُ مَـا تَـسْـتَـقِـرُّ كَـأَنَّـهَـا
مَـطْـروفَـةٌ أَوْ فُـتَّ فِـيـهَـا حِـصْـرِمُ[١]

وَإذَا أَشَـارَ مُـحَـدِّثـاً فَـكَـأَنَّـهُ
قِـرْدٌ يُـقَـهْـقِـهُ اوْ عَـجُـوزٌ تَـلْـطِـمُ[٢]

يَـقْـلَـى مُـفَـارَقَـةَ الأَكُـفِّ قَـذَالُـهُ
حَـتَّـى يَـكَـادُ عَـلَـى يَـدٍ يَـتَـعَـمَّـمُ[٣]

وَتَـرَاهُ أَصْـغَـرَ مَـا تَـرَاهُ نَـاطِـقـاً
وَيَـكُـونُ أَكْـذَبَ مَـا يَـكُـونُ وَيُـقْـسِـمُ[٤]

وَالـذُّلُّ يُـظْـهِـرُ فِـي الـذَّلِـيـلِ مَـوَدَّةً
وَأَوَدُّ مِـنْـهُ لِـمَـنْ يَـوَدُّ ٱلأَرْقَـمُ[٥]

وَمِـنَ الْـعَـدَاوَةِ مـا يَـنَـالُـكَ نَـفْـعُـهُ
وَمِـنَ الـصَّـدَاقَـةِ مَـا يَـضُـرُّ وَيُـؤْلِـمُ[٦]

---

(١) و (٢) طرفت عينه: أصيبت عينه بشيء جعلها تدمع. الحصرم: العنب الأخضر الحامض. يصف الشاعر مهجوّه ابن كيغلغ بما يستبشع من حركات عينيه، ويُتابع الهجوم عليه؛ إنه مثير للضحك، فلا يُحسن النطق فيلجأ إلى الإشارة كأنه قرد يقوم بحركات مضحكة، أو أنه امرأة مسنّة ثكلى تلطم وجهها لفقدها عزيزاً على قلبها.

(٣) القلى: البغض والكراهية. القذال: جماع مؤخر الرأس. لقد ألف ابن كيغلغ واعتاد على لطم قذاله وصفعه بالأكف، فإن لم يجد من يصفعه عمد إلى يده ليصفع نفسه بها.

(٤) ورد البيت في أمالي ابن الشجري ١ : ٣٥٠. يصف الشاعر مهجوّه هجاءً مسخيًّا بما يُثير ضحك الناظر إليه. وهو في حال نطقه ينكمش على نفسه، ولعلّ ذلك من الرهب أو الخوف. ومن طبعه الكذب وتأكيداً على كذبه يُقسم الأيمان المغلظة.

(٥) الأرقم: ضرب من الحيات فيه سواد وبياض، وهو من أخبث الحيات. يرى الشاعر أن طبيعة الذلّ في نفس المرء تحمله على إرضاء مذلّه، فيتودّد إليه كما يتودّد إلى أخبث الحيات من الأراقم التي تعضّ وعضّتها قاتلة مميتة.

(٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥١. يُردف الشاعر أن خسيس النفس يُضمر ما فيها من عداء لقاهره وظالمه، فإذا اكتشف أمره واطلع على حقيقته =

أَرْسَلْتَ تَسْأَلُنِي الْمَدِيحَ سَفَاهَةً
صَفْرَاءُ أَضْيَقُ مِنْكَ مَاذَا أَزْعُمُ[١]

فَلَشَدَّ مَا جَاوَزْتَ قَدْرَكَ صَاعِداً
وَلَشَدَّ مَا قَرُبَتْ عَلَيْكَ الأَنْجُمُ[٢]

وَأَرَغْتَ مَا لأَبِي الْعَشَائِرِ خَالِصاً
إِنَّ الثَّنَاءَ لِمَنْ يُزَارُ فَيُنْعِمُ[٣]

وَلِمَنْ أَقَمْتَ عَلَى الْهَوَانِ بِبَابِهِ
تَدْنُو فَيُوجَأُ أَخْدَعَاكَ وَتُنْهَمُ[٤]

وَلِمَنْ يُهِينُ الْمَالَ وَهْوَ مُكَرَّمٌ
وَلِمَنْ يَجُرُّ الْجَيْشَ وَهْوَ عَرَمْرَمُ[٥]

= أمره كان ذلك سبب مضرّته، لأنّ قاهره يحتاط لأمره منه، إنها صداقة ليست متكافئة تحمل في طيّاتها ألماً وأذاة للقاهر إذا انتهز الذليل فرصة الغدر، لفعل.

(١) يُخاطب الشاعر ابن كيغلغ أنه طلب منه أن يمدحه، وهذا سفه منه لعدم معرفته بطبيعة المتنبي المتأله فلا ينزل إلى مستواه، وأمه صفراء ضيّقة الأفق صغيرة العقل، لذا فكيف يمدحه في هذه الحالة؟

ـ ملاحظة: ثمة بيت ورد بعد هذا البيت فيه إسفاف لم أذكره لذلك.

(٢) يستغرب الشاعر كيف استطاع ابن كيغلغ أن يطلب منه ذلك على ما هو عليه من ذلّة، ولقد ظن ظناً باطلاً أنه باستطاعته أن ينال النجوم بنفسه وأن يسمع مديحاً يُخلّده، والحقيقة أن الشاعر قد خلّده بأسوأ ما يُخلد امرؤ.

(٣) أرغت: طلبت. ينعى الشاعر على ابن كيغلغ بخله، فالمديح يُثيره جود الممدوح، فقد طلب ما ليس له بحقّ، وذلك من حقّ أبي العشائر الكريم الذي يُكرم ضيوفه ومادحيه، فضلاً عمّا يتّصف به من مزايا ليست موجودة عند ابن كيغلغ.

(٤) الأخدعان: عرقان في صفحتي العنق قد خفيا وبطنا. الوجء: الضرب. النهم: الزجر الشديد. يُتابع الشاعر فكرته مبيّناً حالة ابن كيغلغ وأبي العشائر. لقد كان يقف ببابه حتى يدخل عليه ولطالما صفع إذلالاً له، فأخدعاه اعتادتا على ذلك.

(٥) يمدح الشاعر أبا العشائر، إنه كريم يُهين ماله، فإذا بالمواطنين يُثنون عليه ويمدحون سلوكه معهم، وهو من يتقدّم الجيش العظيم العرمرم، لشدته وقوّته.

وَلِـمَـنْ إذَا ٱلْـتَـقَـتِ الْـكُـمَـاةُ بِـمَـأْزِقٍ
فَـنَـصِـيـبُـهُ مِـنْـهَـا الْـكَـمِـيُّ الْـمُـعْـلِـمُ[١]
وَلَـرُبَّـمَـا أَطَـرَ الْـقَـنَـاةَ بِـفَـارِسٍ
وَثَـنَـى فَـقَـوَّمَـهَـا بِـآخَـرَ مِـنْـهُـمُ[٢]
وَالْـوَجْـهُ أَزْهَـرُ وَالْـفُـؤَادُ مُـشَـيَّـعٌ
وَالـرُّمْـحُ أَسْـمَـرُ، والْـحُـسَـامُ مُـصَـمِّـمُ[٣]
أفْـعَـالُ مَـنْ تَـلِـدُ الـكِـرَامُ كَـرِيـمَـةٌ
وَفَـعَـالُ مَـنْ تَـلِـدُ الأعَـاجِـمُ أَعْـجَـمُ[٤]

---

(١) الكماة، الواحد كمي: البطل المدجج بالسلاح. المأزق: الشدّة والعسرة. المعلم: البطل الذي يميّز نفسه بعلامة في ساحات القتال. يُتابع الشاعر مدحه أبا العشائر إنه بطل صنديد يختار الكفوء له في الحرب، فيهاجمه ويصرعه في حومة الوغى.

(٢) و (٣) أطر: ثنى. ثقف: أجلس. يُتابع الشاعر وصف شجاعة وقوة أبي العشائر، إنه يستعمل رمحه ضدّ خصمه، فإذا احترق جسده والتوى ثنّي بآخر، فإذا به يعود مثقّفاً كما كان. وهو في كلّ حال مشرق الوجه باسم، يلتقي خصمه بقلب كالحديد بجرأة، وبيده رمح مثقّف يخترق الأجسام بقوّة وعزم أكيدين، وسيف يبتر كلّ شيء نزل به، فلا ينبو مهما كانت الأحوال.

(٤) يخلص إلى رأي شعوبي، فالعرب كرام الأنساب يتحدّرون من آباء عظام، وفي مقابلتهم أعاجم لا يحسنون نطقاً ومن بينهم ابن كيغلغ، فهم لئام الطبع والنسب، وأعمالهم على شاكلتهم لا تُفسّر إلّا بأنها أعجمية.

رويّ النون

كفى بجسمي نحولاً

قال أيضاً في صباه: [البسيط]

أَبْلَى الْهَوَى أَسَفاً يَوْمَ النَّوَى بَدَنِي
وَفَرَّقَ الْهَجْرُ بَيْنَ الْجَفْنِ وَالْوَسَنِ(١)

رُوْحٌ تَرَدَّدُ فِي مِثْلِ الْخِلَالِ إِذَا
أَطَارَتِ الرِّيحُ عَنْهُ الثَّوْبَ لَمْ يَبِنِ(٢)

كَفَى بِجِسْمِي نُحُولاً أَنَّنِي رَجُلٌ
لَوْلَا مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِي(٣)

كتمت حبك

[البسيط]

كَتَمْتُ حُبَّكِ حَتَّى مِنْكِ تَكْرِمَةً
ثُمَّ اسْتَوَى فِيكِ إِسْرَارِي وَإِعْلَانِي(٤)

---

(١) ورد البيت في مغني اللبيب، لابن هشام وشرح شواهده، للسيوطي: ٥٦٢. أبلى: غير. الأسف: شدّة الحزن. النوى: البعد. الوسن: النوم. يصف الشاعر ما عليه من سوء الحال، فقد جعله الهجر ناحلاً، وهو لا يريم ساهراً متأرّق البال لا يعرف إلى نوم هانئ طريقاً.

(٢) الخلال: عود صغير دقيق تخلّل به الأسنان. ما يُميّز الشاعر عن الأموات أن روحاً تتردّد فيه. إنه شبه خيال، ولولا ثوب يستره لما بدا للرائي، فكأنه غير موجود، ولو اشتدّت الريح لطار لشدّة هُزاله مع ثوبه.

(٣) ورد البيت في مغني اللبيب، لابن هشام وشرح شواهده، للسيوطي: ١٠٩، ٦٦٧. ومن مغالاة الشاعر أن مخاطبته لأحد ما لم يكن ليستدلّ على وجود إنساني يتحرّك لشدّة نحوله.

(٤) ورد البيت في أمالي ابن الشجري ٢: ٣٠٣. يُخاطب الشاعر محبوبته بأنه أخفى حبّه =

كَـأَنَّـهُ زَادَ حَـتَّـى فَـاضَ مِـنْ جَـسَـدِي
فَـصَـارَ سُـقْـمِـي بِـهِ فِـي جِـسْـمِ كِـتْـمَـانِـي (١)

سيف يسابق المنايا

وقال في صباه على لسان بعض التنوخيين وقد سأله ذلك :

[المتقارب]

قُـضَـاعَـةُ تَـعْـلَـمُ أَنِّـي الْـفَـتَـى الَّـذِ
ي ادَّخَـرَتْ لِـصُـرُوفِ الـزَّمَـانِ (٢)
وَمَـجْـدِي يَـدُلُّ بَـنِـي خِـنْـدِفٍ
عَـلَـى أَنَّ كُـلَّ كَـرِيـمٍ يَـمَـانِ (٣)
أَنَـا ابْـنُ الـلِّـقَـاءِ أَنَـا ابْـنُ الـسَّـخَـاءِ
أَنَـا ابْـنُ الـضِّـرَابِ أَنَـا ابْـنُ الـطِّـعَـانِ (٤)
أَنَـا ابْـنُ الْـفَـيَـافِـي أَنَـا ٱبْـنُ الْـقَـوَافِـي
أَنَـا ابْـنُ الـسُّـرُوجِ أَنَـا ٱبْـنُ الـرِّعَـانِ (٥)

= لها تكرمة لخاطرها وللحبّ، ولكن دلائل الحبّ في عينيه كشفت مكنون قلبه، فبات الإسرار والإعلان سواء.

(١) لم يستطع الشاعر إخفاء حقيقة مشاعره، ممّا أدّى إلى مرضه بعدما فاض بما يُضمر من حبّ تماماً كما يفيض الوعاء بما فيه.

(٢) قضاعة: من قبائل اليمن من حمير. الفتى: من اكتملت لديه القوّة والشجاعة والكرم والحميّة. صروف الدهر: المصائب. ترى قبيلة قضاعة في ابنها أنه الفتى المدّخر لوقت الشدائد ونزول الكوارث في ساحتها، فهو شجاع كريم يتصدّى لعظام الأمور والمهام.

(٣) خندف: إحدى قبائل مضر. لقد تناقلت الألسن سيرة ذلك الفتى حتى تسامعت به خندف، وشهدت بأن الكرام من بلاد اليمن.

(٤) و (٥) يعدّد الشاعر مزايا ذلك الفتى، فهو شجاع يلتقي الفرسان في ساحات القتال، وكريم، رضع لبان تلك المزايا، فكان لها ابناً بارًّا يقوم بما يتوجّب عليه من مطالب البنوّة؛ فهو يخترق المفازات بقلب قدّ من صوّان، لا يخاف ولا يرهب الوحوش الضارية. ينطق لسانه بالشعر، ويمتطي ظهور الخيل، ويتسلّق وعر الجبال، فيُشرف على الكون.

طَـويـلُ الْـنِّـجَـادِ طَـويـلُ الْـعِـمَـادِ
طَـويـلُ الْـقَـنَـاةِ طَـويـلُ الـسِّـنَـانِ(١)
حـديـدُ الـلِّـحَـاظِ حَـديـدُ الْـحِـفَـاظِ
حَـديـدُ الْـحُـسَـام حَـديـدُ الْـجَـنَـانِ(٢)
يُـسَـابِـقُ سَـيْـفـي مَـنَـايَـا الْـعِـبَـادِ
إلَـيْـهِـمْ كَـأَنَّـهُـمَـا فِـي رِهَـانِ(٣)
يَـرَى حَـدُّهُ غَـامِـضَـاتِ الْـقُـلُـوبِ
إذَا كُـنْـتُ فـي هَـبْـوَةٍ لَا أَرَانِـي(٤)
سَـأَجْـعَـلُـهُ حَـكَـمـاً فـي الـنّـفُـوسِ
وَلَـوْ نَـابَ عَـنْـهُ لِـسَـانِـي كَـفَـانِـي(٥)

أغار من الزجاجة!

دخل على عليّ بن إبراهيم التنوخي، فعرض عليه كأساً فيها شراب أسود فقال ارتجالاً:

[الوافر]

إذَا مَـا الْـكَـأْسُ أَرْعَـشَـتِ الْـيَـدَيْـنِ
صَـحَـوْتُ فَـلَـمْ تَـحُـلْ بَـيْـنِـي وَبَـيْـنِـي(٦)

---

(١) النجاد: حمالة السيف. طويل النجاد كناية عن طول حامل نجاد السيف. يفخر التنوخيّ بطوله، فهو طويل النجاد، طويل القامة، يتسلّح برمح طويل وباتّساع وارتفاع خيمته؛ فزائروه كثيرون يقصدونه لكرمه.

(٢) و (٣) إنه حادّ النظر ممّا يسمح له معرفة نقاط الضعف لدى خصومه في الحرب فيُصيب مقاتلهم، وهو قادر على حماية ما في يديه من متاع ومال، ولديه حسام بتّار يقطع الأعمار، ثابت لا يرهب أعداءه في الحروب، وسيفه سريع يسبق الموت إذا وجّهه إليه.

(٤) و (٥) هبوة: غبار: إنه يكشف الأسرار، فهو يطّلع على خبايا النفوس ويُدرك مقاتل الأعداء في المعركة، والغبار يتصاعد في كبد السماء، حيث لا يرى المقاتل نفسه في جوّ محموم بالكراهية والعداء، فسيفه يحكم، وله كلمة الفصل فضلاً عن دور شعره الذي ينفذ إلى أعماق القلوب، وقد يكتفي بالكلمة إذا أمكن ذلك دون سيفه.

(٦) رعشت: ارتجفت. يفخر الشاعر أنه يشرب الخمرة، فيكتفي منها مخافة ضياعه عن =

هَجَرْتُ الْخَمْرَ كَالذَّهَبِ الْمُصَفَّى
فَخَمْرِي مَاءُ مُزْنٍ كَاللُّجَيْنِ [١]
أَغَارُ مِنَ الزُّجَاجَةِ وَهْيَ تَجْرِي
عَلَى شَفَةِ الأَمِيرِ أَبِي الْحُسَيْنِ [٢]
كَأَنَّ بَيَاضَهَا وَالرَّاحُ فِيهَا
بَيَاضٌ مُحْدِقٌ بِسَوَادِ عَيْنِ [٣]
أَتَيْنَاهُ نُطَالِبُهُ بِرِفْدٍ
يُطَالِبُ نَفْسَهُ مِنْهُ بِدَيْنِ [٤]

مكايد السفهاء واقعة بهم

سار بدر إلى الساحل ولم يسر أبو الطيب معه ثم بلغه أن ابن كروس الأعور كتب إلى بدر يقول له: إن أبا الطيب إنما تخلّف عنك رغبة بنفسه عن المسير معك. ولما عاد إلى طبرية ضربت له قباب عليها أمثلة من تصاوير، فقال أبو الطيب:

[الكامل]

أَلْحُبُّ مَا مَنَعَ الْكَلَامَ الْأَلْسُنَا
وَأَلَذُّ شَكْوَى عَاشِقٍ مَا أَعْلَنَا [٥]

= السيطرة على عقله وحواسه بينما غيره من السكارى يستمرّون حتى يستولي عليهم السكر فترتعش أيديهم ويضيع منهم رشدهم، فلا يدرون ماذا أصابهم.

(١) المزن، الواحدة مزنة: السحابة البيضاء. اللجين: الفضة. يُصرّح الشاعر بأنه يكتفي بالماء المصفّى دون الخمرة، وقد هجرها اكتفاءً بالماء دون سواه.

(٢) إن الشاعر يغار على الأمير من أن تختصّ دون القيام بعظيم الأفعال والأعمال، وهو يبرأ به أن يضع شفتيه على حافّة الكأس ليحتسي ما فيها من خمرة.

(٣) الراح: الخمرة. أحدق به: أحاط به. يُشبّه الكأس وما احتواها من خمرة بعين بياضها أحدق بسوادها.

(٤) الرفد: العطاء. يمدح الشاعر الأمير بالجود، فإذا جاء يبتغي رفده، فإذا به يعتبر ذلك الطلب بمثابة دين عليه يجب أداءه دون إبطاء وتسويف.

(٥) وردت الأبيات الستة الأولى في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٠. بدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي. يرى الشاعر أن للحبّ قداسة، فلا يبوح المحبّ بما =

لَيْتَ الْحَبِيبَ الْهَاجِرِي هَجْرَ الْكَرَى
مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ وَاصِلِي صِلَةَ الضَّنَى(١)

بِتْنَا وَلَوْ حَلَّيْتَنَا لَمْ تَدْرِ مَا
أَلْوَانُنَا مِمَّا اسْتُفِعْنَ تَلَوَّنَا(٢)

وَتَوَقَّدَتْ أَنْفَاسُنَا حَتَّى لَقَدْ
أَشْفَقْتُ تَحْتَرِقُ الْعَوَاذِلُ بَيْنَنَا(٣)

أَفْدِي الْمُوَدِّعَةَ الَّتِي أَتْبَعْتُهَا
نَظَراً فُرَادَى بَيْنَ زَفَرَاتٍ ثُنَا(٤)

أَنْكَرْتُ طَارِقَةَ الْحَوَادِثِ مَرَّةً
ثُمَّ اعْتَرَفْتُ بِهَا فَصَارَتْ دَيْدَنَا(٥)

= يشعر في قرارة نفسه من شوق لحبيبته، ففي ذلك تشويه وكشف عن لذّة الألم الذي يُحدثه الحبّ في أفئدة العاشقين.

(١) الكرى: النوم. الجرم: الذنب. الضنى: المرض والهزال. يتمنّى الشاعر لو أن حبيبته تُواصله وتلتقيه، فقد هجرته ولم يُقدم على إغضابها، ولم يقترف ما يُوجب القطيعة بينهما، ولقد حلّ تواصل الهجر فإذا النوم يُفارقه أيضاً والضنى يستولي عليه فلا يستطيع نوماً وإذا بالهزال والضعف يستوليان عليه ولا ينفكّان يُصاحبانه.

(٢) يروى «بنّا فلو» بدلاً من «بتنا ولو» و «امتقِعْن» بدلاً من «استفعن». بنّا: افترقنا. امتقع لونه: تغيّر خوفاً أو حياءً. يُردف الشاعر واصفاً ما فيه، فقد حلّ الوهن والضعف لفراق حبيبته، فإذا بلونه يمتقع؛ فمن أراد معرفته لا يستطيع الاهتداء إليه، أهو أصفر لشدّة مرضه أم مزيج من ألوان المرض؟

(٣) أشفقت: خفت. العواذل، الواحد عاذل: اللائم. يُتابع الشاعر ما كان يُعاني منه؛ فالأنفاس ملتهبة والزفرات حارّة حارقة ممّا جعله يخاف على عذّاله من الاحتراق بها لشدّة ما يشعر به من شدّة شوقه لمن يُحبّ.

(٤) الزفرات، الواحدة زفرة: النفس الحارّ، يُقرّ الشاعر أنه على استعداد للتضحية بنفسه في سبيل استرضاء من ودّعته وتركت في نفسه الحسرات، فكلّما نظر إليها توالت زفراته لما يُعانيه من شدة الوجد والهيام.

(٥) الحوادث: مصائب الدهر. الديدن: العادة. يُصوّر الشاعر حالته النفسية، فقد فوجئ لأول مرّة بطوارق الدهر، فأنكر ذلك، ولكنه عندما تكرّرت الأحداث أيقن أن الأمر لم يكن طارئاً، فإذا به يكيل له المصائب كيلاً، فعلم أنها العادة.

وَقَطَعْتُ فِي الدُّنْيَا الْفَلَا وَرَكَائِبِي
فِيهَا وَوَقْتَيَّ الضُّحَى وَالْمَوْهِنَا[١]

وَوَقَفْتُ مِنهَا حَيْثُ أَوْقَفَنِي النَّدَى
وَبَلَغْتُ مِنْ بَدْرِ بْنِ عَمَّارَ الْمُنَى[٢]

لِأَبِي الْحُسَيْنِ جَداً يَضِيقُ وِعَاؤُهُ
عَنْهُ وَلَوْ كَانَ الْوِعَاءُ الْأَزْمُنَا[٣]

وَشَجَاعَةٌ أَغْنَاهُ عَنْهَا ذِكْرُهَا
وَنَهَى الْجَبَانَ حَدِيثُهَا أَنْ يَجْبُنَا[٤]

نِيطَتْ حَمَائِلُهُ بِعَاتِقِ مِحْرَبٍ
مَا كَرَّ قَطُّ وَهَلْ يَكُرُّ وَمَا انْثَنَى[٥]

فَكَأَنَّهُ وَالطَّعْنُ مِنْ قُدَّامِهِ
مُتَخَوِّفٌ مِنْ خَلْفِهِ أَنْ يُطْعَنَا[٦]

---

(١) الفلا، الواحدة فلاة: المفازة البعيدة، الركائب، الواحدة ركاب: الإبل. الموهن: نحو نصف الليل. وللخلاص من آلام فراق حبيبته، فإذا به يرحل مفتّشاً عن بديل آلامه، فإذا به يطوي المفازات في رحلات لا تعرف الوقوف ليلاً ونهاراً، فمضى الزمن سريعاً ممّا أضنى رواحله، فأفنى منها الكثير، لتوغّله في الأبعاد، فهو لا يريم مفتّشاً عن بديل لحبيبته.

(٢) الندى: الجود. يتخلّص الشاعر إلى مدح بدر بن عمار. ما انقطع الشاعر عن الترحال، والدنيا تلاحقه بمكرها وأحابيلها حتى أدرك بُغيته في قصر بدر، فكان القدر على قدر ما يتمنّاه.

(٣) الجَدا: العطاء. بدأ الشاعر وصف جود بدر، فكرمه لا يحدّه حدّ، فما من وعاء قادر على استيعاب عطائه، فالزمن المطلق من الحدود لا يتّسع لمدى ما لديه، ولهذا فالدهور تبقى عاجزة عن الإحاطة بفيض عطائه.

(٤) يُردف الشاعر الحديث عن مزايا بدر: إنه شجاع ذاع صيته في البلاد بين الناس ممّا وفّر عليه استعمالها دائماً بل وقت حاجته لاستعمالها، حتى الجبان قد تخلّى عن خوفه، فإذا به تدبّ فيه شجاعة مستوحاة من شجاعة بدر.

(٥) و (٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٢. نيطت: علّقت. =

نَـفَـتِ الـتَّـوَهُّـمَ عَـنْـهُ حِـدَّةُ ذِهْـنِـهِ
فَـقَـضَـى عَـلَـى غَـيْـبِ الْأُمُـورِ تَـيَـقُّـنَـا (١)
يَـتَـفَـزَّعُ الْـجَـبَّـارُ مِـنْ بَـغَـتَـاتِـهِ
فَـيَـظَـلُّ فِـي خَـلَـوَاتِـهِ مُـتَـكَـفِّـنَـا (٢)
أَمْـضَـى إِرَادَتَـهُ فَـسَـوْفَ لَـهُ قَـدٌ
وَاسْـتَـقْـرَبَ الْأَقْـصَـى فَـثَـمَّ لَـهُ هُـنَـا (٣)
يَـجِـدُ الـحَـدِيـدَ عَـلَـى بَـضَـاضَـةِ جِـلْـدِهِ
ثَـوْبـاً أَخَـفَّ مِـنَ الْـحَـرِيـرِ وَأَلْـيَـنَـا (٤)

= الحمائل، الواحدة حميلة: علائق السيف. العاتق: ما بين المنكب والعنق. المحرب: صاحب الحرب الممارس لها. كرّ على عدوّه في الحرب: عطف. انثنى: عاد. يصف الشاعر الأمير بأنه شجاع محارب لا يُشقّ له غُبار جريء لقد تمرّس بفنون القتال، فهُو يُقدم ولا يتقهقر ولا يفرّ ولا ينثني، بل إنه مقدام لثقته بشجاعته لقوّته، لذا فهو مندفع إلى الأمام كأنه يخاف من يغدر به من خلفه فيطعنه طعنة الموت.

(١) يصف الشاعر بدراً بأنه حادّ الذكاء، فطن أريب في قتاله، لذا فإن الوهم لا يعرف طريقاً إلى قلبه وعقله، ورؤيته للمستقبل واضحة المعالم، وهو على يقين بنصره على عدوه دائماً.

(٢) الجبار: الشجاع القوي البطش. بغتاته، الواحدة بغتة: المفاجأة. التكفّن: لباس الكفن. يروى «متلفناً» بدلاً من «متكفناً»، والمتلفن: النادم على تسرّعه لاستعدائه الأمير. يتابع الشاعر وصف الجبّار الذي جرّته عداوته لمقاتلة الأمير، بأنه يرتدي كفنه، لإحساسه بدنوّ أجله فثمة ضربة مفاجئة من الأمير تكون القاضية، وعندئد لا ينفع ندم.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٢. الأقصى: الأبعد. يمدح الشاعر بدراً بمضاء العزيمة وقوّة الإرادة، فالمستقبل البعيد قابل التحقّق في حال تفكيره بتحقيقه، بينما غيره من ولاة الأمور يُفكّر بطريقة لتحقيقه، وقد لا يتحقّق؛ فالمستقبل سرعان ما يتحوّل إلى ماضٍ، فالزمن طوع إرادته يُحقّق أمانيه، حتى ما كان من الأمكنة بلمسة سحريّة يصبح بين يديه.

(٤) البضاضة: الطراوة واللين. يذكر الشاعر أن الأمير لكثرة ما كان يلبس درعه الحديدية، فإذا به لا يُحسّ لها ثقلاً، أو يُحسّ منها انزعاجاً، فإذا بها تبدو ليّنة طريّة.

وَأَمَـــرُّ مِـــنْ فَـــقْـــدِ الأَحِـــبَّـــةِ عِـــنْـــدَهُ
فَـقْـدُ الـسُّـيُـوفِ الـفَـاقِـدَاتِ الأَجْـفُـنَـا[١]
لَا يَـسْـتَـكِـنُّ الـرُّعْـبُ بَـيْـنَ ضُـلُـوعِـهِ
يَـوْمـاً وَلَا الإِحْـسَـانُ أَنْ لَا يُـحْـسِـنَـا[٢]
مُـسْـتَـنْـبِـطٌ مِـنْ عِـلْـمِـهِ مَـا فِـي غَـدٍ
فَـكَـأَنَّ مَـا سَـيَـكُـونُ فِـيـهِ دُوِّنَـا[٣]
تَـتَـقَـاصَـرُ الأَفْـهَـامُ عَـنْ إِدْرَاكِـهِ
مِـثْـلَ الَّـذِي الأَفْـلَاكُ فِـيـهِ وَالـدُّنَـى[٤]
مَـنْ لَـيْـسَ مِـنْ قَـتْـلَاهُ مِـن طُـلَـقَـائِـهِ
مَـنْ لَـيْـسَ مِـمَّـنْ دَانَ مِـمَّـنْ حُـيِّـنَـا[٥]

---

(١) الأجفن: الواحد جفن: غمد السيف. يذكر الشاعر ما اعتاد عليه، إنه يصعب ويتألّم لفقد السيوف المجرّدة التي تستعمل في الحروب، لذا فهو لا يهتمّ لفقد النساء، ولا يتشبّب بهنّ، بل إنه يُفضّل دائماً السيوف عليهن.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٩. استكن: خفي واستقرّ. يصف الشاعر الأمير بالشجاعة، فلا يعرف الخوف طريقاً إلى قلبه، فقلبه قُدّ من صوان، لذا فهو دائم القتال في كلّ وقت، كما أنه كريم قد تأصّل الجود في نفسه، لذا فالإحسان يحثّه دائماً على العطاء، فلا يتأخّر ولا يُحسن المماطلة فيه.

(٣) الاستنباط: الاستخراج. يروى «من يومه» بدلاً من «من علمه». يمدح الشاعر قوّة الحدس لدى الأمير بأنه على علم بما سيحدث، ونظرته إلى المستقبل تكشف أبعاد المدى في مستقبل عمره، فيبادر إلى تحقيق أمانيه دون إبطاء وتراخٍ.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٩. الدنا، الواحدة دنيا. ومن مغالاة الشاعر أن سائر الناس في حيرة من أمر الأمير، فكلّهم لا يحسنُون الحكم لقصور عقولهم عن إدراك كنه الرجل، تماماً كقصور أفهام البشر عمّا وراء هذا الكون العظيم من إعجاز سماوي إلهيّ.

(٥) الطلقاء، الواحد طليق: الأسير خلي سبيله. دان: خضع. حيّن: أهلك. يرى الشاعر أن الناس بين اثنين، إما أنه أسير حرّره الأمير، أو من المهالكين بسيفه، فقد حان أجله، فلا يستأخر لحظة.

لَـمَّـا قَـفَـلْـتَ مِـنَ الـسَّـوَاحِـلِ نَـحْـوَنَـا
قَـفَـلَـتْ إِلَـيْـهَـا وَحْـشَـةٌ مِـنْ عِـنْـدِنَـا(١)

أَرِجَ الـطَّـرِيـقُ فَـمَـا مَـرَرْتَ بِـمَـوْضِـعٍ
إِلَّا أَقَـامَ بِـهِ الـشَّـذَا مُـسْـتَـوْطِـنَـا(٢)

لَـوْ تَـعْـقِـلُ الـشَّـجَـرُ الَّـتـي قَـابَـلْـتَـهَـا
مَـدَّتْ مُـحَـيِّـيَـةً إِلَـيْـكَ الأَغْـصُـنَـا(٣)

سَـلَـكَـتْ تَـمَـاثِـيـلَ الـقِـبَـابِ الْـجِـنُّ مِـنْ
شَـوْقٍ بِـهَـا فَـأَدَرْنَ فِـيـكَ الأَعْـيُـنَـا(٤)

طَـرِبَـتْ مَـرَاكِـبُـنَـا فَـخِـلْـنَـا أَنَّـهَـا
لَـوْلَا حَـيَـاءٌ عَـاقَـهَـا رَقَـصَـتْ بِـنَـا(٥)

---

(١) قفل: رجع. السواحل: البلاد الساحلية. يرى الشاعر أن الأمير سرّ السعادة حيثما يحلّ ويرحل، فقد غادر إلى إمارته إلى مدن الساحل، فإذا بالسرور يحلّ بالسواحل، ويترك في نفوس من تركهم وحشة وانزعاجاً، ولكنه لما رجع حلّت السعادة في قلوب مواطنيه لتحلّ الوحشة في قلوب سكان السواحل.

(٢) أرج الطيب: فاح. الشذا: الطيب العطر. يرى الشاعر أن لمقبل الأمير ترحيباً خاصًا، فإذا بالعبير يبث نغمة ريح طيّبة الأريج تستوطن حيثما يحلّ ضيفاً، ممّا يدل على رفاهيته أو على أثره في الأمكنة والمخلوقات.

(٣) ورد البيت في الخصائص، لابن جني ١: ٢٤، يُردف الشاعر قوله متمّماً الصورة، فلو أن تلك الأشجار التي استقبلت الأمير بالشذا العطر تعقل لمدّت أيديها تُحيّيه بشوق وترحاب عظيم.

(٤) القباب، الواحدة قبّة: الخيام. التماثيل: الصور المنقوشة على القباب. الشوق: شدّة الحبّ. يصف الشاعر استقبال الأمير من قبل مواطنيه، فقد أقيمت الخيام على أبواب المدينة، وكانت القباب منقوشة بصور، فإذا بالجنّ تحتلّها لتنظر إلى الأمير وهو يعود إلى مدينته، فإذا بأعينها تلاحقه إعجاباً ببطل شجاع وأمير نجيب.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٦. المراكب، الواحد مركب. يقصد بذلك الخيول. وحتى الخيول التي لا تعقل كادت ترقص لمقدم الأمير لولا الحياء الذي ألجمها رغم شدّة سرورها بهذا الحدث العظيم.

أَقْـبَـلْـتَ تَـبْـسِـمُ وَالْـجِـيَـادُ عَـوَابِـسٌ
يَـخْبُبْنَ بِـالْـحَـلَقِ الْـمُـضَـاعَـفِ وَالْـقَـنَـا(١)

عَـقَـدَتْ سَـنَـابِـكُـهَـا عَـلَـيْـهَـا عِـثْـيَـراً
لَـوْ تَـبْـتَـغِـي عَـنَـقـاً عَـلَـيْـهِ أَمْـكَـنَـا(٢)

وَالْأَمْـرُ أَمْـرُكَ وَالْـقُـلُـوبُ خَـوَافِـقٌ
فِـي مَـوْقِـفٍ بَـيْـنَ الْـمَـنِـيَّـةِ وَالْـمُـنَـى(٣)

فَـعَـجِـبْـتُ حَـتَّـى مَـا عَـجِـبْـتُ مِـنَ الـظُّـبَـى
وَرَأَيْـتُ حَـتَّـى مَـا رَأَيْـتُ مِـنَ الـسَّـنَـا(٤)

إِنِّـي أَرَاكَ مِـنَ الْـمَـكَـارِمِ عَـسْـكَـراً
فِـي عَـسْـكَـرٍ وَمِـنَ الْـمَـعَـالِـي مَـعْـدِنَـا(٥)

---

(١) ورد البيت في أمالي ابن الشجري ١ : ١٦٨. العوابس : الواحد عابس : كالح. الخبب : ضرب من العدو. الحلق المضاعف : الدروع الكثيرة الحلق. القنا : الرماح. يصف الشاعر مقبل الأمير وهو على جواده، باسم الوجه مسرور بانتصاره وخلفه جنوده على جيادهم العابسة لطول الرحلة ولمقاساتها في الحروب ولثقل ما تحمل من جنود مدرّعة بدروعهم الحديدية.

(٢) ورد البيت في : معاهد التنصيص، للعباسي ٢ : ٢، الوساطة بين المتنبي وخصومه : ١٦٦. السنابك، الواحد سنبك : طرف مقدم الحافر. العثير : الغبار. العنق : ضرب من السير السريع. يصف الشاعر سنابك الخيول وقد تلبّد عليها الغبار لطول الرحلة ولمقاتلة الأعداء، فلو حاول امرؤ السير على تلك السنابك لأمكن لكثرة ما اجتمع عليها من غبار.

(٣) خوافق : مضطربة. المنية : الموت. المنى، الواحدة منية : ما يتمنّاه المرء من خير. يُخاطب الشاعر الأمير بأنه صاحب القرار في كلّ شيء، فأمره نافذ في السلم والحرب، والناس بين من يأمل منهم خيراً على يديه ويرجوه، وبين عدوّ خائف في حومة الوغى من أن يقضي عليه بأمر منه إن لم يقتله بسيفه.

(٤) الظبى، الواحدة ظبة : حدّ السيف. السنا : الضياء. يُبدي الشاعر دهشته، فقد استعرض الجنود يتقدّمهم الأمير، فإذا بسيوف لا حصر لها تتألّق ضياءً بحيث تخطف الأنظار وتتعبها فلا ترتدّ إلّا بتعب، فإذا بها حاسرة لشدّة الإشعاع، فلا يستطيع المرء إطالة النظر.

(٥) يُخاطب الشاعر الأمير، فهو بالنسبة إليه يُمثّل العسكر وحيداً وبه يتمثل العسكر كمجموع، وهو يبدو للشاعر مجموع مُثل رفيعة توافرت فيه، فإذا به معدن لها، تستوحى منه وتُستمدّ.

فَـطَـنَ الْـفُـؤَادُ لِـمَـا أَتَـيْـتُ عَـلَـى الـنَّـوَى
وَلِـمَـا تَـرَكْـتُ مَـخَـافَـةً أَنْ تَـفْـطُـنَـا (١)
أَضْـحَـى فِـرَاقُـكَ لِـي عَـلَـيْـهِ عُـقُـوبَـةً
لَـيْـسَ الّـذِي قَـاسَـيْـتُ مِـنْـهُ هَـيِّـنَـا (٢)
فَـاغْـفِـرْ فِـدًى لَـكَ وَاحْـبُـنِـي مِـنْ بَـعْـدِهَـا
لِـتَـخُـصَّـنِـي بِـعَـطِـيَّـةٍ مِـنْـهَـا أَنَـا (٣)
وَانْـهَ الـمُـشِـيـرَ عَـلَـيْـكَ فِـيَّ بِـضَـلَّـةٍ
فَـالـحُـرُّ مُـمْـتَـحَـنٌ بِـأَوْلَادِ الـزِّنَـى (٤)
وَإِذَا الْـفَـتَـى طَـرَحَ الْـكَـلَامَ مُـعَـرِّضـاً
فِـي مَـجْـلِـسٍ أَخَـذَ الْـكَـلَامَ الـلَّـذْ عَـنَـى (٥)
وَمَـكَـايِـدُ الـسُّـفَـهَـاءِ وَاقِـعَـةٌ بِـهِـمْ
وَعَـدَاوَةُ الـشُّـعَـرَاءِ بِـئْـسَ الـمُـقْـتَـنَـى (٦)

---

(١) و (٢) النوى: البعد. يُخاطب الشاعر الأمير أنه قد انتبه لما قصّر فيه المتنبي فلم يلحق به إلى حيث ارتحل، فكان الأوجب أن يفعل ولكنه لم يفعل لذا خاف الشاعر من الوشاة بأن يتأوّلوا ما حصل بما يسيء إليه، فيغضب الأمير لذلك. ومع ذلك فقد شعر الشاعر بتقصيره، فاعتبر إهمال الأمير له بمثابة عقوبة، ولقد عانى الشاعر كثيراً لهذا السبب، فكان أمام محاكمة ذاتيّة لخطأ لم يتعمّده رغم حصوله.

(٣) حباه: أعطاه. الحِباء، بكسر الحاء: العطاء. يعتذر الشاعر لما بدر منه، فيطلب من الأمير الصفح الجميل، ومن علامات المغفرة أن يمنّ الأمير بعطائه ويُتبعه بعطاء آخر، فيطمئنّ ويهدأ باله ويعلم أن الأمير تغاضى عن إساءته بما بدر منه.

(٤) و (٥) الضلّة: الضلال. يعرض الشاعر المشكلة، فقد أشار على الأمير الأعور بن كروس بأن الشاعر قد قصد التأخر ولذا وجب إهماله وحرمانه من الجوائز، فيردّ الشاعر بأن ما تقدّم به الواشي ضلال فضلاً عن الظلم الذي سيلحق به من جرّاء ذلك، وهو يلمّح بالهجاء في حال أطاع الأمير ما أشار عليه أولاد الزنى. وهو يعني قاصداً من عناه، لمعرفته بسوء حاله وانتمائه إلى أبناء الزنى.

(٦) السفيه: من لا عقل له ولا رأي. يُندّد الشاعر بالسفهاء الذين يفتقدون إلى العقول الراجحة والآراء الصائبة، فمكائد هؤلاء تعود عليهم بالوبال والخبال، لجهلهم بعداوة =

لُعِنَتْ مُقَارَنَةُ اللَّئِيمِ فإنَّهَا
ضَيْفٌ يَجُرُّ مِنَ النَّدَامِةَ ضَيْفَنَا[١]
غَضَبُ الْحَسُودِ إذَا لَقِيتُكَ رَاضِياً
رُزْءٌ أَخَفُّ عَلَيَّ مِنْ أَنْ يُوزَنَا[٢]
أَمْسَى الَّذِي أَمْسَى بِرَبِّكَ كَافِراً
مِنْ غَيْرِنَا مَعَنَا بِفَضْلِكَ مُؤْمِنَا[٣]
خَلَتِ الْبِلَادُ مِنَ الْغَزَالَةِ لَيْلَهَا
فَأَعَاضَهَاكَ اللَّهُ كَيْ لَا تَحْزَنَا[٤]

كل فوق دون

فسأله بدر الجلوس فقال:

[الكامل]

يَا بَدْرُ إِنَّكَ والْحَدِيثُ شُجُونُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ لِمِثَالِهِ تَكْوِينُ[٥]

= الشعراء الذين إذا سمّموا حياتهم بهجائهم مدى الدهر، وهو بذلك يهدّد أمثال هؤلاء.

(١) الضيفن: من يتبع الضيف ابتغاء الضيافة. يلعن الشاعر اللئيم الخسيس الذي يجر على نفسه اللوم والندامة، فكأنه ضيف غير مرغوب فيه يُتبع خلفه ضيفاً آخر أسوأ منه، فيكون ذلك زيادة بذمّه ولومه.

(٢) الرزء: المصيبة. يُخاطب الشاعر الأمير أن غضب الحسود لا يُساوي شيئاً ذا قيمة إذا رضي الأمير عليه، فالمصيبة هيّنة لا تثقل كاهله فهي أخف من الريشة التي تتقاذفها الرياح وسرعان ما تُودي بها إلى المجهول.

(٣) يرى الشاعر أن كلّ الخلق يُؤمنون بالأمير حتى من يكفر باللّه عزّ وجلّ فهو يُقرّ ويعترف بأن الأمير فضيل كريم عظيم، وهو مؤمن بذلك.

(٤) الغزالة: من أسماء الشمس. يُخاطب الشاعر الأمير بأن اللّه سبحانه وتعالى قد حجب الشمس عن البلاد ليلاً، ولكنه عوّضها به رحمة لينير ديجور ظلمة الحياة لأبناء موطنه، فلا يدخل الحزن القلوب.

(٥) الحديث شجون: أي ذو فنون وطرائف، يُخاطب الشاعر الأمير منوّهاً بتفرّده بما خصّه اللّه عزّ وجلّ من صفات نادرة لا تُعدّ ولا تُحصى دون سواه من البشر.

لَـعَـظُـمْـتَ حَـتَّـى لَـوْ تَـكُـونُ أَمَـانَـةً
مَـا كَـانَ مُـؤْتَـمَـنـاً بِـهَـا جِـبْـرِيـنُ(١)
بَـعْـضُ الْـبَـرِيَّـةِ فَـوْقَ بَـعْـضٍ خَـالِـيـاً
فَـإِذَا حَـضَـرْتَ فَـكُـلُّ فَـوْقٍ دُونُ(٢)

يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

يمدح أبا عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن محمد الخطيب الخصيبي وهو يومئذٍ يتقلد القضاء بأنطاكية:

[البسيط]

أَفَـاضِـلُ الـنَّـاسِ أَغْـرَاضٌ لَـدَى الـزَّمَـنِ
يَـخْـلُـو مِـنَ الْـهَـمِّ أَخْـلَاهُـمْ مِـنَ الْـفِـطَـنِ(٣)
وَإِنَّـمَـا نَـحْـنُ فِـي جِـيـلٍ سَـوَاسِـيَـةٍ
شَـرٍّ عَـلَـى الْـحُـرِّ مِـنْ سُـقْـمٍ عَـلَـى بَـدَنِ(٤)

---

(١) جبرين: لغة في جبريل. يُردف الشاعر منوّهاً بدور الأمير؛ فلو كانت أمانة، ولعظمة الأمانة ما كان باستطاعة جبريل عليه السلام أن يقوم بتأديتها كما يقوم بها الأمير؛ وذلك من مغالاة الشاعر.

(٢) البرية: الخلق. يُفضل الشاعر الأمير على سائر الناس، فلو خلا الوجود منه، لكان البشر مختلفين طبقات متعدّدة، وفي حال وجوده استوى البشر، فكانوا دونه منزلة وقصّروا في الشرف والسيادة والكرم والشجاعة.

(٣) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٨٢، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٩. يروى «لذا» بدلاً من «لدى». الأغراض الواحد غرض: هدف. الفطن، الواحدة فِطنة: الذكاء. يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع حكمي، مفاده أن أفاضل البشر يتعرّضون دائماً لمعاكسات الزمن فيُبتلون بالنكبات والمحن، وذلك لشدّة أحاسيسهم بكلّ ما يتعرّضون له من مآسٍ، وأما سواهم من البشر الذين يفتقدون إلى العقول الراجحة فينعمون بجهلهم فلا يهتمون بعاديات الزمن، ولذا يعيشون سعداء بمصائرهم.

(٤) الجيل من البشر: أهل زمان واحد. سواسية: متساوين. الحرّ: من كرمت عليه نفسه. السقم: المرض. ينظر الشاعر إلى جيله نظرة ازدراء وتحيّز ضده، فأهله قد جُبلوا على الشرّ، يفعلونه بما اعتادوا عليه، لذا فلا يُرجى منهم خير أبداً، وعليه فخير الكريم أن يحذرهم ويتجنّب مخالطتهم، إنهم بمثابة حالة مرضيّة مزمنة لا علاج لها.

حَـوْلـي بِـكُـلِّ مَـكَـانٍ مِـنْـهُـمُ خِـلَـقٌ
تُـخْطِي إذا جِئْتَ في اسْتِفْهَامِهَا بِمَنِ (١)

لَا أقْـتَـرِي بَـلَـداً إلَّا عَـلَـى غَـرَرٍ
وَلَا أمُـرُّ بِـخَـلْـقٍ غَـيْـرِ مُـضْـطَـغِـنِ (٢)

وَلَا أُعَـاشِـرُ مِـنْ أمْـلَاكِـهِـمْ أحَـداً
إلَّا أحَـقَّ بِـضَـرْبِ الـرَّأْسِ مِـنْ وَثَـنِ (٣)

إنِّـي لأعْـذِرُهُـمْ مِـمَّـا أُعَـنِّـفُـهُـمْ
حَـتَّـى أُعَـنِّـفَ نَـفْـسِـي فـيـهِـمِ وَأنِـي (٤)

فَـقْـرُ الْـجَـهُـولِ بِـلَا عَـقْـلٍ إلَـى أدَبٍ
فَـقْـرُ الْـحِـمَـارِ بِـلَا رَأْسٍ إلَـى رَسَـنِ (٥)

---

(١) يروى «حلق» بالحاء بدلاً من «خلق» وهم القوم يجتمعون على خلاف. الخِلق، الواحدة خلقة: الصورة التي يخلق اللّه تعالى عليها البشر. يرى الشاعر حيثما التفت أشباحاً بشرية لا لون لها ولا شكل؛ إنهم يتعادون ويتقاتلون كالبهائم بوحشية، ولذا فمن الخطأ الفاحش أن يُسأل عنهم بمن، بل يُسأل عنهم بما لمساواتهم للحيوانات.

(٢) أقتري: أتتبّع. الغرر: المخاطرة بالنفس وتعريض للمخاطر. مضطغن: حاقد. يصوّر الشاعر ما عليه من رعب من البشر، فحيثما حلّ أو ارتحل وجد في النفوس حسداً وكراهية، بهما يُحاربونه لجهلهم ما امتاز به عنهم من مواهب جعلته يتبوّأ مكانة عالية.

(٣) و (٤) الأملاك، الواحد ملك. الوثن: الصنم. ينظر الشاعر إلى ملوك زمانه نظرة كراهية واستعلاء، فلم يجد فيهم من يستحقّ احترامه، فالكلّ يستحقون الإهانة والمذلّة وضرب رؤوسهم بالأحذية، فالوثن أفضل منهم وقد يبجّل بالنسبة إليهم. ورغم هذا الموقف من الملوك وأولي الأمر؛ فالمتنبي يتراكض لمدحهم فيُسبغ عليهم جميل الصفات، وهنا يتساءل المرء إذا ما كان الشاعر متلوّناً متناقضاً مع ما يتّخذه من مواقف، أم أنه الكذب الصراح؟ وهو لا يني يُفتش لهم عن عذر، فإذا به يهتدي إلى أن جهلاً مركباً فيهم جعلهم لا يُقدّرون مزاياه، ولو كان صادقاً في مدعاه لما طلبوا منه مدحهم. ومع ذلك فالشاعر يعتبر نفسه مقصّراً في ما يقوله عن هؤلاء الملوك.

(٥) يروى «بلا عقل» بدلاً من «بلا قلب». الجهول: الجاهل. الرسن: قياد الدَّابة. يرى =

وَمُـدْقِـعِـيـنَ بِـسُـبْـرُوتٍ صَـحِـبْـتُـهُـمُ
عَـارِيـنَ مِـنْ حُـلَـلٍ كَـاسِـيـنَ مِـنْ دَرَنِ[(١)]

خُـرَّابِ بَـادِيَـةٍ غَـرْثَـى بُـطُـونُـهُـمُ
مَـكْـنُ الـضِّـبَـابِ لَـهُـمْ زَادٌ بِـلَا ثَـمَـنِ[(٢)]

يَـسْـتَـخْـبِـرُونَ فَـلَا أُعْـطِـيـهِـم خَـبَـرِي
ومـا يَـطِـيـشُ لَـهُـمْ سَـهْـمٌ مِـنَ الـظِّـنَـنِ[(٣)]

وَخَـلَّـةٍ فـي جَـلِـيـسٍ أَتَّـقِـيـهِ بِـهَـا
كَـيْـمَـا يُـرَى أَنَّـنَـا مِـثْـلَانِ فـي الـوَهَـنِ[(٤)]

= الشاعر أن الجهل آفة عمياء؛ فالجاهل يفتقد إلى عقل يهتدي به فيميّز بين الأمور، الصائب منها والخطأ، فهذا لا يُلام تماماً كالحمار الذي فقد رأسه، فهو لا يحتاج إلى رسن يستهدي به طريقه ولا يلتمسها.

(١) المدقع: الفقير الذي لا يملك مالاً. السبروت: الأرض لا نبات فيها. الحلل، الواحدة حلة: وهي عبارة عن رداء وقميص. الدرن: القذارة والأوساخ. يذكر الشاعر أنه التقى بفتية فقراء يفترشون الأرض عارين لا ثياب لهم، وقد اكتسوْا بالدرن فغطّى جلودهم، فصحبهم.

(٢) الخراب، الواحد خارب: سرّاق الإبل خاصة. غرثى: جائعين لا شيء في بطونهم. مكن الضباب، الواحدة مكنة: بيضها. يصف الشاعر هؤلاء الفتية المتلصّصة أنهم يسرقون الإبل في الصحاري، لا زاد لهم إلّا ما يحصلون عليه من بيض الضباب، بلا ثمن.

(٣) طاش السهم: مال عن صوب الرمية فلم يصب هدفه. الظنن، الواحدة ظنة: ظن السوء بالمرء. يُتابع الشاعر حديثه عن هؤلاء الفتية، إنهم يستعلمون عن الشاعر، فلا يُطلعهم على حقيقته، ولكنهم لفطانتهم استدركوا أن مصاحبهم هو المتنبي الشاعر، ولقد أخفى عنهم خبره مخافة الغدر به.

(٤) يروى «التقية» بدلاً من «أتّقيه». الخلة: الخصلة. الوهن: الضعف. مخافة الحسد يحترس الشاعر ويتّقي أن يُعلن عن حقيقة أمره، فإذا به، إذا ما التقى بجليس غريب عنه قلّده في حركاته وسكناته، حتى في حديثه أنه المتنبي الشاعر، حتى إنه يُبدي ضعفاً وهواناً وبذلك يخدعه ويأمن شرّه.

وَكِلْمَةٍ فِي طَرِيقٍ خِفْتُ أُعْرِبُهَا
فَيُهْتَدَى لِي فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى اللَّحَنِ(١)
قَدْ هَوَّنَ الصَّبْرُ عِنْدِي كُلَّ نَازِلَةٍ
وَلَيَّنَ الْعَزْمُ حَدَّ الْمَرْكَبِ الْخَشِنِ(٢)
كَمْ مَخْلَصٍ وَعُلًى فِي خَوْضِ مَهْلَكَةٍ
وَقَتْلَةٍ قُرِنَتْ بِالذَّمِّ فِي الْجُبُنِ(٣)
لَا يُعْجِبَنَّ مَضِيماً حُسْنُ بِزَّتِهِ
وَهَلْ تَرُوقُ دَفِيناً جَوْدَةُ الْكَفَنِ(٤)
لِلَّهِ حَالٌ أُرَجِّيهَا وَتُخْلِفُنِي
وَأَقْتَضِي كَوْنَهَا دَهْرِي وَيَمْطُلُنِي(٥)

---

(١) يُنوّه الشاعر بفصاحته، ومن تقيّته أنه يُؤثر ألّا يُعرب كيلا يُعرف ولكنّ سليقته تأبى عليه ذلك، فإذا به يُعرب بلا وعي منه، لذا فهو لا يقدر على اللحن وترك ما اعتاد عليه من فصاحة.

(٢) النازلة: النائبة والمصيبة. يفخر الشاعر بأنه شديد أمام مصائب الدهر التي تُفاجئه، فإذا به يعتصم بالصبر وقوّة الجلد، لذا فهو لا يشكو ما ينزل بساحته من النوائب والمصائب، وهكذا تمرّ، ولكنها تترك في نفسه أثراً. عجباً لأمر المتنبي كلّ هذه الشكوى ولا يشكو!!.

(٣) العلى: المكانة الرفيعة، القتلة: المرّة من القتل. يرى الشاعر أن كثيرين ممن تبوّأوا المكانة الرفيعة في الحياة قد واجهوا أخطاراً ومع ذلك فقد أدركوا تحقيق أمانيهم في حياتهم، وفي المقابل فالكثير من البشر لم يحقّقوا شيئاً لجبنهم وضعف هممهم، وهم دائماً معرّضون للموت في كلّ وقت رغم اعتقادهم بأن خوفهم من المخاطرة يحميهم من الموت المحتم.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٦. المضيم: المظلوم. البزّة: اللباس. راق: أعجب. الدفين: المدفون في التراب. الكرامة أعلى مراتب التحرّر من ربقة الذلّ والهوان، فبعض الخلق يرى في هنأة العيش في ظلّ العيش بهوان ومذلّة هو خير وسيلة لحياة فضلى؛ الإشكالية المقترحة من قبل الشاعر هل يُعجب على من كان ميتاً حيًّا أن يرتدي اللباس الحسن.

(٥) أخلف الأمر: لم يُنجزه. أقتضي: أطالب. مطله حقه: لم يقضه بالتسويف. يشكو =

مَـدَحْـتُ قَـوْمـاً وَإِنْ عِـشْـنَـا نَـظَـمْـتُ لَـهُـم
قَـصَـائِـداً مِـنْ إِنَـاثِ الـخَـيْـل وَالْـحُـصُـنِ[١]

تَـحْـتَ الْـعَـجَـاج قَـوَافِـيـهَـا مُـضَـمَّـرَةٌ
إِذَا تُـنُـوشِـدْنَ لَـمْ يَـدْخُـلْـنَ فـي أُذُنِ[٢]

فَـلَا أُحَـارِبُ مَـدْفُـوعـاً إِلَـى جُـدُرٍ
وَلَا أُصَـالِـحُ مَـغْـرُوراً عَـلَـى دَخَـنِ[٣]

مُـخَـيِّـمُ الْـجَـمْـعِ بِـالْـبَـيْـدَاءِ يَـصْـهَـرُهُ
حَـرُّ الْـهَـوَاجِـرِ فـي صُـمٍّ مِـنَ الْـفِـتَـنِ[٤]

= الشاعر إلى اللّه سبحانه عدم بلوغه مراده من هذه الحياة، فالدهر يُماطله فلا يُنجز مبتغاه، وهو دائم التسويف، ومع ذلك فالشاعر لا يريم يسعى جاهداً بكلّ ما أوتي من قوّة وصبر، ولكن الشاعر لو أحسن التفكير لاقتنع أنه قد وفّق لما رضيه اللّه تعالى له، ولكنه للأسف لم يرض.

(١) الحصن، الواحد حصان: الذكر الفحل من الخيول. يذكر الشاعر أنه مدح من الملوك من لا يستحقّ، فالبخل رائدهم، أشحاء على الخير جهلاء فلا يُحسنون التقدير، وجزاؤهم أن يغزوهم بجيش قوامه خيول إناث وذكور، ورغم أنه غير قادر على ذلك فسوف يهجوهم ويندّد بهم. إنه حال عجيب.

(٢) العجاج: الغبار. المضمّر من الجياد: المعدّ للسباق. يصف قصائد الهجاء، إنها قوافٍ تسابق الزمن والمكان تندّد بأمثال هؤلاء الملوك والأمراء فإذا تنوشدت الآذان، بل هي خيول حقيقية تسفك الدماء وتُعيث في الأرض الفساد وتنشر جثث هؤلاء فيها.

(٣) الجُدُر، الواحد جدار: الحائط. الدخن: الفساد. يتحدّث الشاعر عن سياسته القتالية، فهو لن يُحارب من احتمى بالحصون وراء جدرها، وكذلك فلن يُصالح من يعمل على مسالمته، وهو يُخفي عداءً وشحناء للشاعر، وذلك شدّة حرص منه كيلا يُخدع.

(٤) الهواجر، الواحدة هاجرة: حرّ الظهيرة. البيداء: الصحراء. الصمّ: الشديدة. يُردف الشاعر متمًّا ما يودّ أن يقوم به. فسوف ينشر جنوده في الصحراء وينصب الخيام في هاجرة النهار حيث الشمس تلهب كل شيء، هناك سوف تكون فتن عظام شديدة الوقع على أعدائه.

أَلْقَى الكِرَامُ الأُلَى بَادُوا مَكَارِمَهُمْ
عَلَى الخَصِيبِيِّ عِنْدَ الفَرْضِ وَالسُّنَنِ[١]
فَهُنَّ فِي الحَجْرِ مِنْهُ كُلَّمَا عَرَضَتْ
لَهُ اليَتَامَى بَدَا بِالمَجْدِ وَالمِنَنِ[٢]
قَاضٍ إِذَا الْتَبَسَ الأَمْرَانِ عَنَّ لَهُ
رَأْيٌ يُخَلِّصُ بَيْنَ الْمَاءِ وَاللَّبَنِ[٣]
غَضُّ الشَّبَابِ بَعِيدٌ فَجْرُ لَيْلَتِهِ
مُجَانِبُ الْعَيْنِ لِلْفَحْشَاءِ وَالْوَسَنِ[٤]
شَرَابُهُ النَّشْحُ لَا لِلرِّيِّ يَطْلُبُهُ
وَطَعْمُهُ لِقِوَامِ الْجِسْمِ لَا السِّمَنِ[٥]

---

(١) بادوا: هلكوا. ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٣. يتخلّص الشاعر إلى الممدوح بعد هذه المقدّمة. لقد آلت إلى الممدوح فوائض أجداده الكرام من علم ورثه الخصيبي عنهم، فضلاً عن كرم الأخلاق والجود، إضافة إلى فروض الدين وسننه، وقد ألزم نفسه بالسير على خطط أجداده في كلّ شيء.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٧. الحجر: المنع والصون. المنن، الواحدة منّة: النعمة. يصف الشاعر ما اعتاد عليه ذلك القاضي، فما ورثه عن أجداده من مواهب وفضائل وظّفها لحماية اليتامى بالقيام على حمايتهم وتأمين حياتهم والحدب عليهم، فكان خير كافل لأمثال هؤلاء.

(٣) عنّ: بدا. مدح الشاعر ممدوحه بأنه ألمعيّ جدّ ذكيّ بإمكانه أن يجد لكل مشكلة حلّها الذي يتوافق ويتماشى مع روح الشرع، وإذا التبست مشكلة مستعصية على سواه من القضاة استخلص منها ما يُصيب كبد الحقيقة، لذا فبإمكانه أن يفصل بين الماء واللّبن.

(٤) ورد البيت في مغني اللبيب وشرح شواهده، للسيوطي: ٥٦٢. غضّ الشباب: لين الشباب وميعته. الوسن: النوم. يصف الشاعر القاضي بأنه في ميعة شبابه، يقضي ليله ساهراً يبتغي العلم والمعرفة كما يبتغي مرضاة ربّه سبحانه صلاة وقياماً وتفكيراً بملكوت السماوات والأرض، ولا يلتفت إلى ملاذ الدنيا ساهراً معربداً، كما أنه لا يدنو من محارم اللّه تعالى، فهو يغضّ نظره عمّا حرّمه اللّه تعالى.

(٥) النشح: الشرب القليل. يعرّج الشاعر على وصف مشرب القاضي، إنه نشح قليل، فلا يرتوي، بل يكتفي بالقليل منه، كما أنه لا يُكثر من الطعام فيكتفي بالقليل منه.

أَلْقَائِلُ الصِّدْقَ فِيهِ مَا يَضُرُّ بِهِ
وَالْواجِدُ الحَالَتَيْنِ السِّرِّ وَالْعَلَنِ[١]

أَلْفَاصِلُ الحُكْمَ عَيَّ الأَوَّلُونَ بِهِ
وَالمُظْهِرُ الحَقَّ لِلسَّاهِي عَلَى الذَّهِنِ[٢]

أَفْعَالُهُ نَسَبٌ لَوْ لَمْ يَقُلْ مَعَهَا
جَدِّي الخَصِيبُ عَرَفْنَا العِرْقَ بِالغُصُنِ[٣]

الْعَارِضُ الْهَتِنُ ابْنُ الْعَارِضِ الْهَتِنِ ابْـ
ـنِ الْعَارِضِ الْهَتِنِ ابْنِ الْعَارِضِ الْهَتِنِ[٤]

قَدْ صَيَّرَتْ أَوَّلَ الدُّنْيَا وَآخِرَهَا
آبَاؤُهُ مِنْ مُغَارِ الْعِلْمِ فِي قَرَنِ[٥]

---

(١) يمدح الشاعر في القاضي صفاء السريرة، فهو لا يُحسن الكذب بل يصدق على الدوام، ولو كان فيه ضرر شخصيّ له، وهو نقي السريرة فلا يتظاهر بخلاف ما يبطن، صريح في قوله.

(٢) فصل الحكم: أعطى رأيه فيه بجلاء ووضوح. عيي بالأمر: عجز عن الوصول إلى حلّ شافٍ فيه، الساهي: الغافل. الذهن: الفطن الحاد الذكاء. يُردف الشاعر حديثه عن القاضي إنه يأتي بالرأي الصائب الفصل في ما أشكل على سواه من القضاة السابقين، كما أنه يتمتّع بحسّ العالم السهل، فهو يُوضح للساهي ما غمض عليه من مسألة فيُعطي رأيه في المسألة بجلاء ووضوح.

(٣) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٧٦. يمدح الشاعر القاضي بحسن فعاله وكريم خلقه، وهذا يكفيه أفضل نسب، ولكنه ينتسب إلى شجرة في النسب عالية شامخة، ممّا يزيده احتراماً وفخراً، ومع ذلك فهو لا يُذكّر بنسبه تواضعاً، وهذا ما يرفع من مكانته في قلوب الناس. إنها شجرة ذات أغصان ندية.

(٤) و (٥) العارض الهتن: السحاب المعترض في السماء. الهتن: المنهمر بغزارة. يمدح الشاعر أجداد القاضي، فكلهم على شاكلته كرماء أجواد، توارثوا فضائلهم أباً عن جدّ؛ فكانوا علماء يتوارثون العلم، أصوله وفروعه، ومع مرور الأيام يستزيدون من معينه قدرة وطاقة، فإذا بهم يحيطون بكلّ صغيرة وكبيرة حفظاً ودراية، مع إحكام لأصوله وفروعه، وسعة بمعرفة التاريخ واستنباط الأحكام منه.

كَـأَنَّـهُـمْ وَلِـدُوا مِـنْ قَـبْـلِ أَنْ وُلِـدُوَا
أَوْ كَـانَ فَـهْـمُـهُـمُ أَيَّـامَ لَـمْ يَـكُـنِ [(١)]

الْـخَـاطِـرِيـنَ عَـلَـى أَعْـدَائِـهِـمْ أَبَـداً
مِـنَ الْـمَـحَـامِـدِ فِـي أَوْقَـى مِـنَ الْـجُـنَـنِ [(٢)]

لِـلـنَّـاظِـرِيـنَ إِلَـى إِقْـبَـالِـهِ فَـرَحٌ
يُـزِيـلُ مَـا بِـجِـبَـاهِ الْـقَـوْمِ مِـنْ غَـضَـنِ [(٣)]

كَـأَنَّ مَـالَ ابْـنِ عَـبْـدِ الـلَّـهِ مُـغْـتَـرَفٌ
مِـنْ رَاحَـتَـيْـهِ بِـأَرْضِ الـرُّومِ وَالـيَـمَـنِ [(٤)]

لَـمْ نَـفْـتَـقِـدْ بِـكَ مِـنْ مُـزْنٍ سِـوَى لَـثَـقٍ
وَلَا مِـنَ الْـبَـحْـرِ غَـيْـرَ الـرِّيـحِ وَالـسُّـفُـنِ [(٥)]

---

(١) يُردف الشاعر متمّماً فكرته، أن التاريخ لم يعد أرقاماً بل أصبح أداة استنباط لأحكام تتعلق بأمور الدين، وللوهلة الأولى يعتقد المرء أنهم قد ولدوا في الأيام الغابرة تلك الأيام بأدق تفاصيلها رغم مرور الزمن عليها.

(٢) خطر الرجل: مشى متبختراً. أوقى: أحفظ. الجنن، الواحدة جنة: كلّ ما خبئ من سلاح وسواه. يمدحُ في هؤلاء القوم عزّتهم وشموخهم وتبخترهم على أعدائهم وذلك من المحامد، ولا يعني ذلك أنهم يتعاملون مع أحبابهم بنفس المقياس، بل العكس صحيح، إنهم في منتهى التواضع معهم، ومع ذلك فأعراضهم موفورة.

(٣) الغضن: تكسّر الجلد. يمدح الشاعر ما يمتاز به القاضي من أنس، فإذا ما أطلّ بوجهه النيّر سرّ الناس رؤيته وعمهم فرح عظيم بطلعته، فإذا بالمحزون منهم تغطّي وجهه بسمة عريضة فتنير وجهه بعد عبوسه وتجهّمه.

(٤) يمدح الشاعر القاضي بكرمه الفيّاض الذي يعمّ سائر الناس، فلا يُميّز بينهم في العطاء، ولقد تخطّى جوده كلّ الحدود القريب منها في بلاد الروم والبعيد عنها في بلاد اليمن.

(٥) المزن، الواحدة مزنة: السحابة المليئة ماءً. اللثق: الوحل الناتج من اختلاط الماء بالتراب. يُتابع الشاعر حديثه عن كرم الممدوح، إنه خالص من كل ما يشوّهه، إنه سحابٌ لا ينتج عنه ما يُكدّره، فهو يُحيي الأرض فلا يُوجد فيها ما يُفسد ذلك العطاء، وهو بحر دون تعريض المتعرّض له للخطر، فلا تمخر عُبابه سفن أو تُثير فيه الرياح عواصف تُؤذن بخطر داهم: فبحره هادئ وادع.

وَلا مِــنَ الــلَّــيْــثِ إلّا قُــبْــحَ مَــنْــظَــرِهِ
وَمِـنْ سِـوَاهُ سِـوَى مَـا لَـيْـسَ بِـالْـحَـسَـنِ(١)

مُـنْـذُ ٱحْـتَـبَـيْـتَ بِـأَنْـطَـاكِـيَـةَ ٱعْـتَـدَلَـتْ
حَـتَّـى كَـأَنَّ ذَوِي الأوْتَـارِ فـي هُـدَنِ(٢)

وَمُـذْ مَـرَرْتَ عَـلَـى أَطْـوَادِهَـا قُـرِعَـتْ
مِـنَ الـسُّـجُـودِ فَـلَا نَـبْـتٌ عَـلَـى الْـقُـنَـنِ(٣)

أَخْـلَـتْ مَـوَاهِـبُـكَ الأسْـوَاقَ مِـنْ صَـنَـعٍ
أَغْـنَـى نَـدَاكَ عَـنِ الأعْـمَـالِ والـمِـهَـنِ(٤)

ذَا جُـودُ مَـنْ لَـيْـسَ مِـنْ دَهْـرٍ عَـلَـى ثِـقَـةٍ
وزُهْـدُ مَـنْ لَـيْـسَ مِـنْ دُنْـيَـاهُ فـي وَطَـنِ(٥)

---

(١) الليث: من أسماء الأسد. يمدح الشاعر القاضي بشجاعته وقوته وقدرته على ركوب الأخطار؛ إنه أسد في مزاياه وصفاته، ولكنه يمتاز بالجمال على عكس الأسد القبيح المنظر، ومن حسن الظنّ أن مظاهر الحسن والخير مجتمعة فيه، ممّا يعني اختفاء أضداد سائر المحاسن.

(٢) الاحتباء: جلوس القرفصاء. الأوتار، الواحد وتر: الثأر. الهدن، الواحدة هدنة: سكون الحرب بين المتحاربين. يمدح الشاعر نهج القاضي في الأحكام بعدل، فمنذ نزوله في أنطاكية تغيّر حال المدينة، فإذا بسكانها ينعمون بالسلام، حتى ذوي الأوتار قد استكانوا وكأنه لم يكن بينهم ما يُوجب بثّ الأحقاد في النفوس.

(٣) الأطواد، الواحد طود: الجبل العظيم. قرعت: انحسر ما عليها من نبات. القنن، الواحدة قنّة: القمم، يخاطب الشاعر القاضي بأنه منذ مروره على جبال تلك الأنحاء، فإذا بها تتلقى رأسه بخشوع في صلاته مما جعل نباتها ينحسر عن قممها فتبدو قرعاء لشدّة هيبته.

(٤) الصنع: الماهر في صناعته. المهن، الواحدة مهنة: العمل اليدوي. يُنوّه الشاعر بجود القاضي، فقد عمّ عطاؤه الناس جميعاً، حتى المهرة في صناعاتهم ما عادوا يعملون في مهنهم لشمولهم عطاء القاضي. وفي ذلك تعطيل لقدرات الصناعيين في أعمالهم في حال توقفهم عن أعمالهم.

(٥) يُعقّب الشاعر على جود القاضي، إنه يُعطي بلا حساب دون أن يتوقّع مفاجآت سيّئة، =

وَهَـذِهِ هِـمَّـةٌ لَـمْ يُـؤْتَـهَـا بَـشَـرٌ
وَذَا اقْـتِـدَارُ لِـسَـانٍ لَـيْـسَ فـي الـمُـنَـنِ (١)
فَـمُـرْ وَأَوْمِـئْ تُـطَـعْ قُـدِّسْـتَ مِـنْ جَـبَـلٍ
تَـبَـارَكَ الـلَّـهُ مُـجْـرِي الـرُّوحِ فـي حَـضَـنِ (٢)

النفيس غريب حيثما كان

يمدح أخاه أبا سهل سعيد بن عبيد اللّه بن الحسن الأنطاكي:

[البسيط]

قَـدْ عَـلَّـمَ الْـبَـيْـنُ مِـنَّـا الْـبَـيْـنَ أَجْـفَـانَـا
تَـدْمَـى وَأَلَّـفَ فِـي ذَا الْـقَـلْـبِ أَحْـزَانَـا (٣)
أَمَّـلْـتُ سَـاعَـةَ سَـارُوا كَـشْـفَ مِـعْـصَـمِـهَـا
لِـيَـلْـبَـثَ الْـحَـيُّ دُونَ الـسَّـيْـرِ حَـيْـرَانَـا (٤)

= فغدرات الزمن تستوجب من البشر الحذر والاحتفاظ بقدر من المال للحظة كهذه، والقاضي زاهد في هذه الدنيا؛ فمتاعها زائل، إنه يبتغي مرضاة اللّه سبحانه ويُعدّ لمغادرة الدنيا إلى نعيم لا يزول.

(١) يروى «هيبة» بدلاً من «همّة». المنن، الواحدة منة: القوّة. يُخاطب الشاعر القاضي بأنه يتمتّع بهيبة قلّ نظيرها، فقلوب الناس تهفو إليه حباً وتبجيلاً واحتراماً، وهو ذو منطق ندر مثيله لفصاحته وبلاغته بين بني جلدته.

(٢) حضن: جبل في نجد. يطلب الشاعر من القاضي أن يحكم بين الناس فيأمرهم وهم رهن أوامره يمتثلونها طائعين راغبين، إنه بمثابة جبل شامخ ذي روح في ثباته ووقاره ورزانته، وفي الأخير لا ينسى أن يدعو اللّه تعالى للقاضي بحسن التوفيق والرعاية.

(٣) البين: البعد. يبدأ الشاعر قصيدته المدحيّة بمطلع غزليّ. لقد كان للبين أثره العميق في نفس الشاعر، فإذا بأجفانه لشدّة بكائه تبدو دامية، وقد صبغها الدم بلونه، فبدا ذلك في عينيه ووجهه، ولقد ترك في قلبه جراحاً أليمة وأحزاناً.

(٤) المعصم: موضع السوار من اليد. يلبث: يُقيم. الحيّ: القوم الماكثون والراحلون. انزوى الشاعر في مكان خفيّ ينظر إلى الركب يتحمّل للمسير آملاً أن تمدّ حبيبته معصمها مودّعة فتبدو له ويتملّى من رؤيتها لآخر مرة، وقد لا يكون لقاء بعد.

وَلَـوْ بَـدَتْ لأتَـاهَـتْـهُـمْ فَـحَـجَّـبَـهَـا
صَـوْنٌ عُـقُـولَـهُـمُ مِـنْ لَـحْـظِـهَـا صَـانَـا(١)

بِـالْـوَاخِـدَاتِ وَحَـادِيـهَـا وَبِـي قَـمَـرٌ
يَـظَـلُّ مِـنْ وَخْـدِهَـا فِـي الـخِـدْرِ خَـشْـيَـانَـا(٢)

أَمَّـا الـثِّـيَـابُ فَـتَـعْـرَى مِـن مَـحَـاسِـنِـهِ
إِذَا نَـضَـاهَـا وَيَـكْـسَـى الـحُـسْـنَ عُـرْيَـانَـا(٣)

يَـضُـمُّـهُ الـمِـسْـكُ ضَـمَّ الـمُـسْـتَـهَـامِ بِـهِ
حَـتَّـى يَـصِـيـرَ عَـلَـى الأعْـكَـانِ أَعْـكَـانَـا(٤)

قَـدْ كُـنْـتُ أُشْـفِـقُ مِـنْ دَمْـعِـي عَـلَـى بَـصَـرِي
فَـالْـيَـوْمَ كُـلُّ عَـزِيـزٍ بَـعْـدَكُـمْ هَـانَـا(٥)

---

(١) أتاهتهم: أضللتهم. الصون: الحفظ. من حسن الحظّ وسيّئه في آن معاً أن محبوبة الشاعر ما كشفت عن معصمها لكانت أدهشت الجميع بجمالها الخارق فوقعوا أسرى حبّها، وكانت مزاحمة له في حبّها لا يعلم نتائجها، ومن نتائج ذلك أنها صانت نفسها كما أنها صانت عقول هؤلاء المساكين من أن تهيم بها حبًّا.

(٢) الواخدات، الواحدة واخدة: المسرعة من الإبل. الحادي: مرافق الرحلة يغنّي ليحمل الإبل على الإسراع في سيرها. الخدر: الهودج تستتر داخله الظاعنة. خشياناً: خائفاً. يتمنّى الشاعر لو أنه يفدي محبوبته والإبل المسرعة بها بنفسه خوفاً عليها لأن سيراً كهذا يُزعجها، وهي لم تتعود الرحيل، إنها المرة الأولى التي تنتقل بها.

(٣) نضى عنه الثوب: خلعه. يكسى: يلبس. ينوّه الشاعر بما يمتاز به من وضاحة وجمال وحسن بديع، فإذا خلع عنه أثوابه افتقدت الأثواب الحسن لاحتفاظه بحسنه، فالحسن فيه وبه يتمثّل، فالأثواب لا تزيده جمالاً.

(٤) الأعكان: الواحدة عكنة: مطاوي بطن الجارية. ومن مظاهر الترف أن المسك يعشقه، فإذا انضمّ إليه كان بمثابة عكنة أضيفت إلى أعكانه.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٦. أشفق: أخاف. ولشدّة بكائه، كان خوفه على عينيه من فقد بصره، فلما ارتحل هان عليه كلّ شيء، حتى فقد بصره لاستمرار بكائه.

تُـهْـدِي الْـبَـوَارِقُ أَخْـلَافَ الْـمِـيَـاهِ لَـكُـمْ
وَلِـلْـمُـحِـبِّ مِـنَ الـتَّـذْكَـارِ نِـيـرَانَـا[١]

إِذَا قَـدِمْـتُ عَـلَـى الْأَهْـوَالِ شَـيَّـعَـنِـي
قَـلْـبٌ إِذَا شِـئْـتُ أَنْ أَسْـلَاكُـمُ خَـانَـا[٢]

أَبْـدُو فَـيَـسْـجُـدُ مَـنْ بِـالـسُّـوءِ يَـذْكُـرُنِـي
وَلَا أُعَـاتِـبُـهُ صَـفْـحـاً وَإِهْـوَانَـا[٣]

وَهٰـكَـذَا كُـنْـتُ فِـي أَهْـلِـي وَفِـي وَطَـنِـي
إِنَّ الـنَّـفِـيـسَ غَـرِيـبٌ حَـيْـثُـمَـا كَـانَـا[٤]

مُـحَـسَّـدُ الْـفَـضْـلِ مَـكْـذُوبٌ عَـلَـى أَثَـرِي
أَلْـقَـى الْـكَـمِـيَّ وَيَـلْـقَـانِـي إِذَا حَـانَـا[٥]

---

(١) البوارق، الواحدة بارقة: السحب ذوات البرق. الأخلاف: الضروع. الهدية رمز الحبّ والمودّة؛ فالسحب تودّ التقريب إلى محبوبة الشاعر فتهديها أمطاراً تستنبت الأمطار النبات وتغني الأرض بمفاتنها ليلذّ لحبيبته النظر إلى جمال الطبيعة، فإذا نظر الشاعر إلى ناحية وجود حبيبته عادت به الذكريات فإذا بنيران الوجد تلتهب في أحشائه.

(٢) شيّع: تابع. الأهوال: الشدائد. يسلاكم: ينساكم. يعترف الشاعر بأنه لا يُمكنه نسيان حبيبته، فقلبه تبع لإرادته في كلّ ما يريد منه، ولكنه لا يُطاوعه إذا حاول نسيان حبيبته، فإنه لا يخون الودّ والمحبّة لذلك.

(٣) ورد البيت في الخصائص، لابن جني ٢: ١٢٥. الصفح: الإعراض عن المسيء. الإهوان: الإهانة والاحتقار. يعود الشاعر إلى نفسه وعلاقته بالحاسدين، فإذا مرّ بأحدهم وهو يذكره بالسوء في غيبته نظر إليه الشاعر احتقاراً وهواناً، فإذا به يتصاغر ويخضع له، ومع ذلك لا يعمد الشاعر إلى عتابه استصغاراً لشأنه، بحيث يجعله يشعر بذنبه فلا يقوى على المجابهة.

(٤) يشعر الشاعر بغربة قاتلة مستمرّة حيثما كان؛ فهو في قومه ووطنه غريب وحيثما حلّ غريب أيضاً، فلا رفيق ولا حبيب ولا معين، وغربته غربة روحية وفكريّة وشعورية، فقد التفت إلى ما حوله فلم يجد عفواً له في نفاسته وندرته.

(٥) الكمي: البطل الشاكي السلاح. حان أجله: حلّ وقرب. يفخر الشاعر بأنه حيثما حلّ =

لَا أَشْرَئِبُّ إِلَى مَا لَمْ يَفُتْ طَمَعاً
وَلَا أَبِيتُ عَلَى مَا فَاتَ حَسْرَانَا[(١)]

وَلَا أُسَرُّ بِمَا غَيْرِي الْحَمِيدُ بِهِ
وَلَوْ حَمَلْتَ إِلَيَّ الدَّهْرَ مَلآنَا[(٢)]

لَا يَجْذِبَنَّ رِكَابِي نَحْوَهُ أَحَدٌ
مَا دُمْتُ حَيًّا وَمَا قَلْقَلْنَ كِيرَانَا[(٣)]

لَوِ اسْتَطَعْتَ رَكِبْتُ النَّاسَ كُلَّهُمُ
إِلَى سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بُعْرَانَا[(٤)]

فَالْعِيسُ أَعْقَلُ مِنْ قَوْمٍ رَأَيْتُهُمُ
عَمَّا يَرَاهُ مِنَ الْإِحْسَانِ عُمْيَانَا[(٥)]

= ممدوح لما يتمثل به من فضائح ومثل رفيعة، فإذا بحسّاده وأعدائه يكيلون عليه الأكاذيب والافتراءات، ويفخر بأنه يلاقي من الأبطال الشاكي السلاح وقد حان أجله، فلا بدّ أنه من الهالكين لا محالة.

(١) أشرئب: أتطلّع. الحسران: من ملأت قلبه الحسرة واللوعة. يُردف أنه لا يهتمّ لما لم يحصّله في حياته في دنياه، وفي قلبه حسرة ولوعة عليه. وفي الأصل فهو لا ينظر إلى ما سوف يكون لأنه في عالم الغيب. وفي ذلك القول نظر؛ إذاً لماذا يذم الدهر وناسه وسوء حظه ويندبه؟!

(٢) يُخبر الشاعر أنه لا يُفرحه عطاء، فالحمد للجواد الذي أنعم عليه بشعره والإشادة بفضله، وهو في أعماقه لا يرغب بإضفاء النعوت المحمودة عليه، ولو أسبغ عليه أموالاً لا تفنى. أين مصداقية الشاعر عندما يقول هذا القول؟

(٣) الركاب: الإبل، قلقلن: حركن. الكِيران، الواحد كور: رحل الجمل. يُردف الشاعر أنه سوف يمتنع عن السعي وراء الممدوحين، فليس منهم أحد يستحقّ مديحه. للأسف لم يلتزم الشاعر بما وعد.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٥. البعران: الواحد بعير. يتخلّص الشاعر إلى مدح سعيد بن عبد اللّه بأنه لو كان بمقدوره لركب البهائم من الناس حتى يصل إليه، وهو ينظر إلى الناس بأنهم يتساوْن بالبعران لأنهم لا عقول لهم.

(٥) العيس: الإبل البيضاء. ينعى الشاعر على بعض الشعراء الذين عميت عيونهم عن =

ذَاكَ الْجَوَادُ وَإِنْ قَلَّ ٱلْجَوَادُ لَهُ
ذَاكَ الشُّجَاعُ وَإِنْ لَمْ يَرْضَ أَقْرَانَا[(١)]
ذَاكَ الْمُعِدُّ الَّذِي تَقْنُو يَدَاهُ لَنَا
فَلَوْ أُصِيبَ بِشَيْءٍ مِنْهُ عَزَّانَا[(٢)]
خَفَّ الزَّمَانُ عَلَى أَطْرَافِ أَنْمُلِهِ
حَتَّى تُوُهِّمْنَ لِلأَزْمَانِ أَزْمَانَا[(٣)]
يَلْقَى الْوَغَى وَالْقَنَا وَالنَّازِلَاتِ بِهِ
وَالسَّيْفَ وَالضَّيْفَ رَحْبَ الْبَاعِ جَذْلَانَا[(٤)]
تَخَالُهُ مِنْ ذَكَاءِ الْقَلْبِ مُحْتَمِياً
وَمِنْ تَكَرُّمِهِ وَالْبِشْرِ نَشْوَانَا[(٥)]

= محاسن ممدوحه وقبض جوده وإحسانه، فإذا بهم لم يُسارعوا إلى مدحه، فكانوا دون الإبل فهماً وإدراكاً.

(١) الجواد: الكريم. الأقران، الواحد قرن: الكفوء، يمدح الشاعر ممدوحه بأنه فاق كلّ جواد بكرمه الذي لا يُدانيه كرم أحد من الخلق، كما أنه شجاع لا يُقارن بسواه من الأبطال؛ فهو متفرّد في كلّ شيء.

(٢) المعدّ: المهيّئ الشيء لساعة حاجته. تقنو: تقتني. عزّاه: سلاه عن أساه. يُردف الشاعر أن ما في يدي ممدوحه ويجنيه إنما هو يجمع ماله ليُنفقه على الشعراء والمعوزين، وعزاؤه أن يُقدّمه لمستحقيه بحبّ وامتنان.

(٣) الأنامل، الواحدة أُنملة: أطراف الأصابع. يُنوّه الشاعر بسلطة ممدوحه على الزمن، فأنامله تحركه كيفما أراد وتتصرف به حسبما تُمليه إرادته، فإذا بأنامله كأداة تحرّك الزمان بمشيئته وحيثما يبتغي ويُريد.

(٤) الوغى: الحرب. القنا: الرماح. النازلات: المصائب والويلات. رحب الباع: واسع الصدر، جذلانا: فرحانا. يمدح الشاعر في ممدوحه قدرته الفائقة على تقلبات الزمن سواء في الحرب أم في السلام، فهو يُقاتل أعداءه بفرح وهو يستضيف ضيفه بسعة صدر وفرح أيضاً.

(٥) محتمياً: متحمّساً. البشر: طلاقة الوجه. النشوان: السكران. يمدح الشاعر في ممدوحه قوّة ذكائه؛ فقلبه مفعم متوقّد الفهم، وهو يمتاز بالبشر وطلاقة الوجه =

وَتَسْحَبُ الْحِبَرَ الْقَيْنَاتُ رَافِلَةً
فِي جُودِهِ وَتَجُرُّ الْخَيْلُ أَرْسَانَا[١]

يُعْطِي الْمُبَشِّرَ بِالْقُصَّادِ قَبْلَهُمُ
كَمَنْ يُبَشِّرُهُ بِالْمَاءِ عَطْشَانَا[٢]

جَزَتْ بَنِي الحَسَنِ الْحُسْنَى فَإِنَّهُمُ
فِي قَوْمِهِمْ مِثْلُهُمْ فِي الْغُرِّ عَدْنَانَا[٣]

مَا شَيَّدَ اللَّهُ مِنْ مجدٍ لِسَالِفِهِمْ
إلَّا وَنَحْنُ نَرَاهُ فِيهِمِ الآنَا[٤]

إنْ كُوتِبُوا أَوْ لُقُوا أَوْ حُورِبُوا وُجِدُوا
فِي الخَطِّ وَاللَّفْظِ وَالْهَيْجَاءِ فُرْسَانَا[٥]

= وإشراقه في حال دعاه الكرم ليُعبر عن نفسه في مسلكه، فإذا به نشوان يملأه السرور ويُنير وجهه الفرح.

(١) الحَبَر، الواحد حِبرة، بكسر الحاء: أثواب يمانية. القينات، الواحدة قينة: الجارية المغنية، رافلة: تمشي تجرّ ثوبها متبخترة. الأرسان، الواحد رسن: الحبل. يُردف الشاعر متحدّثاً عن جود ممدوحه، فالقيان المغنيات يرفلن بجميل الأثواب اليمانية متبخترات مفتخرات بما نالهن من كرم الممدوح وحتى الخيول تجرّ أرسانها متشوّفات باعتزاز.

(٢) ورد البيت في أسرار البلاغة، للجرجاني: ٣٤٠. يُتابع الشاعر حديثه عن كرم ممدوحه؛ إنه يُبادر بعطاء من بشّره بأن من يقصده لينعم برفده بالأبواب، فإذا به يرفده بعطائه فرحاً وكأنه كان شديد العطش، فكان الماء يرويه ثم يتبع عطاياه القاصدين.

(٣) الغرّ، الواحد أغرّ: السيد الشريف. الحسنى: اليد البيضاء. يُعرّج الشاعر على مدح آل بيت الممدوح، وهم من شجرة النبوّة في المكان العالي من ولد الحسن بن علي - رضي اللّه عنهما - إنهم خير من ولد ولد عدنان من أحفاد، ولهذا يدعو الشاعر لهم بالجنة أوفى الجزاء.

(٤) الأسلاف: الآباء والأجداد. يُتابع الشاعر حديثه عن قوم الممدوح. ولقد رعاهم اللّه بعنايته، فكان لهم العزّ والفخار صرحاً مشيّداً عالي البنيان متوارثاً عبر أجيالهم، وهذا يزهو الآن في الأبناء.

(٥) يُتابع الشاعر مدحه لآل بيت الممدوح؛ إنهم فرسان الكتابة لبلاغتهم، وقد امتازوا بجمال الخطّ والكتابة وكانوا شجعاناً فرساناً أبطالاً لا يبلغ شأوهم مخلوق.

كَأَنَّ أَلْسُنَهُمْ فِي النُّطْقِ قَدْ جُعِلَتْ
عَلَى رِمَاحِهِمِ فِي الطَّعْنِ خِرْصَانَا(١)
كَأَنَّهُمْ يَرِدُونَ الْمَوْتَ مِنْ ظَمإٍ
أَوْ يَنْشَقُونَ مِنَ الْخَطِّيِّ رَيْحَانَا(٢)
أَلْكَائِنِينَ لِمَنْ أَبْغِي عَدَاوَتَهُ
أَعْدَى الْعِدَى وَلِمَنْ آخَيْتُ إِخْوَانَا(٣)
خَلَائِقٌ لَوْ حَوَاهَا الزَّنْجُ لَانْقَلَبُوا
ظُمْيَ الشِّفَاهِ جِعَادَ الشَّعْرِ غُرَّانَا(٤)
وَأَنْفُسٌ يَلْمَعِيَّاتٌ تُحِبُّهُمُ
لَهَا اضْطِرَاراً وَلَوْ أَقْصَوْكَ شَنْآنَا(٥)

---

(١) ورد البيت في: معاهد التنصيص، للعباسي ٢: ١٣١، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٧. الخرصان، الواحد خرص: حلقة السنان. يُتابع الشاعر حديثه عن بلاغة القوم وفصاحتهم، إنهم فرسان المنابر والميادين، فإذا ببلاغتهم تترجم بطولتهم بأسنة رماح خرساء في المعارك ضدّ أعدائهم.

(٢) الظمأ: العطش. ينشقون: يشمّون. الخطي: الرماح. يردف الشاعر حديثه عن آل الممدوح. لقد اعتادوا على خوض الحروب، فهي أشهى لهم وطعم الموت فيها ورودهم إلى الجنان، يستنشقونه لشدّة عطشهم إليها، ولذا فالرماح يستروحون إليها استرواحهم إلى الريحان.

(٣) يرى الشاعر أن هؤلاء القوم معه في مواقفه؛ فهم أعداء لمن عادى وهم إخوان لمن آخى دون سؤال واستعلام عن سبب موقفه من الطائفتين لحبهم للشاعر.

(٤) الخلائق، الواحدة خليقة: السجية. الزنج: جيل من السودان. ظمي الشفاه: دقاقها في سمرة. الغران: البيض. يُتابع الشاعر وصف أخلاق القوم، إنها رفيعة محمودة في الثروة من الكمال، وقد خلت من كل نقيصة، فلو أنها توفّرت للزنج لتبدّلت صورهم، فكانوا بيضاً أغراراً مسحتهم العناية الإلهية بيد الجمال جلوداً وهيئات.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٧. يلمعيات: شديدو الذكاء. أقصوك: أبعدوك. الشنآن: البغض. يُتابع الشاعر حديثه عن آل بيت الممدوح، فحبهم فطرة فطر الناس عليها لجميل ذكائهم، حتى لو أبعدوا الناس عنهم، فإذا بالناس يُبادلونهم بهذا حباً وتقديراً واحتراماً.

أَلْــوَاضِــحِــيــنَ أُبُــوَّاتٍ وَأَجْــبِــنَــةً
وَوَالِــدَاتٍ وَأَلْــبَــابــاً وَأَذْهَــانَــا[١]
يَـا صَـائِـدَ الْـجَـحْـفَـلِ الْـمَـرْهُـوبِ جَـانِـبُـهُ
إِنَّ الـلُّـيُـوثَ تَـصِـيـدُ الـنَّـاسَ أُحْـدَانَـا[٢]
وَوَاهِــبــاً كُــلَّ وَقْــتٍ وَقْــتُ نَــائِــلِــهِ
وَإِنَّــمَــا يَــهَــبُ الْــوُهَّــابُ أَحْــيَــانَــا[٣]
أَنْــتَ الَّــذِي سَــبَــكَ الأَمْــوَالَ مَــكْــرُمَــةً
ثُــمَّ اتَّــخَــذْتَ لَــهَــا الــسُّــؤَّالَ خُــزَّانَــا[٤]
عَــلَــيْــكَ مِــنْــكَ إِذَا أُخْــلِــيــتَ مُــرْتَــقِــبٌ
لَــمْ تَــأْتِ فِــي الــسِّــرِّ مَــا لَــمْ تَــأْتِ إِعْــلَانَــا[٥]
لَا أَسْــتَــزِيــدُكَ فِــيــمَــا فِــيــكَ مِــنْ كَــرَمٍ
أَنَــا الَّــذِي نَــامَ إِنْ نَــبَّــهْــتُ يَــقْــظَــانَــا[٦]

---

(١) أجبنة، الواحد جبين. الألباب، الواحد لبّ: عقول. يُتابع الشاعر مدح آل بيت الممدوح؛ إنهم ينتسبون إلى آباء أماجد طاهري الذيل لا يعرفون الفاحشة والزنى، يمتازون بوضاءة الوجوه وجمالها، تتمتع بهالة المهابة، فضلاً عن عقولهم النيّرة.

(٢) الجحفل: الجيش اللجب العظيم. الليوث، الواحد ليث: من أسماء الأسد. أحداناً: واحداً واحداً. يُخاطب الشاعر ممدوحه، إنه صياد ماهر يُتقن فنونه، فيصيد الجيش العظيم اللجب، بينما الأسد رغم ضراوته لا يمكنه أن يصيد سوى واحد من البشر.

(٣) الواهب: المعطي. النائل: العطاء. يفضل الشاعر ممدوحه على سائر الكرماء، فالواحد منهم قد يعطي أحياناً. أمّا الممدوح فإن عطاءه لا ينفد، كما أنه يعطي بفيض كبير.

(٤) السبك: الإذابة والإفراغ. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه صكّ الأموال وسبكها لتتحوّل بدورها إلى المحتاجين لها ليختزنوها لأنفسهم تكرمة منه وتطييباً لخواطرهم بها من لدنه.

(٥) المرتقب: الرقيب. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه يرقب نفسه في كلّ سانحة، وهو في حال السرّ والعلن عليه رقيب من نفسه على نفسه يفعل ما يفعله مقتنعاً بما يُرضي ربّه وضميره.

(٦) يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه لن يطلب مزيداً من عطاء، لأنه على يقين بكرمه اللّامحدود، لأنه لو فعل ذلك، فهو بمثابة من أيقظ غافلاً، والممدوح متيقّظ دائماً.

فَـإِنَّ مِـثْـلَـكَ بَـاهَـيْـتُ الْـكِـرَام بِـهِ
وَرَدَّ سُـخْـطـاً عَـلَـى الأَيَّـامِ رِضْـوَانَـا[١]
وَأَنْـتَ أَبْـعَـدُهُـمْ ذِكْـراً وَأَكْـبَـرُهُـمْ
قَـدْراً وَأَرْفَـعُـهُـمْ فِـي الْـمَـجْـدِ بُـنْـيَـانَـا[٢]
قَـدْ شَـرَّفَ الـلَّـهُ أَرْضـاً أَنْـتَ سَـاكِـنُـهَـا
وَشَـرَّفَ الـنَّـاسَ إِذْ سَـوَّاكَ إِنْـسَـانَـا[٣]

كل مكان منك بستان

وأقبل الليل وهما في بستان فقال:

[البسيط]

زَالَ الـنَّـهَـارُ وَنُـورٌ مِـنْـكَ يُـوهِـمُـنَـا
أَنْ لَـمْ يَـزُلْ وَلِـجُـنْـحِ الـلَّـيْـلِ إِجْـنَـانُ[٤]
فَـإِنْ يـكُـنْ طَـلَـبُ الـبُـسْـتَـانِ يُـمْـسِـكُـنَـا
فَـرُحْ فَـكُـلُّ مَـكَـانٍ مِـنْـكَ بُـسْـتَـانُ[٥]

---

(١) و (٢) باهى: فاخر. السخط: الغضب. يردف الشاعر مخاطباً ممدوحه بأنه مدعاة ليفخر المرء به على سائر من يدّعي الكرم، لأنه سيد الكرماء فبه يمكن المرء أن يسعد وألّا يسخط على الدهر ويرضى بما جاد به، لذا فهو قد شاع ذكره في الآفاق بين البشر خلاف سواه ممن يدّعي الكرم، ممّا رفع منزلته فشمخ في ذرى المجد بنياناً.

(٣) يُخاطب الشاعر ممدوحه بأن اللّه سبحانه قد كرّمه وجعله في أسمى مكان وأرفعه، ومن آياته أن جعله بشراً سويًا ليتّخذه الناس مثالاً لهم وإماماً يقتدون به.

(٤) جُنْح الليل: إقباله. جن الليل: أظلم. يمدح الشاعر ممدوحه بأن الليل مدّ سدوله على الكون، وثمّة نور ينبعث من وجه الممدوح يُنبئ بأن النهار لم يزل يبثّ إشعاعات أنواره على الكون.

(٥) يُخاطب الشاعر ممدوحه منوّهاً بنور وجهه، فإن كانا باقيين في البستان راغبين بالضياء، فليمضيا إلى مكان آخر لأن وجود الممدوح بمثابة بستان ضوؤه لا يختفي.

ما أنا والخمر

وعرض عليه الشراب فأبى وقال:

[السريع]

مَـــا أَنَــا وَالْــخَــمْــرُ وَبِــطِّــيــخَــةٌ
سَــوْدَاءُ فِــي قِــشْــرٍ مِــنَ الــخَــيْــزُرَانْ(١)
يَــشْــغَــلُــنِــي عَــنْــهَــا وَعَــنْ غَــيْــرِهَــا
تَــوْطِــيــنــيَ الــنَّــفْــسَ لِــيَــوْمِ الــطِّــعَــانْ(٢)
وَكُــلُّ نَــجْــلَاءَ لَــهَــا صَــائِــكٌ
يَــخْــضُــبُ مَــا بَــيْــنَ يَــدِي وَالــسِّــنَــانْ(٣)

ما الخوف إلا ما تخوّفهُ الفتى

عزم سيف الدولة على لقاء الروم في السنبوس سنة أربعين وثلاث مئة (٩٥١م) وبلغه أن العدو في أربعين ألفاً، فتهيبهم أصحابه فأنشد أبو الطيب:

[الطويل]

تَــزُور دِيَــاراً مَــا نُــحِــبُّ لَــهَــا مَــغْــنَــى
وَنَــسْــأَلُ فِــيــهَــا غَــيْــرَ سَــاكِــنِــهَــا الْإِذْنَــا(٤)

---

(١) و (٢) يبدي الشاعر عدم اهتمامه بما يرى، ممّا يُوحي بأنه لا يهتم بما يأكل من بطيخ وسواه فشغله الشاغل أنه قد وطّن نفسه على القتال، وهيّأها ليوم طعان، لذا فقشرة البطيخة والخمرة لمن لا همّ له في هذه الحياة سوى ملء معدة لتفاهته.

(٣) النجلاء: الواسعة. الصائك: اللازق. يُتابع الشاعر متحدّثاً عمّا يُهمّه أن يطعن برمح يُمزق أحشاء عدوه، وقد أخرجه فإذا بسنانه يخضب دماً.

(٤) المغنى: المنزل الآهل بأصحابه. يبدأ الشاعر قصيدته مثيراً في النفوس الحميّة وروح القتال متحدثاً بلسان الجماعة ونا الجماعة تعني الاتحاد. إنها زيارة لديار غريبة عن جند سيف الدولة لذا فهو السيد الذي يُستأذن لمقاتلة الروم. وإن كانت البلاد بلاد الروم فليس لهم الحقّ بالاستئذان، لأنهم وإن كانت ديارهم فلا بدّ من الرجوع إلى سيف الدولة في أمر كهذا.

نَقُودُ إلَيْهَا الآخِذَاتِ لَنَا الْمَدَى
عَلَيْهَا الْكُمَاةُ الْمُحْسِنُونَ بِهَا ظَنَّا[١]

وَنُصْفِي الَّذِي يُكْنَى أَبَا الْحَسَنِ الْهَوَى
وَنُرْضِي الَّذِي يُسْمَى الْإِلٰهَ وَلَا يُكْنَى[٢]

وَقَدْ عَلِمَ الرُّومُ الشَّقِيُّونَ أَنَّنَا
إذَا مَا تَرَكْنَا أَرْضَهُمْ خَلْفَنَا عُدْنَا[٣]

وَأَنَّا إِذَا مَا الْمَوْتُ صَرَّحَ فِي ٱلْوَغَى
لَبِسْنَا إِلَى حَاجَاتِنَا الضَّرْبَ وَالطَّعْنَا[٤]

قَصَدْنَا لَهُ قَصْدَ الْحَبِيبِ لِقَاؤُهُ
إِلَيْنَا وَقُلْنَا لِلسُّيُوفِ هَلُمَّنَّا[٥]

وَخَيْلٍ حَشَوْنَاهَا الأسِنَّةَ بَعْدَمَا
تَكَدَّسْنَ مِنْ هَنَّا عَلَيْنَا وَمِنْ هَنَّا[٦]

---

(١) المدى: الغاية. الكماة، الواحد كمي: البطل الشاكي السلاح. إن تلك الديار غاية جيش الدولة، ففيه كل بطل صنديد يُحسن فنون القتال ويكرّ على العدو بطلاً صنديداً يمتطي جواداً مجرّباً جال في تلك الديار وأعمل فيها فساداً، يمرق كالسهم.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٣. نصفي: نمحّص. يدعو الشاعر أتباع الأمير إلى أن يُخلصوا له الأمانة ويقاتلوا تحت لوائه، فضلاً عن أن الجهاد ضدّ أعداء الدين هو مرضاة اللّه سبحانه وتعالى؛ إنه الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد.

(٣) يُتابع الشاعر أن الروم هم على يقين أن جند سيف الدولة لا بدّ أنهم عائدون ليذيقوهم الأمرين وليجوسوا ديارهم في كل حين.

(٤) ورد البيت في المحتسب، لابن جني ١ : ٢٣١. صرّح: برز وظفر. الوغى: الحرب. يُردف الشاعر أن جند الأمير هم يُبادرون إلى الحرب دون إبطاء في حال بدت نذرها في الأفق، فإذا بهم يتّقونها بسلاحهم فكان ضرب وطعن، فكان ذلك خير لباس ووقاية.

(٥) هلمّ: اسم فعل أمر بمعنى أسرع. الجواب البديهي من قبل جيش سيف الدولة الإسراع إلى المعركة بروح عالية ملؤها الحبّ في الجهاد، وكأن الأمر يتعلق بلقاء حبيب، واللغة الجامعة بين السيوف التي تنطق بلغة العشّاق.

(٦) يُتابع الشاعر رسم صورة المعركة، تتدافع خيول الأعداء لتلاقي مصيرها البائس إذ =

ضُـرِبْـنَ إلَـيْـنَـا بـالـسِّـيَـاطِ جَـهَـالَـةً
فَـلَـمَّـا تَـعَـارَفْـنَـا ضُـرِبْـنَ بِـهَـا عَـنَّـا (١)

تَـعَـدَّ الـقُـرَى وَالْـمُـسْ بِـنَـا الْـجَـيْـشَ لَـمْـسَـةً
نُـبَـارِ إلـى مَـا تَـشْـتَـهِـي يَـدُكَ الـيُـمْـنَـى (٢)

فَـقَـدْ بَـرَدَتْ فَـوْقَ الـلُّـقَـانِ دِمَـاؤُهُـمْ
وَنَـحْـنُ أُنَـاسٌ نُـتْـبِـعُ الـبَـارِدَ الـسُّـخْـنَـا (٣)

وَإنْ كُـنْـتَ سَـيْـفَ الـدَّوْلَـةِ الْـعَـضْـبَ فِـيـهِـم
فَـدَعْـنَـا نَـكُـنْ قَـبْـلَ الـضِّـرَابِ الْـقَـنَـا الـلُّـدْنَـا (٤)

فَـنَـحْـنُ الألُـى لا نَـأْتَـلِـي لَـكَ نُـصْـرَةً
وَأَنْـتَ الَّـذِي لَـوْ أَنَّـهُ وَحْـدَهُ أَغْـنَـى (٥)

= برماح جيش سيف الدولة توجّه إليها إيذاناً بنصر عظيم، ومع اشتداد أوار المعركة تتكدّس أشلاء القتلى وقد اختلطت بأجساد الخيول التي لقيت مصرعها من الأعداء.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٣. يذكر الشاعر ما حدث لتلك الخيول، فقد ظنّ الروم أن خيول سيف الدولة خيول صديقة، ولما تبيّن لهم أنها خيول جيش سيف الدولة حاولوا الارتداد فإذا بهم يتصادمون وتكون الواقعة عنيفة، فهم يضربون بعضهم وجند الأمير يلاحقونهم بالقتل والتنكيل.

(٢) يروى «نبادر» بدلاً من «نُبار». تعدّ: تخطَّ. نبار: نسابق. يطلب الشاعر من الأمير حاثاً إيّاه على المبادرة والمرور بالقرى ليدرك جيش الروم دون إبطاء وتكون المفاجأة، ويُتبعها النصر المؤزّر، وهذا ما تتمنّاه يده اليمنى التي يُحالفها التوفيق.

(٣) اللّقان: موضع في بلاد الروم. يذّكر الشاعر ممدوحه بدوام انتصاراته، فقد شهدت اللقان هزيمة الروم، ولا زالت دماؤهم التي تجمّدت وبردت شاهدة على ذلك، ومن طبع جيش سيف الدولة أن يُلحق تلك الدماء الباردة المتجمّدة بدماء حارّة تتجدّد باستمرار.

(٤) العضب: السيف البتّار. القنا: الرماح. يُخاطب الشاعر الأمير، إنه سيف قاطع يقطع دابر الأعداء، لذا يلمس الشاعر أن يكون مع الجيش بمثابة رماح لدنة تقضي عليهم ليكون النصر تامًّا بارز المعالم.

(٥) الألى: الذين. لا نأتلي: لا نقصّر، يُردف الشاعر أن جيش الأمير من طبيعته أنه لا يُقصّر في أداء مهامه في القتال، وإن كان الأمير وحده كفؤاً لأعدائه.

يَقِيكَ الرَّدَى مَنْ يَبْتَغِي عِنْدَكَ الْعُلَى
وَمَنْ قَالَ لَا أَرْضَى مِنَ الْعَيْشِ بِالأَدْنَى[(١)]

فَلَوْلَاكَ لَمْ تَجْرِ الدِّمَاءُ وَلَا اللُّهَى
وَلَمْ يَكُ لِلدُّنْيَا وَلَا أَهْلِهَا مَعْنَى[(٢)]

وَمَا الْخَوْفُ إِلَّا مَا تَخَوَّفَهُ الْفَتَى
وَلَا الأَمْنُ إِلَّا مَا رَآهُ الْفَتَى أَمْنَا[(٣)]

فهل لك نعمى

قال وقد أهدى إليه سيف الدولة ثياب ديباج ورمحاً وفرساً معها وكان المهر أحسن:

[الطويل]

ثِيَابُ كَرِيمٍ مَا يَصُونُ حِسَانَهَا
إِذَا نُشِرَتْ كَانَ الْهِبَاتُ صِوانَهَا[(٤)]

---

(١) الردى: الموت. الأدنى: الدون، يُعلن الشاعر عن أنه على استعداد للتضحية بمهجته في سبيل الحفاظ على حياة الأمير، وفي ذلك علو شأنه ونباهة ذكره، وهذا ما يسعى إليه رغم أنه لا يقبل الذل وينفر من أن يكون دون ذلك.

(٢) اللّهى، الواحدة لهية: العطايا. يرى الشاعر أن الأمير هو سرّ إراقة الدماء رخيصة في سبيل الحفاظ عليه، وكذلك التضحية بالأموال في سبيل بقائه حيًّا، وفي حال فقده أو غيابه فلن يكون للحياة معنى أو لون من ألوان الفرح.

(٣) لم ينس الشاعر أن يُوجّه لوماً خفيفاً لجيش الأمير، فالخوف ينبع من نفس الفتى، وقد لا يكون له وجه يُبرّر وجوده، والأمن أيضاً ينبع من الذات فتنتفي أسباب الخوف، ويكون النصر المبين.

(٤) ورد البيت في حاشية يس على التصريح ١: ١٧٢. الصوان: كلّ ما يستعمل ليُصان فيه من المقتنيات. يبدأ الشاعر قصيدته منوّهاً بكرم سيف الدولة، فقد تلقّى من الأمير هديّة قيّمة؛ فالأمير لا يحتفظ في خزائنه بما هو ذات قيمة، بل إنه ينشر تلك الهبات لتُصان في خزائن حاشيته وأحبائه.

تُـرِيـنـا صَـنَـاعُ الـرُّومِ فِـيـهَـا مُـلُـوكَـهَـا
وَتَـجْـلُـو عَـلَـيْـنَـا نَـفْـسَـهَـا وَقِـيَـانَـهَـا[(١)]

وَلَـمْ يَـكْـفِـهَـا تَـصْـوِيـرُهَـا الـخَـيْـلَ وَحْـدَهَـا
فَـصَـوَّرَتِ الأشْـيَـاءَ إلَّا زَمَـانَـهَـا[(٢)]

وَمَـا ٱدَّخَـرَتْـهَـا قُـدْرَةً فِـي مُـصَـوِّرٍ
سِـوَى أَنَّـهَـا مَـا أَنْـطَـقَـتْ حَـيَـوَانَـهَـا[(٣)]

وَسَـمْـرَاءُ يَـسْـتَـغْـوِي الْـفَـوَارِسَ قَـدُّهـا
وَيُـذْكِـرُهَـا كَـرَّاتِـهَـا وَطِـعَـانَـهَـا[(٤)]

رُدَيْـنِـيَّـةٌ تَـمَّـتْ فَـكَـادَ نَـبَـاتُـهَـا
يُـرَكِّـبُ فِـيـهَـا زُجَّـهَـا وَسِـنَـانَـهَـا[(٥)]

وَأَمُّ عَـتِـيـقٍ خَـالُـهُ دُونَ عَـمِّـهِ
رأى خَـلْـقَـهَـا مَـنْ أَعْـجَـبَـتْـهُ فَـعَـانَـهَـا[(٦)]

---

(١) و (٢) الصناع: المرأة المتقنة عملها. القيان، الواحدة قينة: الجارية المغنية. تلك الأثواب من أسلاب الروم التي غنمها جيش سيف الدولة، وقد قامت بنسجها امرأة صناع نقشت على أقمشتها صور ملوك الروم ولم تنس نفسها فإذا بها ترسم نفسها بمصاحبة قيانها لتجعل المشهد موحداً موحياً أضافت إليه رسم خيول بحركتها في المكان بما فيه من بشر وشجر وكائنات، فبدا المشهد لا ينقصه إلّا حيوية الحركة والزمان.

(٣) يُشيد الشاعر بهذا العمل الفني الرائع لتلك المرأة الصناع، فرغم إتقانها عملها، فإنها ما استطاعت جعل ما في تلك اللوحة الرائعة ينطق، إنها صورة بحالتها الظرفية والمكانية.

(٤) و (٥) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٤. يقصد بالسمراء: الرمح وقد جعلها ردينية، نسبة إلى ردينة تلك المرأة التي كانت تقوّم الرماح. الزج: حديدة تجعل في أسفل الرمح. يعدّد الشاعر ما تضمُّه تلك الهدية؛ إنه رمح أسمر استقام ممشوقاً يستهوي الفرسان فيذكرهم بالحروب والبطولات والكرّ والطعن، ولقد قام على إصلاح ذلك الرمح عاملان عامل بشري تمثل بردينة تلك المرأة الماهرة في إصلاح الرماح، وعناية اللّه تعالى إذ جعل نباتها مهذّباً لا يحتاج تقويماً وإصلاحاً.

(٦) العتيق من الخيول: الكريم. عانها: أصابها بعينه. ولقد تضمنت تلك الهدية مهراً =

إذَا سَـايَـرَتْـهُ بَـايَـنَـتْـهُ وَبَـانَـهَـا
وَشَـانَـتْـهُ فـي عَـيْـنِ الْـبَـصـيـرِ وزانَـهَـا[١]
فَـأَيْـنَ الَّـتـي لَا تَـأْمَـنُ الْـخَـيْـلُ شَـرَّهَـا
وَشَـرِّي وَلَا تُـعْـطِـي سِـوَايَ أَمَـانَـهَـا[٢]
وَأَيْـنَ الَّـتـي لَا تَـرجِـعُ الـرُّمْـحَ خَـائِـبـاً
إذَا خَـفَـضَـتْ يُـسْـرَى يَـدَيَّ عِـنَـانَـهَـا[٣]
وَمَـا لِـي ثَـنَـاءٌ لَا أَرَاكَ مَـكَـانَـهُ
فَـهَـلْ لَـكَ نُـعْـمَـى لَا تَـرَانِـي مَـكَـانَـهَـا[٤]

حجّب ذا البحر بحار دونه

مد نهر قويق فأحاط بدار سيف وخرج أبو الطيب من عنده فبلغ الماء إلى صدر فرسه فقال:

[الرجز]

حَـجَّـبَ ذَا الْـبَـحْـرَ بِـحَـارٌ دُونَـهُ
يَـذُمُّـهَـا الـنَّـاسُ وَيَـحْـمَـدُونَـهُ[٥]

= جميلاً بمصاحبة أمه القبيحة، وقد أخذ ذلك المهر سمة الجمال من عمّه الذي يفوق خاله جمالاً، ومن الطبيعي أن يكون الأب جميلاً بحيث يفوق الأم جمالاً.

(١) يتابع الشاعر حديثه عن المهر وأمه مظهراً الفارق بينهما، مبدياً إعجابه بالمهر، إنها لبشاعتها تشينه فيُسيء الخبير بشؤون الخيل الحكم عليه وإذا نظر إلى المهر أعجبه جماله ممّا يجعله يُضفي عليها حسناً لجماله.

(٢) يُخاطب الشاعر الأمير طالباً منه فرساً يصعب على السائس ترويضها تجمح براكبها، لا يقدر على امتطاء متنها سوى الشاعر، لأنه فارس خبير بإخضاع أمثال تلك الخيول، فتستسلم له وتُسلمه قيادها.

(٣) العنان: سير اللجام. يطلب الشاعر من الأمير فرساً مجربة في الحروب تساير فارسها في الميدان وتُساعده على طعن عدوّه، فإذا بالرمح يخترق جسده، وهو يمسك عنانها بيده اليسرى ويُقاتل بيده اليمنى.

(٤) النعمى: النعمة. يمدح الشاعر الأمير بجوده، إنه جدير بالثناء الحسن الذي يُسبغه على الأمير، وهو يسأله عمّا أسداه إليه من نعمة يحتفظ بها للشاعر ويتذكّرها له.

(٥) حجّب: منع من زيارة الناس له. يقصد الشاعر بالبحر سيف الدولة، يذكر الشاعر ما =

يَـا مَـاءُ هَـلْ حَسَـدْتَنَـا مَعِينَـهُ
أَم اشْتَهَيْتَ أَنْ تُرَى قَرِينَـهُ[١]
أَمِ انْتَجَعْتَ لِلْغِنَى يَمِينَـهُ
أَمْ زُرْتَـهُ مُكَثِّراً قَطِينَـهُ[٢]
أَمْ جِئْتَـهُ مُخَنْدِقاً حُصُونَـهُ
إِنَّ الْجِيَادَ وَالْقَنَا يَكْفِينَـهُ[٣]
يَـا رُبَّ لُجٍّ جُعِلَتْ سَفِينَـهُ
وَعَازِبِ الرَّوْضِ تَوَفَّتْ عُونَـهُ[٤]

= حصل، فقد انهمرت المياه بكثرة ممّا جعلها تحيط بقصر الأمير وتحول دون دخول الناس عليه، فكان أن ذكر ذلك الحدث مادحاً الأمير بأنه بحر يفيض عطاءً وجوداً، وهو مظهر خير، بينما كانت تلك الأمطار سبباً بحجبه عن الناس فحرموا من جوده وكرمه.

(١) المعين: الماء الجاري على وجه الأرض. يُخاطب الشاعر الماء مستفسراً هل ما كان منه حسداً للأمير من أجل كرمه أم أنه يودّ أن يكون كريماً مثله وفي نفسه رغبة بالاقتداء به؟

(٢) انتجعه: جاء يطلب رفده. القطين: الجماعة من الحشم والأعوان وأهل بيته. يُردف الشاعر كلامه للنهر مستفسراً عن سبب مجيئه ليستمدّ من فضله غِناه، أم أنه قد قصده ليكون من زائريه في مجلسه.

(٣) الخندق: حفير حول المدينة لحمايتها من الأعداء. يُردف الشاعر مستفسراً عمّا إذا كان قصد النهر حماية قصر الأمير، فهو ليس بحاجة إلى ذلك، فوراءه جنود أقوياء أشداء يمتطون الخيول الجرد، ويعملون على حمايته، لذا فهو ليس بحاجة إلى النهر ليخندق حول قصره.

(٤) اللجّ، الواحدة لجّة: الماء العظيم الطامي. السفين، الواحدة سفينة. العازب: البعيد. العون، الواحدة عانة: السرب من حمر الوحش. توفتها: حصلت عليها كاملة. يُشيد الشاعر بإنجازات الأمير، فلطالما خاضت جياده أنهاراً، فكانت تمخرها كالسفن، ولطالما اقتحمت من الأرض ما هو بعيد تلاحق أسراب الحمر الوحشية تصطادها بعد مطاردة شاقّة بسرعة.

وَذِي جُـنُـونٍ أذْهَـبَـتْ جُـنُـونَـهُ
وَشَـرْبِ كَـأْسٍ أكْـثَـرَتْ رَنِـيـنَـهُ[١]
وَأبْـدَلَـتْ غِـنَـاءَهُ أنِـيـنَـهُ
وَضَـيْـغَـمٍ أوْلَـجَـهَـا عَـرِيـنَـهُ[٢]
وَمَـلِـكٍ أوْطَـأهَـا جَـبِـيـنَـهُ
يَـقُـودُهَـا مُـسَـهِّـداً جُـفُـونَـهُ[٣]
مُـبَـاشِـراً بِـنَـفْـسِـهِ شُـؤُونَـهُ
مُـشَـرِّفـاً بِـطَـعْـنِـهِ طَـعِـيـنَـهُ[٤]
بَـحْـرٌ يَـكُـونُ كُـلُّ بَـحْـرٍ نُـونَـهُ
شَـمْـسٌ تَـمَـنَّـى الـشَّـمْـسُ أنْ تَـكُـونَـهُ[٥]

---

(١) الشرب: جماعة الشاربين، الرنين: الصياح. يُتابع الشاعر مدح الأمير، فلطالما تصدّى لمن غرّه ما عليه من جنون وطغيان وتجبّر، فإذا به يتوجّه إليه ليذيقه وبال أمره ويُذلّه ويُجبره على طاعته، ولطالما عمل الأمير على منع تفشي الرذائل، فإذا به يُوجّه خيله للقضاء وردع شاربي الخمرة، فيُعمل فيهم تقتيلاً وتشريداً ليتوبوا ويرتدعوا، وبذلك يضمن الأمن للرعية.

(٢) الضيغم: من أسماء الأسد. العرين: مأوى الأسد. يُتابع الشاعر مدح الأمير، فإذا بالشرب يتحوّل غناؤهم إلى أنين وعويل وبكاء شديد. ولطالما تصدى الأمير إلى متمرّد معتزّ بمنعته ودياره يعتدّ بقوّته أذلّه بجيشه وقد وطئ دياره وأذاقه الأمرين خراباً وتدميراً.

(٣) يُتابع الشاعر مدحه الأمير فلطالما وجّه جيشه لمحاربة ملك متمرّد لم يُذعن لمشيئته بسرعة قصوى فلم يسمح له بنوم هنيء، فإذا به ينغص عليه نومه ويجعله يعيش بقلق دائم ومن ثم يقضي عليه.

(٤) يُردف الشاعر مدحه الأمير، إنه يُباشر أعماله بنفسه، وهذا من أسباب نجاحه وحسن توفيقه، وهو بطل عظيم، ومن حسن حظ من يُقتل على يديه، ففي ذلك شهادة له بأنه بطل صنديد، لأن الأمير لا يُقاتل الضعفاء والجبناء.
ورد بيت بعد هذا البيت لم يرد في الديوان، وهو التالي:
عَـفِـيـفَ مـا فـي ثَـوْبِـهِ مَـأْمُـونَـهُ   أبـيـضَ مـا فـي تَـاجِـهِ مَـيْـمُـونَـهُ

(٥) النون: الحوت. يُردف الشاعر مدحه للأمير؛ إنه بحر طام يفيض خيراً وجوداً فيبدو =

إِنْ تَـدْعُ يَـا سَـيْـفُ لِـتَـسْـتَـعِـيـنَـهُ
يُـجِـبْـكَ قَـبْـلَ أَنْ تُـتِـمَّ سِـيـنَـهُ (١)
أَدَامَ مِـنْ أَعْـدَائِـهِ تَـمْـكِـيـنَـهُ
مَـنْ صَـانَ مِـنْـهُـمْ نَـفْـسَـهُ وَدِيـنَـهُ (٢)

الرأي قبل شجاعة الشجعان

يمدحه وأنشده إياها بآمد وكان منصرفاً من بلاد الروم وذلك في شهر صفر سنة خمس وأربعين وثلاث مئة (٩٥٦م):

[الكامل]

الـرَّأْيُ قَـبْـلَ شَـجَـاعَـةِ الـشُّـجْـعَـانِ
هُـوَ أَوَّلٌ وَهْـيَ الْـمَـحَـلُّ الـثَّـانِـي (٣)
فَـإِذَا هُـمَـا اجْـتَـمَـعَـا لِـنَـفْـسٍ حُـرَّةٍ
بَـلَـغَـتْ مِـنَ الْـعَـلْـيَـاءِ كُـلَّ مَـكَـانِ (٤)

= سواه من الملوك كالحيتان في خضمه العظيم، كما أنه شمس تشمل الكون بضيائها وفيض حبّها وعطائها، حتى إن الشمس الطبيعية تتمنّى أن تكون على شاكلته.

(١) يُنوّه الشاعر بسرعة استجابة سيف الدولة لمن يستنجده في كلّ ملمة نزلت به، فإذا به يلبي دعوة الداعي دون إبطاء، فقبل أن يلفظ المستنجد السين يكون سيف الدولة قد هبّ لنجدته.

(٢) يدعو الشاعر للأمير بدوام ملكه وسيطرته على أعدائه، وذلك برعاية اللّه تعالى له الذي صان له دينه وحفظ عليه نفسه ورعاه وحماه.

(٣) و (٤) المِرّة: القوة والشدّة. يروى «مرّة» بدلاً من «حرّة». وورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٨. يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع حكمي، مفاده أن العقل هو أهم ما يُميّز البشر عمّا سواهم من كائنات، وهو بلا ريب المحرّك الأول المجدي في حركة بني البشر في معراجهم إلى تحقيق أسمى الغايات، أما الشجاعة فإنها قدر مشترك بين البشر ذوي العقول السليمة وبين سواهم من بني جنسهم وأفراد الحيوانات الضارية، كالأسود وسواها؛ فالشجاعة التي لا تعتمد على العقل هي بمثابة سلاح فتّاك قد يقتل مستعمله الجاهل بطريقة استعماله قبل أن يقتل عدوّه. ولكن في حال اجتماعهما معاً لعاقل يُحسن استعمالهما على الوجه الأكمل والأسلم، فلا بدّ من إدراكه أعلى مراتب الفلاح والتوفيق والنجاح.

وَلَـرُبَّـمَـا طَـعَـنَ الْـفـتَـى أَقْـرَانَـهُ
بِـالـرَّأْيِ قَـبْـلَ تَـطَـاعُـنِ الأَقْـرَانِ(١)
لَـوْلَا الْـعُـقُـولُ لَـكَـانَ أَدْنَـى ضَـيْـغَـمٍ
أَدْنَـى إِلَـى شَـرَفٍ مِـنَ الإنْـسَـانِ(٢)
وَلَـمَـا تَـفَـاضَـلَـتِ الـنُّـفُـوسُ وَدَبَّـرَتْ
أَيْـدِي الْـكُـمَـاةِ عَـوَالِـيَ الْـمُـرَّانِ(٣)
لَـوْلَا سَـمِـيُّ سُـيُـوفِـهِ وَمَـضَـاؤُهُ
لَـمَّـا سُـلِـلْـنَ لَـكُـنَّ كَـالأَجْـفَـانِ(٤)
خَـاضَ الْـحِـمَـامَ بِـهِـنَّ حَـتَّـى مَـا دَرَى
أَمِـنِ احْـتِـقَـارٍ ذَاكَ أَمْ نِـسْـيَـانِ(٥)

---

(١) و (٢) الأقران، الواحد قِرن: الكفء. ومن الجائز أن يتغلب المرء العاقل بحسن رأيه وفصاحة حجّته على سواه ممن لا يُحسن التفكير في كلّ أموره ويتصرّف بشكل عشوائي، فيبوء بفشل ذريع، وبفضل العقل تميّز المرء من العقلاء على أقوى الأسود مكانة وأشرسها، ولولا ذلك لكان للأسد الضعيف الغلبة لقوّته وشراسته.

(٣) تفاضلوا: اختلفوا بوفور عقولهم. دبرت: رتبت ونظمت. الكماة، الواحد كمي: البطل الشاكي السلاح. العوالي: صدور الرماح. المران: الرماح اللينة. وبفضل العقول، اختلف بنو البشر، وهم متفاوتون باستعمال عقولهم، وهذا طبيعي، لذا كان تصنيفهم بناءً على قدرتهم على الاستفادة ممّا لديهم من عقول تساعدهم على أنجع الوسائل في استعمال السلاح المؤدي إلى النصر.

(٤) يقصد الشاعر بسميّ السيوف الأمير سيف الدولة. المضاء: القطع. سللن: جرّدن من أغمادها. الأجفان، الواحد جفن: الأغماد. يتخلّص الشاعر إلى مدح الأمير، إنه سميّ السيوف، فلولا همّته العالية واجتهاده في أموره لما تمكن من شحذ الهمم، فإذا بالسيوف تُجرّد من أغمادها فتُستعمل بما كانت له، وبذلك جنى ثمرات النصر المبين على عدوّه، وإلّا فإن تلك السيوف ميتة كأغمادها لا تغني عنها شيئاً.

(٥) الحِمام، بكسر الحاء: الموت. الموت بحر متلاطم في حرب لا ترحم، ولا بدّ من سبّاح ماهر لا يخاف ولا يرهب الموت ليخوض غمارها ويصل إلى شاطئ الأمان، وعليه فقد نسي الموت وأسبابه ونتائجه، واستهان بالحياة فكانت له الحياة والنصر المظفّر.

وَسَعَى فَقَصَّرَ عَنْ مَدَاهُ في الْعُلَى
أَهْلُ الزَّمَانِ وَأَهْلُ كُلِّ زَمَانِ[(١)]

تَخِذُوا الْمَجَالِسَ في الْبُيُوتِ وَعِنْدَهُ
أَنَّ السُّرُوجَ مَجَالِسُ الْفِتْيَانِ[(٢)]

وَتَوَهَّمُوا اللَّعِبَ الْوَغَى وَالطَّعْنُ في الْـ
ـهَيْجَاءِ غَيْرُ الطَّعْنِ في الْمَيْدَانِ[(٣)]

قَادَ الْجِيَادَ إِلَى الطِّعَانِ وَلَمْ يَقُدْ
إِلَّا إِلَى الْعَادَاتِ وَالْأَوْطَانِ[(٤)]

كُلُّ ابْنِ سَابِقَةٍ يُغِيرُ بِحُسْنِهِ
في قَلْبِ صَاحِبِهِ عَلَى الْأَحْزَانِ[(٥)]

إِنْ خُلِّيَتْ رُبِطَتْ بِآدَابِ الْوَغَى
فَدُعَاؤُهَا يُغْنِي عَنِ الْأَرْسَانِ[(٦)]

---

(١) و (٢) المدى: الغاية. أهل زمانه: معاصروه. يُتابع الشاعر إشادته بالأمير، لقد خاض مباراة التفوّق، فإذا به يبلغ أعلى مراتب المجد متخطياً معاصريه حتى إنه تخطّى أبناء سائر الأزمنة في الماضي والمستقبل، فكان جلّ همومهم الركون إلى الدعة لا يُكلّفون نفوسهم عناءً، فبيوتهم خير مأوى لهم، أما الأمير فقد أنف من حياة التراخي والكسل ووجد في مجاهدة الأعداء هدفه الأسمى فراح يمتطي فرسه ويُعمل بأعدائه تقتيلاً وبذلك بنى أمجاده.

(٣) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ١٥٠. الوغى والهيجاء: من أسماء الحرب. يُعقّب الشاعر كلامه أن أمثال هؤلاء الملوك كانوا يظنون أن اللعب بالسلاح للترفيه والتسلية ولم يفطنوا أن الحرب هو الموت، وإن انتبهوا إلى هذه الحقيقة فهم بلا شكّ جبناء لا يستحقون عروشهم.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠١. يُنوّه الشاعر بإرادة الأمير؛ فقد تقدّم جيشه بفرسان قد اعتادوا على مجالدة الأعداء، وهم دوماً في مواطنهم حيثما حلّوا؛ فساحات القتال مواطنهم المعتادة.

(٥) سابقة: أي فرس سابقة. ومن سبب تآلف وتواد ينشأ بين الفارس وجواده الذي يمتاز بسرعته الفائقة التي ورثها عن أمه أن الفارس يُداخله سرور لرؤيته فرسه.

(٦) وردت الأبيات الثلاثة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٤. خليت: =

فِـي جَـحْـفَـلٍ سَـتـرَ الْـعُـيُـونَ غُـبـارُهُ
فَـكَـأَنَّـمَـا يُـبْـصِـرْنَ بِـالآذَانِ[١]
يَـرْمِـي بِـهَـا الْـبَـلَـدَ الـبَـعِـيـدَ مُـظَـفَّـرٌ
كُـلُّ الْـبَـعِـيـدِ لَـهُ قَـرِيـبٌ دَانِ[٢]
فَـكَـأَنَّ أَرْجُـلَـهَـا بِـتُـرْبَـةِ مَـنْـبِـجٍ
يَـطْـرَحْـنَ أَيْـدِيَـهَـا بِـحِـصْـنِ الـرَّانِ[٣]
حَـتَّـى عَـبَـرْنَ بِـأَرْسَـنَـاسَ سَـوَابِـحـاً
يَـنْـشُـرْنَ فِـيـهِ عَـمَـائِـمَ الْـفُـرْسَـانِ[٤]
يَـقْـمُـصْـنَ فِـي مِـثْـلِ الْـمُـدَى مِـنْ بَـارِدٍ
يَـذَرُ الـفُـحُـولَ وَهُـنَّ كَـالْـخِـصْـيَـانِ[٥]

= تركت. الوغى: من أسماء الحرب. الأرسان، الواحد رسن: مقود الدابة. يمدح الشاعر جياد الأمير المدرّبة إنها تلتزم بآداب الحروب لمزاولة المعارك ولذا فإنها لا تُبارح أمكنتها إذا تُركت وألمّ بفارسها مكروه وكأنها أُلجمت، فهي ليست بحاجة إلى أرسان تُشدّ بها.

(١) الجحفل: الجيش العرمرم العظيم. يُردف الشاعر وصف تلك الخيول في ميدان القتال، وقد تصاعد الغبار وسدّ الرؤية، فإذا بتلك الجياد تستعيض عن الرؤية بآذانها التي تنصبها مستهدية، فكأنها تبصر بها.

(٢) المظفّر: المنتصر وهو سيف الدولة. يُتابع الشاعر أن تلك الخيول وسيلة من تعوّد على الانتصارات، فهو يُوجهها إلى أماكن بعيدة، فإذا بالمسافات تنضوي لتقرّب النصر لسيف الدولة الصادق العزم والإرادة.

(٣) منبج: من مدن بلاد الشام. الرّان: من حصون الروم. يُنوه الشاعر بشدّة عدو تلك الجياد، إنها تنشط من مرابضها في منبج فتبلغ حصن الران بسرعة البرق، كأنها تطير بخطوة واحدة مختصرة الأبعاد.

(٤) و (٥) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٤. أرسناس: نهر في بلاد الروم يمتاز بشدّة برودة مائه. يتابع الشاعر وصف أعمال تلك الجياد، فقد عبرت نهر أرسناس رغم شدّة برودة مائه، وهنّ يسبحن ممّا يدلّ على شدّة جريان النهر وعمقه، فإذا بعمائم فرسانها تنتشر بسبب رشاش الماء وقوّة جريانه وقوّة الرياح في تلك الأمكنة، وهن يثبن في تلك المياه الشديدة البرودة كأنها سكاكين تُمزّق الأحشاء، لذا فالفحل إذا ما خاض تلك المياه التي تكاد تتجمّد تجمّدت خصيتاه.

وَالْمَاءُ بَيْنَ عَجَاجَتَيْنِ مُخَلِّصٌ
تَتَفَرَّقَانِ بِهِ وَتَلْتَقِيَانِ (١)

رَكَضَ الأَمِيرُ وَكَاللُّجَيْنِ حَبَابُهُ
وَثَنَى الأَعِنَّةَ وَهْوَ كَالعِقْيَانِ (٢)

فَتَلَ الحِبَالَ مِنَ الْغَدَائِرِ فَوْقَهُ
وَبَنَى السَّفِينَ لَهُ مِنَ الصُّلْبَانِ (٣)

وَحَشَاهُ عَادِيَةً بِغَيْرِ قَوَائِمٍ
عُقُمَ الْبُطُونِ حَوَالِكَ الأَلْوَانِ (٤)

تَأْتِي بِمَا سَبَتِ الخُيُولُ كَأَنَّهَا
تَحْتَ الْحِسَانِ مَرَابِضُ الغِزْلَانِ (٥)

---

(١) العجاجة: الغبرة. يصوّر الشاعر خوض الجيش ذلك النهر؛ فالفرق تعبره تباعاً، فثمة فرق تغوص في أعماقه وتنتقل إلى شاطئه الآخر بينما ثمة فرق لا تزال في الشاطئ الأول منه تنتظر دورها في العبور، وليتمّ المشهد فثمة غبار يتصاعد على طرفي النهر، ورغم ابتعاد شطري النهر، فقد التفت الأغبرة لعظم الجيش على اليابسة.

(٢) اللجين: الفضة. الحباب: فقاقيع الماء التي تطفو على سطحه. الأعنة، الواحد عنان: الأرسان. العقيان: الذهب. جرى الهجوم بسرعة عجيبة خاض سيف الدولة بجيشه النهر، فإذا بمياهه نقية فضيّة، وكانت المعركة خاطئة انتصر فيها الأمير، ورجع من حيث أتى، فإذا بالمياه تتخذ اللون الأحمر لكثرة ما أمعن في القوم قتلاً.

(٣) الغدائر، الواحدة غديرة: الخصلة من الشعر، السفين، الواحدة سفينة. إنه انتصار عظيم؛ فالسبايا وفيرة، فإذا بالأمير يجعل ذوائب سباياه حبالاً لسفنه، وأخشاب صلبانهم التي آلت إليه من كنائسهم وأديرتهم جعلها سفنه التي رجع بها عبر النهر.

(٤) حشاه: ملأه. العادية: الراكضة. العقم، الواحد عقيم: من لا يلد. حوالك، الواحدة حالكة: سود. يصف الشاعر إعداد الأمير الجيّد للمعركة لضمان سبل نجاحها؛ فقد دفع بالسفن تجوب خضام عباب النهر، إنها تعدو بلا قوائم، لا تلد، ارتدت لون السواد لأنها كانت مقيّرة، بليت بالقار.

(٥) المرابض، الواحد مربض: مراح الأنعام من إبل وغنم وسواها. يُتابع الشاعر وصف المشهد؛ فالسفن تحوي السبايا اللواتي استحوذ عليهن الفرسان، إنهن على شيء من الجمال كأنهن غزلان، فبدت السفن مرابض لهن.

بَــحْــرٌ تَــعَــوَّدَ أَنْ يُــذِمَّ لِأَهْــلِــهِ
مِــنْ دَهْــرِهِ وَطَــوَارِقِ الْــحِــدْثَــانِ(١)
فَــتَــرَكْــتَــهُ وَإِذَا أَذَمَّ مِــنَ الْــوَرَى
رَاعَــاكَ وَاسْــتَــثْــنَــى بَــنِــي حَــمْــدَانِ(٢)
الْــمُــخْــفِــرِيــنَ بِــكُــلِّ أَبْــيَــضَ صَــارِمٍ
ذِمَــمَ الــدُّرُوعِ عَــلَــى ذَوِي الــتِّــيــجَــانِ(٣)
مُــتَــصَــعْــلِــكِــيــنَ عَــلَــى كَــثَــافَــةِ مُــلْــكِــهِــمْ
مُــتَــوَاضِــعِــيــنَ عَــلَــى عَــظِــيــمِ الــشَّــانِ(٤)
يَــتَــقَــيَّــلُــونَ ظِــلَالَ كُــلِّ مُــطَــهَّــمٍ
أَجَــلِ الــظَّــلِــيــمِ وَرِبْــقَــةِ الــسِّــرْحَــانِ(٥)

---

(١) و (٢) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٤. أذمّ: أجار. الحدثان: مصائب الدهر ونوائبه. الورى: البشر. بنو حمدان: عشيرة الأمير. يتحدث الشاعر عن النهر مخاطباً الأمير بأن النهر كان يذود عن عدوّه ويمنعهم من عاديات الزمان حتى أتاه سيف الدولة فإذا به يتخلى عن ذمامه ويرحب بجيش الأمير وعشيرته مستثنياً سواه من ذلك.

(٣) المخفرين: الحامين المجيرين. الأبيض: السيف. وأخفر: انتهك حرمة وذمّة. الصارم: السيف القاطع. يُعرّج الشاعر على مدح الحمدانيين؛ فبسيوفهم ينتهكون ذمم الملوك رغم اتّقائهم بدروعهم وجنودهم فيستبيحون ذممهم ويقتلونهم، فلا تنفعهم ولا تُغني عنهم شيئاً.

(٤) المتصعلكين: الذين يتّخذون في حياتهم عيش الصعاليك. كثافة ملكهم: عظمته وأبّهته. يتغنّى الشاعر ببني حمدان، إنهم يمتازون ببساطة حياتهم، يتواضعون لمواطنيهم كرم خلق وحبّ تواضع، رغم عظمة ملكهم وأبّهته، وأما في حروبهم فهم صعاليك أشداء على أعدائهم يخوضون الحروب ويستهينون بكل شيء في سبيل إعلاء شأنهم ونباهة ذكرهم.

(٥) التقيل: النوم في القيلولة عند الظهيرة. المطهّم: الحسن التام الخلق من الخيول. الأجل: الحين. الظليم: ذكر النعام. الربقة: العروة في حبل يُشدّ بها. السرحان: الذئب. يُتابع الشاعر مدح آل الأمير، إنهم أعراب في سلوكهم؛ فهم إذا كانوا في =

خَـضَـعَـتْ لِـمُـنْـصُـلِـكَ الـمَـنَـاصِـلُ عَـنْـوَةً
وَأَذَلَّ دِيــــنُــــكَ سَــــائِــــرَ الأَدْيَــــانِ(١)
وَعَـلَـى الـدُّرُوبِ وَفِـي الـرُّجُـوعِ غَـضَـاضَـةٌ
وَالــسَّــيْــرُ مُـمْـتَـنِـعٌ مِـنَ الإِمْـكَـانِ(٢)
وَالـطُّـرْقُ ضَـيِّـقَـةُ الـمَـسَـالِـكِ بِـالْـقَـنَـا
وَالـكُـفْـرُ مُـجْـتَـمِـعٌ عَـلَـى الإِيـمَـانِ(٣)
نَـظَـرُوا إِلَـى زُبَـرِ الـحَـدِيـدِ كَـأَنَّـمَـا
يَـصْـعَـدْنَ بَـيْـنَ مَـنَـاكِـبِ الـعِـقْـبَـانِ(٤)
وَفَـوَارِسٍ يُـحْـيِـي الْـحِـمَـامُ نُـفُـوسَـهَـا
فَـكَـأَنَّـهَـا لَـيْـسَـتْ مِـنَ الـحَـيَـوَانِ(٥)

= غزو أو صيد عمدوا إلى ظلال خيولهم المطهّمة يتفيّأون بها ويقيلون إذا اشتدّ الهجر وبواسطتها يُطاردون الظليم والذئب، فيكون ذلك إيذاناً بموتهما وهلاكهما.

(١) المنصل: السيف. عنوة: غصباً. يُخاطب الشاعر الأمير، فقد استطاع أن يُذلّ كلّ جبار عنيد يعتدّ بقوته رغماً عنه، كما أن دين الأمير قد أذلّ سائر الأديان فقهرها وكشف عوارها وضعفها.

(٢) و (٣) الدروب، الواحد درب: المداخل إلى بلاد الروم. الغضاضة: الذلّة. القنا: الرماح. يصف الشاعر تصادم جيوش الإيمان وجيوش الكفر، لقد تجمهر المسلمون وهم يهمّون بالتوغّل في بلاد الأعداء، إذ بالجموع الغفيرة لجيوش الأعداء الكثيرة المزدحمة تُغلق الدروب دون جيوش الأمير، وهم بين أمرين: إما الانسحاب والعودة من حيث أتَوْا والتقهقر وإما مقارعة الأعداء في أراضيهم؛ فالتراجع والانسحاب من المعركة معناه كسر شوكة جيش الأمير، فكان أن رفعوا سيوفهم وشرّعوا رماحهم، إنها معركة ضدّ الكفر.

(٤) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٤. الزبر، الواحدة زبرة: القطعة من الحديد، قصد بذلك سيوفهم. العقبان، الواحد عُقاب: من جوارح الطير. إنها نظرات متبادلة بين المسلمين والكفّار، وفجأة كانت سيوف المسلمين قد ارتفعت إيذاناً ببدء المعركة، إنهم فرسان قد تسربلوا بالحديد يمتطون خيولاً كأنها عقبان تنقض على فرائسها بسرعة وخفّة حركة.

(٥) الحمام، بكسر الحاء: الموت. نظر الروم نظر تفحّص، فأيقنوا أنهم أمام جنود وطّنوا =

مَـا زِلْـتَ تَـضْـرِبُـهُـمْ دِرَاكـاً فـي الـذُّرَى
ضَـرْبـاً كَـأَنَّ الـسَّـيْـفَ فِـيـهِ اثْـنَـانِ(١)

خَـصَّ الْـجَـمَـاجِـمَ وَالْـوُجُـوهَ كَـأَنَّـمَـا
جَـاءَتْ إِلَـيْـكَ جُـسُـومُـهُـمْ بِـأَمَـانِ(٢)

فَـرَمَـوْا بِـمَـا يَـرْمُـونَ عَـنْـهُ وَأَدْبَـرُوا
يَـطَـأُونَ كُـلَّ حَـنِـيَّـةٍ مِـرْنَـانِ(٣)

يَـغْـشَـاهُـمُ مَـطَـرُ الـسَّـحَـابِ مُـفَـصَّـلاً
بِـمُـثَـقَّـفٍ وَمُـهَـنَّـدٍ وَسِـنَـانِ(٤)

حُـرِمُـوا الَّـذِي أَمَـلُـوا وَأَدْرَكَ مِـنْـهُـمُ
آمَـالَـهُ مَـنْ عَـادَ بِـالْـحِـرْمَـانِ(٥)

= نفوسهم على الموت أو النصر؛ إنهم حقيقة من طينة بشرية رفيعة، فليسوا ممّن يرتمي على الموت بغباء، كالمتهوّرين أو كالحيوانات.

(١) و (٢) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٥. الدراك: المتابعة. الذرى، الواحدة ذروة: أعلى كل شيء. الجماجم، الواحدة جمجمة: عظم الرأس حيث يوجد الدماغ. يُخاطب الشاعر الأمير مثنياً على حسن فعاله، إنه باشر الفتك بالأعداء يُمعن فيهم قتلاً متتابعاً قاصداً رؤوسهم، فكأن السيف سيفان لتوالي الضربات وسرعتها، فكان التركيز على الرؤوس حيث المركز الرئيسي الدماغ وبشلّ الدماغ لدى العدوّ يسهل سلبه حياته.

(٣) و (٤) أدبروا: ولوا هاربين. الحنية: القوس. المرنان: الكثيرة الرنين. دبّ الرعب في قلوب الرماة من الأعداء، فإذا بهم يتخلّون عن قسيهم فيرمون نبالهم ويدوسونها بأرجلهم وهم يُولون الأدبار، فكان جزاؤهم قتلاً ذريعاً، مطر سحابه يفيض دماً، فتناولتهم الرماح والسيوف وأسنّة الرماح تُمعن فيهم قتلاً وتقطيعاً.

(٥) يروى «عاذ» بالذال بدلاً من «عاد». لقد كانوا يأملون أن ينالوا من الأمير هزيمة وقتلاً، فإذا بالدائرة تدور عليهم وينتهي أمرهم إلى النكال، ومن عاذ منهم ببيته ولجأ إليه فقد أدرك أمنيته فبقي على قيد الحياة، ومن أفلت من المعركة قبل اشتدادها فقد حفظ على نفسه حياته.

وَإِذَا الـرِّمَـاحُ شَـغَـلْـنَ مُـهْـجَـةَ ثَـائِـرٍ
شَـغَـلَـتْـهُ مُـهْـجَـتُـهُ عَـنِ الإِخْـوَانِ (١)
هَـيْـهَـاتَ عَـاقَ عَـنِ الْـعِـوَادِ قَـوَاضِـبٌ
كَـثُـرَ الْـقَـتِـيـلُ بِـهَـا وَقَـلَّ الْـعَـانِـي (٢)
وَمُـهَـذَّبٌ أَمَـرَ الْـمَـنَـايَـا فِـيـهِـمِ
فَـأَطَـعْـنَـهُ فِـي طَـاعَـةِ الـرَّحْـمٰـنِ (٣)
قَـدْ سَـوَّدَتْ شَـجَـرَ الْـجِـبَـالِ شُـعُـورُهُـمْ
فَـكَـأَنَّ فِـيـهِ مُـسِـفَّـةَ الْـغِـرْبَـانِ (٤)
وَجَـرَى عَـلَـى الْـوَرَقِ الـنَّـجِـيـعُ الْـقَـانِـي
فَـكَـأَنَّـهُ الـنَّـارَنْـجُ فِـي الأَغْـصَـانِ (٥)

---

(١) المهجة: الروح. الثائر: طالب الدم. يأتي الشاعر بحكمة مصوّراً حال الروم، والهزيمة تحيق بهم، فكلّ واحد منهم همّته نفسه يعمل على حمايتها بأيّ شكل، وفي زحمة الصراع ينسى ما حوله حتى السبب الذي من أجله دُعي إليه لخوض المعركة، فإذا به يتخلّى عن الأصحاب والأحباب.

(٢) هيهات: اسم فعل ماض بمعنى بعد. العواد: الرجوع. القواضب: السيوف القاطعة. العاني: الأسير. يُتابع الشاعر حال القوم، وهم في هرج ومرج، لقد حاولوا الرجوع إلى ميدان المعركة ولكن حال دون أمانيهم سيوف قاطعة، فامتلأت الأرض بجثث القتلى، ونظرة عجلى كشفت لهم حقيقة الأمر، فمعظم جند العدو وقعوا صرعى أو جرحى، والقلة كانت في عداد الأسرى.

(٣) المنايا، الواحدة منية: الموت. لقد حال دون رجوع القوم إلى ميدان المعركة مهذب سيفه لا يردّ قضاءه مخلوق، إنه سيف الدولة، ذلك المدافع عن حمى بلاد الرحمن طاعة لإرادته وابتغاء مرضاته.

(٤) المسفة: الذي كاد يلامس الأرض في طيرانه من الطيور. يرسم الشاعر صورة حزينة لما حلّ بالقوم، تكاثر القتل فيهم، وتطايرت شعورهم السوداء، فإذا بها تغطّي الأشجار التي تكلّل ذلك الجبل. والمعلوم أن الروم كانوا شقراً!

(٥) النجيع: الدم. القاني: الشديد الحمرة. يُتمّ الشاعر رسم الصورة، فقد كلّل السواد الأشجار، والحمرة قد غطّت أوراق الأشجار لما جرى عليها من دماء القتلى، وبدت كأنها النارنج على الأغصان.

إنَّ السُّيُوفَ مَعَ الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ
كَقُلُوبِهِنَّ إذَا الْتَقَى الْجَمْعَانِ (١)
تَلْقَى الْحُسَامَ عَلَى جَرَاءَةِ حَدِّهِ
مِثْلَ الْجَبَانِ بِكَفِّ كُلِّ جَبَانِ (٢)
رَفَعَتْ بِكَ الْعَرَبُ الْعِمَادَ وَصَيَّرَتْ
قِمَمَ الْمُلُوكِ مَوَاقِدَ النِّيرَانِ (٣)
أَنْسَابُ فَخْرِهِم إلَيْكَ وَإنَّمَا
أَنْسَابُ أَصْلِهِم إلَى عَدْنَانِ (٤)
يَا مَنْ يُقَتِّلُ مَنْ أَرَادَ بِسَيْفِهِ
أَصْبَحْتُ مِنْ قَتْلَاكَ بِالإِحْسَانِ (٥)
فَإذَا رَأَيْتُكَ حَارَ دُونَكَ نَاظِرِي
وَإذَا مَدَحْتُكَ حَارَ فِيكَ لِسَانِي (٦)

---

(١) يردف الشاعر حكمة، مفادها أن الأقوياء تتوافق ألوان قلوبهم مع ألوان سيوفهم، فيكون اللون الأحمر سمة مشتركة بين الفريقين في المعارك، فالعزيمة والصدق في القتال يجعل السيوف تكتمل بالمضاء وقوة عزم المقاتلين.

(٢) الحسام: السيف البتّار، يرى الشاعر أن السيف أداة لإبراز قوّة حامله وشجاعته، فبقدر شجاعته يكون مضاء السيف، لذا فالجبان سيفه على شاكلته لا يغني عنه شيئاً ولا يُحامي بدلاً عنه، فيبدو كليلاً ضعيفاً.

(٣) العماد الواحد عمادة: الأبنية الرفيعة. القمم: الرؤوس. المواقد، الواحد موقد. يخاطب الشاعر الأمير، فبه نبه صيت العرب وارتفع بناء مجدهم فإذا بهم يجعلون رؤوس الملوك أثافي لمواقدهم إمعاناً بإذلالهم لإخضاعهم لإرادة الأمير.

(٤) فالعرب ينتسبون إلى الأمير، إنه سرّ عظمتهم وحقل فخرهم الذي يجتنون منه ثمار أمجادهم، والكلّ يعودون إلى عدنان جدّهم الأعلى، مما يدلّ على تاريخ عريق في السؤدد والعظمة.

(٥) يخاطب الشاعر ممدوحه، إنه يقتل بسيفه من أراد، ولقد أغدق على الشاعر إحساناً وجوداً عظيماً فأحياه، فجعله مستعبداً يغمره خير الأمير ورفده، فكان موته موت حياة وسعادة.

(٦) يُعبّر الشاعر عن حيرته ودهشته لدى رؤية الأمير فإذا بلسانه يعجز عن إبداء إعجابه به وذكر امتنانه له.

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

اتصل بأبي الطيب أن قوماً نعوه في مجلس سيف الدولة بحلب فقال ولم ينشدها كافوراً:

[البسيط]

بِـــمَ الـــتَّـــعَـــلُّـــلُ لَا أَهْـــلٌ وَلَا وَطَـــنُ
وَلَا نَـــدِيـــمٌ وَلَا كَـــأْسٌ وَلَا سَـــكَـــنُ(١)

أُرِيـــدُ مِـــنْ زَمَـــنِـــي ذَا أَنْ يُـــبَـــلِّـــغَـــنِـــي
مَـا لَـيْـسَ يَـبْـلُـغُـهُ مِـنْ نَـفْـسِـهِ الـزَّمَـنُ(٢)

لَا تَـلْـقَ دَهْـرَكَ إِلَّا غَـيْـرَ مُـكْـتَـرِثٍ
مَـا دَامَ يَـصْـحَـبُ فِـيـهِ رُوحَـكَ الْـبَـدَنُ(٣)

فَـمَـا يَـدِيـمُ سُـرُورٌ مَـا سُـرِرْتَ بِـهِ
وَلَا يَـرُدُّ عَـلَـيْـكَ الْـفَـائِـتَ الْـحَـزَنُ(٤)

---

(١) التعلّل بالشيء: التلهي به. السكن: الصديق تسكن إليه وتأنس به. يبدأ الشاعر قصيدته، وملء قلبه الأسى، وهو في غربة قاتلة، بعيداً عن الوطن وادي ملعب طفولته وموئل شبابه، وبعيداً عن الأهل الذين يشعرون بشعوره، يفرحون لفرحه ويتألمون لألمه ويبكون لبكائه، حتى المنادم قد افتقده، فلمن يشكو ما به من لوعة وحزن؟ حتى المسكن الذي يسكنه بارد لا حرارة فيه، فلا صديق ولا خليل يعرّي نفسه أمامه، فيكشف عن ألم نفسه بلا خوف وبلا رقيب يُحصي عليه سكناته وهمساته. لقد انعدمت كلّ وسائل اللهو والمرح.

(٢) إن الشاعر يتمتّع بقوّة شحن من الأماني والأحلام بحيث لا يقدر الزمان على تلبية رغبته، والزمن بدوره لا يستطيع فعل شيء لأنه سبيل رغم تحوّله وتبدّل أحواله، فهو عاجز عن تغيير مجراه لأنه مفطور على سنن وقوانين فطره اللّه تعالى عليها.

(٣) و (٤) يخاطب الشاعر نفسه، وهو يعزم على ألّا يهتمّ بالزمن فعلى المرء ألّا يكترث لنوائب الدهر، فسرعان ما تزول وتختفي آثارها؛ فالمهم بقاء روح تدبّ في الإنسان وتجعله قادراً على الكفاح والنضال. والسرور حالة وهمية يزول بزوال أسبابه والحزن على ما فات لا يُرجعه، لذا فعلى الإنسان ألّا يتأثر بطوارق الزمان ومفاجآته، فسرعان ما تتبدّل الأحوال. يحاول الشاعر أن يشدّد من عزيمته ختى يكون له ما أراد تحقيقه في عمره.

مِـمَّـا أضَـرَّ بِـأَهْـلِ الْـعِـشْـقِ أَنَّـهُـمُ
هَـوُوا وَمَـا عَـرَفُـوا الـدُّنْـيَـا وَمَـا فَـطِـنُـوا(١)

تَـفْـنَـى عُـيُـونُـهُـمُ دَمْـعـاً وَأنْـفُـسُـهُـمْ
فـي إثْـرِ كُـلِّ قَـبـيـحٍ وَجْـهُـهُ حَـسَـنُ(٢)

تَـحَـمَّـلُـوا حَـمَـلَـتْـكُـمْ كُـلُّ نَـاجِـيَـةٍ
فَـكُـلُّ بَـيْـنٍ عَـلَـيَّ الـيَـوْمَ مُـؤْتَـمَـنُ(٣)

مَـا فِـي هَـوَادِجِـكُـمْ مِـنْ مُـهْـجَـتِـي عِـوَضٌ
إنْ مُـتُّ شَـوْقـاً وَلَا فِـيـهَـا لَـهَـا ثَـمَـنُ(٤)

يَـا مَـنْ نُـعِـيـتُ عَـلَـى بُـعْـدٍ بِـمَـجْـلِـسِـهِ
كُـلٌّ بِـمَـا زَعَـمَ الـنَّـاعُـونَ مُـرْتَـهَـنُ(٥)

---

(١) فطنوا: انتبهوا وتذكروا. يرى الشاعر أن من أولع من بني البشر بشيء وكرّس له حياته وأفنى نفسه من أجل ذلك فقد كان مخطئاً، لأنه لو أدرك ما عليه الدهر والبشر من غدر وما يكتمون في نفوسهم من مكر لبعضهم البعض، لما أفنى عمره عبثاً في محاولات لا طائلة منها لفشلها في تحقيق أغلى أمانيه في الخلود والعظمة.

(٢) فالمحبون يسكبون دموعهم ويُفنون أنفسهم في سبيل من لا يقدر فيهم شفافية الأحاسيس ونبل العواطف، فأولئك قد استمدوا قوتهم وبالتالي قسوتهم بما تمتّعوا به من جمال المنظر وقبح المخبر، من خلق مستكره.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٣. تحملوا: ارتحلوا. الناجية: الناقة السريعة. البين: الفراق. يُعلن الشاعر الطلاق بينه وبين سائر البشر طالباً منهم الرحيل والبعد عنه، فقد آلمه نكرانهم له وتجنّيهم عليه، لذا يتمنى البعد عنهم ليتخلّص من مكرهم وزيفهم، فيعيش آمناً منهم ومن كيدهم.

(٤) الهوادج، الواحد هودج: مراكب النسوة. المهجة: الروح. الشوق: شدّة الحبّ. يتابع الشاعر مندّداً بهم: إنهم لا يستحقّون دمعة حزينة على فراقهم، فليحملوا معهم كلّ شيء وليتركوا له مهجته، التي بها حياته وحياته عزيزة عليه، لن يتخلّى عنها مهما تكن الأسباب، إنها أغلى أمانة على قلبه.

(٥) نعى: أعلن موت أحد الناس. يُخاطب الشاعر سيف الدولة وقد وصله إذاعة شائعة كاذبة أن الشاعر قد توفّي، ولم تكن المرة الأولى التي ينعى فيها خبر موته، وهو في كلّ مرة يموت ثم ينبعث حيًّا، لذا فلا يفرح أحد بنعي، فكأس الموت دوّار.

كَـمْ قَـدْ قُـتِـلْـتُ وَكَـمْ قَـدْ مُـتُّ عِـنْـدَكُـمُ
ثُـمَّ انْـتَـفَـضْـتُ فَـزَالَ الْـقَـبْـرُ وَالْـكَـفَـنُ (١)

قَـدْ كَـانَ شَـاهَـدَ دَفْـنِـي قَـبْـلَ قَـوْلِـهِـم
جَـمَـاعَـةٌ ثُـمَّ مَـاتُـوا قَـبْـلَ مَـنْ دَفَـنُـوا (٢)

مَـا كُـلُّ مَـا يَـتَـمَـنَّـى الْـمَـرْءُ يُـدْرِكُـهُ
تَـجْـرِي الـرِّيَـاحُ بِـمَـا لَا تَـشْـتَـهِـي الـسُّـفُـنُ (٣)

رَأَيْـتُـكُـمْ لَا يَـصُـونُ الْـعِـرْضَ جَـارُكُـمُ
وَلَا يَـدِرُّ عَـلَـى مَـرْعَـاكُـمُ الـلَّـبَـنُ (٤)

جَـزَاءُ كُـلِّ قَـرِيـبٍ مِـنْـكُـمُ مَـلَـلٌ
وَحَـظُّ كُـلِّ مُـحِـبٍّ مِـنْـكُـمُ ضَـغَـنُ (٥)

وَتَـغْـضَـبُـونَ عَـلَـى مَـنْ نَـالَ رِفْـدَكُـمُ
حَـتَّـى يُـعَـاقِـبَـهُ الـتَّـنْـغِـيـصُ وَالْـمِـنَـنُ (٦)

---

(١) يرد الشاعر أن أمر النعيّ ليس جديداً، فلطالما نُعي ولطالما مات، وفي كلّ مرة يبعث حيًّا، فإذا بالقبر ينفرج عن مارد يُمزّق الأكفان عنه معلناً تجدّد الحياة في برديه.

(٢) إنها سخرية القدر فثمّة من شاهد واقعة دفن الشاعر، فإذا به يكفّن ويُدفن قبله، وها هو يسخر منهم ومن إشاعاتهم وافتراءاتهم.

(٣) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ١٨٦، مغني اللبيب لابن هشام وشرح شواهده، للسيوطي: ٢٠٠، معاهد التنصيص، للعباسي ١: ٥٢. ثمة من يُضمر الشرّ ويتمنّى الموت للشاعر، فإذا بهم يعودون بالخيبة والخسران، فالبشر تمخر بهم سفينة الحياة ويتمنّون سيرها وفق إرادتهم فإذا بالرياح تأتي عاتية فتغيّر مجرى سيرها، وتنقلب بهم فيبتلعهم اليمّ فيُصبحون من الهالكين.

(٤) و (٥) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٨. يصون: يحفظ ويرعى. العرض: ما يمدح فيه المرء أو يُذمّ. الضعن: الكراهية والحقد. يُندّد الشاعر بسيف الدولة، فجاره تُنتهك محارمه ويُداس عرضه ويلوّث شرفه، والخير في دياره لا يُثير خيراً، بل بالعكس فمراعيه لا تنتج لبناً صافياً بل هو ممزوج بالكراهية والحقد؛ فالقريب المحبّ للأمير جزاؤه الإهمال والملل من جانب الأمير ولا يلقى سوى الحقد الممزوج بالتمرّد والتكبّر والإجحاف بحقّ الآخرين.

(٦) وردت الأبيات الثلاثة المتتالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٩. الرفد: =

فَـغَـادَرَ الْـهَـجْـرُ مَـا بَـيْـنِـي وَبَـيْـنَـكُـمُ
يَـهْـمَـاءَ تَـكْـذِبُ فِـيـهَـا الْـعَـيْـنُ وَالْأُذُنُ (١)

تَـحْـبُـو الـرَّوَاسِـمُ مِـنْ بَـعْـدِ الـرَّسِـيـمِ بِـهَـا
وَتَـسْـأَلُ الْأَرْضَ عَـنْ أَخْـفَـافِـهَـا الـثَّـفِـنُ (٢)

إِنِّـي أُصَـاحِـبُ حِـلْـمِـي وَهْـوَ بِـي كَـرَمٌ
وَلَا أُصَـاحِـبُ حِـلْـمِـي وَهْـوَ بِـي جُـبُـنُ (٣)

وَلَا أُقِـيـمُ عَـلَـى مَـالٍ أَذِلُّ بِـهِ
وَلَا أَلَـذُّ بِـمَـا عِـرْضِـي بِـهِ دَرِنُ (٤)

= العطاء. التنغيص: تكدير العيش. المنن، الواحدة منة: التذكير بفضائل المنعم على المنعَم عليه. يُردف الشاعر تقريعه لسيف الدولة، فما تفضّل له به لم يخلص من تكديره بذكر تلك الفضائل دائماً، فكأنه تقريع وتسميم لنبل العطاء. أين الإشادة بجود الأمير وذكر فضائله هل كان الشاعر محرفاً للحقائق؟ أم أن ذلك عادة شعراء التكسب في التزيد في سيل المدائح؟!

(١) اليهماء: الأرض التي لا يهتدى فيها لكثرة مخاوفها. يدعو الشاعر متمنياً أن تترامى المسافات بينه وبين سيف الدولة في أرض فلاة يضيع فيها السالكون فلا يهتدون فيها إلى منافذ الرجاء كثيرة المخاوف حيث تتراقص الأشباح فتُكذّب العيون ما ترى والآذان ما يخيّل لها أنها تسمع.

(٢) تحبو: تمشي زحفاً على يديها ورجليها. الرواسم: الإبل التي تمشي. الرسيم: ضرب من السير السريع. الثفن، الواحدة ثفنة: ما يمس الأرض من أعضاء البعير إذا برك. يُتابع الشاعر وصف الحالة التي عليها تلك اليهماء، تتسع وتمتدّ آفاقها حتى إن الإبل الرواسم تتآكل أخفافها لشدّة السير وصعوبته، فإذا بها تستعيض عن ذلك بالحبو فتزحف على يديها ورجليها فلا تصل إلى طريق النجاة.

(٣) يفتخر الشاعر بأنه حليم كريم الخلق يعفو عن المسيء لقدرته عليه، فإذا اعتقد عدوّه أن ذلك جبن منه، انتفضت كرامته من غفوتها، فكانت ردّة فعله عنيفة، لا ترحم.

(٤) الدّرن: الوسخ. يُردف الشاعر منوّهاً بأنفته أنه لا يقبل بمال يجرّ عليه ذلّاً ومهانة، فهو على استعداد لتركه، لأنه ليس بحاجة إليه على حساب كرامته، لذا فإنه لا يستطيب شيئاً يشوّه عرضه ويلطخه درنه، فهو حريص على نقاء وطهارة ذيله من كلّ ما يُدنّسه.

سَهِرْتُ بَعْدَ رَحِيلِي وَحْشَةً لَكُمُ
ثُمَّ اسْتَمَرَّ مَرِيرِي وارْعَوَى الْوَسَنُ(١)
وَإِنْ بُلِيتُ بِوُدٍّ مِثْلِ وُدِّكُمُ
فَإِنَّنِي بِفِرَاقٍ مِثْلِهِ قَمِنُ(٢)
أَبْلَى الأَجِلَّةَ مُهْرِي عِنْدَ غَيْرِكُمُ
وَبُدِّلَ الْعُذْرُ بِٱلْفُسْطَاطِ وَالرَّسَنُ(٣)
عِنْدَ الْهُمَامِ أَبِي الْمِسْكِ الَّذِي غَرِقَتْ
فِي جُودِهِ مُضَرُ الْحَمْرَاءِ وَالْيَمَنُ(٤)
وَإِنْ تَأَخَّرَ عَنِّي بَعْضُ مَوْعِدِهِ
فَمَا تَأَخَّرُ آمَالِي وَلَا تَهِنُ(٥)

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٩. استمرّ مريري: قويت بعد ضعف ألمّ بي. ارعوى: ارتدع. الوسن: النعاس. يُخاطب الشاعر سيف الدولة، لقد عانى الأمرين جرّاء ترك بلاط الأمير حيث الاستقرار والأمن، فدبّ فيه الوهن ولكنه عاد فتماسك وقوي بعد ضعف فإذا به ينام ملء عينيه لا يُقلقه همّ وتسهيد، ومع مرور الزمن نسي جراحات نفسه.

(٢) قمن: جدير. يُردف الشاعر أنه لن يستكين لضعف ينال من عزيمته، إنه الآن في كنف ممدوح جديد، فإن ناله منه ما ناله من الأمير، فإنه لن يستكين في كنفه، وسيرحل عنه ذات يوم غير آسف، وفي مقالته هذه تهديد مبطّن لكافور، وهو قادر على ذلك.

(٣) الأجلّة، الواحد جلال: لباس الدابة. العذر، الواحد عذار: ما سال على خدّ الحصان من اللجام. الفسطاط: مصر القديمة. الرسن: الحبل. يفخر الشاعر بما لقيه من تكريم في كنف كافور، حتى إنه أبلى جلال فرسه وعذره ورسنه فأبدلها بغيرها. فدلّ على تقادم عهده في رعاية كافور له. يبدو أن الشاعر متمرد دائماً لا يثبت على ودّ، مهما لقي من تكريم، فلا بدّ له من الانقضاض على ضحيّة خالفت ما يأمله منها من تكريم واحترام في نظره.

(٤) الهمام: الملك العظيم. يمدح الشاعر كافوراً إمعاناً بالكيد للأمير فكافور بحر يغوص فيه من يبغي الغنى لكرمه وجوده، فلقد غاصت في كرمه مضر الحمراء ووصل رفده إلى بلاد اليمن، يُنعم بماله ولا يسأل عوضاً.

(٥) يروى «بعض نائله» بدلاً من «بعض موعده». تهن: تضعف. يُنوّه الشاعر بكرم =

هُـــوَ الْـــوَفِـــيُّ وَلٰـــكِـــنِّـــي ذَكَـــرْتُ لَـــهُ
مَـــوَدَّةً فَـــهْـــوَ يَـــبْـــلُـــوهَـــا وَيَـــمْـــتَـــحِـــنُ[(١)]

وإذا لم يكن من الموت بد

ومما قال بمصر ولم ينشدها الأسود ولم يذكره فيها:

[الخفيف]

صَـحِـبَ الـنَّـاسُ قَـبْـلَـنَـا ذَا الـزَّمَـانَـا
وَعَـنَـاهُـمْ مِـنْ شَـأْنِـهِ مَـا عَـنَـانَـا[(٢)]
وَتَـوَلَّـوْا بِـغُـصَّـةٍ كُـلُّـهُـمْ مِـنْـ
ـهُ وَإِنْ سَـرَّ بَـعْـضَـهُـمْ أَحْـيَـانَـا[(٣)]
رُبَّـمَـا تُـحْـسِـنُ الـصَّـنِـيـعَ لَـيَـالِـيـ
ـهِ وَلٰـكِـنْ تُـكَـدِّرُ الْإِحْـسَـانَـا[(٤)]

= كافور، فهو يُسارع بعطاياه، فيزيده منها فوق ما يأمل منه، لذا فأمله به كبير أن يُلبي مبتغاه ولا يتأخر في ما وعده بإنجازه ذات يوم، إنه يلمّح بوعده بولاية من قبل كافور.

(١) يبلوها: يختبرها. يُحاول الشاعر أن يُمني نفسه بأن يفي كافور بوعده ذات يوم، والتأخير من قبله بمثابة امتحان لصبر الشاعر حتى ينال جائزته وأمنيّته.

(٢) عنانا: أهمّنا. يبدأ الشاعر قصيدته ناعياً على البشر تكالبهم على الحياة، إنهم من لحم ودم، وإن اختلفت مشاربهم وآراؤهم وعقولهم فثمة همّ يعنيهم يتمحور حول توفّر حياة كريمة قدر الطاقة وتبعاً للظروف، وعلاقتهم مع الزمان علاقة صراع يتمحور حول النصر والهزيمة والحبّ والبغض و... و...

(٣) تولّوا: رحلوا. الغصّة: الشعور بالألم والحزن. يُردف الشاعر أن المرء قد يُصادف لحظات فرح وسرور، ولكن سرعان ما تمضي تلك السانحات لتخلّف المرارة في نفس المرء فيئن الرحيل دون سابق إنذار فيخرج من أتون الحياة إلى رحاب الموت خالي الوفاض والحسرة غصّة في الحلق.. إنها نظرة متشائمة لتوالي النكبات على الشاعر.

(٤) يُعقّب الشاعر ناعياً على الدهر تقلّبه وعدم استمراره على نهج واحد فهو قد يُوافي المرء بما يسعده فيُفرح ولكن سرعان ما يقلب له ظهر المحن فيبتليه بما يُحزنه ويُؤلمه فيكدّر ما قدّم من حسنات فإذا بها تسوء وقد صبغت بالألم والعذاب.

وَكَأَنّا لَمْ يَرْضَ فِينَا بِرَيْبِ الـ
دّهْرِ حَتّى أَعَانَهُ مَنْ أَعَانَا(١)

كُلّمَا أَنْبَتَ الزّمَانُ قَنَاةً
رَكّبَ الْمَرْءُ فِي الْقَنَاةِ سِنَانَا(٢)

وَمُرَادُ النّفُوسِ أَصْغَرُ مِنْ أَنْ
تَتَعَادَى فِيهِ وَأَنْ تَتَفَانَى(٣)

غَيْرَ أَنَّ الْفَتَى يُلَاقِي الْمَنَايَا
كَالِحَاتٍ وَلَا يُلَاقِي الْهَوَانَا(٤)

وَلَوَ انّ الْحَيَاةَ تَبْقَى لِحَيٍّ
لَعَدَدْنَا أَضَلَّنَا الشُّجْعَانَا(٥)

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدٌّ
فَمِنَ الْعَجْزِ أَنْ تَكُونَ جَبَانَا(٦)

---

(١) ريب الدهر: مصائبه وويلاته. يرى الشاعر أن يُوفر أسباب التعاسة والأحزان، فيتوفّر إنسان ليُحققها في من جرت عليه الأقدار، فيكيد لمن قدّرت عليه النكبة والمصيبة، وبذلك تجتمع إرادة الخلق مع إرادة الخالق سبحانه في من قدّر عليه العذاب.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٣. القناة: عود الرمح. السنان: زجه الذي يُطعن به. كلّ ما أوجده اللّه تعالى كان لصالح البشر، ولكن بعضهم لما ركّب فيه من سوء النيّة ولؤم الطبع، فإذا به يستعمل ما هو في الأصل لمصلحة البشر لقتلهم وتدميرهم في عالم الحروب المدمّرة، فالرمح في الأصل نبت خير والسنان كأداة حديدية وُجدت لمصلحة بني الإنسان، ولكن ذكاءً مدمراً حول منابع الخير إلى وسائل قضاء على البشر.

(٣) إنها دعوة لتحكيم عقول البشر في ما يعود عليهم بالنفع والسلم بينهم، فالتعادي والتفاني بسبب طمع يزول بزوال الموت فالبشر يتعادَوْن ويتفانون وراء حطام زائل بدوره، فلا يبقى سوى الندم والحسرات تأكل البشر ندماً وحزناً.

(٤) المنايا، الواحدة منيّة. كالحات: عابسات. يرى الشاعر أن الكرامة الإنسانية والعنفوان الكريم تدفع المرء إلى مواجهة الموت ببسالة، ولو كان ذلك من أسباب فنائه، فخير لمن تمتّع بشيء من الكرامة أن يُضحي من أجلها في سبيل إعلائها كمثل نبيلة إنسانية رفيعة.

(٥) و (٦) ورد البيت التالي في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٣. يرى الشاعر أن الفناء والعدم مصير كلّ حيّ، فلا بقاء لمخلوق يحمل في ذاته الموت، والموت حقّ =

كُـلُّ مَـا لَـمْ يَـكُـنْ مِـنَ الـصَّـعْـبِ فـي الأَنْـ
فُـسِ سَـهْـلٌ فِـيـهَـا إِذَا هُـوَ كَـانَـا[١]

جدك طعان بغير سنان

يذكر قيام شبيب العقيلي على الأستاذ كافور وقتله بدمشق سنة ثمان وأربعين وثلاث مئة (٩٥٩م):

[الطويل]

عَـدُوُّكَ مَـذْمُـومٌ بِـكُـلِّ لِـسَـانِ
وَلَـوْ كَـانَ مِـنْ أَعْـدَائِـكَ الْـقَـمَـرَانِ[٢]

وَلِـلَّـهِ سِـرٌّ فـي عُـلَاكَ وَإِنَّـمَـا
كَـلَامُ الْـعِـدَى ضَـرْبٌ مِـنَ الْـهَـذَيَـانِ[٣]

أَتَـلْـتَـمِـسُ الأَعْـدَاءُ بَـعْـدَ الَّـذِي رَأَتْ
قِـيَـامَ دَلِـيـلٍ أَوْ وُضُـوحَ بَـيَـانِ[٤]

رَأَتْ كُـلَّ مَـنْ يَـنْـوِي لَـكَ الْـغَـدْرَ يُـبْـتَـلَـى
بِـغَـدْرِ حَـيَـاةٍ أَوْ بِـغَـدْرِ زَمَـانِ[٥]

= والخوف من الموت يشلّ في المرء زخم داعي الحياة في النفوس، ورغم ذلك فلا بدّ من شرب هذا الكأس، والفرق بين الجبان والشجاع أن الموت سيأتيه ذات يوم عندما تتوفّر دواعيه، ولو لم يفكر هكذا لكان أكبر خاسر لتعريض حياته للأخطار، ولذا فمن الخطأ الجسيم أن يجبن المرء لعلمه اليقيني أن الموت يدركه لا محالة.

(١) ورد البيت في أمالي ابن الشجري ١ :٢٢٦. يُعقّب الشاعر أن ولوج كلّ صعب في البدء تقبّله أو محاولة الإقدام عليه، فإذا حصل كان أسهل ما ظنّ الإنسان، فإذا به يتقبل نتائجه راضياً وقد يكون سعيداً.

(٢) القمران: الشمس والقمر. يُخاطب الشاعر كافوراً أن عدوّه مذموم مكروه من كلّ البشر، حتى لو كان القمران من أعدائه، وهما ما هما من النفع للناس في كلّ زمان، فلا بدّ من ذمّهما وكرههما.

(٣) الهذيان: الكلام اللامعقول. يُردف الشاعر قوله أن اللّه سبحانه قد سهّل له أن يسمو في ذرى المجد لحكمة اقتضاها ولأمر ما حمل الناس على التقوّل والهذيان في شأن ما آل إليه أمره من عظمة الشأن.

(٤) و (٥) التمس: طلب. يُخاطب الشاعر ممدوحه كيف أن أعداءه يطلبون ويبحثون عن =

بِـرَغْـمِ شَـبِـيـبٍ فَـارَقَ الـسَّـيْـفُ كَـفَّـهُ
وَكَـانَـا عَـلَـى الْـعِـلَّاتِ يَـصْـطَـحِـبَـانِ(١)

كَـأَنَّ رِقَـابَ الـنَّـاسِ قَـالَـتْ لِـسَـيْـفِـهِ
رَفِـيـقُـكَ قَـيْـسِـيٌّ وَأَنْـتَ يَـمَـانِ(٢)

فَـإِنْ يَـكُ إِنْـسَـانـاً مَـضَـى لِـسَـبِـيـلِـهِ
فَـإِنَّ الـمَـنَـايَـا غَـايَـةُ الـحَـيَـوَانِ(٣)

وَمَـا كَـانَ إِلَّا الـنَّـارَ فـي كُـلِّ مَـوْضِـعٍ
تُـثِـيـرُ غُـبَـاراً فـي مَـكَـانِ دُخَـانِ(٤)

فَـنَـالَ حَـيَـاةً يَـشْـتَـهِـيـهَـا عَـدُوُّهُ
وَمَـوْتـاً يُـشَـهِّـي الْـمَـوْتَ كُـلَّ جَـبَـانِ(٥)

= الأسباب التي جعلته في تلك المكانة والأمر في منتهى البساطة منوط بإرادة مسبب، فمن أسباب سيادته أن اللَّه أقدره على الفتك بأعدائه الذين يجاهرونه بعدائهم له والذين يُضمرون له العداء فأماتهم بنحورهم، وبذا تخلّص منهم أيضاً.

(١) و (٢) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٩. شبيب هو: شبيب بن جرير العقيلي، من القرامطة ممن كانوا مع سيف الدولة، وولي إمارة معرّة النعمان، فاجتمع إليه جماعة من العرب، خرج على كافور وحاصر دمشق حيث لقي مصرعه ولقد تخلّى عنه سيفه فسهل القضاء عليه، وكأن الناس قد أثاروا بينه وبين سيفه العداء، فشبيب قيسي وسيفه يماني، فإذا به ينقلب عليه، فكان هلاكه.

(٣) المنايا، الواحدة منية: الموت. لقد مات شبيب وخلا الجوّ لكافور ينعم بالسؤدد، ولا غرابة فالموت حقّ وهو الغاية التي يؤول أمر كلّ حيّ من البشر إليها.

(٤) يُندّد الشاعر بشبيب، فقد كان ناراً تثير زوابع الحروب حيثما حلّ، وإن بدت دخاناً لأول وهلة، ولكنها حروب دامية تثير الرعب في النفوس.

(٥) لقد نعم شبيب بحياة عزّ وجاه وسؤدد حتى عدوّه كان يتمنى أن يحيا حياته تلك، ثم كان موته بصحة وعافية يتمنّى الجبناء لو ماتوا تلك الميتة، وفي ذلك مدح له، لأنه لم يمت مَوت الجبناء لأنه قضى في سبيل قضية سعى لتحقيقها، ولسوء حظه لم يُفلح في مسعاه.

نَـفَـى وَقْـعَ أَطْـرَافِ الـرِّمَـاحِ بِـرُمْـحِـهِ
وَلَـمْ يَـخْـشَ وَقْـعَ الـنَّـجْـمِ وَالـدَّبَـرَانِ(١)
وَلَـمْ يَـدْرِ أَنَّ الْـمَـوْتَ فَـوْقَ شَـوَاتِـهِ
مُـعَـارَ جَـنَـاحٍ مُـحْـسِـنَ الـطَّـيَـرَانِ(٢)
وَقَـدْ قَـتَـلَ الأَقْـرَانَ حَـتَّـى قَـتَـلْـتَـهُ
بِـأَضْـعَـفِ قِـرْنٍ فِـي أَذَلِّ مَـكَـانِ(٣)
أَتَـتْـهُ الـمَـنَـايَـا فـي طَـرِيـقٍ خَـفِـيَّـةٍ
عَـلَـى كُـلِّ سَـمْـعٍ حَـوْلَـهُ وَعِـيَـانِ(٤)
وَلَـوْ سَـلَـكَـتْ طُـرْقَ الـسِّـلَاحِ لَـرَدَّهَـا
بِـطُـولِ يَـمِـيـنٍ وَاتِّـسَـاعِ جَـنَـانِ(٥)

---

(١) قصد بالنجم: الثريا. الدبران: منزل للقمر، وهو مشتمل على خمسة كواكب من الثور. يمدح الشاعر شبيباً وإن بدا أنه يُعرّض به أمام كافور، فقد كان شجاعاً باسلاً يردّ أعداءه برمحه فيُعمل فيهم تقتيلاً حتى آذن رحيله فإذا بالدبران تحمل له الموت وتتخلّى عنه نجوم سعده فيلقى مصرعه.

(٢) الشواة: جلدة الرأس. ورغم حذر شبيب وشجاعته، فقد عاجله الموت من حيث لا يحتسب فدكّ رأسه. لقد كان يتحيّن الفرص، يحوم طائراً ناشراً جناحيه وفجأة كانت القاضية فكان مصرعه.

(٣) الأقران، الواحد قرن، بكسر القاف: الكفء في القتال. يسرد الشاعر شيئاً من حياة شبيب، لقد تفوّق على أقرانه يُعمل فيهم قتلاً وسفك دماء حتى كان أن دبر كافور مكيدة أودت بحياته، ومهما تكن تلك المكيدة فقد تخلّص كافور من شبيب بأهون الأسباب.

(٤) المنايا، الواحدة منية: الموت. لقد كان موت شبيب فجأة بسرعة بحيث لم يشعر به أحد ولم يره مخلوق كيف كانت ميتته.

(٥) الجنان: القلب يُعقب الشاعر على ميتة شبيب مشيداً بشجاعته، فلو كانت ميتته بواسطة السلاح لردّ الموت عن نفسه بسلاحه، لأنه بطل شجاع لا يُقهر، ولكن موته كان غدراً وجبانة، وهنا يعرّض الشاعر بكافور لو كان أعمل مكيدته للخلاص من شبيب، فالمكر لا يلجأ إليه إلّا الجبناء.

تَـقَـصَّـدَهُ الْـمِـقْـدارُ بَـيْـنَ صِـحَـابِـهِ
عَـلَـى ثِـقَـةٍ مِـنْ دَهْـرِهِ وَأَمَـانِ(١)
وَهَـلْ يَـنـفَـعُ الْـجَـيْـشُ الْـكَـثِـيـرُ الْـتِـفَـافُـهُ
عَـلَـى غَـيْـرِ مَـنْـصُـورٍ وَغَـيْـرِ مُـعَـانِ(٢)
وَدَى مَـا جَـنَـى قَـبْـلَ الْـمَـبِـيـت بِـنَـفْـسِـهِ
وَلَـمْ يَـدِهِ بِـالْـجَـامِـلِ الْـعَـكَـنَـانِ(٣)
أَتُـمْـسِـكُ مَـا أَوْلَـيْـتَـهُ يَـدُ عَـاقِـلٍ
وَتُـمْـسِـكُ فِـي كُـفْـرَانِـهِ بِـعِـنَـانِ؟(٤)
وَيَـرْكَـبُ مَـا أَرْكَـبْـتَـهُ مِـنْ كَـرَامَـةٍ
وَيَـرْكَـبُ لِـلْـعِـصْـيَـانِ ظَـهْـرَ حِـصَـانِ(٥)
ثَـنَـى يَـدَهُ الْإِحْـسَـانُ حَـتَّـى كَـأَنَّـهَـا
وَقَـدْ قُـبِـضَـتْ كَـانَـتْ بِـغَـيْـرِ بَـنَـانِ(٦)

---

(١) المقدار: القدر. لقد كان أمر موت شبيب عجباً، فهو بين أصحابه وبحماية سلاحه، ولكنه القضاء والقدر فلا مردّ له ولا ملجأ منه إلّا إليه.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٩. الالتفاف: الاجتماع. يستفهم الشاعر مستنكراً بأن المقدّر نافذ رغم كلّ الاحتياطات، فشبيب بين جنوده بمنعة وسلاحه بيديه، ومع ذلك كان قضاء اللّه عزّ وجلّ له بالمرصاد، وقد تخلّت عنه إرادته فهوى صريعاً.

(٣) ودى: من الدية. قصد بالمبيت: الليل. الجامل: اسم لجماعة الجمال. الباقر: اسم لجماعة البقر. العكنان: الإبل الكثيرة. ينعى الشاعر على شبيب أنه كان سفّاكاً للدماء فقتل خلقاً كثيرين ثم آن له أن يدفع دية هؤلاء الخلق من نفسه، فكان موته ديتهم جميعاً.

(٤) و (٥) أولى: أعطى. العنان: سير اللجام. يُخاطب الشاعر كافوراً، فقد نال شبيب من نعم كافور ما أوجب عليه العرفان بالفضل والحفاظ على النعمة بشكر منعمها، ولكن شبيباً كفر تلك النعمة واعتصم بسلاحه، فكان مصرعه جزاء كفرانه لأنه ركب العصيان واعتلى متنه بدل أن يركب العرفان ويحفظ على الودّ والطاعة لولي نعمته ومن ولّاه ذلك المنصب الرفيع.

(٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٩. ثنى يده: ردّها. البنان، =

وَعِـنْـدَ مَـنِ الْـيَـوْمَ الْـوَفَـاءُ لِـصَـاحِـبٍ
شَـبِـيـبٌ وَأَوْفَـى مَـنْ تَـرَى أَخَـوَانِ[١]
قَـضَـى الـلَّـهُ يَـا كَـافُـورُ أَنَّـكَ أَوَّلٌ
وَلَـيْـسَ بِـقَـاضٍ أَنْ يُـرَى لَـكَ ثَـانِ[٢]
فَـمَـا لَـكَ تَـخْـتَـارُ الْـقِـسِـيَّ وَإِنَّـمَـا
عَـنِ الـسَّـعْـدِ يُـرْمَـى دُونَـكَ الـثَّـقَـلَانِ[٣]
وَمَـا لَـكَ تُـعْـنَـى بِـالْأَسِـنَّـةِ وَالْـقَـنَـا
وَجَـدُّكَ طَـعَّـانٌ بِـغَـيْـرِ سِـنَـانِ[٤]

= الواحدة بنانة: أطراف الأصابع. يُعقّب الشاعر مخاطباً كافوراً بأنه أحسن إلى شبيب فتلقّى عطاءه بلا مبالاة، فلم يُحسن إمساك ما أعطاه لأنه ثنى يده فلم تكن إرادته تبغي الخير لنفسه ولسواه لأنه لم يُحسن القبض بأصابعه فأفلتت المنحة من بينها وتاهت مع النكران.

(١) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٢٧٩. يُندّد الشاعر بشبيب، ويستنكر عليه موقفه، فهو كافر للنعم غادر بمن أحسن إليه، إنه نموذج للكثيرين أمثاله في عصر اهتزّت فيه القيم وتخلخلت المثل الإنسانية النبيلة في مجتمع تفلّت من كلّ رابط ديني وخلقي.

(٢) يُخاطب الشاعر كافوراً منوّهاً بحظّه ورعاية اللّه تعالى له؛ إنه ملك باركه ربّ العالمين، فكان أول ملك يحوز رعاية ورحمة، وقد جعل اللّه عزّ وجلّ ذلك خصيصة لكافور دون سواه من الملوك، فليس له ثانٍ في الملوك.

(٣) القسي، الواحد قوس. الثقلان: الإنس والجن. يُنوّه الشاعر بحسن حظ كافور؛ إنه ليس بحاجة لاختيار أفضل القسي ليرمي بها أعداءه من البشر والجن، فقسيهم تعود عليهم بالخسران المبين وبها يهلكون كلّ ذلك بما أوتي من رعاية اللّه تعالى له وحسن توفيقه.

(٤) الجَدّ، بفتح الجيم: الحظّ. تعنى: تهتمّ. الأسنّة، الواحد سنان. القنا: الرماح. يُخاطب الشاعر كافوراً إنه ليس بحاجة إلى سائر السلاح من أسنة ورماح وسواهما، فحظّه كفيل بالقضاء على أعدائه دون قتال، فالكوارث تنزل بهم فيتخلّص منهم ومن شرورهم. وقد يُستشفّ من ذلك أن الشاعر يحسد كافوراً على ما أتاه من حسن توفيق وحظّ ملائم مؤاتٍ، فضلاً عن سخرية خفيَّة.

وَلَمْ تَحْمِلُ السَّيْفَ الطَّوِيلَ نِجَادُهُ
وَأَنْتَ غَنِيٌّ عَنْهُ بِالْحَدَثَانِ(١)

أَرِدْ لِي جَمِيلاً جُدْتَ أَوْ لَمْ تَجُدْ بِهِ
فَإِنَّكَ مَا أَحْبَبْتَ فِيَّ أَتَانِي(٢)

لَوِ الْفَلَكَ الدَّوَّارَ أَبْغَضْتَ سَعْيَهُ
لَعَوَّقَهُ شَيْءٌ عَنِ الدَّوَرَانِ(٣)

أعانه اللّه وإيانا

وقال فيه:

[السريع]

لَوْ كَانَ ذَا الآكِلُ أَزْوَادَنَا
ضَيْفاً لَأَوْسَعْنَاهُ إِحْسَانَا(٤)

لٰكِنَّنَا فِي الْعَيْنِ أَضْيَافُهُ
يُوسِعُنَا زُوراً وَبُهْتَانَا(٥)

---

(١) نجاد السيف: حمالته. الحدثان: مصائب الدهر. يلمّح الشاعر على أن كافوراً ليس بحاجة إلى استعماله لسيوف ليفتك بأعدائه، فها هو شبيب قد هلك بضربة حظّ فإذا بنوائب الدهر تغتاله.

(٢) يُخاطب الشاعر كافوراً بأنه موئل الخير، فالعطاء منه نعمة أرادها أو لم يردها، وكأنه يُذكره بوعده، فإنه آتٍ على ما يعتقد الشاعر لحسن رأيه بكافور، طالما أنه على قيد الحياة.

(٣) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٩. ينوّه الشاعر بحسن حظّ كافور فحتى الظواهر الطبيعية التي لا يستطيع البشر التحكّم بها لأن اللّٰه سبحانه وتعالى جعلها لتؤدي أدوارها كما شاء، فقد يتوقّف الفلك الدوار عن عمله الذي يُؤديه لكان له ما أراد لما يتمتّع به من حظّ عظيم.

(٤) و (٥) الأزواد، الواحد زاد: طعام المسافر. أوسعنا: أكثر عطاءه. ينعى الشاعر على كافور أنه المتكالب على ما في يده من زاد حمله معه، فلو كان ضيفاً لزاد له في الكرامة ولأوسع المكان والعطاء. ولكنه في الحقيقة صاحب الديار، والمفروض أن يوسّع على الشاعر من عطاياه وكرمه وتكريمه وهو ضيفه، وما يدلّ على بخله أنه يُوسعه مواعيد عرقوبية مجبولة بكذبه وتسويفه ومطله.

فَـلَـيْـتَـهُ خَـلَّـى لَـنَـا طُـرْقَـنَـا
أَعَـانَـهُ الـلَّـهُ وَإِيَّـانَـا[١]

كم سيد لا يزين قومه

كتب إلى عبد العزيز بن يوسف الخزاعي في بلبيس يطلب منه دليلاً فأنفذه إليه فقال يمدحه:

[الطويل]

جَـزَى عَـرَبـاً أَمْـسَـتْ بِـبُـلْـبَـيْـسَ رَبُّـهَـا
بِـمَـسْـعَـاتِـهَـا تَـقْـرِرْ بِـذَاكَ عُـيُـونُـهَـا[٢]

كَـرَاكِـرَ مِـنْ قَـيْـسِ بْـنِ عَـيْـلَانَ سَـاهِـراً
جُـفُـونُ ظُـبَـاهَـا لِـلْـعُـلَـى وَجُـفُـونُـهَـا[٣]

وَخَـصَّ بِـهِ عَـبْـدَ الْـعَـزِيـزِ بْـنَ يُـوسُـفٍ
فَـمَـا هُـوَ إِلَّا غَـيْـثُـهَـا وَمَـعِـيـنُـهَـا[٤]

فَـتًـى زَانَ فِـي عَـيْـنَـيَّ أَقْـصَـى قَـبِـيـلِـهِ
وَكَـمْ سَـيِّـدٍ فـي حِـلَّـةٍ لَا يَـزِيـنُـهَـا[٥]

---

(١) السبل، الواحد سبيل: الطريق. يتمنّى الشاعر لو أنه يتركه وشأنه يرسل بسلام دون الإساءة إليه وحبسه عنده، لذا يدعو له ليُعينه ويُلهمه اللّه تعالى حسن التوفيق فيتركه يرحل، كما أنه يدعو لنفسه برحيل ميمون موفّق.

(٢) بلبيس: من بلدان مصر. المسعاة: المكرمة. يدعو الشاعر بالتوفيق وحسن الجزاء من ربّ العباد سبحانه إلى ربّ العرب وسيّدهم في بلبيس لقيامه بعمل جليل يستحقّ عليه أن تقرّ عيون أتباعه بسلامته وبقائه حيًّا.

(٣) الكراكر، الواحد، كِركِرة: الجماعات. قيس عيلان: من القبائل الكثيرة البطون. الظبى، الواحدة ظُبة: حدّ السيف. جفون، الواحد جفن: الغمد. يُنوّه الشاعر بفضائل القوم، فهم جماعات من قيس عيلان ينتشرون في الأرض يبتغون المجد بعيون مفتحة وقلوب واعية، وسيوفهم قد جرّدت من أغمادها طلباً للسؤدد والمجد.

(٤) الغيث: المطر الدافق المنهمر. المعين: الماء الجاري. خصّ الشاعر أمير القوم بالدعاء وحسن التوفيق، إذا جواد يفيض غيثاً وعطاءً وهو معين من الخير لا ينضب، تجري سواقيه مفعمة بالجود.

(٥) القبيل: الجماعة. الحلة: الجماعة يحلّون في المكان. يمدح الشاعر عبد العزيز بن =

أبوكم آدم سنّ المعاصي

يمدح عضد الدولة ويذكر طريقه إلى شعب بوان:

[الوافر]

مَغَانِي الشِّعْبِ طِيباً فِي الْمَغَانِي
بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ (١)

وَلٰكِنَّ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ فِيهَا
غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ (٢)

مَلَاعِبُ جِنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا
سُلَيْمَانٌ لَسَارَ بِتَرْجُمَانِ (٣)

طَبَتْ فُرْسَانَنَا وَالْخَيلَ حَتَّى
خَشِيتُ وَإِنْ كَرُمْنَ مِنَ الْحِرَانِ (٤)

= يوسف، إنه فتًى اكتملت فيه عناصر الفتوّة جوداً وشجاعة ونبلاً وطيب خلق ونجدة، إنه مفخرة قبيلته ورهطه وعزها وإن تباعدت عنه في النسب، فهو سيدهم جميعاً، ويُلمّح من طرف خفي إلى كافور، إنه سيد وكثيرون أمثاله ليسوا مفخرة أقوامهم.

(١) المغاني، الواحد مغنى: المنزل، الشعب: المنفرج بين جبلين، يقصد بذلك شعب بوان موضع عند شيراز يمتاز بجمال طبيعته الغنّاء. يبدأ الشاعر قصيدته المدحيَّة بوصف الطبيعة مستعيضاً بها عن الوقوف على الأطلال وعن الغزل الذي اعتاد أن يبدأ به قصائده. يصف شعب بوان بأنه جنّة أوجدها اللّه تعالى غنَّاء غنية بما فيها من جمالات: شجر وظلّ وثمر وطير وزهر وعبير وماء تتّخذ سُبُلها في جداول تنساب هادئة رقراقة تسرّ العيون وتريح القلوب.

(٢) وما يزيد الشاعر ألماً وحزناً أنه يسمع عجمة ما اعتادتها أذناه ممَّا يشعره بالوحشة والانفراد، وإذا ما نظر إلى أزياء ساكنيها لم يتبيّن فيها ما ينمّ عن أزياء بني قومه العرب.

(٣) تلك الأراضي تتراخى امتداداً، فيحار المرء أين ينظر، فالمناظر تتسارع خاطفة الأنظار لجمالها، وتتلاحق الصور والألوان والأشكال فيرى المرء أناساً يحسبهم للوهلة الأولى أنهم ليسوا من البشر؛ إنّهم جنّ لشجاعتهم وقوتهم، كأنه يمدحهم بما بدا له فيهم للنظرة الأولى.

(٤) طبت: دعت، كرمن: كريمات الأصل، الحران في الدواب: العصيان عن انقياد =

غَـدَوْنَـا تَـنْـفُـضُ الأغْـصَـانُ فِـيـهَـا
عَـلَـى أَعْـرَافِـهـا مِـثْـلَ الـجُـمَـانِ(١)

فَـسِـرْتُ وَقَـدْ حَـجَـبْـنَ الـحَـرَّ عَـنِّـي
وَجِـئْـنَ مِـنَ الـضِّـيَـاءِ بِـمَـا كَـفَـانِـي(٢)

وَأَلْـقَـى الـشَّـرْقُ مِـنْـهَـا فـي ثِـيَـابـي
دَنَـانِـيـراً تَـفِـرُّ مِـنَ الْـبَـنَـانِ(٣)

لَـهَـا ثَـمَـرٌ تُـشِـيـرُ إلَـيْـكَ مِـنْـهُ
بِـأَشْـرِبَـةٍ وَقَـفْـنَ بِـلا أَوَانِ(٤)

وَأَمْـوَاهٌ تَـصِـلُّ بِـهَـا حَـصَـاهَـا
صَـلِـيـلَ الْـحَـلْـيِ فِـي أَيْـدِي الْـغَـوَانـي(٥)

= الدابة ووقوفها كان لجمال تلك الطبيعة الفتّانة أثره في نفس الشاعر بحيث ارتاحت نفسه تملأها الدهشة حتى حصانه الكريم خاف عليه أن يستعصي عليه ويحرن لما وجده من عشب يحلو له رعيه فلا يُبارح المكان استئناساً بما فيه.

(١) و(٢) الأعراف، الواحد عرف: شعر ناصية الفرس. الجُمان: حبّ من فضّة يُشبه اللآلئ. يصف الشاعر مسيره في ذلك المكان والفجر يبثّ أضواءه التي تخترق ظلال تلك الأفياء، فإذا بأشعة طريئة هادئة تذكّر أن الشمس قد صحت من مرقدها وراحت تغازل الأفياء بشعاعها الذي ينسدل على أعراف الخيول فيبدو كأنه حبّات عقد انفرطت حبّاته فتناثرت في كلّ مكان وتلقّفتها الأرض بشوق وحنان، والشاعر يمشي في ظلال وفيء، وقد غاب الحرّ وكفاه ما يحتاج من ضياء.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٥. البنان، الواحدة بنانة: أطراف الأصابع. يصوّر الشاعر طلوع الشمس، فقد أشرقت الأنوار، وراحت الشمس تبث أشعتها اللطيفة التي لا تني تخترق الظلال والأفياء، فإذا بها تستحيل دنانير فضيّة تنعكس على أثواب الشاعر، إنها نسيج ضوئي ينساب من بين أنامله فلا يستطيع الإمساك به.

(٤) الأواني، الواحدة آنية. يصف الشاعر ثمار تلك الشعب، تمتاز برقة قشورها بحيث يُشاهد الماء في داخلها يموج بقوّة وينمّ عن نضج ثمارها، فتبدو وكأنها أوعية قد فاضت المياه فيها، وهي معلّقة على أمّاتها.

(٥) تصل: تصوت. والحلي: ما تتحلّى به النسوة من ذهب وفضة وجوهر. الغواني، =

وَلَــوْ كَــانَــتْ دِمَــشْــقَ ثَــنَــى عِـنَــانِــي
لَــبِــيــقُ الــثُّــرْدِ صِــيــنِــيُّ الْــجِــفَــانِ(١)
يَــلَــنْــجُــوجِــيُّ مَــا رُفِــعَــتْ لِــضَــيْــفٍ
بِــهِ الــنِّــيــرَانُ نَــدِّيُّ الــدُّخَــانِ(٢)
تَــحِــلُّ بِــهِ عَــلَــى قَــلْــبٍ شُــجَــاعٍ
وَتَــرْحَــلُ مِــنْــهُ عَــنْ قَــلْــبٍ جَــبَــانِ(٣)
مَــنَــازِلُ لَــمْ يَــزَلْ مِــنْــهَــا خَــيَــالٌ
يُــشَــيِّــعُــنِــي إِلَــى الــنَّــوْبَــنْــذَجَــانِ(٤)

= الواحدة غانية: من اغتنت بجمالها عن الزينة. يصف الشاعر الجداول حيث تتسلسل مياهها وتترقرق صافية بمعاصم النسوة، وتبدو الحصباء كأنها الحلي تحلّت بها أولئك النسوة.

(١) ثنى عناني: صرفني عن عزمي. العنان: سير اللجام. اللبيق: الماهر في ما يعمل. الثرد، الواحد ثريد: ضرب من المأكولات بحيث يُوضع خبز في مرق اللحم. الجفان، الواحدة جفنة: القصاع. يفترض الشاعر لو أنه كان في غوطة دمشق لبقي حيث الكرم والضيافة العربية تحبس المرء عن عزمه على الرحيل، ولكانت قصاع الثريد تأتيه تباعاً فينعم بكرم الضيافة، وقد يكون قد لاحظ بخلاً من ساكني ذلك المكان على عادة العجم.

(٢) يلنجوجي: نسبة إلى اليلنجوج، وهو العود الذي يتبخّر به. رفعت النار: شبَّت. ندي: نسبة إلى الند، وهو ضرب من الطيب يدخن به. يُردف الشاعر حديثه عن مضيفه أنه يُوقد نيرانه لأضيافه بالعود اليلنجوجي ليجعل جوّ مضافته ساحراً، ودخانه لطيفاً يتنسم منه عبير الندّ.

(٣) يصف الشاعر حال الدمشقي وضيفه؛ فالضيف مطمئن إلى كرم مضيفه لا يخاف إن أكل همزاً ولمزاً وازوراراً، والأمر كذلك في حال ترحاله فإذا بالضيف كاسف البال أحزنه رحيل ضيفه مخافة ألّا يكون لم تُعجبه الضيافة أو أنه قصّر في حقّ ضيفه.

(٤) يشيعني: يتبعني مرافقاً. النوبنذجان: من بلاد فارس. الشاعر في النوبنذجان وخيال دمشق يُلاحقه، فكل ما فيها يزحم خياله بصوره المتلاحقة المحببة إلى نفسه، دورها، أسواقها، منتزهاتها. . .

إذَا غَـنَّـى الـحَـمَـامُ الْـوُرْقُ فِـيـهَـا
أجَـابَـتْـهُ أغَـانِـيُّ الْـقِـيَـانِ(١)
وَمَـنْ بِـالـشِّـعْـبِ أحْـوَجُ مِـنْ حَـمَـام
إذَا غَـنَّـى وَنَـاحَ إلَـى الْـبَـيَـانِ(٢)
وَقَـدْ يَـتَـقَـارَبُ الْـوَصْـفَـانِ جِـدًّا
وَمَـوْصُـوفَـاهُـمَـا مُـتَـبَـاعِـدَانِ(٣)
يَـقُـول بِـشِـعْـبِ بَـوَّانٍ حِـصَـانِـي
أعَـنْ هٰـذَا يُـسَـارُ إلَـى الـطِّـعَـانِ(٤)
أبُـوكُـمْ آدَمٌ سَـنَّ الْـمَـعَـاصِـي
وَعَـلَّـمَـكُـمْ مُـفَـارَقَـةَ الْـجِـنَـانِ(٥)

---

(١) الورق، الواحدة ورقاء: ضرب من الحمام البريّ. القيان، الواحدة قينة: الجارية المغنية. إنها رياض تآلفت فيها أصوات الحمام البرّي يتّخذ من أغصان شجرها مسرح غنائه، وتحت تلك الأشجار قيان تتجاوب أصداء أصواتها مع هديل الحمام اللطيف.

(٢) عاد الشاعر مرة أخرى إلى شعب بوان مقارناً حال القوم بحال أهل دمشق؛ فغناؤهم لا يُفهم ينقصه الشوق والحنين فضلاً عن فصاحة وانسجام موسيقى اللغة مع موسيقى الألحان في حال الفرح والشجن في اللسان العربي المبين.

(٣) يرى الشاعر أن ثمّة تقارباً بين لغة شعب بوان وهديل الحمام، فكلاهما لا يُفصحان لاختلاف طبيعة كلّ منهما، فالأعاجم من البشر لا يُفصحون وكذلك الحمام من جماعة الطير وهم لا يُفصحون أيضاً.

(٤) لقد وجد حصان الشاعر طيب منزل، فالعشب متوفّر والظلال تنشر أفياءها، ويعمّ السلام؛ يقول الحصان: الأفضل البقاء في تلك الرياض، حيث راحة البال، ولا حاجة للذهاب إلى ميادين القتال، وقد كلّ كثرة الترحال فمال إلى التراخي والبقاء في ذلك المكان.

(٥) يُتابع الشاعر سرد مقولة حصانه؛ فالعصيان والتمرّد متأصّل في بني البشر من لدن آدم أبي البشر الذي سنّ قانون العصيان، فكان طرده من الجنّة جزاء عصيانه، والبشر يعمدون إلى العصيان دائماً ليخرجوا من الجنان الأرضية.

فَــقُــلْــتُ إِذَا رَأَيْــتُ أَبَــا شُــجَــاعٍ
سَــلَــوْتُ عَــنِ الْــعِــبَــادِ وَذَا الْــمَــكَــانِ[١]
فَــإِنَّ الــنَّــاسَ والــدُّنْــيَــا طَــرِيــقٌ
إِلَــى مَــنْ مَــا لَــهُ فــي الــنَّــاسِ ثَــانِ[٢]
لَــقَــدْ عَــلَّــمْــتُ نَــفْــسِــي الْــقَــوْلَ فِــيــهِــمْ
كَــتَــعْــلِــيــمِ الــطِّــرَادِ بِــلَا سِــنَــانِ[٣]
بِــعَــضْــدِ الــدَّوْلَــةِ امْــتَــنَــعَــتْ وَعَــزَّتْ
وَلَــيْــسَ لِــغَــيْــرِ ذِي عَــضُــدٍ يَــدَانِ[٤]
وَلَا قَــبْــضٌ عَــلَــى الْــبِــيــضِ الــمَــوَاضِــي
وَلَا حَــظٌّ مِــنَ الــسُّــمْــرِ الــلِّــدَانِ[٥]

---

(١) أبو شجاع: كنية عضد الدولة. يتخلّص الشاعر إلى مدح أبي شجاع عضد الدولة؛ فالرحلة في الأصل للمثول بين يديه؛ فطلعته تُنسي الشاعر إلفه من البشر والأمكنة المحببة إلى النفوس؛ إنه يجد عنده ضالته من عطاء وتكريم وترحاب.

(٢) يفضل الشاعر ممدوحه على سائر الناس؛ ليس له ثانٍ، إنه مركز الوجود فكلّ قاصد لا بدّ له من أن يقصده وينعم برفده.

(٣) الطراد: مطاردة الفرسان بعضهم بعضاً. السنان: نصل الرمح. يروي الشاعر قصّة حاله مع العدد الوفير من ممدوحيه، بأنهم كانوا مجال تدبير له على قول وإنشاد الشعر كي يتوفّر عليه دون سواه بمدحه بأفضل ما يبدعه في الشعر.

(٤) يُنوّه الشاعر بمقدرة عضد الدولة حماية الدولة، فهو عضدها وقوّتها، فامتنعت على الأعداء وهابها القاصي والداني، وهو بذلك يغمز من قناة كثيرين ممن لا يقدرون على حماية دولهم وشعوبهم، فقوّة اليد لا تكون إلّا بعضد قوي على حمل السلاح للدفاع عنها.

(٥) البيض: السيوف. المواضي: القواطع. السمر: الرماح. اللدان، الواحد لدن: الليّن. يُتابع الشاعر متمًّا فكرته، فمن لا عضد لديه، فلا يُحسن القبض على السيوف البتّارة يقطع بها دابر عدوّه ولا يمكنه حمل الرماح اللينة يطرح بها أعداءه أيضاً مضرّجين بدمائهم.

دَعَـتْـهُ بِـمَـفْـزَعِ الْأَعْـضَـاءِ مِـنْـهَـا
لِـيَـوْمِ الْـحَـرْبِ بِـكْـرٍ أَوْ عَـوَانِ(١)

فَـمَـا يُـسْـمِـي كَـفَـنَّـاخُـسْـرَ مُـسْـمٍ
وَلَا يُـكْـنِـي كَـفَـنَّـاخُـسْـرَ كَـانِ(٢)

وَلَا تُـحْـصَـى فَـضَـائِـلُـهُ بِـظَـنٍّ
وَلَا الإِخْـبَـارِ عَـنْـهُ وَلَا الـعِـيَـانِ(٣)

أُرُوضُ الـنّـاسِ مِـنْ تُـرْبٍ وَخَـوْفٍ
وَأَرْضُ أَبِـي شُـجَـاعٍ مِـنْ أَمَـانِ(٤)

يُـذِمُّ عَـلَـى الـلُّـصُـوصِ لِـكُـلِّ تَـجْـرٍ
وَيَـضْـمَـنُ لِـلـصَّـوَارِمِ كُـلَّ جَـانِ(٥)

إِذَا طَـلَـبَـتْ وَدَائِـعُـهُـمْ ثِـقَـاتٍ
دُفِـعْـنَ إِلَـى الْـمَـحَـانِـي وَالـرِّعَـانِ(٦)

---

(١) المفزع: الملجأ. الحرب العوان: التي سبق أن قوتل فيها مرة. لقد احتاجت إلى الممدوح دولته، فاستعانت به ليحمي حماها في كلّ وقت، سواء أكانت الحرب للمرة الأولى ضدّ عدوّها أم كانت حرباً عواناً.

(٢) و (٣) المسمَّى: من اتّخذ له اسم. المكنّى: من اتخذت له كنية. يُنوّه الشاعر بتفرّد الممدوح بصفاته النادرة، فليس من حمل اسمه أو كنيته يتمتّع بمواصفاته العظيمة التي لا تليق إلّا به ولا يتحلّى بها أحد سواه، فهي عصية على التحديد أو العدّ، فالظن رغم اتساع أفقه يبقى عاجزاً عن الإحاطة بها، والنظر قد لا يستطيع إحصاءها.

(٤) الأروض، جمع أرض. يُفاضل الشاعر بين أرضين، فأرض كلّ ملك جُبلت من تراب وخوف بسبب ضعف حماتها وعدم قدرتهم على صيانتها؛ فالبشر والحيوانات حتى الأشجار مباحة للأعداء على خلاف أرض عضد الدولة، فإنها مجبولة من تراب وأمن جبلهم بقوّته وشجاعته وخوف الأعداء من شروره.

(٥) يذمّ: يعطي ذمامه لمن يطلب الأمن. ومن سياسة عضد الدولة أنه يضمن للتجار تجاراتهم من أطماع اللصوص، وقد اختفوا في دياره، فثمة سيوف صارمة تقطع دابر العداة الطامعين بأموال الناس وحياتهم.

(٦) الثقات: مواضع الثقة من الناس. المحاني، الواحد محنية: منعطفات الأودية =

فَـبَـاتَـتْ فَـوْقَـهُـنَّ بِـلَا صِـحَـابٍ
تَـصِـيـحُ بِـمَـنْ يَـمُـرُّ: أَلَا تَـرَانِـي[١]

رُقَـاهُ كُـلُّ أَبْـيَـضَ مَـشْـرَفِـيٍّ
لِـكُـلِّ أَصَـمَّ صِـلٍّ أُفْـعُـوَانِ[٢]

وَمَـا تُـرْقَـى لُـهَـاهُ مِـنْ نَـدَاهُ
وَلَا الْـمَـالُ الْـكَـرِيـمُ مِـنَ الْـهَـوَانِ[٣]

حَـمَـى أَطْـرَافَ فَـارِسَ شَـمَّـرِيٌّ
يَـحُـضُّ عَـلَـى التَّـبَـاقِـي بِـالـتَّـفَـانِـي[٤]

بِـضَـرْبٍ هَـاجَ أَطْـرَابَ الْـمَـنَـايَـا
سِـوَى ضَـرْبِ الْـمَـثَـالِـثِ وَالْـمَـثَـانِـي[٥]

= ومنعرجاتها. الرعان، الواحد رعن: أنوف الجبال. يُنوّه الشاعر بسطوة عضد الدولة وعظم هيبته، حتى إن التجار يتركون بضائعهم في مواطن المخافة، في الوديان وعلى رؤوس الجبال بلا حماة ولا رقباء فلا تُمسّ بسوء، لثقة التجار بأن عضد الدولة ضمن لهم حمايتها فلا يجرؤ اللصوص على المساس بها.

(١) يُردف الشاعر حديثه عن تلك البضائع المتروكة في تلك البقاع ولسان حالها يقول بتحدٍّ للشطار واللصوص ألا ترونها مطروحة للصادر والوارد وكأن العيون قد عميت عنها؛ إنها شدّة هيبة عضد الدولة.

(٢) الرقى، الواحدة رقية: الحرز. الأبيض: السيف. المشرفي: السيف المنسوب إلى مشارف من أراضي العرب. الصلّ: أخبث أنواع الحيّات. الأفعوان: ذكر الأفعى. لقد تمكن عضد الدولة من إيجاد الدواء القاتل للصوص، إنهم يحملون في نفوسهم سمًّا قاتلاً فإذا به يخترع لهم دواءً فعّالاً يقضي عليهم، إنها سيوف مشرفية لا تبقي ولا تذر.

(٣) اللهى، الواحدة لهية: العطية. يُردف الشاعر أن عضد الدولة يعمد إلى حماية أموال التجار الذين يجولون في طول البلاد وعرضها برقاه التي اخترعها لحماية تلك الأموال لأصحابها، فإذا به لا يستعملها لحماية أمواله، فهو يُوزّعها بجود وكرم، زائدين، حماية لكرامته وإذلالاً لأمواله فهو يبذلها عن طيب خاطر.

(٤) و (٥) الشمّري: الرجل الماضي في الأمور المجرّب. الأطراب، الواحد طرب. =

كَأَنَّ دَمَ الْجَمَاجِمِ فِي الْعَنَاصِي
كَسَا الْبُلْدَانَ رِيشَ الْحَيْقُطَانِ(١)

فَلَوْ طُرِحَتْ قُلُوبُ الْعِشْقِ فِيهَا
لَمَا خَافَتْ مِنَ الْحَدَقِ الْحِسَانِ(٢)

وَلَمْ أَرَ قَبْلَهُ شِبْلَيْ هِزَبْرٍ
كَشِبْلَيْهِ وَلَا مُهْرَيْ رِهَانِ(٣)

أَشَدَّ تَنَازُعاً لِكَرِيمِ أَصْلٍ
وَأَشْبَهَ مَنْظَراً بِأَبٍ هِجَانِ(٤)

وَأَكْثَرَ فِي مَجَالِسِهِ اسْتِمَاعاً
فُلَانٌ دَقَّ رُمْحاً فِي فُلَانِ(٥)

= المثاني والمثالث: من أوتار العود. يمدح الشاعر عضد الدولة بميزة الحزم والشدّة في سبيل الدفاع عن الأمن في بلاد فارس فقد أخذ اللصوص بالعسف، فاستكان من كان دونهم فحفظ نفسه وغيره فبقي على قيد الحياة، إنه يُحسن الضرب على أيدي العابثين بسيفه، لا بترنيم الأعواد، فهو لا يهوى اللهو ومسبباته بل إنه يُؤثر الجدّ في سائر أموره.

(١) العناصي، الواحدة عنصوة: الشعر في نواحي الرأس. الحيقطان: ذكر الدراج، ضرب من الطيور ذو ريش مختلف الألوان. يذكر الشاعر قوّة بطش عضد الدولة بأعدائه، فإذا برؤوسهم تتدحرج فتملأ الأرض دماءً وتسبغ عليها ألواناً مختلفة كأنها ريش ذكر الدراج تبعثرت بألوانها المزركشة المتعدّدة.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٦. ما يدلّ على استتباب الأمن في ربوع بلاد عضد الدولة، فلو أن قلوب العشاق عاشت فيها لما خافت على أنفسها من سهام أحداق الفاتنات أن تصيبها بسوء.

(٣) و (٤) الشبل: ولد الأسد. الهزبر: من أسماء الأسد. المهر: الصغير من الخيول. الرهان: السباق. يُعرّج الشاعر على مدح ولدي عضد الدولة والإشادة بهما، إنهما شبلا أسد مرهوب الجانب، يُتوقع لهما مستقبل باهر لما يتوسم فيهما من الشجاعة، وهما مهرا سباق في المكرمات والجود. إنهما يجتهدان في ميادين الأمجاد، فالطموح رائد كلّ منهما ليسبق أخاه في ما يجمعهما من مكارم الأخلاق المتوارثة فيهما، إنهما صورة عن والدهما، ينزعان منزعه في كل شيء.

(٥) وما يدلّ على اهتمام أبيهما أن يردّد على مسامعهما في كلّ مجلس يستمعان إلى مقولة =

وَأَوَّلُ رَأْيَــةٍ رَأَيَــا الْـمَـعَـالِـي
فَـقَـدْ عَـلِـقَـا بِـهَـا قَـبْـلَ الأوَانِ (١)

وَأَوَّلُ لَـفْـظَـةٍ فَـهِـمَـا وَقَـالَا
إغَـاثَـةُ صَـارِخٍ أَوْ فَـكُّ عَـانِ (٢)

وَكُـنْـتَ الـشَّـمْـسَ تَـبْـهَـرُ كُـلَّ عَـيْـنٍ
فَـكَـيْـفَ وَقَـدْ بَـدَتْ مَـعَـهَـا اثْـنَـتَـانِ (٣)

فَـعَـاشَـا عِـيـشَـةَ الْـقَـمَـرَيْـنِ يُـحْـيَـا
بِـضَـوْئِـهِـمَـا وَلَا يَـتَـحَـاسَـدَانِ (٤)

وَلَا مَـلَـكَـا سِـوَى مُـلْـكِ الأعَـادِي
وَلَا وَرِثَـا سِـوَى مَـنْ يَـقْـتُـلَانِ (٥)

وَكَـانَ ابْـنَـا عَـدُوٍّ كَـاثَـرَاهُ
لَـهُ يَـاءَيْ حُـرُوفِ أُنَـيْـسِـيَـانِ (٦)

= تدور حول القتال لينشئ فيهما حبّ الكفاح والشجاعة والبطولة «فلان دقّ رمحاً في فلان» إنها أنشودة بطولة ومستقبل زاهر.

(١) رأية: نظرة. علقا: عشقا. لقد فتّح الفتيان أعينهما على راية ترفرف في أفق حياتهما، إنها راية المجد ووالدهما يحملها بكلتا يديه شامخة تسحر القلوب والعيون، لذا تمكّن حبّها في نفسيهما قبل سن الشباب، فاتّخذاها منهاجاً لهما.

(٢) الصارخ: المستغيث. إغاثة: إعانة، نصرة. العاني: الأسير. فأول ما تبادر إلى سمعيهما من كلام يتعلّق بقيامهما بما يتوجّب عليهما من مساعدة مستغيث بنصرته ودفع الظلم عنه، والعمل على فكّ أسير من أسره ورده إلى رحاب الحرية.

(٣) يُخاطب الشاعر عضد الدولة، إنه بمثابة شمس تبثّ ضياءها بشعاع يبهر الأبصار ويحيّر الألباب، فكيف به وقد بدا بأفق حياته شمسان يبهران ببريق مستقبل واعد زاهر؟

(٤) يدعو الشاعر بطول العمر لهذين الفتيين، إنهما قمران يبثّان أنسهما وسحرهما على الكون بحنان، فينعم الناس بالخير والأمن بهما ويتمنّى الشاعر أن يسود بينهما الحبّ والودّ وألّا يتعاديا ويختلفا.

(٥) ويُردف الشاعر متمنياً دوام عضد الدولة ودوام ملكه، على أن يستأثرا بممالك الأعادي بعد قتلهم من قبلهما.

(٦) كاثراه: فاخراه بالكثرة، المفاخرة بين الملوك عادة متأصلة فيهم، فثمة من فاخر عضد =

دُعَــاءٌ كَــالــثَّــنَــاءِ بِــلَا رِئَــاءٍ
يُــؤَدِّيــهِ الْــجَــنَــانُ إِلَــى الْــجَــنَــانِ[(١)]

فَــقَــدْ أَصْــبَــحْــتُ مِــنْــهُ فــي فِــرِنْــدٍ
وَأَصْــبَــحَ مِــنْــكَ فــي عَــضْــبٍ يَــمَــانِ[(٢)]

وَلَــوْلَا كَــوْنُــكُــمْ فــي الــنَّــاسِ كَــانُــوا
هُــرَاءً كَــالْــكَــلَامِ بِــلَا مَــعَــانِ[(٣)]

= الدولة بولديه، فإذا بعضد الدولة ينجب ولدين اجتمعت لديهما أسباب السؤدد بأخلاقهما ومزاياهما، فما كان من العدوّ إلّا أن أحسّ بهوان منزلة ولديه، فقد زاد عدداً ونقصا قيمة، فكأنهما ما كانا تماماً كزيادة ياء التصغير في أنيسيان.

(١) الرئاء: التظاهر، والمرآة بغير ما يبطن المرء. الجنان: القلب. يُخاطب الشاعر عضد الدولة أنه يُثني عليه ويدعو له من قلب صادق الود والنية لا رياء فيه ولا ضغينة، وما خرج من القلب يصل إلى أعماق القلب وشغافه إن اتسم بصدق الإحساس والعاطفة.

(٢) فرند السيف: جوهره ووشيه. العضب: السيف البتّار. اليماني: السيف المصنوع في اليمن. يُنوّه الشاعر بتلازم عضد الدولة وشعره، فكلاهما زين لإلفه، فالممدوح سيف قاطع يستحقّ زينة ليكون فرنده بمستواه، فإذا بشعر الشاعر يرمي عليه من شعره، فيبدو كأجمل ما يكون لانسجام كل منهما مع الآخر.

(٣) الهراء: الساقط من الكلام. يُخاطب الشاعر الممدوح بأنه روح المعنى، فلولاه لكان الناس لا معنى لهم ولا عنوان فكان عضد الدولة المعنى والعنوان في عالم الوجود.

رويّ الهاء

الدهر لفظ أنت معناه

وأراد أبو العشائر سفراً فقال يودعه :

[المنسرح]

أَلــنَّـــاسُ مَـــا لَــمْ يَــرَوْكَ أَشْـبَــاهُ
وَالــدَّهْــرُ لَــفْــظٌ وَأَنْــتَ مَــعْــنَــاهُ[١]

وَالْـــجُـــودُ عَــيْـــنٌ وَأَنْـــتَ نَـــاظِــرُهَــا
وَالْـــبَـــأْسُ بَـــاعٌ وَأَنْـــتَ يُـــمْـــنَـــاهُ[٢]

أَفْـــدِي الَّـــذِي كُـــلُّ مَـــأزِقٍ حَـــرِجٍ
أَغْـــبَـــرَ فُـــرْسَـــانُـــهُ تَـــحَـــامَـــاهُ[٣]

---

(١) ورد البيتان الأولان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٧. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية، فالناس يتشابهون في كلّ شيء، في أخلاقهم وعاداتهم وميولهم واستعداداتهم، لكنهم إذا رأوا الممدوح تغيّرت آراؤهم لأنه رديف الدهر وعنوانه الذي يستشف منه طالع مصائرهم، فبه الدهر تنفذ إرادته فرحاً وسروراً أو تنكيداً وألماً.

(٢) ناظر العين: إنسانها. البأس: الشجاعة. الباع: قدر مدّ اليد. يُشيد الشاعر بممدوحه، إنه الجود بعينه لأنه به يرى حاجات الناس فيسلّط أضواءه على المعوزين منهم والأولياء التابعين للأمير، وكما أن الناس بمثابة الباع الذي لا قدرة له إلّا باليد التي تترجم القوّة والكرم فتجعلهما حقيقة تسطع آلاؤها في حياة البشر.

(٣) المأزق: الضيق. الحرج: الضيق. أغبر: كثير الغبار. يُعلن الشاعر عن استعداده للتضحية بنفسه لأجل الحفاظ على من يرهبه الأبطال ويخافون جولته لشجاعته وحسن بلائه في الحروب عندما يلتقي الفرسان وقد تعالت الأغبار سادّة الرؤية عن المتقاتلين.

أعْلَى قَنَاةِ الْحُسَيْنِ أوْسَطُهَا
فِيهِ وَأَعْلَى الْكَمِيِّ رِجْلَاهُ[(١)]

تُنْشِدُ أثْوَابُنَا مَدَائِحَهُ
بِأَلْسُنٍ مَا لَهُنَّ أفْوَاهُ[(٢)]

إذَا مَرَرْنَا عَلَى ٱلْأَصَمِّ بِهَا
أغْنَتْهُ عَنْ مِسْمَعَيْهِ عَيْنَاهُ[(٣)]

سُبْحَانَ مَنْ خَارَ لِلْكَوَاكِبِ بِالْـ
ـبُعْدِ ولَوْ نِلْنَ كُنَّ جَدْواهُ[(٤)]

لَوْ كَانَ ضَوْءُ الشُّمُوسِ في يَدِهِ
لَصَاعَهُ جُودُهُ وَأفْنَاهُ[(٥)]

يَا رَاحِلاً كُلُّ مَنْ يُوَدِّعُهُ
مُوَدِّعٌ دِينَهُ وَدُنْيَاهُ[(٦)]

---

(١) الكمي: البطل المدجج بالسلاح. يُردف الشاعر مديحه أنه على استعداد ليفدي بنفسه الذي يخوض غمار الحروب وبيده رمحه، فإذا به بسرعة البرق قد مزّق أحشاء عدوّه البطل الشاكي السلاح، فلم يمنع ما عليه من سلاح من أن يلاقي حتفه، فإذا به قد وقع أرضاً يشغب دماً، وقد ارتفعت مؤذنة بموته.

(٢) و (٣) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٧. يفخر الشاعر بما يناله من الأمير، فخلعه يزهو بها ويتيه على سواه من المستفيدين من جوده، فإذا بها تدلّ على كرم الممدوح بغير لسان؛ إنها بمثابة قصيدة جعلت الأصم الذي لا يسمع يُغني مادحاً الأمير بعينه، معجباً بصنيعه.

(٤) خار: اختار. نلن: حصلن. الجدوى: العطية. يعجب الشاعر لإفراط الممدوح بالجود، ولولا أن اللّه سبحانه وتعالى جعل الكواكب في سمائها تسبح لفرّقها الأمير بين الناس ولشملتهم عطاياه.

(٥) صاعه: فرقه. يردف الشاعر منوّهاً بجود الأمير الذي لا حدود له، فلو أن ضوء الشموس بيديه لفرّط به ووزّعه بين البشر فأفناه لأنهم سوف يتخطّفونه، كلّ لنفسه.

(٦) ورد البيتان الأخيران في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٧. يجعل الشاعر الأمير رمزاً للدين، فحمايته وحماية من يدينون به من مهماته وواجباته، فمن خلع طاعته فقد =

إنْ كَـــانَ فِـــي مَـــا نَـــرَاهُ مِـــنْ كَـــرَم
فِـــيـــكَ مَـــزِيـــدٌ فَـــزَادَكَ الـــلَّـــهُ[١]

أمواه الحديد

وقال قوم: لم يكنك يا أبا العشائر، فقال:

[المنسرح]

قَـــالُـــوا أَلَـــمْ تَـــكْـــنِـــهِ؟ فَـــقُـــلْـــتُ لَـــهُـــمْ
ذٰلِـــكَ عِـــيٌّ إِذَا وَصَـــفْـــنَـــاهُ[٢]

لَا يَـــتَـــوَقَّـــى أَبُـــو الْـــعَـــشَـــائِـــرِ مِـــنْ
لَـــبْـــسِ مَـــعَـــانِـــي الْـــوَرَى بِـــمَـــعْـــنَـــاهُ[٣]

أَفْـــرَسُ مَـــنْ تَـــسْـــبَـــحُ الْـــجِـــيَـــادُ بِـــهِ
وَلَـــيْـــسَ إِلَّا الْـــحَـــدِيـــدَ أَمْـــوَاهُ[٤]

= بريء من الدين، فالدنيا لا تقوم إلّا بالملك وهو الملك، فعلى الناس الطاعة لينعموا بعدله ورعايته.

(١) يُخاطب الشاعر الأمير، إنه غاية في الكرم لا مزيد بعدها، فكرمه فاق سائر البشر، وإن كان مزيد كرم فليكن كرم اللّه تعالى يفيض عليه من نعمه.

(٢) كناه: دعاه بكنيته. العي: العجز عن النطق. التكنية إحدى مظاهر الاحترام في المصطلح العربي. فثمة من سأل الشاعر حاضًا له على تكنية الممدوح بكنيته، فيردّ الشاعر أن في صفاته الرفيعة ما يغني عن الكنية لأنها محصورة بإحدى صفاته، وصفاته عديدة، كلّ ما فيها ينمّ عن علوّ شأنه، ففي ذلك إجحاف بالممدوح.

(٣) اللبْس: الاشتباه في الأمور. الورى: الخلق. يرى الشاعر أن البشر يشتركون بصفاتهم على أقدار متفاوتة رغم تقاربها، بينما يُشارك الأمير سواه في المصطلحات ويختلف بمدلولاتها، لأنها اكتملت فيه وبه قامت ولذا لا يتوقّى المقارنة بينه وبين سواه من الخلق، لأنه فوق المقارنة بمدلولها الحسيّ.

(٤) الجياد: الخيول. تسبح الجياد: تعدو مسرعة كأنها تسبح. يمدح الشاعر الأمير، إنه أعلى الفرسان كعباً في فنون الفروسية، وهو بطل يجعل الجياد كأنها تسبح عندما يمتطيها في ميدان المعركة، وقد تسربل بالحديد، فإذا به كأنه في بحر متلاطم الأمواج، وهو ينساب بين أعدائه كالماء سلاسة وسرعة.

اللّه يبغي نصره

وأجمل سيف الدولة ذكره وهو يسايره فقال:

[الكامل]

أَنَا بِالْوُشَاةِ إِذَا ذَكَرْتُكَ أَشْبَهُ
تَأْتِي النَّدَى وَيُذَاعُ عَنْكَ فَتَكْرَهُ[1]

وَإِذَا رَأَيْتُكَ دُونَ عِرْضِي عَارِضاً
أَيْقَنْتُ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْغِي نَصْرَهُ[2]

الدار المباركة

دخل على الأستاذ كافور بعد انتقاله من دار البركة إلى الدار الثانية فقال وأنشده إياها في شهر محرم سنة سبع وأربعين وثلاث مئة (٩٥٨م):

[البسيط]

أَحَقُّ دَارٍ بِأَنْ تُدْعَى مُبَارَكَةً
دَارٌ مُبَارَكَةُ المَلْكِ الّذِي فِيهَا[3]

وَأَجْدَرُ الدُّورِ أنْ تُسْقَى بِسَاكِنِهَا
دَارٌ غَدَا النَّاسُ يَسْتَسْقُونَ أهْلِيهَا[4]

هَذِي مَنَازِلُكَ الأخْرَى نُهَنِّئُهَا
فَمَنْ يَمُرُّ عَلَى الأُولَى يُسَلِّيهَا[5]

---

(١) يخاطب الشاعر سيف الدولة، إنه ينشر ذكره ومحاسنه، وبذلك يُشبه الوشاة، والفرق بينهما أن الوشاة يبغون الإساءة إلى من يأتون على ذكره، بينما يبغي الشاعر إشاعة فضائل ممدوحه وتبيان فضائله لتشيع بين البشر.

(٢) وينوّه الشاعر بشجاعة الأمير، وبأن النصر حليفه عندما يراه قد أعدّ للحرب عدّتها، واستعرض جنده، ساعتئذٍ تلوح علائم النصر من لدن ربّ العالمين لنصرة دينه.

(٣) إن من أسباب تسمية تلك الدار أن ساكنها ملك مبارك، لذا انتسبت الدار إلى ساكنها فسميت مباركة.

(٤) الاستسقاء: طلب السقيا. إنها دار ساكنها كريم يقصده الخلق ليسترفدوه من عطائه، لذا فهو يتّخذ من تلك الدار مستروحاً يستريح الناس لسقياها، فهي بمثابة مبرّة يجدون فيها ما يتمنون من خير وجود.

(٥) يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه حلّ بتلك الدار فكانت مثابة للناس تقصد لتهنئتها بمن =

إِذَا حَلَلْتَ مَكَاناً بَعْدَ صَاحِبِهِ
جَعَلْتَ فِيهِ عَلَى مَا قَبْلَهُ تِيهَا[١]

لَا يُنْكَرُ الْحِسُّ مِنْ دَارٍ تَكُونُ بِهَا
فَإِنَّ رِيحَكَ رُوحٌ فِي مَغَانِيهَا[٢]

أَتَمَّ سَعْدَكَ مَنْ أَعْطَاكَ أَوَّلَهُ
وَلَا اسْتَرَدَّ حَيَاةً مِنْكَ مُعْطِيهَا[٣]

مولى الملوك

يمدح عضد الدولة عند قدومه عليه بشيراز:

[المنسرح]

أَوْهِ بَدِيلٌ مِنْ قَوْلَتِي وَاهاً
لِمَنْ نَأَتْ وَالْبَدِيلُ ذِكْرَاهَا[٤]

أَوْهِ لِمَنْ لَا أَرَى مَحَاسِنَهَا
وَأَصْلُ وَاهاً وَأَوْهِ مَرْآهَا[٥]

= حلّ فيها وباركها، أما الدار التي فارقها فقد أوحشت لفقدها أفضل ساكنيها.

(١) تاه: تكبّر وافتخر. يُخاطب الشاعر ممدوحه أنه حيثما حلّ تاهت الديار به على سواها لأنه مفخرتها ومصدر اعتزازها أن بوركت بتلك التكرمة دون غيرها.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٣. يروى «تُنكر» بالتاء بدلاً من «ينكر». ويروى «العقل» بدلاً من «الحسّ». مغاني، الواحد مغنى: المنزل. يُخاطب الشاعر ممدوحه، بأنه روح حيثما حلّ في الديار، فبه تحيا وبه تتنفّس، فإذا ما فارقها عادت إليها الكآبة، فكأنها خاوية لا حياة فيها.

(٣) يدعو الشاعر لممدوحه بدوام السعادة والعمر، إنه عطاء اللّه تعالى لمستحقّه، يتمنّى له البقاء، فقد استحقّ ذلك بالتوفيق الإلهي.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٥. أوه: أداة توجّع. واهاً: كلمة تعجّب واستطابة. نأت: بعدت، يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي. لقد رحلت الحبيبة فتبدّلت حياة الشاعر، فقبل رحيلها كان يهشّ لذكرها ويُسرّ، وها هو الآن يتأوّه حزناً وألماً لفراقها، فإذا تذكرها زاد حزنه وأمضّ البعد نفسه.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٥. يروى «من أن» بدلاً من «لمن». =

شَــامِـيَّـةٌ طَـالَـمَـا خَـلَـوْتُ بِـهَـا
تُـبْـصِـرُ فِـي نَـاظِـرِي مُـحَـيَّـاهَـا(١)
فَـقَـبَّـلَـتْ نَـاظِـرِي تُـغَـالِـطُـنِي
وَإِنَّـمَـا قَـبَّـلَـتْ بِـهِ فَـاهَـا(٢)
فَـلَـيْـتَـهَـا لَا تَـزَالُ آوِيَـةً
وَلَـيْـتَـهُ لَا يَـزَالُ مَـأْوَاهَـا(٣)
كُـلُّ جَـرِيـحٍ تُـرْجَـى سَـلَامَـتُـهُ
إِلَّا فُـؤَاداً دَهَـتْـهُ عَـيْـنَـاهَـا(٤)
تَـبُـلُّ خَـدَّيَّ كُـلَّـمَـا ابْـتَـسَـمَـتْ
مِـنْ مَـطَـرٍ بَـرْقُـهُ ثَـنَـايَـاهَـا(٥)

= يعزو الشاعر سبب ألمه وحزنه أنه رأى حبيبته وشاهد محاسنها، وهاهو الآن يفتقدها، ولا ينعم بقربها ممّا يجعله يتألم لبعدها عنه.

(١) و (٢) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٢. الناظر: العين. المحيا: الوجه. محبوبته شامية، رقيقة المشاعر، اكتملت فيها عناصر الجمال والرّقة في وجه بديع. لقد خلا بها، إنهما يتبادلان النظرات، لشدّة هيامها به تنظر إلى عينيه لترى كيف ارتسمت فيهما لتعرف مدى حبّه لها، فإذا بدائرة الضوء في عينيه تتّسع بحيث تتوضح الرؤية فترى نفسها في عينيه فتُقدم على تقبيل نفسها في عينيه، ممّا يدلّ على هيامها بجمالها وإحساسها بمدى سحرها وأثره في قلب الشاعر.

(٣) يتمنّى الشاعر لو أن عينيه استبقت فيهما صورتها لتبقى جد قريبة منه ولا تفارقه أبداً، لقد كان للقبلة سحرها وأثرها في نفسه لما وجد من لذّة القرب.

(٤) دهته: أصابته بنكبة، يرى الشاعر أنه ما من جريح إلّا ويشفى، ويستعيد صحته، ولكن الأمر يتعلّق بعيني حبيبته، فعيناها قاتلتان لا يُرجى الشفاء منهما؛ فجراحهما تُدمي القلب، إنها سهام تخترق أعماق القلوب.

(٥) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٢. الثنايا، الواحدة ثنيّة: السن في مقدم الفم. يصف الشاعر أثر ابتسامة حبيبته في نفسه، فإذا ابتسمت له ولشدّة شوقه إذا بدموعه تنهمر على خديه حالما يرى بياض ثناياها المشرقة بالفرحة.

مَـا نَــفَـضَـتْ فِـي يَـدِي غَـدَائِـرُهَـا
جَـعَـلْـتُـهُ فِـي الْـمُـدَامِ أَفْـوَاهَـا[١]

فِـي بَـلَـدٍ تُـضْـرَبُ الْـحِـجَـالُ بِـهِ
عَـلَـى حِـسَـانٍ وَلَـسْـنَ أَشْـبَـاهَـا[٢]

لَـقِـيـنَـنَـا وَالْـحُـمُـولُ سَـائِـرَةٌ
وَهُـنَّ دُرٌّ فَـذُبْـنَ أَمْـوَاهَـا[٣]

كُـلُّ مَـهَـاةٍ كَـأَنَّ مُـقْـلَـتَـهَـا
تَـقُـولُ إِيَّـاكُـمْ وَإِيَّـاهَـا[٤]

فِـيـهِـنَّ مَـنْ تَـقْـطُـرُ الـسُّـيُـوفُ دَمـاً
إِذَا لِـسَـانُ الْـمُـحِـبِّ سَـمَّـاهَـا[٥]

---

(١) الغدائر، الواحدة غديرة: الضفائر، الذوائب من الشعر. المدام: من أسماء الخمرة. الأفواه، الواحد فوه: أخلاط الطيب. إن حبيبة الشاعر مترفة تتخذ لغدائرها طيباً تضمخ به شعرها، ولكثرة ما فيه منه فإذا حرّكت رأسها تناثر الطيب، فإذا بالشاعر يُحسّ بنشوة سكر كأنه ارتوى من مدام.

(٢) وردت الأبيات الثلاثة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٢. الحجال، الواحدة، حجلة: الستور. إن حبيبة الشاعر تنتسب إلى بلد تكثر فيه الحسان الجميلات المترفات اللواتي يتّخذن الحجال لهن مضاجع يستترن داخلها، ولكن حبيبته لا تُضارعها منهن من تُقاربها جمالاً ورقة.

(٣) الحمول: الإبل تحمل الهوادج. يصف الشاعر لحظة ظعن أولئك النسوة وقد انطلق الركب، والموكب يبتعد قليلاً قليلاً، ودموعهن تعبّر عن أساهن لفراق الديار والأحباب، إنها لؤلؤ قد غطت الوجنات.

(٤) المهاة: البقرة الوحشية. إن النساء على قدر كبير من الجمال، وأعينهن ساحرات قاتلات ترمي سهاماً فمن أصابته أسرته، لذا يرى المرء فيهن قوّة التحدّي من قبلهن والتحذير من إغرائهن، فالويل لمن يتعرّض لتأثيرهن.

(٥) يردف الشاعر منوّهاً بمناعة بعض هؤلاء النسوة، فبمجرد ذكر امرئ اسم إحداهن تعني إباحة دمه، فثمّة من يقوم على حمايتها بنفسه وسيفه غيرة وحماية لها، هذا في حال من كان لا عشيرة له، وإن كان ينتمي إلى عشيرة، فلا بدّ من قيام حرب بين الفئتين.

أُحِبُّ حِمْصاً إِلَى خُنَاصِرَةٍ
وَكُلُّ نَفْسٍ تُحِبُّ مَحْيَاهَا[1]

حَيْثُ الْتَقَى خَدُّهَا وَتُفَّاحُ لُبْـ
ـنَانَ وَثَغْرِي عَلَى حُمَيَّاهَا[2]

وَصِفْتُ فِيهَا مَصِيفَ بَادِيَةٍ
شَتَوْتُ بِالصَّحْصَحَانِ مَشْتَاهَا[3]

إِنْ أَعْشَبَتْ رَوْضَةٌ رَعَيْنَاهَا
أَوْ ذُكِرَتْ حِلَّةٌ غَزَوْنَاهَا[4]

أَوْ عَرَضَتْ عَانَةٌ مُقَزَّعَةٌ
صِدْنَا بِأُخْرَى الْجِيَادِ أُوْلَاهَا[5]

أَوْ عَبَرَتْ هَجْمَةٌ بِنَا تُرِكَتْ
تَكُوسُ بَيْنَ الشُّرُوبِ عَقْرَاهَا[6]

---

(١) حمص وخناصرة: من بلاد الشام. محياها: موطن حياتها. يُعبّر الشاعر عن حبّه لمراتع صباه، فقد أحبَّ حمص وخناصرة حيث نشأ وترعرع، لأنهما موطن ذكريات عذبة محبّبة على قلبه.

(٢) الثغر: مقدم الفم. الحميا: من أسماء الخمرة. في تلك الربوع كان لقاء خدّ مورّد نضرة وجمالاً كأنه تُفّاح لبنان ريحاً وشكلاً أو كأنه خمرة حمراء تُسكر برحيقها.

(٣) و (٤) صفت: أقمت الصيف. شتوت: أقمت الشتاء. الصحصحان: الأرض المستوية الواسعة، أو اسم موضع. ومن ذكريات الشاعر المحبّبة على قلبه أنه أقام في الصحصحان، ذلك المكان الصحراوي؛ إنها تجربة حياة البداوة صيداً وغزواً لما كان سكان ذلك المكان في ما خلا من الأزمان؛ فإذا نما العشب راحت الأنعام ترتع فيه بسلام وهدوء، كما أن القوم كانوا يردّون غزو المعتدين عليه، أو يغزون من نزل في تلك الديار.

(٥) العانة: القطيع من حمر الوحش. مقزّعة: مفرّقة. يصف الشاعر طريقة صيد تلك الحمر الوحشية، فإذا ما سنحت له ولمن معه قطع مفرّقة ترعى طاروا على خيولهم، فإذا بآخر تلك الخيول يُدرك أوائل ذلك السرب رغم سرعة عدوه، فتعمل فيها رماحها وتصطادها.

(٦) الهجمة: القطعة من الإبل من أربعين فما فوق. تكوس: تمشي على ثلاث قوائم. الشروب، الواحد شارب: جماعة الشاربين. عقراها، الواحد عقير: البعيد الذي قطعت =

وَالْــــخَـــيْـــلُ مَــــطْـــرُودَةٌ وَطَـــارِدَةٌ
تَــجُــرُّ طُــولَــى الْــقَــنَــا وَقُــصْــرَاهَــا[١]
يُــعْــجِــبُــهَــا قَــتْــلُــهَــا الْــكُــمَــاةَ وَلَا
يُــنْــظِــرُهَــا الــدَّهْــرُ بَــعْــدَ قَــتْــلَاهَــا[٢]
وَقَـــدْ رَأَيْـــتُ الـــمُـــلُـــوكَ قَـــاطِـــبَـــةً
وَسِـــرْتُ حَـــتَّـــى رَأَيْـــتُ مَـــوْلَاهَـــا[٣]
وَمَـــنْ مَـــنَـــايَـــاهُـــمْ بِـــرَاحَـــتِـــهِ
يَـــأْمُـــرُهَـــا فِـــيـــهِـــم وَيَـــنْـــهَـــاهَـــا[٤]
أَبَـــا شُـــجَـــاعٍ بِـــفَـــارِسٍ عَـــضُـــدَ الـــدَّو
لَـــةِ فَـــنَّـــاخُـــسْـــرُوْاً شَـــهَـــنْـــشَـــاهَـــا[٥]
أَسَـــامِـــيـــاً لَـــمْ تَـــزِدْهُ مَـــعْـــرِفَـــةً
وَإِنَّـــمَـــا لَـــذَّةٌ ذَكَـــرْنَـــاهَـــا[٦]

= إحدى قوائمه لينحر. يصف الشاعر حياة البادية في الجاهلية، فإذا ما رأوا سرباً من الإبل راحوا يُلاحقونه ويختارون من بينه ما يعقرونه ليتّخذوه طعاماً مع شربهم الخمرة.

(١) إنها حياة لهو ومران، يمتطي الفتيان خيولهم؛ فمنهم من يقوم بدور المطارِد ومنهم من يقوم بدور المطارَد، وهم يحملون الرماح الطويلة منها والقصيرة، وهكذا تمضي الحياة رخيّة ملؤها السعادة وروح المرح.

(٢) الكماة، الواحد كميّ: البطل الشاكي السلاح. يُنظرها: يُمهلها. والأمر يختلف إذا كانت الحرب، فإذا بالفتيان اللّاهين العابثين يتحوّلون إلى أبطال يُعملون قتلاً في الكماة المدججين بالسلاح، والدهر مؤاتٍ لما يرغبون ويتمنّون من سفك الدماء. إنها حياة الجاهلية بقيمها ومظاهرها.

(٣) يتخلّص الشاعر إلى مدح ممدوحه. قاطبة: جمعاً. لقد كانت تجربة الشاعر غنيّة فقد مدح من الأمراء والملوك عديدين، ولكنه لا يزال يُفتش حتى أدرك أفضلهم ومولاهم، إنه عضد الدولة.

(٤) المنايا، الواحدة منيّة: الموت. ينوّه الشاعر بطول يد الممدوح، إنه قادر على تصريف حياة الملوك، فإن أراد إهلاكهم كان له ما أراد وإن أراد الإبقاء على حياتهم مَنّ عليهم بها حبًّا وكرامة.

(٥) و (٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٤. إنه تعريف بالممدوح يكنى =

تَـقُـودُ مُـسْـتَـحْـسَـنَ الْـكَـلَامِ لَـنَـا
كَـمَـا تَـقُـودُ الـسَّـحَـابَ عُـظْـمَـاهَـا(١)
هُـوَ الـنَّـفِـيـسُ الَّـذِي مَـوَاهِـبُـهُ
أَنْـفَـسُ أَمْـوَالِـهِ وَأَسْـنَـاهَـا(٢)
لَـوْ فَـطِـنَـتْ خَـيْـلُـهُ لِـنَـائِـلِـهِ
لَـمْ يُـرْضِـهَـا أَنْ تَـرَاهُ يَـرْضَـاهَـا(٣)
لَا تَـجِـدُ الْـخَـمْـرُ فِـي مَـكَـارِمِـهِ
إِذَا انْـتَـشَـى خَـلَّـةً تَـلَافَـاهَـا(٤)
تُـصَـاحِـبُ الـرَّاحُ أَرْيَـحِـيَّـتَـهُ
فَـتَـسْـقُـطُ الـرَّاحُ دُونَ أَدْنَـاهَـا(٥)

= بأبي شجاع، يستوطن فارس، لقبه عضد الدولة، يسمّى فنّاخُسرو، وهو ملك الملوك. ما تقدّم تعريفات وأسماء لا تزيد الممدوح تعريفاً فهو مشهور معروف، ولكن الحبّ أن يتغنّى المرء بذكر من أحبّ.

(١) تلك الأسماء تحمل في طيّاتها دلالات نبيلة لمن يتسمّى بها ويتّصف، ويُستشفّ منها أطيب الذكر، تماماً كما تسحب السحابة الكبيرة سواها من السحب لتمطر خيراً فكذلك تلك الدلالات تستتبع عظام الأمور التي يتحلّى بها الممدوح.

(٢) النفيس: ذات القيمة. أسناها: أرفعها. يُشيد الشاعر بعضد الدولة، إنه نفيس ذو قيمة عظيمة ومواهب سامية، جواد كريم ينثر أمواله في مواليه دون حساب، ورغم ذلك فهو فوق كلّ مادة لما يتمتّع به من سموّ.

(٣) يُردف الشاعر منوّهاً بعظم جوده أنه لو انتبهت خيوله في مرابطها بأنه يمنح أفضل ما لديه لطالبي نعمه ما تمنّت أن تكون أفضل ما لديه لتبقى في رعايته وتحت سلطته.

(٤) و (٥) الخلّة: الخصلة. انتشى: سكر. تلافاها: تجنّبها. إنه كريم في كلّ حالات حياته سواء شرب الخمرة، فهو كريم لا تتبدّل حياته وسلوكه مع المستفيدين من عطاياه. فكرمه لا يخضع لمؤثرات سلبية مهما كانت، فأريحيته لداعي الكرم تقوى حتى على الخمرة في حالة شربها؛ فأدنى حالة من حالات معاطاته الشراب تسقط إذا كان الأمر يتعلّق بالسخاء لأنه المتأصل في عادته. وفي قصيدة أخرى ينوّه الشاعر بأن ممدوحه لا يقرب شرب الخمرة لأنه يعتبرها من المحرمات!!

تَسُرُّ طَرْبَاتُهُ كَرَائِنَهُ
ثُمَّ تُزِيلُ السُّرُورَ عُقْبَاهَا[(١)]

بِكُلِّ مَوْهُوبَةٍ مُوَلْوِلَةٍ
قَاطِعَةٍ زِيرَهَا وَمَثْنَاهَا[(٢)]

تَعُومُ عَوْمَ الْقَذَاةِ فِي زَبَدٍ
مِنْ جُودِ كَفِّ الأَمِيرِ يَغْشَاهَا[(٣)]

تُشْرِقُ تِيجَانُهُ بِغُرَّتِهِ
إِشْرَاقَ أَلْفَاظِهِ بِمَعْنَاهَا[(٤)]

دَانَ لَهُ شَرْقُهَا وَمَغْرِبُهَا
وَنَفْسُهُ تَسْتَقِلُّ دُنْيَاهَا[(٥)]

تَجَمَّعَتْ فِي فُؤَادِهِ هِمَمٌ
مِلْءُ فُؤَادِ الزَّمَانِ إِحْدَاهَا[(٦)]

---

(١) و (٢) طرباته، الواحدة طربة: المرّة من الطرب. الكرائن، الواحدة كرينة: الجارية المغنية. ومن مغالاة الشاعر أن عضد الدولة داخله السرور من غناء جواريه وتملّك منه السكر أحزن جواريه بأنه راح يهبهنّ فإذا بهن يبكين حزناً لفراقه لما يلاقين من عظم كرمه معهن؛ فإذا بالواحدة منهن تذهب مولولة، وقد قطّعت أوتار عودها غضباً وندماً لخروجها ممّا ملكت يداه.

(٣) تعوم: تسبح. القذاة: ما يقع في العين ممّا يؤذيها. الزبد: الرغوة تطفو على وجه الماء. يغشاها: يعلوها. ومن شدّة كرم الممدوح أن تخلّيه عن تلك القينة كأنها بمثابة قذاة تطفو على سطح بحر جوده من جمله عطاياه التي يهبها فلا يتأثّر لذلك مهما كانت ذات حظوة لديه.

(٤) غرّته: وجهه. يصف الشاعر ممدوحه بأنه إذا وضع تاجه على رأسه تولّدت الأنوار، لأن وجهه مشرق جميل قد تلاقى بأنوار تاجه الذهبي، وما يزيده إشراقاً وجمالاً في نفس الشاعر فصاحته وإشراق عباراته.

(٥) دان: خضع. يمدح الشاعر عضد الدولة بقوّة الغلبة، فقد أخضع الدنيا شرقها وغربها، بملوكها وشعوبها، ومع ذلك فهو يستقلّ ما أوكل إليه أمره، ممّا يُوحي بشره السيادة فيه، إنه الملك الوحيد القادر في عصره.

(٦) الهمم، الواحدة همّة. يُنوّه الشاعر بقوّة عزم ممدوحه، فقد اجتمعت همم لا حصر =

فَـــإِنْ أَتَـــى حَــظُّـــهَـــا بِـــأَزْمِـــنَـــةٍ
أَوْسَـــعَ مِـــنْ ذَا الـــزَّمَـــنِ أَبْـــدَاهَـــا[١]
وَصَـــارَتِ الْـــفَـــيْـــلَـــقَـــانِ وَاحِـــدَةً
تَـــعْـــثُـــرُ أَحْـــيَـــاؤُهَـــا بِـــمَـــوْتَـــاهَـــا[٢]
وَدَارَتِ الـــنَّـــيِّـــرَاتُ فِـــي فَـــلَـــكٍ
تَـــسْـــجُـــدُ أَقْـــمَـــارُهَـــا لِأَبْـــهَـــاهَـــا[٣]
أَلْـــفَـــارِسُ الْـــمُـــتَّـــقَـــى الـــسِّـــلَاحُ بِـــهِ الْـــ
ـــمُـــثْـــنِـــي عَـــلَـــيْـــهِ الْـــوَغَـــى وَخَـــيْـــلَاهَـــا[٤]
لَـــوْ أَنـــكَـــرَتْ مِـــنْ حَـــيَـــائِـــهَـــا يَـــدُهُ
فِـــي الْـــحَـــرْبِ آثَـــارَهَـــا عَـــرَفْـــنَـــاهَـــا[٥]

= لها، إحداها لا تستطيع الأرض بمن فيها وما فيها أن تنهض بأعبائها فإذا بالزمن يقف عاجزاً عن اللحاق بشأوه علماً أن الزمان لا تُقدّر قوته.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٧. ومن المغالاة أن الزمان اللامحدود قاصر عن أن يقوم بأعباء همم عضد الدولة، فلو توفّرت أزمنة متعدّدة أمكن في هذه الحالة أن يكشف الممدوح عمَّا يتمتّع بتلك الهمم الجبَّارة، ولذلك فهو يُخفيها عن البشر.

(٢) و (٣) الفيلق: الجيش، والجماعة. كأن الشاعر يقصد من البيت يوم القيامة عندما يجتمع الأولون والآخرون على صعيد واحد في هذا الوقت بالذات تظهر معظم همم ذلك الممدوح؛ عندئذٍ تتوحّد الأزمنة ويبدو البشر عاجزين أمام عضد الدولة. فهل بعد هذا القول مقال؟! عندئذٍ يدور الزمان دورته الأخيرة، ويتوافد ملوك الأرض خاضعين أذلّاء أمام عضد الدولة متبرّئين من إنجازاتهم التي تبدو تافهة أمام عبقرية لم توهب لأحد من العالمين سواه. آنئذٍ تتفتّح عبقرية الممدوح عن همم كانت في عالم المجهول لتكشف قدراته الهائلة، على أنها فوق قدرة البشر.

(٤) الوغى: الحرب. يُشيد الشاعر بشجاعة عضد الدولة، إن جيشه يحتمي به من أسلحة أعدائه لأنه أول من يُبادر إلى مواجهتهم بقلب ثابت وعزم أكيد، وأعداؤه بدورهم يُثنون جيادهم نحوه علهم ينالون منه وإن قُتلوا على يديه فإنها مفخرة لهم أن يكونوا من ضحاياه لأنه بطل لا مثيل له.

(٥) محال أن تُصاب يد الممدوح بالجراح، فلو حصل أنها جُرحت، فلا بدّ أن يكون هو =

وكَـيْـفَ تَـخْـفَـى الَّـتـي زِيَـادَتُـهَـا
وَنَـاقِـعُ الْـمَـوْتِ بَـعْـضُ سِـيـمَـاهَـا(١)
أَلْـوَاسِـعُ الْـعُـذرِ أَنْ يَـتِـيـهَ عَـلَـى الـ
ـدُّنْـيَـا وَأَبْـنَـائِـهَـا وَمَـا تَـاهَـا(٢)
لَـوْ كَـفَـرَ الْـعَـالَـمُـونَ نِـعْـمَـتَـهُ
لَـمَـا عَـدَتْ نَـفْـسُـهُ سَـجَـايَـاهَـا(٣)
كَـالـشَّـمْـسِ لَا تَـبْـتَـغِـي بِـمَـا صَـنَـعَـتْ
مَـعْـرِفَـةً عِـنْـدَهُـمْ وَلَا جَـاهَـا(٤)
ولِّ الـسَّـلَاطِـيـنَ مَـنْ تَـوَلَّاهَـا
وَالْـجَـأْ إِلَـيْـهِ تَـكُـنْ حُـدَيَّـاهَـا(٥)

= من جرح نفسه لأن جراحاته مميّزة عن سواها وبخاصة في القتال، ومن المؤكد أنه لا يُوجد من يصل إليه بجراح.

(١) الناقع: الثابت. السيما: العلامة. تُثير ضربات سوط الممدوح إعجاب ودهشة الشاعر، فيكفيه أن يهوي بسوطه على من أراد قتله حتى يقع ميتاً في الحال، فضرباته بمثابة سم زعاف لا شفاء منه، فكيف لو استعمل سيفه؟ فالمصيبة أعظم. من الواضح أن المتنبي لم يُغال في مدحه مثل هذه المغالاة رغم كثرة ممدوحيه.

(٢) يتيه: يفخر ويتكبّر. يمدح الشاعر تواضع ممدوحه، له الحقّ أن يتيه على الدنيا وسائر الناس؛ فعذره أنه أشرفهم وأعظمهم، ولكنه لا يفعل ذلك لشدّة تواضعه.

(٣) كفر: أنكر، جحد. عدت: تجاوزت. السجايا، الواحدة سجيّة: الأخلاق. يمدح الشاعر الجود في طبع ممدوحه؛ فهو مفطور على حبّ العطاء، حتى لو أن الناس أنكروا عليه أفعاله لما تخلّى عن عادة متأصلة متجذّرة في سلوكه وعاداته، فهو فوق تفاهات أمثال هؤلاء من البشر، يعطي ولا يرجو جزاءً.

(٤) إن الممدوح يُشبه الشمس؛ فهي معطاء لا تبتغي فضلاً أو بدلاً، وهي لا تميّز بين البشر؛ فضوءها ودفؤها، لا تبخل بهما على أحد تماماً كالممدوح لا يرجو ثواباً أو عوضاً على ما يفعل من خير.

(٥) حدياها: معارضاً لها. يُخاطب الشاعر البشر أن يتعرّضوا لممدوحه بالسؤال دون سائر الملوك لأنهم يلجأون إليه فهو مرجعهم الأول والأخير دون سواه.

وَلَا تَغُرَّنَّكَ الْإِمَارَةُ فِي
غَيْرِ أَمِيرٍ وَإِنْ بِهَا بَاهَى[١]
فَإِنَّمَا الْمَلْكُ رَبُّ مَمْلَكَةٍ
قَدْ أَفْعَمَ الْخَافِقَيْنِ رَيَّاهَا[٢]
مُبْتَسِمٌ وَالْوُجُوهُ عَابِسَةٌ
سِلْمُ الْعِدَى عِنْدَهُ كَهَيْجَاهَا[٣]
أَلنَّاسُ كَالْعَابِدِينَ آلِهَةً
وَعَبْدُهُ كَالْمُوَحِّدِ ٱللَّهَا[٤]

---

(١) باهى: فاخر. قد يسمع المرء بأن فلاناً ما أمير، فعليه ألّا يلتفت إليه لأن الاسم لا ينطبق على المسمى، ثمة من يُسمّى حقيقة، وتنطبق عليه مواصفات الأمير اللائقة بالإمارة إنه عضد الدولة.

(٢) يروى «فغم» بدلاً من «أفعم» وفغم: ملأ خياشيمه رائحة. الخافقين: الشرق والغرب. الريا: العرف الطيّب. يُعرف الشاعر مصطلح الملك، فيستمدّ من ممدوحه مواصفاته إنه من ملأ الدنيا بإنجازاته العظيمة التي ساح صيتها الشرق والغرب من منارة مملكته المرهوبة الجانب.

(٣) الهيجاء: الحرب. يمدح الشاعر ممدوحه بالشجاعة التي لا تقهر أبداً، فإذا حمي الوطيس، واشتدّ على الأبطال لهبها كان عضد الدولة باسماً ساخراً من أعدائه الذين تجهّمت وجوههم لشدّة خوفهم وجزعهم. وسيان عنده صالحه وهادنه أعداؤه أم قاتلوه، فالنصر إلى جانبه.

(٤) يصنّف الشاعر الناس أنهم يخضعون لملوكهم فيُبجّلونهم حتى العبادة، وكان عليهم أن يخضعوا لممدوحه دون سواه، وهو بدوره لا يرى سوى ممدوحه اختاره ليكون عبده، وكأنه في ذلك موحّد يعبد اللّه عزّ وجلّ دون سواه.

رويّ الواو

يمج اللؤم منخره وفوه

نزل أبو الطيب في أرض حسمى برجل يقال له وردان بن ربيعة الطائي فاستغوى وردان عبيد أبي الطيب فجعلوا يسرقون له من أمتعته، فلما شعر أبو الطيب بذلك ضرب أحد عبيده بالسيف فأصاب وجهه وأمر الغلمان فأجهزوا عليه وقال يهجو وردان:

[الوافر]

لَئِنْ تَكُ طَيِّىءٌ كَانَتْ لِئَاماً
فَأَلأَمُهَا رَبِيعَةُ أوْ بَنُوهُ (١)

وَإنْ تَكُ طَيِّىءٌ كَانَتْ كِرَاماً
فَوَرْدَانٌ لِغَيْرِهِمِ أبُوهُ (٢)

مَرَرْنَا مِنهُ فِي حِسْمَى بَعَبْدٍ
يَمُجُّ اللُّؤْمَ مَنْخِرُهُ وَفُوهُ (٣)

أشَذَّ بِعِرْسِهِ عَنِّي عَبِيدِي
فَأَتْلَفَهُمْ وَمَالِي أتْلَفُوهُ (٤)

---

(١) و (٢) ربيعة هو أبو وردان. يبدأ الشاعر هجاءه قبيلة طيّئ، مفترضاً أنهم من طينة اللؤم بمكان توارثوا اللؤم عبر أجيالهم، ولكن ربيعة وبنيه أشدّهم لؤماً؛ إن ظنّ أنهم كرام قد نبتوا في الكرم والرفعة فمعنى ذلك أن وردان ليس منهم وهو لا ينتمي إليهم، وإنما هو دعيّ ينسب نفسه إلى نبلاء كرام.

(٣) حِسمَى: اسم موضع. مجّ الشراب بفيه: تفله ولفظه. يذكر الشاعر أنه مرّ بمهجوّه وردان فكان على لؤم طبع، ولسانه تفل كلّ بذيء قول ينمّ عن خساسة طبع ولؤم منبت.

(٤) شذّ العبد: أبق وفرّ. العرس: امرأة الرجل. يتّهم الشاعر وردان بأنه سبب إتلاف =

فَــإنْ شَــقِـيَــتْ بِــأَيْــدِيــهِــمْ جِــيَــادِي
لَــقَــدْ شَــقِـيَــتْ بِــمُــنْــصُــلِــيَ الْــوُجُــوهُ[1]

= ماله، فقد جعل زوجته تغري عبيده بالفحشاء، فإذا بعبيده يتركونه وينفقون أمواله استرضاءً لتلك المرأة.

(١) الجياد: الخيول. المنصل: السيف. يصف الشاعر ما حدث في تلك الواقعة، فقد فر من عبيده اثنان بفرسين من جياده، فكان نصب أحدهما القتل على يديه بسيفه، بينما استطاع الآخر الإفلات والنجاة بنفسه، وقد شجعهما على ذلك وردان الذي طمع بسيف الشاعر.

رويّ الياء

أغلب الحيّزين

ذكر سيف الدولة لأبي العشائر أباه وجده فقال أبو الطيب: [الخفيف]

أَغْـلَـبُ الْـحَـيِّـزَيْـنِ مَـا كُـنْـتَ فِـيـهِ
وَوَلِـيُّ الـنَّـمَـاءِ مَـنْ تَـنْـمِـيـهِ[١]

ذَا الَّـــذِي أَنْـــتَ جَـــدُّهُ وَأَبُـــوهُ
دِنْـــيَـــةً دُونَ جَـــدِّهِ وَأَبِـــيـــهِ[٢]

كفى بك داءً

فارق أبو الطيب سيف الدولة ورحل إلى دمشق وكاتبه الأستاذ كافور بالمسير إليه، فلما ورد مصر أخلى له كافور داراً وخلع عليه وحمل إليه آلافاً من الدراهم فقال يمدحه وأنشده إياها في جمادى الآخرة سنة ست وأربعين وثلاث مئة (٩٥٧م): [الطويل]

كَـفَـى بِـكَ دَاءً أَنْ تَـرَى الْـمَـوْتَ شَـافِـيَـا
وَحَـسْـبُ الْـمَـنَـايَـا أَنْ يَـكُـنَّ أَمَـانِـيَـا[٣]

---

(١) الحيز: المكان المحتوي على شيء ما. الولي: الصاحب. تنميه: ترفعه. يُخاطب الشاعر أنه ينتمي إلى أفضل الجانبين، فعشيرته أفضل العشيرتين إذا انتسبتا إلى المفاخر والأنساب، إنه ينتمي إلى قبيلة توارثت الأمجاد عبر الأجيال، وبذلك تغلبت على من سواها من القبائل في مفاخرها. والأمير بمثابة رأسها فلا بدّ أن تسمو بسموّه وترتفع بعزته.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٦. أمالي ابن الشجري ١: ٧٦. دنية: قرباً. يُخاطب الشاعر ممدوحه، ويُوصيه بربيبه من بني قومه، فأبو العشائر بمثابة أبيه وجدّه، فهو تحت جناحه ورعايته وغذي نعمته، فمن الطبيعي أن يكون ولاؤه للأمير، فيه يفتخر وبه يعلو على الأقران.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٧. الأماني، الواحدة أمنية: ما =

تَـمَـنَّـيْـتَـهَـا لَـمَّـا تَـمَـنَّـيْـتَ أَنْ تَـرَى
صَـدِيـقـاً فَـأَعْـيَـا أَوْ عَـدُوًّا مُـدَاجِـيَـا[١]

إِذَا كُـنْـتَ تَـرْضَـى أَنْ تَـعِـيـشَ بِـذِلَّـةٍ
فَـلَا تَـسْـتَـعِـدَّنَّ الْـحُـسَـامَ الْـيَـمَـانِـيَـا[٢]

وَلَا تَـسْـتَـطِـيـلَـنَّ الـرِّمَـاحَ لِـغَـارَةٍ
وَلَا تَـسْـتَـجِـيـدَنَّ الْـعِـتَـاقَ الْـمَـذَاكِـيَـا[٣]

فَـمَـا يَـنْـفَـعُ الأُسْـدَ الْـحَـيَـاءُ مِـنَ الـطَّـوَى
وَلَا تُـتَّـقَـى حَـتَّـى تَـكُـونَ ضَـوَارِيَـا[٤]

= يتمنى المرء من خير. المنايا، الواحدة منيَّة: الموت. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع وجداني، يتكشّف فيه تشاؤمه، ويعرّي ضعفه، فضلاً عن مقته من حالة بائسة وصل إليها، لذا فأسهل داء أن يواجه المرء الموت المريح بشجاعة، إنه أفضل الأماني وأحبّها لقلبه.

(١) أعيا الأمر: أتعب وأعجز. المداجي: المخادع. نظر الشاعر حواليه فلم يجد من يُرجيه ويرجو فيه خيراً، فلا صديق صادق الودّ ويُخلص الحبّ، حتى من يُداري فيُظهر حباً ويُضمر كرهاً قد اختفى، فلا أمل ولا رجاء في حياة، لقد فشل في العثور على شبه صديق، لذا تمنّى الموت، وهو أرخص سلعة وأوفرها في حالة كهذه.

(٢) استعده: اتّخذه عدة له. الحسام: السيف البتّار. اليماني: السيف المصنوع في بلاد اليمن. يُخاطب الشاعر نفسه، إن أراد أن يعيش في الظلّ، ويُؤثر حياة الذلّ والتعاسة، فعليه ألّا يستعين ويتّخذ السلاح عدّة، لأن السيف عدّة من عزم على النضال لرفع الظلم عنه.

(٣) تستطيلن الرماح: تطلبها طويلة. تستجيدن: تبحث عن الجيد من السلاح. العتاق: الخيول الكريمة. المذاكي من الخيول: التي تمّت أسنانها. يُردف الشاعر أن على من آثر حياة الذلّ ألّا يستعمل الرماح الطويلة والسلاح الجيّد، ولا يختار لنفسه كرائم الخيول من العتاق البتة، كلّ ذلك لا طائل تحته في هذه الحالة.

(٤) الطوى: الجوع. تُتقى: تُجتنب وتُحذر. الضواري، الواحد ضارٍ: الوحش المفترس الحريص على الصيد. يرى الشاعر أن على من أراد أن يكون مرهوب الجانب أن يُكشر عن أنيابه ويجعلها حادّة قاطعة؛ فالأسد لا يسمّى أسداً إلّا إذا كان مثيراً للرعب ينتهز فرصة ليصطاد فريسته، ولا يتأتّى له ذلك إلّا إذا تعوّد المطاردة والفتك بطرائده وفرائسه.

حَبَبْتُكَ قَلْبِي قَبْلَ حُبِّكَ مَنْ نَأَى
وَقَدْ كَانَ غَدَّاراً فَكُنْ أَنْتَ وَافِيَا(١)

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْبَيْنَ يُشْكِيكَ بَعْدَهُ
فَلَسْتَ فُؤَادِي إِنْ رَأَيْتُكَ شَاكِيَا(٢)

فَإِنَّ دُمُوعَ الْعَيْنِ غُدْرٌ بِرَبِّهَا
إِذَا كُنَّ إِثْرَ الْغَادِرِينَ جَوَارِيَا(٣)

إِذَا الْجُودُ لَمْ يُرْزَقْ خَلَاصاً مِنَ الْأَذَى
فَلَا الْحَمْدُ مَكْسُوباً وَلَا الْمَالُ بَاقِيَا(٤)

وَلِلنَّفْسِ أَخْلَاقٌ تَدُلُّ عَلَى الْفَتَى
أَكَانَ سَخَاءً مَا أَتَى أَمْ تَسَاخِيَا(٥)

---

(١) نأى: بعد. يُخاطب الشاعر قلبه، فقد أخلص له الحبّ، والقلب لا يزال يتنازعه نازعان: نازع الحبّ والوفاء ونازع النقمة والحنق، لذا يطلب منه ألّا يضعف أمام مغريات الإخلاص، فليمكن إخلاص القلب لصاحبه دون سواه من غدر وتنكّر للوفاء.

(٢) البين: البعد. يُخاطب الشاعر قلبه، ويُعلن عزمه على البراءة منه إن هو لا يزال يشكو الفراق بدافع حبّه لسيف الدولة.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٦. يروى «الظاعنين» بدلاً من «الغادرين» ربّها: صاحبها. يُعقّب الشاعر أن من الوفاء أن تتبع الدموع صاحبها ولا تجري إثر غادر تنكّر لصاحبها وتنكر للوفاء له بما قدّم من أفضال في الإشادة بذكره والإعلان عن خصائصه وعلوّ شأنه.

(٤) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١ :٢٨٢/ ٢ :٢٢٤، مغني اللبيب لابن هشام وشرح شواهده، للسيوطي: ٢٤٠، شذور الذهب، لابن هشام: ١٩٨، التصريح بمضمون التوضيح، للشيخ خالد ١ :١٩٩. يرى الشاعر أن الكرم يجب أن يكون خالصاً لا تشوبه شائبة المن ممّا يشوّه معناه الأصيل ويُكدّر على المستفيد منه، ويجعله يُحسّ بالنقص، فيُثير فيه عدم الامتنان لصاحبه؛ ذلك أن المال سلعة نافدة لا تبقى بأيدي الناس، وما يبقى هو الشعور بالامتنان في حال لم يكدّر العطاء بالمنّ.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٦. التساخي: تكلّف السخاء. السخاء: الجود. يُعقّب الشاعر أن ما يصدر عن النفس من عمل يكشف طبيعة =

أَقِـلَّ ٱشْـتِـيَـاقـاً أَيُّـهَـا الْـقَـلْـبُ رُبَّـمَـا
رَأَيْـتُـكَ تُـصْـفِـي الْـوُدَّ مَـنْ لَـيْـسَ صَـافِـيَـا[(١)]
خُـلِـقْـتُ أَلُـوفـاً لَـوْ رَجَـعْـتُ إِلَـى الـصِّـبَـا
لَـفَـارَقْـتُ شَـيْـبِـي مُـوجَـعَ الْـقَـلْـبِ بَـاكِـيَـا[(٢)]
وَلٰـكِـنَّ بِـالْـفُـسْـطَـاطِ بَـحْـراً أَزَرْتُـهُ
حَـيَـاتِـي وَنُـصْـحِـي وَالْـهَـوَى وَالْـقَـوَافِـيَـا[(٣)]
وَجُـرْداً مَـدَدْنَـا بَـيْـنَ آذَانِـهَـا الْـقَـنَـا
فَـبِـتْـنَ خِـفَـافـاً يَـتَّـبِـعْـنَ الْـعَـوَالِـيَـا[(٤)]

= صاحبه، إن كان ما يفعله متأصلاً فيه، يصدر عن حبّ وقناعة أم أنه يصطنع ذلك ليُقال: إنه كريم، شجاع، عفوّ. . . يندّد الشاعر بسيف الدولة، فكرمه مصطنع لا ينبع من نفس كريمة طبعاً وتطبّعاً.

(١) يُخاطب الشاعر قلبه ليُخفّف من وطأة شوقه وغلوائه، فمن طبعه الإخلاص الصادق الذي يفيض به، ذلك أن من يُخلص له لم تصف سريرته، وإنما تنطوي على مكر ودهاء وخبث، فالأوجب التخلص من هذا الشوق الجامح.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٦. يروى «رحلت» بدلاً من «رجعت». يُعقّب الشاعر أن من طبيعته الإخلاص، حتى مفارقة الشيب، والشيب مكروه لما ينتج عنه من قرب الأجل وإعراض الغواني عن صاحبه، فإنه إذا غادره بكى لأجل فراقه لأنه وفيّ مخلص وإذا كان الشيب المذموم فبالتالي سيف الدولة مذموم أيضاً.

(٣) الفسطاط: مصر القديمة. النصح: الإخلاص. يتخلّص الشاعر إلى مدح كافور، إنه بحر يزخر بالمكارم والفضائل، فجوده خفّف عنه ألم فراق سيف الدولة، وهو يحمل معه الهدايا القيّمة: نصحه قوامه الرأي الحسن والإخلاص في السرّ والعلن، وحياته وما تحمل من معانٍ، وحبّه لشخصه، وشعره الذي يجعله نابهاً من خلال التغني بفضائله وإنجازاته العظيمة.

(٤) وردت الأبيات الخمسة المتتالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٦. الجُرد من الخيول: قصار الشعر. القنا: الرماح. العوالي، الواحدة عالية: صدر الرمح مما يلي السنان. يُردف الشاعر حديثه عن هداياه لكافور، إنها من الخيول الجرد الجميلة ذوات الشعور القصار، وقد مدّ فوق رؤوسها رماحاً مشرّعة، فإذا بها تعدو مسرعة متوجّهة تبعاً لاتجاه الرماح.

تَـمَـاشَـى بـأَيْـدٍ كُـلَّـمَـا وَافَـتِ الـصَّـفَـا
نَـقَـشْـنَ بِـهِ صَـدْرَ الْـبُـزَاةِ حَـوَافِـيَـا(١)

وَتَـنْـظُـرُ مِـنْ سُـودٍ صَـوَادِقَ فـي الـدُّجَـى
يَـرَيْـنَ بَـعِـيـدَاتِ الـشُّـخُـوصِ كَـمَـا هِـيَـا(٢)

وَتَـنْـصِـبُ لِـلْـجَـرْسِ الْـخَـفِـيِّ سَـوَامِـعـاً
يَـخَـلْـنَ مُـنَـاجَـاةَ الـضَّـمِـيـرِ تَـنَـادِيَـا(٣)

تُـجَـاذِبُ فُـرْسَـانَ الـصَّـبَـاحِ أَعِـنَّـةً
كَـأَنَّ عَـلَـى الأعْـنَـاقِ مِـنْـهَـا أَفَـاعِـيَـا(٤)

بِـعَـزْمٍ يَـسِـيـرُ الْـجِـسْـمُ فـي الـسَّـرْجِ رَاكِـبـاً
بِـهِ وَيَـسِـيـرُ الْـقَـلْـبُ فـي الْـجِـسْـمِ مَـاشِـيَـا(٥)

قَـوَاصِـدَ كَـافُـورٍ تَـوَارِكَ غَـيْـرِهِ
وَمَـنْ قَـصَـدَ الْـبَـحْـرَ اسْـتَـقَـلَّ الـسَّـوَاقِـيَـا(٦)

---

(١) الصفا: الصخر. البزاة، الواحد باز: من جوارح الطير. يصف الشاعر تلك الجياد، إنها قوية العدو، تحفر الصخور بحوافرها فتنقش عليها صور البزاة لشدّة وطئها.

(٢) يروى «ينظرن» بدلاً من «تنظر». يقصد بـ سود: العيون السود. الدجى، الواحدة دجية: عتمة الليل. يصف الشاعر تلك الجياد في مسيرها ليلاً، إنها حادّة النظر، فهي ترى أشباحاً سائرة في عتمة الليل فتتبيّنها وتتيقّن منها لحدّة بصرها.

(٣) الجرس: الصوت. السوامع: الآذان. يخلن: يحسبن. المناجاة: الحديث الخفي بين اثنين. التنادي: المناداة بين اثنين أو أكثر. يُتابع الشاعر وصف تلك الجياد، إنها حادّة السمع، تسمع الصوت الخفي الذي يدور بين المتحادثين، فإذا بها تنصب آذانها، فإذا أحسّت أدنى الأصوات تنبّهت، كأنها سمعت مناداة بعيدة.

(٤) يقصد بفرسان الصباح: المغيرين مع الفجر. الأعنة، الواحد عنان: سير اللجام، المقود. يُتابع الشاعر وصف تلك الخيول، إنَّها قوية جدًّا، تجاذب المغيرين في الصباح والناس يستسلمون لنوم هادئ. فإذا بها تشدّهم بعنف، فإذا بأعنتها كأنها حيّات تسعى لطولها.

(٥) يصف الشاعر عدو تلك الخيول بفرسانها؛ إنها قوية الانطلاق، فإذا بقلوبهم تنخلع من أبدانهم، والخيول تسبح نشوى في جريها.

(٦) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٧٩. ووردت الأبيات الثلاثة المتوالية =

فَـجَـاءَتْ بِـنَـا إِنْـسَـانَ عَـيْـنِ زَمَـانِـهِ
وَخَـلَّـتْ بَـيَـاضـاً خَـلْـفَـهَـا وَمَـآقِـيَـا[١]

نَـجُـوزُ عَـلَـيْـهَـا الْـمُـحْـسِـنِـيـنَ إِلَـى الَّـذِي
نَـرَى عِـنْـدَهُـمْ إِحْـسَـانَـهُ وَالأَيَـادِيَـا[٢]

فَـتًـى مَـا سَـرَيْـنَـا فِـي ظُـهُـورِ جُـدُودِنَـا
إِلَـى عَـصْـرِهِ إِلَّا نُـرَجِّـي الـتَّـلَاقِـيَـا[٣]

تَـرَفَّـعَ عَـنْ عُـونِ الْـمَـكَـارِمِ قَـدْرُهُ
فَـمَـا يَـفْـعَـلُ الْـفَـعْـلَاتِ إِلَّا عَـذَارِيَـا[٤]

= في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٦. يتخلّص الشاعر إلى مدح كافور، فالخيول تُسابق الريح، فلا تلتفت إلى الوراء كأنها هاربة مما يُرعبها تقصد الأمن والأمان في كنف كافور، إنه بحر يزخر بالنعم فيفيض كرماً، مخلّفة وراءها سواقي قد تنضب في بعض الحالات والأوقات، وبذلك ينعى الشاعر على سيف الدولة قصوره بالمكرمات.

(١) إنسان العين: البؤبؤ، مركز النظر. إنها ضربة حظّ، فقد وافت ظروف الشاعر ما يتمنّاه، فالتقى بإنسان عين زمانه، فبه الزمن يُبصر فوافته على عجل وتركت من لا قيمة له ولا يُنتفع به، إنه بياض ولكنه ميت لا فائدة منه.

(٢) يروى «نحوز» بدلاً من «نجوز». نحوز: نتجاوز. الأيادي: النعم، العطايا. يردف الشاعر أنه قد تجاوز على تلك الجياد أناساً منعمين يتمثّلون بسيف الدولة وعشيرته إلى من هو خير منهم، يُرفدهم بعطاياه. لقد جعل الحنق الشاعر يُخطئ بحق سيف الدولة وعشيرته وهم من أفاض عليه الخير بلا حساب، وهذا ما سوف يأسف له عندما يتكشّف حقيقة كافور في ما بعد.

(٣) السري: المشي ليلاً، والسير مطلقاً. الجدود، الواحد جَدّ، بفتح الجيم: الحظّ. نرجي: نأمل. يمدح الشاعر كافوراً بالفتوّة، والفتوّة تعني كمال الجود والشجاعة والنبل والخلق الكريم، ويرى الشاعر أن الأقدار قد ابتسمت له أخيراً، إنه على موعد مع الحظّ السعيد والأماني العِذاب بلقائه كافوراً.

(٤) العُون، الواحدة عوان: الثيّبات. العذارى، الواحدة عذراء: البكر التي لم تمسَّ. يرفع الشاعر من قدر ممدوحه، فهو رائد في عالم المكرمات ما يفعله منها لم يُسبق إليه، وهو من اختراعه في أبوابه التي افتتحها بجوده العميم.

يُـبِـيـدُ عَـدَاوَاتِ الْـبُـغَـاةِ بِـلُـطْـفِـهِ
فَـإنْ لَـمْ تَـبِـدْ مِـنْـهُـمْ أَبَـادَ الأَعَـادِيَـا[(١)]

أَبَـا الـمِـسْـكِ ذَا الْـوَجْـهُ الَّـذِي كُـنْـتُ تَـائِـقاً
إلَـيْـهِ وَذَا الـيَـوْمُ الَّـذِي كُـنْـتُ رَاجِـيَـا[(٢)]

لَـقِـيـتُ الـمَـرَوْرَى وَالـشَّـنَـاخِـيـبَ دُونَـهُ
وَجُـبْـتُ هَـجِـيـراً يَـتْـرُكُ الـمَـاءَ صَـادِيَـا[(٣)]

أَبَـا كُـلِّ طِـيـبٍ لَا أَبَـا الـمِـسْـكِ وَحْـدَهُ
وَكُـلَّ سَـحَـابٍ لَا أَخُـصُّ الْـغَـوَادِيَـا[(٤)]

---

(١) البغاة، الواحد باغ: المعتدي. يُنوّه الشاعر بحنكة كافور في معالجة أحقاد أعدائه، فهو يستلّ عداوتهم بحسن تلطّفه وسياسة اللين، وإن لم تُفلح لجأ إلى القضاء عليهم فأهلكهم بقطع شأفتهم، فكانوا من الهالكين.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٦. أبا المسك: كنية كافور من اختراع الشاعر. تاق: اشتاق. يُخاطب الشاعر كافوراً متودّداً إليه؛ فقد كنّاه بأبي المسك، ذلك الطيب النادر الثمين، ولقد ملأه الشوق الجارف للقاء كافور، فكان مع الحظّ على موعد، ولطالما تمنّى الشاعر هذه الفرصة التي لا تفوّت، فلينتهزها.

(٣) ورد البيت في المحتسب، لابن جني ٢: ٢٠١، أمالي ابن الشجري ١: ٨٤، ١٩٧. المرورى، الواحدة مروراة: الفلاة الشاسعة. الشناخيب، الواحد شنخوب: ناحية الجبل المشرفة، ورؤوسه. جبت: قطعت. الهجير: وقت انتصاف النهار في الصيف الحارّ. الصادي: العطشان. يصف الشاعر ما واجهه من صعوبات وما لاقاه من مشاق؛ فقد قطع صحراء ممتدّة الأطراف وتسلّق قمم الجبال وواجه حرّ الشمس في صحراء يُفتقد فيها إلى ظل في الهاجرة، حتى إنه يجعل الماء يعطش لعطشه.

(٤) الغوادي من السحب، الواحدة غادية: التي تأتي بمطر الصباح. يُخاطب الشاعر ممدوحه فيُكنّيه بأبي الطيوب وليس فقط أبا المسك، إنها المغالاة، فإذا به مجمع للطيوب تنتشر وتفوح في الأرجاء فتُمطر خيراً في كلّ وقت وليس فقط مع إطلالة الفجر الأولى.

يُــدِلُّ بِــمَــعْــنًــى وَاحِــدٍ كُــلَّ فَــاخِــرٍ
وَقَـدْ جَـمَـعَ الـرَّحْـمَـنُ فِـيـكَ الـمَـعَـانِـيَـا(١)

إذَا كَــسَــبَ الـنَّــاسُ الـمَـعَـالِـيَ بـالـنَّـدَى
فـإنَّـكَ تُـعْـطِـي فـي نَـدَاكَ الـمَـعَـالِـيَـا(٢)

وَغَــيْــرُ كَــثِــيــرٍ أَنْ يَــزُورَكَ رَاجِــلٌ
فَـيَـرْجِـعَ مَـلْـكـاً لِـلْـعِـرَاقَـيْـنِ وَالِـيَـا(٣)

فَـقَـدْ تَـهَـبُ الْـجَـيْـشَ الَّـذِي جَـاءَ غَـازِيـاً
لِـسَـائِـلِـكَ الْـفَـرْدِ الَّـذِي جَـاءَ عَـافِـيَـا(٤)

وَتَــحْــتَــقِــرُ الــدُّنْــيَــا احْــتِــقَــارَ مُــجَــرِّبٍ
يَــرَى كُــلَّ مَــا فِــيــهَــا وَحَــاشَــاكَ فَــانِــيَــا(٥)

---

(١) ومن الإفراط في المغالاة والكذب الصراح أن البشر يفتخر الواحد منهم بفضيلة واحدة على من سواه ويُدلّ بها عليهم وهذا شيء طبيعيّ، بينما جعل المتنبي من كافور مجمع سائر الفضائل قد خصّه الرحمن برحمته الواسعة دون سواه فمنحه كلّ شيء.

(٢) و (٣) الندى: الجود. يُخاطب الشاعر ممدوحه، بأن البشر يشترون المعالي بإنفاق الأموال في سبيل الحصول عليها، بينما يتبرّع كافور بالمعالي ذاتها، فهو لا يكتفي بإعطاء الأموال بل يُضيف إليها المراكز الرفيعة يتولّاها من يتقرّب إليه. وكأن الشاعر يلمّح إلى ما يدور في خلده ويسعى إليه، وهو يُمهّد إليه بذلك، ولم يُخف رجاءه طويلاً؛ فأقلّ ما يرجوه امرؤ قصد إليه تأدية خدمة بسيطة أن يرجع إلى بلاد العراق وقد أوكل إليه أمرها. في هذا يلمح المرء تسرّع الشاعر وعدم حسن سياسة منه أو استهانته بكافور، وما شجعه على ذلك تهالك الممدوح، فظنّ فيه خرقاً وغباءً، فصرّح بذلك.

(٤) العافي: قاصد المعروف. يمدح الشاعر في كافور الجود والشجاعة، جيش مجهّز تامّ العدد والعُدد يقوده ليأتي بالنصر، فإذا جاء طالب معروف يستمطره من فضله أوكل إليه أمر الجيش ليكون في ملاكه وتحت إمرته.

(٥) ورد البيت في خزانة الأدب، للبغدادي ٣: ٣٤٦. المجرِّب، بكسر الراء: الخبير =

وَمَا كُنْتَ مِمَّنْ أَدْرَكَ الْمُلْكَ بِالْمُنَى
وَلَكِنْ بِأَيَّامٍ أَشَبْنَ النَّوَاصِيَا[١]
عِدَاكَ تَرَاهَا فِي الْبِلَادِ مَسَاعِياً
وَأَنْتَ تَرَاهَا فِي السَّمَاءِ مَرَاقِيَا[٢]
لَبِسْتَ لَهَا كُدْرَ الْعَجَاجِ كَأَنَّمَا
تَرَى غَيْرَ صَافٍ أَنْ تَرَى الْجَوَّ صَافِيَا[٣]
وَقُدْتَ إِلَيْهَا كُلَّ أَجْرَدَ سَابِحٍ
يُؤَدِّيكَ غَضْبَاناً وَيَثْنِيكَ رَاضِيَا[٤]

= الذي عرك الحياة وعركته. ينوّه الشاعر بما يُسمى زهداً بما في هذا الوجود؛ فكافور لا يهتم بسفاسف الأمور؛ فالأموال والأطيان وكلّ ما تحت يديه لا يُعطيه التفاتة، ويتنازل عنه لمن طلبه طواعية، فبرغم معرفته وتجربته في الحياة، فقد تيقّن بأن كلّ شيء إلى زوال. ويتمنّى الشاعر البقاء لكافور.

(١) المنى، الواحدة منية. النواصي، الواحدة: ناصية: شعر مقدم الرأس. يقصد بالأيام: الحروب، فالعرب تسمّي الحروب بالأيام. ينوّه الشاعر بعزم كافور وسعيه في طلب المعالي؛ إنها لم تكن ضربة حظّ ولم تأته مصادفة، بل كانت نتيجة كدّ وتعب، فقد خاض الحروب وقاسى مرارتها حتى أتته المعالي ضارعة، فكانت أيامه ووقائعه الحربية تشيب النواصي.

(٢) المراقي، الواحدة مِرقاة: درج السلم. يخاطب الشاعر كافوراً بأن سعي أعدائه من الملوك في سبيل توسيع ممتلكاتهم باستيلائهم على أملاك الآخرين، أما كافور، فقصده من طلب المعالي أسمى وأعلى أهدافاً ليرقى في سلم المجد حتى يُدرك السماء فيُمسك بيديه نجومها وكواكبها.

(٣) العجاج، الواحدة عجاجة: الغبار، يُشيد الشاعر بحبّ كافور لإراقة الدماء وخوض الحروب، فهو دائماً في المعارك، وقد غطّاه الغبار لكثرة ما خاض من حروب، لذا فهو لا يرى إلّا رفيق الغبار، فإن لم يكن في معركة اغبرّت الدنيا في عينيه ولم يرتح لما هو فيه من دعة.

(٤) الأجرد من الخيول: قصير الشعر. السابح من الخيول: الذي يعدو كأنه يسبح. =

وَمُــخْــتَــرَطٍ مَــاضٍ يُــطِــيــعُــكَ آمِــراً
وَيَــعْـصِــي إذا اسْتَثْنَيْتَ لَـوْ صِـرْتَ نَـاهِـيَـا[١]
وَأَسْــمَــرَ ذِي عِــشْــرِيــنَ تَــرْضَــاهُ وَارِداً
وَيَـرْضَــاكَ فــي إيـرَادِهِ الـخـيْـلَ سَـاقِـيَـا[٢]
كَـتَـائِـبَ مَـا انْـفَـكَّـتْ تَـجُـوسُ عَـمَـائِـراً
مِـنَ الأَرْضِ قَـدْ جَـاسَـتْ إلَـيْـهَـا فَـيَـافِـيَـا[٣]
غَـزَوْتَ بِـهَـا دُورَ الـمُـلُـوكِ فَـبَـاشَـرَتْ
سَـنَـابِـكُـهَـا هَـامَـاتِـهِـمْ وَالْـمَـغَـانِـيَـا[٤]

= يُردف الشاعر مخاطباً كافوراً أنه يمتطي جواده الأجرد فيعدو به سريعاً، وقد دخل المعركة يحمله غضبه بعنف على أعدائه يُنكّل بهم ويقتّل منهم، ثم يعود من المعركة راضياً بما صنع مكلّلاً بالنصر على جواده ليرتاح من عناء القتال.

(١) مخترط ماضٍ: سيف مسلول. يُتابع وصف أفعال كافور في حروبه، لقد جرّد سيفه وراح يضرب به بإرادته، إنه مطواع يأتمر بأمره إذا بطش بأعدائه، ولو استثنى كافور منهم أحداً لما لبّى سيفه أمره بل مضى يتخلّص من كلّ عدوّ معاند.

(٢) يقصد بالأسمر: الرمح. ذي عشرين: أي ذي عشرين كعباً. يُخاطب الشاعر كافوراً بأنه يورد رمحه الطويل فرسان الأعداء فيرتوي من دمائهم، فيكون كلّ منهما راضياً عن صاحبه، لقيامه بواجبه نحو الآخر؛ الرمح اكتفى بما شرب من الدماء وكافور سرّه فعل رمحه.

(٣) الكتائب، الواحدة كتيبة: الفرقة من الجيش. تجوس: تتخلل الديار. العمائر، الواحدة عمارة: القبيلة العظيمة القائمة بذاتها. الفيافي: الفلوات. يُخاطب الشاعر كافوراً بأنه يرسل كتائبه لغزو أعدائه الموغلين في البعد فتقطع المفاوز وتُوغل في البلاد فتُعمل قتلاً وتخريباً وتقضي أربه من القبائل العظيمة وتعود له بالنصر.

(٤) السنابك، الواحد سنبك: حوافر الخيول. الهامات، الواحدة هامة: الرؤوس. المغاني، الواحد مغنى: البيت. يُتابع الشاعر وصف أعمال تلك الكتائب المنتصرة على الدوام، ها هي الآن تغزو الملوك فتقتلهم وتدوس الخيول رؤوسهم لكثرتهم زيادة في إذلالهم وتجوس ديارهم تعمل فيها تخريباً وتدميراً.

وَأَنْــتَ الَّــذي تَــغْــشَــى الْأَسِــنَّــةَ أَوَّلاً
وَتَــأْنَــفُ أَنْ تَــغْــشَــى الْأَسِــنَّــةَ ثَــانِــيَــا(١)

إِذَا الْـهِـنْـدُ سَـوَّتْ بَـيْـنَ سَـيْـفَـيْ كَـرِيـهَـةٍ
فَـسَـيْـفُـكَ فِـي كَـفٍّ تُـزِيـلُ الـتَّـسَـاوِيَـا(٢)

وَمِــنْ قَــوْلِ سَــامٍ لَــوْ رَآكَ لِــنَــسْــلِــهِ
فِـدًى ابْـنِ أَخِـي نَـسْـلِـي وَنَـفْـسِـي وَمَـالِـيَـا(٣)

مَــدًى بَــلَّــغَ الْأُسْــتَــاذَ أَقْــصَــاهُ رَبُّــهُ
وَنَـفْـسٌ لَـهُ لَـمْ تَـرْضَ إِلَّا الـتَّـنَـاهِـيَـا(٤)

دَعَـتْـهُ فَـلَـبَّـاهَـا إِلَـى الْـمَـجْـدِ وَالْـعُـلَـى
وَقَـدْ خَـالَـفَ الـنَّـاسُ الـنُّـفُـوسَ الـدَّوَاعِـيَـا(٥)

---

(١) تغشى: تأتي. الأسنّة، الواحد سنان: نصال الرماح. يأنف: يستكبر. يشيد الشاعر ببطولة ممدوحه، إنه الأول في كلّ مجال، هاهو الأول من يُبادر القتال فيتصدّى لرماح الأعداء أولاً يبطش بهم ويقتل فيهم، وعادته دائماً لا تتغيّر، لأنه يأنف أن يتأخر عن المقدمة.

(٢) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٨. الكريهة: الشدّة في الحرب. سيوف الهند أقوى السيوف، فلو أنها صنعت سيفين بمواصفات مشتركة واحدة، وكان من نصيب أحدهما كانت الغلبة لذلك السيف، فكفّه تزيل التساوي لأنها غالبة باستمرار.

(٣) ومن مغالاة الشاعر أن ساماً يُضحّي بنفسه وولده وماله في سبيل الحفاظ على كافور، وهو يفخر أنه ابن أخيه حام.

(٤) و (٥) المدى: الغاية. إنه توفيق إلهي ما وصل إليه الأستاذ كافور يُردفه عزم صادق وإرادة عالية تسعى دائماً إلى بلوغ أقصى ما يُمكن من العظمة، إنها هموم كافور في هذا الوجود؛ توافقت الأقدار المؤاتية مع رغبة جامحة وطموح لبلوغ أعلى قمم المجد، فتربّع مستريحاً لا يُنازعه مخلوق على مكانته، بينما غيره ممن يتمنّى ويرغب أن يحلّ محلّه لا تكفيه الإرادة أن يتمنّى فمتطلّبات المجد لا تتوفر =

فَـأَصْـبَـحَ فَـوْقَ الْـعَـالَـمِـيـنَ يَـرَوْنَـهُ
وَإِنْ كَـانَ يُـدْنِـيـهِ الـتَّـكَـرُّمُ نَـائِـيَـا[١]

أشخصاً لحت لي أم مخازيا

يهجو كافوراً وقد نظر إلى شقوق في رجليه:

[الطويل]

أُرِيـكَ الـرِّضَـا لَـوْ أَخْـفَـتِ الـنَّـفْـسُ خَـافِـيَـا
وَمَـا أَنَـا عَـنْ نَـفْـسِـي وَلَا عَـنْـكَ رَاضِـيَـا[٢]

أَمَـيْـنـاً وَإِخْـلَافـاً وَغَـدْراً وَخِـسَّـةً
وَجُـبْـنـاً أَشَـخْـصـاً لُـحْـتَ لِـي أَمْ مَـخَـازِيَـا[٣]

تَـظُـنُّ ابْـتِـسَـامَـاتِـي رَجَـاءً وَغِـبْـطَـةً
وَمَـا أَنَـا إِلَّا ضَـاحِـكٌ مِـنْ رَجَـائِـيَـا[٤]

= لديه، إنها الشجاعة والجود ونبل الأهداف التي يتمتّع بها كافور، فضلاً عن التوفيق الإلهي والحظّ الحسن.

(١) نائياً: بعيداً. لقد سبق كافور العالمين في مضمار المجد، فبعد عنهم أميالاً، ورغم ذلك فهو قريب إلى قلوبهم لدماثة أخلاقه ورقّته وحسن معاشرته لهم؛ إنها الأخلاق السامية والتواضع الجمّ.

(٢) الخافي: المستتر. إنه المقت والغضب والإحساس بالندم، فالشاعر يتظاهر بأنه راضٍ ممّا يُبديه كافور من كرم واحترام للمتنبي، وهو في الحقيقة بركان حقد يتآكل في أعماق نفسه، عن كافور وعن نفسه، وقد تبيّن له فداحة خطئه. والمرء يعتقد أن الشاعر لا يجرؤ على هجاء كافور في حضرته، وقد تكون القصيدة قد أُلّفت في مصر، ولكنها بقيت طيّ الكتمان حتى خرج من تلك الديار فأذاعها.

(٣) المين: الكذب. الإخلاف: إخلاف الوعد. المخازي، الواحدة مخزية: الشنيع من الأفعال القبيحة. جمع الشاعر كلّ رذيلة في كافور، كذب، وإخلاف وعود، وغدر، وخسّة في التصرّف، وجبن، حتى لقد احتار الشاعر ماذا يرى أمامه، هل يرى إنساناً أم يرى نقائص بشرية تجسّدت بمخلوق بشري؟ أين الإشادة بكافور؟ حتى رفعه فوق سائر البشر.

(٤) الغبطة: الفرح والسرور. للابتسامات ترجمات نفسية متعدّدة من بينها السخرية =

وَتُعْجِبُنِي رِجْلَاكَ فِي النَّعْلِ إنَّنِي
رَأَيْتُكَ ذَا نَعْلٍ إذَا كُنْتَ حَافِيَا[١]
وَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَلَوْنُكَ أَسْوَدٌ
مِنَ الجَهْلِ أَمْ قَدْ صَارَ أَبْيَضَ صَافِيَا[٢]
وَيُذْكِرُنِي تَخْيِيطُ كَعْبِكَ شَقَّهُ
وَمَشْيَكَ فِي ثَوْبٍ مِنَ الزَّيْتِ عَارِيَا[٣]
وَلَوْلَا فُضُولُ النَّاسِ جِئْتُكَ مَادِحاً
بِمَا كُنْتُ فِي سِرِّي بِهِ لَكَ هَاجِيَا[٤]
فَأَصْبَحْتَ مَسْرُوراً بِمَا أَنَا مُنْشِدٌ
وَإِنْ كَانَ بِالْإِنْشَادِ هَجْوُكَ غَالِيَا[٥]

= والخداع والأسف، والشاعر يعمد إلى نوع من تلك الأنواع التي تنمّ عن زيف المصانعة والأسف والندم لإقدامه على المثول بين يدي كافور على أمل أن ينال منه ما يبغي.

(١) يسخر الشاعر من كافور، يُبهجه أن يرى منظراً مثيراً للضحك، زنجيّ ينتعل نعلاً، وكأنه لم ينتعل حذاءً، فرجلاه قد تعوّدتا أن تكونا حافيتين، وهذا يتناسب مع طبيعة من اعتاد الحفي والمشي بلا نعال.

(٢) يعمد الشاعر إلى الطعن بكبرياء كافور، مركزاً على عملية وهمية تتمحور حول التجاهل، تجاهل الحقيقة المؤلفة لأصحابها، هل هو قد نسي لونه الأسود؟ أم أنه يتوهّم أن البياض حلّ محل سواد بشرته والشيء بالشيء يُذكر، فانتعال النعل لم يعتد عليه، فبدا فيه مضحكاً.

(٣) يرسم الشاعر صورة تنمّ عن ازدراء واحتقار وسخرية لكافور، لقد نظر الشاعر إلى مهجوّه وهو على تلك الصورة، فإذا بخياله يجمع إلى ماضي مهجوّه المعتم؛ لقد كان عبداً يُشترى ويُلاقي أنواعاً من المهانة والذلّ بحيث يعمل عند سيّده فيبيع له تجارته من الزيوت، ولذا فقد اصطبغ جلده مع مرور الزمن وتقادمه بذلك اللون.

(٤) و (٥) الفضول: تعرّض المرء لما لا يقصده. ينعى الشاعر على كافور جهله، ومع =

فَـإنْ كُـنْـتَ لَا خَـيْـراً أَفَـدْتَ فَـإِنَّـنِـي
أَفَـدْتُ بِـلَـحْـظِـي مِـشْـفَـرَيْـكَ الـمَـلَاهِـيَـا[١]
وَمِـثْـلُـكَ يُـؤْتَـى مِـنْ بِـلَادٍ بَـعِـيـدَةٍ
لِـيُـضْـحِـكَ رَبَّـاتِ الـحِـدَادِ الْـبَـوَاكِـيَـا[٢]

= ذلك فقد مدحه لعلمه أن في حاشيته من يفهم مقصده، وإلّا لعمد إلى هجائه وهو بين يديه، دونما إخفاء لمشاعره نحوه، وهو في كلّ حال يسمع ما يسمعه فيفرح به لأن شاعراً كبيراً يُنشده حتى لو كان ذلك هجاءً، فحتى الهجاء لا يستحقّه لأنه دون الهجاء.

(١) لحظي: رؤيتي. يُخاطب الشاعر مهجوّه بأنه لم يستفد منه بشيء البتة، سوى أنه سُرّ لرؤية مشفريه كأنهما نزعا من جمل وركبا في وجه، فبدا صورة مسخية مضحكة، وهذا ما أدخل شيئاً من العزاء على قلب الشاعر وأضحكه.

(٢) يروى «ربات الحجال» بدلاً من «ربات الحداد». ربات الحداد: الثاكلات اللواتي فقدن أعزّة عليهن فلبسن أردية الحداد السوداء. يخاطب الشاعر مهجوّه أنه مهزأة مضحكة مسلية، يُؤتى بها من بلاد بعيدة لندرته حتى يُدخل على قلوب الثاكلات اللواتي فقدن أعزّة عليهن البهجة والفرحة كونه هزأة مثيرة للضحك.



فهرس المحتويات